الأمد الأقصى

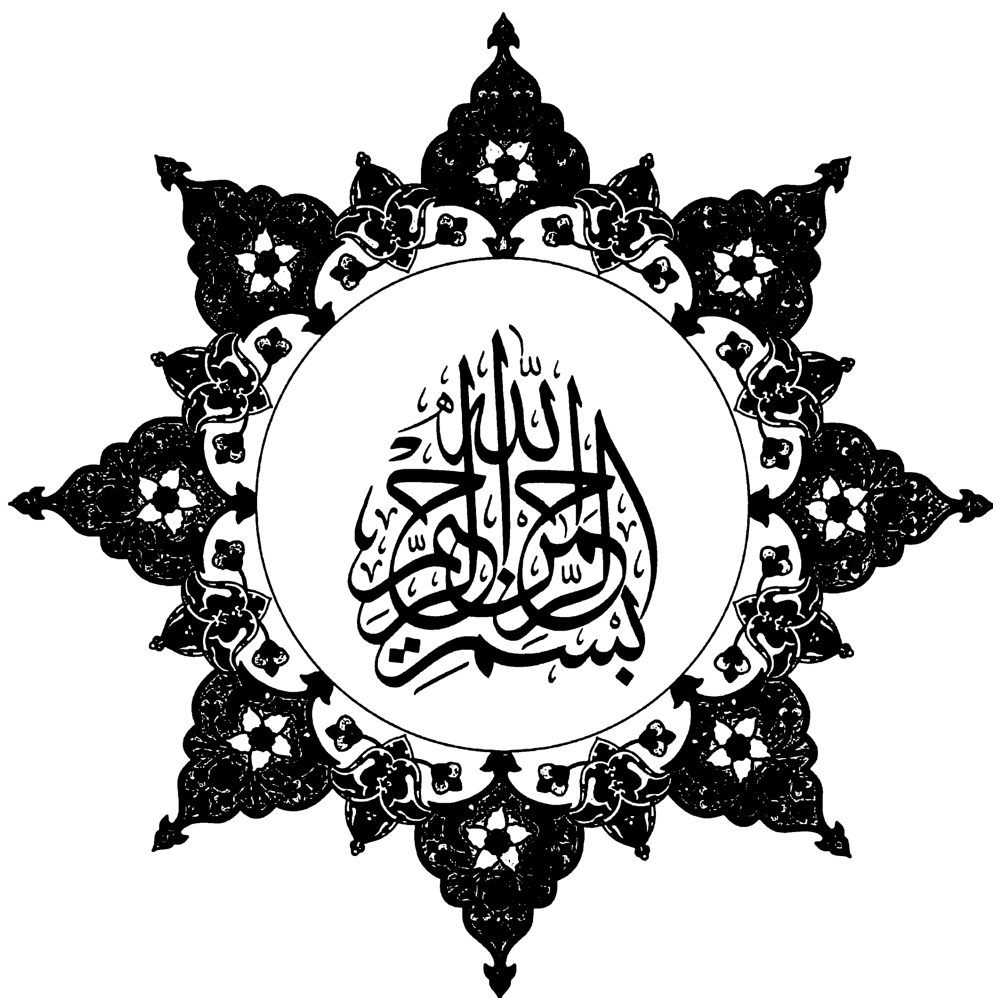
تأليف
شيخ الحنفية
القاضي أبي زيد عبيد الله بن عمر
الدبوسي الماتريدي
(ت ٤٣٠ هـ)



شرف بخدمته
أنس محمد عدنان الشرفاوي

دار التقوى
دمشق الشام


الأمد الأقصى


بسم الله الرحمن الرحيم

الأمد الأقصى

تأليف

شيخ الحنفية

القاضي أبي زيد عبيد الله بن عمر

الدبوسي الماتريدي

(ت ٤٣٠ هـ)

شرف بخدمته

أنس محمد عدنان الشرفاوي

دار التقوى

دمشق الشام

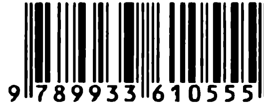
بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : الأمد الأقصى

المؤلف : أبو زيد الدبوسي

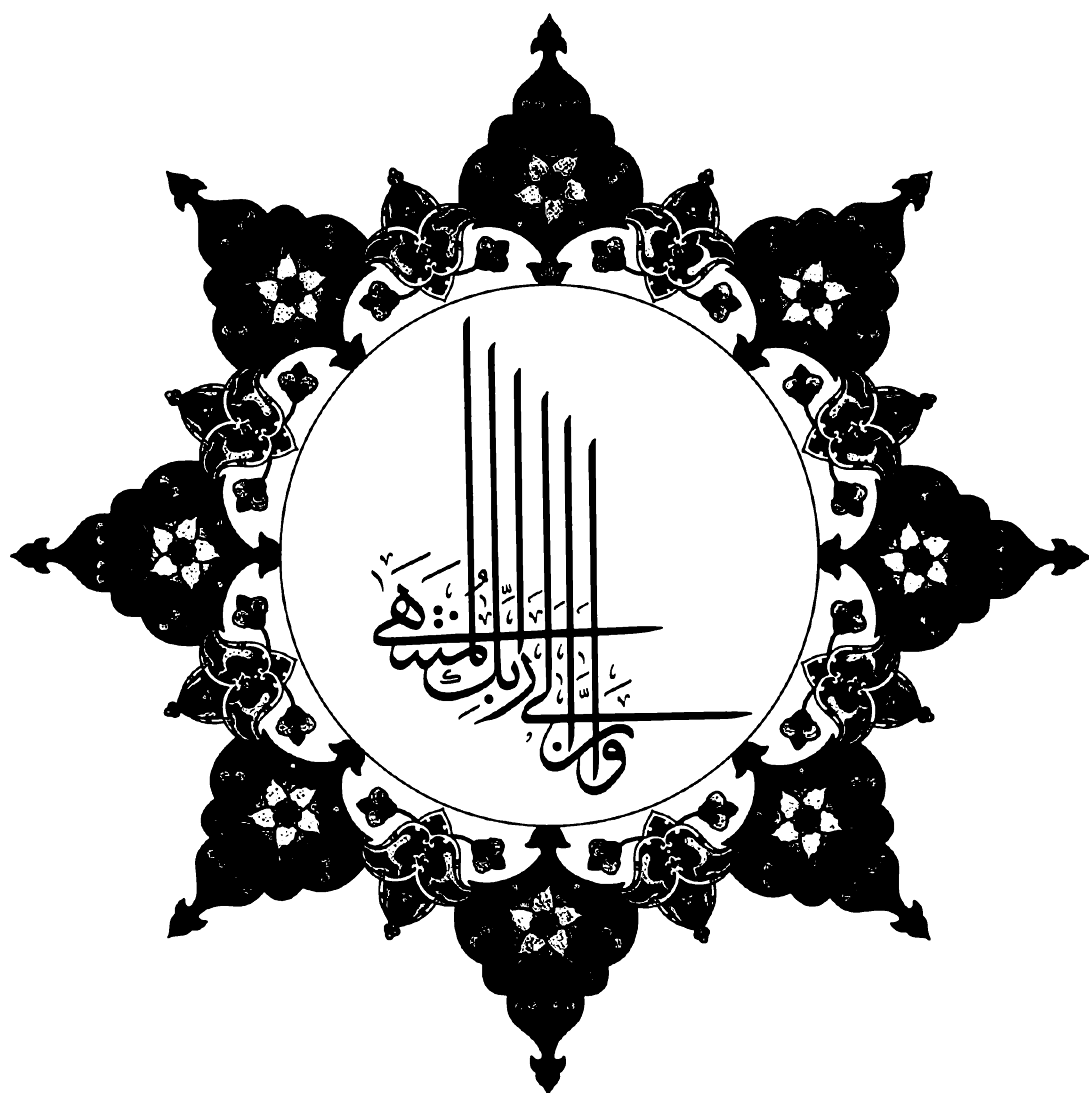
الطبعة الأولى : ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

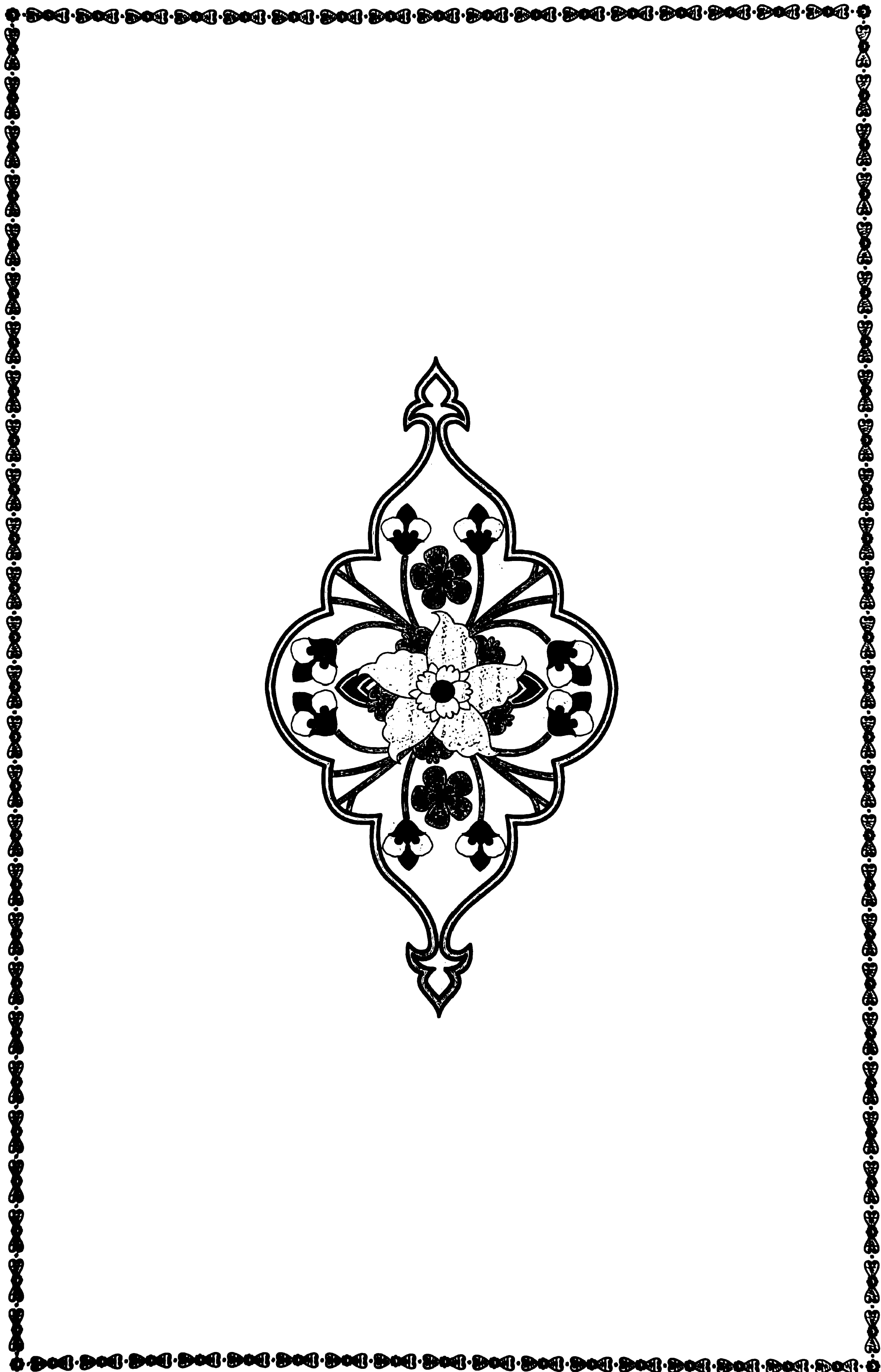
الرقم الدولي : 978-9933-610-55-5


9 789933 610555

دار التقوى
دمشق الشام

هاتف : ٢٢١٥٤٦٤ ١١ ٩٦٣+ / ص . ب : ٣٠٧٢١
جوال : ٩٣٣٢٠٦٠٠٧ ٩٦٣+ / ٩٤١٩٤٤٣٨٧ ٩٦٣+
daraltaqwa.pu@gmail.com


وأن إلى ربك المنتهى



بين يدي الكتاب

تباركَ الذي أنارَ العوالمَ بنورِهِ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ أتمِّ مجلىً لظهورِهِ ، مَنْ دنا مِنَ الخَلْقِ هادياً فتدلَّىٰ ، ولانَ برفْقٍ فكان منهم قابَ قوسينِ أو أدنىٰ ، صلَّىٰ عليه ربُّهُ صلاةً هي الغايةُ والأمدُ الأقصىٰ ، وسلَّم عليه سلاماً لا حدَّ له ولا منتهىٰ .

وبعـد :

فما مِنْ عبدٍ إلا يَطِيفُ به ذُباب الشيطان ؛ يُضجِرُهُ خوفاً من اتِّباعِ الحق ، ولا سيما إن رآه مِنْ أهل الصدق ، فإنْ هاجَ عليك فادفعْهُ عنك بمِذَبَّةِ العلم فهي خيرُ مِذَبَّة ، وإلا فعن قريبٍ تتركُ الحقَّ مَلالاً ، فاحذرْ أن تجعلَ للشيطانِ عليك سبيلاً .

واعلم : أن العبدَ ما صحبَ رفيقينِ خيراً من الصدق والعلم ؛ فبالصدقِ يُعطى الحقَّ ويكونُ من أهلِهِ وَهْباً ، وبالعلم يحوشُهُ ثم يصونُهُ عن آفةِ الشكِّ كَسْباً ، وأيُّ مَعْلَمٍ للنجاةِ فوقَ هـٰذين ؟! وهل فوقَ الصِّدِّيقيَّة رتبةٌ تُرتجىٰ ، وبعدَ العلمِ درجةٌ تُبتغىٰ ؟!

وما إخالُكَ تحسبُ أن للصدقِ نهايةً أنت بالغُها ، أو أن للعلم حدّاً لا تتعدَّاه ، فتكونَ غافلاً عن إشارة : ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ٥٨] ، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم : ٧٦] ، وعن دعاء إمامِ الأنبياء والأولياء

الذي أُمِرَ به : ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، **بل إن للصدق والعلمِ طبعاً كطبعِ الجنة** ؛ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] ؛ ولهٰذا كانَتْ مقرّاً لهما ، ومستقرّاً لأهلهما .

فاحرصْ علىٰ أن تجمعَ بينَهما عمرَك كلَّهُ ؛ فتلكَ علامةُ الولاية العُظمىٰ ، وما الولايةُ العُظْمىٰ ؟ هل هي إلا تمامُ الطمأنينةِ لمختار الحقِّ في أفعالِهِ ، وكمالُ التسليم لأقضيتِهِ وأقدارِهِ ؟! **وأيُّ مَعْلَمٍ للعرفانِ فوق هـٰذين ؟! وهل بعدَ الطمأنينةِ لقلب العبدِ من سبيل ، وبعد الرضا بأقسامِ الحقِّ من تعويل ؟!**

وما أحسبُكَ تظنُّ أن معرفةَ الله ومحبَّتَهُ لا تُعادَلُ بالطمأنينة والتسليم ، فتكونَ جاهلاً بالملازمة بين المتلازمين ؛ ألم تعلمْ أن الثمرةَ علامةُ الشجرة ؛ إذْ لولاها ما كانت ؟! فمَنْ أعطيَ الثمرة فقد أُعطيَ الشجرة ، وهل رأيتَ عارفاً غيرَ راضٍ ، أو محبّاً غيرَ مستسلمٍ لحبيبِهِ ؟! **فإن بين الرضا والتسليمِ أُخُوَّةً لا تفكُّها البلايا ، ولا تغريها الرِّشا والهدايا** ، فصاحبُهُما بالرزايا والعطايا غيرُ آبه ، فهنيئاً لمَنِ استقرَّا في إهابه .

فإنْ أنت صَدَقْتَ وعلمْت ، ورضيتَ واستسلَمْت . . فقد تعرَّضْتَ لنفحاتِ الله النديَّة ، تسوقُها رياحُ العطيَّةِ الأزليَّة ، ما لهبوبِها مانعٌ بعد صدْقِ الوعد ، وما عن تنسُّمِها حاجزٌ بعد نَجْزِ القصْد ، فأبشرْ بخيرِ يومٍ طلعَتْ عليكَ شمسُهُ ، لا غروبَ لشمسِهِ ، ولا انقضاءَ لأُنْسِهِ ، وتمثَّلْ عمَّا قريبٍ يومَ لقاءٍ ليسَ كمثلِهِ لقاء ؛ كنتَ تلهجُ به حالماً ، وأنت اليومَ تفوزُ به سالماً غانماً .

ألا أدلُّكَ علىٰ ما هو خيرٌ لك مِنْ ذلك كلِّهِ دونما تعبٍ أو عنا ، مع اغتنامٍ لجميعِ الآمالِ والمُنىٰ ؟ سأنبيكَ بتأويلِهِ وما أراكَ مِنْ مثلي تسمع ، وما إخالُكَ

إن دلَلْتُكَ علىٰ مربَعِهِ في مرتَعِهِ ترتع .

ألا إني أوصي نفسي وإياكَ بوصيَّتين ، في الجمع بينَهما تمامُ الخير ، وما في الاقتصارِ علىٰ إحداهما من ضَير ؛ لأن ملتزمَ إحداهما مستجلبٌ للأخرىٰ :

فالأولىٰ : أن تدخُلَ بيتاً دعائمُ بُنيانِهِ أركانُ الإيمان والإسلام ، قد تزيَّنَ بقناديلِ المعرفة ، وتطيَّبَ بعَرْفِ المحبَّة ، وتزركشَ بصنوفِ الطاعة ؛ من أرائك الذِّكْر ، وزرابيِّ الفكر ، خَوَلُهُ وخَدَمُهُ من حُور الصيام ، وولْدان القيام ، وجدرانُهُ من فولاذِ اليقين ، وأبوابُهُ من زُمرُّذِ العلم ، لا تُفتحُ إلا لما يَنفع ، وتُغلقُ دونَ مَنْ جحدَ وابتدع ، ليسَ للشيطان فيه ثُلْمةٌ ينحاشُ فيها ، ولا خَرْقٌ ينسلُّ منه ، ولولا بلاءُ المحنة والطمعُ في الغَواية ما دامت الروحُ في البَدَن . . لاستيئسَ وما هو بيائسٍ حتى الغرغرةِ ولُبْسِ الكَفَن .

أراكَ ترفعُ عقيرَتَكَ قائلاً : دُلَّني علىٰ ذاك البيتِ ولا تكُ باخِلاً ، ولن تراني بعدُ عن سواه سائلاً .

يا مسكين ؛ أنسيتَ قالَتي إذْ أنبأْتُكَ عن إعراضِك ، وأنك لزيمُ أهوائك وأغراضِك ؟! فما فائدةُ قولٍ لا يصحبُهُ عمل ؟! وكيفَ يسعىٰ مَنْ هو قعيدٌ أَشَلُّ ؟!

ولعلَّك تقول : أتريدُ أن تكونَ ممَّنْ كتمَ علماً ؛ ليأتيَ يومَ القيامة بالنارِ مُلْجماً ؟!

فأقول : هـٰذا وصفُ المسؤول إن صدقَ السائل ، أفتراكَ متَّبعٌ وصيَّتي أم أنت عنها مائل ؟ فارضَ مِنَ العبارة بتلويحِ الإشارة ، ويكفيكَ من القلادةِ

ما أحاط بالعنق ، وما عساكَ تفعلُ بعلمٍ تتخذُهُ وراءَكَ ظهرياً ، أو يكونُ بعدَ سماعِهِ نسياً منسيّاً ؟!

فإنِ استنصحتَني فإني لك ناصحٌ بما نصحني الأكابر ، وكنتُ من قولِهم علىٰ وَجَلٍ غيرَ أني كنتُ أغامر ، إلىٰ أنْ رأيتُ خيرَ نُصْحِهم ناجزاً وعدُهُ ، متحقِّقاً رِفْدُهُ .

أَمَا إنَّ هـٰذا البيتَ قد عزَّ وجودُهُ ، وخفيَتْ حدودُهُ ، ولـٰكنَّهُ لا يمتنعُ إلا عن أعينِ المُتكبِّرين ، وتنطمسُ عن رؤيتِهِ أبصارُ المتجبِّرين ، أمَّا مَنْ جاءَ إليه يسعىٰ وهو يخشىٰ . . فحريٌّ بإبصارِهِ ، وجديرٌ بنوالِهِ ، وما أرىٰ أني بالغٌ ذاك وإيَّاكَ إلا بتوفيقِ ربِّيَ الكريم المجيب ؛ فعليه توكَّلتُ وإليه أُنيب .

ألا إن هـٰذا البيتَ هو قلبُ العارفِ بالله(١) ، العبدِ الذليلِ الخاضعِ لمولاه ، لو حلَّ هـٰذا القلبُ في جهنَّمَ لصيَّرها جنَّةً ونعيماً ، ولقلبَها سروراً مقيماً ، فهنيئاً لمَنْ أقامَ تحت رِواقِهِ ، في ظلٍّ ظليلٍ تحت أغصانِهِ وأوراقه ، فإن حظيتَ بالعارف فللدخولِ إلىٰ قلبِهِ لا تستأمرْ ، وإن لم يأسركَ فله استأسرْ .

ما لكَ لا حسَّ لك ولا صوت ، وكأنك تُساقُ إلى الموت ؟! أتعجبُ من دخولِ بيتٍ من لحم ودم ، وتزعمُ أن بيتاً لا يمشي علىٰ قدم ؟!

بلىٰ ؛ قد فُتحَتِ السماوات لنبيِّ الله حِزْقيلَ حتىٰ نظر إلى العرش ، فقال مناجياً المولى العظيمَ : سبحانكَ ما أعظمَكَ يا ربِّ ! فقال الله تبارك وتعالىٰ له : تعجبُ من هـٰذا ؟! إن السماواتِ والأرض لم تطقْ أن تحملَني ، وضِقْنَ

---

(١) إشارةٌ إلىٰ محبّة الأولياء والصالحين ومصاحبتِهم ، وملازمةِ أحوالِهم ، والفهم عن إشاراتهم ، فهُم من عظُمَتْ عليهم المِنَّة ، بالتلبُّسِ بالسنَّة ، لا عدمْنا شخصَهم ، ولا حُرِمْنا بركتَهم .

من أن تسعَني ، وقد وسعَني قلبُ المؤمن الوادعِ اللين[١] .

إنه بيتٌ علىٰ خلاف البيوت ، لا يُدخلُ بالأبدان ، ولا يُقاس بالذُّرْعان ، بل بالمجانسةِ والصفة ، علىٰ قدر المعرفة ؛ فادخلْهُ إن شئتَ متحبِّباً ، أو إن شئتَ متأدِّباً .

فإن عَمِيتَ أو تعامَيْتَ ، فعرفْتَ ثم أبيتَ[٢] . . **فإليك الوصيةَ الثانية** ؛ فهي مَحَجَّةٌ سالكُها ضامنٌ للنجاة في الدارين ، ومردودٌ إلىٰ سبيلِ السعادةِ بل السعادتين ؛ وهي ترجعُ لو تأمَّلْتَ إلى أعظمِ بيت ؛ إن أنت تفكَّرْتَ ووعيت ؛ وهي **لزومُ الصلاة والسلامِ علىٰ سيد الكونين** ، وإمام الهدىٰ للفريقين ؛ **محمدٍ مفتاحِ باب رحمة الله العُظمىٰ** ؛ فهي الكفيلةُ بانتشالِكَ من حَمْأةِ كِبْرِكَ وعنادِك ، وجمعِ أشلائِكَ التي انتثرَتْ من آفاتِكَ وأهوائك ، فالذِّلَّةُ لحضرتِهِ عزٌّ ضرعُهُ حافل ، والتمسُّكُ بسنَّتِهِ عارضٌ غيمُهُ هاطل ، **بل هي أصلُ السعادات ، الجامعةُ لأمَّات الخيرات** ، فاحذرْ أن تستقلَّ درَّها مهما كثُرَ المشارك ، ولا تبخلْ علىٰ نفسِكَ بنورِها وإن قلَّ المساعد ؛ **فهي واللهِ الأمدُ الأقصىٰ لمنِ**

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٤٢٣) عن وهب بن منبه ، وسَعةُ القلب إنما هي لمعرفة الله تبارك وتعالىٰ كما لا يخفىٰ علىٰ موفَّق .

(٢) إذ الكلُّ يشكو غيابَ المرشد ، وعزَّةَ المنجد ، **والحقُّ** : أنه أندرُ من بيض الأَنُوق ، وأبعدُ من العَيُّوق ، وكم من شيخٍ تحبُّهُ ، ولـٰكنَّكَ لا تستطبُّهُ ، وقد أوصى العارفون عند هـٰذه الظلمات بلزوم أنوارِ الصلاة والسلام على الحبيب الأعظم صلَّى الله عليه وسلَّم ، وقد سمع العلامةُ الشنواني من شيخه الإمام العدويِّ المالكي من بعض مشايخه المغاربة : أن من لم يجدْ شخصاً موصِلاً له فليصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف في كلِّ يوم مع الملازمة ، فإنه يصل ، ولا عذرَ بعدَ البيان ، وانظر « حاشية الأمير علىٰ إتحاف المريد » (٢/ ٣٦٧) ، و« شرح صغرى الصغرىٰ » (ص ١١٣) .

استقصىٰ ، والعروةُ الوثقىٰ لِمَنِ اكتفىٰ واستغنىٰ .

فهـٰذه تحميسةٌ للطواف ، حول كعبةِ الأشراف ، وتغريدةُ هَزارٍ ، في رياضِ العَرار ، ولو عُدْنا لقاضينا أبي زيد فسنرىٰ أن **الأمد الأقصىٰ** للمؤمنِ هو لقاءُ الحقِّ تعالىٰ في مملكةِ الجنة الباقية ، وللجاحدِ هو الدنيا الهالكةُ الفانية ، ولعلنا نرىٰ تبصرةً لمسالكِ النفس والروح لا تُلفىٰ في كُتُبِ التزكية عادة ، ولغةً غير مألوفةٍ في هـٰذا الجانب ؛ فنحن مع إمامٍ أصولي سنحَتْ لقلمه سانحةٌ لخطِّ كلامٍ في أسرارِ النفوس ومعاريج الأرواح ، فهو يدلُّنا علىٰ خواطرَ في خبايانا لا نسمعُ حديثَها ، وعلىٰ وارداتٍ تردُ مضمراتِ قلوبنا لا نشعرُ بدبيبِها ؛ فقد أوتيَ سمعَ فرس وعينَ باز ، وسترىٰ عند الحديث عن كتابه « الأمد » ما يثلجُ الصدر[1] .

وقد طابَ لـ (*دار التقوىٰ*) إحياءُ هـٰذا السِّفْرِ العجيب لهـٰذا الإمام العظيم الذي ما عرفَ قدرَهُ إلا ذوو العلمِ والبصيرة ، فهو أصوليٌّ في كلِّ ما كتب ، حتىٰ في الأخلاق ومعالي الرُّتب ، وله نمطٌ من الكلامِ لن يُليِّنَ صعبَهُ ويُدْنيَ قطوفَهُ إلا العنايةُ بآثارِهِ ، فلتقعْ خدمةٌ لها ولو علىٰ أقدارِنا نحن معاشرَ الضعفاء ، ولعلَّنا قد أصبنا من هـٰذا الضغث عُوداً ، أعادَ الله علينا من ألطافه ومِنَنِهِ ، وحبانا من أُعطياته وتُحفِهِ ؛ إنه جلَّ جلالُهُ الكريمُ الوهَّاب .



(١) انظر (ص٤٦) .

ترجمة القاضي أبي زيد الدبوسي

اسمه ونسبه

شيخُ الحنفية وإمامُ أهل الرأْيِ في إبَّانه ، وواضعُ علمِ الخلاف ومُشْهِرُهُ بين فقهاء أهلِ زمانه ، الفقيهُ الأصوليُّ النظَّار ، والمتكلِّمُ علىٰ طريقةِ أهل الاعتبار ، الزاهدُ بحقٍّ ، والمتوكِّلُ بصدق ؛ الإمامُ القاضي أبو زيدٍ عبيدُ الله ـ أو عبدُ الله(١) ـ بنُ عمرَ بنِ عيسى الدَّبُوسيُّ السمرقنديُّ البخاري الماتريديُّ الحنفي .

أمَّا نسبتُهُ إلى الماتريدية أصولاً ، وإلى الحنفية فروعاً : فممَّا لا نزاعَ فيه(٢) ، وقد قال الحافظ السمعانيُّ : (كان من كبار فقهاءِ الحنفية ممَّن يُضربُ به المثلُ)(٣) ، وله اختياراتٌ في أصول الكلام وخلافاتٌ معتبرة عندهم تجعلُهُ من أئمَّةِ أهل النظر ، فلا غرابةَ أن ترىٰ له موافقاتٍ للمدرسة

---

(١) وجاءت تسميته بـ(عبد الله) في أكثر مخطوطات الكتاب الذي بين أيدينا ، علىٰ أن اسم (عبيد الله) وردَ في نسخة قديمة ومتقنة من هـٰذه المخطوطات ، وكتب الترجمات تارة وتارة ، فالأمرُ محتمل ، والخطبُ يسير ، وانظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » لعبد الله بن جمعان الغامدي (ص١١٣) ؛ فقد أورد وجوهاً ترجِّح التسمية بـ(عبيد الله) علىٰ (عبد الله) .

(٢) وتعريفه للعتق (ص٩٦) ممَّا دار في كتب الفقه الحنفي ؛ حيث قال : (العتق في اللغة : عبارةٌ عن قوَّة للذات يأمنُ معها العتيقُ ، عن التملُّك بأسباب مِلْكٍ عُرِفَتْ للرقيق ؛ من قولك : عَتَقَ الطيرُ ؛ إذا طار عن وَكْره ، فأمنَ أَخْذَ يد الصائد واستيلاءَهُ عليه بقهره) ، وبلدُ النشأة والوفاة وما بينهما هو مربعُ الحنفية ومغناها .

(٣) نقله العلامة القرشي في « الجواهر المضية » (٢/ ٢٥٢) .

الأشعرية[1] ؛ **إذْ لا تقليدَ في أصول الاعتقاد عند أهل الحقِّ** ، وإنما يحصلُ باللسان لغافلٍ عن معنى الاعتقاد ؛ إذ محالٌ اعتقادُ صحَّة قولينِ متنافرينِ ، **وأما في فروعِهِ فنظرٌ يحتمل الاختلاف** .

ومن مظاهر ذلك أيضاً : أن ترىٰ له أقوالاً مازَ بها الحنفيةُ مَنْ سواهم ؛ **فمن ذلك** : إثبات الإرجاء السنِّيِّ ، وسيمرُّ معك قوله : (**وعلامةُ الإرجاءِ المذمومِ** : رجاءُ الإصابةِ دونَ المنهلِ المشروعِ)[2] ، فثَّمَ إرجاءٌ محمودٌ ؛ وهو التوقُّفُ عن تعالم ما لم تظهرْ فيه حجَّة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ومن ذلك : القولُ بجواز الزلَّة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والماتريدية كعامة أهل السنة والجماعة في منع المعصية في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، **لـٰكن مع تجويز الزلة** ؛ وهي عندهم : **الوقوع في صورة المعصية من غير قصد** ، **بل بسبب الخطأ أو النسيان** ، **فلا يجوز إطلاق اسم العصيان في حقِّهم عليهم السلام في غير ما ورد في القرآن وصحيح السنَّة** ، وللمَلِكِ أن يُسمِّيَ فعل عبده بما شاء ، وكذلك اسم العقاب ، والمختارُ هو اسم العتاب .

وما ورد في حقِّ الأنبياء عليهم السلام ممَّا ظاهره نسبة المخالفة لهم . . راجعٌ إلىٰ **ترك الأفضل** ، وهـٰذا مذهب بعض أئمة سمرقند من الماتريدية ؛

---

(١) كاختياره أنه تعالىٰ خالقٌ علىٰ معنىٰ صلاحية قدرته تعالىٰ لذلك ، لا أن فعلَهُ تعالىٰ أزليٌّ باعتبار صفة التكوين عند الماتريدية ، وبالجملة : عامةُ البخارية أقوالُهم تكادُ تكون متطابقةً مع ما قرَّرَهُ الأشعرية ، ويا حُسْنَ ذلك !

(٢) انظر (ص٣٦٦) .

حيث قالوا : (زلَّاتهم وعصيانهم : تركُ الأفضل)[١] ، أو ما يرجع كما قلنا إلى النسيان والخطأ من غير عمد[٢] .

وسيمرُّ معك قولُهُ : (علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ في الجنَّةِ مكفياً غنياً ، يأكلُ ما يشاءُ رَغَداً هَنيّاً ، وإنَّما ابتُليَ بالعملِ بعدَما عصىٰ ربَّهُ وزَلَّ)[٣] .

وأمَّا نسبتُهُ (الدَّبُوسي) : فنسبةٌ إلىٰ قريةٍ من قرىٰ سمرقندَ يقال لها : (دَبُوسة) بتخفيف الباء قولاً واحداً[٤] ، كما حقَّقهُ الأمير ابنُ ماكولا في « تهذيب مستمر الأوهام » حيث قال : (بَرهان وبُرهان : قال الخطيب : « بُرهان بن سليمان السمرقندي الدَّبُّوسي بتشديد الباء » ، وهٰذا وهمٌ[٥] ؛ لأنه الدَّبُوسي مخفَّفَ الباء ، ودَبُوسة : بلدٌ بين كشانية وكرميلية ، منه[٦] : أبو زيدٍ

(١) كذا قال الإمام البزدوي في « أصول الدين » له (ص١٦٧) .

(٢) قال الإمام البزدوي في « أصول الدين » له (ص١٦٧) مبيِّناً لهٰذا القول : (أما الزلَّات : فغير معصومين عنها ؛ وهو ما يقع من الذنوب عنهم خطأً أو نسياناً) .

(٣) انظر (ص١٤٧) .

(٤) لا نسبة لأبٍ أو جدٍّ ؛ إذ من الأعلام : دبوسة ؛ قال الحافظ السمعاني في « الأنساب » (٥/ ٣٠٩) : (وأما أحمدُ بن عمرو بن نصر بن حامد بن أحيد بن فنويه بن دبوسةَ الدبوسي : نُسِبَ إلىٰ جدِّهِ دبوسة ، وليس هو من الدبوسية ، أسلم دبوسةُ علىٰ يد قتيبةَ بن مسلم الباهلي سنة ثلاث وتسعين من الهجرة) ، وانظر « معجم البلدان » (٢/ ٤٣٧) .

(٥) وعلىٰ هٰذا الوهم نسخةُ « القاموس المحيط » ؛ ففي شرحه « تاج العروس » (د ب س) (١٦/ ٤٩) : (ودَبُّوسية : قرية بصُغْدِ سمرقندَ ، بينَها وبين بخارىٰ ، وهي في النسخ كلِّها بتشديد الموحدة ، ومثله في « التكملة » [يعني : « التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية » للصغاني « ٣/ ٣٤٩ »] ، وضبطه الحافظُ [يعني : ابن حجر العسقلاني في « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » « ٢/ ٥٦٨ »] بتخفيفها ، وقال : « منها القاضي أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي ، من كبار أئمة الحنفية ») .

(٦) يعني : من هٰذا البلد ، ووقع في المطبوع هنا زيادة : (أنه) ، فتأمل .

الدَّبُوسي الفقيه المشهورُ المتكلِّم وغيرُهُ)[1] .

وكذا نصَّ علىٰ تخفيف الباء الحافظ بدرُ الدين العيني الحنفي في « مغاني الأخيار » حيث قال : (الدَّبُوسي : بفتح الدال ، وضمِّ الباء الموحدة المخففة) ، لـٰكنه قال : (نسبة إلىٰ دَبُوسية ؛ موضعٌ من صُغْدِ سمرقندَ)[2] ، ولا يخفاك أن النسبةَ لا تختلفُ هنا وإن اختلف اسمُ البلدينِ .

وقال العلامةُ المؤرخ ابن خِلِّكانَ في ترجمته للقاضي أبي زيد الدبوسي : (والدَّبُوسيُّ : بفتح الدال المهملة ، وضم الباء الموحدة ، وبعدها واوٌ ساكنة ، وسينٌ مهملة ؛ هـٰذه النسبةُ إلىٰ دَبُوسة ، وهي بليدةٌ بين بخارىٰ وسمرقندَ ، نُسِبَ إليها جماعةٌ من العلماء)[3] .

وأمَّا نسبتُهُ (البخاري) : فقد نصَّ العلامة عبد القادر القرشي علىٰ أن القاضيَ أبا زيد كان من أئمَّةِ البخاريين ؛ قال : (وأكثرُ روايات أئمة بُخارىٰ عن أصحاب الإمام ؛ مثلِ الإمام أبي حفص الكبير ؛ فإنه تفقَّهَ علىٰ أبي يوسفَ ، ثم علىٰ محمد ، حتىٰ كتب كتبَهُ ، وروىٰ عنه خلقٌ كثير لا يحصون ، ومنهم

---

(١) تهذيب مستمر الأوهام علىٰ ذوي المعرفة وأولي الأفهام (ص ١٢١) ، وقال العلامة الفَتَّنِيُّ في « المغني في ضبط أسماء الرجال » (ص ١٠٣) : (الدَّبوسي : بمفتوحة وضمٍّ موحدة ، منسوب إلىٰ دَبُوسة ، موضع من سمرقند ، منه أبو زيد ؛ إمام كبير حنفي ، ذو تصانيف حسنة ، وفضائل جمَّة) .

(٢) مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار (٣/ ٤٠٣) الترجمة (٣٦٨٠) ، وقال العلامة الحموي في « معجم البلدان » (٢/ ٤٣٧) : (دَبُوسِيَة : بليدٌ من أعمال الصُّغْد ممَّا وراء النهر ، منها أبو زيد الدَّبُوسي ، وهو عبيدُ الله بن عمر بن عيسىٰ صاحب كتاب « الأسرار » و« تقويم الأدلة » ، وكان من كبار فقهاء أبي حنيفةَ ، وممَّن يُضرب به المثل) .

(٣) انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٨) .

جماعة كثيرةٌ يطول تعدادُهم ، كلهم بخاريُّون أخذوا الفقهَ والحديثَ عن أصحاب الإمام ، وحُكِيَ أن مقبرة القضاة السبعة قريبةٌ من بُخارىٰ فيها أُمَمٌ لا يحصون ، أحدهم أبو زيدٍ الدبوسي) ، وفي بُخارىٰ قضى القاضي أبو زيد آخرَ حياته ، وناظرَ واشتهر ، وفيها كانت منيَّتُهُ[1] .

وأمَّا نسبة (السمرقندي) : فكيف لا يُنسبُ إلىٰ سمرقندَ وهو من مشايخها ؟! نصَّ علىٰ ذلك العلامة محمد أمين البخاري الحنفي المعروف بأمير بادْشاهْ ؛ قال : (مشايخ سمرقند : منهم أبو زيد ، وشمس الأئمة ، وفخر الإسلام)[2] ، والله أعلم .

وذكر السمعاني أن القاضيَ الدبوسيَّ كان له بسمرقندَ وبُخارىٰ مناظراتٌ مع الفحول[3] .

ولادته ونشأته

في رياض دَبوسة ـ أو دَبُوسية ـ في غرب بُخارىٰ من صُغْد سمرقندَ . وُلِدَ قاضينا أبو زيد ، قريباً من سنة (٣٦٧ هـ) أو (٣٦٩ هـ) ؛ فقد ذكرت كتبُ التراجمات أنه عاش ثلاثة وستين عاماً[4] ، فتكون ولادتُهُ قريباً من هاتينِ السنتين[5] .

---

(١) انظر « الجواهر المُضِية » (١/ ٣٣٩) .

(٢) انظر « تيسير التحرير » (٢/ ١٤٨) .

(٣) انظر « الفوائد البهية » (ص ١٠٩) ، وسمرقند وبخارىٰ من مدن أوزبكستان اليوم .

(٤) انظر « الجواهر المُضِية » (١/ ٣٣٩) .

(٥) والأرجح أنه ولد سنة (٣٦٧ هـ) ؛ إذ القول المعتمد الذي عليه عامة كتب الترجمات : أنه توفي سنة (٤٣٠ هـ) .

وهي بلادٌ ذات بساتينَ وأنهارٍ ؛ قال العلامة ياقوت الحموي في « معجم البلدان » : (**الصُّغْدُ** : بالضمِّ ثم السكون ، وآخره دالٌ مهملة ، وقد يقال بالسين مكان الصاد ؛ وهي كورةٌ عجيبة قصبتُها سمرقندُ ، وقيل : هما صُغْدان : صغدُ سمرقند ، وصغدُ بُخارىٰ ، وقيل : جنانُ الدنيا أربعٌ : غوطةُ دمشق ، وصغدُ سمرقندَ ، ونهرُ الأُبُلَّة ، وشعبُ بوَّان)[1] .

وباستلماحِ سنة الولادة تنأىٰ عنَّا أخبارُ الإمام أبي زيد ؛ فلا تكادُ كُتُبُ الترجمات تَبِضُّ بقطرة فيها ذكرُ أحوالِ الأسرة الدبوسيَّةِ أو أخبارٍ عن نشأة الإمام ، غيرَ أنه رحمه الله تعالىٰ ذكر والدَهُ عمرَ بعبارة خاطفة تُنبئُ أنه كان أهلَ علمٍ وفضل ، ففي « الأسرار » قال : (سمعت والدي عمرَ بن عيسىٰ يحكي عن ابنِ عمرَ غلامِ ثعلب ببغداد ، يحكي عن ثعلبٍ أنه قال : البشرةُ : الجلدةُ التي تقي اللحم من الأذىٰ)[2] ، ومثلُها قولُهُ في « تقويم أصول الفقه » : (قال بعض الفقهاء : لا دليلَ للنافي علىٰ خصمه ، ولا يكون حجةً للمثبت ، وكان أبي رحمه الله علىٰ هـٰذا ، يحكيه عن مشايخِ العراق)[3] ، فالعبارتانِ فيهما أن أباهُ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كان ممَّن باشر وخالطَ أهل العلم .

شيوخه

تظهرُ ضِنَّة القاضي أبي زيد بذكر شيوخه ، وهو أمرٌ مألوف تلك الحقبة ، ولا شكَّ أن والدَهُ كان واحداً من الذين حملَ عنهم العلم ، ومن جملة الشيوخ

---

(١) معجم البلدان (٣/ ٤٠٩) .

(٢) انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١١٣) .

(٣) تقويم أصول الفقه (٢/ ٦٩١) .

الذين عرضَتْ لهم كتبُ الترجمات :

ـ **الإمامُ القاضي أبو جعفرٍ الأُسْرُوشَني**(١) : تفقَّهَ علىٰ أبي بكرٍ محمدِ بن الفضل عن عبد الله السُّبَذْمُونيِّ(٢) ، عن أبي عبد الله أبي حفصٍ الصغير ، عن أبيه أبي حفصٍ الكبير ، عن محمد(٣) ، وأخذَ أيضاً عن أبي بكرٍ الجصَّاص الرازي ، عن أبي الحسن الكرخي ، عن أبي سعيد البردعي ، عن نصير بن موسىٰ ، عن محمد ، كذا في « الفوائد البهية » ، وقال : (**وتفقَّهَ عليه القاضي عبيدُ الله أبو زيد الدبوسي** صاحب « الأسرار »)(٤) .

وقد نعتَهُ القاضي أبو زيد بالأستذة ؛ ففي « الأسرار » : (وقد روىٰ أستاذنا القاضي أبو جعفر محمد بن عمرو ، عن أستاذه الشيخ أبي بكر محمد بن الفضل)(٥) .

تلاميذه

ـ **القاضي عليٌّ علاءُ الدين المَرْوَزيُّ** : قال العلامة اللكنوي في ترجمته :

---

(١) قال الحافظ السمعاني في « الأنساب » (١/ ٢١٩) : (**الأُسْرُوشني** : بضم الألف وسكون السين المهملة وضمِّ الراء وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وفي آخرِها النون ، هـٰذه النسبةُ إلىٰ أُسْرُوشَنة ؛ وهي بلدةٌ كبيرة وراء سمرقندَ دون سيحون ، وقد يُزادُ فيها التاء فنُسِبَ إليها بالأسروشنتي ، غير أن الصحيح هو الأول) .

(٢) قال الحافظ السمعاني في « الأنساب » (٧/ ٥٧) : (**السُّبَذْمُوني** : بضم السين أو فتحها وفتح الباء الموحدة وسكون الذال المعجمة وضم الميم وفي آخرها النون ، هـٰذه النسبةُ إلىٰ قرية من قرىٰ بُخارىٰ علىٰ نصف فرسخ منها) .

(٣) **يعني** : ابن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة كما لا يخفىٰ .

(٤) انظر « الفوائد البهية » (ص ٥٧) .

(٥) انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١١٣) ، وأورد له اسم راوٍ ، وليس بالضرورة أن يكون من شيوخه بالمعنى الفقهي المتعارف عليه .

(صاحب أبي زيدٍ الدبوسي)[1] .

ـ**القاضي جمالُ الدين أبو نصرٍ أحمدُ بن عبد الرحمـٰن بن إسحاق الرِّيغْدَمُوني**[2] : قال العلامة اللكنوي : (أخذ العلمَ عن القاضي أبي زيد الدبوسي)[3] .

وقال الحافظ السمعاني : (كان إماماً فاضلاً عاقلاً ساكناً كريماً ، يقدَّمُ على العلماء ببُخارىٰ في وقته ، وليَ القضاءَ ، وأملىٰ وكتبوا عنه ، سمعَ أحمدَ بن عبد الله بن الفضل الخَيْزاخُزي ، ووالدَهُ أبا أحمد عبدَ الرحمـٰن بن إسحاقَ الرِّيغْدَمُونيَّ وجماعةً)[4] .

ـ**الفقيهُ أبو الفتح أحمدُ بن محمد البخاريُّ** : قال المؤرخ ابن فندمه : (وُلِدَ في بُخارىٰ ، ونشأ في ناحية بيهقَ ، كان محدثاً ومذكراً وفقيهاً ، روى الأخبار عن أئمة بُخارىٰ ، وهو من تلاميذ القاضي أبي زيدٍ)[5] .

ـ**الفقيهُ القاضي أبو إسحاق إبراهيمُ بن محمد الدِّهِسْتانيُّ** : وكان من محقِّقي العلماء ، حتىٰ إن إمامَ الحرمين أقبل علىٰ مناظرته مع امتناعه

---

(١) انظر « الفوائد البهية » (ص ١٤٤) ، وتصحَّف اسم القاضي المروزي في موضع من « الجواهر المضية » (٢/ ٥٠ ـ ٥١) إلى (القاضي الزوزني) ، فتنبَّه ، ففي « الفوائد البهية » (ص ١٦٤) : (محمد بن الحسين بن محمد فخر الدين المعروف بفخر القضاة أبو بكر الأَرْسابَنْدي ، تفقَّهَ علىٰ علاء الدين المروزي صاحب أبي زيد الدبوسي) .

(٢) هـٰذه النسبة إلىٰ رِيغْدَمون ؛ وهي قرية من قرىٰ بخارىٰ علىٰ أربعة فراسخ . انظر « الأنساب » للسمعاني (٦/ ٢١٦) .

(٣) انظر « الفوائد البهية » (ص ٢٣) .

(٤) انظر « الأنساب » (٦/ ٢١٦) .

(٥) انظر « تاريخ بيهق » (ص ٤٣٤) .

عن مناظرة من لا يشَمُّ منه رائحة التحقيق[١] .

قال الغزي في « الطبقات السنية » : (وذكره الهمذاني في « الطبقات »[٢] من أصحاب الصندلي ، وقال : قرأ علىٰ أبي زيد الفرائضَ والحساب) ، وقال : (وكانت وفاة الدِّهِستاني فيما يقال : سنة ثلاث وخمس مئة)[٣] .

وقال : (قال الهمذاني : وحدثني ابن الدِّينَوَري العدل الحنبلي قال : كان يحفظُ طريقة أبي زيدٍ الدبوسي علىٰ وجهها ، ويتكلَّمُ في مناظرته بها)[٤] .

مؤلّفاته

ـ « الأسرار » ، أو « أسرار الله في المسائل »[٥] : وهو في الفقه الفرعي ، قال العلامة اللكنوي في ترجمة القاضي أبي زيد : (وأجلُّ تصانيفه : « الأسرارُ ») .

قال في طالعته : (هـٰذا كتابٌ استنبطه التفكُّرُ في أسرار المسائل ، والرويَّةُ في فنون الدلائل ، بعدما سبرَ غورها بمسبار النظر ، ووقفَ علىٰ حقائقها بحدِّ الفكر)[٦] .

---

(١) انظر « الجواهر المضية » (١/ ٤٧) .
(٢) يعني : صاحب « طبقات الحنفية والشافعية » . انظر « الفوائد البهية » (ص ١١) .
(٣) انظر « الطبقات السنية » (١/ ٢٣٩) ، وتاريخ الوفاة يبعث الشكَّ في النفوس بشأن تلمذته للقاضي الدبوسي ، ولعله إنما قصد مطلق طريقة الحِجاج ، والله أعلم .
(٤) انظر « الجواهر المضية » (١/ ٤٨) .
(٥) وقد طبع بعضه ، انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١٥٨) ، وذكره الإمام ابن العربي المالكي باسم : « أسرار المسائل » ، وانظر كلامه الآتي منه .
(٦) انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١٦٢) .

ثم قال عن منهجه في التأليف : (فللسلفِ في كتبهم إشاراتٌ ، وبعِلَلِهم عباراتٌ ، تقعُ بها للمتأمِّل الهدايةُ ، وبأمثالها للمستنبِط الكفايةُ ، ولم أنلْها إلا بعدما أنفقتُ فيها عُظْمَ عمري ، وخالفت جُلَّ أهل دهري ، وأعرضتُ عن سائر الفنون ، ولم أقنع بالظنون ، **وجعلتُ الحُجَجَ إمامي لا الرجال** ، **وبالحِجاج خصامي دون الجدال** ، واعتصمتُ بالله ذي المنِّ والإفضال)[١] .

وهـٰذا الكتابُ هو واحدٌ من الكتب التي أفادَ منها العلامةُ أبو بكر بن العربي المالكي في رِحَلِهِ[٢] ؛ ففي « سراج المريدين في سبيل الدين » قال : (« **أسرار الله في المسائل** » : في عشرة أسفار ، وقد كنتُ وردتُ من تلك الديار الكريمةِ سنة خمس وتسعين[٣] ، فنزلتُ بتِلِمْسانَ وفاسَ ، وكنتُ أذكرُ منها مسائلَ وأُعجِّبُهم من أغراضها[٤] ، فما تحرَّكَتْ لذلك همَّةٌ ولا نشأت عزيمةٌ إلا لرجلٍ واحد عَلِمَ أني إذا سُئلتُ قراءتها أو إعارتها أقولُ : هي من أواخرِ العلم ، فإذا أخذتُم أوائلَهُ مكَّنتُكم منها .

وتاقَتْ نفسُهُ إليها ، فرحلَ إلى العراق ، وكتبَها من مدرسة الحنفية بمدينة السلام ، وجاءَ بها ، وكان ذلك من جميل صُنْعِ الله معي ؛ فإنه لمَّا ذهب بعضُها من عندي في الدار[٥] . . أسفتُ لها ولما مضىٰ من أمثالها مما لا أجبره إلا برحلة مرة أخرىٰ ، فأُعلمتُ بأن هـٰذا الرجل جلبَها ، فاستدعيتُها وجبرتُ

---

(١) انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١٦٢) .

(٢) نبَّهَ علىٰ ذلك العلامة القرشي في « الجواهر المضية » (٢/ ٢٥٢) .

(٣) يعني : وأربع مئة ، والمراد : رحلته إلى البلاد المشرقية ، ودخوله بغداد .

(٤) يعني : من الأسرار . انظر « الجواهر المضية » (٢/ ٢٥٢) .

(٥) أثبتت هـٰذه العبارة من « الجواهر المضية » ؛ فهي مضطربة في « سراج المريدين » .

ما فاتَني منها ، ولـٰكن النسخة التي جلبَها سقيمة ، لم يعرضْها بالأمِّ ولا قرأَها علىٰ شيخ ، ففيها سقمٌ كثير)[1] .

ويظهرُ أن هـٰذا الكتاب كان له أثرٌ في أوساط الشافعية ؛ فقد ذكر المؤرخُ ابن خِلِّكانَ : أن الإمام أبا المظفر السمعاني ـ وعنايتُهُ بكتب الإمام الدبوسي كانت جليَّة ، فقد كان من أئمة الحنفية[2] ـ قد ألَّفَ كتاباً للردِّ عليه ؛ قال وهو يذكرُ تآليفَ السمعانيِّ : (« **الاصطلام** » : ردَّ فيه علىٰ أبي زيدٍ الدبوسي ، وأجاب عن « الأسرار » التي جمعَها)[3] .

ـ « **الأسرارُ في الأصول والفروع في تقويم أدلة الشرع** » : هو إحدى الأسماء التي اشتَهَرت لكتاب « **تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع** » الآتي ذكره[4] ، وقد طُبِعَ بهـٰذا الاسم أيضاً ، علىٰ أن هـٰذه التسميةَ لم تردْ بتمامها في الأصول الخطيَّة للكتاب[5] .

---

(١) سراج المريدين في سبيل الدين (٤/ ٤٠٥) .

(٢) في « وفيات الأعيان » (٣/ ٢١١) في ترجمة أبي المظفر السمعاني : (وكان حنفي المذهب ، متعيناً عند أئمتهم ، فحجَّ في سنة اثنتين وستين وأربع مئة ، وظهر له بالحجاز ما اقتضى انتقالَهُ إلىٰ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فلما عادَ إلىٰ مروَ لقيَ بسبب انتقاله محناً وتعصُّباً شديداً ، فصبر علىٰ ذلك ، وصارَ إمامَ الشافعية بعد ذلك يدرِّسُ ويفتي) .

(٣) انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٢١١) .

(٤) انظر (ص٢٤) .

(٥) انظر « الأسرار في الأصول والفروع في تقويم أدلة الشرع » (١/ ١٣٥) ، ومن جملة أسماء هـٰذا الكتاب كما وردت علىٰ ظهور المخطوطات كما أوردها محققه (١/ ١٣٤) وعزاها إلىٰ مكتباتها : « التقويم » ، « التقديم » ، « خزائن الأصول » ، « الأسرار في الأصول والفروع » ، « الأسرار والتقويم للأدلة » ، « أسرار المكمل » ، « الصلاح والأسرار » ، =

ـ « تأسيس النظر » : ويُعرف أيضاً بـ « تأسيس النظر في اختلاف الأئمة » ، و« النظائر في الاختلافات الفقهية »[1] ، ولعله الكتابُ الذي أطلَّ به إمامُنا الدبوسي علىٰ عالم المطبوعات الحديثة ، وقد ذكرَ فيه الخلافاتِ ضمن المذهب الحنفيِّ نفسه ، وخلافَهُ مع المذاهب الأخرىٰ ، فموضوعُهُ الرئيس هو الخلافاتُ الفقهية الفرعية .

وسبب تأليفه لهـٰذا الكتاب : ما حكاه في مقدمته إذ قال : (فإني لما رأيتُ تصعُّبَ الأمر في تحفُّظِ مسائلِ الخلاف على المتفقِّهةِ وفَّقَهم الله لمرضاته ، وتعسُّرَ طُرُقِ استنباطها عليهم ، وقصورَ معرفتهم عن الاطلاع علىٰ حقيقة مأخذِها ، واشتباهَ مواضع الكلام عند التناظرِ فيها . . جمعتُ في كتابي هذا أحرفاً إذا تدبَّرَ الناظرُ فيها وتأمَّلَها عرفَ مجالَ التنازع ، ومدارَ التناطح عند التخاصم)[2] .

ـ « التعليقة » : ذكره ابنُ خلدون ضمن حديثه عن الخلافيات ؛ حيث قال : (ولأبي زيد الدبوسي كتاب « التعليقة »)[3] .

ـ « تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع »[4] : ذكر القاضي أن داعيةَ

= « أسرار الأصول والفروع » ، « الأسرار والتقديم للأدلة في الفروع » ، « الأسرار » ، « التقويم في أصول الفقه » ، « تأصيل الدلائل لمستنبطي الأحكام » ، وهـٰذه التسمية باعتبار شعرٍ لمصنفه فيه ، « تقويم الأدلة » .

(١) انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١١٣) .

(٢) تأسيس النظر (ص ٩) .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون من تاريخه « ديوان المبتدأ والخبر » (١/ ٥٧٨) ، كما ذكر هـٰذا الكتابَ سزكين في « تاريخ التراث العربي » (٣/ ١٢٦) .

(٤) انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١٧٤) ؛ حيث قال الفاضل =

تأليفِهِ ما رآه من نفسه من نُضْجٍ لم يكن سِنِي وضعِهِ لكتاب « الهداية »[١] ، ويكفيكَ من التعرُّف علىٰ معالم هـٰذا الكتاب ما قال القاضي في طالعته : (إني لمَّا رأيت كلَّ هـٰذا الشرف للعلمِ ، ونوره كامنٌ في قلوب البشر ، كمونَ النار في الشجر ، ما يقدحُها إلا أيدي الهِمَمِ العالية ، بفكرٍ في الحُججِ الهادية ، وأكثرُ الناس قبسوهُ بحواسِّهم ، ففقدوهُ في اقتباسهم . . رأيتُ اتباعَ السلف في إثارة هـٰذا النورِ ببيان الحُجج فرضاً ، ثم إنارته بوَقودِ المِداد في صحائف الكُتُبِ حقاً ؛ رجاءَ أن أكونَ من الأشباه ، واستعنتُ بالله تعالىٰ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله ؛ علىٰ قصدٍ مني تقويمَ كتاب « الهداية » ، الذي زلَّ خاطري في بعضه بحكم البداية[٢] ؛ فراراً عن التمادي في الباطل ، وتخريجاً على الأصول الأربعة التي بها يتعلَّقُ الابتلاءُ في الحاصل[٣] ، وبياناً للحدودِ التي بها يمتازُ البعض عن البعض علىٰ وجهٍ خرسَ دونه ألسنةُ الأكثر من أولي هـٰذه الصناعة ، واللهُ وليُّ التوفيق لتتميم هـٰذه البضاعة)[٤] .

= المحقق : (هكذا وجدناه مسطوراً في أول نسخته المصورة بالجامعة الإسلامية رقم « ١٨٢٢ ») ، وانظر ما تقدم (ص٢٣) تعليقاً في تعدُّد اسم هـٰذا الكتاب .

(١) تُراه عنىٰ كتاب « خزانة الهدى » الآتي ذكره قريباً ؟ لم يظهر ذلك جلياً ، غير أن « خزانة الهدىٰ » كتابٌ في الفروع الفقهية ، لا الأصولية ، والله أعلم .

(٢) انظر الحديث عن كتاب « الهداية » المسمَّىٰ بـ « خزانة الهدىٰ » (ص٢٦) ؛ إذ هو من أوائل ما صنَّف ؛ فقد ذكره في « الأمد الأقصىٰ » ، وذكر هـٰذا الأخير في « تقويم أصول الفقه » أيضاً ، وذكر « التقويم » في كتاب « الأسرار » ، وانظر كلمة الإمام ابن العربي الآتية (ص٣٣) .

(٣) انظر معنى الابتلاء (ص١٢٩ ، ٢٤٣) ، والفرق بينه وبين المعرفة .

(٤) تقويم أصول الفقه (١/ ٢٣) .

ـ « **خزانةُ الهدىٰ** »[1] : وهو كتابٌ في الفقه الحنفي ، فالقاضي أبو زيد كتبَ كتابين يتمِّمُ أحدُهما الآخرَ ؛ فكتب في بيان صلاح وفساد العمل الظاهرِ « **خزانة الهدىٰ** » ، وفي بيان صلاحِ وفساد العملِ الباطن كتابَ « **الأمد الأقصىٰ** » .

وقد ذكر قاضينا أبو زيد هـٰذا الكتاب فقال : (ولهـٰذه العباداتِ حدودٌ للجواز والفسادِ ظاهراً ؛ وهي مِنْ باب الفقهِ ، ذكرناها في كتابِ « **خزانةِ الهدىٰ** »)[2] .

ـ « **روضة العلماء** » : ذكرَهُ الإمام ابنُ السبكي حيث قال بعد ذكرِهِ لحكاية غريبة : (وقد رأيت مثلَ هـٰذه الحكايةِ جرىٰ في الزمن الماضي لبعضِ الصالحات راودَها عن نفسها بعضُ الفاجرين ، كما حكىٰ ذلك الدبوسيُّ من الحنفية في كتابه « روضة العلماء »)[3] .

ـ « **شرح الجامع الكبير** » : و« الجامع الكبير » هو واحدٌ من كتب الإمامِ محمدِ بن الحسن المعروفة بكتب ظاهرِ الرواية عند السادة الحنفية ، قال العلامةُ المحقِّق ابنُ عابدين في صفتها : (وإنما سُمِّيَتْ بظاهر الرواية لأنها رُويَتْ عن محمد برواياتِ الثقات ، فهي ثابتةٌ عنه ؛ إما متواترة ، أو مشهورة عنه)[4] .

---

(١) وفي « الفتاوى الأنقروية » تسميته بـ « خزانة الهداية » ، وفيها التصريح بعنوان ورد فيه من العناوين الفقهية . انظر « تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار » (ص ١٧٨) ، وذكر القاضي هـٰذا الكتاب في « تقويم أصول الفقه » (١/ ١٨) .

(٢) انظر (ص٢٨٧) .

(٣) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ٢٧٣) .

(٤) انظر « حاشية ابن عابدين » (١/ ٦٩) .

وهـٰذا الشرح ذكرَهُ العلامة المؤرخ القرشي في « الجواهر المضية » وهو يذكرُ شرَّاح « الجامع الكبير » ؛ قال : (**أسامي شرَّاح « الجامع الكبير »** : القاضي أبو خازم ، الإمام علي القمي ، الإمام أبو بكر البلخي ، الشيخ أبو بكر الرازي الجصَّاص ، أبو عبد الله الجرجاني ، أبو الليث السمرقندي ، الإمام المسعودي ، الإمام أبو الفضل الكرماني ، **الإمام القاضي أبو زيد الدَّبُوسي** ، الإمام برهان الدين صاحب « المحيط » ، الإمام شمس الأئمة الحلواني ، الصدر الشهيد حسام الدين ، شمس الأئمة السَّرَخْسي ، فخر الإسلام علي البزدوي ، صدر الإسلام البزدوي ، القاضي الأرسابندي ، الإمام العتابي ، شيخ الإسلام علاء الدين السمرقندي ، فخر الدين قاضي خان ، الإمام ظهير الدين ، صدر الإسلام مجد الدين ، جمال الدين الحصيري ، الإمام الإسبيجابي ، رحمةُ الله عليهم أجمعين)[1] .

ـ « **النظم في الفتاوىٰ** » : ذكره اللكنوي في « الفوائد البهية »[2] .

أما كتاب « **الأنوار في أصول الفقه** » : فلعله نُسِبَ إليه خطأً ؛ إذ ديباجتُهُ هي ديباجة كتاب نظام الدين الشاشي المشهور بـ « أصول الشاشي » ، ونُسِبَ إليه أيضاً : « **تحفة الساري** » ، و« **مجمع الفتاوىٰ** » ، و« **تقسيم فروع الفقه** » ، و« **تخريج الفروع على الأصول** » ، و« **التجنيس** » ويعرف بـ « **تجنيس الدبوسي** » أيضاً[3] ، وهي مفتقرةٌ في نسبتها إلى الإمام الدبوسي إلى الأدلة .

---

(١) الجواهر المضية (٢/ ٤٤٩) .

(٢) الفوائد البهية (ص ١٠٩) .

(٣) انظر « كشف الظنون » (١/ ٣٥٢) .

مكانته العلمية

حينما تُبرَزُ سماتُ عالمٍ كان له أثرٌ مرضيٌّ عند الله وعند خلقِهِ . . ترىٰ كثيراً ممَّن التوَتْ أقلامهم واعوجَّتْ أفهامُهم لا يجدون سبيلاً إلىٰ ذلك إلا بخلعِ صفاتٍ جليلة علىٰ ممدوحهم وخلعِها عمَّن سواه ! فلا يتمُّ لهم إظهارُ الفضل إلا بالكسوة والتعرية ، وما أقبحَ هـٰذه الشُّنْعة ! وهي مسلكٌ مأفونٌ مألوفٌ عند أهل البدعة ، فالغايةُ من بيان مكانة عالم : هي إظهارُ الجميل من وصفه ، وبيان سبقِهِ وفضله ، لا محْوُ فضائل أقرانه ، وجعلُهُ فريدَ عصره وأوانه .

وقد ذكر القاضي نفسُهُ أن الحقَّ لو اجتمع كلُّهُ في رجل لانتفىٰ طريق الظنِّ ، ولم يبقَ إلا طريقُ اليقين ، وهو خلافُ الواقع[1] .

ومن نظرَ في ترجمة قاضينا أبي زيد ، وقلَّبَ أوراق كتبه . . سيرىٰ عالماً نحريراً قلَّ نظيره ، وعقلاً رتيباً لا يشقُّ له غبار ، وإماماً زاهداً بحقٍّ ، وهـٰذه الأخيرةُ كلمةٌ لا يعرفها إلا مَنْ تأنَّىٰ في النظر بين طيَّات « الأمد الأقصىٰ » خصوصاً ؛ فقد كتبَ فيه كلاماً لا يقوىٰ علىٰ رصفه إلا متحقِّق ، فقلَّ من يفوهُ بمثل قوله : (فمن امتلأ قلبُهُ معرفةً لم ينلْ من المرأة سَكَناً ، ومَنْ رَوِيَ من شراب التصديق لم يجدْ من الخُبْزِ شِبَعاً ، ومَنْ رأىٰ سربالَ الإسلام لم يلتفتْ إلىٰ سرابيل أهله ، ومَنْ عرف وجوبَ الإحسان عليهِ جزاءً لم يعملْ مُعْجَباً بفعلِهِ)[2] ، فهـٰذه عباراتٌ لا يمكن أن ينشئها قلبٌ غافل .

ولعلَّ أبرزَ السمات التي عُرِفَ بها قاضينا أبو زيد : هي سبقُهُ الإبداعي في إبراز علم الخلاف الفقهي ، وحسنُ صياغته في تدوينِ أحسن كتبِ أصول الفقه

---

(١) انظر (ص٧١٧) .

(٢) انظر (ص٣٦٢) .

علىٰ طريقة الفقهاء ، فلنعرضْ لهاتين السمتين بإيجاز :

ـ سبقُهُ الإبداعي في إبراز علم الخلاف الفقهي : حتىٰ شاعَتْ في ترجمته كلمةُ العلامة ابن خلكان : (وهو أَوَّلُ مَنْ وضع علمَ الخلاف وأبرزَهُ إلى الوجود)[1] ، وقد لا تظهرُ هـٰذه الأوَّلية مع سبقِ أعلام الفقهاء والمجتهدين للقاضي الدبوسي ، فما المقصودُ من هـٰذه الكلمة ؟

كتب المؤرخ طاشْكُبْرىٰ زادَهْ في بيان ماهيةِ هـٰذا العلم سُطُوراً يحسنُ إيرادها ؛ إذ لم يعدْ هناك من يميزُ بين هـٰذا العلمِ وعِلْمَي المناظرة والجدل ؛ قال رحمه الله تعالىٰ : (علمُ الخلاف : وهو علمٌ باحثٌ عن وجوهِ الاستنباطات المختلفة ، من الأدلَّةِ الإجماليَّةِ والتفصيليَّة الذاهبِ إلىٰ كلٍّ منها طائفةٌ من العلماء ، أفضلُهم وأمثلُهم : أبو حنيفةَ نعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه ؛ ومن أصحابه : أبو يوسف ، ومحمد ، وزُفرُ ، والإمامُ الشافعي ، والإمامُ مالك ، والإمامُ أحمدُ بن حنبل ، رضي الله تعالىٰ عنهم ، ثم البحثُ عنها بحسبِ الإبرام والنقض لأيِّ وضع أُريدَ في تلك الوجوه .

ومبادئُهُ : مستنبطةٌ من علمِ الجدل ، فالجدلُ بمنزلة المادة ، والخلافُ بمنزلة الصورة .

وله استمدادٌ من العلوم العربيةِ والشرعية .

وغرضُهُ : تحصيلُ مَلَكة الإبرامِ والنقض .

وفائدتُهُ : دفعُ الشكوك عن المذهب ، وإيقاعُها في المذهب المخالف[2] .

وقد أوردَ علمَ الخلاف والجدل الإمامُ فخرُ الدين الرازي في كتاب « المعالم » ،

---

(١) انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٨) .

(٢) يعني : وإيقاع هـٰذه الشكوك في مذهب المخالف .

وقد جمع بعضُ العلماء في علم الخلاف « المسائل العشرين » ، وبعضُهم « الأربعين » ، وغيرَ ذلك من الرسائل والتعليقات ، لـٰكن **قد ضاعَتْ كُتُبُهُ ، وانطمسَتْ آثاره ، وبطلَتْ معالمُهُ في زماننا هـٰذا** ، حتىٰ إن طلبةَ زماننا لا يتفطَّنون الفرقَ بين الخلاف والجدل والمناظرة ، فضلاً عن معرفة شيء من كتبها ، فضلاً عن اطِّلاع بعض مسائلها ، وإلى الله المشتكىٰ من زمانٍ صار الكلامُ فيه كلاماً بلا أثر ، والخلافُ خلافاً بلا ثمر ، والأصولُ فضولاً ، والمعقولُ مغفولاً .

واعلم : أن أوَّلَ من أخرجَ علمَ الخلاف في الدنيا **أبو زيد الدبوسي** ـ بتخفيف الباء الموحدة ـ الحنفي ، وهو عبيدُ الله بن عمر بن عيسىٰ .

واعلم : أنه يمكنُ جعلُ علمِ الجدل والخلافِ من فروع علمِ أصول الفقه)[١] .

ـ حسنُ صياغته في تدوينِ أحسن كتبِ أصول الفقه علىٰ طريقة الفقهاء : قال العلامة القرشيُّ وهو يتحدَّث عن فضْلِ العلامة محمد بن عبد الستار الكَرْدَري : (وأحيا علمَ الأصول والفقه بعد اندراسِهِ من زمن القاضي أبي زيدِ الدبوسي وشمس الأئمَّةِ السرخسي)[٢] .

وقال مؤرخُ العلوم ابنُ خلدون وهو يتحدَّثُ عن نشأة أصول الفقه وما يتعلَّقُ به من الجدل والخلافيات : (**ثم كتبَ فقهاءُ الحنفيَّة فيه** ، وحقَّقوا تلك القواعد وأوسعوا القولَ فيها ، **وكتب المتكلِّمون أيضاً كذلك** ، إلا أن كتابةَ الفقهاء فيها أمسُّ بالفقه وأليقُ بالفروع ؛ لكثرة الأمثلة منها والشواهد ، وبناءِ المسائل فيها على النُّكت الفقهيَّة ، والمتكلِّمون يجرِّدون صورَ تلك المسائل

---

(١) انظر « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » (١/ ٢٨٣) .
(٢) انظر « الجواهر المضية » (٢/ ٨٢) .

عن الفقه ، ويميلون إلى الاستدلال العقليِّ ما أمكن ؛ لأنه غالبُ فنونهم ، ومقتضىٰ طريقتِهم ، **فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطُّولىٰ** ؛ من الغوصِ على النُّكتِ الفقهيَّةِ ، والتقاطِ هـٰذه القوانينِ من مسائل الفقهِ ما أمكنَ .

وجاء أبو زيد الدَّبُوسيُّ من أئمَّتِهم ، فكتب في القياس بأوسعَ من جميعهم ، وتمَّمَ الأبحاث والشُّروطَ التي يُحتاجُ إليها فيه ، **وكَمَلَتْ صناعةُ أصول الفقه بكماله** ، وتهذَّبَتْ مسائلُهُ وتمهَّدت قواعدُهُ)[١] .

ثم قال : (**وأما طريقةُ الحنفية** : فكتبوا فيها كثيراً ، **وكان من أحسنِ كتابةٍ فيها للمتقدِّمين** : تآليفُ أبي زيد الدَّبُوسيِّ ، **وأحسنِ كتابةِ المتأخِّرين فيها** : تآليفُ سيف ـ لعله : فخر ـ الإسلام البزدوي من أئمَّتِهم ، **وهو مستوعبٌ** .

وجاء ابنُ السَّاعاتيِّ من فقهاء الحنفيَّة ، فجمعَ بين كتاب « الإحكام »[٢] وكتاب البزدوي في الطَّريقتينِ ، وسمَّىٰ كتابه بـ « البدائع »[٣] ، فجاءَ من أحسن الأوضاع وأبدعِها ، وأئمَّةُ العلماء لهـٰذا العهدِ يتداولونه قراءةً وبحثاً ، وأُولعَ كثيرٌ من علماء العجم بشرحه ، والحالُ علىٰ ذلك لهـٰذا العهدِ)[٤] .

وستأخذ بلبِّكَ جَوْدةُ سبكِهِ لحُجَجِهِ ؛ كيف يأتي بها من مكانٍ بعيد ، ثم يصوغُها صياغةَ الإبريز ، فكانت له في صناعتها يدُ صَناع ، فهو يأخذُ بها ويقلِّبُها كيف شاء ، حتىٰ قال الحافظ السمعاني في « الأنساب » وهو يترجمُ

(١) انظر « مقدمة ابن خلدون » في تاريخه المسمَّىٰ بـ « ديوان المبتدأ والخبر » (١/ ٥٧٦) .
(٢) يعني : للإمام سيف الدين الآمدي .
(٣) ويعرف اليوم بـ « البديع في أصول الفقه » ، أو « بديع النظام الجامع بين أصول البزدوي والإحكام » .
(٤) انظر « مقدمة ابن خلدون » في تاريخه المسمَّىٰ بـ « ديوان المبتدأ والخبر » (١/ ٥٧٧) .

له : (وكان ممَّن يضربُ به المثلُ في النظرِ واستخراج الحُجَجِ والرأي ، كان له بسمرقندَ وبُخارىٰ مناظراتٌ مع الفحول)[1] .

وكان يعرفُ لخصومه في المناظرة والحِجاج مكانتَهم ؛ حتىٰ قال الإمام ابنُ السبكي وهو يترجم لأبي سهل الأبيوَرْدي : (كان أبو زيدٍ الدبوسي يقول : لولا أبو سهل الأبِيوَرْدِي لما تركتُ للشافعيةِ بما وراء النهر مكشفَ رأسٍ)[2] .

وهو رئيسُ مذهب الحنفية في مِصْرِهِ وإبَّانه ، وقد قال المؤرِّخُ ابن تغري بردي في ترجمته : (شيخُ الحنفيّة بما وراء النهر ، كان إماماً عالماً فقيهاً نحويّاً بارعاً في فنون ، عفيفاً مشكورَ السيرة ، انتهَتْ إليه رئاسةُ مذهب أبي حنيفةَ في زمانه بما وراء النهر ، ومات والمعوَّلُ علىٰ فتواه بها)[3] .

ومطالعُ آثاره يرىٰ سعةَ اطِّلاعه علىٰ فقهِ الأئمة المجتهدين من المتبوعين وغيرهم ، وكتابُهُ « تأسيس النظر » شاهدٌ علىٰ ذلك ؛ فهو من أوائل الكتب الباحثة فيما يُسمَّىٰ بالفقه المقارن .

وخاتمةُ ما يقالُ هنا : كلمةُ الإمام أبي بكر بن العربي المالكي في كتابه « الاستشفا من كتاب الشفا »[4] إذْ قال : (اعلم ـ علَّمَكَ الله ـ : أن ربَّ النعمة علىٰ أهل خراسان ، بل علىٰ أهل العلم في غابرِ الأزمان ؛ في الكشف عن أسرار العلوم من فنِّ الفقه وأصوله . . هو القاضي أبو زيد عبيدُ الله بن عمر الدَّبُوسي ؛

---

(١) الأنساب (٥/٣٠٦) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٤/٤٣) ؛ أراد : أنه لولا الأبيوردي لتقنَّع الشافعية ولم يرفعوا رؤوسهم .

(٣) انظر « النجوم الزاهرة » (٥/٧٦) .

(٤) و« الشفا » هنا : هو كتاب حجة الإسلام الغزالي « شفاء الغليل في بيان الشَّبَهِ والمخيل ومسالك التعليل » .

فإنه انتدبَ بذهنٍ ثاقب ، وعقلٍ وافر ، وحفظٍ ظاهر ، وجِدٍّ صادق ، وفراغٍ متواصل ، وتوفيقٍ حاصل . . لكشفِ غوامض العِلْمَينِ ، وإبرازِ دقائق الفَنَّينِ ، وأقامَ على هـٰذه الحال خمسةَ أعوام ، متَّصلةِ الليالي بالأيام ، لا يقطعُهُ عنها قاطعٌ من أهلٍ ولا ولد ، ولا اطَّلعَ على مكانِهِ أحد ـ كما بيَّنَّاهُ في كتاب « عيان الأعيان » ـ ، ثم أسفرَ اجتنانُهُ عن نُورَينِ ساطعين ؛ كتاب « تقويم الهداية » في أصول الفقه ، وكتاب « أسرار المسائل » في الخلاف ، فما بقيَ أحدٌ من المحقِّقينَ إلا نسجَ على منواله ، وتسربلَ بسربالِهِ في نظامه ، واقتفى آثارَ مراسمه في إحكامه) .

ثم قال : (وجمع الإمام أبو المعالي كتاب « البرهان » في أصول الفقه على أغراضِ « تقويم الهداية » ، وخالف ترتيبَهُ ، وصنَّف الإمام أبو حامد هذا ـ يعني : « شفاء الغليل » ـ معارضاً لأبي زيد في فنِّ القياس من أصول الفقه . . على ترتيبه ، وفي طريقه وتبويبه ، وإن كانت اليد للقاضي أبي زيد على الجميع ؛ فلقد جاء الإمام أبو حامد في هذا الكتاب بالبديع ، وأربى بالمقصود على التمام)[1] .

رباعيات الدبوسي

لم يكن إبداعُ القاضي الدبوسي مقتصراً على تدوين العلوم ، بل كان له طريقةٌ بديعة في عرضها وصوغِها ، **ولعلَّ من أجلِّها تقسيماتِهِ الرباعيَّةَ للأحكام الحسيَّة والمعنويَّة** ، وهو أمرٌ عسير لمن تأمَّل ؛ إذ التزامُ التأصيل بطريقة التربيعِ لا تُسندُ إلا إلى عقلٍ فذٍّ ، أو إلى إلهامٍ وتوفيق ، وقد صدقَ فيه قولُ الحافظ الذهبي : (**كان من أذكياء الأمَّة**)[2] .

---

(١) الاستشفا من كتاب الشفا (ص ١٠٦ ، ١٠٧) .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٥٢١) . =

وستمرُّ بك في « الأمد الأقصىٰ » عشراتٌ من هـٰذه الرُّباعيات ؛ كجعله الجسمَ مِنْ كلِّ ذي عقلٍ مبتلىً بأربعةٍ ؛ الروحِ ، والنفس ، والقلبِ ، والرأس[1] ، وما زالَ يؤصِّل الأصولَ بجعلها أربعةَ أقسام حتىٰ لو سمَّىٰ كتابه بـ « كتاب الأربعة » لساغَ له ذلك .

وجاء في هامش إحدى النسخِ المعتبرة لكتابنا « الأمد الأقصىٰ » ذكرُ سببِ اعتماد العدد (أربعة) دون غيره من الأعداد ؛ فقيل : (إنما اختار عدد « الأربع » في تقسيم الحكم والمعاني اقتداءً بصُنْعِ الحقِّ ؛ فإن الله تعالىٰ جعل العناصرَ أربعة ، والطبائعَ أربعاً ، والملائكةَ الموكَّلين أربعاً ؛ فجبريلُ للوحي ، وإسرافيلُ لنفخ الصور ، وميكائيلُ للأرزاق ، وعزرائيلُ للأرواح ، والمكلَّفين أربعةً ؛ الجنَّ والإنس والمَلَكَ والشياطين ، وانتهاءَ عدد النساء أربعةً ، والخلفاءَ الراشدين أربعةً)[2] .

وهـٰذه الطريقة أشبهُ ما تكون بلزوم ما لا يلزم ؛ فليسَ بعيداً جعلُ هـٰذه الرباعيَّاتِ ثلاثياتٍ أو خماسيَّات، ولذلك تكلَّفَ فيها حتىٰ ظهرَ بعضُ خلاف[3] ،

= وفي زاوية الورقة الثانية من نسخة من نسخ كتابنا « الأمد الأقصىٰ » ـ وهي نسخة المكتبة الأزهرية ذات الرقم العام (٣٣٤٤١) والخاص (٨٠٧) ـ كتب الناسخ أو غيره كلمة نقلها عن الإمام الشعراني فقال : (قال الشعراني في « طبقاته الكبرىٰ » : كان أبو زيد قطباً جامعاً للعلم ، سائراً في « . . . » ، وارثاً للعلوم الشرعية والعرفانية) ، وبالعودة لـ « طبقات الشعراني » الثلاثة ، ولفهارس أعلامها الفنية . . لا نجد ذكراً للقاضي الدبوسي فيها ، ولعله اشتبه بالعارف الجليل أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالىٰ ، والله سبحانه أعلم .

(١) انظر (ص١٠٦) .

(٢) انظر (ص٩٨) .

(٣) انظر (ص٧٢٢) ، وقد قال مرة : إن مكة رأس والمدينة قلب ، وعكس أخرىٰ ، وبيَّنَ أن ذلك التخالفَ لمحض الاجتهاد .

ولـٰكن هـٰذا الظنَّ في موطنٍ أو موطنين لا يذهبُ ببريق هـٰذه التأصيلةِ البديعة[١] .

أدبيات

قارئُ « الأمد الأقصىٰ » سيستطيبُ التجنيساتِ البديعةَ التي ابتنىٰ عليها القاضي أبو زيد جُملَهُ ؛ فهي بعيدةٌ عن الكُلفة ، مأنوسةُ المفردات ، بديعةُ النسج في صورةٍ مبتكرة[٢] .

وتُوردُ له كُتُبُ التراجمات يسيراً من الشعر ؛ لا يرقىٰ به إلىٰ منصَّةِ الشعراء ، كما أنه لا ينزلُ بمنثوره عن رتبة الأدباء ، وهـٰذه الأشعارُ قليلةٌ ، وأشبهُ ما تكون بكلامِ العلم ، إلا أنها في صورة النظم .

ومن هـٰذه الأشعارِ اللطيفة التي تُبرزُ لنا إمامتَهُ في التأصيل لعلم كادَتْ معالمه أن تندرسَ : ما وردَ في فاتحة كتابه العظيم « تقويم أصول الفقه » أو « الأسرار في الأصول والفروع »[٣] : (من الطويل)

جَهِدْتُ لتأصيلِ الدلائلِ للورىٰ فوفَّقني ربِّي وما طاشَ مِنْ سهمي
فأحييتُ ما قد ماتَ مِنْ سننِ الهدىٰ لمستنبِطي الأحكامِ بالرأْيِ والفهْمِ

وقولُهُ في خاتمته[٤] : (من الطويل)

---

(١) وقد ذكر العلامة محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالىٰ : أن علماء الحنفية من بعد الدبوسي راقَتْ لهم هـٰذه التربيعات ، ونهجوا نهجها . انظر « مقالات الكوثري » (ص ٤٦٠) .
(٢) سيتمُّ إيرادُ بعضها قريباً .
(٣) الأسرار في الأصول والفروع (٣/٢) .
(٤) الأسرار في الأصول والفروع (٢٠٨/٤) .

أتيتُ بجِدِّي مستعيناً بخالقي حدودَ معاني النطقِ حتى استقرَّتِ
نظرتُ سخينَ العينِ عشرينَ حجَّةً فما زلتُ حتىٰ زالَ عنها فقرَّتِ

وأوردَ له الغزولي في « مطالع البدور » قطعة بديعة في نهمتِهِ في العلم وأهله ؛ حيث قال : وقال أبو زيدٍ الدبوسي : [من المتقارب]

إذا ما خلا الناسُ في دورهم بزهرِ الندامىٰ وعزِّ الصحابِ
وأكلِ الطعامِ وشربِ المدامِ وتمَّ السرورُ بخَوْدٍ كَعابِ
خلوتُ وصحبي بكُتْبِ العلومِ فكانَ الأنيسَ لقلبي كتابي
ودرسُ العلومِ شرابُ العقولِ فطوفوا عليَّ بذاكَ الشرابِ
ومَنْ كانَ في دهرِهِ جامعاً سوى العلمِ جمعُهُ للذَّهابِ[1]

وفي « الجواهر المضية » : (وهبُ بن منبه بن عبد الله الغزنوي : ذكره السِّلَفيُّ في « معجم شيوخه » ، وقال : قدمَ علينا بغدادَ ، وأنشدنا أبياتاً ، قال : أنشدني حامدُ بن محمد بن محمد الفمغاني الحنفي بغزنةَ للقاضي أبي زيد الدَّبُوسي صاحبِ الطريقة في الخلاف : [من البسيط]

مضيتُ والحاسدُ المغبونُ يتبعني إنَّ المنيَّةَ كأسٌ كلُّنا حاسِ
لو كانَ للناسِ ضِيقٌ في مزاحمتي فالموتُ قد وسَّعَ الدنيا على الناسِ

قال أبو طاهر[2] : وهبٌ هـٰذا فقيهٌ علىٰ مذهب أبي حنيفةَ ، كتبنا عنه عن أبيه)[3] .

---

(١) مطالع البدور (٢/ ١٧٢) ، والله أعلم بصحة نسبة هـٰذه الأبيات له .
(٢) يعني : الحافظ السِّلَفي .
(٣) انظر « الجواهر المضية » (٢/ ٢٠٩) .

وتروي له الكتبُ التي ترجمت له : أنه ناظرَ بعضَ الفقهاء ، فكان كلَّما ألزمَهُ إلزاماً تبسَّمَ أو ضحك ، فأنشد : (من السريع)

مـا لـي إذا ألـزمتُـهُ حُجَّـةً قـابلَني بـالضِّحْـكِ والقهقهَـهْ
إنْ كانَ ضِحْكُ المرءِ مِنْ فقهِهِ فـالـدُّبُ فـي الصحـراءِ مـا أفقهَـهْ[1]

وهـٰذه منتخباتٌ من منثوراتِ أقواله :

ـ ما هلكَ امرؤٌ عرفَ قدره ، ولا سَلِمَ قويٌّ تعدَّىٰ طوره[2] .

ـ لا حَسَبَ مثلُ الجود بالموجود ، ولا غنىٰ مثلُ إحسان الظنِّ بالمعبود[3] .

ـ إيَّاكَ والدُّعابةَ ؛ فإنَّها تسقطُ المهابة ، ودَعِ الخُرْق ؛ فإنَّهُ فرعُ الحُمْق ، وعليكَ بالرفقِ ؛ فإنَّهُ طَوْلُ الخُلْقِ ، وجانبِ الخلافَ فهو حَبُّ الفشل ، والتوانيَ فهو أخُ الكسلِ ، وإيَّاكَ والميلَ لقرابة ، أو العفوَ لمكانة ؛ فإنَّ الله تعالىٰ أعلىٰ مكاناً ، وأقربُ شاناً[4] .

ـ إن مَنْ غَفَلَ عن أسباب الرزق بالرزَّاقِ أتاهُ الرزقُ مِنْ حيث لم يحتسب ، وكان العيشُ رَغَداً وإنْ لم يكتسب ، ومَنْ غَفَلَ عن الأمكنة بالمولىٰ حملَهُ البَرُّ والبحر ، ومَنْ غَفَلَ عن الأقسامِ بالقسَّامِ نفعَهُ الخيرُ والشر ، ومَنْ غَفَلَ عن

---

(١) وغالب كتب الترجمات أوردت للقاضي أبي زيد هـٰذين البيتين ، وكذا أوردهما العلامة ابن قطلوبغا في « تاج التراجم » (ص ١٩٢) وقال : (ويروىٰ : بالضحك والتبسمَهْ ، فالدب في الصحراء ما أفهمَهْ) ، والحقُّ : أنهما بيتانِ لا يمثلان رتبته الأدبية ؛ إذ وجهُ الشبه وإن كان ضمنياً لا يظهر ، فليتَهم أوردوا له أبياتَهُ في تأصيل علم الأصول .
(٢) انظر (ص٤٩١) .
(٣) انظر (ص٤٨٦) .
(٤) انظر (ص٤٨٩) .

الأوامر والنواهي بالآمرِ والناهي تأخَّرَ عنه النهيُ والأمر[1] .

ـ الظفرُ بابُ المَلالة ، والحرمانُ بابُ الاستطراف[2] .

ـ أيقظَ اللهُ القلوبَ مكانَ العيون ، ووفَّقَنا لاتِّباعِ اليقينِ مكانَ الظُّنون[3] .

ـ طريقُ الحقِّ خفيٌّ بين طرفي الغلوِّ والتقصير[4] .

ـ إنَّ الدنيا عجوزٌ بِكْرٌ تبرَّجَتْ لأزواجها ، وأطمعَتْ في ازدواجها ، فعشقَها الكلُّ إلا مَنْ شاء الله ، وجادلَ بعضُهم بعضاً لتخلُصَ له ، فهلكوا قبلَ الوصولِ إليها صفواً ، إلا مَنْ تمتَّعَ بمسِّها قانعاً بالشِّرْكَةِ حالَ غفلته لضرورة شَبَق ، ثم طلَّقَها بموجَبِ الغيرة نادماً علىٰ ما سبق ؛ كأكلِ الميتة وعليها الذئابُ والكلاب لسدِّ الرَّمق[5] .

ـ صحبةُ الله أهنىٰ صحبة ، وأعلىٰ قُرْبة ، وما فيها للمخلِصِ مِنْ آفة ، وللعبدِ هـٰذه الصحبةُ بلا حَجْرِ حِجاب ، وهـٰذه الحضرةُ بلا زَجْرِ حُجَّاب[6] .

ـ علىٰ حسَبِ اتِّحاد العِلَل تتَّحِدُ الأحكامُ ، وبقَدْرِ ضياءِ الشمس تتجلَّى الأيام[7] .

ـ أمَّا علمُ القرآن حفظاً فيسير ، وقد حفظَهُ مِنَ الصبيان والعوامِّ كثير ، والشأنُ في علم التأويلِ والتفسير ، فما نالَهُما إلا الموفَّقُ الكبير[8] .

---

(١) انظر (ص٤٣٥) .

(٢) انظر (ص١٩٨) .

(٣) انظر (ص١٥٨) .

(٤) انظر (ص٧٤٨) .

(٥) انظر (ص٢٠٠) .

(٦) انظر (ص٢٠٠) .

(٧) انظر (ص٤٣٩) .

(٨) انظر (ص٦٤١) .

ـ الفقير القانع يفضُلُ المكثر في سرورِهِ من حيث قلَّةُ الهموم[1] .

ـ من امتلأ قلبُهُ معرفةً لم ينلْ من المرأة سَكَناً ، ومَنْ رَوِيَ من شراب التصديق لم يجدْ من الخُبْزِ شِبَعاً ، ومَنْ رأىٰ سِرْبالَ الإسلام لم يلتفتْ إلىٰ سرابيلِ أهله ، ومَنْ عرف وجوبَ الإحسان عليهِ جزاءً لم يعملْ مُعْجَباً بفعله[2] .

وفاته

ثلاثةٌ وستون عاماً قضاها القاضي أبو زيدٍ في البلاد المشرقية ، رافعاً لواءَ السادة الحنفية ، مؤيِّداً لمذهبهم بالحُججِ الجليّة ، ناشراً لعلم الخلاف مؤصِّلاً له ، لينطفئَ سراجُهُ بالأجل المسمَّىٰ في ربوع بُخارىٰ سنةَ (٤٣٠ هـ)[3] ، ويُدفنَ في مقبرةٍ بكَلاباذَ قُربَ بُخارىٰ عُرفَتْ بعدُ بمقبرة القضاة السبعة ؛ إذْ هو واحدٌ منهم .

وقيل : توفي سنة (٤٣٢ هـ) ، حيث نقل العلامةُ القرشي في « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » عن الإمام السمعاني أنه قال : (ورأيت بخط ابن

---

(١) انظر (ص١٩٩) .

(٢) انظر (ص٣٦٢) .

(٣) هـٰذا التاريخُ هو الذي ارتاحَ إليه الإمام السمعاني في « الأنساب » (٥/٣٠٦) وهو ابنُ بجدته ؛ حيث قال : (توفي ببخارىٰ في سنة ثلاثين وأربع مئة إن شاء الله ، ودُفِنَ بقرب الإمام أبي بكر بن طرخان ، وزرتُ قبرَهُ غيرَ مرة) ، وكان الخليفةَ يومَها القائمُ بأمر الله كما ذكر ذلك الإمام السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص ٣٠١) ، وعبارته ـ وفي سياقها ذكر بعض أقران القاضي الدبوسي ـ : (مات في أيامه من الأعلام : أبو بكر البرقاني ، وأبو الفضل الفلكي ، والثعلبي المفسر ، والقدوري شيخ الحنفية ، وابن سينا شيخ الفلاسفة ، ومهيار الشاعر ، وأبو نعيم صاحب « الحلية » ، وأبو زيد الدَّبُوسي) .

الظاهري : توفي يوم الخميس منتصفَ جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة)[١] .

وقيل : توفي سنة (٤٣٥ هـ) ، كذا ذُكِرَ ضمن أقوال في الورقة الثانية من النسخة (و) المعتمدة في إخراج هـٰذا الكتاب .

وأغربُ الأقوال : ما ذكره المؤرخ العلامة ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » ؛ حيث قال عن حوادث سنة (٤٥٧ هـ) : (فيها توفي عبيد الله بن عمرَ القاضي أبو زيد الدبوسي الحنفي)[٢] .

ووقعَ في الوهم مَنْ نسبَ إلى الشيخ الرئيس ابن سينا رثاءً في قاضينا أبي زيد ؛ ففي الورقة الثالثة من النسخة (و) المعتمدة في إخراج هـٰذا الكتاب :

وتوفي في عصر ابن سينا الرئيس ، وقد رثاه ببيتينِ ؛ وهما هـٰذين : [من البسيط]

لو صُوِّرَ الكونُ عيناً تستفيضُ دماً بشَقِّ جيبٍ ولَطْمِ الوجهِ بالأيدي
لم يوفِ مِنْ حقِّهِ ما كانَ يلزمُهُ مِنَ البكاءِ على القاضي أبي زيدِ

وليس بكثيرٍ علىٰ إمام جبلٍ مثلِهِ هـٰذا الوصفُ ، **ولـٰكن نسبته إلى ابن سينا وهمٌ ظاهر** ، ولا يخفىٰ وجهُ الوهم ؛ إذ ابنُ سينا توفي سنة (٤٢٨ هـ) باتفاقِ من ترجم له ، وتقدَّمَ اتفاقُ المترجمين للقاضي أبي زيد أنه توفي سنة (٤٣٠هـ) أو بعدها[٣] .

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ٣٣٩) ، وكذا ذكر هـٰذا القول بصيغة التضعيف العلامة ابن قطلوبغا في « تاج التراجم » (ص ١٩٢) ، وكرَّرَ ترجمته في الكنىٰ (ص ٣٣٠) معوِّلاً على القول الأول فقط .

(٢) النجوم الزاهرة (٥/ ٧٦) .

(٣) وقد غلا بعض من ترجم للقاضي أبي زيد ؛ فخطَّأَ المؤرِّخين جميعاً في تأريخهم لوفاة =

الدبوسي والغزالي في محراب الأخلاق

سيظهرُ لك عند الحديث عمَّا في كتابنا « الأمد الأقصىٰ » قُرْبُ ما بينَ هٰذين الإمامينِ العظيمين ، وما أسدىٰ كلٌّ واحدٍ منهما إلى أمَّتِهِ مشكوراً مبروراً من إرثٍ في المنحى التربويِّ الأخلاقي ، ومع قلَّة هٰذا التراث عندَ الإمام الدبوسي نراهُ أنه قد سبقَ إلىٰ تدوين أدبٍ عرفانيٍّ بلغة أصوليَّةٍ بديعة ، كما نرى الإمام الغزاليَّ شيخَ مَنْ أصَّلَ التصوفَ وكتبَ فيه ؛ حتىٰ صارت كتبُهُ في هٰذا الفنِّ مرجعاً لكلِّ المسلمين فضلاً عن أهل السنَّة والجماعة ، بل مرجعاً لكلِّ البشرية ، كما تشهدُ بذلك ترجمةُ كتبه للُّغات الحيَّة .

وبحقٍّ أقول : مع كون كلٍّ من هٰذين الإمامينِ الجليلين أصوليّاً بارعاً ، وزاهداً متحقِّقاً ، ومُدْرِكاً لأحوال العباد وما يتحوَّلون منه وإليه . . نرىٰ كُتُبَ الإمام الغزالي لها الصدارةُ في ميدان الوعظِ والإرشادِ ، دونَ أدنى استنقاصٍ للإمام الدبوسي ؛ ولعل ذلك يرجعُ إلى أسباب عديدة ؛ منها :

ـ أنَّنا نرى الإمام الدبوسيَّ قد كتبَ في بعض الموضوعات الأخلاقية ، بينَما نرى الإمام الغزاليَّ صاحبَ منهجٍ شاملٍ ومتكاملٍ فيما دوَّن في تهذيب النفس ، والولوجِ بها في معارج القدس ، مُنَظِّماً لما يمكنُ أن ندَّعيَ بدوَّهُ عند الإمامِ الدبوسي ، والذي نحسبُ أنه لو رأىٰ صنيعَ الحجَّةِ الغزالي لقَرَّ به عيناً .

= الشيخ الرئيس ابن سينا ، وادَّعىٰ أنه مات بعد سنة (٤٣٢ هـ) ؛ لهٰذين البيتين !

ـ أنَّ الإمام الدبوسيَّ لم يكن ذا اطِّلاعٍ واسعٍ علىٰ كُتُبِ الصوفيةِ أئمةِ هٰذا الشأن ـ مع توافرِها ذلك الحين ـ كاطِّلاع الحجة الغزالي ، بل إن الغزاليَّ نصَّ علىٰ قراءة كتبهم ، وسلوكِ طريقتهم ، وهٰذا ما لا نراه جليّاً في حياة الإمام الدبوسيِّ ولا في تصانيفه ، والنادرُ لا حكمَ له .

ـ أن اللغة الأصوليَّةَ للإمام الدبوسي غلبَتْ عليه في هٰذا الكتاب الإرشاديِّ الوعظي ، وأتىٰ بتدقيقاتٍ في مجال معرفةِ النفس ونوازِعِها بديعةٍ لا تكاد تخطرُ علىٰ بال[1] ، غير أنَّنا نرى الإمام الغزاليَّ أتىٰ علىٰ مثلِ هٰذه التدقيقات مع زيادة ، ولٰكنه اختار لغةً أيسرَ في عرضِها ، وأبعثَ علىٰ تصوُّرِها وفهمها .

ـ أنَّنا نجدُ غيابَ عنصرِ القصصِ والأخبار وحكاياتِ الصالحين وأحوالهم عند الإمام أبي زيد ، بينَما نرىٰ ذلك جليّاً قويّاً عند الإمام الغزالي ، لا يكادُ يسطرُ حُكْماً إلا ويتبعُهُ أثراً ، أو يؤصِّلُ مسألة إلا ويلحقُها خبراً ، ولا تخفىٰ أهميةُ هٰذا المسلك في أمثال هٰذه الكتب ، بل إن بعضَ كتبِ التصوف اكتفَتْ بتدوين هٰذا العلمِ من خلال الأخبارِ وحكاية الأحوال .

ـ أنَّنا نرى الإمام الدبوسيَّ وصلَ إلىٰ أحوالِهِ العالية الرفيعة بمعيةِ عقلِهِ الكبير ، وقبل ذلك توفيقاتُ المولىٰ له بصدقِهِ وإخلاصه دونَ شكٍّ ، وهو

---

(١) من هٰذه التدقيقات : أن فتنة العلم أقوىٰ من فتنة المال ، وأن المجاهد الذي ظفر خيرٌ من الذي قُتلَ فغُدر ، وأن أضلَّ الفرق الإسلامية هم الخوارج ؛ لتكفيرهم الإمامَ الحقَّ وقتلهم العدول ، وتفريقهم للأمة ، وأن الزاهد في الدنيا التاركَ لها أعظمُ شأناً ممَّن نالَها فبذلها ، وهٰذا يرجعُ إلىٰ تفضيل الفقيرِ الصابر على الغنيِّ الشاكر ، أو القانع على المستكثر ، وأن تجلِّي المولىٰ تبارك وتعالىٰ ورؤيتِهِ بمعنىً ، وأن رزءَ العبد المبتلىٰ مهما عظُمَتْ بلاياه دون رزءِ الذي يعدم الحياة .

مسلكٌ وَعْرٌ كما لا يخفىٰ ، لا ينجو فيه إلا المؤيَّدُ المسدَّد وعلىٰ قلَّة وندرة ، بينما نرى الإمامَ الغزالي يصرِّحُ بصحبة الصوفية ، والاجتماعِ ببعض نقبائِهم من أهل الطريق ، وهو الطريقُ المأثور ، والصالحُ لعامَّة الخلق .

ـ أنَّ الإمام الدبوسيَّ كان من أوائل من انبرىٰ لتأصيل التصوفِ بهـٰذه اللغة الفريدة ، وسَبْقُ الإمام الحبرِ المتكلِّم الحارث المحاسبيِّ له لا يعكِّرُ علىٰ هـٰذا ؛ إذ لغةُ الدبوسي مغايرةٌ بجلاء للغة الحبرِ المحاسبي ، علىٰ أن الفضل للأسبق ، بينما نرى الإمام الغزاليَّ يجمعُ بين الطريقتين ، ولا أجزمُ باطِّلاع الغزالي على « الأمد الأقصىٰ » ، مع الجزم بوقوفه علىٰ بعض تراث الدبوسي ، ولـٰكنَّنا نرىٰ لغةَ العقل والنقل مزدوِجةً في كلِّ كتب الغزالي العرفانية ؛ فـ « إحياؤه » مثلاً ضمَّ فيه قريباً من خمسةَ عشر ألفَ أثرٍ من مرفوعٍ وغيره ، ولا تكاد تقفُ علىٰ مقدمة كتابٍ من كتب « إحياء علوم الدين » إلا بصحبة تأصيلٍ بديع يرعىٰ فيه الغزاليُّ حقَّ مادَّة هـٰذا الكتاب .

ـ أنَّنا نرى الإمام الدبوسيَّ قام بصناعة اصطلاحاتٍ خاصة به ، غيرَ آبهٍ بما اصطلحَ عليه القوم ، وكانت اصطلاحاتُهُ من الغرابة بمكان ؛ لبعدها عن العُرْفِ اللغوي ، وعدمِ رؤية أمثالِها لا في كتب العرفان ولا الفقهِ ولا الأصول ، بل ما زال يشبكُ اصطلاحاً إلى اصطلاح ، ويبني مجازاً فوقَ مجاز ، حتىٰ إنَّ من يقرأُ كلامَهُ من غير سردٍ من فاتحته إلىٰ خاتمتِهِ . لن يصلَ إلىٰ غاية ، واضطرَّ عوداً إلىٰ بداية ، وهـٰذا سببٌ رئيسٌ في غربةِ كُتُبِهِ التربوية عنَّا ، ولولا أن أئمَّتنا من السادة الحنفيَّةِ اعتنوا بتراثِهِ الأخلاقيِّ لضاعَ وما شاع .

فمن ذا الذي سيعرفُ المرادَ من السوداء والصفراء ، ومن الصيفِ والشتاء ،

وأولياءِ العزلة وأولياء العِشرة ، واللوَّامةِ والأمارة بالسوء[1] ، والمِنْجمِ والوزَّان ، والسَّنْجِ واللسان ، وغيرِها من عويصِ المصطلحات التي لا تُلفىٰ في كتب القوم عموماً . . لولا وقوفُهُ وتأمُّلُهُ الطويل في طالعة كلِّ كتاب من كُتُبِ « الأمد الأقصىٰ » ، مع اجتهادٍ في فكِّ ألغاز هـٰذه المصطلحات ؟!

بينما نرى الإمام الغزاليَّ لا يخرج عمَّا تُعُورفَ في كتب القوم ؛ فغريبُهُ ميسور ، ومجازُهُ مشهور ، وليس هـٰذا لعجزٍ عن صناعة الاصطلاحات ؛ فإن ذلك عند منْ عرف الغزاليَّ علىٰ طرف الثُّمام ، ولـٰكنَّ مراعاةَ مصطلحٍ فاشٍ صار يُنزَّلُ منزلةَ الحقيقة العرفية . . أَولىٰ من اصطلاحٍ وليدٍ خاصٍّ ، بعيدٍ عن متناول ألسنةِ أهل العلم وأسنَّة أقلامهم .

نعم ؛ لا يمكنُ لأحدٍ أن يدَّعي في حقِّ الإمام الدبوسيِّ الزاهد أنه امتطىٰ صهوةَ الغريب للإغراب ، بل غايةُ ما يمكن أن يقال : أنه لم يمارسْ كُتُبَ الصوفية التي غالبُ أئمَّتِها من قدماء الأشعرية ؛ كالحارث والجنيد ، أو من متأخِّريهم ؛ كابن خفيف والسلمي ، ولم يكن الإمام الدبوسيُّ قد فرغَ لهـٰذا النمطِ من التأليف .

ولئن تعصَّبَ متعصِّبٌ للإمام أبي زيد ، ورأىٰ أن هـٰذا التقديم في هـٰذه البابة هو محضُ تخرُّصٍ . . فلنتركِ المكتبة الإسلامية تجيبُ ، ولنُنْعمِ النظرَ في الأثر الذي خلَّفَتْهُ كتبُ الغزالي فيها ، ونتأمَّلْ عشرات الترجمات لكتبه التربوية وعلىٰ رأسها كتاب « إحياء علوم الدين » ، علىٰ حين نرىٰ كتبَ الدبوسي لم تجاوزْ بجدتَهُ إلا يسيراً ، ولم تَرُقْ لأهل العلم علىٰ ما فيها من علمٍ جمٍّ .

---

(١) وستعجب حينما تعلم أن اللوَّامة نفسُ الكافر العالم ، والأمارةَ بالسوء نفسُ المؤمن العالم .

وليس ما قرأتَهُ سطوراً في مفاضلة الغزاليِّ على الدبوسيِّ ، معاذَ الله أن يجرؤَ قلمٌ حقيرٌ ، علىٰ تدوينِ مثل هـٰذا الأمر الخطير ، وقد وقفَ أعلامُ الكلام عن الخوض في تفضيل باقي العشرة بعد الراشدين بعضِهم علىٰ بعض ؛ لكون الفضلِ يرجع إلى التوقيف ، ولـٰكنه النظرُ في أثرِ المخلَّفِ التزكويِّ لكلٍّ منهما ، وهـٰذا مُدْرَكٌ لكلِّ من أنصفَ واستبصر(١) .



(١) ما زلتُ أعجبُ ممَّن يجعلُ معيارَ الفضل في مجرَّد الانتساب إلىٰ مذهبٍ أو طريقة ؛ فيظنُّ مثلاً تفضيلَ المالكية علىٰ مَنْ سواهم من أرباب المدارس المذهبية ، أو أن أصولَ الحنفية أرصنُ من أصول الشافعية ، سواءٌ اعتقدَ الإجمالَ أو التفصيل ، علىٰ أن معتقد التفصيل جاهلٌ مركَّب ! فنحن اليومَ بين آفة اللامذهبية ، وآفة العصبية ، علىٰ أن العصبية هنا أخفُّ خطراً ، وأقلُّ ضرراً ؛ إذِ المتعصِّبُ مع خطئِهِ متَّبعٌ لقولٍ منصور ، واللامتمذهبُ بفعلِهِ مغرورٌ مثبور .

وإنَّنا في زمنٍ انقرضَ فيه أهلُ العلم ؛ فقد ذهبَ العلمُ واندثرَ الفهم ، ومضى العالمون وبقيَ المتعالمون ، فلا تحسبنَّ العلمَ كُتُباً مرفوفة ، أو كلماتٍ مرصوفة ، فما أكثرَ هـٰذا اليوم ! والعهدُ بأشياخنا : صونُ ألسنتِهم عن انتقاصِ من خالفَ أئمَّتَهم من أتباع إمامٍ معتبر ، وتقبيحُ قولِ من يقول من طلابِهم : حجَّتُنا على الشافعيِّ كذا وكذا ، وجوابُنا على استدلال أحمدَ كذا وكذا ! فما هـٰذا إلا كالفرُّوج سمعَ صياحَ الديكة فصاح ؛ كما قالت فقيهةُ الصحابة رضي الله عنها في حقِّ مَنْ لا يصلُ فقهاء زمانِنا إلىٰ عتبة عقله ، وهل الظاهرون اليومَ ممَّن يقدِّمُ نفسَهُ وصيّاً علىٰ مذهبٍ من مذاهب العلماء إلا مقلِّدٌ في الدليلِ قبل المدلول وهو يحسبُ أنه محقِّقٌ مدقِّق ؟! وانظرْ إلىٰ فضيحةِ هـٰؤلاء الأدعياءِ حينما يجابَهون بمسألةٍ لم يقفوا عليها ؛ كيف يبربرونَ غاضبين في بلاهةٍ منعدمةِ النظير .

نعم ؛ التمذهبُ شيءٌ ، والتعصُّبُ للمذهب شيءٌ آخر ، وتقليدُ الإمام واتِّباعُهُ شيءٌ ، واستنقاصُ سائرِ المذاهب شيءٌ آخر ، فما أحوجَنا اليومَ إلىٰ من يقرِّرُ ما قرَّرَهُ المجتهدون برصانةٍ وأدب ، مبيِّناً أقوالَهم وحُجَجَهم ، متأدِّباً مع اجتهاداتِ أقرانِهم ، بل إن المزاحَ في خلافاتِ الأئمة مزاحٌ مشين لا خيرَ فيه ، غالباً ما ينقلبُ إلىٰ تعصُّبات لا تزيدُنا إلا تفريقاً =

كلمةٌ عن كتاب « الأمد الأقصى »

السعادةُ بكلِّ معانيها ، وباعتبار مسالكِها ومناحيها . . مقصدُ ذوي العقول الزكيَّة ، والأرواحِ الرضيَّة ، وقد كتب العلامة أبو زيدٍ لتحصيلِها كتابينِ يتمِّمُ أحدُهما الآخرَ ؛ فكتب في بيان صلاح وفساد العمل الظاهرِ كتابَ « **خزانة الهدىٰ** » ، وفي بيان صلاحِ وفساد العملِ الباطن كتابَ « **الأمد الأقصىٰ** » .

وما أشبهَ هـٰذينِ الكتابينِ بكتابَي حجة الإسلام الغزالي « **معيار العلم** » و« **ميزان العمل** » ؛ فقد دوَّنَ الأول ميزاناً للعقول لتنتظمَ أحكامُها ، والثانيَ معياراً للأعمال ليُعرفَ صحيحُها من فاسدِها[1] ، **وهل بعد سلامة العلم والعملِ علامة ، دالَّةٌ على النجاة والسلامة ؟!** ولا يفوتك وجهُ الشبهِ بين هـٰذينِ الإمامينِ .

وقد عبَّرَ عن هـٰذا المقصدِ النبيل الذي استَهْدَفَ لتدوينه ؛ إذْ قال علىٰ لسانِ الأخِ الذي جرَّدَهُ من نفسِهِ مستطيباً لمسلكِ الحوار في إنشاء هـٰذا الكتاب : (سعْيُ كلِّ حيٍّ لدَرَكِ نفع عاجل ، أو لدفْعِ ضرٍّ حاضر ، واخْتَصَّ العقلاءُ مِنْ بينهم في المطالبِ ، بقَصْدِ نفعِ العواقب ، ثم اخْتَصَّ منهم الطبقةُ العالية ،

= وتمزيقاً ، ولولا خوفُ الأفهام السقيمة لجرؤَ أحدُنا وقال : ذهبَ المتمذهبون بحقٍّ ، وأربابُ الطُّرُقِ الصوفية المستمسكونَ بها بصدق ، وبقيَ اليومَ رثيثٌ ماضٍ عمَّا قريب ، ولله تبارك وتعالىٰ في خلقِهِ شؤون .

(١) المعيار : وحدة الوزن .

بإتعاب الجسومِ للرُّتَبِ السامية ، فهل عندَكَ علمٌ بالأمدِ الأقصىٰ ، فما ينبغي للعاقلِ أنْ يرضىٰ بدونِهِ لنفسه فيما يسعىٰ ؟)[١] .

وإنما السعادة عند أبي زيدٍ والمحقِّقين : أنْ تفعلَ ما تشاء وتحكمَ ما تريد ، وليسَتِ الدنيا محلّاً لهـٰذا الحكمِ للعبيد ، بل محلُّ ذلك الجنةُ الباقيةُ بلادُ الأفراح ، لا الدنيا الفانيةُ بلادُ الأتراح ؛ فقد وهبَ الحكيم الخبير لأهليهِ سرَّ (كنْ فيكون) ؛ بدلالة : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

ماذا في « الأمد الأقصى » ؟

كتبَ قاضينا أبو زيد في منهجينِ جليلين ؛ أحدُهما في تهذيب الباطن وتزكيتِهِ ، والآخرُ في تهذيب الظاهر وتصحيحِ أفعاله ، وإن شئت قلت : أحدُهما في العبودية ، والآخر في العبادة ، وإن شئت قلت : أحدُهما في الإيمان والإحسان ، والآخر في الإسلام ، و« الأمد الأقصىٰ » كان للأوَّلِ من هـٰذه الثنائيات .

وقد بيَّنَ ذلك فقال : (إن لكلِّ عبادة أسباباً تجب بها ، وأركاناً تتأدَّىٰ بها ، وشروطاً لا يصحُّ الأداءُ إلا معها ، وسُنَناً لا تكمل دونها ، وهي مِنْ أبواب الفقهاء ، وقد ذكرناها في تصانيف الفقهِ[٢] ، **وكتابُنا هـٰذا لتهذيبِ أحوالِ العبدِ لأداءِ ما لزمَهُ بسمعِهِ وطاعتِهِ** ، وبابُ الفقهِ يسيرٌ ، وهـٰذا بابٌ عزيزٌ ؛ ففي الفقهِ تبحُّرٌ في العلمِ ، وللنفسِ فيهِ إمرةٌ ، وفي التهذيبِ ـ للبناءِ على السمعِ

(١) انظر (ص٩٠) .
(٢) ككتابه « خزانة الهدىٰ » ، وكتاب « أسرار الله في المسائل » .

والطاعةِ ـ عَزْلُ النفس عن الإمرةِ إلى العبادة والعبوديّة)[١] .

وقد تضمَّنَ « **الأمد الأقصىٰ** » أحد عشر كتاباً بمقدماتها وخواتيمها ؛ فهو ـ مع شدَّةِ المباينة والمغايرة ـ قريبٌ من كتاب « إحياء علوم الدين » في هٰذا الملحظ ، وهٰذه الكُتُبُ هي :

ـ **كتابُ جهادِ النفس** : عرضَ فيه لتفسير قوله عليه الصلاةُ والسلام : « أفضلُ الجهادِ جهادُ النفسِ »[٢] ، وبيانِ كون الدنيا مهلكة ، والآخرةِ مملكة ، مبيِّناً العلاقة بين الروحِ والقلب ، وبين النفسِ والحواسِّ الخمس .

ـ **كتابُ حِكَم أصل الخلق** : تحدَّثَ فيه عن حِكَمِ خلقِ البشر من العناصر الأربعة وطبائعها ؛ تحقيقاً للبلاء والامتحان في دار الهوان ، وعن دلائلِ هٰذه الحِكَم .

ـ **كتابُ الفصولِ الأربعة** : تحدَّثَ فيه عن أحوال الإنسان وأطواره ؛ مذْ كان في بطن أمِّهِ جنيناً ، إلىٰ أن يصيرَ إلى القبر دفيناً ؛ من طفولة وشباب ، إلىٰ كهولة ومشيب ، ناصحاً بما يجبُ عليك أن تلزمَهُ وأن تحذرَهُ فيما يأتي أو أتىٰ من قبلُ ، وأن تعتبرَهُ كلَّ حينٍ وفصل .

ـ **كتابُ العبوديّة** : بيَّنَ فيه وصفَي العبادة والعبودية ، وشمولهما لكلِّ البريّة ، وأن في العبادة اختياراً ، وفي العبودية اضطراراً ، وذكرَ نِعَمَ الله علىٰ عبيده وحقَّهُ عليهم ، وضرورةَ الانقيادِ لحُكْمه ، والطاعةِ لأمره .

---

(١) انظر (ص٦٤٨) .

(٢) انظر (ص١٠٧) .

ـ **كتابُ الفقر** : ذكرَ فيه أن الفقرَ ملازمٌ للعبد لا ينفكُّ عنه بحال ، وأن المتنبِّهَ لهٰذا المتلبِّسَ فيه صاحبُ كمال ، وأن العبدَ ممتحَن ، وأن طلبَ القوت والكفاية من العناية ، والاستكثارَ مهلكة ووبال ، وفيه الحديث عن أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع الدنيا ، وأحوالِ طُلَّابها من الخلق وأُباتِها .

ـ **كتابُ الأمر** : بيَّنَ فيه أن العبدَ مأمور وممتحَنٌ بمنهاجٍ وشريعة ؛ من معرفة وطاعة ، ومطالَبٌ بتحقيق أركان الإيمانِ والإسلام في قلبه وبدنه ، ثم بيَّنَ أقسام العابدين ؛ من فائز وخاسر ، ومغرورٍ وأحمق .

ـ **كتاب السِّجْنِ والمَمْلَكَة** : بيَّنَ فيه أن الجنَّةَ مملكةُ المؤمن ، والدنيا سجنُهُ ، وأن الدنيا مملكةُ الكافر ، وجهنَّمَ سجنُهُ ، وسُبُلَ التعرُّفِ علىٰ هٰذه الحقائق ، والاستعداد لمنازلتِها .

ـ **كتابُ الميزان** : ذكرَ فيه أنه تعالىٰ وضعَ الميزان عدلاً علىٰ كلِّ شيء ، وأتىٰ علىٰ بيان حقائقِ النفوس البشرية ، ومظاهرِها وأحوالها .

ـ **كتابُ أقسامِ الناسِ في الدين** : وهو في الوقوفِ علىٰ أسرار النفس عجيب ، قد قسم الناس فيه باعتبار العقد والعمل إلىٰ صدِّيق ، وفاسق ، وجاحد ، ومنافق ، ثم تحدَّثَ عن الناس بملاحظة شؤون الدنيا ، وله فيه فصلٌ عن أحوال الأمير وحاشيته يصلحُ أن يكون صحيفة مشرقة في الحديث عن الملوك والسياسةِ الشرعية .

ـ **كتابُ المحنةِ والحيلة** : ذكرَ فيه كونَ الدنيا دارَ بلاء ومحنة ، وبيَّنَ مصايدَها وأحابيلَها ، ومحبوباتها ومكارهها ، وأتبعَ ذلك بالكلام عن الحيلة في النجاة منها ، والوسيلة التي يبلغُ العبد بها الأمد الأقصىٰ .

ـ **كتابُ الدعوة والرؤيةِ والبشارة** : وبهٰذا الكتاب ختم « الأمد الأقصىٰ » ، وهو **المقصودُ الأعلىٰ وفصلُ الخطاب** ، وقد قاربَ أن يكون برأسه ثلثَ الكتاب ، ذكرَ فيه أن العبدَ مدعوٌّ من قبل الرسول إلىٰ نجاته ، فإن هو أجاب نال الرؤية وفاز بالبشارة ، وإلا فقد خسر وحلَّ وعيدُ النذارة ، **وهٰذا الكتاب اشتملَ علىٰ عقائد أهل السنة والجماعة علىٰ طريقة البخارية من الماتريدية** ، مع اختياراتٍ لقاضينا أبي زيد دارَتْ مِنْ بعدُ في كتب الفقهِ والكلام ، حتىٰ إن الكتاب ليعدُّ من أقدم كتب الماتريدية المختصرةِ في بيان أصولِ الدين .

هٰذا باختصار شديد الهيكلُ العامُّ لكتاب « الأمد الأقصىٰ » ، وبه تعلمُ أبرزَ ما فيه ، وهٰذه الكتبُ علىٰ تباينِها مرتبطٌ أوَّلُها بآخرِها ، **وستعلم** : أن الأمد الأقصىٰ هو أن ينال العبدُ العتقَ والمُلْك والمنزلةَ العليا التي لا مطمحَ وراءَها .

ويجدرُ بنا أن نعرض لأهمِّ المسائل التي أثارَها وأبدعَ فيها القاضي أبو زيد ؛ **فمنها في الكتاب الذي بين أيدينا مثلاً** :

ـ **إثباتُ صفة الحكمة لله تعالىٰ علىٰ طريقة التحسين والتقبيح العقليين** : فأثبتَ وجوبَ التكليف والجزاءِ من ثوابٍ وعقابٍ من الله تعالىٰ ؛ لكونه سبحانه حكيماً ، وجعلَ العالَمَ دالاًّ علىٰ ذلك[1] ، وحينما تقفُ علىٰ نحو قوله : (وهو قبيحٌ في الحكمة) **فاعلم** : أنه علىٰ طريقة الماتريدية المستندةِ إلى القبْحِ العقلي .

---

(١) انظر التعليق علىٰ هٰذه المسألة مع خلاف الأشعرية (ص٥٤٣ ، ٥٦٠) .

ـ **الاستدلالُ بالشاهدِ على الغائب**[1] : وهو سمةٌ معروفة في كتبِ الماتريدية ، بل حينما تتحقَّقُ الجوامعُ الأربع ـ وهي الجمعُ بالدليل العقلي ، والحقيقةِ ، والتعليلِ ، والشرطِ ـ يكون من الأدلَّة القطعية عند عموم أهل السنَّة والجماعة أشعريَّةً وماتريدية[2] ، غير أن الماتريدية وسَّعوا الأخذَ بهـٰذا الأصل في الاستدلال أكثرَ من الأشعرية ، ومع هـٰذا لم يُفْرِطوا إفراطَ المعتزلة .

وأجلىٰ ما يكون هـٰذا الاستدلالُ في قضية المعرفة[3] ؛ حيث كلَّفَ القاضي أبو زيد ـ بل جميعُ الماتريدية بشبهِ إجماعٍ منهم ـ البالغَ العاقل بمعرفة الصانع ، وهو قولٌ سنيٌّ مشهور ؛ إذ الموجِبُ لهـٰذه المعرفة هو اللهُ تعالىٰ[4] ، لا العقل

---

(١) انظر (ص ٥٩٨) .

(٢) انظر « الإرشاد » لإمام الحرمين (ص٨٣) ، وقد ضرب القاضي أبو زيد (ص٦٠٢) مثالاً على انتفاء هـٰذا القياس عند انتفاء الجامع ، ألا ترىٰ أننا أثبتنا موجوداً قديماً بلا سبب ، ولا نشاهدُ موجوداً في عالمنا بغير سبب ؟! كما أن الأشياء موجودةٌ عن عدم ، ولا نشاهدُ هـٰذا في عالمنا أيضاً ، وكذلك عدمُ النهاية في الجزاء لا يلزمُ منه عدمُ النهاية في الابتداء ؛ لكون الجزاء إبقاءً لا بقاء .

(٣) انظر (ص٥٦٠) .

(٤) يعني : كأنه سبحانه قال : من نظر في مصنوعاتي وجبَتْ عليه معرفتي ، أرسلتُ رسولاً أو لم أرسل ، وهـٰذا المعنىٰ أفادَهُ الماتريدية من آيات الأمر بالتفكُّر والنظر ، فكأنه تعالىٰ أخبرنا أن العقلَ كافٍ في المطالبة بمعرفته سبحانه ، ولو لم تردْ هـٰذه الآياتُ لم يكن لهم أن يجرؤوا على القول بإيجاب المعرفة دون وجود بلاغٍ شرعي ، وإن شئت قلت : لو لم يبعث الله رسولاً ما لم تجب علينا معرفته ؛ إذ لا سبيلَ حينها لمعرفة هـٰذا الإيجاب ، وهـٰذا هو معنىٰ أن الموجِبَ هو الله تعالىٰ ، وأقوىٰ دليلٍ علىٰ هـٰذا الفهم : هو عدم إيجابِ البخارية ـ والقاضي أبو زيد من أئمتهم ـ معرفتَهُ تعالىٰ مع العقل دون البلوغ ، فالعقل كافٍ ولـٰكن باعتبار الحكم والقيد الشرعي هنا ؛ وهو البلوغ ، وإنما قال السمرقندية بوجوب =

كما هو مشهور مذهب المعتزلة[1] ؛ فالله تعالىٰ عرَّفَ عن وجوده ؛ **تارةً بتنبيهِ الرُّسُل** ؛ فقال لمن ترك المعرفة : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، وهٰؤلاء الذين بُلِّغوا يزيدُ الله في عذابهم بتركهم أحكامَ الابتلاء التكليفية الفرعية ؛ ﴿ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر : ٤٣] ، **وتارةً بتنبيهِ العقل** ؛ إذ العقلُ في نفسه متنبِّهٌ لكون المحدَثِ له مُحْدِثٌ ، وهٰذا مركوزٌ فيه معدودٌ من البديهيات ، وهٰذا هو لبُّ المقصود من المعرفة عندهم ، ولٰكن بالإشارة المفادةِ من الخطاب الشرعي ؛ قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : ٣٧] ولم يذكر الوحْيَ ، وقال : ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم : ٨] ، ولم يذكر الوحْيَ ، بل عاتبَهم علىٰ ترك التفكُّرِ[2] ، ومن هٰذا النوعِ قولُ القاضي أبي زيد : (وكما كوَّنَهم علىٰ صفة العبودية ابتداءً ، ولن يجوز في الشاهدِ نقضُ الحرية إلا على الكفرِ جزاء)[3] .

وقال في « تقويم أصول الفقه » : (ولما ثبتَ أن بالعقل كفايةً كان بنفسه حجةً بدون الشرع[4] ، ولزم العملُ به كما يجبُ بالشرع

= إرسال الرسل من الله تعالىٰ لهٰذا المعنىٰ ، والله أعلم .

(١) يعني : لو لم تردْ آياتُ الأمر بالنظر في الملك والملكوت لكان يجبُ على العاقل أن يؤمن بالله تعالىٰ ، وقد ترىٰ كلاماً لبعضهم كمذهب السمرقندية ؛ بكون الموجِبِ هو الله تعالىٰ .

(٢) انظر « تقويم أصول الفقه » (٢/٩٤٦) .

(٣) انظر (ص٣٠٩) .

(٤) يعني : حجة على المكلف ، ولٰكننا ما علمنا كونَهُ حجةً على المكلف إلا بالشرع ، لا أن =

وبسائر الحُجَجِ إذا قامت)[1] .

وقال أيضاً : (والجواب عن قولهم : **إن الله تعالىٰ لم يدعنا والعقولَ ؛** فإن ذلك من الله رحمةٌ ، أو لبيان ما لا ينال بالعقولِ من أنواع العبادات والحدود التي بها تتمَّةُ الدين ، أو كان أمر البعث والجزاء ممَّا يشكلُ مع العقل وحدَهُ إلا بجِدٍّ تأمُّلٍ فيه حرجٌ يعذرُ الإنسانُ بمثله ، ولا إيمانَ بدونه ، **فكان حقّاً على الله تعالىٰ بعثُ الرُّسُلِ لبيان ما به تتمَّةُ الدين ، لا لمعرفةِ الخالق**)[2] .

وهناك نوعٌ من هـٰذا القياسِ قد يؤتىٰ به لأجل البيان وزيادة الإيضاح ؛ لا لتأصيل هـٰذه المسألة ؛ فمن ذلك قول قاضينا أبي زيد : (**إذا آلَ الأمرُ إلى الصلاة أُلزمَ العبدُ شرائطَ الخدمة في الشاهد ؛** من التطهُّرِ عن أنجاسه ، والتزيُّن بلباسه ، ودخول مكانٍ خاصٍّ للرحمـٰنِ ، ثم استقبالِ الكعبة مقامَ جهةِ الوجهِ لمَلِكٍ له جهةٌ ، **وإذا شرعَ فيها لم تتأدَّ إلا بما يُحَقِّقُ معانيَ الخدمة ؛** من قيام على استقبال واستقامة . . .) إلىٰ آخره[3] ، **وأنت خبيرٌ أن مثل هـٰذا القياس سائغٌ في توثيق الاستدلال وتفهيمه ، لا أنه استدلالٌ أصليٌّ** ، وإلا للزم القولُ بالابتلاء والتكليفِ كما لزم القولُ بأصل المعرفة ، والقاضي أبو زيدٍ بل جميعُ الماتريدية علىٰ نفي لزوم ذلك .

= العقل هو الذي أوجب هـٰذه المعرفة بمفرده ، بل هو آلة للزوم الحجة على العبد ، ولله الحجة البالغة .

(١) تقويم أصول الفقه (٢/ ٩٣٩) ، وأراد بباقي الحجج : حجج الخطابات الشرعية البلاغية ؛ من كتاب وسنة وإجماع وقياس .

(٢) انظر « تقويم أصول الفقه » (٢/ ٩٣٩) .

(٣) انظر (ص٥٣) .

ـ **الحديثُ عن تعالي المولىٰ سبحانه عن الزمان والمكان** : وهـٰذه صفةُ جلالٍ له سبحانه لا ينفيها من المسلمين ـ فضلاً عن أهل السنة والجماعة ـ إلا المشبهةُ الذين ما قدروا الله حقَّ قدره ، بل قيَّدوهُ بعقولِهم ـ جلَّ وعزَّ وتعالىٰ عن قولهم ـ بقيْدَيِ الزمان والمكان ، ولم تسمحْ لهم عقولُهم الضعيفة بالإيمان بالربِّ تعالىٰ من غير أن يثبتوا له أبعادَ الأجسام الثلاثة ؛ من طول وعرضٍ وعمق ؛ فقالوا بالحدِّ مكاناً وجعلوه العرش ، وبجريان الحوادث عليه زماناً فأثبتوا صفاتِ الأفعال الكيفية ، وجعلوا حدوثها قائماً بذاته العليَّة .

والقاضي أبو زيدٍ لا يمرُّ به سانحٌ ولا بارحٌ ، **إلا وينزِّهُ المولىٰ عمَّا منعَتْهُ النصوصُ والعقول الصرائحُ** ؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، **وهل عرفنا المحدِثَ سبحانه حينما أمرَنا بالتَّفكُّر والاعتبار إلا بافتقار الحَدَث إلىٰ محدِثٍ** ؟! وقد قال مَنْ آتاه الله الحجَّة علىٰ قومه فيما حكاهُ عنه مولاهُ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، فلو كان الجليلُ سبحانه متَّصفاً بالحدوث فأيُّ معنىً لهـٰذا الاستدلال والاعتبار ؟!

ومن جملة ما أورده القاضي أبو زيد في هـٰذا المعنىٰ قوله : (تعالى اللهُ عن تحديدِ مكانٍ له فما له مِنْ مكان ، بل كان ولا مكان ، فخلق المكانَ فبقيَ علىٰ ما كان)(١) ، وما أشبهَ قوله : (فبقيَ علىٰ ما كان) بقول الصوفية : (وهو الآنَ علىٰ ما عليه كان) ، **وهـٰذا ما قرَّرَهُ الإمام أبو منصور الماتريدي**(٢) .

---

(١) انظر (ص٢٥٦) .

(٢) انظر (ص٢٥٧) .

وقال : (وقد أبانَ الرسولُ عليه السلام بما رُوِيَ عنه : « وخلقَ اللهُ تعالىٰ آدمَ علىٰ صورتِهِ » ، **وتعالى اللهُ عن حدِّ الصور والأجسام** ، وإنما هو عبارةٌ عمَّا قَدَّرَ له من الإحسان والإكرام ، **فصورةُ اللهِ** : ما اختارَها وأحبَّها ؛ كناقة الله من بين النُّوق ، وبيتِ اللهِ مِنْ بين البيوت ، وكذلك السلطانُ يقول : « أجلستُ فلاناً علىٰ سريري » وإنْ لم يُجلسْهُ علىٰ سرير نفسه ، ولٰكنْ علىٰ ما اختار وأحبَّ مِنْ جنسه)[١] .

بل سلك القاضي الدبوسيُّ طريقَ إثبات الصانع بتجسُّدِ المصنوع ؛ فقد قال : (مَنْ أنعمَ النظرَ في جسمِهِ عرفَ تجسُّمَهُ باجتماع الأجزاء ، والاجتماعُ عرضٌ يضادُّ القدم)[٢] ، فكيف يكون الصانعُ الأزلي مكانيّاً بعدَ هٰذا ؟!

ـ خصِّيصى ابن آدم في تحصيل العلم بالاستنباط وسَعةِ النظر : إن العقل الذي خلقَهُ الله فجعله آلةً للتكليف ، ومظهراً للتعريف ، فهو مناطُ الخطاب ، وبه تقومُ الحجة علىٰ بني آدم . . **إنما يبزغُ شعاعُهُ حينما يتعرَّفُ العلةَ فيستنبط الأحكام** ، وبمثلِ هٰذا يُميَّزُ العلماءُ عن الطَّغام ، وللقاضي الإمام أبي زيدٍ كلامٌ نفيس في تعظيم شأن الناطق عن الصامت ، فما فارق ابنُ آدم الجمادَ والحيوان إلا بالعقل ، وأظهرُ معالمِهِ الاستنباطُ بعد ثبوت المعرفة والنقل ؛ قال رحمه الله تعالىٰ : (**وتعدَّتْ علومُ بني آدم إلى المستنبَطات** ، فالمسموعُ وإنْ كثُرَ فمقصور ، والمستنبَطُ غيرُ محصور ، وذلك تأويل قوله ـ والله أعلم ـ : ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي . . . ﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] ؛

---

(١) انظر (ص١٣٠) .

(٢) انظر (ص١٦٣) .

ليكون الاحتجاجُ عليهم بما أُوتوا من كلمات الربِّ جلَّ جلاله ، لا بما اختَصَّ اللهُ تعالىٰ بعلمها من الغيب ، فيكونَ أبلغَ في الثناء على الله تعالىٰ وأبعدَ من الريب ؛ بخروج أنواع علوم الاستنباطِ في الناس عن الحصر تحريراً ، أو الحدِّ تفسيراً ، وإنها لتزدادُ كلَّ يوم بلا نهاية ، لا ينكرُها ذو حاسَّة صحيحة وعناية)[1] .

ـ تأصيلُهُ لبعض المصطلحاتِ التي قال بها السادةُ الصوفية وغيرُهم :

لا شكَّ أن الفقيهَ مؤتمَنٌ علىٰ دينِ الناس ؛ فلا يمكنُهُ أن يصوغَ حُكْماً لمجرَّد إحساس ، ولذلك ترى الحريصَ علىٰ دينِهِ لا يسترخصُ الفتاوىٰ ، فلا يطمئنُّ إلا إذا سمعَ أو رأىٰ فتوىٰ فقيهٍ زاهدٍ يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّهِ ، ولهـٰذا المعنىٰ كان الفقهاءُ سادةَ العلماء ؛ لأنهم موئلُهم ومحطُّ أنظارِهم .

ولعلَّ الواحدَ منَّا حينما يسمعُ بمصطلحاتِ الصوفية ولم تكنْ له درايةٌ بهم ، ولا عروجٌ في مراقيهم . . يستهجنُ تلك الاصطلاحات ويكونُ من دَلالاتها علىٰ حذر ، بل لعله يستنكرُها وإن أحسنَ الظنَّ بقائلها ، لـٰكن إنْ وقفَ علىٰ عينِ اصطلاحِهم فسمعَهُ من فمِ فقيهٍ أصوليٍّ ضليع . . رأيتَهُ متهلِّلاً مستبشراً ، ولم يجد بُدّاً من الانصياعِ لقولِهِ ، فكأنَّهُ قد جمعَ بين الظاهر والباطن ، فتأيَّدَ أحدُهما بالآخر ، وهو الشَّهْدُ بالزُّبْد .

خُذْ مثلاً مصطلح (السُّكْر) ، تراه قد درجَ علىٰ ألسنةِ القوم ، ولعل نفسَ المسلمِ الذي لم يخالِطهم تكونُ منه علىٰ وَجَلٍ ؛ كيف لا وهو سميرُ الفسَّاقِ ومبتغاهم ، وأنيسُ الفجَّار ومَنْ جاراهم ؟!

---

(١) انظر (ص١١٩) .

نعم ؛ حينما تسمعُ قولَ أمينِ الصوفية القشيريِّ ـ وهو الفقيهُ الشافعي ، واللغويُّ الأثري ـ مبيِّناً مرادَهم : (والسكرُ : غَيبةٌ بوارد قوي)[1] . . **ترتاحُ نفسُك وتطمئن** ، ولـٰكنَّكَ لا ترىٰ أكثرَ من تأييدِ اللغة لهـٰذا المصطلح ، وهنا تكمنُ براعةُ الإمام الدبوسيِّ وتظهرُ أصوليَّتُهُ التي تحسبُها **فطرةً نشأَ عليها** ؛ حينما يستثيرُ فكرَك في قصَّةِ سيدنا موسىٰ وهارونَ عليهما الصلاةُ والسلامُ ؛ ليبنيَ عليها حقيقةً لا تنفكُّ عنها النفوسُ الشريفة ؛ فقد حكى البيانُ الإلـٰهيُّ فعلَهُ بأخيه فورَ رجوعِهِ من مناجاةِ مولاه : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : ١٥٠]، وهنا يأخذُ الدبوسيُّ بمُخَنَّقِكَ منبِّهاً علىٰ حالةِ السُّكْرِ ويقول: (ومثلُ هـٰذا الصنعِ بغير ذنبٍ بمسلم غيرُ جائز ، فكيف بنبيٍّ ؟! وقد فعلَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ وما عُوتبَ عليهِ ؛ **لأنَّهُ فعلَهُ في حالِ سُكْرِ الحميَّةِ لأمرِ اللهِ تعالىٰ**) .

ثم أيَّدَ هـٰذا بأمثلةٍ هي في غايةِ الوضوح فقال : (وكذلك رُوِيَ أن عمرَ رضي الله عنه أخذَ برداءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرُّهُ مانعاً مِنَ الصلاة على المنافقِ ، وما رُوِيَ فيه مِنْ إنكار ؛ **لأنه فعلَهُ في سُكْرِ الحميَّةِ للواحد القهَّار** .

وكذلكَ رُوِيَ أن أبا طيبةَ الحجَّامَ شربَ دمَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وشُرْبُ الدم حرام ، وحُرِّمَ أبو طيبةَ بشُرْبِهِ على النار ، بشهادة النبيِّ المختار ؛ **فإنَّهُ شربَهُ في سُكْرِ المحبةِ للهِ تعالىٰ ولرسولِهِ** ، فسقطَ عنه الحظرُ الثابت بدليله .

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٦٠) .

وكيفَ أشكلَ علىٰ بعض الناس هـٰذا الحكمُ والخطابُ قد سقطَ بالنوم ؟! والنومُ بمنزلة **السُّكْر** ، ولـٰكنَّهُ بسببٍ غير محظورٍ ، وذلك السُّكْر بسبب مأمور .

ولا نرىٰ إبراهيمَ عليه السلام تركَ الاستعانةَ بجبريل عليه السلام وقد عرضَ نفسَهُ عليه حينَ رُمِيَ به في النار ، علىٰ ما جاءَتْ به الأخبار . . **إلا لسكرِهِ في محبَّةِ المنعِمِ القهَّار** ، وشغلِهِ بمعرفة إحسانه في **كلِّ** أحكامه ، عن تفاوتِ معاني أقسامِهِ ، فجُوزيَ بما اعتقدَ مكانَ الجحيم نعيماً ، والنارِ بَرْداً سليماً ، لولا هو لما حلَّ تركُ الاستعانةِ بمَنْ ينجيه عن الجحيمِ وقد عرفَهُ قاتلاً ، **ولم يَجُزْ تأويلُ الترك علىٰ أنه كان غافلاً**)[1] .

إنك بعدَ هـٰذا ستجدُ مصطلحَ (**السُّكْر**) خيرَ عونٍ لك في فهم أمثالِ هـٰذه النصوص ، **بل لعلَّكَ لا تجدُ بُدّاً منه** ، وتدركُ صلةَ القُرْبىٰ بين المعنى اللغوي والشرعي ، وغايةَ التوفيق في هـٰذا الاصطلاحِ التأصيلي ، فإن رأيتَ بعدَ ذلك مَنْ ينازعُ فهو ركيكُ الفهم ، قليلُ العلم ، يخاصمُ الحروفَ لا المعاني ، فأعرضْ عنه فإصلاحُ مثلِهِ من جملة الأماني .

وكذلك تأكيدُ أن بعضَ الظلم اصطفاء ، وهـٰذا من بدائعِ الفهوم ، قال رحمه الله تعالىٰ : (فالتائبُ عن الذنب هو الظالمُ المُصْطَفىٰ ، **وقد يُسمَّىٰ بهـٰذا الظلمِ الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام** ؛ قال الله تعالىٰ في قصَّة آدمَ عليه السلام : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ، وقالَ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وفي قصَّة موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي

(١) انظر (ص٤٣١) .

ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص : ١٦] ، وفي قصَّةِ الأولياءِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران : ١٣٥])[١] .

ـ **أسلوبُهُ الأدبيُّ المختار في رصف سطور « الأمد الأقصىٰ »** : لقد كلَّفَ الإمام نفسَهُ فحمَّلَها أمراً إدّاً فيما التزمَ من الرباعيات التي سبقَتِ الإشارة إليها[٢] ؛ إذْ جهدَ في تأصيل كثيرٍ من أبحاثه علىٰ هـٰذا العدِّ ، ولا يخفىٰ أنه إبداعٌ لا يتأتَّىٰ لأيِّ حصيف ، ولـٰكنَّهُ كُلفةٌ كنَّا في غَناءٍ عنها ؛ فما عُصمَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلَّمَ عن الشعر إلا لصونِهِ عن التكلُّفِ ؛ فالتزام المصاريع والقوافي والأوزان ، لا بدَّ أن يكون علىٰ حساب المعاني في أغلب الأحيان .

والإمام الدبوسيُّ مع هـٰذا بقيَ أديباً بليغاً حسنَ النثرِ ، وتأمَّلْ في قطعتِهِ البديعة التي وصفَ فيها العبدَ المكلَّفَ من قِبَلِ سيده برعاية قلبه وحفظ جوارحِهِ ، **فقد جاء بتمثيل هو الغاية** ، جمعَ فيه بين بيان العربية واللغة الأصولية ، وبين حسنِ المقال وبديع المثال ؛ **فمن ذلك قوله** : (فهـٰذا عبدٌ حَمَّلَهُ المولىٰ رعايةَ أغنامه ، مدَّةً لم يقدِّرْها له مِنْ أيَّامه ، وعضدَهُ بعصاً قويَّةٍ ، وأرفدَهُ بكلاب جريَّة ، وكرَّرَ عليه : إيَّاكَ والقِحابَ ، وغنمَكَ والذئابَ ، وضمنَ له رزقَهُ ، وطلبَ منه حقَّهُ ، ووعدَ له الجزاءَ على الوفاء ، وأوعدَهُ بالنيران على الكُفْران ، وجعلَ عليه رقيباً يقاربُهُ ، وشهيداً يراقبُهُ)[٣] ، وسترىٰ هـٰذا النمط في ثنايا « الأمد الأقصىٰ » من فاتحتِهِ إلىٰ خاتمته .

---

(١) انظر (ص٤٤٥) .

(٢) انظر (ص٣٣) .

(٣) انظر (ص٤٧٢) .

- اختيارُهُ أن الزهد الكاملَ في خلوِّ القلب واليدِ من الدنيا : وكثيراً ما يدورُ في كتب الرقائق أن حقيقةَ الزهد في خلوِّ القلب من الدنيا ، ولا ضيرَ في كونها مملوكةً باليد ، مبذولةً لذوي الحاجة ، غير أن قاضينا أبا زيدٍ يختار لقرَّائه الزهدَ الفاضل ؛ المتمثِّلَ في الإنسان الكامل ؛ ذاك هو زهدُ الحبيب الأعظم عليه الصلاةُ والسلام ؛ إذ خَلا قلبُهُ ونفضَ يدَهُ من الدنيا ، فهو أغنى الأغنيا ، وما كان يسمحُ لرُضاض الدنيا أن يبيتَ في يده ليلةً واحدة .

وتأمَّل حُجَّتَهُ في كون ترك الدنيا قلباً ويداً هو الكمال ، وتأويلَهُ لصاحب اليد العليا الذي فضَّله رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ صاحب اليد السفلىٰ ؛ إذ يقول : (ما قولُكَ في بَرِيرةَ وقد أهدَتْ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَبِلَها منها ، وقولُكَ في رسول الله وقد أجاب دعوةَ العبد ؛ لِمَنْ كانت اليدُ العليا ؛ ألبريرةَ وللعبدِ ، أو لرسولِ اللهِ عليهِ السلامُ ؟

بل لرسول الله ؛ فإنه خُيِّرَ بين الدنيا والمولىٰ ، فاختارَ اللهَ تعالىٰ ، وتركها لبريرةَ وأمثالِها ، وللعبدِ وأشكالِهِ ، فأهْدَوا إليهِ بعضَ ما تركَ عليهم ، فلِمَنْ تكون اليدُ العليا واليد السفلىٰ ؟!)[١] .

وانظر حديثَهُ عن نيلِ الرزق بغير سبب ، وأن التعلُّق بالأسبابِ حجاب ؛ حيث قال : (لـٰكنْ مِنْ شرطِ الإصابةِ بلا سببٍ : ألا ترىٰ أحداً غيرَ المسبِّب ، فأما ما دمتَ تخافُ الجوعَ بفقْدِ الأسباب فتمسَّكْ بحلالِها ، ثم توكَّلْ على اللهِ)[٢] .

- إبداعاتُهُ في الاستدواء من أمراضِ القلب : إنك سترىٰ للقاضي أبي زيدٍ

---

(١) انظر (ص ١٥١) .

(٢) انظر (ص ١٥٠) .

طُرُقاً بديعةً في انتشالِ العبدِ من عضالِ دائه ؛ **فمن ذلك** : صيدُهُ بشبكة ثاقبِ نظرِهِ للعبد المغرور الذي غطَّىٰ غروره بحُسن العمل ، وقد جانب في ظاهرِهِ الزلل ، فهو يحسبُ أنه ذو شأن عند الله تعالىٰ ، وقد وَلِيَ أموراً ما كان لعامَّةِ الخلق أن يتحمَّلوها ، **فترى القاضي أبا زيد ينصحُ هـٰذا المغرور أن يمسحَ علىٰ ظاهره ببعضِ عمل يكسرُ نخوته** ، ويذهب بآثار عُجْبه بنفسه ؛ فيقول : (إلا أنْ يُعجبَ العبدُ في قُربه مِنْ ربِّهِ بعظم حاله ، فيلطِّخَهُ بمباح أعماله)[1] .

- **فِراستُهُ وصدقُ حدْسِهِ بزوال الخلافة من بني العباس ومجيءِ التغالب** : وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله : (ذهبَتِ النبوَّةُ بوفاة رسول الله النبيِّ الأميِّ عليه السلام ، والخلافةُ بوفاة عليٍّ رضي الله عنه ، والإمارةُ بذهاب بني أميَّة ، والمُلْكُ منقضٍ بانقضاء بني العباسِ ، وقد جاءَ التغالبُ أو قَرُبَ)[2] .

- **بعضٌ من الإشارات لأحكامٍ فقهية** : من ذلك : جواز أخذ المعلِّم والإمامِ والمؤذِّن ما يكفيه من بيت مال المسلمين ؛ حيث قال : (أو لَاشتغلْتَ بتعليمِ الناسِ الدينَ ، وبالأذانِ والإمامةِ للمؤمنينَ ؛ فذلكَ سببٌ لاستحقاقِ الكفايةِ مِنْ بيتِ مالِ المسلمينَ)[3] .

- **ختمُ كلِّ كتابٍ بنجوىٰ واعتبار** : فكأنَّهُ عمدَ في ذلك إلىٰ تلخيصِ بحثه ، والتذكيرِ بأبرزِ ما تجبُ العناية به ، مع حثِّ النفس على استدراكِ ما فرط منها ، والسعيِ لتحصيلِ ما غاب عنها .

---

(١) انظر (ص١٤٦) .

(٢) انظر (ص٧١٣) .

(٣) انظر (ص١٤٦) .

- إيرادُهُ للأخبار الضعيفة والتالفة : قاضينا أبو زيد رحمه الله تعالىٰ لا تُعرفُ له سابقةٌ في علم الرواية واحترافٌ لها ، وهـٰذا حسب زمانه هو ، ومع هـٰذا كان من أئمة النُّظَّار ، وتركُهُ الاشتغالَ بالرواية مع وجود من تحمَّل عبأها لا يمنعُ من إمامته في الدراية ولو في أصول الحديث ، **وإيرادُهُ لضعيفات الأخبار لا يشي بكونه جاهلاً بأحكام أصولها** ؛ فمعرفةُ وصف الحديث من جميع جهاتِهِ لا تقضي بمعرفة وصفِ أفراده[1] .

نعم ؛ قد ترىٰ في « الأمد الأقصىٰ » أخباراً شاعت في ذلك الزمان ، ولا سيما بعضِ مروياتِ أعلامِ أهلِ البيت رضي الله عنهم ، غير أنها أُضيفَتْ إليهم واشتَهَرَتْ عنهم وقد لا يكونون علىٰ دراية بذلك ، ولم تفُهْ أفواهُهم الطاهرة بها ، **ولـٰكن هل هـٰذا مسقِطٌ لهيبة إمامٍ أصولي جليلٍ كأبي زيد ؟!**

لقد قسا الإمامُ العلامة أبو المظفر السمعانيُّ في كتابه « قواطع الأدلة » الذي أَلَّفه مستهدِفاً الردَّ علىٰ كتاب « تقويم الأدلة » للقاضي الدبوسي ، حتىٰ صار إلىٰ عباراتٍ هي بين الغيرة والحيرة[2] ، فادَّعىٰ أن الدبوسيَّ ممَّن ينازع الأمرَ

---

(١) ويظهر أنه كان يكتفي في الرواية بشيوع الخبر ، ولا سيما إن لم يكن من أخبار الحلال والحرام ؛ كخبر : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » ، وانظر (ص١٠١) .

(٢) وتلك الشدَّةُ كانت نتيجة تعصُّبٍ أيضاً ؛ فقد سبق تعليقاً (ص٢٣) أنه كان حنفيَّ المذهب متعيناً عند أئمتهم ، ثم انتقل إلىٰ مذهب الإمام الشافعي ، ولما عاد إلىٰ مرو لقي بسبب انتقاله محناً وتعصُّباً من قبل الحنفية الذين كانوا يعدُّونه من أئمتهم ثلاثين عاماً .

وحسبك في استجلاء هـٰذه الغيرة بعيداً عن أحقية الكلام ما قاله السمعاني في « قواطع الأدلة » (١/ ٣٧٠) بعد نقاش هـٰذه المسألة : (ولا نرىٰ لأنفسنا التسلُّطَ علىٰ أصول الشرع حتىٰ نقيمَها علىٰ ما يوافقُ آراءنا وخواطرنا وهواجسنا ، بل نطلب المعانيَ ؛ فإن وجدناها =

أهله ، فأتىٰ بكلام يعودُ شررُهُ علىٰ أئمة مذهبه الجديد ، وما مثلُهُ مَنْ يُتَّهم ، وما مثلُ الإمام القاضي الدبوسيِّ مَنْ بمثل هـٰذا الكلام يُوصم .

قال رحمه الله تعالىٰ : (**والعجبُ من هـٰذا الرجل أنه جعلَ هـٰذا الباب بابَ نقدِ الأحاديث ! ومتىٰ سُلِّمَ له ولأمثاله بنقدَ الأحاديث ؟!**) ، ثم قال : (وهـٰذا الرجلُ ـ أعني : الدبوسيَّ ـ وإن كان قد أُعطيَ حظّاً من الغوص في معاني الفقه علىٰ طريقةٍ اختارها لنفسه ، ولـٰكن لم يكن من رجال صنعةِ الحديث ونقدِ الرجال ، **وإنما كان غايةُ أمره الجدالَ والظفرَ بطرقٍ من معاني الفقه لو صحَّتْ أصولُهُ التي يبني عليها مذهبَهُ** ، ولـٰكن لم يحتمل الأساسُ الضعيف من البناء عليه لا جرمَ لم ينفعْهُ ما أُعطيَ من الذكاء والفهم إلا في مواضعَ يسيرة أصابَ فيها الحق ، **وأما في أكثرِ كلامه وغايتِهِ تراه يبني علىٰ قواعدَ ضعيفة ، ويستخرجُ بفضْل فطنتِهِ معانيَ لا توافق الأصولَ** ، ولم يوافقْهُ عليها أحدٌ من سلف أهل العلم ، ثم يحمله عُجْبُهُ برأيه علىٰ خوضه في كلِّ شيء ؛ **فتراه دخَّالاً في كلِّ فنٍّ ، هجوماً علىٰ كلِّ علمٍ وإن كان لا يحسنُهُ** ، فيهجمُ ويعتزُّ ، ولا يشعر أنه يعثرُ)[1] .

وفي ثنايا هـٰذا الكلامِ اعترافٌ بذكاء وفضل علم القاضي الدبوسي ، وليتَهُ

= علىٰ موافقةِ الأصول من الكتاب والسنة . . أخذنا بذلك ، وحمدنا الله تعالىٰ علىٰ ذلك ، وإن زاغ بنا زائغ وضعفنا عن سواءِ صراط السنة ، ورأينا أنفسَنا قد ركبت البنيان وبركت الجدد . . اتهمنا آراءَنا ، فرجعنا بالآفة علىٰ نفوسِنا ، واعترفنا بالعجز ، وأمسكنا عِنانَ العقل ؛ لئلا يتورَّطَ بنا في المهالك والمهاوي ، ولا يعرِّضَنا للمعاطب والمتالف ، وسلَّمْنا للكتاب والسنة ، وأعطينا المقادة ، وطلبنا السلامة) بتصحيح يسير .

(١) قواطع الأدلة (١/ ٣٦٩) .

ألانَ العبارةَ ، ولم يقسُ تلك القسوةَ التي أغضبت مِنْ بعدُ علماءَ الحنفية .

ويظهرُ أن العلامة الأصوليَّ عبدَ العزيز البخاري الحنفي قد وقف علىٰ نصِّ السمعاني ، فقال في « كشف الأسرار » ـ وهو شرح لـ « أصول البزدوي » ـ : (**ومن الطعنِ الذي لا يُقبلُ** : الطعنُ بعدم احترافِ الرواية واعتيادها ؛ **مثلُ طعنِ بعض أصحاب الشافعيِّ رحمه الله في القاضي الإمام أبي زيدٍ رحمه الله** ، وتقسيمِهِ الأخبارَ بالمتواتر والمشهور والغريب والمستنكر في « التقويم » ؛ بأنه لم يكن من أهل هـٰذا الفنِّ ، ولم يكن له علمٌ بصحيحِ الأخبار وسقيمها ، فكان الأَولىٰ به أن يتركَ الخوضَ في هـٰذا المعنىٰ ، ويحيلَهُ علىٰ أهله[1] ؛ فإن من خاضَ فيما ليس من شأنه . . افتَضَحَ عند أهله .

وهـٰذا طعنٌ باطل ؛ أعني : بعدم الاعتياد ؛ **لأن العبرة للإتقان لا للاحتراف** ، وربما يكون إتقانُ مَنْ لم يحترفِ الرواية أكثرَ من إتقان مَنِ اعتادها ، **وأما طعنُهم على القاضي الإمام أبي زيد فغيرُ متوجِّهٍ** ؛ لأن ما ذكرَهُ أمرٌ كلي وبيانُ اصطلاح لا حاجةَ فيه إلىٰ معرفة أفراد الأحاديث وأسانيدها ، وصحَّتِها وسقمِها ، وإلىٰ معرفة الرجالِ وأحوالهم من العدالةِ والفسق ، بل يعرفُهُ مَنْ له أدنىٰ بصيرة من المخلصين ، فكيف يخفىٰ عليه ذلكَ مع غزارةِ علمه ، ومهارتِهِ في كلِّ فن ؟! **بل الحاملُ لهم علىٰ ذلك التعصُّبُ والحسد** ،

---

(١) وهـٰذا المعنى الذي ذكره بعض الشافعية نفسُهُ يتوجَّهُ في حقِّ إمامنا حجة الإسلام الغزالي ؛ فقد أورد من علم مصطلح الحديث في « المستصفىٰ » ما يهتمُّ به المجتهد والأصولي ، ولا غَناء له عن العلم به ، ومع هـٰذا كان رحمه الله كشيخه إمام الحرمين يرىٰ جوازَ التقليد في رواية الأخبار ، علىٰ أن الجميع لا تُعرفُ لهم ـ وإن رووا تالف الأخبار ـ أحكامٌ تخالف المعتمدات في كتب الفقه ؛ لأنهم عند ابتناء الأحكام يمحِّصون في الأخبار .

وإلا كيف لم يطعنوا علىٰ غيره من الأصوليينَ الذين لا ممارسةَ لهم بعلم الحديث من أصحاب الشافعي وغيرهم ؛ حيث ذكروا في كتبهم مباحثَ تتعلَّقُ بعلم الحديث أكثرَ ممَّا ذكره القاضي الإمامُ رحمه الله ؟!)[1] .

وقد تفرَّدَ القاضي في الكتاب الذي بين أيدينا ببعضِ الروايات عن أئمَّةِ أهل البيت قد لا تُلفىٰ في كُتُبِ أهل السنَّة ، وبعضِ البلاغاتِ التي لا نرىٰ لها سنداً ، ومع هـٰذا نرىٰ له رواية حسنةً تُعدِّلُ الميزان ، وتدفعُ الأوهام ؛ قال : (**وبلغَنا** : عن معاويةَ رضي الله عنه أنه سُئِلَ : كيف مالَ الناسُ إليك ، وعليٌّ رضي الله عنهُ بفضائله عليك ؟ فقال : إن أنوارَ الناس لم تبلغْ نورَهُ ، وإن الشكلَ إلى الشكل أميلُ)[2] .

هـٰذا ما يمكنُ أن يُقال بشأن « الأمد الأقصىٰ » علىٰ عجل ، وإلا ففي الكتاب ما لا يتيسَّرُ الحديثُ عنه إلا بمطالعة « الأمد » من فاتحتِهِ إلىٰ خاتمته ، نسألُ الله الهدايةَ ، والتوفيق والسداد والعناية ، وألا يكلَنا إلىٰ أنفسنا ؛ إنه تعالىٰ قريبٌ مجيب .



(١) كشف الأسرار (٣/ ٧٥) .
(٢) انظر (ص٢٤٩) .

منهج العمل في الكتاب

بكلٍّ أسىً يمكننُا أن نقول : لم تلقَ كتبُ الدبوسي في عالم النشر العلمي حقَّها من الرعاية ، وقد ظهرَتْ لـ « الأمد الأقصىٰ » طبعةٌ أقصتِ الناسَ عن النظر فيها ، فلم يعرفوا قدرَ مؤلِّفها ولا عيونَ المعاني التي فيها ، فكانَ من واجبِ العمل لا من نفلِهِ إعادةُ الاعتبار لهٰذا الكتاب الفذِّ في بابه ، الغريبِ بين أترابه .

وقد تمَّ الوقوفُ علىٰ سبعِ نسخٍ خطيَّة ، اعتنىٰ بها علىٰ ما يظهر أئمةُ الحنفية ، وقد اعتُمدَ في إخراج نصِّهِ رأساً النسخُ (أ ، ب ، هـ ، ز) ، مع مراعاة الأنسب من جملةِ النُّسَخ عموماً .

وقد شُكِلَ الكتاب شكلاً إعرابيّاً تامّاً ، وخُرِّجَتْ آثارُهُ وأخباره ، وعُلِّقَ علىٰ بعض فِقَرِهِ وعباراته ، وشُرِحَ غريبُ جمله ومشكِلُها ، وكان في بعض هوامش النسخِ الخطية (ب ، د ، هـ ، و) من الجَوْدة والتوضيحات والتنبيهاتِ ما دعا إلىٰ إثباتها ، أو على الأقلِّ اختصارُ بعضها ، ولا سيما النسخةِ التي اعتنىٰ بها العلامةُ الكردري ؛ فنسختُهُ تعدُّ بياناً لمبهمِهِ ومغلقه .

وقد تُرجمَ المؤلف على اختصارٍ ترجمةً هي من أجود ما كُتبَ عنه ، وأُلحقَ ذلك بكلمةٍ تعريفية عن « الأمد الأقصىٰ » وما فيه ، مع نظرة علمية في تآليف الدبوسي والغزالي وأثرها في المدرسة التربوية ، وسيرى القارئ بعون الله ما يقرُّ به عيناً بإذنه سبحانه .

وبعـد :

فلا حيلةَ لعبدٍ ضعيفِ الأركان ، واهنِ البنيان. . دونَ رحمةِ مولاه الغني ، المتينِ القويِّ العلي ، **فاللهمَّ** ؛ إنْ وكلتَنا إلىٰ أنفسِنا وكلتَنا إلىٰ وَهَنٍ وعورة ، وذنبٍ وخطيئة ، فلا ثقةَ لنا إلا بفضلِكَ وواسعِ رحمتك ، وقد آمنَّا **بحكمتِك** ، وأنك أرحمُ الراحمين في كلِّ ما بثثتَهُ في **خلقِك** .

اللهمَّ ؛ قد رضيناكَ لنا ربّاً ، ورضينا الإسلامَ ديناً ، ومصطفاكَ صلواتُكَ وسلاماتُكَ عليه نبيّاً ورسولاً ، **وكلُّ ذلك بفضلِك** ، وحاشاكَ أن تسلبَ عطيّةً أنت مهديها إلينا ، أو نعمةً أنت أسبغْتَها علينا ، **فعسىٰ أن يأتي النداءُ من خلفِ سِجافِ الغيب** : رضيناكَ علىٰ ما فيك عبداً ، وعفونا عنك أيُّها المخلِّط ، وجاوزنا عن تقصيرِك أيُّها الظالمُ لنفسِهِ .

ألا زَوْرةٌ لطيفِ خيالٍ يسمحُ بها حبيبُكَ من عالمِ الجود والكرم ، أو عطفةُ نظرةٍ وصالٍ من قلبِهِ الرؤوفِ الرحيم ، ألا رحمَ الله سيدي يوسفَ النبهانيَّ حينما ناجىٰ ذاك الجنابَ الأرفعَ فقال : (من الخفيف)

فَارْضَ عنِّي باللهِ واسمحْ وقُلْ لي   قــد قَبلنــاكَ أيُّهــا الخَطَّــاءُ
لستُ أَبغي قدري ولا قدرَ شعري   قدرَ جودِ المعطي يكونُ العطاءُ
وبحسبــي صــلاحُ دينــي ودنيــا   يَ وحســنُ الختــامِ فيــهِ اكتفــاءُ

وكتبه

الفقير إلى عفو مولاه الغني

أنس محمد عدنان الشرفاوي

(٢٨) صفر الخير (١٤٤٦هـ)

الموافق (١) أيلول (٢٠٢٤م)

وصف النسخ الخطية

سبعُ نسخٍ خطيَّة هي التي شدَّت الأزْرَ في إخراج هـٰذا الكتاب الفذِّ ، كادَ بعضها لجَوْدة ضبطه وحسنِ رسمه أن يكون نسخة الساعة ، ولـٰكن ليس للفردِ ما للجماعة ، وهـٰذه النسخُ هي :

النسخة الأولى

نسخةُ مكتبة ولي الدين أفندي بإستانبول ، ذات الرقم (١٦٨٢) .

وهي نسخةٌ تامة ، مؤلَّفة من (٩٣) ورقة ، كتبت بخط نسخي جليٍّ حسن ، كاتبُها : يحيى بن إبراهيم الأصفهاني ، ووقع الفراغ من نسخها في شهر شعبان من سنة (٥٢١ هـ) ، فهي من النسخ العتيقة نسبياً لهـٰذا الكتاب ، وأقربها من زمن المؤلف .

تفرَّدَتْ هـٰذه النسخة علىٰ ندرة ببعض المغايراتِ التي عليها المعوَّل ، ويظهرُ أنها قُوبلت بعد نسخها ؛ لوجود بعضِ الاستدراكات علىٰ نصِّها ، وفي الورقة الأخيرة منها ترجمةٌ للمؤلف مقتبسةٌ من « وفيات الأعيان » لابن خلكان .

ورُمِزَ لها بـ (أ) .

النسخة الثانية

نسخةُ مكتبة رئيس الكتَّاب بإستانبول ، ذات الرقم (١١٢٩) .

وهي نسخةٌ تامة ، مؤلَّفة من (١٤٨) ورقة ، كُتبت بخط نسخي مستعجلٍ متراكب ، كاتبُها : محمد بن عمر بن أحمد ، ووقع الفراغ من نسخها سنة (٥٥٠ هـ) .

وهي نسخةٌ نفيسة للغاية ، تظهر في هوامشها آثار العناية ، فلا تكاد ورقة منها تخلو من شروح وفوائدَ ، وكثيراً ما صُحِّحت التصحيفاتُ اليسيرة منها .

وجاء في الورقة الأولىٰ منها : اسم الكتاب « الأمد الأقصىٰ » ، وفهرس بأسماء الكتب المذكورة فيه ، وتملُّكٌ ليوسف بن الحسين الكَرْدَري ، كما جاء في الورقة الأخيرة منها : أبياتٌ للإمام شمس الأئمة أبي الوحدة محمدِ بن عبد الستار بن محمد العمادي الكَرْدَري الحنفي البراتقيني(١) ، يمدحُ فيها كتابنا « الأمد الأقصىٰ » ، وهي : (من البسيط)

قدِ انتهى الأمدُ الأقصىٰ لإخواني ... بحثاً وكشفاً بإتقانٍ وإيقانِ
للهِ درُّ إمامٍ كانَ جامعَهُ ... فإنَّهُ العَلَمُ النحريرُ ذو الشانِ
محيي مذاهبِ نعمانٍ وشيعتِهِ ... جزاهُ ربُّ الورىٰ عنَّا بإحسانِ
والكَرْدَريُّ تولَّىٰ فَسْرَ مبهمِهِ ... مِنْ بعدِ ضعفِ القُوىٰ للأشيبِ الواني
عامَ الثلاثينَ والستِّ المئينَ مضَتْ ... مِنْ هجرةِ المصطفىٰ أَرْخاً بحُسبانِ

---

(١) وهو من تلامذة الإمام نور الدين الصابوني صاحب « الكفاية » و« البداية » ، والمرغيناني صاحب « الهداية » ، والمطرِّزي صاحب « المغرب » ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (١١٢/٢٣) .

يومَ الخميسِ ومِنْ ذي القَعدةِ انصرمَتْ ستٌّ وعشرٌ فَعُوا في طيِّ تبيانِ
والحمـدُ للهِ فـي تتميمِـهِ أبـداً ثـمَّ الصلاةُ التي تتلـو بـإدمـانِ
علىٰ أبي القاسمِ المحمودِ ملَّتُهُ وآلِـهِ خيـرِ أصحـابٍ وإخـوانِ
والمُرْتجىٰ مِنْ أيادِيهِ الغِزارِ لنا عفـوٌ لأَجْـرامِنـا ختـمٌ بـإيمـانِ

وقد نُقلت هٰذه الأبيات بعينها في الورقة الأخيرة من النسخة (و) أيضاً .

ورُمِزَ لها بـ (ب) .

النسخة الثالثة

نسخةُ مكتبة عاطف أفندي بإستانبول ، ذات الرقم (١٣٨٤) .

وهي نسخةٌ تامة ، مؤلَّفة من (١٥٢) ورقة ، كتبت بخط نسخي واضح ، واعتُني بشَكْلِ كلماتها ، ووقع الفراغ من نسخها في شهر ربيع الأول من سنة (٩٧٥ هـ) .

وهي نسخةٌ مصححة ومقابلة كما صُرِّحَ في الورقة الأخيرة منها ، ومقروءة كما يظهرُ من البلاغات المثبتة في هوامشها ، وأثبت فيها كثيرٌ من التعليقات بالفارسية .

وجاء في الورقة الأولىٰ منها من مَرْثِيَةٍ في القاضي أبي زيدٍ مؤلِّف الكتـاب : (من البسيط)

لو صُوِّرَ الكونُ عيناً تستفيضُ دماً بشقِّ جيبٍ ولَطْمِ الوجهِ بالأيدي
لم يوفِ مِنْ نفسِهِ ما كانَ يلزمُها مِنَ البكاءِ على القاضي أبي زيدِ

ورُمِزَ لها بـ (ج) .

النسخة الرابعة

نسخةُ مكتبة حاجي بشير آغا بإستانبول ، ذات الرقم (٣٣٩) .

وهي نسخةٌ تامة ، مؤلَّفة من (١٤٠) ورقة ، كتبت بخط نسخي جميل ، وبالمِدادين الأسود والأحمر ، كتبت في آخر شهر شوال من سنة (٩٧٥ هـ) .

وهي نسخةٌ معارضة بغيرها ، وأثبت في هوامشها بعضٌ من المغايرات ، وشرحُ بعضِ الكلمات والعبارات ، ويظهر أن مالكها من الحنفية ؛ فهو ينقلُ عن « أصول البزدوي » في شرح بعض المغمضات .

ورُمِزَ لها بـ(د) .

النسخة الخامسة

نسخةُ مكتبة لا له لي بإستانبول ، ذات الرقم (١٣٣٧) .

وهي نسخةٌ تامة ، مؤلَّفة من (١٤١) ورقة ، كتبت بخط نسخيٍّ رتيبٍ حسن ، وبالمِدادين الأسود والأحمر ، اعتُني بشكل كلماتها ، وشرح مبهماتها ، ولم يُذكرْ تاريخُ نسخها ، ويغلبُ على الظنِّ تقدُّمها على القرن العاشر .

وهـٰذه النسخة هي أجلُّ نسخ هـٰذا الكتاب من حيث النصُّ وضبطه ، وكاتبها عالمٌ مدرك لما ينسخ ؛ فربطُهُ لجملِ النصِّ مع بُعدِها وتعدُّدِ احتمالاتها شاهدٌ بذلك ، وكثيراً ما وقعَ تصحيحٌ تنفردُ هـٰذه النسخةُ به ، ومع ذلك فقد تشاركُ أكثر النسخ في وهمٍ ما ، وتنفردُ نسخةٌ أخرىٰ برفع هـٰذا الوهم .

ورُمِزَ لها بـ(هـ) .

النسخة السادسة

نسخةُ مكتبة راغب باشا بإستانبول ، ذات الرقم (٦٤٧) .

وهي نسخةٌ تامة ، مؤلَّفة من (٢١٢) ورقة ، كتبت بخط واضح ، ووقع الفراغ من نسخها سنة (١١٥٨ هـ) ، وكاتبها : درويش محمد معلِّمُ الفقراء بالأزهر .

وهوامشُ هـٰذه النسخة جليلةٌ نافعة للغاية[١] ؛ من حيث التعليقُ علىٰ عبارات النصِّ وإيضاح مبهماته ، وهي مفادةٌ من تعليقات العلامة المحقِّق الفقيه المتضلِّع ؛ شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكَرْدَري ، المتوفىٰ سنة (٦٤٢هـ) .

ويظهرُ أنها منسوخة عن نسخة درسيَّة ، والذي علَّقَ عليها كان مدرساً للكتاب ، وإنما اختيرَ هـٰذا لكون كثيرٍ من تعليقاتها جاءَتْ متقدمةً أو متأخرةً عن موضعِها الصحيح .

ورُمِزَ لها بـ (و) .

---

(١) وقع في الورقة الأولىٰ منها فائدة فذَّةٌ طويلة الذيل ؛ منها : (اعلم : أن النبي صلى الله عليه وسلَّم يمدُّ أرواحَ جميع الأنبياء السابقة عليه بحسب الظهور والزمان ، حالَ كونه في الغيب ؛ لكونه قطبَ الأقطاب أزلاً وأبداً ؛ كما يمدُّ أرواحَ الأولياء اللاحقين بإيصالِهم إلىٰ مرتبة كمالِهم في حال كونِهِ موجوداً في الشهادة ، ومنتقلاً إلى الغيب ؛ وهو دارُ الآخرة ، فأنوارُهُ غيرُ منقطعة عن العالم قبل تعلُّقِ روحه بالبدن أو بعده ، سواءٌ كان حيّاً أو ميتاً .

وإمدادُ النبي عليه الصلاة والسلام الهِمَمَ من خزائن الجود والكرم التي للحضرة الإلـٰهية إنما هو لقطبيته وخلافته ، فالخزائن لله ، والتصرُّف لخليفته) .

النسخة السابعة

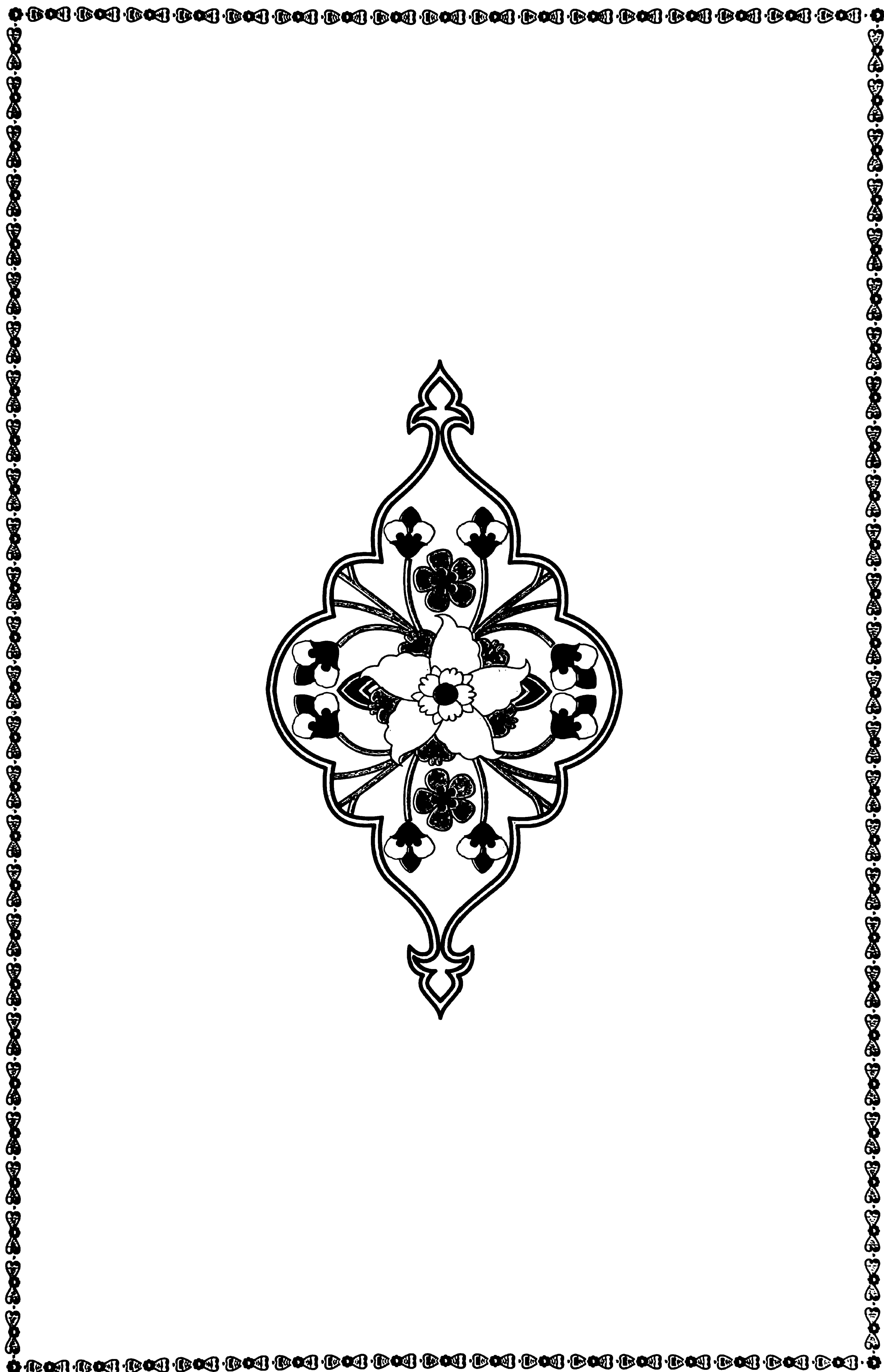
نسخةُ خزانة ابن يوسف بمراكش المغرب ، ذات الرقم (٦٥) .

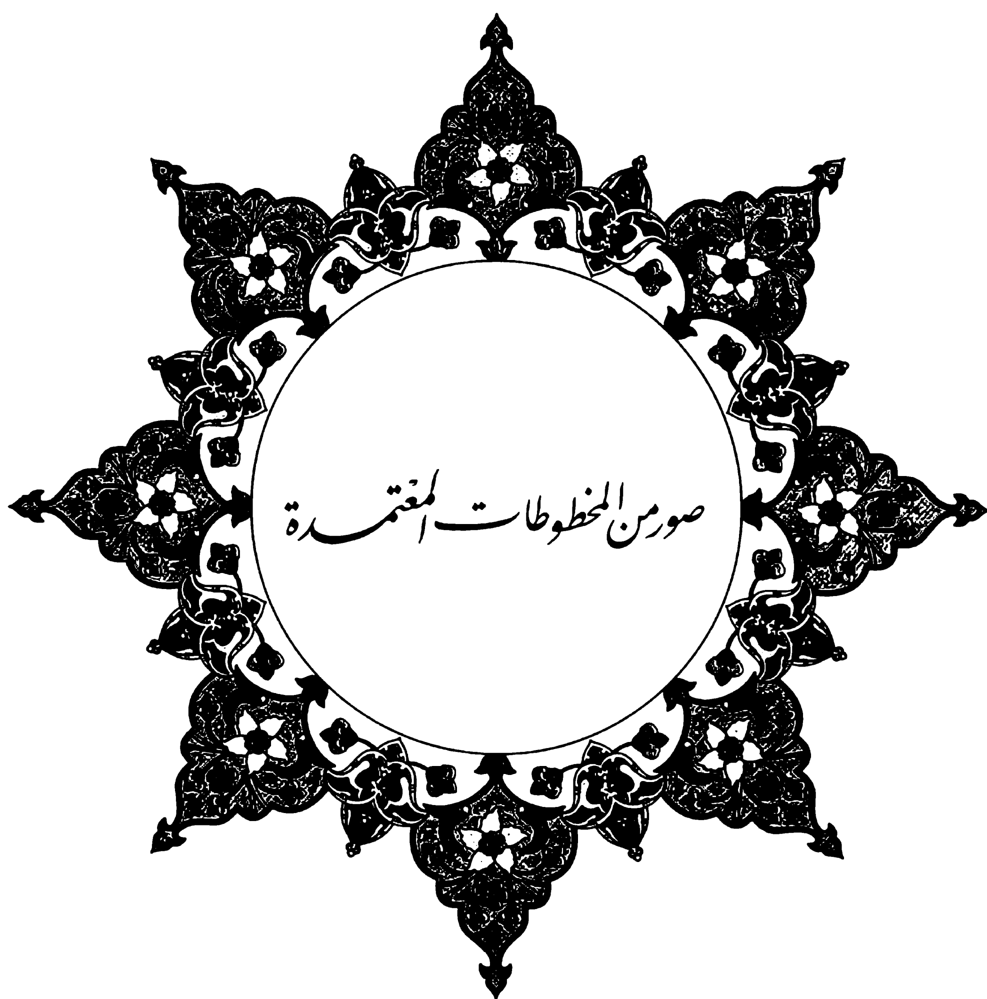
وهي نسخة تامة ، مؤلَّفة من (١١٤) ورقة ، وكتبت بخط نسخي معتاد ، ووقع الفراغ من نسخها في شهر شعبان من سنة (٧٦٣هـ) .

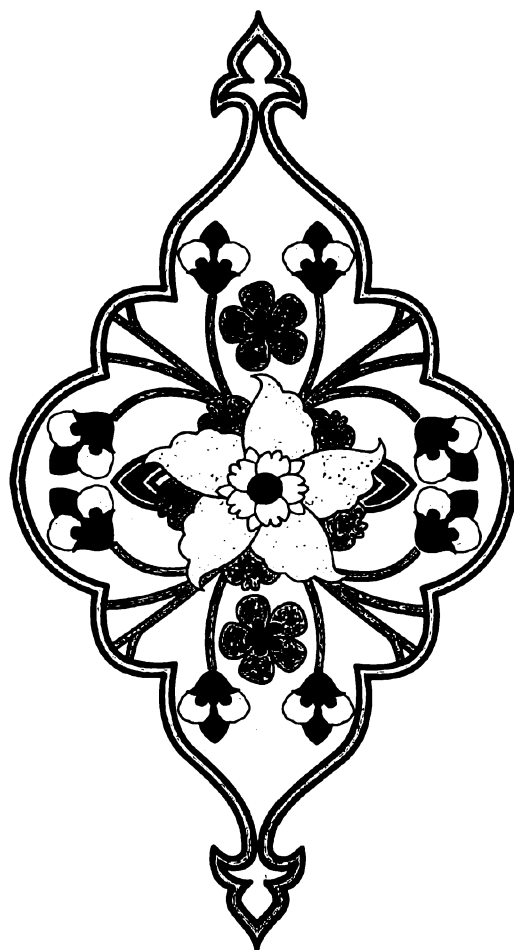
وهـٰذه النسخة مقابلة علىٰ نسخة معتبرة كما صرَّح الناسخ في هامش الورقة الأخيرة منها ، وأثبت علىٰ قلَّة بعض المغايرات في هوامشها .

ورُمِزَ لها بـ (ز) .






صور من المخطوطات المعتمدة





راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)



راموز ورقة العنوان من النسخة (ب)

راموز الورقة الأولى من النسخة (ب)

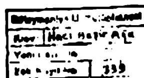
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

راموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

راموز ورقة العنوان من النسخة (د)

راموز الورقة الأولى من النسخة (د)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (د)

كتاب الأمد الأقصى للقاضي الإمام الزاهد أبي زيد
عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي أنار الله برهانه وأنزله جنانه برحمته

فهرست كتاب أمد الأقصى

كتاب جهاد النفس	كتاب حكم أصل الخلق
كتاب الفصول الأربعة	كتاب العبودية
كتاب الفقر	كتاب الأمر
كتاب السجن والمملكة	فصل ذكر الدنيا
فصل التجارة	فصل المعاملة
كتاب الميزان	كتاب أقسام الناس
فصل الصديقين	فصل في الوزير
فصل في الزاهد	فصل في الراغب ما سعى
كتاب المحنة والحيلة	فصل الحيلة

كتاب النعوت والرؤية والبشارة

راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)

RAGIP P.
Ka. N.

راموز ورقة العنوان من النسخة (و)

راموز الورقة الأولى من النسخة (و)

يوم الخميس ومن ذي القعدة انصرمت ست وعشر هفوات من ثماني
والحمد لله في تتميمه اسبقا ○ ثم الصلاة التي تتلو بأمثال
على أبي القاسم المحمود ملته وآله خير أصحاب وأنجاد
والمرتجى من أيادي الغفار لنا عفو لأجرامنا ختم بإيمان
العذير الكبير ان المرجو من فضائله الكبيرة إيلاء العفو عن الجرائم والختم على الإيمان

علقه بيده الفانية درويش محمد معلم الفقراء بالإيمان سنة ١١٠٨ هـ



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (و)

كتاب الأمد الأقصى تأليف الشيخ الإمام العالم
العامل الزاهد أبو عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي الحنفي
تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه

فهرست الكتاب

كتاب الأمد الأقصى كتاب جهاد النفس كتاب أمر الخلق

كتاب المفصول كتاب العبودية كتاب العفو

كتاب الأمر كتاب السعر والهلكة كتاب الميزان كتاب المحبة والحيلة

كتاب الزهد والدعوة والبشارة كتاب أقسام الناس آخرين

راموز ورقة العنوان من النسخة (ز)

راموز الورقة الأولى من النسخة (ز)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ز)

الأمد الأقصى

تأليف

شيخ الحنفية

القاضي أبي زيد عبيد الله بن عمر

الدبوسي الماتريدي

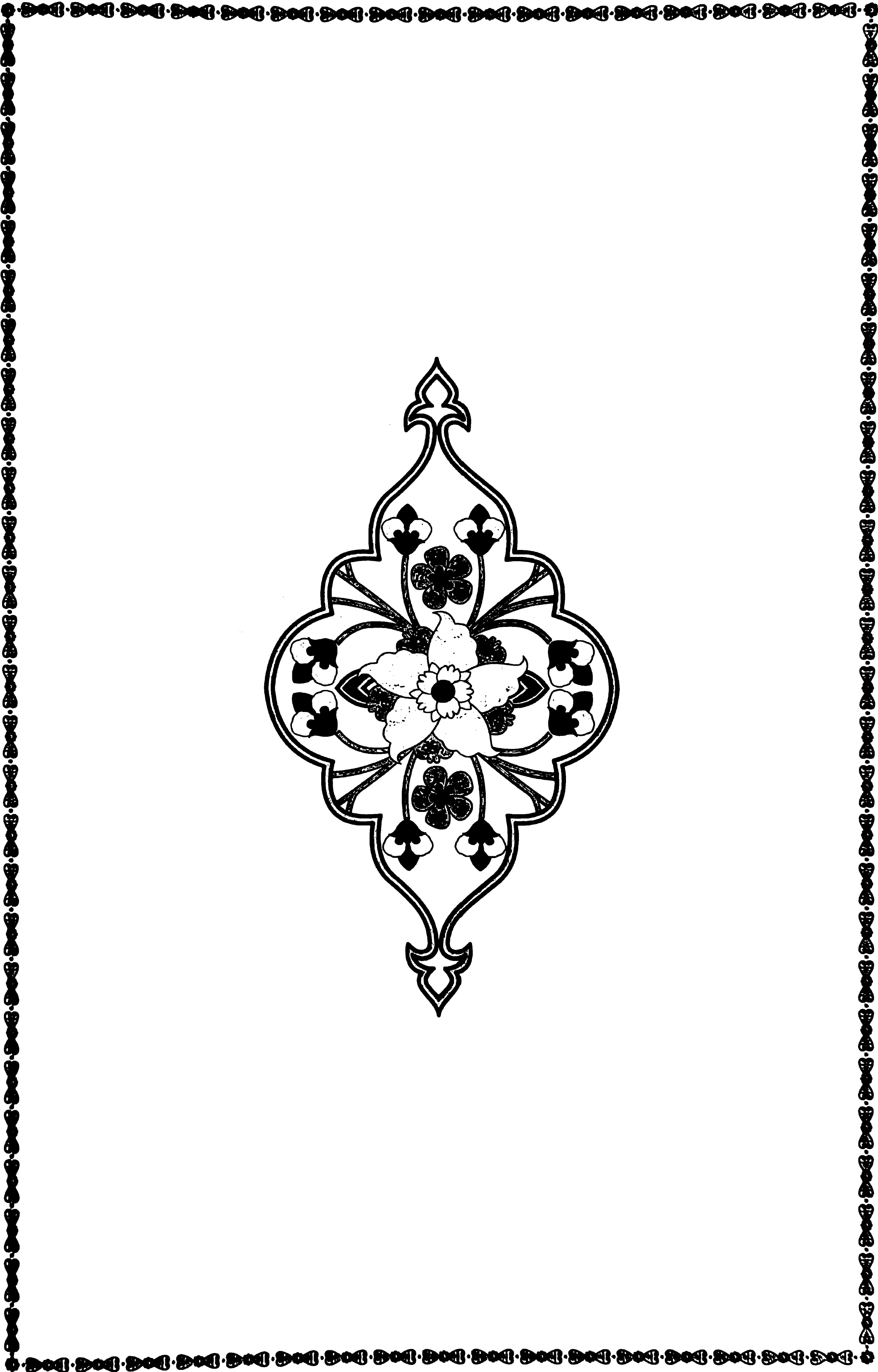
(ت ٤٣٠ هـ)

شرف بخدمته

أنس محمد عدنان الشرفاوي

دار التقوى

دمشق الشام



بسم الله الرحمن الرحيم

[ديباجة الكتاب]

الحمدُ للهِ الذي أكرمَني بأخٍ زكَّىٰ مِزاجَهُ[١] ، وأَذْكَىٰ سِراجَهُ[٢] ، قدِ ابتكرَ الكَلِمَ بنورِ عقلِهِ[٣] ، وأدركَ الحِكَمَ بتوفيقِ ربِّهِ ، وامتلكَ النِّعَمَ بوفورِ فضلِهِ[٤] ، جالسَني مجالسةَ مستفيدٍ ، متأمِّلٍ في كلِّ قريبٍ وبعيدٍ ، فلمَّا قرعَ سمعَهُ ، مِنْ كلامي بِدْعُهُ[٥] . . نظرَ كالمتعجِّبِ ، حتىٰ لمَّا امتلأَ منِّي في صمتي عيناً ، وانتشىٰ مِنْ سَمْتي أذناً[٦] . . طارَ عنهُ العُجْبُ والعَجَبُ[٧] ، فسألَ سؤالَ ذي عقلٍ وأدبٍ ؛ فقالَ : أيُّها المتكلِّمُ فيما تصدِّقُهُ الأصولُ[٨] ، وتحقِّقُهُ

---

(١) قيل : المراد من الأخ : خَتَنُهُ ؛ وهو القاضي فخرُ الدين الزوزني ، وقيل : المراد منه : عقلُهُ الجبلِّيُّ . انتهىٰ من هامش (و) ، ولعل المراد : القاضي عليٌّ علاءُ الدين المروزي ؛ إذ في « الفوائد البهية » (ص١٤٤) في صفته : (صاحبُ أبي زيد الدبوسي) ، والله أعلم ، وزكَّىٰ : طهَّرَ وأصلح .

(٢) أذكىٰ سراجَهُ : أشعله وأمدَّهُ حتىٰ حسُنَتْ إضاءته ؛ أراد : أنه نوَّر عقله بالعلم والمعرفة .

(٣) ابتكرَ الكَلِمَ : أتاها مبكِّراً ؛ كالابتكار في الغداة ، ويقال : ابتكر ؛ إذا أكل باكورةَ الثمر ، والعبارة مجازٌ عن سَبْقه في الإحاطة بمرامي الكلام .

(٤) قوله : (بوفور) الباء فيه سببية بمعنى اللام ؛ كأنه قال : إنما حاز النِّعَمَ لكمال فضله .

(٥) البدعُ هنا : المُعْجِبُ من الكلام الخارجُ عن حدِّ المألوف منه .

(٦) السمتُ : الطريق ، ويُستعار لهيئة أهل الخير فيقال : ما أحسنَ سمْتَ فلانٍ ! انظر « المغرب » (س م ت) .

(٧) العُجْبُ : الزَّهْوُ والكِبْرُ ، والعَجَبُ : تغيُّرُ النفس بما خفي سببه ، وخرج عن العادة مثلُهُ .

(٨) الأصول : النصوصُ ؛ كالكتاب والسنة والإجماع . انتهىٰ من هامش (و) .

العقولُ[١] ؛ إنِّي امرؤٌ حالَفْتُ المسيرَ ، لأقفَ علىٰ بصيرٍ ؛ يرفعُ عن إبصارِ قلبي مِنَ الشبهاتِ سُتُوراً ، ويكشفُ لي في المُشْتَبِهاتِ أموراً ، وكم سلكتُ لهُ المسالكَ ، وكأنَّكَ أنتَ ذلكَ .

قلتُ : العبدُ عبدٌ وإنْ سَعِدَ نجمُهُ[٢] ، وحُمِدَ سهمُهُ[٣] ، ولٰكنِّي أستعينُ اللهَ وأستهديهِ ، فلعلَّهُ يوفِّقُني لكَشْفِ ما أنتَ فيهِ ، هاتِ وفَّقَكَ اللهُ للإصابةِ ، ووفَّقَني للإجابةِ[٤] .

[السعادةُ الأبديَّةُ مطلبُ الطبقةِ العليَّةِ]

فقالَ : سَعْيُ كلِّ حيٍّ لدَرَكِ نفعٍ عاجلٍ ، أو لدفْعِ ضُرٍّ حاضرٍ ، واخْتصَّ العقلاءُ مِنْ بينِهم في المطالبِ ، بقَصْدِ نفعِ العواقبِ ، ثم اخْتصَّ منهمُ الطبقةُ العاليةُ[٥] ، بإتعابِ الجسومِ للرُّتَبِ الساميةِ ، فهل عندَكَ علمٌ **بالأَمَدِ الأقصىٰ**[٦] ، فما ينبغي للعاقلِ أنْ يرضىٰ بدونِهِ لنفسِهِ فيما يسعىٰ ؟

فقلتُ : كلامٌ قصيرٌ ، هلكَ فيهِ الصغيرُ والكبيرُ[٧] ، وإنِّي غيرُ هاديكَ إيَّاهُ

---

(١) يعني : فلا تستهجنُهُ وتنكره ؛ أراد : أن كلامه يشهدُ له النقل والعقل .

(٢) أي : ارتفعت رتبتُهُ ، وجلَّتْ درجته . انتهىٰ من هامش (و) ، أراد الإمام المصنفُ نفسَهُ ، وسَعْدُ النجم كنايةٌ عن سعادة صاحبه .

(٣) سهمه : حظُّهُ . انتهىٰ من هامش (و) ، يعني : خرج محموداً عند ضرب القداح ، كنَّىٰ بذلك عن حُسْنِ الحال .

(٤) يعني : هاتِ تلك الشبهات والمشتبِهات ، فعسى الله أن يوفقك للسؤال الصواب ، ويوفقني للإجابة . مفادٌ من هامش (و) .

(٥) العلماء الربانيون . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) بالغاية الأبعد . انتهىٰ من هامش (و) .

(٧) أراد : كلامُكَ علىٰ وِجازته ، تهالك الخلق في بلوغ غايته ، وأراد بالصغير : المبتدي ، وبالكبير : المنتهي .

إلا باللهِ العليمِ ، فلا حولَ ولا قوّةَ للعبدِ إلا بربِّهِ العظيمِ .

أَعلِمْتَ أيُّها الأخُ الرشيدُ ، والنجمُ السعيدُ ؛ أنَّكَ عبدٌ لا مَشِيَّةَ لكَ[1] ، فقيرٌ لا مِلْكَ لكَ ، مأمورٌ لا حُكْمَ لكَ ، مسجونٌ في مملكةِ الأعداءِ ؟

فقالَ : نعمْ ، كتابٌ عزيزٌ جاءَني مِنْ ربِّي عزَّتْ قدرتُهُ ، على يَدَيْ رسولٍ مُبِينٍ ظهرَتْ دعوتُهُ ، وفيهِ قالَ تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم : ٩٣] .

وقالَ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد : ٣٨] .

وقالَ تعالى : ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران : ١٢٨][2] ، ثم أيَّدَ هـٰذا المعنى بقولِهِ : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ [القصص : ٦٨][3] ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير : ٢٩][4] .

وقالَ تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ

---

(١) أي : مشيّة مطلقة مستبدة . انتهى من هامش (و) ، والمشيّة : تسهيل (مشيئة) ، وكذا ستأتي في جُلِّ الكتاب .

(٢) قال العلامة الأمير في « رسالة في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ » كما في « مجموع رسائل الأمير » (ص١١٧) : (قوله تعالى : ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم . . نفيٌ لملكه شيئاً من أمور التصرُّف لذاته ؛ إذ لو ملك لذاته شيئاً لم يكن عبداً ، بل كان شريكاً ، وأما بتمليك سيده له فله من الأمر ما جعله له سيِّدُه ، وقد جعله الواسطة العظمى لكلِّ شيء) .

(٣) قال الإمام ابن عطاء الله الإسكندري في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص٨٤) : (وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا ينبغي أن تكون الخيرة لهم ، وأن يكونوا أولى بها منه سبحانه وتعالى .

الثاني : ما كان لهم الخيرة ؛ أي : ما أعطيناهم ذلك ، ولا جعلناهم أولى بما هنالك) .

(٤) وهـٰذه الآية الكريمة من الآيات المحكمات .

﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ : ٢٠] ، فبيَّنَ أنَّها للَّذين لا نصيبَ لهم في الآخرةِ ، وهم أعداؤُنا[١] ، ثم أيَّدَهُ بقولِهِ : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ . . .﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٣٣ـ٣٥][٢] ، وإذا ثبتَ أنَّ الدنيا لأعدائِنا لم يكنْ مُقامُنا فيها إلا بحكمِ الحبسِ ؛ إذِ العاقلُ لا يختارُ المُقامَ في مملكةِ عدوِّهِ بطِيبةِ النفسِ[٣] .

ثم فسَّرَهُ الرسولُ المبعوثُ ليبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ؛ فقالَ : « ٱلدُّنْيَا سِجْنُ ٱلْمُؤْمِنِ ، وَجَنَّةُ ٱلْكَافِرِ »[٤] ، وهل يُسْجَنُ المرءُ إلا في مملكةِ مَنْ يعاديهِ علىٰ سيرتِهِ ، أو يضادُّهُ في سريرتِهِ ؟![٥] .

وإنَّما مَثَلُ الدنيا للعبيدِ مِنَ الجنَّةِ ، مَثَلُ بطنِ الأمِّ مِنْ كلِّ الدنيا للأجنَّةِ[٦] .

---

(١) بدليل ما رواه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً في خطاب سيدنا عمر رضي الله عنه : « أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟! » .

(٢) أي : اتركوا الدنيا مملكةً للأعداء . انتهىٰ من هامش (و) ، والآيات بتمامها : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

(٣) يقال : فعل ذلك بطِيبة نفسه ؛ إذا لم يُكْرِهْهُ عليه أحدٌ . انظر « الصحاح » (ط ي ب) .

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي « الرسالة القشيرية » (ص١٢٢) : أنه لما توفِّي داود الطائي رآه بعض الصالحين في المنام وهو يعدو ، فقال له : ما لك ؟! فقال : الساعةَ تخلَّصت من السجن ، فاستيقظ الرجل ، فارتفع الصياح : مات داودُ الطائي .

(٥) السيرة في الظاهر ، والسريرة في الاعتقاد . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٦) الأجنَّةُ : جمع جنين ؛ كأدلَّة ودليل ، وهو جنينٌ ما دام في بطن أمِّهِ ، فإذا وُلِدَ فهو منفوس . انظر « المصباح المنير » (ج ن ن) .

قلتُ ـ متَّعَكَ اللهُ بمُحْكَمِ الخطابِ ، وبحِكَمِ الكتابِ ـ : إنَّ للهِ تعالىٰ آياتٍ في نفسِكَ قبلَ الصُّحُفِ والرسولِ ، تَضطرُّكَ إلىٰ علمِ ما قلنا مِنَ الأصولِ[1] ؛ فالعبدُ : اسمٌ خاصٌّ للمملوكِ الصالحِ للعبادةِ مِنْ جنسِ العقلاءِ ، والمملوكُ : اسمٌ لموجودٍ قُهِرَ بالاستيلاءِ[2] ، وأنتَ عاقلٌ مقهورٌ بالتكوينِ والإنشاءِ ، فكنتَ عبداً ما لكَ مِنْ مَشيَّةٍ ؛ فإنَّها عبارةٌ عن نهايةِ المالكيَّةِ[3] ، وأنتَ علىٰ ضدِّها مِنَ المملوكيَّةِ[4] ، ولأنَّكَ تشاءُ مِنْ كلِّ خيرٍ الكثيرَ ، ولا تصيبُ إلا المقدورَ .

وإذا كنتَ عبداً غيرَ أهلٍ للمِلْكِ . . كنتَ فقيراً لا أميراً في مُلْكٍ ، وإذا كنتَ فقيراً غيرَ مالكٍ كنتَ علىٰ حَجْرٍ ، لا تتصرَّفُ إلا بإذنٍ مِنَ المالكِ أو أمْرٍ[5] ،

---

(١) المذكورة قريباً في قوله : (أيُّها المتكلم فيما تصدِّقُهُ الأصول) ، وفي هامش (و) : (أي : الأربعة) ، ولعله لاحظ هنا زيادة أصل القياس ، ولا تخفى الإشارة إلىٰ طريقة الماتريدية في المعرفة .

(٢) فغيرُ العاقل من المخلوقين مملوكٌ لا يُوصف بعبودية الاختيار ، بل بعبودية الاضطرار ؛ إذ لا تكليفَ بغير عقل ، وفي هامش (ج) عند قوله : (العبد) : (الصالح للعبادة) .

(٣) الضمير في قوله : (فإنها) راجعٌ إلى المشيئة ، ولم يعبِّرْ بالاختيار ؛ إذ في الاختيار نظرٌ للطرفين ، أما الإرادةُ أو المشيئة فنظرُها للمراد أو المَشِيءِ أيّاً كان طالما أنه من جملة الممكنات .

(٤) لكون مشيئة المملوك معلَّقةً بمشيئة المالك ، ولله درُّ الإمام ابن اللبَّان حيث يقول في « إزالة الشبهات » (ص١٣٤) مناجياً المولىٰ سبحانه : (إلـٰهي ؛ جلَّت عظمتُكَ أن يعصيَكَ عاصٍ ، أو ينساك ناسٍ ، ولـٰكنك أوحيت روح أوامرك في أسرار الكائنات ، فذكرك الناسي بنسيانه ، وأطاعك العاصي بعصيانه ، وإن من شيء إلا يسبِّحُ بحمدك ، إن عصىٰ داعيَ إيمانه . . فقد أطاع داعيَ سلطانك ، ولـٰكن قامت عليه حُجَّتُك ، ولله الحُجَّة البالغة ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣]) .

(٥) الإذن في المباحات ، والأمر في الفرائض . مفادٌ من هامش (و) .

وإذا كنتَ في بسيطِ الدنيا تحتَ أمرٍ علىٰ فَقْرٍ وما استطاعَ النفوذَ منها واحدٌ مِنَ الجِنْسِ[1] . علمتَ أنَّ المُقامَ بها علىٰ هـٰذهِ الصفاتِ بحُكْمِ الحَبْسِ ، وأنَّها لا تتصوَّرُ مملكةً إلا لمَنْ ناكرَكَ فيما قلتَ فعاداكَ[2] ، وأنكرَ العبوديَّةَ ، فغلبَ غلبةَ ذي الحريَّةِ[3] ، واستولى استيلاءَ المُلَّاكِ ، وعلا علوَّ الملوكِ علىٰ مدرجِ الضلالِ ، في مدَّةِ الإمهالِ[4] .

[عبوديَّةٌ ورقٌّ في الدنيا
وحريَّةٌ وعتقٌ في الآخرةِ]

فقالَ : ازددتُ بما قلتَ بصيرةً[5] ، ورجعَ قلبي عنكَ بعينٍ قريرةٍ[6] ، فما الأمدُ الأقصىٰ ؟

قلتُ : أضدادُها ؛ فما ذكرْنا فيما بيَّنَّا نهايةُ الجهةِ السفلىٰ ، فيكونُ أضدادُها نهايةَ الجهةِ العليا ؛ وهي العتقُ والحريَّةُ ، علىٰ نَفَاذِ المَشِيَّةِ ، والغنىٰ

---

(١) أي : جنس البشر ، قال تعالىٰ : ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [قٓ : ٣٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمٰن : ٣٣] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الضمير في (أنها) راجع إلى الدنيا ، وقوله : (مملكة) حالٌ ، ويجوز قراءة قوله : (تتصور) بالبناء للفاعل وللمفعول ، وناكره : أنكر عليه .

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) مـدَّةُ الإمهال : هي الدنيا ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١١] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٧] .

(٥) أي : بضمِّ المعقول إلى المسموع . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) قريرة : مسرورة . انتهىٰ من هامش (و) .

والمِلكُ ، والإمرةُ والحُكْمُ والولايةُ والمُلْكُ[1] ؛ لتفعلَ ما تشاءُ وتحكمَ ما تريدُ ، وإنَّها الأمدُ الأقصىٰ علىٰ ما تبلغُهُ الأوهامُ ما عليها مِنْ مزيدٍ .

فقالَ : فَصْلٌ عظيمٌ سماعُهُ[2] ، وغرضٌ ظاهرٌ امتناعُهُ ؛ فما نرىٰ للعبدِ عن رِقِّ ربِّهِ عِتْقاً وحريَّةً ، ولا مُلْكاً ومَمْلكةً ومَشِيَّةً ، فهلْ مِنْ دليلٍ تطمئنُّ القلوبُ بشهادتِهِ ؟

قلتُ : إنَّ الكتابَ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ المنزَّلَ مِنَ الحكيمِ الحميدِ . . شهدَ بما قلتُهُ لكَ في الدارِ الأُخرىٰ ونعمَ الشهيدُ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت : ٣١][3] ، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] .

وقد ذكرْنا أنَّ تلكَ المشيَّةَ عبارةٌ عن نهايةِ المالكيَّةِ ، ولا مالكيَّةَ قبلَ الحريَّةِ ، وإذا تحقَّقَ المِلْكُ . . لم يكنِ التصرُّفُ بحُكْمِ الأمرِ وجاءَ المُلْكُ ، وإذا جاءَ المُلْكُ تمنَّتِ النفسُ دَرَكَ المُنىٰ بأيسرِ الأسبابِ ، وذلكَ بمجرَّدِ المشيَّةِ أوِ الخطابِ ، حتىٰ تقولُ : (كُنْ) فيكونُ ، وإنَّهُ فوقَ الحريَّةِ بيقينٍ[4] .

قالَ : هٰذهِ صفةُ مَنْ عُرِفَ بالأُلوهيَّةِ ، فكيفَ بها مَنِ اتَّصَفَ بالعبوديَّةِ ؟![5] .

---

(١) الإمرة : الإمارة والولاية .
(٢) قوله : (فصل) ؛ أي : قولٌ . انتهىٰ من هامش (ب) .
(٣) تدَّعون : تطلبون وتسألون .
(٤) يعني : من وصلَ لرتبة التكوين . . فهو فوق الحرِّ بيقين .
(٥) يعني : كيف للعبد المملوك أن يتَّصف بصفة الحرِّ المالك ؟!

قلتُ : هٰذهِ للهِ تعالىٰ حقٌّ بذاتِهِ[١] ، وللعبدِ كرامةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لعبدِهِ بتكوينِ ما يشاؤُهُ العبدُ تعالى اللهُ عنِ الأشباهِ في شيءٍ مِنْ صفاتِهِ[٢] .

ولأنَّ العتقَ في اللغةِ : عبارةٌ عن قوَّةٍ للذاتِ يأمنُ معَها العتيقُ ، عن التملُّكِ بأسبابِ مِلْكٍ عُرِفَتْ للرقيقِ ؛ مِنْ قولِكَ : عَتَقَ الطيرُ ؛ إذا طارَ عن وَكْرِهِ ، فأمنَ أخْذَ يدِ الصائدِ واستيلاءَهُ عليهِ بقهرِهِ[٣] ، وعِتاقُ الطيرِ جوارحُها مِنْ جنسِها[٤] ، التي أمنَتِ استيلاءَ أغيارِها علىٰ أنفسِها ، والعبدُ بعدَ دخولِ الجنَّةِ يأمنُ كلَّ استيلاءٍ[٥] ، كما يفعلُ ما يشاءُ[٦] .

والحريَّةَ : عبارةٌ عن خُلُوصِ حقوقِ الحرِّ لهُ في نفسِهِ ومالِهِ ، وما لأحدٍ حقٌّ على الفائزِ بالجنَّةِ في شيءٍ مِنْ أحوالِهِ ، فيكونُ عبداً في ذاتِهِ ؛ فهو مخلوقٌ مكوَّنٌ ، عتيقاً حُرّاً في أفعالِهِ وأملاكِهِ ؛ فهو مُنْعَمٌ عليهِ مكرَّمٌ ، أُطلقَ عنهُ حَجْرُ

---

(١) أي : لا يتصور الانفكاك عنه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) وإنما انتفت المشابهةُ لأنه سبحانه هو المكوِّن لما شاءه العبد ؛ فالعبدُ في الدنيا والآخرة لا مدخليَّة له في الإيجاد ، والكسبُ ملازمٌ له فيهما ، وأهلُ الجنة يشاؤون ما قدَّره الله لهم وشاءَهُ أزلاً ، ولله درُّ القائل : (من البسيط)

لو لم تُرِدْ نيلَ من أرجو وأطلبُهُ   من فيضِ جودك ما علَّمتني الطلبا

(٣) قال الإمام السرخسي في « المبسوط » (٧/ ٦٠) : (اعلم : أن الإعتاق لغةً : هو إحداث القوة ؛ يقال : عَتَقَ الفرخ ؛ إذا قوي فطار عن وَكْرِهِ ، وفي الشريعة : عبارةٌ عن إحداث المالكية والاستبداد للآدمي ، ومن ضرورته انتفاءُ صفة المملوكية والرقِّ) .

(٤) جوارحُ الطير : كواسِبُها التي تصيد ولا تُصاد ؛ كالنسر والصقر والعُقاب والشاهين والبازي ، وفي (أ) : (أحرارها) بدل (جوارحها) ، وهما بمعنىً هنا .

(٥) بحكم الوعد الأزلي الذي يستحيل تخلُّفُهُ ؛ لرجوعه إلى الكلام القديم ، وإنما الخوف من الخواتيم .

(٦) أي : كما يشاء يفعل . انتهىٰ من هامش (و) .

المملوكينَ ، وعَتَقَ عن عبادةِ العابدينَ ، وسقطَ عنهُ الأمرُ[1] ، وباينَهُ الفقرُ ، وتحقَّقَ لهُ المِلْكُ ، واستوى المُلْكُ ، لـٰكنْ عطاءً مِنَ المَلِكِ الأعلىٰ ؛ فلهُ الآخرةُ والأُولىٰ ؛ أليسَ الحرُّ منَّا يملكُ عبدَهُ فيكاتبُهُ فيصيرُ حرّاً في حقِّ يدِهِ وفعلِهِ ، وهو عبدٌ في ذاتِهِ وأصلِهِ ؟! غيرَ أنَّ فَكَّنا عنِ العبدِ بالكتابةِ خاصٌّ يحتملُ الفسخَ ، وفَكَّ اللهِ تعالىٰ عنِ الفائزِ بالجنَّةِ عامٌّ ما لهُ مِنْ نَسْخٍ ، ولنا على المكاتبِ ضريبةٌ ، واللهَ تعالىٰ أبرأَهُ عن ضرائبِهِ ، وأكرمَهُ بمواهبِهِ ، فأشبهَ العتيقَ ، والتحقَ بطريقِهِ في كلِّ طريقٍ[2] ، للهِ تعالى المُلْكُ ولهُ الحُكْمُ يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ ، وهو الحميدُ المجيدُ .

[سبيلُ العتقِ والحريَّةِ الأبديَّةِ]

فقالَ : أوفيتَني اليقينَ[3] ، ونَفَيْتَ عنِّي الظنونَ ، فبيِّنْ لي السبيلَ إلىٰ دَرَكِها ، والسببَ لمِلْكِها ، فاللهُ تعالىٰ خلقَ الآخرةَ عطاءً جزاءً ، لا ابتلاءً ولا ابتداءً[4] .

---

(١) روى ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٥) ، وعلَّقه البخاري في « صحيحه » (٨/ ٨٩) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه قال : (ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكلٍّ واحدة منهما بَنونَ ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ؛ فإن اليوم عملٌ ولا حسابَ ، وغداً حسابٌ ولا عملَ) .

(٢) في هامش (ب ، و) : (أي : تظهر ثمرة الفَكِّ عن الحَجْر في حقِّ الاكتساب لا غيرُ ، حتىٰ لا يكون له أن يتزوج ، ولا أن يتسرَّىٰ ، ولا يزوج عبيده ، إلىٰ غيره من الأحكام ، بخلاف الفائز بالجنة ؛ فإن له عموماً ودواماً وخلوداً) .

(٣) أوفيتني اليقين : أعطيتنيه وافياً تامّاً ، أو بلَّغتنيه .

(٤) وإنما الابتداءُ في الدنيا ؛ ولذلك سُمِّيت : الأُولىٰ ، والبلاءُ فيها ؛ كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] .

فقلتُ : بأربعِ خِصالٍ[1] ، تنالُ مدىٰ هـٰذا الكمالِ :

عـامـلْ ربَّـكَ بِقِسْـمِ العبـوديـةِ معـاملـةَ المسخَّـراتِ مِـنَ السمـاءِ والأرضِ والجبالِ[2] ؛ فقد ساويتَها في مِنَّةِ الإنشاءِ ، وقهرِ الإفناءِ ، وباينْتَها بمعرفةِ حِكَمِ القَسَّامِ[3] ؛ فلا تزدَدْ بها شَكْوىٰ وسُخْطاً إنْ لم تزددْ بها شكراً علىٰ زيادةِ الإنعامِ .

ثم عاملْهُ بِقِسْمِ الفقرِ معاملةَ الوحوشِ والطيورِ والأطفالِ[4] ؛ فإنَّكَ وهـٰذهِ الخليقةَ في الفقرِ والحاجةِ إلى الرزقِ والغذاءِ علىٰ مثالٍ ، ولـٰكنَّكَ في نفسِكَ

---

(١) إنما اختار عدد (الأربع) في تقسيم الحكم والمعاني اقتداءً بصنع الحق ؛ فإن الله تعالىٰ جعل العناصرَ أربعة ، والطبائعَ أربعاً ، والملائكةَ الموكلين أربعاً ؛ فجبريلُ للوحي ، وإسرافيلُ لنفخ الصور ، وميكائيلُ للأرزاق ، وعزرائيلُ للأرواح ، والمكلفين أربعةً ؛ الجن والإنس والملك والشياطين ، وانتهاءَ عدد النساء أربعةً ، والخلفاءَ الراشدين أربعةً . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) يعني : باستسلام وطاعة تامة ؛ كما قالتا : ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] ، وقوله : (بقِسْم) كذا ضبطت بفتح السين وسكونها في (ب) ؛ يعني : بصيغتي الجمع والإفراد ، والقِسْم ـ بكسر القاف وسكون السين ـ : النصيب والحظُّ ، وفسِّرَت في هامش (هـ ، و) بالوصف ، ونقل الإمام ابن عطاء الله الإسكندري في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص٢٣٩) عن شيخه الإمام أبي العباس المرسي أنه قال : (الأكوان كلُّها عبيدٌ مسخَّرة ، وأنت عبدُ الحضرة) .

(٣) وهو الله ُجلَّ جلاله ، وعزَّ سلطانه .

(٤) وهـٰذا معنىً شريف في التوكل ، وما مثَّلَ به يظهر عليهم ذلك ، وفي « الرسالة القشيرية » (ص٥٨٩) عن الإمام الشبلي أنه قال : (الصوفيةُ أطفالٌ في حِجْرِ الحقِّ) ، وقال الإمام ابن عطاء الله الإسكندري في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص٣١٦) : (مَثَلُ العبد مع الله تعالىٰ في هـٰذه الدنيا كالطفل مع أمِّهِ ، ولم تكن الأمُّ لتدعَ ولدَها من كفالتها ، ولا أن تخرجه عن رعايتها ؛ كذلك المؤمن مع الله تعالىٰ ؛ قائم له الحقُّ سبحانه بحُسْنِ الكفالة ؛ فهو سائقٌ إليه المنن ، ودافعٌ عنه المحن) .

فُضِّلْتَ عليها بنيلِ آلاتِ طلبِ الغنىٰ وحِيَلِ الظَّفَرِ ، فإنْ لم تزددْ بها طُمأنينةً فلا تزددْ بها حرصاً إلىٰ حَذَرٍ[١] .

ثم عامِلْهُ بِقِسْمِ أنَّكَ مأمورٌ معاملةَ الحيوانِ المُجْبَرِ المحمولِ[٢] ؛ فقد قاربتَهُ في توجُّهِ الأمرِ إليكَ ، ووقوعِ الحَمْلِ مِنْ أمانةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ[٣] ، وإنَّما باينْتَهُ بإطلاقٍ أحسنَ اللهُ تعالىٰ بهِ إليكَ[٤] ، وجزاءٍ وعدَهُ لكَ ، فإنْ لم تزددْ بهما طاعةً وهُدُوّاً[٥] ، فلا تزددْ عصياناً وعُتُوّاً .

ثم عامِلْهُ بِقِسْمِ حلولِكَ بمملكةِ الأعداءِ معاملةَ التاجرِ السالكِ ، في مأوى اللصوصِ والمهالكِ ؛ فما أنتَ إذا حقَّقْتَ النظرَ إلا ذلكَ ، غيرَ أنَّ لك داراً أُخرىٰ بلا خوفٍ ولا حَذَرٍ ، وسُوقاً لربحٍ بلا خَسَرٍ[٦] ؛ فإنْ لم تزددْ بهما

---

(١) الضمير في (بها) راجعٌ إلىٰ آلات الطلب وحيل الظفر ؛ فالإنسان بها أخرج السمك من الماء ، وأنزل الطير من السماء ، والبهائم علىٰ ما هي عليه متوكِّلةٌ على الله تعالىٰ ، فكان حقَّك أن تزيد عليها تفويضاً وتوكلاً وطمأنينةً مع وجود هـٰذه الأسباب والآلات ، فلا أقلَّ من أن تكون مثلها ؛ فلا تحرص حرصاً يفضي بك إلىٰ خوفِ الرزق ، وحذرِ فوت القوت والقوام .

(٢) يعني : الذي حُمِلَ علىٰ أمر ما ؛ كالسانيةِ ؛ وهي البعير يُسنىٰ عليه ؛ أي : يُستقىٰ من البئر ، والركوبةِ ؛ وهي الناقة التي تُركب .

(٣) قال عزَّ شأنه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

(٤) في هامش (ب) : (أطلق فلان علىٰ فلان بكذا ؛ إذا أعطاه عطية) ، وفي هامش (و) : (وذلك **الإطلاقُ** : هو التكريمُ والإحسان ، وقوةُ مباشرة الأسباب ، وجعْلُ فعلك مناطَ الأجر) .

(٥) **الهدوُّ** : الهدوءُ ، سهَّلَ مراعاة للسجعة ؛ وهو السكون ، وفي (أ) : (بها) بدل (بهما) ، وتأمَّل .

(٦) **الخسرُ** ـ بفتح السين وسكونها ـ : انتقاصُ رأس المال ، أو الغبنُ .

للرحيلِ نشاطاً . . فلا تفرُشْ بهما للمُقامِ بِساطاً .

فإذا رضيتَ بقسمةِ الحقِّ ، ولم يتعبْكَ خوفُ الرزقِ ، وسارعْتَ إلى الأمورِ ، وأسرعتَ بقلبِكَ عنِ الدنيا المسيرَ . . جاءَكَ عندَ المَنْزِلِ البشيرُ[1] ؛ ملائكةُ اللهِ : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، خِفْتُمُوني في الدنيا على غيبٍ فها أنتم آمنونَ ، وكنتم فيها مسافرينَ ، فهاكمُ الجِنانَ خالدينَ .

فقالَ : صدقتَ ولـٰكنَّهُ أمرٌ عسيرٌ ، ما أُرىٰ عليهِ عبداً بقديرٍ[2] ، ففي النفوسِ دواعٍ إلىٰ ضدِّها ، وموانعُ عن وِرْدِها[3] ، إلا مَنْ أُعطيَ فضْلَ بصرٍ وتوفيقٍ ، وتثبيتٍ علىٰ سواءِ الطريقِ ، فأعِرْني أيُّها المُنعِمُ بالتعليمِ ، زيادةَ نورٍ مِنَ العلومِ[4] ؛ فلعلِّي أُكرَمُ عندَ ذلكَ بشَرْحِ صدرٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ فأهتدي إلى الحقِّ ، وأعتصمُ بهِ عن شرِّ النفسِ والخَلْقِ ، فبيِّنْ لي كلَّ ما يحتاجُ إليهِ العبدُ ليبصرَ الحقَّ يقيناً ، ويقفَ عليهِ مَكِيناً .

فقلتُ : فِرَّ إلى اللهِ تعالىٰ فإنَّ اللهَ تعالىٰ مجيبُ مَنِ اضطُرَّ إليهِ ، وحَسْبُ مَنْ

---

(١) المنزِلُ هنا : القبر ، أو عند قبض الروح ، وروى الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) من حديث سيدنا عثمان رضي الله عنه مرفوعاً : « إن القبرَ أوَّلُ منزل من منازل الآخرة ؛ فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ منه » .

(٢) أُرىٰ : أظنُّ الذي ذكرت . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) توطئةٌ للدخول في الحديث عن جهاد النفس التي تركن لأسر الشهوات والملذَّات ، وتُعرِض عن الخيرات الباقيات .

(٤) أعرني بكسر العين : فعل طلب من الإعارة ، وبسكون العين : فعل طلب من الإعراء ؛ وهو الإعطاء ، يقال : أعْراه النخلة ؛ إذا وهبه ثمرةَ عامها ، وفي هامش (و) : (من الإعراء ، وهو الأولىٰ) ؛ وذلك لأن العلم يُعطىٰ ولا يُعار .

توكَّلَ عليهِ[1] ، ولله تعالىٰ عبادٌ وصلوا بتوفيقِهِ إلى الحِكَمِ في مُحْكماتِ صُنْعِهِ ، فاستخرجوها بألفاظِهم لعبادِهِ علىٰ موافقةِ شرعِهِ[2] ، فبلَغوا بذلكَ مراتبَ الأنبياءِ[3] ، وصاروا قادةَ الأولياءِ ؛ فقالَ عليهِ السلامُ : « علماءُ أمَّتي كأنبياءِ بني إسرائيلَ »[4] ، وإنِّي قد جالستُهم ونوَّرَ اللهُ تعالىٰ بها لإبصارِ قلبي مصباحاً[5] ، ثم تضرَّعْتُ إليهِ فآتاني ـ ولهُ الشكرُ ـ لمُنْغَلِقِ الحِكَمِ مفتاحاً[6] ،

---

(١) في الجملتين إشارةٌ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [الطلاق : ٣] .

(٢) وقال العلامة الأمير في « حاشيته علىٰ إتحاف المريد » (١/ ٢٢٢) مجيباً عن دعوىٰ أن الأحكام الفقهية الاجتهادية ليست من الدين : (هي من الدين قطعاً ، وهي موضوعٌ إلـٰهي ، غاية الأمر : أنه مخفيٌّ علينا ، والمجتهد يعاني إظهارها والاستدلال عليها بقواعد الشرع ، ولا مدخل له في وضعها) .

(٣) في هامش (ب) زيادة كلمة (بعض) قبل قوله : (مراتب الأنبياء) ، والمراد : الوراثة المشار إليها بما رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه : « وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر » .

(٤) قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٧٠٢) : (قال شيخنا ـ يعني : الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ ومن قبله الدميريُّ والزركشي : إنه لا أصل له ، زاد بعضهم ـ وهو الدميري في « النجم الوهاج » « ١/ ١٩٦ » ـ : ولا يعرف في كتاب معتبر) ، ويغني عنه حديث : « العلماء ورثة الأنبياء » المتقدم تعليقاً ، ووجه التشبيه : استنباط الأحكام ، وإحياء ما اندثر من الدين ؛ لـٰكن الأنبياء بالوحي ، والعلماء بالاجتهاد .

(٥) الضمير في (بها) راجعٌ إلى الحِكَمِ المتقدم ذكرها ، وفي (أ) : (بها الحِكَمَ) علىٰ أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره : (أعني) ، أو راجعٌ إلى المجالسة المفهومة من قوله : (جالستهم) ، وهي كذلك في هامش (و) .

(٦) قال جلَّ جلاله وعزَّ سلطانه : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا =

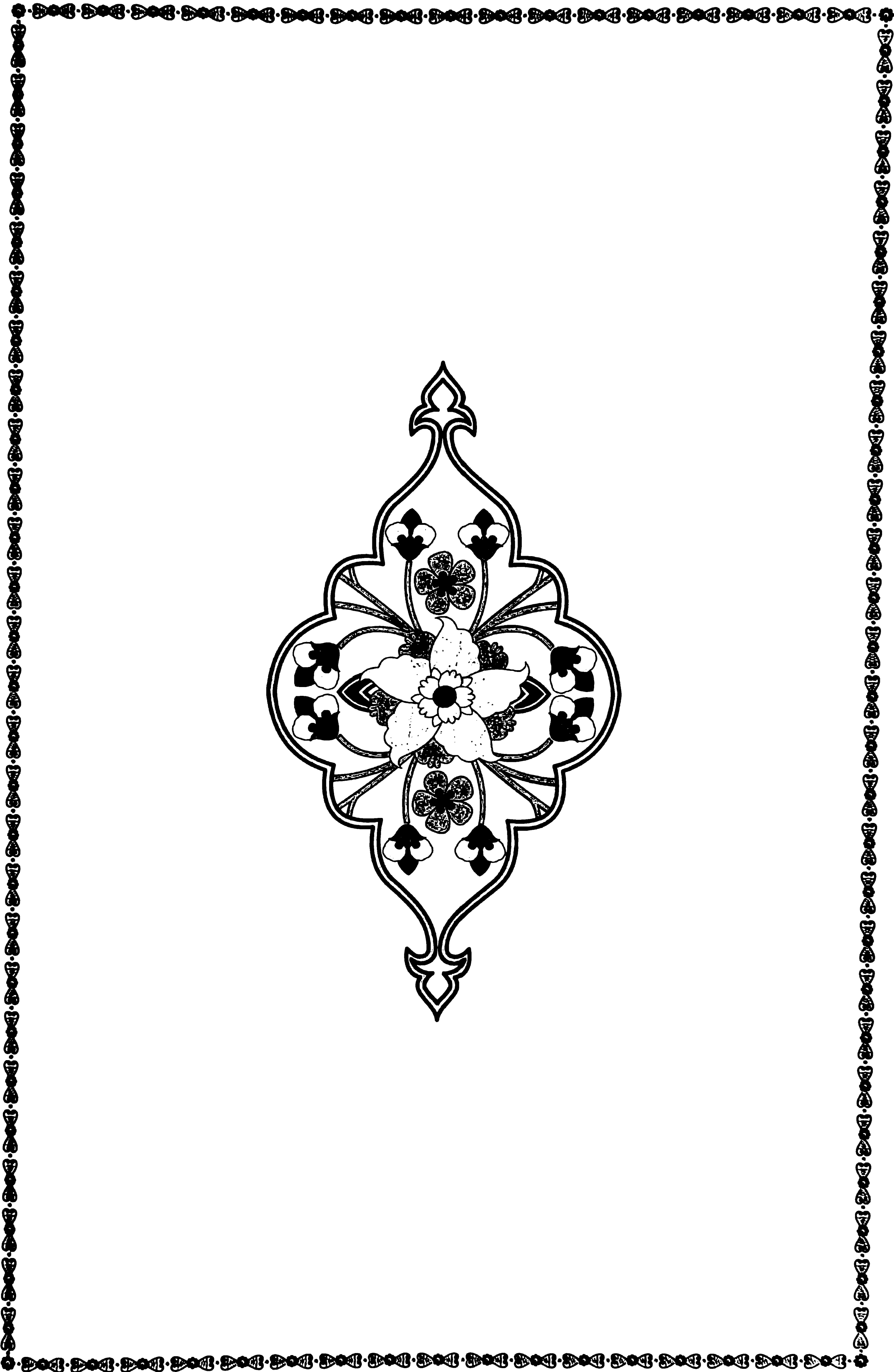
وإنِّي ذاكرٌ لكَ إنْ شاءَ اللهُ ما تنشرحُ بهِ الأمورُ ، وتهتدي بهِ الصدورُ ؛ شكراً للهِ تعالىٰ بالتحديثِ بنعمتِهِ ، وإظهارِ كريمِ قسمتِهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ باريْ النُّهىٰ[1] ، والصلاةُ علىٰ رسولِهِ سيِّدِ الورىٰ ، وآلِهِ مصابيحِ الهدىٰ .



= كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(١) النُّهىٰ : جمع نُهْية ؛ وهي العقل . انتهىٰ من هامش (و) ، وباريْ النُّهىٰ : خالق العقول . انتهىٰ من هامش (ج) .


[كِتَابُ
جِهَادِ النَّفْسِ]



كتاب
جهاد النفس[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لمَنْ خلقَ الدنيا مَهْلكةً[2] ، وباطنَ الجسمِ معركةً[3] ، والآخرةَ مَمْلكةً[4] ؛ أراها مَنْ سَعِدَ ، وأعمىٰ عنها مَنْ شَقِيَ ، والحقُّ علىٰ مَنْ أحاطَ بمعاركِهِ مهالكُهُ[5] : أنْ يرىٰ نجاتَهُ في فِرارِهِ ، ومماتَهُ في قرارِهِ .

والصلاةُ علىٰ مَنْ بُعِثَ لها مفسِّراً[6] ، فقالَ مخبراً : « أفضلُ الجهادِ جهادُ النفسِ »[7] .

---

(١) قال الإمام السلمي في « تفسيره » (٢/١٢١) : (قال ابن عطاء رحمة الله عليه : المجاهدة : هي صدق الافتقار إلى الله ، بالانقطاع عمَّا سواه) . مفادٌ من هامش (ب) .

(٢) مهلكة : موضع هلاك . انتهىٰ من هامش (ب ، و) ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٨] ، والمراد : أن الدنيا فانية غير باقية ، أو أنها سببُ هلاكِ الآخرة لمن آثرها عليها .

(٣) بين جندِ الرحمـٰن ومددُهم الإيمان والطاعة ، وجندِ الشيطان ومددُهم الكفر والشرك والنفاق والمعصية ، أو بين النفس والروح كما سيأتي .

(٤) انظر (ص٣٠٥) .

(٥) الحقُّ : الواجب ، والمعنىٰ : الواجبُ علىٰ من علم أن معاركَ الباطن مَهْلكةٌ له . . . إلىٰ آخره .

(٦) قوله : (لها) ؛ يعني : لهـٰذه الحقائق . انتهىٰ من هامش (و) .

(٧) روى الترمذي (١٦٢١) وقال : (حديث حسن صحيح) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٧٩٤) من حديث سيدنا فَضالة بن عبيد رضي الله عنه مرفوعاً : « المجاهدُ : من جاهد نفسَهُ » .

[العُلْقةُ بينَ الروحِ والقلبِ ، والنفسِ والحواسِّ الخمسِ]

وذلكَ : في أنَّ الجسمَ مِنْ كلِّ ذي عقلٍ منَّا مبتلىً بأربعةٍ ؛ الروحِ والنفسِ ، والقلبِ والرأسِ[1] .

فالنفسُ باستعمالِ الرأسِ حواسَّهُ تأمرُ الجسمَ وتنهىٰ للعاجلِ ؛ وهوَ الدنيا ، والروحُ باستعمالِ القلبِ عقلَهُ ناهيةٌ للجسمِ وآمرةٌ للآجلِ ؛ وهوَ الأُخرىٰ ؛ ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٧ـ ٤١] .

فالجسمُ رعيَّةٌ ، والنفسُ أميرٌ مِنَ الدنيا ، والروحُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أميرٌ مِنْ عندِ المولىٰ ، والرأسُ والقلبُ وزيرانِ لهما ، وعملُ الأميرينِ علىٰ سبيلِ التسخيرِ والإجبارِ[2] ، وعملُ الوزيرينِ والرعيَّةِ علىٰ سبيلِ الاختيارِ .

[أعوانُ الروحِ والنفسِ]

ولكلِّ أميرٍ أعوانٌ أربعةٌ :

فالدنيا تعينُ النفسَ بقوَّةٍ تؤتيها بوقتٍ مِنَ السنةِ يوافقُها ، وبفَصْلِ شبابٍ مِنْ عمرِهِ يرافقُها ، وينصرُ الدنيا علىٰ ذلكَ أبناؤُها مِنْ جنسِهِ مِنَ الآدميينَ بمخاطبةٍ ظاهرةٍ ، ومِنْ خلافِ جنسِهِ مِنَ الشياطينِ بوسوسةٍ باطنةٍ .

واللهُ تعالىٰ يعينُ الروحَ بآفاتٍ تسلُبُ القُوىٰ بحلولِها[3] ، والشيبةَ بنزولِها ،

---

(١) وفي الرأس مجمعُ الحواسِّ ، وفي هامش (ب) : أراد الدماغ .

(٢) إذْ كلٌّ من الروح والنفس مسخَّر ومُجْبَرٌ ؛ فالروح ميَّالٌ إلى الطاعات بطبعه ، والنفس ميَّالةٌ إلى الشهوات واللَّذَّات بطبعها . مفادٌ من هامش (و) .

(٣) قال الحكيم العليم سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ=

وينصرُ اللهَ علىٰ ذلكَ عَبيدُ اللهِ مِنْ جنسِهِ مِنَ الآدميِّينَ بدعاءٍ جَلِيٍّ[1] ، ومِنْ خلافِ جنسِهِ مِنَ الملائكةِ بإلهامٍ خَفِيٍّ .

فالجسمُ ما عاشَ في الابتلاءِ أبداً ؛ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] ، وذلكَ في جهادِ النفسِ ؛ وهو تأويلُ قولِ الرسولِ صاحبِ التنزيلِ : « أفضلُ الجهادِ جهادُ النفسِ »[2] ؛ فإنَّهُ العدوُّ الحقيقيُّ المستولي علىٰ جسمِكَ المأيوسُ عن موالاتِهِ[3] ، وقالَ عليهِ السلامُ : « أعدىٰ عدوِّكَ : بينَ جنبيكَ »[4] ؛ يعني بهِ : النفسَ ، ولذلكَ قالَ عليهِ

= وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

(١) كذا ضبط العبارة في (ب ، د) ، وضبطت في (ج) : (وينصرُ اللهُ علىٰ ذلك عبيدَ الله من جنسه . . .) إلىٰ آخره ؛ ففي هامش (و) : (قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ؛ أي : ينصر أولياء الله) .

(٢) تقدم قريباً .

(٣) تقدم في أوَّل الباب قريباً (ص١٠٥) ، وقوله : (فإنه) راجعٌ إلى النفس ، ويجوز تذكيرها علىٰ معنى الشخص ، فإن أُريد بها الروح كما هنا فمؤنثة لا غير كما في « المصباح المنير » (٢/ ٩٦٧) ، فيكون التذكير هنا علىٰ قول ابن كيسان في جواز وصف المؤنث المجازي به كما في « مغني اللبيب » (٢/ ٨٢٤ ـ ٨٢٥) ، وفي هامش (و) : (لأنه مجبول على الشرور) ، وتعدية (أيس) تكون بـ (من) لا بـ (عن) .

(٤) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٢) من حديث سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٤٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الحافظ العجلوني في « كشف الخفاء » (٤١٢) : (رواه البيهقي في « الزهد » بإسناد ضعيف ، وله شاهد من حديث أنس) ، ثم قال : وما أحسن ما قيل : [من الكامل]

إنــي بُليــتُ بــأربــعٍ مــا سُلِّطــوا ... إلا لأجــلِ شقــاوتــي وعنــائــي
إبليـس والـدنيـا ونفسـي والهـوىٰ ... كيـف الخـلاصُ وكلُّهـم أعـدائـي

انتهىٰ ، وللعباس بن الأحنف كما في « ديوانه » (ص١٧٨) : (من السريع)

قلبــي إلــىٰ مــا ضــرَّنــي داعــي ... يُكثــر أسقــامــي وأوجــاعــي =

السلامُ : « رجعْنا عنِ الغزوةِ الصغرىٰ إلى الغزوةِ الكبرىٰ »[1] ؛ يعني : عن جهادِ الكفرةِ إلىٰ جهادِ النفسِ .

فالنفسُ جاهلةٌ بالروحِ مُنْكرةٌ إيَّاها ، جاحدةٌ بالآخرةِ وبمولاها ، والروحُ عارفةٌ بالنفسِ والدنيا ، وهي مرسَلةٌ مِنْ عندِ المولىٰ[2] .

فالجسمُ : القالَبُ المصوَّرُ المؤلَّفُ المحسوسُ بعدَ الموتِ ، والنفسُ والروحُ : ما اتصفا بالفوت[3] .

= كيف احتراسي من عدوِّي إذا كان عدوِّي بينَ أضلاعي

(١) روى البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) عن سيدنا جابر رضي الله عنه قال : قدمَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قومٌ غزاةٌ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قدمتم خيرَ مقدمٍ ؛ من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » ، ثم قال : (هٰذا إسناد ضعيف) ، وقال العلامة الغماري في « المداوي » (٤/ ٦٢٢) : (والحديث له شواهدُ كثيرة يمكن جمعها في جزء مفرد) .

(٢) في (أ) زيادة نُبِّهَ في الهامش أنها ليست من أصل الكتاب ؛ وهي : (والمعنيُّ بجهلِ النفس ومعرفةِ الروح : ما يظهرُ في إشاراتهما علىٰ ما خُلقا لهما ، وكذلك ما يُحكىٰ عن الجماداتِ من قول ؛ فهو علىٰ ما يظهرُ منها لما خُلِقَ لها) .

وقوله : (مرسلة من عند المولىٰ) إشارةٌ إلى الإضافة في قوله سبحانه : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر : ٢٩] ، قال عصريُّ المصنفِ الأستاذ أبو منصور البغدادي في « الأسماء والصفات » (١/ ٣٤٤) : (تشريفاً للروح علىٰ غيره) .

(٣) يعني : أن الجسم هو الجُثَّة من الإنسان التي تُشاهد بعد الموت ، وتغسَّل وتكفَّن وتدفن ، وإنما صار الإنسان ساعتئذٍ جُثَّةً لفوات الروح والنفس وفراقهما له .

وقد عقد الإمام الرازي في كتابه « النفس والروح وشرح قُواهما » (ص٤٣) فصلاً بيَّنَ فيه أن الإنسان مؤلَّفٌ من جسم ونفس وروح ، ومن جملة ما قال فيه : (النصوص ناطقة بأن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان باقٍ بعد موت هٰذا البدن ، حيٌّ مُدْرِكٌ للألم واللذة ، وأما أن هٰذا الجسد المشار إليه ليس حيّاً بعد الموت . . فهٰذا معلوم بالضرورة ، ولو جوَّزنا كونه حيّاً لجاز مثله في جميع الجمادات ، وذلك عين السفسطة) ، ثم قال : (وإني لشديد=

[عُلْقةُ النفسِ بالطبائعِ الأربعةِ]

أمَّـا النفسُ : فيحتمـلُ أنْ تكـونَ الطِّبـاعَ الأربـعَ التـي ليسَـتْ منـكَ بمحسوسةٍ[1] ؛ مِنْ حرارةٍ وبرودةٍ ، ورطوبةٍ ويبوسةٍ ، التي جعلَها اللهُ تعالىٰ أصلاً لكلِّ ما جُبلَتْ ، ثم جعلَها علَّةً لحياتِها إذا اعتدلَتْ ؛ لكونِكَ بعضاً منها[2] ، ثم نَشْئِكَ في فَصْلِها ، وارتزاقِكَ مِنْ نُزُلِها[3] ، ثم عَوْدِكَ إلىٰ أصلِها[4] .

وقد أبانَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ لمَنْ كَلَّ بصرُهُ ، أو قلَّ نظرُهُ ؛ فقالَ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وقالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ [الفرقان : ٥٤] .

= التعجُّب من هـٰؤلاء المنكرين لوجود النفس ؛ وذلك لأن تصديق القرآن والنصوص في ثواب القبر وعقابه ، وفي الحشر والنشر . . تصير مقبولة معقولة بسبب إثبات النفس ، ويُتخلَّصُ عن المطاعن والشبهات والإشكالات ، وإذا لم تُثبَتِ النفس توجهت الإشكالات وعظمت المطاعن ، فما الذي حمل هـٰؤلاء علىٰ إنكار النفس حتىٰ وقعوا في الظلمات الشديدة ؟!) .

(١) قال العلامة اللغوي الفيومي في « المصباح المنير » (٢/٩٦٧) : (وطباع الإنسان بالوجهين ـ يعني : تذكيراً وتأنيثاً ـ ، والتأنيث أكثر ؛ فيقال : طباع كريمة) ، وفي (و) : (الطبائع) بدل (الطباع) ، ونسخة في هامشها كالمثبت .

(٢) أي : كان كلُّ العالم مجبولاً من الطبائع الأربع ، وكنت بعضاً من العالم ، فتكون مجبولاً من الطبائع الأربع . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

(٣) النُّزُل : المنزل ، وما هُيِّئَ للضيف أو النزيل .

(٤) وهي عند القدماء : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، أو يقال : هي الأخلاط الأربعة ؛ فالصفراء وأصلها النار ، والدم وأصله الهواء ، والبلغم وأصله الماء ، والسوداء وأصلها التراب ، وقال سبحانه وتعالىٰ بعد ذكر الأرض وما فيها : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] .

وقالَ : ﴿ إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَـرًا مِّن صَلۡصَـٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ [الحجر : ٢٨] .

وقالَ : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾ [المؤمنون : ١٢][1] .

وتأويلُها - واللهُ أعلمُ - : أنَّ بَدْءَ الأمرِ كانَ قُبْضةً مِنْ ترابٍ ، فمُزِجَ بقُبْضةٍ مِنْ ماءٍ ، فصارَ سلالةً مِنْ طينٍ تَنْسُلُ بينَ الأصابعِ لو قُبِضَ عليها[2] ، ثم مكثَ ما شاءَ اللهُ البصيرُ ، حتى اعتدلَ كأنَّهُ حمأٌ مسنونٌ يقبلُ التصويرَ[3] ، فصوَّرَهُ ثم سلَّطَ عليهِ الريحَ حتىٰ يَبِسَ فصارَ صَلْصالاً يتصلصلُ كالفخَّارِ[4] ، ثم حرَّكَهُ الجبَّارُ ، وأحياهُ بالحرارةِ المركَّبةِ في الدمِ ، حتى استُكْمِلَتِ الطبائعُ فكانَتْ نَفْساً ، فنفسُ الشيءِ : عبارةٌ عن هُوِّيَّتِهِ ، وهُوِّيَّةُ الآدميِّ مِنَ الدنيا صورةً ومعنىً[5] .

---

(١) في هامش (هـ) : [من البسيط]

اَلروحُ مِنْ عندِ ربِّ العرشِ مبدؤُهُ ... وتربةُ الأرضِ أصلُ اللحمِ والبدنِ
وهكـذا أَلَّـفَ الـرحمـٰـنُ بينَهمـا ... ليَصْلُحـا لقبـولِ العهـدِ والمِنَـنِ

والصلصال : الطين اليابس الذي يَصِلُّ ليُبْسه ، ومعنىٰ (يَصِلُّ) : يصوِّت . انظر « معاني القرآن » للزجاج (٣/ ١٧٨) .

(٢) تنسلُ - بضم السين وكسرها - : تخرج وتنساب مسرعة .

(٣) مسنون : متغيِّر منتنٌ .

(٤) يتصلصلُ : يقال : صَلَّ اللجام ؛ امتدَّ صوته ، فإن تُوهِّمَ ترجيع صوت فقلْ : صلصلَ وتصلصلَ ، وكذلك كلُّ يابس . انظر « تاج العروس » (ص ل ل) (٢٩/ ٣٢١) .

(٥) كأن الإمام المصنف لاحظَ ابتداء التخليق الواقعِ على الجسد ، فجعل هوية الإنسان من الدنيا صورة ومعنىً ، ولا شكَّ أن مراتب الخلقة ؛ من طين ثم من نطفة . . واقعةٌ على الجسد ، لـٰكن الله تعالىٰ قال : ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَـٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، قال الإمام الرازي في « النفس والروح وشرح قُواهما » (ص٤٥) : (وهـٰذا تصريحٌ بأن ما يتعلق بنفخ الروح جنسٌ آخر مغاير لما سبق من التغيُّرات الواقعة على الأحوال الجسمانية) .

ثم لمَّا كانَ هـٰذا الخَلْقُ للابتلاءِ ، ثم للجزاءِ في دارِ البقاءِ ؛ وهي غيرُ دارِ الفناءِ ، وهـٰذهِ النفسُ في دارِ الدنيا داعيةً إليها كنفوسِ البهائمِ . قرنَ اللهُ الروحَ الناطقةَ التي هي للملائكةِ إلى النفسِ[(١)] ، فأحيا بهما كلَّ هـٰذا العالمِ ؛ لتكونَ الروحُ داعيةً إلى المولىٰ ، ودليلاً على البقاءِ بعدَ فناءِ الأُولىٰ[(٢)] ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الأمرِ ، فهو علَّامُ كلِّ سرٍّ .

ثم أبانَ إلىٰ هـٰذا العلمِ سبيلاً بقولِهِ[(٣)] : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، بعدَما عرَّفَتِ الفلاسفةُ النفسَ وأوضحوا عليها دليلاً[(٤)] .

---

(١) أي : خلق الله الروح للملائكة ، وخلق الروح والنفس للإنسان . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) ، ومعنى القَرن : الجمع بين الروح الحيواني والروح الناطقي .

(٢) قال العلامة الصفَّار الحنفي في « تلخيص الأدلة » (ص٢٦٢) : (واعلم : أن روح الحياة لا يموت ، خلقه الله كذلك ، ذكره الإمام أبو عبد الله بن أبي حفص الكبير في كتاب « الرد علىٰ أهل الأهواء ») ، وقال أيضاً (ص٢٥٤) : (واعلم : أن كل حيٍّ حيٌّ بحياة تقوم به ، ولـٰكن حياة كل ذي روح إنما تقوم بذي الروح بروح الحياة ؛ بدليل أن الجسد يموت بخروج روح الحياة ، وروح الحياة حيٌّ بحياة يحدث الله فيه ساعة فساعة ، كما يحدث سائر الأعراض في الأجسام والجواهر ، والروح : جسم رقيق فيه ضياء ، وله مدخلٌ في جميع تجاويف الحيوان ، ولا يتولد حياةُ روح الحياة من الروح ؛ كما لا يتولد العرض من الجسم الذي قام به العرض ، هـٰذا مذهب أهل الحق .

واعلم : أن الروح يُسمَّىٰ نفساً وروحاً ؛ فالنفس مؤنَّث ، والروح مذكَّر ، ذكره ابن الأنباري) .

(٣) في (أ ، ج ، ز) : (العالم) بدل (العلم) .

(٤) قوله : (عرَّفت) كذا بتشديد الراء في (ب ، ج ، د ، هـ) ، ويجوز تخفيفها كما في سائر النسخ أيضاً ، وفي هامش (و) : (أي : لما عرفوا النفس وأقاموا عليها دليلاً . فالله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾) ، ولا يخفىٰ أن معرفتهم لم تكن تحقيقية ؛ =

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١][1] ، وقالَ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] ، فأضافَ إلىٰ نفسِهِ على الخصوصِ إضافةَ تكريمٍ[2] ؛ كبيتِ اللهِ ، وعبدِ اللهِ ، وناقةِ اللهِ .

والنفسُ موصوفةٌ بالذمِّ ؛ حتىٰ سُمِّيَتْ طاغوتاً وأمَّارةً بالسوءِ[3] ، وكانَ هواها بخلافِ هُدى اللهِ تعالىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠] .

وقالَ : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقيلَ : طاغوتُ كلِّ امرئٍ نفسُهُ .

فأبانَ لكَ أنَّهما ضدَّانِ أميرانِ ؛ لأنَّ حياةَ الجسمِ بهما[4] .

[عرفانُ الروحِ بالنفسِ ، ونكرانُ النفسِ للروحِ]

النفسُ منكرةٌ للروحِ ؛ لإنكارِها المولىٰ والدارَ الأُخرىٰ ، وفنائِها معَ حياةِ الدنيا[5] .

والروحُ ـ واللهُ أعلمُ ـ لهُ عِرفانٌ بالنفسِ ؛ لأنَّها مضافةٌ إلى

= لعدم استنادها إلىٰ حسٍّ أو حكم عقل ، وهم عن خطاب المولىٰ في معزل ، فكان قولهم فيها : إما ممَّا طرق أسماعهم من كلام الأنبياء وورَّاثِهم ، وإما من بنات أفكارهم .

(١) والآية بتمامها ليظهر مرجع ضمائرها : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

(٢) يعني : فأضاف الروح المذكور في الآيتين إلىٰ نفسه إضافة تشريف .

(٣) الطاغوت : ما يُعبدُ من دون الله تعالى ، اسم من الطغيان . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) أي : النفس والروح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) أي : النفس منكرة بفناء الطبائع وفناء الدنيا . انتهىٰ من هامش (و) .

المولىٰ[1] ، وحلَّتْ بأمرِهِ بالورىٰ .

وقد قطعَ الشبهةَ لمَنْ لم تَجِدَّ أبصارُ قلوبِهم ، وحَدَّتْ أسماعُ رؤوسِهم[2] . . قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الجهادِ جهادُ النفسِ »[3] ؛ فإنَّ الروحَ يُضافُ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ كبيتِ اللهِ وعبدِ اللهِ وناقةِ اللهِ ، وجهادُها كفرٌ[4] .

[وجهُ وزارةِ الرأسِ للنفسِ ، والقلبِ للروحِ]

وأمَّا الرأسُ والقلبُ : فوزيرانِ للأميرينِ المتضادَّينِ ؛ الرأسُ للنفسِ ، والقلبُ للروحِ ؛ لأنَّ الرأسَ لا يستعملُ إلا الحواسَّ ، ولا ينالُ بها إلا المنافعَ العاجلةَ مِنَ الدنيا ، فتُرِي النفسُ الجسمَ ما أدركَتْ بحواسِّها ، وأمرَتْهُ بطلبِها وشرائِها بأنفاسِها ، لا حظَّ لها في دَرَكِ ما يدعو إليهِ الروحُ مِنَ الآخرةِ ، وإنِ اجتهدَتْ ناظرةً .

وأمَّا القلبُ : فإنَّهُ ينظرُ في نورِ العقلِ ، وإنَّهُ كالشهابِ للعينِ[5] ، ونظرُهُ التأمُّلُ في المغيَّباتِ ، ليبصرَ بهِ نفْعَ المَغَبَّاتِ[6] ، بعينِ العاقبةِ التي هي باقيةٌ ،

---

(١) لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وقوله سبحانه : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر : ٢٩] .

(٢) يعني : لمن يغلبُ علىٰ أفهامهم الأخذُ بظواهر النصوص المنقولة ، ويعسرُ عليهم فهْمُ الاستنباطاتِ المعقولة .

(٣) تقدم (ص١٠٥) .

(٤) إذ هي داعيةٌ إلىٰ طاعة المولىٰ سبحانه كما سبق ، فلا معنىٰ لمجاهدتها إلا جحودُ ما أمر الله به أو نهىٰ عنه .

(٥) الضمير في (وإنه) راجعٌ إلىٰ نور العقل . مفادٌ من هامش (و) .

(٦) المغبَّات : جمع مَغَبَّة ؛ وهي العاقبة ، والمَغَبَّات ضدُّ البوادئ . مفادٌ من هامش (ب) .

فتُرِي الروحُ الجسمَ ذلكَ وتأمرُهُ بتركِ المبادئِ التي هي ماضيةٌ[1] ، وقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦][2] .

وبينَ الوزيرينِ مصالحةٌ ؛ لأنَّ دَرَكَ بصرِ القلبِ بالعقلِ ، وقِوامَ بصرِهِ بالدماغِ الذي في الرأسِ ؛ القلبُ كالفتيلةِ ، والعقلُ كالشهابِ[3] ، والدماغُ كالزيتِ ، فأيُّ الأميرينِ غلبَ كانَ الوزيرانِ لهُ .

فسبحانَ مَنْ جمعَ بينَ أميرينِ متخاصمينِ في جسمٍ واحدٍ لإظهارِ حكمةِ المِحْنةِ[4] ، ثم أمدَّ النفسَ بغلبةِ المجانسةِ والعددِ الكثيرِ ، وسلبَها بالعمىٰ عنِ الروحِ لطْفَ حِيَلِ البصيرِ[5] ، فالنفسُ أربعةٌ[6] ، والحواسُّ خمسةٌ[7] ، ثم أمدَّ الروحَ ـ وإنْ كانَتْ واحدةً والعقلُ واحداً ـ بمعرفةِ النفسِ ؛ لتردَّ تهوُّرَها بتفكُّرِها ، وقوَّتَها بحيلتِها[8] ، فالفكرةُ أنفعُ مِنَ الكَرَّةِ[9] ، والحيلةُ أبلغُ مِنَ القوَّةِ .

---

(١) ماضية : فانية . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : العمىٰ وإن وقع في الأبصار فليس هو العمى الذي من شأنه الضلال ، وإنما العمى الحقيقي هو عمى القلوب ؛ فهو كقولك : ليس المَضَاءُ للسيف ، ولـٰكنَّهُ للسانِكَ الذي بين فكَّيك ، قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢٣/ ٤٦) : (كأنه قال : لا عمىً في أبصارهم ؛ فإنهم يرون بها ، لـٰكن العمىٰ في قلوبهم ؛ حيث لم ينتفعوا بما أبصروه) .

(٣) الشهابُ : الشعلةُ الساطعة من النار يُستوقَد بها .

(٤) أي : الامتحان ؛ وهو الابتلاء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) لأن الطبائع الأربع جعلها الله تعالىٰ أصلاً لجميع المخلوقات ، فيكون للنفس أجناس كثيرة ، بخلاف الروح ، ثم الله تعالىٰ سلب عن النفس لطف حيل البصير بسبب عماها عن الروح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) هي الطبائع الأربع . انتهىٰ من هامش (و) .

(٧) فحصل بجمع العددين الكثرةُ المشار إليها .

(٨) يعني : ليردَّ الروح بتفكُّره تهوُّر النفس ، وبحيلته قوَّةَ النفس .

(٩) الكَرَّة : الحَمْلة في القتال ؛ يقال : كرَّ الفارس ؛ إذا فرَّ للجوَلان ثم عاد للقتال .

ثم ظاهرَ كلَّ واحدٍ منهما بوزيرٍ بينَهما هُدْنةٌ علىٰ غيرِ دَخَنٍ[١] ، وجماعةٌ علىٰ سَكَنٍ[٢] ؛ ليكونَ القلبُ إذا غلبَ النفسَ معَها ، فيريَها في أمورِ دنياها نفْعَ مصادرِها ، وارتفاعَ مصالحِها بترْكِ مواردِها ؛ لترجعَ عن رأيِها في اختيارِ العاجلِ المُكْدي ، على الآجلِ المجدي . . إلى اختيارِ ما يزدادُ نفعُهُ في الثاني ، على القليلِ الفاني ، فتبيعَ الحاضرَ نسيئةً لربْحٍ موهومٍ ، وتزرعَ الموجودَ وفيهِ إتلافُهُ لنماءٍ لا يدومُ .

فيعرفَ الجسمُ عندَ رجوعِ النفسِ إلىٰ رأْيِ القلبِ رجحانَ القلبِ عليهِ ، فيرجعَ عن طاعتِهِ إلى القلبِ ويقفَ لديهِ[٣] ، فينفكَّ القلبُ بانعزالِ النفسِ عن أسْرِ الهوىٰ ، فيعودَ إلى الروحِ بأمرِ المولىٰ ومعَهُ الجسمُ .

فتصيرَ الروحُ واليةً وآمرةً بتجارةٍ ربحُها يقينٌ عظيمٌ ، وزراعةٍ نماؤُها نعيمٌ مقيمٌ ، وناهيةً عن نَقْدٍ سُتُّوقةٍ[٤] ، وسلعةٍ يزيِّفُها السُّوقةُ ؛ لئلا يكونَ للناسِ في اللهِ شبهةٌ بعدَ العقولِ ، ولا حُجَّةٌ بعدَ الكتابِ والرسولِ ، وكانَ فضْلُ اللهِ عظيماً ، فالحمدُ للهِ علىٰ آلائِهِ حمداً كريماً .

---

(١) **ظاهرَ** : قوَّىٰ ، **والهُدْنة** : المصالحة بإعطاء عهد بعد وجود هيجٍ ولمدة معلومة ، وفي هامش (و) : (عود دخن ؛ إذا كان كثير الدخان ، هدنة علىٰ غير دخن : مثلٌ يضرب ؛ معناه : صلح علىٰ غير فساد ، والدخنة من الألوان كالكدرة من السواد . « صحاح ») .

(٢) **جماعة** : اجتماع . انتهىٰ من هامش (ب ، و) .

(٣) **يعني** : إذا رأى الجسم انقياد النفس للقلب سلَّمَ قياده له ، وهجر طاعة النفس ووقف في طاعة القلب .

(٤) **ستوقة** : زائفة لا خير فيها ، يقال : درهم ستوق ؛ كَتَنُّور وقُدُّوس ، قال الحافظ الزبيدي في « تاج العروس » (س ت ق) (٢٥/ ٤٣٣) : (وفي « الرسالة اليوسفية » : البهرجة إذا غلبها النحاسُ لا تؤخذ ، وأما الستوقة فحرامٌ أخذها ؛ لأنها فلوسٌ) .

[نجوىٰ للنجاةِ]

أيُّها الجسمُ المبتلىٰ[1] ؛ قد بيَّنَّا لكَ جهادَكَ ، وجهةَ ابتلائِكَ ، ومولاكَ ، ورسولَهُ الداعيَ إليهِ[2] ، وعدوَّهُ الناهيَ عنهُ ، فأحسنِ الاختيارَ وإيَّاكَ والغفلةَ ؛ فعندَها تُغلبُ دواعي الحِيلةِ .

فقالَ الجسمُ : آهاً ![3] عليَّ جهادٌ ما قُدِّرَ إلا بالنفسِ ولزمَهُ عصيانُها ، وما ارتضعَ إلا مِنْ أخلافِ الدنيا وافتُرِضَ عليهِ كفرانُها[4] ، فمَنْ لي بهما ؟! وأنَّىٰ ذلكَ[5] ، وكأنِّي مخدوعٌ هالكٌ ؟![6] .

اتَّضَحَتِ الحُجَّةُ ، وأنا في لُجَّةٍ ؛ أمواجُها طاميةٌ ، وأوديتُها هاميةٌ ، وشطوطُها نائيةٌ ، كيفَ النجاةُ عنِ الهُلْكِ ، بلا ملَّاحٍ ولا فُلْكٍ ؟!

قلتُ : أفرخَ رَوعُكَ[7] ، وأفلحَ . . . .

---

(١) هٰذا خطابٌ من الروح للجسم ، والقاضي الإمام المصنف أراد أن يعبِّرَ عن روحه بلسانه ، ويخاطب الجسم ببيانه . مفادٌ من هامش (ب) .

(٢) أي : رسول الله ؛ وهو الروح . انتهىٰ من هامش (و) ، فيكون عدوه الناهي عنه الآتي ذكره هو النفسَ .

(٣) آهاً : كلمة تقال عند الشكاية أو التوجع ، ومثلها : آه بالكسر وبالتنوين ، وأوَّه بالحركات الثلاث والتسكين .

(٤) أخلاف : جمع خِلْف ؛ وهو من ذوات الخُفِّ كالثدي للإنسان .

(٥) أي : من يضمن لي بذلك ؛ أي : بالمجاهدة مع النفس والعصيان معها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) كذا في (ب ، ز) ، وفي سائر النسخ : (هنالك) بدل (هالك) .

(٧) الرَّوع : الفزعُ ، ويقال : أفرخَ رَوْعه ؛ إذا ذهب الفزع عنه ؛ تشبيهاً بخروج الفرخ عن البيضة ، وفي « أساس البلاغة » (٢/ ١٤) : (ومن المجاز : أفرخَ رُوعك ؛ أي : خلا =

رُوعُكَ[١] ، إنَّ الدنيا بحرٌ ، ونفسَكَ سفينةٌ تَسْقيكَ دَرَّها ، وتقيكَ ضرَّها ، وتَنْحَلُكَ مِنْ دُرِّها ، ولا تحملُكَ إلا في قعرِها ؛ فإنَّها لا تجري على اليَبَسِ ، والرسولَ ملَّاحٌ ، والعقولَ نجومٌ ، والتوفيقَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ريحٌ طيبةٌ ، والمجدافَ يقينٌ[٢] .

فقوِّمِ السفينةَ بالمجدافِ واستدلَّ بالنجومِ وأطعِ الملَّاحَ ، ولكَ البُشْرىٰ بالريحِ وتمَّ الفلاحُ .

ثم لا حاجةَ لكَ إلىٰ فُلْكِ البحرِ ، إذا أنتَ بالبرِّ ، ومَجَجْتَ أُجاجَ البحارِ[٣] ، إذا نَهِلْتَ بزُلالِ الأنهارِ .

فإنِ ابتُليتَ أيُّها الجسمُ بينَ أربعةٍ[٤] . . فقد أُعطيتَ للنجاةِ أربعةً[٥] ؛ فلماذا الجُبْنُ ؟! فإنَّ الجبانَ لا يعدوهُ الحَيْنُ[٦] ، علىٰ أنَّ الاثنينِ مِنَ الأربعةِ التي بهما كانَ الابتلاءُ داعياكَ إلى البرِّ[٧] ، والثالثةَ بوزيرِها حاملتُكَ في البحرِ[٨] ، فلم يبقَ إلا المسيرُ علىٰ طاعةِ الملَّاحِ وهدايةِ النجومِ بريحٍ طيِّبةٍ تلقىٰ بها عن قريبٍ

= قلبك من الهمِّ خلوَّ البيضة من الفرخ) ، ثم قال : (وأما « أفرخ رَوعك » فيمن رواه بالفتح : فوجهه : أن يراد زوال ما يتوقعه المرتاع ، وإذا زال ذلك انقلب الرَّوْعُ أمناً) .

(١) الرُّوع : القلب والعقل .

(٢) يقال : جدف الطائر ؛ إذا طار كأنه يرد جناحيه إلىٰ خلفه ، والمجداف يقال بالدال والذال ؛ لغتان فصيحتان .

(٣) مجَّ الشراب : رماه من فمه ، والأُجاج : المرُّ الشديدُ الملوحة ، وكسر الهمزة فيه لغة .

(٤) أي : الروحِ ، والقلب ، والنفسِ ، والرأس . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٥) أي : الرسولَ ، والعقل ، والتوفيقَ ، واليقين . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) الحَيْنُ : الهلاك .

(٧) هما : الروح والقلب . انتهىٰ من هامش (و) .

(٨) الثالثة : النفس ، ووزيرها كما سبق : الرأس . مفادٌ من هامش (و) .

الشطَّ علىٰ سلامةٍ ، وتتلقَّىٰ فيهِ أنواعَ كرامةٍ ، وإنَّ شطَّ الدنيا اللَّحْدُ ، وإنَّهُ لِمَنْ قوَّمَ السفينةَ روضةُ الخُلْدِ[1] .

فيا عجبًا مِنْ راكبٍ انقادَ لمركوبِهِ[2] ، وجرىٰ علىٰ هواهُ لدَرَكِ خطوبِهِ[3] ، ثم رضيَ بالطريقةِ ، وظنَّ أنَّهُ أصابَ الحقيقةَ ! أَسَفَهٌ أبلغُ مِنْ ذلكَ ، أم هلاكٌ أحقُّ مِنْ هنالكَ ؟!

يا ذا الذي ظننتَ الدنيا سريرَكَ ، والنفسَ أميرَكَ ؛ قد أبعدْتَ النُّجْعةَ[4] ، إنَّ الدنيا يَمٌّ طاغٍ ، والنفسَ فُلْكٌ جارٍ ، فأسرعِ الرَّجْعةَ ، فما البحرُ للتَّجْرِ بمُقامٍ ، ولا الفُلْكُ للسَّفْرِ بإمامٍ[5] ، وإنَّما هو آلةُ العُبورِ ، فإيَّاكَ وطاعتَهُ فإنَّهُ غُرورٌ ، وسيلحقُكَ عن قريبٍ الغرقُ وأنتَ مستقيلٌ ولاتَ حينَ إقالةٍ[6] ، فقد أتممْتَ الصفقةَ خاسرةً علىٰ جهالةٍ ، وكنتَ حبيسَ الحَبابِ[7] ، وصرتَ فريسَ الدوابِّ .

فالقبرُ لمَنْ أطاعَ النفسَ علىٰ ما اختارَ ، حفرةٌ مِنْ حُفَرِ النارِ ، خدعَكَ الفُلْكُ ثم فارقَكَ[8] ، وأطمعَكَ في المُلْكِ وما رافقَكَ ، لا رؤيةَ إلا بالتوفيقِ ،

---

(١) إشارة إلىٰ ما رواه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « إنما القبرُ روضةٌ من رياض الجنة ، أو حفرةٌ من حُفَرِ النار » .

(٢) **الراكب** : هو الجسم ، **والمركوب** : النفس . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) **الخطوب** : الأمور العظام . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) **النُّجعة** : من الانتجاع ؛ وهو طلب الماء والكلأ ، ثم صار عامّاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) **التَّجْرُ** : جمع تاجر ، **والسَّفْرُ** : جمع سافر ؛ وهو المسافر الخارج للارتحال .

(٦) **أي** : وأنت طالب الإقالة ، وليس الوقتُ وقتَ إقالة . انتهىٰ من هامش (ب ، ج ، و) .

(٧) **الحَبابُ** : معظم الماء ، أو طرائقه ، ومراده : استقراره في قعر الماء بعد غرقه .

(٨) **الفُلْك** : كنَّىٰ به عن النفس ؛ لأنها المركوبة كما سبق .

ولا وَقْفةَ على الطريقِ[1] ، ولا حَذَرَ بعدَ الصَّرْعةِ[2] ، ولا نَدَمَ حينَ الوَقْعةِ .

وإنَّ العبدَ متىٰ رأىٰ بحسِّهِ ، وأدركَ بنفسِهِ . . قَصُرَ دَرَكُهُ عن دَرَكِ الوحوشِ ، لقِوامِها بمجرَّدِ قُوى النفوسِ ، فمُزِجَتْ بالجسومِ دالَّةً علىٰ منافعِها ومضارِّها[3] ، لتصلَ بها إلىٰ مصالحِها مدَّةَ قرارِها ، وسُلِبَ الآدميُّ ذلكَ لمَّا عُلِّقَتْ مصالحُهُ بالعقولِ والسماعِ[4] ؛ ليكونَ سبباً للرجوعِ إليها عنِ النفوسِ والطِّباعِ .

حتىٰ إنَّ فَرْخَ الطائرِ معَ قوَّةِ الحَراكِ لابثٌ علىٰ وَكْنَتِهِ[5] ، ما لم يرَ الطيرانَ في قوَّتِهِ ، ويمتنعُ عنِ المهالكِ صغارُ أولادِ النَّعَمِ ، ويُفْقَدُ مثلُهُ في بني آدمَ ؛ إلىٰ أنْ يهتدوا بعقولِهم ، ويبصروا بقلوبِهم .

ومتىٰ رأى العبدُ بقلبِهِ ، وأدركَ بتوفيقِ ربِّهِ . . سبقَ دَرَكُهُ دَرَكَ العبادِ النورانيِّينَ ، حتىٰ علمَ آدمُ عليهِ السلامُ ما غابَ عنِ الملائكةِ أجمعينَ ، ولم يبلغْنا مِنْ علومِهم إلا مقصورةٌ على المسموعاتِ[6] ، وتعدَّتْ علومُ بني آدمَ إلى المستنبَطاتِ ، فالمسموعُ وإنْ كثُرَ فمقصورٌ ، والمستنبَطُ غيرُ محصورٍ ، وذلكَ تأويلُ قولِهِ ـ واللهُ أعلمُ ـ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى . . . ﴾ الآيةَ [الكهف : ١٠٩] ، ليكونَ الاحتجاجُ عليهم بما أُوتوا مِنْ

---

(١) أي : لا رؤية للحقِّ، ولا وقوف علىٰ خِدَعِ النفس . . إلا بالتوفيق . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) **الصَّرْعة** : السقوط ، علىٰ وزن مصدر المرة .

(٣) **يعني** : مزجت قُوى النفوس بالجسوم . . . إلىٰ آخره .

(٤) **يعني** : والسماع من الرسول ؛ وهو الروح كما سبق .

(٥) **الوكنة** ـ بتثليث الواو ، وبضمتين ـ : عشُّ الطائر ومأواه .

(٦) سيأتي للمصنف ذكر قياس للملائكة قريباً (ص٥٤٨) عن ذكر خلافة الأرض ، ويحتمل الموطن هناك التوقيف أيضاً .

كلماتِ الربِّ جلَّ جلالُهُ[1] ، لا بما اختَصَّ اللهُ تعالىٰ بعلمِها مِنَ الغيبِ ، فيكونَ أبلغَ في الثناءِ على اللهِ تعالىٰ وأبعدَ مِنَ الريبِ ؛ بخروجِ أنواعِ علومِ الاستنباطِ في الناسِ عنِ الحصرِ تحريراً ، أوِ الحدِّ تفسيراً ، وإنَّها لتزدادُ كلَّ يومِ بلا نهايةٍ ، لا ينكرُها ذو حاسَّةٍ صحيحةٍ وعنايةٍ[2] .

وإنِّي لمَّا وقفْتُ علىٰ هـٰذهِ الجملةِ . . أعميتُ عيني بقلبي ، وعصيتُ نفسي بربِّي[3] ، متخشِّعاً خشوعَ العبيدِ ، متقوِّياً بالقويِّ العزيزِ الحميدِ ، فهداني مُحْكَمَ الطريقةِ ، وأراني حِكَمَ الخليقةِ[4] ، وكشفَ ليَ الأسرارَ في المصنوعِ ، فاستوىٰ في عَقْدي عندَها الغروبُ والطلوعُ ، وإنِّي بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ ذاكرٌ لكَ منها ما يُهدِي إليكَ لدىٰ طلاقِ الدنيا قَراراً ، ويُلزمُكَ عندَ نكاحِها إلى اللهِ فِراراً ، وللهِ الحمدُ علىٰ ذلكَ شكراً ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ شَفْعاً ووِتْراً .



---

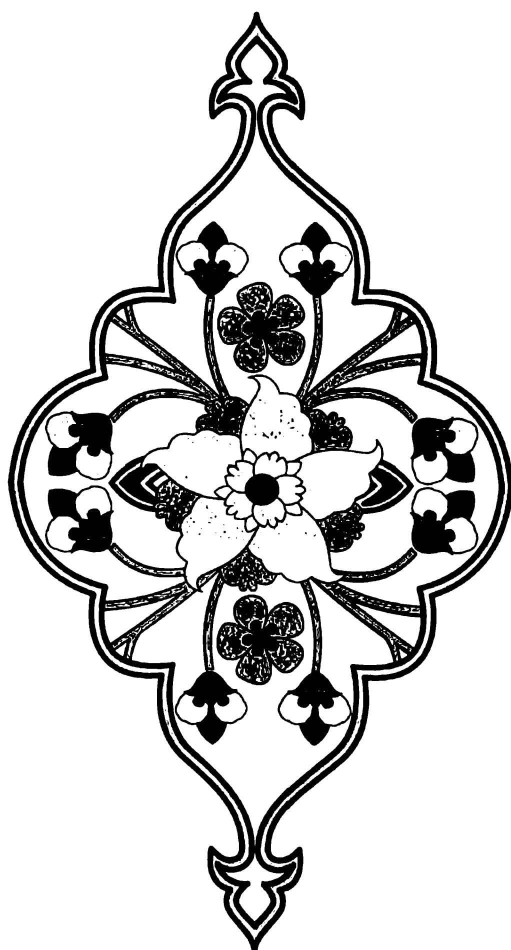
(١) فيرجع الاحتجاج إلى الكلام الحادث ؛ إذ لا حجة في الصفة القديمة ؛ لإمكان دعواها من كل مدَّعٍ .
وقوله : (عليهم) ؛ أي : على الملائكة ، أو على الكفار . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) إذ النصوص معدودة ، والحوادث ممدودة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : أعميت عيني بسبب قلبي ، وعصيت نفسي بطاعة ربي . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) توطئة للكتاب الآتي عقب ما نحن فيه ، والخليقة : المخلوقات .


[كِتَابُ
حِكَمِ أَصْلِ الخَلْقِ]



كتاب
حكم أصل الخلق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لمَنْ خلقَ لا عن أصلٍ موجودٍ(١) ، وجمعَ بينَ الأضدادِ بلا تقييدٍ(٢) ، فجعلَها أصلاً للتكوينِ ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، علماً بمُلْكِهِ وحكمتِهِ(٣) ، وإيقاناً بفقرِهم وسَفَهِهم ، والصلاةُ علىٰ مَنِ اختيرَ مِنْ بني آدمَ ، لإقامةِ المطلوبِ مِنْ خَلْقِ العالمِ(٤) .

---

(١) فهو وحدَهُ جلَّ شأنه المنفردُ بالإيجاد ، ومبدعُ الأشياء وبارئُها ومبتدِئُ خلقها لا علىٰ مثال سبق ؛ إذ قال جلَّ من قائل : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] .

(٢) قوله : (الأضداد) ؛ أي : الطبائع الأربع التي كل واحد منها ضدُّ الآخر . انتهىٰ من هامش (و) ، فتجلَّىٰ باسمه سبحانه (الجامع) ، قال الإمام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص٢٨٦) وهو يتحدَّث عن جمعه سبحانه بين المتضادَّاتِ : (وأما المتضادات : فكجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزجة الحيوانات ، وهي متنافرات متعاندات ، وذلك أبلغ وجوه الجمع) .

(٣) بيانٌ لعلَّة عدم سؤالهم مولاهم عن فعلٍ من أفعاله ، نعم ؛ طلبُ ذلك لمعرفة الحكمة جائزٌ كما سترىٰ .

(٤) أراد بالمطلوب : العبادة . انتهىٰ من هامش (و) ، إشارة إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ؛ يعني : ببعثته عليه الصلاة والسلام كَمَلَ الدينُ ، وتمَّت نعمةُ الله العظمىٰ على العباد ، فهو صلى الله عليه وسلم صاحبُ الخلافة الكاملة المشارِ إليها في قوله عزَّ سلطانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص : ٢٦] .

[الحكمةُ مِنِ ابتناءِ العالَمِ مِنَ الأضدادِ]

خلقَ اللهُ تعالى العالَمَ مِنْ أضدادٍ أربعةٍ غيرِ محسوسةٍ ؛ حرارةٍ وبرودةٍ ورطوبةٍ ويبوسةٍ ، وعلَّقَ قِوامَها بالماءِ والترابِ والريحِ والنارِ وهي أضدادٌ(١) . . لِحِكَمٍ أربعةٍ ـ واللهُ أعلمُ ـ مِنَ العبادِ(٢) :

لِيَدُلَّ علىٰ أنَّها دارُ ابتلاءٍ(٣) ، لا دارُ جزاءٍ ؛ إذْ نَشْؤُها وقِوامُها باعتدالِ الأضدادِ وهو نفسُ البلوىٰ ، وبذلكَ تقومُ الدنيا .

وليُعْلِمَ أنَّها دارُ نَفَادٍ ؛ إذْ قلَّما تميلُ إلى الآبادِ ، مهادنةٌ بينَ الأضدادِ(٤) .

وليُعْلِمَ أنَّها دارُ متعةٍ بمنافعِها ، لا دارُ اقتناءٍ لجواهرِها ؛ إذْ قِوامُها بالترابِ والماءِ والريحِ والنارِ ، وفي الانتفاعِ بهـٰذهِ الأصولِ مِلاكٌ(٥) ، وفي جمعِها واقتنائِها هلاكٌ(٦) .

وليُعْلِمَ أنَّها دارُ اختلافٍ ؛ لا تتَّفِقُ نفوسُ سكَّانِها علىٰ وتيرةٍ ، ولا يجتمعُ قلوبُ أصحابِها علىٰ سريرةٍ(٧) ، بل هم أطوارٌ ، ولكلِّ حِزْبٍ اختيارٌ ، فَرِحَ بما

---

(١) وهـٰذه الأربع هي المسمَّاة بالأسطقسات وبالعناصر ؛ فالماء : بارد رطب ، والتراب : بارد يابس ، والريح : حارٌّ رطب ، والنار : حارٌّ يابس . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) انظر الحكمة من ذكر الأربعة (ص٣٣) ، وقوله : (لِحِكَمٍ) متعلق بقوله قبلُ : (خلقَ) ، لا بقوله : (علَّقَ) كما قد يُتوهَّم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الضمير في قوله : (أنَّها) راجعٌ إلى الدنيا كما لا يخفىٰ .

(٤) إذ المهادنةُ إنما تكون لمدَّة معلومة مؤجَّلة ، وقوله : (مهادنة) فاعل لقوله : (تميل) .

(٥) المِلاك : القوام والنظام ؛ يقال : القلب مِلاكُ الجسد ، ومِلاكُ الخير كفُّ اللسان .

(٦) فجمعُ الماء غَرَقٌ ، وجمع النار حَرَقٌ ، وجمع التراب مَتْربةٌ وغبار ، وعصْفُ الريح هلاكٌ وإعصار .

(٧) الوتيرة : الطريقة الواحدة ، والسريرة : المعتقد . مفادٌ من هامش (و) .

لديهِ ، وعرَّجَ همَّهُ عليهِ ، يحبُّ مَنْ آلفَهُ ، ويعيبُ مَنْ خالفَهُ .

[فضْلُ سيِّدِنا آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ على الجنِّ]

ثم خلقَ اللهُ تعالىٰ آدمَ مِنْ ترابٍ وماءٍ وهوَ الطينُ ، علىٰ ما نطقَ بهِ الكتابُ المبينُ ، وخلقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارِ السمومِ ، ونقلَ خلافةَ الأرضِ منهم إليهِ[1] ، وأبانَ فضْلَهُ عليهم فيهِ لِحِكَمٍ أربعةٍ[2] ـ واللهُ أعلمُ ـ دالَّةٍ علىٰ فضيلةِ آدمَ عليهِ السلامُ :

إحداها : أنَّ المارجَ مِنَ النارِ منتفَعٌ باتصالِ عَرَضِهِ دونَ جوهرِهِ ، والماءَ أصلٌ منتفَعٌ بجوهرِهِ وعَرَضِهِ ؛ فالماءُ مشروبٌ ومعمولٌ ، والترابَ منتفَعٌ بهِ انتفاعَ أصولٍ .

وثانيها : أنَّ في طبْعِ النارِ العلوَّ ومنهُ الاستكبارُ والإنكارُ ، وفي طبْعِ الماءِ والترابِ التسفُّلَ ومنهُ التواضعُ والإقرارُ .

---

(١) علىٰ أن الخلافة في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ للإنسِ بدلَ الجنِّ ؛ بدليل قول الملائكة عليهم السلام : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ، فقاسوا البشر على الجنِّ الذين أفسدوا في الأرض ، وقال الحافظ ابن الجوزي في « زاد المسير » (١/ ٥٠) : (وهل علمت الملائكة أنهم يفسدون : بتوقيف من الله تعالىٰ ، أم قاسوا علىٰ حال من قبلهم ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنه بتوقيف من الله تعالىٰ ، قاله ابن مسعود وابن عباس ، والحسن ومجاهد وقتادة ، وابن زيد وابن قتيبة ، وروى السدي عن أشياخه : أنهم قالوا : ربَّنا ؛ وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً ، فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ؟

والثاني : أنهم قاسوه علىٰ أحوال من سلف قبل آدم ، روي نحو هـٰذا عن ابن عباس وأبي العالية ومقاتل) .

(٢) الضمير في (فيه) راجعٌ إلىٰ فضْل الخلافة . مفادٌ من هامش (و) .

وثالثُها : أنَّ النارَ تأكلُ الذواتِ ، وتغيِّرُ الهيئاتِ ، والماءَ معَ الترابِ أصلٌ يُنْمي الأصولَ مِنَ الحبوبِ والنواةِ ، ويُبْلي الفضولَ مِنَ الجِيَفِ والأمواتِ .

ورابعُها : أنَّ بينَ الماءِ والترابِ اعتدالاً ظاهراً ، حتىٰ كانَ الترابُ أصلاً لقرارِ الماءِ عليهِ ، والماءُ مِزاجاً لهُ لاستنماءِ الفوائدِ منهُ ، فُقِدَ مثلُهُ في غيرِهما ، ولم يُنَلْ بالأصلِ الواحدِ جُلُّ خيرِهما[١] .

[الحِكَمُ المفادةُ مِنْ خلْقِ سيدِنا آدمَ عليهِ السلامُ مِنْ ترابٍ]

ثم هٰذا ليستدِلَّ الآدميُّ بالحكمةِ الأولىٰ : علىٰ صَرْفِ عنايتِهِ فيما يهذِّبُ ذاتَهُ لا أعراضَهُ[٢] ، وحصْرِ همَّتِهِ علىٰ ما يجمعُ إلىٰ مصلحةِ الذاتِ أغراضَهُ .

ويستدِلَّ بالحكمةِ الثانيةِ[٣] : علىٰ فَرْضِ رؤيتِهِ مِنَنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، وشدَّةِ افتقارِهِ إليهِ ، وفَقْدِ الوسائلِ إلى استحقاقِ ما بهِ أُكْرِمَ[٤] ، وتوالي أسبابِ ما حُرِمَ[٥] .

ويستدِلَّ بالحكمةِ الثالثةِ[٦] : على استنمائِهِ الأصولَ المُثمِّرةَ للآخرةِ ، ثم

---

(١) أي : الماء بدون التراب ، والتراب بدون الماء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قوله : (هٰذا) إشارة إلىٰ خلق آدم عليه السلام من التراب ، **والحكمة الأولىٰ** : أن الماء والتراب منتفَع بهما ذاتاً وعرضاً ، بخلاف النار المنتفَع بعرضها دون ذاتها ، **والتهذيب** : التنقية ؛ كتنقية قلبه من الحقد والحسد ، ولسانه من الغِيبة والنميمة والكذب ، ولا يشتغلَ بأعراضه ؛ من الزينة الظاهرة ونحوها .

(٣) **الحكمة الثانية** : أن طبع الماء والتراب التسفُّل ، وهو عنوان التواضع ، وأنه ليس من طبعهما العلوُّ كالنار .

(٤) كالإيمان والطاعةِ والتوفيق ، والقوت والفسحةِ في العمر .

(٥) من كونه عبداً ، وماء مهيناً ، وغير ذلك . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) **الحكمة الثالثة** : كونُ التراب والماء عند امتزاجهما أصلاً لنماء ما ينفع ؛ كالحبِّ والنوىٰ ، =

إفنائِهِ ما تخايَلَتْ نعماً ظاهرةً[١] .

ويستدِلَّ بالحكمةِ الرابعةِ[٢] : علىٰ قوَّةِ أصلِهِ ، وانقطاعِ سلطانِ مَنْ دونَهُ عن نفسِهِ ، وكفايتِهِ بغلبةِ مَنْ سواهُ لـٰكنْ علىٰ وقارٍ ومَهَلٍ ، مثلُ عملِ الماءِ والترابِ دونَ عملِ النارِ على البِدارِ والعَجَلِ ، ولذلكَ ضربَ اللهُ تعالىٰ مثلَ المؤمنينَ بزرعٍ أخرجَ شطأَهُ ، فآزرَهُ فاستغلظَ فاستوىٰ علىٰ سُوقِهِ[٣] .

ولأصلِ هـٰذهِ الخِلْقةِ ـ واللهُ أعلمُ ـ حِكَمٌ أربعٌ أُخَرُ ؛ في ابتلاءِ اللهِ تعالى الملائكةَ بالسجودِ لهُ وجَعْلِهِ خليفةَ البشرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ رأىٰ مِنَ الحكمةِ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنِ ابتلى الملائكةَ باستخلافِ آدمَ علىٰ أهلِ الأرضِ ؛ فقالَ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، وابتلاهم بالانقيادِ لحُكْمِهِ قبلَ الوقوفِ علىٰ حِكْمتِهِ ، فردَّ عليهم قولَهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وابتلاهم بالسجودِ لهُ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، **فنشأَتْ حِكَمُ هـٰذهِ البلوىٰ مِنْ حِكَمٍ تضمَّنَها أصلُ هـٰذا الخَلْقِ[٤] ، وعندَ معرفتِها تطمئنُّ القلوبُ للحقِّ :**

إحداها : أنَّ الماءَ والترابَ أصلٌ للظلماتِ ظاهراً إلىٰ عَجْزٍ وانحدارٍ ، والملائكةَ نورانيُّونَ والجانَّ ناريَّةٌ وفي النارِ نورٌ نائرٌ إلىٰ قوَّةٍ واقتدارٍ ، فابتُلوا

= وإفناء ما يؤذي ؛ كالجيف والفضلات .

(١) من البساتين النَّزِهة ، والمراكبِ الفارهة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الحكمة الرابعة : أن الطينَ معتدلُ الطبع ؛ بخلاف التراب وحده والماء وحده ، وبخلاف النار والهواء .

(٣) إشارة إلىٰ قوله جلَّت حكمته في صفة الصحابة الكرامِ رضي الله عنهم : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

(٤) نشأت : ظهرت . انتهىٰ من هامش (و) .

بقبولِ خلافتِهِ وفيها تفضيلُ ما أظلمَ وعجزَ نفساً ، علىٰ ما استنارَ وقَدَرَ حِسّاً ، وإنَّهُ بخلافِ الأصولِ ، وعندَ ذلكَ ابتلاءُ ذوي العقولِ .

وثانيتُها : إبانةُ افتراضِ الانقيادِ بنقصانِ العبوديَّةِ ، للعالِمِ الحاكمِ بحُكْمِ الربوبيَّةِ ؛ إذْ لو خلقَها علىٰ أساسٍ[١] ، عُرِفَتْ مزيَّتُهُ بالحواسِّ . . لم يكنِ الإقرارُ بحُكْمِ الانقيادِ للسماعِ ، بل كانَ بحُكْمِ إدراكِ حكمةِ المسموعِ[٢] .

ثم علَّمَ اللهُ تعالىٰ آدمَ عليهِ السلامُ الأسماءَ كلَّها ممَّا غابَ عنِ الملائكةِ ؛ حتىٰ وقفوا بذلكَ علىٰ فضيلةِ المخلوقِ وقدرةِ الخالقِ ؛ إذْ زيادةُ العلمِ لنْ تكونَ إلا بزيادةِ الإدراكِ والنورِ ، فكانَ في ازديادِ نورِهِ ظهورُ فضلِهِ[٣] ، وفي ظهورِ النورِ مِنْ أصلِ الظلماتِ ظهورُ قدرةِ ربِّهِ ، فذلكَ ممَّا لا يقدرُ عليهِ أحدٌ ، إلا الواحدُ الصمدُ[٤] .

ثم ضربَ لذلكَ مثلاً مِنَ الظاهرِ[٥] ؛ نورَ العينِ يَلمَعُ مِنْ سوادِ الناظرِ .

وفيهِ : إبانةُ أنَّ الفضيلةَ الأصليةَ في الدنيا بالعلمِ دونَ الولايةِ[٦] ؛ إذِ اللهُ

---

(١) قوله : (خلقها) ؛ أي : خلق أصل هـٰذه الخلقة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) ولهـٰذا ترىٰ خُبُوَّ بريقِ الانقياد والتسليم ، عند الوقوف علىٰ حكمة العليم ، وفرقٌ بين عبد الحكمة وعبد الحكيم ، ولا يلزم من هـٰذا تقليلُ شأن معرفة الحِكَم ؛ إذ الشرعُ فيه عباداتٌ الحِكَمُ فيها جليَّة ، وأخرىٰ تعبُّديَّة ، والموفَّقُ من عرفَ الحكمةَ ، فلم تزده معرفتُهُ إلا انقياداً وتسليماً ، وإجلالاً وتعظيماً .

(٣) وهو إخراج النور من الظلمة . انتهىٰ من هامش (و) ، فخرج نور العلم من ظلمة التراب .

(٤) إذ ليس فيه إعانة الطبع والخاصية ؛ كتقويم الأرض بالجبال ، وكالإيجاد من لا شيء وإعدام الموجود . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) أراد : مثال خروج النور من الظلمة .

(٦) والولاية فيما الحديث فيه : ثبوت الخلافة لسيدنا آدم عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام .

تعالىٰ ما ألزمَ الملائكةَ فضْلَ آدمَ بجعلِهِ خليفةً في أرضِهِ ، ولـٰكنْ بما خصَّهُ مِنْ علمِهِ .

وفيهِ أيضاً : إشارةٌ إلى اتِّباعِ الباطنِ دونَ الظاهرِ بنفسِهِ ، وأنَّ الابتلاءَ كلَّهُ مِنْ جنسِهِ .

وفيهِ : أنَّ تصديقَ الربِّ جلَّ جلالُهُ وإنْ كانَ واجباً على النفوسِ ، فتعرُّفُ الحِكَمِ جائزٌ لتطمئنَّ إليها القلوبُ(١) .

والحكمةُ الثالثةُ مِنْ أصلِ الخِلْقةِ : إبانةُ تحقيقِ الخلافةِ لهُ في الأرضِ ؛ لأنَّ أصلَ الأرضِ ترابٌ ، والماءَ مزاجٌ ، وغيرَهما أتباعٌ ؛ فالجبالُ أوتادُها ، وما سواها فمنها وِلادُها(٢) ، وبالريحِ والنارِ تغيُّرُ الأحوالِ ، **والأصلحُ لخلافةِ كلِّ بقعةٍ مَنْ كانَ مِنْ أصلِها** ، ولذلكَ لم يرسلِ اللهُ تعالىٰ رسولاً إلىٰ قُرىً إلا مِنْ أمِّها وأهلِها(٣) .

والحكمةُ الرابعةُ : إبانةُ حكمةِ الابتلاءِ ؛ إذْ هي في ظهورِ المطيعِ مِنَ العاصي لاستحقاقِ الجزاءِ ، والخلْقُ مِنْ صعيدٍ واحدٍ مِنَ الأرضِ أدلُّ علىٰ هـٰذهِ الحكمةِ ؛ لاجتماعِ الصعيدِ علىٰ طيِّبٍ مُنبِتٍ طيِّباً زاكياً ، ومُنْبِتٍ طيِّباً غيرَ زاكٍ ، وخبيثٍ لا ينبِتُ شيئاً ، أو مُنبِتٍ خبيثاً(٤) ، والنارُ عملُها متَّفقٌ ، والنورُ

---

(١) إشارة إلىٰ قوله جلَّ شأنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

(٢) **الوِلاد** : الولادة .

(٣) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ [القصص : ٥٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٣٢] ، وأمُّ القرىٰ : مكة ، وهي أمُّ الأرضين في قول العرب . انظر « مجاز القرآن » (٢/١٠٨) .

(٤) قوله : (طيباً زاكياً) ؛ يعني : مثل الذي يؤكل عينه ؛ كالثمار والحبوب ، وقوله : (غير =

كذلكَ ، فقلَّما كانَ ينشعبُ عنهما المسالكُ .

ولذلكَ كانَتِ الملائكةُ نَمَطاً واحداً لم يظهرْ منهم عصيانٌ ، والشياطينُ ـ وهمُ الجانُّ مِنَ النارِ ـ نَمَطاً واحداً لم يُوقَفْ منهم يقيناً علىٰ إيمانٍ ، واختلفَ الإنسُ أطواراً علىٰ شواكلَ(١) ، وتفرَّقوا إلىٰ مواردَ ومناهلَ(٢) .

ثمَّ اللهُ تعالىٰ كما أراهم بعلمِهِ فضْلَهُ عليهم مِنْ باطنِهِ(٣) . . أراهم كذلكَ بحُسْنِ صورتِهِ فضلَهُ مِنْ ظاهرِهِ ؛ فلقد خُلِقَ الإنسانُ في أحسنِ تقويمٍ(٤) ؛ ليدُلَّ حُسْنُ التدبيرِ لهُ علىٰ زيادةِ تكريمٍ(٥) ، وقد أبانَ الرسولُ عليهِ السلامُ بما رُوِيَ عنهُ(٦) : « وخلقَ اللهُ تعالىٰ آدمَ علىٰ صورتِهِ »(٧) ، وتعالى اللهُ عن حدِّ الصُّورِ والأجسامِ ، وإنَّما هو عبارةٌ عمَّا قُدِّرَ لهُ مِنَ الإحسانِ والإكرامِ(٨) .

= زاكٍ) ؛ يعني : مثل النبات الذي لا يؤكل ، وقوله : (لا ينبت شيئاً) ؛ يعني : مثل الأرض السبخة ، وقوله : (أو منبت خبيثاً) ؛ يعني : كالحنظل .

(١) الشواكل : الطُّرُقُ المتشعبة عن الطريق الأعظم ؛ جمع شاكلة .

(٢) المناهل : جمع مَنْهَل ، والموارد : جمع مَوْرِد ؛ المواضع التي فيها الشُّرْب .

(٣) فقد رأوا من علمِ سيدنا آدم علىٰ نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ما أقرُّوا معه بفضله ؛ وذلك علمه بمسميات الأسماء ، في الأرض وفي السماء ، وإنما عَمَرَ الله السماوات بالملائكة ، فظنُّوا أنهم يعمرون الأرضَ كذلك ، فبيَّنَ لهم المولىٰ سبحانه بعضَ حِكَمِهِ .

(٤) كذا في (أ ، ج) ، وهو الأوفق بالسياق ، وفي عامة النسخ : (﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤]) ، وفي هامش (و) : (وهو تزيينُ الظاهر مع تزيينِ الباطن ، والمرادُ من التدبير : الصنع ، قال ابن عباس : أي : أعدل خَلْقٍ ، وفيه : منتصب القامة ، وقيل : في أحسن صورة) .

(٥) بتولِّي تحسين شؤون ظاهره وباطنه ، وذلك دليل العناية به .

(٦) يعني : أبان صلى الله عليه وسلم هـٰذه العناية بالمأثور الآتي ذكره .

(٧) رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٨) قال الإمام ابن اللبان في « إزالة الشبهات » (ص١٥٣) شارحاً لهـٰذا الأثر الشريف : (إن=

فصورةُ اللهِ : ما اختارَها وأحبَّها ؛ كناقةِ اللهِ مِنْ بينِ النُّوقِ ، وبيتِ اللهِ مِنْ بينِ البيوتِ ، وكذلكَ السلطانُ يقولُ : (أجلستُ فلاناً علىٰ سريري) وإنْ لم يُجْلِسْهُ علىٰ سريرِ نفسِهِ ، ولـٰكنْ علىٰ ما اختارَ وأحبَّ مِنْ جنسِهِ ؛ ليدُلَّ باختصاصِ آدمَ بالزينةِ الظاهرةِ والحكمةِ الباطنةِ أنَّهُ المستحِقُّ لخلافةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ ، والإمارةِ علىٰ بلادِهِ ، تعالى اللهُ مِنْ حكيمٍ ومدبِّرٍ ، وعليمٍ ومقدِّرٍ ، استغنىٰ عنِ المثالِ فلم يَسْمُجْ بِدْعُهُ[1] ، وتعالىٰ عنِ اللُّغوبِ فلم يتفاوتْ صنعُهُ[2] .

ثم دلَّ بكونِهِ خليفةً في دارِ الابتلاءِ ؛ أنَّهُ السيِّدُ في دارِ الجزاءِ ؛ إذْ تلكَ الدارُ علىٰ هـٰذهِ بناءٌ ، وأنَّ الكونينِ خُلِقا لهُ ولأولادِهِ ، وأنَّهمُ المقصودونَ مِنْ جملةِ عبادِهِ .

[نجوىٰ وتذكرةٌ]

أُفٍّ لعبدٍ نظرَ إلىٰ أصلِهِ فوجدَهُ ماءً مهيناً ، وإلىٰ ربِّهِ فعرفَهُ قادراً قديماً ، ثم رأى العاجلةَ زاداً لمدَّةِ بلائِهِ ، والآجلةَ مُعدَّةً لجزائِهِ ، والشياطينَ ملعونينَ بسببِهِ ، والملائكةَ مرسلينَ لرَصَدِهِ[3] ، إلىٰ أنبياءَ مِنَ البشرِ ، وبيناتٍ مِنَ

= الإنسان قد جمع الله تعالىٰ فيه كلَّ حقائق الكائنات ، فكان مظهراً لآيته الكبرى الجامعة لجميع حقائق الآيات ، المتجلِّية لخلقه بجميع أنوار الأسماء والصفات ، فلذلك قَبِلَ تعليم الأسماء ، وسجدت له ملائكة الأرض والسماء ؛ أي : خلقَهُ على المثالية القابلة لتجلِّي صورة آيته الكبرىٰ ؛ وهي التي أُريَها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وحقيقتها : روح « لا إلـٰه إلا الله ») .

(١) البِدْعُ : المبتدَعُ ، أراد : مخلوقاته سبحانه وتعالىٰ .

(٢) اللغوبُ : التعب والإعياء .

(٣) يعني : لحراسته . انظر « المغرب » (ر ص د) ، وفي هامش (ج ، هـ) : (نسخة : =

الصُّحُفِ ، على استغناءِ الربِّ منهُ ، وافتقارِ العبدِ إليهِ ، ثم شكا في قِسْمَتِهِ ، أو عصىٰ بنعمتِهِ ، ثم ادَّعىٰ أنَّ لقلبِهِ عقلاً ، أو لأمرِهِ أصلاً !

ألَا ينظرُ العبدُ في أحوالِهِ مدَّةَ حياتِهِ وعمرِهِ ، وإلىٰ فصولِ لياليهِ ونُهُرِهِ[1] ؛ إنْ غَفَلَ عن حِكَمِ الأصولِ ، واشتغلَ بالنِّعَمِ والفضولِ ، وإنَّها أحوالٌ محسوسةٌ عِياناً ، وفصولٌ مدركةٌ إيقاناً ؟!

وللهِ تعالىٰ في كلِّ ما أبدىٰ وأخفىٰ عِبْرةٌ وحكمةٌ ؛ مَنْ أبصرَها عَبَرَ ، ومَنْ عَمِيَ عنها عَثَرَ ، ولا بصرَ إلا بعقلٍ ، ولا عقلَ إلا بفكرةٍ ، ولا فكرةَ إلا بعدَ طهارةِ الفطرةِ .

وللهِ الحُكْمُ ؛ يضلُّ مَنْ يشاءُ ، ويهدي مَنْ يشاءُ ، وهوَ الحكيمُ العليمُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ولا نجاةَ إلا باتباعِ مَنْ جاءَ لهٰذا الفصْلِ مُعِيناً[2] ، وداعياً إلىٰ طُرُقِهِ وهادياً مُبِيناً .



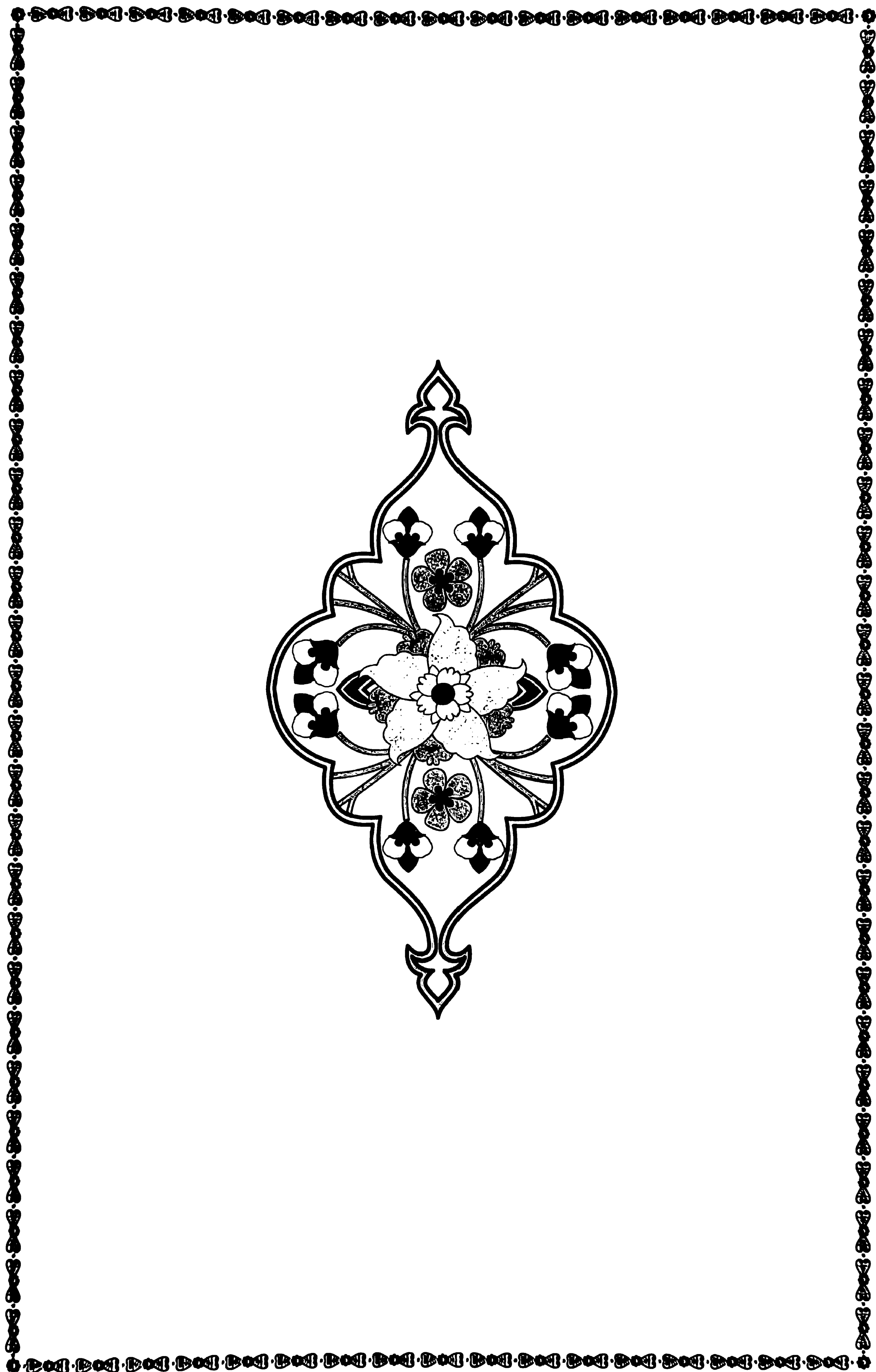
= لحفظه) بدل (لرصده) .

(1) النُّهُرُ : جمع كثرة للنهار ، وفي كلامه توطئة للكتاب بعدَهُ .

(2) وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) ، وفي هامش (و) : (أي : فصل الاعتبار ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا مزرعة الآخرة » ، وقال : « الدنيا قنطرة الآخرة ») .



[كِتَابُ
الفُصُولِ الأَرْبَعَةِ]



كتاب
الفصول الأربعة[1]

بسم الله الرّحمن الرّحيم

حَمِدْتُ مَنْ تمَّتْ نعمتُهُ ، وجلَّتْ حِكْمتُهُ ، وأثمرَتْ طهارةُ الفطرةِ ، جَنَى العِبْرةِ ، فاجتناها أناملُ التأمُّلِ لِلَهَواتِ القلوبِ[2] ، واستحلاها مذاقُ الألبابِ لمُنْشَرَحِ الصدورِ ، فاطمأنَّتِ النفوسُ إلىٰ نفائسِ ما أدركَتْ ، وأعرضَتْ عن أغراضٍ فيها تعبَتِ الأعراضُ ثم هلكَتْ ، فقسَمَ أحوالَ الآدميِّ علىٰ فصولٍ أربعةٍ ، وأوفاها إيَّاهُ في فصولٍ مِنَ الزمانِ أربعةٍ :

فصْلِ الاجْتِنانِ[3] ؛ ومثالُهُ : الشتاءُ مِنَ الزمانِ .

وفصْلِ الصِّبا ؛ ومثالُهُ مِنَ السنةِ : فصلُ الربيعِ بعدَ الشتاءِ .

وفصْلِ الشبابِ ، ثم فصْلِ المشيبِ ؛ ومثالُهما مِنَ الزمانِ : الصيفُ ثم الخريفُ .

وذلكَ علىٰ طبائعِهِ الأربعِ ؛ البلغمِ ، والدمِ ، والصفراءِ ، ثمَّ السوداءِ[4] .

---

(١) قوله : (الأربعة) مثبتٌ من (ب ، د ، هـ ، و) .

(٢) اللهوات : جمع لَهاةٍ ؛ وهي اللحمة المشرفة على الحلق .

(٣) الاجتنانُ : الاستتارُ ، وأراد : وقت وجود الجنين في بطن أمِّهِ وتكوُّنه فيه .

(٤) في هامش (و) : (الشتاءُ : بلغمٌ ، باردٌ رطب ، وهو حال الاجتنان .
الربيعُ : دمٌ ، حارٌّ رطب ، وهو حال الصبا .
الصيفُ : صفراءُ ، حارٌّ يابس ، وهو حال الشباب .
=

ثم جمعَ هـٰذهِ الفصولَ في اليومِ والليلةِ ؛ لتدُلَّ تفاصيلُ السنةِ علىٰ ما تدُلُّ عليهِ الجملةُ .

وصلَّيْتُ علىٰ رسولِ اللهِ ـ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ إلىٰ كافَّةِ خلقِهِ ، عَرَفَ العاجلَ بصِدْقِهِ ، واللهَ تعالىٰ بحقِّهِ ، فأعرضَ عنِ الدنيا وقد عُرِضَتْ عليهِ بخزائنِها ، فأسفرَتْ لهُ بدَفائنِها ، ثم خيَّرَ نساءَهُ علىٰ ما اختارَ مِنَ التَّرْكِ[1] ، ولم يورِّثْ مُخَلَّفيهِ إلا العلمَ[2] ، فقَرُبَ منهُ بالتعلُّمِ البعيدُ فوَرِثَ ، وبَعُدَ عنهُ بالتغافلِ القريبُ فحُرِمَ ؛ ليَبِينَ لكلِّ عاقلٍ فضْلُ سببِ الدينِ ، علىٰ فضْلِ النسبِ الكريمِ .

اعلمْ ـ متَّعَني اللهُ بالإبلاغِ[3] ، ومتَّعَكَ بالسماعِ ـ : أنَّ اللهَ تعالىٰ ـ وهو أعلمُ ـ قَسَمَ ابتداءً النُّشُوءَ مِنَ البلغمِ[4] ، وفي طبعِهِ ضعفٌ ظاهرٌ ، وعجزٌ حاضرٌ ؛ ليعرِّفَكَ أنَّ المُنْشِئَ مَنْ سواهُ[5] ، فقد فُقِدَتِ القدرةُ في

= الخريفُ : [السوداءُ] ، باردٌ يابس ، وهو حال المشيب) .

وفي هامش (هـ) : (يعني : أن فصلَ الاجتنان والشتاء علىٰ طبيعة البلغم ، وفصلَ الربيع والطفل علىٰ طبيعة الدم ، وفصلَ الصيف والشباب علىٰ طبيعة الصفراء ، وفصلَ الخريف والشيخ علىٰ طبيعة السوداء) .

(١) كلُّ ذلك إشارةٌ لقوله جلَّ جلاله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] .

(٢) إشارة للحديث المتقدم تعليقاً (ص١٠١) .

(٣) بالتفهيم ، وشرح الكلام والتقرير . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) في (و) : (ابتدأ النشوء) بدل (قسم ابتداء النشوء) ، وهي مناسبة لقوله بعدُ : (وختمَ) .

(٥) يعني : أن المبدع والخالق للجنين في بطن أمه ليس هو طبعَ البلغم ، والضمير في (سواه) راجعٌ إلى الطبع . مفادٌ من هامش (و) .

معناهُ[1] ، وختمَ الحياةَ بالسوداءِ وعندَها التمامُ ، وصلاحُ المرءِ للخاصِّ والعامِّ ؛ إذ كمالُ الآدميِّ بحُسْنِ الرأْيِ ولُطْفِ الحيلةِ ، وهما نتيجتا التَّجْرِبَةِ والفكرةِ ، وكمالُ حالِهما فصْلُ السوداءِ ، ثم كانَ مقروناً بها الفناءُ ؛ ليدُلَّ على أنَّكَ مقهورٌ بطبعِكَ ، بمَنْ أنشأَكَ على ضعفِكَ .

ثم ضربَ لكَ مَثَلاً لذلكَ : بحَوْلِكَ مِنْ عَجُزِ شتاءٍ يحرِّكُ الأجنَّةَ في بطونِ الأرضِ[2] ، وربيعٍ يُبْدِيها ، وصيفٍ يُنْمِيها ، حتى إذا كانَ الخريفُ ولاحَتِ الثمارُ على التَّمامِ . . جاءَ أوانُ الصِّرامِ[3] ، ثم نطقَ بهِ الكتابُ فقالَ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ . . . ﴾ الآيةَ [يونس : ٢٤][4] .

ثم لِيُبيِّنَ لكَ أنَّكَ على سبيلٍ ، لا بدَّ لكَ فيهِ مِنَ الرحيلِ ؛ مضَتْ طفولتُكَ إلى صِباً ما لكَ فيها مِنْ رَجْعةٍ ، وانقضى الشبابُ إلى المشيبِ على سرعةٍ ، وجاءَكَ الخَرَفُ وعندَهُ الصِّرْعةُ[5] ، قد أيقنَ بهِ الجاهلُ ، وأذعنَ لهُ العاقلُ[6] .

ثم أراكَ الحكيمُ ـ عَزَّتْ قدرتُهُ ـ فصولَ سَنَتِكَ ؛ كيفَ انقضاؤُها وأنتَ في

---

(١) يعني : معنى الطبع . انتهى من هامش (و) ، إذ ليس للطبع قدرة فضلاً عن الإرادة .
(٢) الحَوْلُ : التحوُّل والانقلاب .
(٣) فيبدأ الإنسان جنيناً ، ثم منفوساً ، ثم طفلاً فصبياً فغلاماً فيافعاً فشاباً فرجلاً فكهلاً ، ثم يكون شيخاً ويؤول إلى عجز وهرم .
(٤) وتمام الآية : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .
(٥) الخَرَفُ : فساد العقل ، والصِّرعة : سوء الاستمساك ، وبفتح الصاد مصدر المرة كما سبق قبلُ .
(٦) في (ب ، و) : (الغافل) بدل (العاقل) ، ولكلٍّ توجيه وجيه .

سِنَتِكَ[1] ، مستشهداً بفصولِها على فصولِكَ ، ومعرِّفاً بأفولِها قُرْبَ أفولِكَ ، أيأمَنُ مقيماً بينَ الناسِ ؛ مَنْ يسيرُ بهِ الفُلْكُ وتخطو بهِ الأنفاسُ ؟!

ثم ليعلمَكَ أنَّكَ في دارِ امتحانٍ ، ما لكَ فيها مِنْ سلطانٍ ، على اقتضاءِ شهوةٍ ، أو تفكُّهِ نعمةٍ ؛ إذْ أوَّلُ أحوالِكَ الضعفُ عنِ الاكتسابِ ، والعمىٰ عنِ الأسبابِ ، ومُدَّتُكَ بَعْدُ مَديدةٌ ، وحاجتُكَ إلى المصالحِ شديدةٌ .

ثم بعدَها حالُ الصِّبا الباعثُ على التبذيرِ ، وأنتَ مأخوذٌ عنكَ مالُكَ محجورٌ ، ونَشِطْتَ فيهِ بطبيعةِ الدمِ لِلَّهْوِ واللعبِ ، وقضاءِ الشهواتِ والفَرَحِ ، وأنتَ مصفوعٌ للتعلُّمِ ، ممنوعٌ عنِ التكلُّمِ[2] .

ثم بعدَهما حالُ الشبابِ الباعثُ بقوَّةِ الصفراءِ على التعالي ومغالبةِ الرجالِ ، وأنتَ في مقامِ الخدمةِ للكبارِ ومحلِّ الائتمارِ[3] .

ثم بعدَها حالُ المشيبِ الباعثُ بطبيعةِ السوداءِ على التأميلِ ، وقد آنَ أوانُ الرحيلِ ، الآمرِ بجَمْعِ العُدَّةِ حذراً مِنَ الآفةِ ، وقدِ انقضَتِ المُدَّةُ وانتهَتِ المسافةُ .

ثم ضربَ لكَ مثلاً لذلكَ ، مِنْ فصولِ آجالِكَ :

بربيعٍ تخضرُّ فيهِ الأرضُ للجالسينَ ببهجتِها ، وتضحكُ للناظرينَ بزهرتِها ، وأنتَ ممتحَنٌ فيهِ بحمايةِ خُضَرِها عنِ الأنعامِ أملاً في عُقَدِها ، ورعايةِ أنوارِها عنِ الصبيانِ طَمعاً في ثمارِها[4] .

---

(١) السِّنة هنا : الغفلة ، وهي في الأصل خفقةُ النعاس .
(٢) وهـٰذا شأنُ الصبيان في الكُتَّاب .
(٣) وهـٰذا حال الشُّبَّان بين ذويهم ، وسادتهم ومعلِّميهم .
(٤) أنوارها : جمع نَوْر ، وهو جمع نَورة ؛ وهي زهرة النبت .

ثم صيفٍ يأتيكَ مِنَ الثمارِ بنَمُوذجِها[1] ، ويبدي إليكَ العروسَ مِنْ هَوْدجِها ، وأنتَ فيهِ مُثْقَلٌ بالمؤنِ مُذَلَّلٌ بالتعبِ .

حتىٰ إذا جاءَكَ الخريفُ ، ودنَتِ القطوفُ ، وتزيَّنَتْ بالثمارِ الغصونُ ، ومالَتْ إلى الوفاءِ الظنونُ . . هَبَّتْ صِرٌّ شغلَتْكَ بالادِّخارِ والتقديمِ[2] ، عنِ ابتكارِ النعيمِ .

ثم ليُنَبِّهَكَ بارتزاقِكَ وأنتَ جنينٌ ، لا يصلُ إليكَ أحدٌ مِنَ المخلوقينَ . . علىٰ أنَّ الرزَّاقَ ربُّ العالمينَ ، ولٰكنْ بشرطِ الغفلةِ عمَّنْ سواهُ مِنَ المخلوقينَ .

[الرزَّاقُ ضمينٌ برزقِكَ]

حتىٰ لمَّا أبصرْتَ والديكَ بعدَ الولادةِ مِنْ جميعِ الخلقِ . . وُكِلْتَ إليهما في الرزقِ ؛ هٰذهِ ترضِعُ وهٰذا ينفقُ ، ثم وُكِلْتَ إلىٰ نفسِكَ في شبابِكَ ؛ لمَّا رأيتَ نفسَكَ وتمسَّكْتَ بأسبابِكَ ، ثم لمَّا رأيتَ أولادَكَ وتمنَّيتَ حياتَهم ـ وإنْ كنتَ على المشيبِ ـ التزمْتَ أقواتَهم .

فلو لم ترَ في جميعِ العُمُرِ غيرَ ربِّكَ أحداً . . أتاكَ الرزقُ مِنْ ربِّكَ في وقتِهِ رَغَداً ، ولو لم ترَ نفسَكَ بعدَ والديكَ . . ما احتجْتَ إلىٰ كَسْبِ يديكَ ، ولو لم ترَ أولادَكَ بعدَ نفسِكَ . . ما التزمْتَ أرزاقَهم بعدَ أفولِ شمسِكَ .

ألا تعتبرُ أيُّها الأخُ إنْ غفلْتَ عنِ الطيورِ بأوَّلِ الحالِ[3] ؛ ما ضيَّعَكَ ربُّكَ

---

(١) النَّمُوذج : مثالٌ للشيء الذي يُعملُ عليه ، ويقال أيضاً : أنموذج .
(٢) إشارة إلىٰ فصل الشتاء .
(٣) إشارة لما رواه الترمذي (٢٣٤٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه مرفوعاً : « لو أنكم =

فيها جوعاً أفيضيِّعُكَ وأنتَ على الكمالِ ؟! ما أجاعَكَ وأنتَ جنينٌ ، أيجيعُكَ وأنتَ مؤمنٌ مبينٌ ؟![1] .

ثم ضربَ لكَ مثلاً بعبدِكَ ، والصغارِ مِنْ وُلْدِكَ ؛ فإنَّكَ ضامنٌ حامٍ لهم أقواتَهم ما داموا تحتَ أمرِكَ[2] ، ورضُوا بحُكْمِكَ ؛ لتعلمَ بهِ حالَكَ في الرزقِ ، معَ خالقِ الخَلْقِ ، ولئنْ ظننتَ مولاكَ دونَكَ في الوفاءِ فهو كفرٌ ، وإنْ عددْتَ نفسَكَ دونَ عبدِكَ في الطاعةِ والثقةِ فهو نُكْرٌ .

ثم قد أسمعَ الصُّمَّ وأفهمَ البُكْمَ بقولِهِ[3] : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[4] ، وعظَّمَ شأنَهُ بالقَسَمِ فقالَ : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢-٢٣][5]، ليتنبَّهوا بكونِ الأرزاقِ في السماءِ ؛ على أنْ لا شريكَ للهِ

= كنتم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرُزِقتُم كما يُرزق الطيرُ ؛ تغدو خِماصاً ، وتروحُ بِطاناً » ، والمراد : إن لم تعتبر بتوكُّل الطيور ورزق الله لها دون ادِّخار . . فاعتبر بحال طفوليَّتك ؛ كيف ساق المولىٰ لك رزقك وأنت عنه في غفلة .

(١) قال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/ ١٩) : (سُئل سهلٌ عن القوت ، فقال : هو الحيُّ الذي لا يموت ، فقيل : إنما سألتك عن القِوام ، فقال : القِوام هو العلم ، قيل : سألناك عن الغذاء ، فقال : الغذاء هو الذكر ، قيل : سألناك عن طُعْمة الجسد ، فقال : ما لك وللجسد ؟! دعْ من تولَّاه أوَّلاً يتولَّاه آخراً ، إذا دخل عليه علَّةٌ فرُدَّهُ إلىٰ صانعه ، أمَا رأيت الصنعة إذا عابت ردُّوها إلىٰ صانعها حتىٰ يصلحها ؟!) .

(٢) الأب جلَّاب ، والأخ سلَّاب . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) ، والمراد : أنك تجلب لهم أقواتهم ، وتحميها من أن تسلب منهم .

(٣) الصُّم : جمع أصمَّ ؛ مَنْ بطلت حاسَّةُ سمعه ، والبُكْم : جمع أبكَمَ ؛ وهو الأخرس ، أو العَيِيُّ ، أو الذي لا ينتفع بالسمع ، ولا ينفع بالنطق ، وهـٰذا الأليق بالسياق .

(٤) قوله : (رزقكم) ؛ يعني : سبب رزقكم ؛ وهو المطر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) الضمير في (شأنه) راجع إلى الرزق ، وفي هامش (و) : (قابلَ الرزقَ بالنطق ـ وهو ذاتي للآدمي غير منفكٌّ عنه ـ حتىٰ يفهم منه مثل هـٰذا المعنىٰ في حقِّ الله تعالىٰ في إيصال الرزق) .

تعالىٰ في الإعطاءِ ، ثم نصَّ على الضمانِ وألزمَ الحجَّةَ بقولِهِ وللهِ القدرةُ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] ، واستجازوا على اللهِ تعالىٰ خُلْفاً وذلكَ غيرُ سديدٍ(١) ، أو في أذانِهم وَقْرٌ وبقلوبِهم عمىً أو نُودوا مِنْ مكانٍ بعيدٍ(٢) .

[الغفلةُ رأسُ المصائبِ]

أَوَلمْ تفهمْ ما أملىٰ عليكَ الأصولُ ، ولم تبصرْ ما أبدىٰ لكَ الفصولُ ؟!(٣) فأدركَكَ المشيبُ وحلَّ بكَ الأمرُ ، وأنتَ في ظنِّكَ حَدَثٌ وفي حالِكَ غِرٌّ(٤) .

قد أفنيتَ صِباكَ لهواً في الربيعِ بينَ أترابٍ وجموعٍ راتعينَ في رياضِهِ ، متلهِّينَ بأعراضِهِ ؛ إلىٰ شبابٍ وصيفٍ ، فإذا أنتَ على قوَّةٍ واعتدالٍ ، والفصْلُ فصْلُ خِصْبٍ وظِلالٍ ، فتعاليتَ بنفسِكَ ، واكتفيتَ بظلِّكَ ، وقلتَ : بالباكورةِ كَفَافٌ ، وللوقتِ دوامٌ وإسعافٌ ، فإذا أنتَ بالخَرَفِ **والخريفِ** ، ولـٰكنَّ الثمارَ بعدُ جُملةٌ ، وفيكَ رأيٌ وحيلةٌ ، فاحتلْتَ لقُوتِكَ مِنْ جَنَىٰ غيرِكَ ، وإنْ كنتَ تلهَّيْتَ في الربيعِ بأورادِ جَنَىٰ خيرِكَ ، فبينَما أنتَ فيهِ إذْ حلَّ بكَ الموتُ **والشتاءُ** مِنَ الزمانِ ، ورحلْتَ إلى القبرِ عنِ البستانِ ، وصارَ القِوامُ بما قُدِّمَ في سالفِ

---

(١) **الخُلْفُ** : الإخلاف بالوعد في المستقبل .

(٢) إشارة لقوله جلَّ شأنه : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] ، والوقر : ثقل السمع أو هو الصمم نفسه ، وإنما كان بقلوبهم عمىً لأنهم يتعامَوْن عن الحق الظاهر ، ولذلك شُبِّهوا بمَنْ يُنادىٰ من مكان بعيد ، فلا يسمع لبُعْدِ المسافة .

(٣) **الأصول** : الآيات ، **والفصول** : أصول الخلق . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) **الأمر** : الموت ، **وحدث** : شابٌّ ، **وغِرٌّ** : غافل مغرورٌ . انتهىٰ من هامش (و) .

الأيامِ ، لكلٍّ سهمٌ مفرَزٌ ، وقِسْمٌ محرَزٌ ، وأنتَ في عذابِ الإفلاسِ ، ما لكَ عليهِ مِنْ قرارٍ ، ولا عنهُ فِرارٌ .

وأنتَ عاقلٌ حنَّكَتْكَ التجارِبُ ، واجتمعَتْ لديكَ المواهبُ ، وقد أفنيتَ صِباكَ بتعلُّمِ الصناعةِ علىٰ جَبْرٍ ، ثم كنتَ أيامَ شبابِكَ فيما تعلَّمْتَ تحتَ أمْرٍ ، حتىٰ صرتَ أستاذاً وأنتَ بآخرِ العُمْرِ ، فجهدْتَ أيَّامَ المشيبِ بعدَ حُسْنِ المعرفةِ للكُسُوبِ فساعدَتْكَ الأقدارُ ، وما مانعَتْكَ الأدوارُ ، واجتمعَتْ لديكَ الأوقارُ[1] ، ثم رحلْتَ عنها قبلَ التمتُّعِ بها بفناءِ الأنفاسِ ، ورحلَتْ عنكَ وهي على البَكارةِ إلىٰ عدوِّكَ مِنَ الناسِ[2] ، وإنَّما اغتنمْتَ منها حسابَ حلالِها ، وعذابَ حرامِها .

[سبيلُ النجاةِ]

ألا أُنبِّهُكَ على الحقِّ ، ألا أخبرُكَ بالصدقِ ؛ خالفْ مِنْ صِباكَ طبيعتَهُ ؛ بتعلُّمِ ما يعرِّفُكَ اللهَ وشريعتَهُ[3] ، ثم خالفْ طبعَ شبابِكَ بخدمةِ كبارِ العلماءِ ، وطاعتِهِم بحُسْنِ الاقتداءِ ، حتىٰ إذا حلَّ بكَ المشيبُ . . قمتَ مقامَهم بلا ريبٍ ، والعيونُ تلاحظُكَ بالتوقيرِ ، والقلوبُ تصاحبُكَ بالتوفيرِ ، أمرُكَ نافذٌ بغيرِ أعوانٍ ، وحكمُكَ لازمٌ بلا سلطانٍ ، يتمنَّى البعيدُ قربَكَ ، ويخشى القريبُ بُعْدَكَ ، وأنتَ مكرَّمٌ بذاتِكَ ، محمودٌ بصفاتِكَ ، صفقتُكَ معَ ربِّكَ رابحةٌ ، وتجارتُكَ في سوقِ الزَّهادةِ صالحةٌ ، تعقدُ ما شئتَ مِنَ الأَسْلامِ بهيِّنٍ مِنْ رأسِ

---

(١) الأوقار : جمع وِقْر ؛ الحِمْلُ الثقيل .
(٢) أراد : الورثة الذين كانوا يرجون موتك ؛ لانتهاب مالك الذي حلَّ لهم بفراقك .
(٣) يعني : بتعلُّم علم أصول الدين مع علم الفقه .

المالِ[1] ، وأنتَ آمنٌ مِنَ الفَوْتِ والإخلالِ .

فبينَما أنتَ مشغولٌ بتجارتِكَ مستأنسٌ بلُطْفِ مشتريها وفضلِهِ ، مسرورٌ برَوَاجِ المَعِيبِ وكثرةِ نُزلِهِ[2] . . إذْ جاءَتْكَ البشارةُ بحلولِ الأجَلِ ، وانقضاءِ مُدَّةِ المَهَلِ[3] ، فتقومُ إلى استيفاءِ الأَسْلامِ ، وإحرازِ الأرباحِ العِظامِ ؛ بحيثُ لا تصفُها الألسنةُ ، ولا تخطرُ على الأفئدةِ[4] ، واتصلَ سرورُكَ بالمظنونِ ،

---

(١) الأَسْلام : جمع سَلَمٍ ؛ هو السلف للثمن عاجلاً ، مع تسليم المثمن آجلاً .

(٢) النُّزُل هنا : البركة والفضل .

(٣) المَهَل ـ بسكون الهاء والفتحُ لغة ـ : الاتِّئاد وعدم العجلة ، وعند الإمام القرطبي في « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » (١/ ١٢٤) : كان بعض الصالحين ينادي بالليل على سور المدينة : الرحيلَ الرحيلَ ، فلما توفي فقدَ صوتَهُ أميرُ تلك المدينة ، فسأل عنه ، فقيل : إنه قد مات ، فقال : [من الكامل]

ما زالَ يلهجُ بالرحيلِ وذكرِهِ   حتى أناخَ ببابِهِ الجمَّالُ
فأصابَهُ متيقِّظاً متشمِّراً   ذا أُهبةٍ لم تلهِهِ الآمالُ

(٤) إشارة إلى ما رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « قال الله : أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطرَ على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] » ، وفي رواية للبخاري (٤٧٨٠) زيادة : « بلهَ ما أُطلعتم عليه » ، قال الزمخشري في « الكشاف » (٥/ ٣٣) : (لا تعلم النفوس كلُّهن ولا نفسٌ واحدة منهن ، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل . . أيَّ نوع عظيمٍ من الثواب ادَّخر الله لأولئك ، وأخفاه من جميع خلائقه ، لا يعلمه إلا هو مما تقرُّ به عيونهم ، ولا مزيد على هذه العِدَةِ ولا مطمحَ وراءها) ، وفي الآية رمزٌ لا يخفى إلى رؤية الحقِّ سبحانه ؛ إذ لا نعيم فوقه في الجنة ، يليه مرافقة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم المشارُ إليها بما رواه مسلم (٤٨٩) عن سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته بوَضوئه وحاجته ، فقال لي : « سَلْ » ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « أو غيرَ ذلك » ، قلت : هو ذاك ، قال : « فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود » ، اللهمَّ ؛ به توسَّلنا إليك ؛ أن تعيننا على ذكرك وشكرك وحُسْنِ عبادتك .

بسرورِكَ باليقينِ[1] ؛ أنَّ الشتاءَ مِنْ فصولِ سَنَتِكَ ، ليزدادَ نعمةً علىٰ سائرِ الفصولِ[2] ؛ لمَنْ قدَّمَ إليهِ منها الفصولَ[3] ؛ لِمَا فيهِ مِنْ راحةِ النفسِ بانسدادِ أبوابِ التقلُّبِ ، وملاقاةِ الإخوانِ بانقطاعِ سُبُلِ التفرُّقِ ، ويُسْرِ الإصابةِ باجتماعِ الألوانِ ، في واحدٍ مِنَ المكانِ .

[تفصيلُ القولِ بالأخذِ بأسبابِ الدنيا]

فقالَ[4] : كأنَّكَ أتعبتَ قلبَكَ بدوامِ التفكيرِ ، فزاغَ عنِ الطريقِ فيما أملىٰ عليكَ مِنَ التدبيرِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ هـٰذا العالـَمَ مقروناً بقاؤُهُ بالغذاءِ ، وقَسَمَ غذاءَهم ممَّا لا تُنبتُها الأرضُ بنفسِها إلا بعدَ إيداعٍ واستنماءٍ ، فكيفَ حكمْتَ أنتَ قَبْلَ السببِ بالبقاءِ ؟!

ولو قلتَ : إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ ضمنَ الرزقَ بحلالٍ مِنَ الأسبابِ ، فلا تطلبوها مِنْ غيرِ تلكَ الأبوابِ ، وضمنَها ضمانَ الزادِ للمسافرِ ، فلا تجمعوها جمعَ الأحمالِ للتاجرِ . . لكانَ قولاً عَدْلاً ، وطريقاً سهلاً ؛ فإنَّما على العبدِ في كلِّ الأحوالِ طاعةُ ربِّهِ ، وتَعَرُّفُ الأمرِ مِنْ كُتبِهِ ، ثمَّ العملُ بحَسَبِهِ ، أمَا رأيتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ضمنَ الرِّزْقَ للطيورِ والوحوشِ بلا تسبُّبٍ منهم أصلاً . . قَسَمَ لها ممَّا يوجدُ علىٰ وجْهِ الأرضِ سَهْلاً ؟! ثم لم تستغنِ عنِ الطلبِ ، وذلكَ القَدْرُ منها سببٌ ، لـٰكنَّها تمتَّعَتْ ، واكتفَتْ بهِ وما جَمَعَتْ .

قلتُ : أيُّها الأخُ الزَّكِيُّ ، والعبدُ التقيُّ ؛ إيَّاكَ والإصغاءَ إلىٰ تلقينِ نفسِكَ

---

(١) يعني : ما عرفته من قبلُ بعقلك صار يقيناً مشاهداً تلك الساعة .
(٢) انظر (ص١٣٥) .
(٣) في (ب ، ز) : (الفضول) بدل (الفصول) .
(٤) يعني : الأخ المذكور في أوّل الكتاب (ص٨٩) .

واستعذابَ هواها ، والاستماعَ لحُجَجِها لتحصيلِ مُناها ؛ فإنَّها أمَّارةٌ بالسوءِ في قالَبِ الحقِّ ، محدِّثةٌ بالكذبِ بلسانِ الصِّدْقِ ، ما أُراها إلا وقد غرَّتْكَ بهٰذا السببِ المشروعِ ؛ لعِمارةِ الدنيا ومزاحمةِ الجُمُوعِ[1] ؛ فإنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ عشقَها الناسُ إلا قليلاً[2] ، ومَنْ تمسَّكَ بسببٍ منها وقعَ في جدالِهم طويلاً[3] ،

---

(١) ألا ترىٰ أن أكمل الأحوال وأعلاها ما كان عليه السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم تكن الدنيا لتدخلَ قلبَهُ وحاشاه ، فإنْ ملكَها بذلها مع طيبة نفس ، وهو صلى الله عليه وسلم كما قال الحماسي جؤية بن النضر : (من البسيط)

قالت طريفةُ ما تبقىٰ دراهمُنا ... وما بنا سرفٌ فيها ولا خَرَقُ
إنَّا إذا اجتمعت يوماً دراهمُنا ... ظلَّت إلىٰ طُرُقِ المعروف تستبقُ
ما يألفُ الدرهم المضروبُ صرَّتَنا ... لٰكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس ، ولا يُسمَّى الباذل لماله جواداً إذا أنفق من فضول ماله ، بل حينما ينفق كثير ماله وقليله .

ومن جعل الدنيا في يده ، وحرس قلبَهُ عنها . . فحالُهُ حسنة ، وليست بأحسن الأحوال .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه مسلم (٢٧٤٢) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ ، وإن الله مستخلِفُكم فيها ، فينظرُ كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء » .

(٣) روى ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال : يا رسولَ الله ؛ دُلَّني علىٰ عملٍ إذا أنا عملته أحبَّني الله وأحبَّني الناس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ازهدْ في الدنيا يحبَّكَ الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبُّوك » ، قال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (٤/١٥٦) : (قد حسَّن بعض مشايخنا إسناده ، وفيه بُعدٌ ؛ لأنه من رواية خالد بن عمرو القرشي الأموي السعيدي ، عن سفيان الثوري ، عن أبي حازم ، عن سهل ، وخالد هٰذا قد تُرِكَ واتُّهم ، ولم أرَ من وثَّقه ، لٰكن علىٰ هٰذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ، ولا يمنع كون راويه ضعيفاً أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، وقد تابعه عليه محمد بن كثير الصنعاني عن سفيان ، ومحمد هٰذا قد وُثِّقَ علىٰ ضعفه ، وهو أصلح حالاً من خالد ، والله أعلم) .

وإذا هاجَتْ فيهِ حميَّةُ الجاهليةِ وجاشَ فيهِ الغضبُ[1] . . تعدَّى الحدودَ والسببَ ، وما لهُ علىٰ نفسِهِ مِلاكٌ ، وعندَ ذلكَ الهلاكُ .

ولو كانَ هـٰذا الوهمُ منكَ حقّاً ، والحديثُ صِدْقاً . . لاكتسبْتَ الرِّزْقَ بسببِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ والقتالِ ؛ فهوَ السببُ للإرثِ الأطيبِ الحلالِ[2] ، معَ ما تستحقُّ بهِ كفايتَكَ مِنْ بيتِ المالِ ، أو لاشتغلْتَ بتعليمِ الناسِ الدينَ ، وبالأذانِ والإمامةِ للمؤمنينَ ؛ فذلكَ سببٌ لاستحقاقِ الكفايةِ مِنْ بيتِ مالِ المسلمينَ ، أو رضيتَ عندَ متاركةِ الأسبابِ بالفقرِ ؛ فهو سببٌ لاستحقاقِ الكفايةِ علىٰ أصحابِ الدَّثْرِ[3] .

فميلُكَ عن أسبابِ رِزْقٍ هي بنفسِها عبوديَّةٌ أو عبادةُ الرحمـٰنِ[4] ، إلىٰ أسبابٍ هي لعِمارةِ الدنيا . . دليلٌ على اغترارِكَ بوساوسِ الشيطانِ ، ألم يبلغْكم قولُ رسولِ مولاكم : « أنا أعلمُ بأمورِ دينِكم ، وأنتم أعلمُ بأمورِ دنياكم » ؟![5] أمَا بلغَكم كسبُهُ ؟! فذلكَ حسبُكم ، إلا أنْ يُعجبَ العبدُ في قُرْبِهِ

---

(1) جاش : غَلَىٰ واشتدَّ .

(2) لأنه كسبُ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (١/٥٤٨) : (ألا ترىٰ إلىٰ قوله : « جعل رزقي تحت ظلِّ رمحي » ، فأفضل الكسب مطلقاً سهمُ الغازي) .

(3) الدَّثْرُ : المالُ الكثير ، وفي (ب ، و ، ز) : (الدين) بدل (الدثر) ، وفُسِّرَ : بأصحاب الصفاء من أهل الدين .

(4) العبادة : صفة فعل ، والعبودية : صفة ذات ، والعبادة : أن يفعل ما يرضى الربُّ ، والعبودية : أن يرضىٰ ما يفعل الربُّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(5) روىٰ مسلم (٢٣٦٣) من حديث سيدتنا عائشة وسيدنا أنس بن مالك رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بقومٍ يلقِّحونَ ، فقال : « لو لم تفعلوا لصَلُحَ » ، قال : فخرج شيصاً ، فمرَّ بهم فقال : « ما لنخلكم ؟ » ، قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : « أنتم =

مِنْ ربِّهِ بعِظَمِ حالِهِ ، فيلطِّخَهُ بمباحِ أعمالِهِ[1] .

فقالَ : نعم ؛ لقد كشفْتَ الشبهةَ وألزمْتَ الحجَّةَ ، لٰكنِّي أكلِّمُكَ علىٰ أصلِ الفطرةِ ، وما عندَها بيتُ مالٍ ولا جهادٌ ، ولا غنىً ولا عتادٌ .

قلتُ : إنَّكَ رجلٌ ما أدركْتَ مِنْ فطرتِكَ إلّاً[2] ، وما وصفْتُ لكَ مِنْ أسبابِ الكفايةِ فيها موجودةٌ[3] ، فكيفَ تركتَها إلىٰ أسبابِ العِمارةِ بناءً علىٰ حالةٍ لم تزلْ في حقِّكَ كانَتْ مفقودةً ؟!

لو أنصفْتَ لعرفْتَ واعترفْتَ ، وتُبْتَ عمَّا اعتقدْتَ مِنَ الباطلِ واقترفْتَ[4] ، علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ في الجنَّةِ مكفيّاً غنيّاً ، يأكلُ ما يشاءُ رَغَداً هَنيّاً ، وإنَّما ابتُليَ بالعملِ ، بعدَما عصىٰ ربَّهُ وزَلَّ[5] .

= أعلم بأمر دنياكم » .

ولا شكَّ أنه صلى الله عليه وسلم أعلم بأمور ديننا ، وما يضرُّنا وما ينفعنا ؛ ففي رواية ابن ماجه (٢٤٧١) لهٰذا الحديث : « إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به ، وإن كان من أمور دينكم فإليَّ » ، وأعلم بأمور دنيانا أيضاً ، وكمالُهُ وتمامُ نُصْحِهِ يمنعانه من الإرشاد إليها ، فنزَّلنا منزلةَ الأعلمية بها لأنَّنا مائلون إليها ، حريصون على الأخذ بها .

(١) أي : هو خُصَّ بالكسب إزالةً للعجب . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، روى الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (٤١٧ ، ٢٤١٦) عن عبيد الله بن عمر : (أن عمر بن الخطاب كان جالساً ذات يوم ، فمرَّت به جارية تحمل قِربةً ، فقام فأخذ منها القربة وحملها علىٰ عنقه حتىٰ ودَّاها ، ثم رجع ، فقال له أصحابه : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ! ما حملك علىٰ هٰذا ؟ قال : إن نفسي أعجبتني ، فأردتُ أن أُذِلَّها) .

(٢) يعني : ما أدركت من فطرتك أصلاً ؛ إذ الإلُّ : الأصل الجيد .

(٣) في (د ، هـ) : (إلا ما) بدل (إلّاً ، وما) .

(٤) الاعتراف يهدم الاقتراف ، والاقتراف : الاكتساب . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) الإمام المصنف علىٰ طريقة السادة الماتريدية ، وهم كعامة أهل السنة والجماعة في منع المعصية في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لٰكن مع تجويز الزلة ؛ وهي عندهم : =

[الحكمةُ مِنْ علاقةِ السببيّةِ]

قالَ : زالَتِ السُّتْرةُ عنِ الحبائلِ[1] ، وعرفْتُ أنِّي كنتُ علىٰ باطلٍ ، فبيِّنْ لي حِكْمةَ تعليقِ اللهِ تعالىٰ رِزْقَ عبادِهِ الممتحنينَ بأسبابٍ منهم ظاهرةٍ ، معَ ما لزمَهم معرفةُ الرِّزْقِ ممَّا قَسَمَ اللهُ تعالىٰ لهم في اللوحِ بحُجَجٍ باهرةٍ .

قلتُ : ليبيِّنَ لهم أنَّها دارُ مِحْنةٍ ، والتباسٍ وشُبهةٍ ؛ علَّقَ اللهُ تعالىٰ رِزْقَ الممتحَنينَ بأسبابٍ محسوسةٍ منهم لترى النفسُ الرِّزْقَ منها ، فتدعوَ الجسمَ في طلبِ الرِّزْقِ إليها ، ثم علَّقَ حقيقةَ الوجودِ بالطبائعِ التي لا يدَ لهم عليها لترى الروحُ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ[2] ، فتدعوَ الجسمَ إلىٰ طلبِ الرِّزْقِ منهُ ، فيكونَ الجسمُ مبتلىً بينَ ذلكَ[3] ، فيصيرَ إذا تركَ الأسبابَ لمسبِّبها في حدِّ العبوديَّةِ ، فينالَ عندَ ذلكَ مِنْ تركِهِ ما يجولُ في الأُمْنِيَّةِ[4] .

= الوقوع في صورة المعصية من غير قصد ، بل بسبب الخطأ أو النسيان ، ولذلك لا يجوز إطلاق اسم العصيان في حقِّهم عليهم السلام في غير ما ورد في القرآن وصحيح السنة ، وللمَلِكِ أن يُسمِّي فعل عبده بما شاء ، وكذلك اسم العقاب ، والمختار اسم العتاب .

وغاية ما ورد في حقِّ الأنبياء عليهم السلام ممَّا ظاهره نسبة المخالفة لهم . . راجعٌ إلىٰ ترك الأفضل ، وهـٰذا مذهب بعض أئمة سمرقند من الماتريدية ؛ حيث قالوا : (زلَّاتهم وعصيانهم : تركُ الأفضل) ، كذا قال الإمام البزدوي في « أصول الدين » (ص١٦٧) ، وقال ذاكراً للقول الأول : (أما الزلَّات : فغير معصومين عنها ؛ وهو ما يقع من الذنوب عنهم خطأً أو نسياناً) .

(١) الحبائل : جمع حِبالة ؛ وهي الشَّرَك الذي ينصبه الصائد ليُوقعَ بصَيْده .

(٢) هـٰذا نصٌّ في كون الطبائع غيرَ مؤثِّرةٍ البتةَ .

(٣) يعني : بين رؤية النفس ورؤية الروح .

(٤) كذا في (أ ، ج) ونسخة في هامش (ب) ، وفي عامة النسخ : (يحول) بدل (يجول) ، وكتب في (ج) فوق كلمة (في) : (من) ، ثم كتب في الهامش : (أي : يطلب) .

وهـٰذا كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران : ١٤] ، ثم قالَ للرسولِ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [طه : ١٣١] ، فنهاهُ عنِ النظرِ قبلَ التسبُّبِ للمِلْكِ ؛ ليكونَ على حَذَرٍ ففيهِ الهُلْكُ ، حتىٰ قالَ الرسولُ عليهِ السلامُ : « حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »[1] ، ليصيرَ القلبُ مبتلىً بذلكَ ، ويميلَ إلى البغضِ فالحقُّ هنالِكَ ، وإذا أبغضْتَها لم تقربْها بسفاحٍ ، ولا أمسكْتَها بنكاحٍ .

ثم نبَّهَ على هـٰذا المعنىٰ بقولِهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ـ ٦٥] ، ثم نبَّهَ فقالَ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] ؛ كي لا يشتبهَ عليكَ مِنَ الطائرِ أنَّهُ أصابَ بسببِ الطيرانِ .

ثم أوضحَ عليكَ بحالِ اجتنانِكَ وطفولتِكَ ، ثم صِغَرِكَ وجهالتِكَ .

ثم أخبرَ عن قصَّةِ مريمَ ؛ إذْ قالَ لها زكريا وقد وجدَ عندَها رزقاً : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، وقالَ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِ ﴾ [الطلاق : ٢ـ ٣] ، وقالَ للرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٩) عن الحسن البصري مرسلاً ، وانظر تخريجه بتوسُّع في « المقاصد الحسنة » (٣٨٤) ، وفيه قال : (ومرسلات الحسن إذا رواها عنه الثقات صحاحٌ) .

[شرطُ إصابةِ الرزقِ بغيرِ سببٍ]

لـٰكنْ مِنْ شرطِ الإصابةِ بلا سببٍ : ألا ترىٰ أحداً غيرَ المسبِّبِ ، فأمَّا ما دمتَ تخافُ الجوعَ بفقْدِ الأسبابِ فتمسَّكْ بحلالِها ، ثم توكَّلْ على اللهِ ؛ فإنَّكَ مِنَ الأوساطِ ؛ وهوَ الذي ذكرتَ أنَّهُ العَدْلُ ، والطريقُ السَّهْلُ[١] ؛ إنَّهُ لكذلِكَ لمَنْ لم تشغلْهُ رؤيةُ الربِّ عمَّنْ سواهُ ، ومعرفةُ الآخرةِ عن دنياهُ .

[معنى « اليدُ العليا خيرٌ مِنَ اليدِ السفلىٰ »]

فقالَ : سلَّمْتُ لكَ نيلَ الكفايةِ ، بلا كدٍّ وعنايةٍ ، فأينَ مكارمُ الأخلاقِ واليدُ العليا ، وثوابُ الصدقاتِ ومحامدُ النُّحْلَىٰ ؟ ![٢] وكنتُ رضيتُ باكتفائي مِنْ أموالِ الناسِ باليدِ السُّفلىٰ ![٣] .

قلتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ أنْ تكونَ زُيِّنَ لكَ سوءُ عملِكَ فرأيتَهُ حسناً ، وأضلَّكَ اللهُ تعالىٰ وحسبْتَهُ هَيِّناً ، إنَّا ندعوكَ إلىٰ ترْكِ الدنيا بأسرِها ، وأنتَ تأخذُها لتميلَ إلى الكرمِ بجودِ بعضِها ! فكم ما بينَ الأمرينِ[٤] .

---

(١) في هامش (و) : (أي : الاشتغالُ بالكسب الحلال أنه العدل لمن لم تشغله رؤية الربِّ عمن سواه) .

(٢) النُّحْلىٰ ـ بوزان الحُبلىٰ ـ : العطية .

(٣) كلُّ ذلك إشارة لما رواه البخاري (١٤٢٧) ، ومسلم (١٠٣٤) من حديث سيدنا حكيم بن حزام رضي الله عنه مرفوعاً : « اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلىٰ ، وابدأ بمن تعول ، وخيرُ الصدقة عن ظهر غنىً ، ومن يستعففْ يعفَّهُ الله ، ومن يستغنِ يغنه الله » ، وما رواه البخاري (١٤٢٩) ، ومسلم (١٠٣٣) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « اليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفلىٰ ، واليدُ العليا المنفقة ، والسُّفلى السائلة » .

(٤) حاصله : أن من زهد في الدنيا جادَ بها ، فهو أجلُّ ممَّن جاد ببعضها .

ما أنتَ في الأخذِ ابتداءً إلا منازعٌ لحظِّكَ وما فيهِ مِنْ كرمٍ أصلاً[1] ، ثم ما أنتَ في الإعطاءِ إلا طالبٌ لنفسِكَ حمداً ، أفتبلغُ بهِ منزلةَ مَنْ تركَها كُلّاً ؛ فلم يجعلْ لنفسِهِ حظّاً وقد قَدَرَ عليها أخذاً ؟! وهل كَرَمُ الخُلُقِ إلا في إيثارِ الخَلْقِ برضا الحقِّ علىٰ قهرِ النفسِ ؟!

ثم للصابرِ عنِ الدنيا معَ ما فَضَلَ الآخذَ المعطيَ ثوابُ الصبرِ ، علىٰ ما ابتُليَ مِنَ الفقرِ ؛ **أمَا علمْتَ أنَّ ثوابَ المريضِ المصلِّي قاعداً** ، **مثلُ ثوابِ المصلِّي قائماً** ، **ثم فَضَلَهُ بثوابِ الصبرِ علىٰ مرضِهِ** ، وكفَّرَهُ اللهُ تعالىٰ عن مظالمَ بألمِهِ ؟!

أمَا سمعتَ قولَ القائلِ[2] : (يا طالبَ الدنيا لتبرَّ ؛ تركُكَ لها أبرُّ) ؟![3] .

أليسَتِ اليدُ العليا بإعطاءِ بعضِ الدنيا ؟! فكيفَ صارَ للتاركِ رأساً اليدُ السفلىٰ ؟![4] .

ما قولُكَ في بريرةَ وقد أهدَتْ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وقَبِلَها منها[5] ، وقولُكَ في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقد أجابَ دعوةَ

---

(١) **منازع لحظِّك** : مدافعٌ عنه ومصاولٌ من أجله ، ولو صدقت في الكرم لخرجت عن كل ما تملك .

(٢) في هامش (ب) : (**القائل** : عيسىٰ عليه السلام) ، وبنحوه في هامش (و) .

(٣) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٢٧) من قول سيدنا عيسى بن مريم علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وعزاه الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨/ ٩٠) لابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » .

(٤) **يعني** : فكيف يكون تاركُ الكلِّ صاحبَ اليد السفلىٰ ؟!

(٥) رواه البخاري (٢٥٧٨) ، ومسلم (١٥٠٤) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وكان قد أُهدي لها شاة ، فأهدت بيت النبيِّ صلى الله عليه وسلم لحماً منها .

العبدِ[١] ؛ لمَنْ كانَتِ اليدُ العليا ؛ ألبريرةَ وللعبدِ ، أو لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟

بل لرسولِ اللهِ ؛ فإنَّهُ خُيِّرَ بينَ الدنيا والمولىٰ ، فاختارَ اللهَ تعالىٰ[٢] ، وتركَها لبريرةَ وأمثالِها ، وللعبدِ وأشكالِهِ ، فأهْدَوا إليهِ بعضَ ما تَرَكَ عليهم ، فلمَنْ تكونُ اليدُ العليا واليدُ السفلىٰ ؟!

وليسَ كلامُنا فيمَنْ أحبَّ الدنيا ونكحَها بقلبِهِ ، ففَرِكَتْهُ فنَشَزَتْ عليهِ حتَّىٰ لم يمسَّها إلا مِنْ يدِ غيرِهِ[٣] ، فصارَتْ يدُهُ اليدَ السفلىٰ لأنَّها آخذةٌ بلا إعطاءٍ ، ومُتَّهِبَةٌ بلا جزاءٍ .

ثم ندعُ هـٰذا فنقولُ : رجلٌ اشتغلَ بالعلمِ والعملِ بهِ عنِ الدنيا ، فصارَ بعلمِهِ اهتداءٌ ، وبعملِهِ اقتداءٌ ، فنجا بسببِهِ الناسُ عنِ الضلالةِ ، وفُكُّوا عن أسْرِ الجهالةِ ، فأحبُّوهُ بقلوبِهم ، وجازَوهُ بعطائِهم ، ومجَّدوهُ بثنائِهم ، فلِمَنِ السابقةُ ؟! وأيَّةُ يدِ العاليةُ ؟! وأيَّةُ الكفايتينِ العُظْمىٰ ؟! وأيَّةُ المِنْحَتَيْنِ أولىٰ ؟!

كأنِّي وضعْتُ هـٰذا الأساسَ لأعمىٰ بقلبِهِ[٤] ، زَمِنٍ بجسمِهِ ، يحيا وبالاً ،

---

(١) رواه الترمذي (١٠١٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) روى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦٧١٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : أن الله تبارك وتعالىٰ أرسل إلىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم مَلَكاً من الملائكة ومعه جبريل ، فقال المَلَكُ : إن الله يخيِّرُك بين أن تكون عبداً نبياً ، وبين أن تكون مَلِكاً ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ جبريل كالمستشير ، فأشار جبريل بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل أكون عبداً نبياً » ، قال : فما أكل بعد تلك الكلمة طعاماً متكئاً .

(٣) فَرِكته : أبغضته ، وهو مخصوص بين المرأة وزوجها ، ونَشَزَتْ : عصت وتركت الطاعة .

(٤) أي : ما وضعت . انتهىٰ من هامش (و) .

ويعيشُ عِيالاً[1] ، ما لهُ عندَ أحدٍ مِنْ سابقةٍ ولا يدٍ ، رضيَ بما تُصُدِّقَ عليهِ لنفسِهِ حظّاً ، ولم يرفعْ إلىٰ ما فوقَها لَحْظاً ، فهٰذهِ اليدُ هيَ السُّفلىٰ ، وهوَ الجاهلُ في الآخرةِ والأولىٰ .

أمَا علمتَ أنَّ فيما دعوناكَ إليهِ رِضاً بالحُكْمِ ؛ وهوَ العبوديَّةُ ، وفيما تدعونا إليهِ عملٌ بالأمرِ ؛ وهوَ العبادةُ ، والعبوديَّةُ سابقةٌ ، والعبادةُ لاحقةٌ[2] .

[فسحةُ الشريعةِ في تملُّكِ الحلالِ]

قالَ : فلقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهُ : « نعمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ »[3] .

وقالَ لسعدٍ وقد شاورَهُ في الوصيَّةِ بمالِهِ : « الثلثُ ، والثلثُ كثيرٌ ؛ لَأَنْ تدعَ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تدعَهم عالةً يتكفَّفونَ الناسَ »[4] .

---

(١) يعني : عالةً علىٰ غيره .

(٢) والعبودية أقوىٰ من العبادة ؛ لأن العبودية : الرضا بما يفعل الربُّ ، والعبادةَ : فعلُ ما يرضىٰ له الربُّ من العبادات ، فالأول أشقُّ ، فكان أفضل ، وهٰذا لأن العبودية : ألا يرى العبدُ متصرِّفاً في الحقيقة إلا اللهَ ، فيفوِّضَ أمره إليه في كلِّ حالٍ ؛ أفقره أو أغناه ، أبهجَهُ أو أشجاه ، أسمنه أو أضناه ، ألبسه أو أعراه ، أماته أو أحياه ، ضرَّه أو نفعه ، جوَّعه أو أشبعه ؛ فإن المتصرِّف في الحقيقة هو الله ؛ فإنه خالق كلِّ شيء ، فيجب على العبد التسليمُ في كلِّ حالٍ ، ولأن العبادة قد تسقطُ ، والعبودية لا تسقط في الدارين . « شرح البزدوي » . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، وانظر التفريق بين العبودية والعبادة للإمام المصنف (ص١٦٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٧) ، وأحمد في « المسند » (٤/١٩٧) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٧٣٣٦) من حديثه رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٢٧٤٢) ، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها وقتَ موتِهِ : (إنَّ أحبَّ الناسِ إليَّ غِنىً أنتِ ، وأعزَّهم عليَّ فَقْراً أنتِ)[١] .

قلتُ : أيُّها الأخُ ؛ إنَّ الناسَ طبقاتٌ لا يصلحونَ علىٰ وَتيرةٍ ، ولا يسلكونَ قطُّ طريقةً ، وإنَّما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلَّمَهم علىٰ قَدْرِ ما عرفَ لهمُ الصلاحَ فيهِ ؛ فقالَ لبلالٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « أنفقْ بلالُ ؛ ولا تخشَ مِنْ ذي العرشِ إقلالاً »[٢] ، واختارَ اللهَ تعالىٰ والآخرةَ في نصيبِهِ ، ثم خَيَّرَ نساءَهُ علىٰ ذلكَ ، أَوَكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مغبوناً هنالكَ ؟!

وكذلكَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ رأىٰ صلاحَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فيما قالَ ، ثم لمَّا آلَ الأمرُ إلىٰ نفسِهِ تصدَّقَ بجميعِ المالِ ؛ فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ماذا خلَّفْتَ لعيالِكَ ؟ » ، قالَ : اللهَ ورسولَهُ ، وتصدَّقَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشَطْرِ مالِهِ ، وقالَ : خلَّفْتُ لعيالي الشطرَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَضْلُ ما بينَكما فَضْلُ ما بينَ كلامَيْكُما » ، فقالَ عمرُ : كنتُ أجتهدُ لأسبقَ أبا بكرٍ ، فأيستُ يومئذٍ[٣] .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٥٢) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٣٤٢) ، والبيهقي في « الجامع لشعب الإيمان » (١٢٨٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان سيدنا بلال رضي الله عنه قد ادَّخرَ صُبْرة من تمر ، قال العلامة الطيبي في « شرح المشكاة » (٥/ ١٥٣٨) : (والذي يقتضيه مراعاة السجع : أن يوقف علىٰ « إقلالاً » [بالإسكان] وإن كتب بالألف ، أو تغير إلىٰ « بلالاً » ليَزْدَوِجا) ، ثم قال : (وما أحسن موقع « ذي العرش » في هٰذا المقام ! أي : أتخشىٰ أن يضيع مثلك وهو يدبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض ؟! كلَّا) .

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) وقال : (حديث حسن صحيح) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه بنحوه ، دون ذكر قوله : (فضل ما بينكما . . .) ، وهٰذه=

ثم قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ : ٢٠] ، ولم يقلْ : ومَنْ كانَ يريدُ حَرْثَ الآخرةِ بحَرْثِ الدنيا .

ثم قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، **أفبيانٌ أوضحُ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ ومقتدىً بهِ أولىٰ مِنَ الرسولِ ، وحجَّةٌ أبلغُ مِنْ دَلالاتِ العقولِ ؟!**

فقالَ : متَّعَكَ اللهُ تعالىٰ وإيَّانا بآياتِهِ ، وهدانا الحقَّ بدَلالاتِهِ ، ووفَّقَكَ لشكرِ ما استنارَ صدرُكَ لقلبِكَ ، وإيَّايَ لشكرِ ما وفَّقَني لمثلِكَ ، فنعمَ الرفيقُ أنتَ ، ونعمَ الطريقُ هـٰذا ، ما بقيَ إلا السلوكُ ثم الوصولُ عن قريبٍ ، واللهَ تعالىٰ أستعينُهُ وأستهديهِ فهوَ السميعُ المجيبُ ، ضلَّ عبدٌ لم يهتدِ بعلمِكَ ، أو لم يقتدِ بسَمْتِكَ ، ولم يتأمَّلْ بعدَ أنْ عرفَ أنَّهُ مخلوقٌ للابتلاءِ في أقسامِهِ[١] ، وضيَّعَ في غيرِها ساعةً مِنْ أيَّامِهِ .

قلتُ : متىٰ تركَ خداعُ الأمَلِ الناسَ للتأمُّلِ في مدَّةِ المَهَلِ ؟![٢] وإنَّما يشعرونَ حينَ حلولِ الأجَلِ ، إلا قليلاً مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ وكأنَّكَ منهم[٣] ،

= الزيادة رواها أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٢) مرسلة عن الحسن .

(١) في هامش (و) : (أي : في أحواله ؛ من الصحة والمرض ، والغنىٰ والفقر ، والشباب والشيخوخة) .

(٢) المهل ـ بسكون الهاء والفتح لغة ـ : التأخير والنَّظِرَةُ إلىٰ حين .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (١٥٠٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٩١) ، والبيهقي في « الجامع لشعب =

وإنَّ اللهَ تعالىٰ ضربَ للنشورِ مثلاً بحياةِ الأرضِ بعدَ موتِها ؛ فقالَ : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر : ٩] .

[نجوىٰ وعبرةٌ]

هلِ اعتبرْتَ أيُّها الأخُ بموتِ العالَمِ ؛ لموتِ بني آدمَ ، وبحياتِهِ إذا ذهبَ الشتاءُ ، لحياتِهم يومَ الجزاءِ ؟!

أمَا ترى الأرضَ وقد حَيِيَتْ يتقاربُ نباتُها مَنْظراً ، وقد تباينَ مَخْبراً ؟! فمِنْ أزواجٍ وأفرادٍ ، وجُمَلٍ وآحادٍ ، غَفَلَ الزوجُ عن أمثالِهِ ، وجهلَ الفردُ بحالِهِ ، حتىٰ إذا كانَ بعدَ حينٍ اختلفَتْ مناظرُها بخِلَعِها[1] ؛ مِنْ نبتٍ زُيِّنَ بزَهَرِهِ ، وقُرِّبَ إلىٰ مجالسِ الملوكِ بحُسْنِ مَخْبَرِهِ ، ومِنْ نبتٍ لُعِنَ لشوكِهِ أو فسادِهِ وجُمِعَ للنارِ ، ومِنْ نبتٍ صُفِّيَ طَيِّبُهُ مِنْ خَبيثِهِ بعُصارٍ[2] ، ثم سُلِّمَ إلى الخزانةِ ، وتميَّزَتِ العُصارةُ للإهانةِ[3] ، أفلا تذكرُ بهِ نشورَكَ ، ويومَ حشورِكَ[4] ؛ يومَ

= الإيمان » (١٠٠٨٠) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : اشترىٰ أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدةً بمئة دينار إلىٰ شهر ، فسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ألا تعجبون من أسامة يشتري إلىٰ شهر ؟! إن أسامةَ طويلُ الأمل ، والذي نفسي بيده ؛ ما طرفت عيناي فظننت أن شُفْريَّ يلتقيان حتىٰ أُقبض ، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعُهُ حتىٰ أُقبض ، ولا لَقِمتُ لقمة فظننت أني أُسيغُها حتىٰ أَغَصَّ فيها من الموت » ، ثم قال : « يا بني آدم ؛ إن كنتم تعقلون فافدوا أنفسكم من الموت ، والذي نفسي بيده ؛ إن ما توعدون لآتٍ ، وما أنتم بمعجزين » ، اللفظ للطبراني إلا قوله : (شُفري) فلغيره ممن ذُكر ، وفيه : (شُفراهما) .

(١) الخِلَعُ : جمع خِلْعَة ؛ كسِدَرٍ وسِدْرة ؛ وهي ما يعطي الإنسانُ غيرَهُ من الثياب .

(٢) أراد : العَصْر ، وعُصارُ الشيء : ما تحلَّب منه ، وفي هامش (هـ) : (كالعنب وغيره) .

(٣) العُصارة : ما بقي من الثُّفل بعد العَصْر .

(٤) الحشور : جمع حَشْرٍ ؛ وهو الجمع مع سَوْقٍ .

بروزِ العالمينَ أشكالاً ، غافلينَ أمثالاً ، حتىٰ إذا كانَ الحسابُ والجزاءُ كانوا سابقينَ ، وأصحابَ الشمالِ وأصحابَ اليمينِ ؛ يُسلِّمُ الخبيثُ إلى الجحيمِ ، والطيِّبُ إلى النعيمِ ، والمغشوشُ يسبكُ بالنارِ ، ثم يحشرُ إلى الأبرارِ[١] ، ما لكَ يومئذٍ في القسمةِ مِنْ تدبيرٍ ، ولا حيلةٍ ولا تقديرٍ ؟!

فاجتهدْ يومَ زراعتِكَ هـٰذا لبَذْرٍ طيِّبِ الحبِّ ، وشِرْبٍ طاهرٍ عَذْبٍ .

أم رأيتَ الربيعَ اخضرَّ لعينِكَ[٢] ، فزرعتَ منهُ نشاطاً في نفسِكَ ؟! أمَا ردعَكَ عنهُ علمُكَ بفراقِهِ عنكَ إنْ عشتَ ، وفراقِكَ عنهُ إنْ متَّ ، فتأخذَ منهُ غيرَ هـٰذا حَظّاً ، وتلاحظَهُ بمُوقِ القلبِ لَحْظاً ، فتجتنيَ منهُ مكانَ أزهارِها وَعْظاً ؟! علماً بأنَّ اللهَ الذي خلقَهُ لكَ حكيمٌ ، لم يخلقْهُ إلا لحظٍّ منهُ يبقىٰ معَكَ .

آهٍ ! فكلُّ العبيدِ مغلوبونَ بطبيعةِ البلغمِ[٣] ؛ ما بهم مِنْ قدرةٍ قِبَلَ طبيعةِ الدمِ ، وقلَّ مَنْ غلبَ طبيعةَ دمِهِ ، فتركَ فيهِ لَهْوَ يومِهِ ، وقلَّ مَنْ لم تغلبْهُ طبيعةُ الصفراءِ ، فلم يغالبِ الأكْفَاءَ وغيرَ الأكْفَاءِ ، وأغلبُ الطبائعِ السوداءُ ، فاحذرْ أنْ تكونَ مغلوباً بها فتبخلَ عن نفسِكَ آملاً في غَدِكَ ، وتغفُلَ عن حلولِ لَحْدِكَ فَرِحاً بوُلْدِكَ ، فإنَّكَ إنْ غَلَبْتَ هـٰذِهِ فحزنْتَ لموتِكَ واستهنْتَ بمالِكَ[٤] . . لم يضرَّكَ غَلَبَتُها إيَّاكَ مِنْ قبلُ[٥] ، وإنْ غُلِبْتَ بهـٰذِهِ لم

(١) أراد : العصاة من المؤمنين ، ومذهب المصنف فيهم كمذهب السادة الماتريدية ؛ لا بدَّ من تعذيب أفرادٍ من العصاة ؛ تحقيقاً للوعيد الذي لا يتخلَّف كالوعد .

(٢) قوله : (رأيت) معطوف علىٰ (هل اعتبرت) . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٣) انظر المراد من ذلك (ص١٣٥) ، وكذا ما سيأتي بعدُ .

(٤) قوله : (هـٰذه) إشارة إلىٰ طبيعة السوداء ، التي تكون عند الإمام المصنف زمن فصل الشتاء من فصول ابن آدم .

(٥) يعني : طبيعة الدم والصفراء . انتهىٰ من هامش (ب) .

ينفعْكَ وإنْ غَلَبْتَ ما قبلَها في كلِّ فَصْلٍ[1] .

أيقظَ اللهُ القلوبَ مكانَ العيونِ ، ووفَّقَنا لاتِّباعِ اليقينِ مكانَ الظُّنونِ .

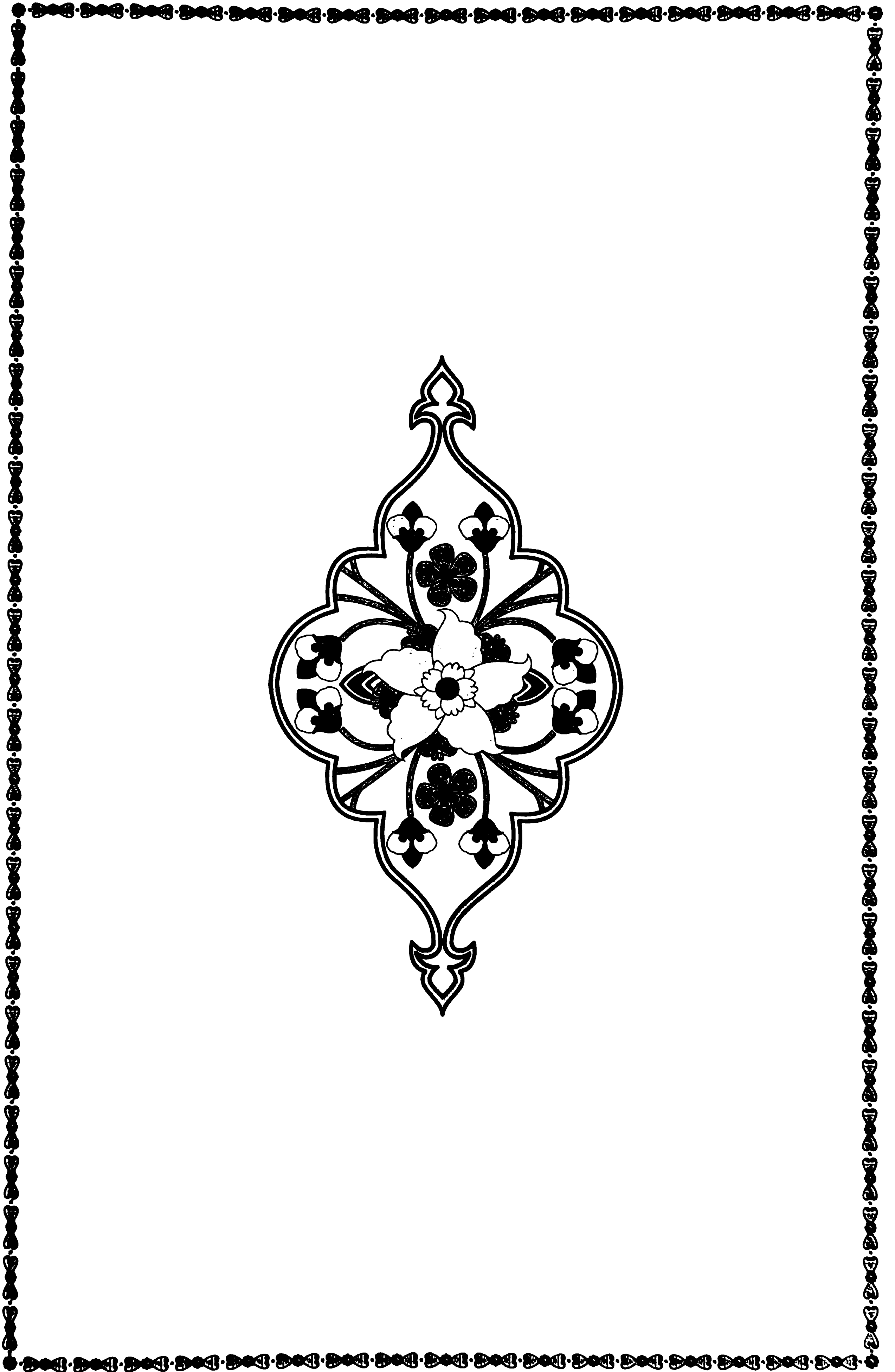
أيُّها الأخُ ؛ قد بيَّنَّا لكَ كيفيةَ الابتلاءِ في أصلِ خَلْقِ الناسِ ، ثم بَلْواكَ في صفاتِ ذاتِكَ التي هي الأساسُ ؛ عبدٌ فقيرٌ مأمورٌ مسجونٌ ، واللهُ تعالىٰ ـ وهو أعلمُ ـ قدِ ابتلاكَ علىٰ كلِّ قسمٍ مِنَ الأربعةِ الأقسامِ ، بأربعةٍ مِنَ الأحكامِ ، وإنِّي إنْ شاءَ اللهُ هاديكَ إليها بتوفيقِهِ ، ومُوقِفُكَ على الحقِّ منها بطريقِهِ ، وما توفيقي إلا باللهِ عليهِ توكَّلْتُ وإليهِ أنيبُ ، واللهَ تعالىٰ أستعينُهُ عليهِ إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ .



---

(١) في (ز) : (لم تنفعك السوداء وإن . . .) إلى آخره .

[كِتَابُ
العُبُودِيَّةِ]



كتاب
العبودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ واجبٌ علىٰ كلِّ عبدٍ لربِّهِ بحقِّهِ(١) ، عرفَ كونَهُ بخلقِهِ ونشْأَهُ برزقِهِ(٢) ، **والصلاةُ واجبةٌ**(٣) علىٰ رسولٍ ما جاهدَ نفسَهُ والخَلْقَ في اللهِ إلا شكراً(٤) ، وما واصلَ الدنيا وأبناءَها إلا ذِكْراً(٥) ، **فالحمدُ** أبلغُ ما يكونُ للربِّ

---

(١) في (و) : (لحقِّهِ) بدل (بحقِّهِ) ، وفي هامشها : (أي : لحقِّ الله عليك) .

(٢) وهو من التخليق والإنشاء ؛ أي : عرف تكوينه لتخليقه ، وبالفارسية : بودن خودرا ؛ أي : للنعم السابغة عليه ، لا طلبِ شيءٍ مستأنف . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) علىٰ كل عبدٍ لرسوله أن يصلّيَ . . . . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : ما كانت عبادته لله ومجاهدته في الله إلا شكراً لنعمه السابقة ، لا طمعاً في المستقبل ؛ لما رأىٰ علىٰ نفسه واجباً أن يشكر بسبب النعمة السابقة ، لا أن مجاهدته لتوقع النعمة في الزمان المستأنف . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي هامش (ب) : (أي : للنعم السالفة ، لا لجلب شيء مستأنف) .

(٥) أي : ذكراً لله تعالىٰ ؛ بأن يتفكر في عجائبه . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، وزاد في (و) : (أي : يذكرُ اللهَ تعالىٰ بمواصلة أبناء الدنيا من حيث إنه مخلوق لله تعالىٰ ، أو ذكراً لله تعالىٰ ؛ بأن يتفكَّر في مصنوعاته ومشاهدته عجائبها ؛ أي : وما كانت صحبته ومخالطته الدنيا وأهلها إلا لتكون الدنيا وأهلها تذكرةً إلى الله تعالىٰ ؛ بأن يكونَ يتفكرُ في مصنوعاته ويشاهدُ عجائبها ؛ لما رأىٰ فيها من آثار قدرته وعجائب صنعته ، فيذكِّرُهُ اللهَ تعالىٰ ، بخلاف سائرِ الخلق ؛ فإنه يكفِّرُ عبادتهم ومجاهدتهم لطلب النعمة في الزمان الثاني ، وكذا مخالطتهم الدنيا تصير شاغلةً لهم عن أمور الآخرة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، فلا يتفكَّرون في المصنوعات ، حتىٰ يكون نادياً لهم ، إلا أمور الآخرة ، فتكون الدنيا شاغلةً لهم بأشياء ، والنبي صلى الله عليه وسلم ذاكراً إلى الله تعالىٰ) ، وإلى الله : نعمة الله ، والجمع : آلاء ، والله أعلم .

الجليلِ[١] ، والصلاةُ أعلىٰ ما يُقالُ على الرسولِ[٢] .

أمّا بعدُ ـ أيُّها الأخُ المقتبِسُ نوراً للهدىٰ ، ونجاةً للورىٰ ـ :

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالى امتحنَكَ في كونِكَ عبداً بمعرفتِهِ[٣] ، والرضا بقسمتِهِ ، والانقيادِ لكلمتِهِ ، والعملِ بطاعتِهِ ، فهي وجوهٌ أربعةٌ مِنَ الامتحانِ ؛ اثنانِ منها عبوديّةٌ[٤] وعبادةٌ منها اثنانِ[٥] .

فالعبوديّةُ : صفةُ نفسِكَ ، والعبادةُ : صفةُ فِعْلِكَ .

إذْ واجبٌ علىٰ كلِّ ذي عقلٍ وتمييزٍ أُنعمَ عليهِ بالتكوينِ :

أنْ يعرفَ مُنْعِمَهُ وهو المولىٰ ، ثم يرضىٰ بما قَسَمَ لهُ إذِ الموجودُ بقَدْرِهِ إنعامٌ مِنَ اللهِ الأعلىٰ ، فلا أقلَّ مِنَ الرضا إنْ عجزَ عن شكرِهِ ، والحمدِ لما أحسنَ إليهِ مِنْ برِّهِ .

ثمَّ الانقيادُ لكلمتِهِ[٦] ؛ إذْ لم يجدْ عن وَثاقِ عبوديّتِهِ وغلبةِ سلطانِهِ مخرجاً ، ثمَّ العملُ بطاعتِهِ ؛ إذْ لم يستجزْ عليهِ سَفَهاً .

---

(١) أي : أحمد حمداً في نهاية البلاغة لله . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : أشرف الصلاة وأعلاها على الرسول . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الامتحان من الله : إظهارُ ما علم علىٰ ما علم به . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) معرفة ورضاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) انقياد وعمل . انتهىٰ من هامش (و) ، وتقدم الفرق بين العبودية والعبادة تعليقاً قريباً (ص١٤٦) .

(٦) قوله : (الانقياد) معطوف على المصدر المؤوَّل من قوله قبلُ : (أن يعرف) .

[سُبُلُ معرفةِ المنعمِ تباركَ وتعالىٰ]

ثم معرفةُ المنعِمِ مِنْ طُرُقٍ أربعةٍ : النظرِ في جسمِهِ ، والنظرِ في حياتِهِ ، والنظرِ في رزقِهِ ، والنظرِ في وقتِهِ .

فإنَّ مَنْ أنعمَ النظرَ في جسمِهِ[1] : عرفَ تجسُّمَهُ باجتماعِ الأجزاءِ[2] ، والاجتماعُ عرضٌ يضادُّ القدمَ ، وإذا نظرَ في أبيهِ وجدِّهِ وجدَهُما كذلكَ ، وإذا نظرَ في كلِّ العالَمِ وجدَ الحُجَّةَ قائمةً هنالكَ ؛ فإنَّهُ عناصرُ مختلفةٌ وطباعٌ ، لم تقوَ لإحداثِ المحسوسِ إلا باجتماعٍ ، **فيلزمُهُ اعتقادُ مُحْدِثٍ قديمٍ واحدٍ لا شبيهَ لهُ ممَّا ظهرَ فيهِ آياتُ الحَدَثِ** ، فيزولَ بها عنهُ صفةُ القدمِ .

ومَنْ أنعمَ التأمُّلَ في حياتِهِ : وجدَها مقرونةً بأنفاسٍ إنْ أرسلَها كلَّها جاءَ الموتُ ، وإنْ أمسكَها تعجَّلَ الفوتُ ، فيعرفُ بتعلُّقِ حياتِهِ بسببٍ ليسَ في مِلْكِهِ ، أنَّهُ عاجزٌ عن دَفْعِ هُلْكِهِ[3] ، ومَنْ عجزَ عن إبقاءِ الموجودِ . كانَ أعجزَ عن إنشاءِ الوجودِ ، ويعرفُ أنَّ الذي أنشأَهُ قادرٌ ليسَ كمثلِهِ ، ولا يجدُ ذلكَ في أصلِهِ[4] ، ما لم يصلْ إلى اللهِ ذي القوَّةِ والقدرةِ ، الخلَّاقِ بلا فكرةٍ .

ومَنْ نظرَ في رزقِهِ ، فوجدَهُ ممَّا تُنْبِتُهُ الأرضُ بماءٍ ينزلُ مِنَ السماءِ ، وبحرارةٍ تتَّصِلُ بها مِنَ الهواءِ ، علىٰ أساسٍ يشهدُ بالحكمةِ ، وما لهُ ولأصلِهِ في ذلكَ مِنْ صنعةٍ ، ويرىٰ هٰذهِ الأصولَ معَ قوَّتِها مسخَّراتٍ للإصلاحِ ، وما لهُ

---

(١) أنعم النظر : بالغ في النظر وأمعن فيه .

(٢) في هامش (ج ، د ، هـ ، و) : (نسخة : حدوثه لتجسُّمه) بدل (تجسُّمه) .

(٣) يعني : فيعرف عجزه عن إبقاء نفسه حينما يدرك أن حياته معلَّقة بسبب لا دخْلَ له فيه .

(٤) يعني : لا يجد في نفسه ولا في أبيه وجدِّهِ القدرةَ على البقاء فضلاً عن الإنشاء .

دونَ التناولِ مِنْ نُزُلِها بقاءٌ وفلاحٌ . . عرفَ يقيناً مَنْ سخَّرَ الكلَّ للبعضِ[1] ، ومَنْ قَرَنَ بينَ منافعِ السماءِ والأرضِ .

ومَنْ نظرَ في وقتِهِ ؛ وهو الأيامُ والساعاتُ ، والشهورُ والسنواتُ . . رأىٰ حدوثَها بدورانِ الفَلَكِ وجريانِ الشُّهُبِ ، ورأى الحوادثَ كلَّها ممَّا ينفعُهُ ويضرُّهُ منها في الأوقاتِ ، ثم رأىٰ ذلكَ العملَ منها عن تسخيرٍ ، ثم يرىٰ نفسَهُ صاحبةَ التدبيرِ ، وهو تحتَ ما يبدو مِنَ المسخَّرِ مقهورٌ . . أيقنَ بمَنْ سخَّرَها ، ورفعَ السماءَ فقدَّرَها ، وبسطَ الأرضَ ففطرَها ، تباركَ مِنْ صانعٍ عَلِيٍّ عنِ الأشكالِ ، ومبدعٍ غنيٍّ عنِ المثالِ .

[طُرُقُ الرضا بقسمةِ الحكيمِ العليمِ]

فإذا عرفَ اللهَ جلَّ جلالُهُ وقدرتَهُ علىٰ ما خَلَقَ ، وحكمتَهُ فيما رَتَقَ وفَتَقَ[2] . . رضيَ بالقسمةِ مِنْ طُرُقٍ أربعةٍ : معرفةِ أصلِ الوجودِ ، ومعرفةِ حالِ الوجودِ ، ومعرفةِ النفعِ فيما فاتَ ، ومعرفةِ العوضِ على الآفاتِ .

لأنَّ العبدَ ما بقيَ وإنْ حُرِمَ المواهبَ ، وأحاطَتْ بهِ المصائبُ . . فنَفْسُ

---

(١) أي : العناصر الأربعة لبني آدم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يقال : رَتَقَ الفتقَ ؛ إذا سدَّهُ ، وقال الحكيم العليم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٣/ ٣٩٠) : (المعنىٰ : كانت السماوات سماء واحدة مُرْتَتِقَةً ليس فيها ماء ، ففتق الله السماء فجعلها سبعاً ، وجعل الأرض سبع أرضين ، وجاء في التفسير : أن السماء فُتِقَتْ بالمطر ، والأرضَ بالنبات ، ويدلُّ علىٰ أنه يُراد بفتقها كونُ المطر فيها . . قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ، وقيل : « رتقاً » ولم يُقَل : « رتقينِ » ؛ لأن الرتق مصدر ، المعنىٰ : كانتا ذواتَيْ رتقٍ ، فجُعِلَتا ذواتَيْ فتق) .

الوجودِ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، وإحسانٌ لا يماثلُهُ ما سواهُ إليهِ[1] ، وما لهُ فيما حُرِمَ مِنْ حقٍّ[2] ، فلزمَهُ الشكرُ متىٰ نظرَ بالصدقِ .

ثم تمكينُهُ مِنِ استدامةِ الحياةِ في حالِهِ[3] ، أعزُّ وأنفسُ ممَّا حُرِمَ مِنْ صحَّتِهِ ومالِهِ ، فالموجودُ موجودٌ بإحسانٍ مِنَ اللهِ وفضْلٍ ، والمعدومُ معدومٌ مِنْ طريقِ العدلِ ، والعدلُ مرضيٌّ ، والفضْلُ مشكورٌ ، فقَدْرُ الباقي مِنَ المحبوبِ أصلٌ ووجودُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ إكرامٌ ، وقَدْرُ الفائتِ فرعٌ ونقصانٌ مِنَ الإنعامِ[4] ، والمكرِمُ علىٰ ما أكرمَ مشكورٌ بثناءٍ ، وفيما حَرَمَ مسؤولٌ بدعاءٍ ، فإذا عرفَ الحالَ وإنِ انكشفَتْ أَهَلَّ للهِ تعالىٰ شُكْراً[5] ، ولم يحتجْ إلىٰ تجرُّعِ الغُصَصِ صَبْراً[6] .

(١) وهـٰذا أوَّل الطرق الأربعة من طُرُق الرضا بالقسمة ، ثم محبةُ الإنسان لوجودِهِ فطرةٌ مركوزة فيه ، لا ينزعها منه إلا الخبل ، والبلايا والرزايا مهما عظمَتْ هي دون العدم ، بل محبةُ العبد لمولاه أسُّها استنادُ وجوده لوجوده ؛ حتىٰ قال الحجة الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٣٨٩) : (إن كان حبُّ الإنسان نفسَهُ ضرورياً . . فحبُّهُ لمن به قِوامه أوَّلاً ودوامُهُ ثانياً ؛ في أصله وصفاته ، وظاهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه . . أيضاً ضروريٌّ إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هـٰذا الحبِّ فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته ، وذَهَلَ عن ربه وخالقه ، فلم يعرفه حقَّ معرفته) .

(٢) إذ لا يجب على الله تعالىٰ شيء ، فهو سبحانه الذي يقضي ولا يُقضىٰ عليه ، وله الحكم لا حكمَ لسواه .

(٣) هـٰذا الطريق الثاني من طُرُقِ الرضا بالقسمة .

(٤) إذ المتأمِّل يرىٰ أن الإنعامَ بالإمداد بعد الإيجاد قاعدةٌ والحرمانَ استثناءٌ ، والصحة أصلٌ والمرضَ عارضٌ ، والمباح كثيرٌ والمحرَّمَ قليل ، ولـٰكنَّ الغفلة والجحود غلبا علىٰ بني آدم .

(٥) **الحال هنا** : هو الزيادة والنقصان ، وفاعل (انكشفت) هو النعم . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٦) قال الإمام ابن عطاء الله الإسكندري في « حكمه » كما في « التنبيه » (ص٤٥٦) : (متىٰ =

ثم يعرفُ الفائتةَ منهُ ممَّا تحبُّهُ الطباعُ والنفوسُ[1] ؛ مِنْ قوَّةِ البَدَنِ وصحَّتِهِ واعتدالِهِ ، وأهلِهِ ووُلْدِهِ ومالِهِ ، فيجدُها أعوانَ النفسِ على الروحِ ، ودعاةَ الدنيا سرّاً بلا تصريحٍ ؛ فإنَّ مَنْ صحَّ اعتدلَ ، ومَنِ اعتدلَ قَوِيَ ، ومَنْ قَوِيَ علا ، ومَنْ سَلِمَ أهلُهُ كَثُرَ وُلْدُهُ ، ومَنْ كَثُرَ مالُهُ وعددُهُ طغىٰ[2] ، ومَنْ علا وطغىٰ تركَ العبوديَّةَ ، وعصىٰ روحَهُ وأطاعَ نفسَهُ وهوَ العدوُّ المبينُ ، ومَنْ فقدَها خضعَ لضَعْفِ البدنِ والاعتلالِ ، وذلَّ بفقرِهِ عنِ الأهلِ والمالِ ، وقامَ في مقامِ العبيدِ ، فصارَ مطيعاً لروحِهِ وهوَ الأميرُ الأمينُ .

فإذا عرفَ الفائتَ وعرفَ ما فيهِ ؛ مِنِ انعزالِ عدوِّهِ عن ولايتِهِ ، واستيلاءِ أميرِهِ علىٰ رعيَّتِهِ[3] . . لم يرضَ مِنْ نفسِهِ بالرضا ، حتىٰ يفتحَ فاهُ بحُسْنِ الثناءِ على المولىٰ .

ثم ينظرُ بعدَ ذلكَ إلىٰ جميلِ ما وعدَ اللهُ تعالىٰ على الصبرِ عليها والرضا بها علىٰ خلافِ النفسِ بدلائلِ السمعِ والعقلِ[4] ، وتبشيرِ اللهِ إيَّاهُ بقولِهِ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ ١٥٧][5] ،

= أعطاك أشهدك برَّه ، ومتىٰ منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرِّف إليك ، ومقبلٌ بوجود لُطْفه عليك) .

(١) هـٰذا الطريق الثالث من طرق الرضا بالقسمة ، والضمير في (منه) راجع إلى المحبوب . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٢) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ـ ٧] ، والاستغناء : هو وجود الزيادة على الكفاية .

(٣) الأمير : الروح ، والرعيَّةُ : الجسم .

(٤) هـٰذا الطريق الرابع من طرق الرضا بالقسمة .

(٥) والآياتُ بتمامها : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ =

وجميلِ ما وعدَ اللهُ تعالىٰ لعبادِهِ علىٰ عبادتِهم ببذْلِ الطاعةِ لهُ في أوامرِهِ ونواهيهِ ؛ فإنَّ العوضَ أجملُ وأجزلُ علىٰ عبوديَّتِهم ببذْلِ الرضا لهُ فيما أمضاهُ ويمضيهِ ؛ فالقسمةُ قبلَ الأمرِ[١] ، والرضا فوقَ العملِ ؛ حتىٰ كانَ ترْكُ الرضا كفراً ، وتركُ العملِ فِسْقاً[٢] .

فإذا عرفَ جزيلَ العِوَضِ علىٰ ما ألمَّ بهِ استحلىٰ ذَواقَهُ ، وتمنَّى اعْتِناقَهُ[٣] ، حتى اصطبرَ العقلاءُ لكريهِ الأدويةِ ، واحتمَوْا عن لطيفِ الأغذيةِ ، مختارينَ لما في عاقبةِ الدواءِ ، مِنْ حُسْنِ الشفاءِ ، وقد قيلَ : (ما أَلِمَ مَنْ عَلِمَ ، ما نالَ فيما أَلِمَ) .

= ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ .

(١) أي : قسمة الحظوظ بين الخلق قبل أن ينزل الأمر والنهي بالوحي ، وهـٰذا ظاهر . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) ؛ أي : القسمة من الله تعالىٰ ثابتة قبل خطاب الشرع أمراً ونهياً ؛ إذْ إرادة الله تعالىٰ أزلية ، وتعلُّقاتُها قديمة تنجيزية ، محالٌ أن تتخلَّف ، وهـٰذا هو المعبَّر عنه شرعاً بالقضاء والقدر .

(٢) الرضا بالقضاء والقدر من حيث إثباتُ صفتي العلم والإرادة . . واجبٌ اعتقادي لا بدَّ منه ، وهو أحد أركان الإيمان الستة التي إنكار واحد منها كفرٌ ، أما عدم الرضا بالمقضيِّ والمقدَّر فمن أكبر المعاصي الاعتقادية ، ولا يلزم منه الكفر ؛ كترك العمل من العبادات بعد الإقرار بها ، وقال إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/٥٤٨) : (قال بعض السلف : لو قُرِضَ جسمي بالمقاريض لكان أحبَّ إلي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه : ليتَهُ لم يقضِهِ) .

(٣) وكان سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد كُفَّ بصره آخر عمره ، وفي « قوت القلوب » (٢/٤٣) : (قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام ، فتعرَّفت إليه ، فعرفني وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم ، فذكر قصة قال في آخرها : فقلت له : يا عمِّ ؛ أنت تدعو للناس ـ وكان مجابَ الدعوة ـ ، فلو دعوت لنفسك فرَدَّ الله عليك بصرك ! فتبسَّم ثم قال : يا بنيَّ ؛ قضاءُ الله عندي أحسنُ من بصري) .

أَلا يشكرُ عبدٌ ربّاً خلقَ الدنيا سجناً لابتلائِهِ ، والآخرةَ مُلْكاً لعطائِهِ ، ثم سلبَهُ أسبابَ المُقامِ أيامَ احتباسِهِ ، ثمَّ ابتلاهُ بالمكارهِ فيهِ ليفرَّ عنِ اقتباسِهِ ، ثم جازاهُ علىٰ جِدِّهِ في الفرارِ عنهُ ، وكراهيَةِ القرارِ فيهِ ؟!

فإنْ عَمِيَ عن هٰذهِ البواطنِ . . كيفَ عَمِيَ عن ثمرةِ سُخْطِهِ على القسَّامِ ؟![1] فإنَّهُ غيرُ رادٍّ شيئاً مِنَ الأحكامِ ، إلا زيادةً مِنْ حيثُ ضيقُ القلبِ على الآلامِ[2] ؛ فإنَّهُ أمرٌ موجودٌ يقيناً لا ينكرُهُ ذو بصرٍ فيتركَهُ ، فما اشتغلَ عاقلٌ قطُّ بزائدِ ضَرَرٍ ، ألم تسمعِ القائلَ يقولُ[3] : [من البسيط]

---

(١) القسَّام هنا : هو الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فقد قال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، والمراد : عدم الرضا بالقضاء والقدر .

(٢) أورد الأستاذ أبو منصور البغدادي ـ وهو عصريُّ المصنف ـ في « الأسماء والصفات » (٢/ ٣٢٤) ، والإمام الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص٤٦٤) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه معزِّياً الأشعثَ بن قيس بوفاة ولده : (إن صبرت مضىٰ أمرُ الله وأنت مأجور ، وإن جزعت مضىٰ أمرُ الله وأنت مأزور) ، ونظمه أبو تمام كما في « ديوانه » (٣/ ٢٥٩) فقال : [من الطويل]

وقال عليٌّ في التعازي لأشعثٍ وخافَ عليه بعضَ تلك المآثمِ
أتصبرُ للبلوىٰ عزاءً وحسبةً فتؤجرَ أم تسلو سُلُوَّ البهائمِ

(٣) قوله : (الدهر يخنق . . .) إلىٰ قوله : (مدَّتها) زيادة مفادة من هامش (ج ، هـ ، و) ، ويقال للقلادة : المِخْنَقَةُ ؛ لأنها تطيف بالعنق الذي هو موضع الخنق ، والخُناق : الضيق ، وداءٌ يمتنع معه نفوذ النَّفَس إلى الرئة ثم القلب ، وفي « مفيد العلوم ومبيد الهموم » (ص٢٩٠) نسبةُ البيتين لسيدنا علي رضي الله عنه ، والمعنىٰ : إذا شدَّ دهرُك قلادتَهُ علىٰ عنقك . . فحاذر من الضجر والشوب ـ الأوب والرجوع ـ لتنقلب لأوَّل أحوالك ؛ فإن ذلك لن يزيدك إلا خُناقاً وضيقاً ، بل أطرق رأسك واصبر ريثما تنقضي مدَّة البلاء التي لا رادَّ لها .

اَلـدَّهـرُ يَخْنُـقُ أحيـانـاً قِـلادتَـهُ   فإنْ خُنِقْتَ فلا تضجرْ ولا تَثِبِ
حتَّـىٰ يـوسِّعَهـا تـأخيـرُ مـدَّتِهـا   وقد يزيدُ خُناقاً كُلُّ مضطربِ

[صورُ الرضا بالقضاءِ والقدرِ]

فإذا ملأَ عينَ الرضا ، بالنظرِ في حُسْنِ القضا ، ورأى الإحسانَ منهُ إليهِ في كلِّ حكمٍ . . انقادَ لكلمتِهِ بوجوهٍ أربعةٍ[1] : الإقرارِ بالمُلكِ للهِ تعالىٰ ، والإقرارِ بالمُلكِ علىٰ نفسِهِ ، والإقرارِ بعلمِ الغيبِ للهِ ، والإقرارِ بجَهْلِ الغيبِ علىٰ نفسِهِ .

إذْ تحقيقُ المُلكِ للهِ تعالىٰ ينافي الاعتراضَ عليهِ ؛ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، وثبوتُ المُلكِ عليكَ مِنْ كلِّ وجهٍ يحجُرُكَ عنِ المحاجَّةِ ؛ كما انحجرَ عنها عبدُكَ فيما في يديكَ ، وكونُ اللهِ عالماً بالغيبِ معَ جهلِكَ دليلٌ علىٰ أنْ لا لَبْسَ على اللهِ ، وإنَّما التبسَتِ الحكمةُ عليكَ[2] ؛

---

(١) قوله : (لكلمته) ؛ أي : لأمره ونهيه . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) .

(٢) ومن وحشة التباس الحكمة ، وكفر النعمة : ما قال ابن الراوندي ـ كما في « معاهد التنصيص » (١٤٧/١) ـ :   (من البسيط)

كـم عـاقـلٍ عـاقـلٍ أعيَـتْ مـذاهبُـهُ   وجـاهـلٍ جـاهـلٍ تلقـاه مـرزوقـا
هـٰذا الـذي تـركَ الأوهـامَ حـائـرةً   وصيَّـرَ العـالـمَ النحـريـرَ زنـديقـا

وقد نسبَ الإمام ابن السبكي هـٰذين البيتين في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٢٣٢/٤) لأبي العلاء المعري ، ثم قال : فقبَّحَهُ الله ما أجرأه على الله عز وجل ! وقد أحسن الذي قال نقضاً عليه :

كـم عـاقـلٍ عـاقـلٍ أعيَـتْ مـذاهبُـهُ   وجـاهـلٍ جـاهـلٍ شبعـانَ رَيَّـانـا
هـٰذا الذي زادَ أهلَ الكفر لا سَلِمُوا   كفـراً وزاد أولـي الإيمـان إيقـانـا   =

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فإذا انقادَ لكلمتِهِ[١] ، موقناً بحكمتِهِ ، بعدَ ما عرفَ مِنْ نعمتِهِ . . رغبَ في طاعتِهِ بدعوةِ اللُّبِّ ، ومحبَّةِ القلبِ ، وتلذَّذَ فيها تلذُّذَ المَشْعُوفِ بالحُبِّ[٢] ، وقتَ الوصولِ إلى الحِبِّ[٣] ، بل إلىٰ حدٍّ لا مثالَ لهُ فيما سوى العبدِ والربِّ ، وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ : « وجُعلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاةِ »[٤] .

[صورُ طاعةِ الله تعالىٰ]

فالطاعةُ أقسامٌ أربعةٌ : الكفرُ بالنفسِ وأعوانِها ، ومخالفتُهم في اللهِ ، ودعوتُهم إلى اللهِ ، وأَسْرُ مَنْ قدرَ عليهِ منهم للهِ .

فهي أعمالٌ أربعةٌ ؛ فإذا كفرَ بالنفسِ لم يتَّخذْ إلـٰهَهُ هواهُ ، وإذا خالفَهُ لم

= انتهى النقل عن الإمام السبكي ، وروى القالي في « الأمالي » (٢/ ١٨١) عن الأصمعي : (من البسيط)

يا قلبُ إنك من أسماءَ مغرورُ ... فاذكرْ وهل يَنفعَنْك اليومَ تذكيرُ
تأتي أمورٌ فما تدري أَعاجِلُها ... خيرٌ لنفسك أم ما فيه تأخيرُ
فاستقدرِ اللهَ خيراً وارضيَنَّ به ... فبينما العسرُ إذ دارَتْ مياسيرُ
وبينما المرءُ في الأحياء مغتبطاً ... إذ صار في الرَّمْس تعفوه الأعاصيرُ
يبكي الغريبُ عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحيِّ مسرورُ

(١) في الطاعةِ أمراً ونهياً في الإنشاء ، والتصديقِ والرضا والطمأنينة والتسليم في الإخبار .
(٢) يقال : شعفَهُ الحُبُّ شَعَفاً ؛ أحرق قلبه ، وقيل : أمرضه ، وقرأ الحسن : (قد شعفها حُبّاً) ، وقد شُعِفَ بكذا ، علىٰ ما لم يُسمَّ فاعله ، فهو مشعوف . انظر « مختار الصحاح » (ش ع ف) .
(٣) الحِبُّ : المحبوب .
(٤) رواه النسائي (٧/ ٦١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

يعطِهِ مُناهُ ، وإذا دعاهُ إلى اللهِ تعالىٰ جاهدَهُ وعاداهُ ، وإذا أَسَرَهُ أَمِنَ في مَغْناهُ[١] .

وإذا لم يكنْ إلـٰهُهُ هواهُ . . كانَ اللهُ مولاهُ ، وإذا خالفَ هواهُ في أعمالِهِ . . أطاعَ اللهَ تعالىٰ بكلِّ أفعالِهِ .

فالإيمانُ بمنزلةِ شراءِ الجَنَّةِ بالنفسِ ، والطاعةُ بمنزلةِ إيفاءِ الثمنِ بلا بَخْسٍ ، والجهادُ بمعنىٰ تخليدِ الحياةِ واستعجالِ بعضِ الموعودِ بعدَ جوازِ الصراطِ .

أَمَّا الإيمانُ : فلقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١][٢] .

وأَمَّا الطاعةُ : فلأنَّ تمامَها بالاستقامةِ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وأَمَّا الجهادُ : فلقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ

---

(١) المغنىٰ : المنزلُ الذي غَنِيَ به أهله قبل الظعن .

(٢) وهـٰذه هي الصفقة الرابحة ؛ إذ ثمنُها الخلود في دار السعادة ؛ لـٰكن شريطة صحة العقد ، وإنما الآية نزلت ـ كما قال الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٧/ ٥٨٩) ـ في المخلص الصادق الباذل نفسه لله حقّاً ، قال : (هـٰذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة ، وحسنَ الصيت بالشجاعة ، فإن من هـٰذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هـٰذه الرتبة كما دلَّت عليه الأخبار) ؛ فقد روى البخاري (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرىٰ مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتلَ لتكونَ كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران : ١٦٩ـ ١٧٠] ، ثم يُبعثُ يومَ القيامةِ وعليهِ آثارُ الجهادِ ، مُشرَّفاً على كثيرٍ مِنَ العُبَّادِ ، يأتيهِ خِلَعُ المولىٰ ، وأنواعُ البشرىٰ ، حتى الرؤيةُ واللقاءُ ، إلىٰ مُلْكٍ وبقاءٍ ، وأنواعُ كرامةٍ ، والناسُ سُكارىٰ بأهوالِ القيامةِ .

[العبدُ المنصورُ خيرٌ مِنَ المقتولِ المعذورِ]

قالَ الأخُ : هـٰذا جزاءُ مَنْ قُتِلَ ، وأنتَ في بيانِ جزاءِ مَنْ ظَفِرَ !

قلنا : إنَّ الذي جاهدَ فظَفِرَ ، فوقَ الذي قُتِلَ فعُذِرَ ، فكانَ جزاءُ المعذورِ ، جزاءً للمنصورِ ، إلىٰ مزيدٍ إنْ شاءَ اللهُ وخيرٍ كثيرٍ .

وإنَّما مَثَلُ ذلكَ مَثَلُ مَلِكٍ مِنْ ملوكِ الأرضِ جهَّزَ عبداً لهُ إلىٰ عدوٍّ خرجَ في مملكتِهِ ، فكفرَ العبدُ بالعدوِّ وخالفَهُ[1] ، وقد خوَّفَهُ العدوُّ ومَنَّاهُ ، ثم دعاهُ إلىٰ مولاهُ فعصاهُ ، فغالبَهُ ومنعَهُ عن دعواهُ ، ثم عادَ بعدَ أَسْرِهِ ، إلىٰ مَلِكِهِ بأمرِهِ ، فأتاهُ ورسلُهُ يأتونَهُ بالمواعيدِ الجميلةِ[2] ، والبشاراتِ الجليلةِ ، كلَّما ازدادَ قُرْباً مِنَ الحضرةِ ازدادَ كرامةً ؛ جزاءً على الاستقامةِ ، حتىٰ بلغَ الحضرةَ ، فما وقفَ إلا قَدْرَ ما استُخْبِرَ عمَّا جرىٰ بأوجزِ عبارةٍ[3] ، ثم أُذِنَ لهُ بالدخولِ للِّقاءِ

---

(١) أما عبد الله المنصور في هـٰذا المثال فهو الروح ، والعبد الخارج المخذول هو النفس ، كذا يُفهم في كلام الإمام المصنف سابقاً ولاحقاً .

(٢) يعني : فأتىٰ هـٰذا العبد الطائع إلى الملك ورُسُلُ الملك يبشِّرونه برضاه وجوائزه السنية .

(٣) إشارة إلى العَرْضِ المذكور فيما رواه البخاري (٤٩٣٩) ، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس أحدٌ يُحاسَبُ إلا هلك » ، قالت : قلتُ : يا رسول الله ؛ جعلني الله فداءك ؛ أليس يقول الله عز وجل : ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق : ٧ـ ٨] ؟ قال : =

والزيارةِ ، ثم خرجَ إلىٰ خِلْعةٍ وإمارةٍ .

فكيفَ استجازَ العبدُ أنْ يكونَ معَ مَلِكِهِ ، دونَ عبدِ العبدِ معَ مالكِهِ ؟! وهـٰذا يخافُ الهُلْكَ ، قبلَ الوصولِ إلى الخِلْعةِ والمُلْكِ ، ويخافُ إنْ حَيِيَ علىٰ مالكِهِ الخُلْفَ والعجزَ ، وعبدُ اللهِ لا يظنُّ إلا القدرةَ والنُّجْزَ[1] ، ومَنْ هلكَ في جهادِهِ . . حَيِيَ ومَلَكَ جزيلَ ثوابِهِ ، وليسَ يلحقُ العبدَ فيما يُبتلىٰ بهِ مِنَ الجهادِ أكثرُ مِنَ الفناءِ[2] ، فما بالُهُ يخافُهُ وعندَهُ الوِلايةُ والبقاءُ ؟! يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

[خسرانُ مَنْ ملكتْهُ نفسُهُ]

أيا عبدُ ؛ نسيتَ مولاكَ ، وشايعْتَ مَنْ عاداهُ وعاداكَ ؟! أخبرْني وأنتَ الغافلُ عن جدواكَ ؛ أيُعتِقُكَ نفسُكَ عنِ الرقِّ[3] ؟ أم يُنقِذُكَ مِنَ الفقرِ ؟ أم يُطلِقُكَ عنِ الحَجْرِ ؟ أم يُخرِجُكَ مِنَ السجنِ ؟

فقالَ المغرورُ بحبائلِ الغرورِ : نعمْ ، أعتقَني فملكتُ العبيدَ ، وأَمَّرَني فجمعتُ الجنودَ ، واستوليتُ على الأرضِ ، واستويتُ علىٰ سريرِ المُلْكِ ، فلم يبقَ لي إلا واحدةٌ[4] ، ومَنِ الذي ينجو عنِ الهُلْكِ ؟!

= « ذاكِ العرضُ يُعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك » .

(١) النُّجْز : الوفاء بالوعد هنا .

(٢) يعني : فيما يظهر ، وإلا فيجب اعتقاد أن الشهيد حيٌّ بهيكله عند أهل الحقِّ ، وأن حياته حقيقية فيها أكلٌ وشربٌ ولباس ، وهي معالم الرزق ، وانظر « حاشية الأمير علىٰ إتحاف المريد » (٢/ ٥٢١) .

(٣) تقدم أن الإمام المصنف يذكِّر كلمة (النفس) .

(٤) يعني : الموت ، وهو الذي لا مفرَّ منه ، مفادٌ من هامش (هـ ، و) ، كأنه قال : بلغتُ الغاية في الملك ، وأما الموتُ فلا بدَّ منه .

[بيانُ المُلْكِ الحقيقيِّ]

فقلتُ : أضَلَلْتَ رأيَكَ جاهلاً أم عالماً ؟ وضَلَلْتَ في التيهِ مخطئاً أم عامداً ؟

أخبِرْني عن تفسيرِ المُلكِ ؛ فقدِ ادَّعيتَهُ لنفسِكَ بما آلَ إليهِ مآلُكَ ، وتقرَّرَتْ عليهِ حالُكَ .

فقالَ[1] : المُلْكُ : التحكُّمُ بما شاءَ المَلِكُ علىٰ قوَّةٍ واقتدارٍ ، بلا ممانعةِ صغيرٍ ، ولا معارضةِ كبيرٍ ، ولا مغالبةِ كثيرٍ ، حتىٰ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهم يُسألونَ .

فقلتُ : صدقْتَ ، أَوَأدركْتَ هـٰذهِ الجملةَ ، وبلغْتَ هـٰذهِ المنزلةَ ؟

فقالَ : نعمْ ، ذلَّتْ ليَ الصِّعابُ ، وخضعَتْ ليَ الرقابُ ، واتَّفقَتْ ليَ الأسبابُ ، وعبدَني الأربابُ ، فأنا اليومَ مطاعٌ ، علىٰ عزَّةٍ وامتناعٍ ، لا تُفزعُني عظيمةٌ ، ولا تُعجزُني عَضِيهةٌ[2] .

فقلتُ : أليسَ استوىٰ سلطانُكَ وعلا مكانُكَ بجنودِكَ ، وبأسِ عبيدِكَ ، لا تستغني عنهم ساعةً ؛ لاستدامةِ ما أنتَ عليهِ مِنَ الطاعةِ ؟! فأنتَ تطلبُ مهواهم ، وتنيلُهم مُناهم ؛ صدقاً برغبتِكَ فيهم ، والناسُ يطلبونَ رضاكَ ؛ إمَّا لخوفِهم إيَّاكَ ، أو طَمَعاً في جدواكَ ، فصارَ ما لزمَكَ مِنَ الطاعةِ أوفرَ ممَّا لزمَهم ؛ إذْ طاعتُهم لكَ بواسطةٍ منكَ ، وطاعتُكَ لهم بباعثةٍ فيكَ ، فكم بينَ لزومٍ بمعنىً في نفسِكَ ، ولزومٍ بمعنىً في غيرِكَ !

---

(١) المغرور . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٢) العَضِيهة : الإفك والبهتان ، والأمر العظيم .

ثم إنَّكَ تطيعُ مَنْ دونَكَ وإنَّهُ لمُرٌّ ، وإنَّهم يطيعونَ مَنْ فوقَهم وذلكَ يُسْرٌ[1] .

ثم إنَّكَ مضطرٌّ إلىٰ طاعتِهم ، فلن تكونَ علىٰ هـٰذهِ المنزلةِ دونَهم بحالٍ ، وطاعتَهم لكَ غيرُ ضروريَّةٍ ؛ لبقاءِ منزلتِهم في أنَّهم عبيدٌ فقراءُ مأمورونَ بلا والٍ ، غيرَ أنَّ طاعتَهم بأجسامِهم فظهرَتْ للعيونِ ، وطاعتَكَ بقلبِكَ فما شعرَتْ بذلكَ إلا النفوسُ ، وما يلزمُ القلبَ لَأَشدُّ ممَّا يلزمُ الجسمَ ؛ لكونِ الجسمِ تَبَعاً للقلبِ ، غيرَ أنَّ النفسَ الذي هوَ العدوُّ زيَّنَ لكَ حبَّ الظاهرِ[2] ، فعَمِيتَ بفَرْطِ المحبَّةِ عنِ العيبِ الباطنِ ، فجلسْتَ علىٰ سريرِ العبوديَّةِ للعبيدِ[3] ، ومكانَ ايتمارٍ للجنودِ ، وأحاطَتْ بقلبِكَ المكارهُ والآفاتُ ، وظننْتَ أنَّكَ مَلِكٌ هيهاتَ !

ولو وافقْتَ نفسَكَ في حالِكَ ، ورأيتَ احتكامَ الهمومِ والأوجالِ علىٰ بالِكَ[4] ، ومنازعاتِ الرعيَّةِ معَكَ بالشكايةِ والسؤالِ ، ومنازعاتِ سائرِ الملوكِ

---

(١) حتىٰ قال المتنبي : (من الوافر)

وما في سطوة الأربابِ عيبٌ ولا في ذِلَّة العُبْدانِ عارُ

انظر « ديوانه » (ص٤٠٤) .

(٢) تقدم أن الإمام المصنف يذكِّر كلمة (النفس) .

(٣) يعني : سريرُك الذي تجلس عليه .. ليس بسرير مُلْك ، بل هو سريرُ عبودية للعبيد الذين ظهر لك أنهم دونك ، ولم تبصر أنك خادمٌ لهم ولأهوائهم ، وقد روى الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ١٥٥) : أن هارون الرشيد قدم الرقَّةَ ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أمُّ ولدٍ لأمير المؤمنين من برجٍ من قصر الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هـٰذا ؟! قالوا : عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له : عبد الله بن المبارك ، فقالت : هـٰذا والله المُلْك ، لا مُلْكُ هارون الذي لا يجمع الناسَ إلا بشُرَطٍ وأعوان .

(٤) **الأوجال** : جمع وَجَل ؛ وهو الخوف . انتهىٰ من هامش (هـ) .

مِنْ أشكالِكَ بالغلبةِ والقتالِ . . لرأيتَ الأوجالَ والهمومَ[١] لا تُسأَلُ عمَّا تفعلُ بقلبِكَ وأنتَ مسؤولٌ ، ولرأيتَكَ تأكلُ مِنْ فضولِ الناسِ وقلبُكَ مأكولٌ .

دعْ هـٰذهِ ، فأخبِرْني عنِ الإمارةِ .

فقالَ[٢] : نَفاذُ الأمرِ ، بلا حَجْرٍ .

فقلتُ : وهل نفذَ أمرُكَ علىٰ رعيَّتِكَ إلا مِنْ طريقِ نفاذِ حُكْمِكَ ، ونفذَ ما نفذَ مِنْ أمورِ حاشيتِكَ مِنْ ذلكَ الطريقِ علىٰ قلبِكَ ؟! إلا أنَّ الرعيَّةَ لم يتسارعوا إلىٰ إرادتِكَ حتىٰ ألزمتَهم بأمرِكَ فظهرَ ، وتسارعْتَ أنتَ إلىٰ إراداتِ الحشمِ حباً لنفسِكَ فاستترَ[٣] ، فساويتَهم في الائتمارِ ، وإنَّما فَضَلْتَهم بالبِدارِ .

فتحاكمْ إلىٰ قلبِكَ ثمَّ انظرْ لمَنِ الإمارةُ ؟ فما يغني عن حقائقِ الأغراضِ حُسْنُ العبارةِ .

ما أنتَ إلا مأمورُ حَشَمِكَ ، والرعيَّةُ مأمورُ مَلِكِهم ، غيرَ أنَّ النفسَ لَبَّسَ عليكَ مقامَ الائتمارِ ، بمسارعتِكَ إلى الفعلِ قبلَ الأمرِ والإظهارِ[٤] ، فكنتَ

---

(١) لـٰكن سُكْرك بمُلْكك الزائلِ أعمىٰ بصيرتك ، ولم يسمح لك بأن تخطو خَطْوةً في هـٰذا النظر ؛ لأنك تعلم ما فيه من هزِّ مُلكك ، وثلِّ عرشك .

(٢) يعني : المغرور المذكور .

(٣) الحشم : خدمُ الرجل ، كلمة في معنى الجمع ولا واحدَ لها .

(٤) وهـٰذا عظيمُ الروم هرقل ، قد ملكَ الناسَ بإرضائهم ، وإنفاذِ أهوائهم ، فقد ظهرَ له الحقُّ حينما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعاية الإسلام ، فأراد اتباعه وهو يحفظ ملكه ، فراود رعيته ـ وكان حزَّاءً ؛ يتكهَّنُ لهم ـ عن ترك دينهم ، واتباع النبي الأمي عليه الصلاة والسلام ، وكان هرقل قد علم بمقتضىٰ حساب المنجِّمين أن نبيَّ آخر الزمان قد وُلد ، فقد روى البخاري (٧) خبره ، وفيه : (ثم كتب هرقل إلىٰ صاحب له برُومِيَةَ وكان نظيرَهُ في العلم ، وسار هرقلُ إلىٰ حمص ، فلم يَرِمْ حمصَ حتىٰ أتاه كتابٌ من صاحبه يوافقُ رأيَ =

أنتَ والرعيةُ بالائتمارِ مَرْعِيِّينَ ، آمِنِينَ في سِرْبِكم مَكْفِيِّينَ ، مُعافَيْنَ في أبدانِكم مَرْضِيِّينَ ، معَ ما لزمَ قلبَكَ دونَهم علىٰ صدرِ الإمارةِ أعباءُ الرعايةِ ، ولزمَ مالَكَ لجماعتِهم أثقالُ الكفايةِ ، وزالَ بدوامِ الخوفِ وتعبِ مناوأةِ الأشكالِ عن بدنِكَ العافيةُ ، ونطقَتْ مكانَ الرضا مِنْ كلِّ نادٍ ألسنةٌ شاكيةٌ[1] .

ثم دعْ هـٰذهِ ، فأخبِرْني عنِ المُلْكِ الذي بهِ يزولُ الفقرُ .

قالَ : إنَّهُ الخُلوصُ حقّاً لكَ باقتدارِكَ عليهِ، وانقطاعِ منازعةِ غيرِكَ إيَّاكَ فيهِ .

فقلتُ : نعم ، فهل خَلَصَتْ أموالُكَ حقّاً لكَ ، أم وَجَبَتْ حقوقُها في حفظِها واستنمائِها عليكَ ؟!

هل صارَتْ في يدِكَ باقتدارِكَ عليهِ ، أم بافتقارِكَ إليهِ ؟! فإنَّكَ قبلَ أنِ اقتدرْتَ عليهِ بالوصولِ افتقرْتَ إلىٰ سببِ التحصيلِ .

إنَّما أنتَ رجلٌ مَلَكَتْكَ أموالُكَ فبذلْتَ عمرَكَ لجمعِها ، وأسرتْكَ آمالُكَ فأتعبْتَ جسمَكَ في طَمَعِها .

= هرقل علىٰ خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبيٌّ ، فأذن هرقلُ لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص ، ثم أمرَ بأبوابها فغُلِّقت ، ثم اطَّلع فقال : يا معشرَ الروم ؛ هل لكم في الفلاح والرُّشْد ، وأن يثبت ملكُكم ، فتبايعوا هـٰذا النبيَّ ؟ فحاصوا حيصةَ حُمُرِ الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غُلِّقَت ، فلما رأىٰ هرقلُ نَفْرَتَهم ، وأيسَ من الإيمان.. قال : ردُّوهم عليَّ ، وقال : إني قلتُ مقالتي آنفاً أختبرُ بها شدَّتكم علىٰ دينكم ، فقد رأيتُ ، فسجدوا له ، ورضوا عنه ، فكان ذلك آخرَ شأن هرقل) ، فهـٰذا هو الملك الزائف ، الذي فيه كلام الإمام المصنف الآنف ؛ مُلْكٌ في الظاهر ، وعبودية للعبيد في الباطن ، وما أحسنَهُ من خبر في بيان ما نحن فيه !

(١) وصدق من قال : (من الرمل)

إن نصفَ النـاس أعـداءٌ لمـن ... ولـيَ الأحكـامَ هـٰذا إن عَـدَلْ

أخبِرْني عنِ ابتداءِ نُشوئِكَ إلى اليومِ ؛ أمالُكَ علىٰ زيادةٍ أم عمرُكَ ؟

بلِ انتقصَ العمرُ وازدادَ المالُ ، فما أنتَ إذاً إلا مملوكُهُ علىٰ كلِّ حالٍ ، غيرَ أنَّكَ خَدِيعُ النفسِ ؛ تُعجِّلُ للمالِ منفعتَكَ مدَّةَ أجلِكَ ؛ طمعاً في نيلِ منافعِ المالِ مدَّةَ أَمَلِكَ .

تنبَّهْ ؛ فإنَّهُ غرورٌ ؛ فمدَّةُ الأملِ بعدَ الأجلِ بكثيرٍ[1] .

ثم دعْ هٰذهِ ، فأخبِرْني عنِ العتقِ .

فقالَ : قوَّةٌ في الذاتِ حتىٰ يقدرَ بها علىٰ مرادِهِ وأمرِهِ ؛ مِنْ قولِنا : عَتَقَ الطيرُ ؛ إذا طارَ عن وَكْرِهِ ، وعِتاقُ الطيرِ : الجوارحُ منها[2] .

فقلتُ : صدقتَ ، أقدرْتَ بما رأيتَ لنفسِكَ مِنْ عَتاقٍ ، وتبسُّطٍ وانطلاقٍ . . علىٰ تقييدِ غرضٍ أو إطلاقٍ ؟!

فلا تَكْذِبَنَّ ؛ فقد بيَّنَّا أنَّكَ مملوكُ أموالِكَ إنْ قلتَ : استغنيتُ ، وعبدُ عبيدِكَ إنْ قلتَ : استوليتُ ، فما ازددتَ بما توهَّمْتَ إلا رِقّاً ، ولعمري ؛ إنْ بَعُدَ عنِ المنزلِ الضالُّ فالخَبَبُ إليهِ كانَ حقّاً[3] .

---

(١) فنَهَمُ الأمل لا تشبعُهُ الدنيا ، روىٰ مسلم (١٠٤٨) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « لو كان لابن آدم واديانِ من مالٍ لابتغىٰ وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا الترابُ ، ويتوبُ الله علىٰ من تاب » .

(٢) تقدم هٰذا التوصيف (ص٩٦) .

(٣) لأن الضالَّ من سار إلىٰ غير جهة منزله هنا ، والخَبَبُ : ضربٌ من العَدْوِ في خَطَوات فسيحة ، والضالُّ في رأيه كلَّما صمَّم علىٰ رأيه وظنَّ أنه علىٰ حقٍّ ، وماروىٰ في تزييف قول غيره . . ازداد ابتعاداً عن الحقِّ ، فاعترافُهُ بخطئه ، والمسارعة في توبته ورجعته . . من أوجب الواجبات عليه .

أخبِرْني أيُّها المخدوعُ المصروعُ[1] ؛ عن صعلوكٍ أرادَ أمراً ممَّا تهواهُ النفوسُ ؛ مِنْ مغالبةٍ أو أخْذٍ ، أو سفرٍ أو لهْوٍ ، أهو أقدرُ أمِ الذي كثُرَتْ حواشيهِ ، وعمَّتْ مواشيهِ ، ولزمَهُ النظرُ فيما يذرُهُ ويأتيهِ ؛ ليومِهِ وغدِهِ ، وأهلِهِ ومالِهِ ووَلَدِهِ ؟

بلِ الصعلوكُ[2] ، فدعْ إذاً ألقابَ الأغنياءِ والملوكِ ، فالاسمُ بلا معنىً ، فاسدٌ مِنَ الدعوىٰ[3] ، وكنتَ إذا حقَّقْتَ النظرَ فيهِ كمَنْ نحتَ حَجَراً فسمَّاهُ إلـٰهاً ، وسمعَ لهُ قاهاً[4] .

فقالَ : كأنَّكَ فيما تُحقِّقُ مِنَ الأمرِ بالعقولِ ، رادٌّ للشرائعِ والرسولِ ، فقد عرفْنا الأملاكَ بالكتابِ[5] ، كما عرفْنا الأسبابَ ، ولنا فيها تصرُّفٌ نافذٌ ، وأمرٌ جائزٌ .

---

(١) المصروع : المصاب بالصَّرْع ؛ وهو داءٌ يشبه الجنون .

(٢) يعني : بل الصعلوك أقدرُ عند من تأمَّل .

(٣) ولابن رشيق القيرواني في دولة بني عباد : (من البسيط)

مما يـزهِّـدنـي فـي أرض أنـدلـسٍ تلقيـبُ معتضـدٍ فيهـا ومعتمـدِ
ألقـابُ مملكـة فـي غيـر مـوضعهـا كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ

انظر « ديوانه » (ص٥٩) .

(٤) القاهُ : الطاعة والاستماع ، وأنشد الجوهري في « الصحاح » (ق وهـ) : [من مشطور الرجز]

تـاللهِ لـولا النـارُ أن نصـلاهـا
أو يـدعـوَ النـاسُ علينـا اللهَ
لَمَـا سمعنـا لـلأميـر قـاهـا

(٥) الأملاك : جمع مِلْك ، اسم لمصدر ملكته مَلْكاً ، أراد : أنها ثابتةٌ بوجود الكتاب ، وهـٰذا كثبوتها عند تعاطيها بالأسباب ؛ كالبيع والإرث والوصية والهبة والصدقة وغير ذلك .

فقلتُ : قبلَ تحقيقي لكَ الأمرَ فيهِ علىٰ وجههِ(١) ، أستدلُّ بما استدلَلْتَ علىٰ المِلْكِ علىٰ فقدِهِ(٢) ؛ فإنَّ تصرُّفَكَ في أملاكِكَ كلِّها متردِّدٌ بينَ جائزٍ مأمورٍ بهِ ، وفاسدٍ منهيٍّ عنهُ ، وما هـٰذا علامةَ المِلْكِ والقهرِ ، ولـٰكنَّهُ علامةُ الإذنِ على الفقرِ(٣) .

غيرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَكَ للابتلاءِ مدَّةَ بقائِكَ ، وقرنَ بقاءَكَ بغذائِكَ ، وخلقَ ممَّا في الأرضِ متعةً لكَ إلىٰ وقتِ انقضائِكَ ، فقسمَ لكلِّ عبدٍ نصيباً كي لا يتغالبوا فيتفانَوا ، وجعلَ عليهم مِنْ أصلحِهم قَيِّماً ؛ وهو السلطانُ ، وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ : « السلطانُ ظلُّ اللهِ في الأرضِ »(٤) ؛ إذْ بالظلِّ الاتقاءُ عن حريقِ الشمسِ ، وبالسلطانِ الاتقاءُ عن حريقِ البأْسِ .

فهم يتمتَّعونَ بالأنصباءِ عن يدِ القيِّمِ أحوالَ طفولتِهم وصغرِهم(٥) ، فإذا عَقَلوا سُلِّمَتْ إليهمُ الأنصباءُ بحقِّ الإذْنِ في التجارةِ دونَ إثباتِ المِلْكِ ، فإذا بلغوا وكَمَلَتِ الحالةُ ضُرِبَتْ عليهمُ الضرائبُ للمولىٰ ، وخُوطبوا بأدائِها في مدَّةِ

---

(١) الضمير في (فيه) راجع إلى الشرع المفهوم من قوله : (للشرائع والرسول) .

(٢) يعني : علىٰ فقْدِ المِلْك .

(٣) أراد : أن تردُّد وصف التصرُّف في المال كيف كان بين صحة وفساد وكراهة . . دليلٌ علىٰ أنك في مالِكَ مستخلَفٌ فيه ، وفي العبارة توطئة للكتاب بعده .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٥٣٨٣) ، والبيهقي في « الجامع لشعب الإيمان » (٦٩٨٤) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وتمامه : « يأوي إليه كلُّ مظلوم من عباده ، فإذا عدل كان له الأجر ، وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإصر ، وعلى الرعية الصبر ، وإذا جارت الولاة قحطت السماء ، وإذا مُنعت الزكاة هلكت المواشي ، وإذا ظهر الزنىٰ ظهر الفقر والمسكنة ، وإذا خُفرت الذمة أُديل الكفَّار » .

(٥) يعني : العبيد في صغرهم يرعاهم القيم ـ والذي هو السلطان في كلامه ـ إلىٰ حين أن يرشدوا ، فلا تفوتهم أنصباؤهم ولو كانوا صغاراً .

الحياةِ ليُعتَقُوا إذا أدَّوا ، وسُلِّمَتْ إليهم للحالِ الأنصباءُ بحقِّ الإذنِ تسليمَ يدٍ ؛ ليُتصوَّرَ الأداءُ بحكمِ تباينِ الأيدي ، وإنْ لم يكنْ في الحقيقةِ مِلْكاً للمؤدِّي ، حتىٰ لو لم يملكوا مِنْ أملاكِهم إلا بقَدْرِ ما فَكَّ اللهُ تعالى الحَجْرَ عنهم بالعقدِ .

ثم أُوضِحُ عليكَ ذلكَ بعبيدٍ لكَ صغارٍ[1] ، تفرَّسْتَ فيهمُ الخيرَ ، فقصدتَ ابتلاءَهم لتُعتِقَهم إظهاراً لكرمِكَ وفضلِكَ ، فأفرزْتَ لكلِّ عبدٍ مِنْ مالِكَ ما يكفيهِ ، وسلَّمْتَ الأنصباءَ إلىٰ قيِّمٍ عليهم ، فلمَّا عَقَلوا أذنتَ لهم في التجارةِ في تلكَ الأنصباءِ ، فلمَّا ظهرَ رشدُهم وصلاحُهم لتحمُّلِ الضرائبِ . كاتبتَهم علىٰ مالٍ معلومٍ وأجلٍ ممدودٍ ، وتركتَ الأنصباءَ عليهم ؛ إحساناً منكَ إليهم ، فتصرَّفوا بقَدْرِ ما انفكَّ الحَجْرُ عنهم كأنَّهم مالكونَ وليسوا إلا عبيداً ، وإنَّما يتحقَّقُ ذلكَ يومَ ينقضي الأجلُ قبلَ الأداءِ ، وما عندَهم بعدَ حلولِ الأجلِ مِنْ وفاءٍ .

إلا أنَّ كتابتَنا توجبُ عندَ الأداءِ عَتاقَ الذاتِ ، وأداءَ فرائضِ اللهِ توجبُ عَتاقاً في حقِّ الصفاتِ[2] .

ثمَّ اللهُ تعالىٰ بحُكْمِهِ على المنكرينَ لعبوديَّتِهِ ، المدَّعينَ لحرِّيَّتِهم بالرِّقِّ عليهم للعبيدِ المقرِّينَ بربوبيَّتِهِ . أبانَ لكلِّ عاقلٍ أنَّ مدَّعيَ الحرِّيَّةِ جالبٌ لنفسِهِ

---

(١) أوضحُ : أبيِّنُ ، وهو يتعدىٰ بنفسه أو بـ (عن) .

(٢) إذ عبوديتُنا لمولانا سبحانه وتعالىٰ وصفٌ ذاتيٌّ لنا لا يقبل الانفكاك عقلاً ولا شرعاً ، وهـٰذا المعنىٰ ناجىٰ به سيدنا موسىٰ ـ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ربَّهُ حينما قال فيما حكاه المولىٰ سبحانه عنه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ، وقد أحسن وصدق من قال مناجياً مولاه العلي العظيم : (من البسيط)

إنـي إليـك مـع الأنفـاسِ محتـاجُ   لو كان في مَفْرِقي الإكليل والتاجُ

رِقّاً ، وملتزمٌ بما أنكرَ مِنْ حقِّ اللهِ لعبيدِهِ حقّاً .

فالخلقُ كلُّهم عبيدُ اللهِ تعالىٰ ؛ فمَنْ آمنَ بهِ كُتبَتْ حقوقُهُ عليهِ ، وتعلَّقَ عتقُهُ بأدائِها نُجوماً في حياتِهِ إلىٰ حينِ انقضائِها[1] ، لـٰكنْ بفضْلِ اللهِ أوجبَتْهُ حكمتُهُ[2] ، لا بحقِّ العبدِ أوجبَتْهُ عبادتُهُ .

ومَنْ كفرَ بهِ وفسخَ العقدَ ورَدَّ الكتابَ. . بقيَ عبداً تحتَ الأمرِ ، وازدادَ عليهِ القهرُ ؛ فالمولىٰ قاهرٌ لا يفوتُهُ الآبقُ ، ولا يغلبُهُ الغاصبُ ، وإنَّما أمهلَهم ساعةً تأكيداً للأمرِ ، وقطعاً للعذرِ[3] ، حتىٰ إذا مضىٰ مَهَلُ التداركِ. . رُدُّوا إلى المهالكِ ؛ ليذوقوا وبالَ أمرِهم ، ويأخذوا جزاءَ كفرِهم .

---

(١) النجوم : جمع نَجْمٍ ؛ وهو الوقت المضروب لأداء حصة من المال مثلاً ؛ يقال : نُجِّمَ الدَّيْنُ ؛ إذا أُدِّيَ حصصاً علىٰ أوقات مضروبة .

(٢) إذ قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، ومن حديث رواه البخاري (٥٩٦٧) ، ومسلم (٣٠) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم قال له : « هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » ـ يعني : إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً ـ ، ثم قال : « ألَّا يعذِّبَهم » ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٨/ ٤٨٨) : (قوله : « حقُّ العباد على الله » هو من باب المشاكلة ، وهو نوع من أنواع البديع الذي يُحسِّنُ به الكلام ، أو المراد به : أنه حقٌّ شرعي ، لا واجبٌ بالعقل كما تقول المعتزلة ، وكأنه لمَّا وعد به ـ ووعدُهُ الصدق ـ صار حقّاً من هـٰذه الجهة) .

(٣) كما قال من له الأمر كله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ ـ ٥٦] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] .

[مناجاةٌ وضراعةٌ]

نسألُ اللهَ المولى الأعلى الذي مَنَّ علينا فخلقَنا عبيداً لهُ لعبادتِهِ ، ثم أوجبَ لنا العتقَ بأداءِ أمانتِهِ . . أنْ يحسِنَ إلينا بالإعانةِ على الأداءِ ؛ كما أعانَ مكاتبِينا فجعلَ لهم سَهْماً مفروضاً في أموالِ الأغنياءِ ، ثم يحسِنَ بالحطِّ والعفْوِ إلينا ؛ كما أمرَنا بالحطِّ عن مكاتبِينا ، فما نظنُّ اللهَ تعالىٰ أمرَنا بالحطِّ معَ حاجتِنا إليهِ وبُخْلِنا بمثلِهِ . . إلا تأميلاً إيَّانا في كرمِهِ لحطِّ كثيرٍ عمَّا ألزمَنا مِنْ قَسْمِهِ ، فهوَ الجوادُ الذي لا يُوصفُ ببخلٍ(١) ، والغنيُّ الذي لا يمسُّهُ فقرٌ(٢) ، ولم يجعلِ

---

(١) إذ كيف يوصف بهـٰذا وهو ربُّ العالمين ؟! ولـٰكن حكمته تعالى اقتضت وجود الغني والفقير ، والأمير والحقير ، وتفاوتت المعايش لتجري عجلةُ الكون ؛ قال العزيز الحكيم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] .

وهـٰذا رسوله صلى الله عليه وسلم ـ والرسول دلَّالٌ بوصفه على المُرْسِل ـ مقفلَهُ من حنينٍ ومعه الناس . . قد علقه الناس يسألونه ، حتى اضطرُّوه إلىٰ سَمُرةٍ فخطِفَتْ رداءه ، فوقف عليه الصلاة والسلام فقال ـ كما روى البخاري (٢٨٢١) من حديث سيدنا جبير بن مطعم رضي الله عنه ـ : « أعطوني ردائي ، لو كان لي عددُ هـٰذه العِضاهِ نَعَماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » .

(٢) قال الغنيُّ عن العالمين : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وهـٰؤلاء المفترون ـ وكانوا من رؤساء أهل الكتاب ـ جهلوا ربَّهم ، وأساؤوا الظنَّ به ، وذلك لمَّا نزل قوله تعالىٰ وجلَّ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وهـٰذا القول من تلبيساتهم علىٰ عامَّتهم ، ولذلك قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (١/ ٤٩٤) : (قالوا : نرىٰ أن إلـٰه محمد يستقرض منَّا ، فنحن إذاً أغنياءُ ، وهو فقير ، وقالوا هـٰذا تلبيساً علىٰ ضعفتهم ، وهم يعلمون أن الله عز وجل لا يستقرض من عَوَزٍ ، =

الإبراءَ طريقَ العِتْقِ كالأداءِ . . إلا ليُعْلِمَنا بحُكْمِهِ فينا لمَنْ شاءَ ؛ فيمَنْ تمسَّكَ بالعقدِ وأعرضَ عنِ الأداءِ الواجبِ عليهِ ، مرتكباً ما دعَتْهُ نفسُهُ إليهِ .

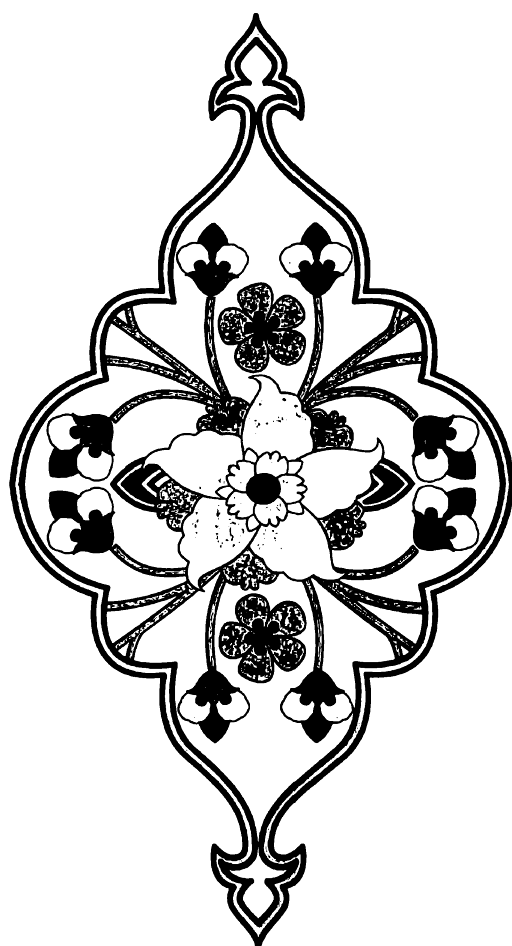
تباركَتْ أسماؤُهُ ، وتظاهرَتْ نعماؤُهُ ، والحمدُ لهُ على كلِّ ما أبدىٰ مِنْ نعمةٍ ، أو أخفىٰ مِنْ حكمةٍ ، والصلاةُ علىٰ مَنْ نزلَتْ عليهِ هٰذهِ المواهبُ ، وخَفَّتْ بسببِهِ الضرائبُ(١) ، وعلىٰ آلِهِ الطاهرينَ ، وعبادِ اللهِ الصالحينَ .



= ولٰكنه يبلو الأخيار ، فهم يعلمون أن الله سمَّى الإعطاء والصدقة قرضاً) ، وفي هامش (ب ، هـ ، و) نسخة : (لا يعتريه حاجة) بدل (لا يمسُّهُ فقر) .

(١) إشارةٌ إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

[كِتَابُ
الفَقْرِ]



كتاب الفقر

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدتُ مَنْ ألزمَ العبادَ في الدنيا صفةَ الفقرِ إلزاماً(١) ، مَنْ أنكرَهُ وسعىٰ للغَناءِ لم يزددْ إلا فقراً وإعداماً(٢) ، ثم وعدَ لهم كفايتَهم بأسبابٍ ظاهرةٍ ضَماناً ، مَنْ وَثِقَ بهِ جاءَتْهُ الكفايةُ بغيرِ سببٍ إيقاناً(٣) .

وصلَّيْتُ علىٰ رسولٍ عرفَ الحُكْمَ صدقاً ، والوعدَ حقّاً(٤) ، فاختارَ الفقرَ

---

(١) في (ج ، د ، هـ ، ز) ، ونسخة في هامش (و) : (الحمدُ لمن) بدل (حمدتُ مَنْ) ، والفقر هنا : الحاجة ، وهو وصفٌ لا ينفكُّ عنه غني ولا فقير في الدنيا ، وهـٰذا دون الافتقار الدائم اللازم للخلق .

(٢) يقال : أعدمَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ أي : أفقره ، ويقال : أعدَمَ الرجلُ إعداماً وعُدْماً ؛ إذا افتقر .

(٣) لأنه عزَّ وجلَّ لم يجعل بين الرزق والسبب لزوماً ، بل اتخاذُ السبب تعتريه الأحكامُ الخمسة ، والرزَّاقُ هو الله تعالىٰ ، لا السببُ ، ولذلك قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٢٧٢) : (إن كان مشغولَ القلب بالله تعالىٰ ، غيرَ مستشرفٍ إلى الناس ، ولا متطلِّعٍ إلىٰ مَنْ يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلُّعُهُ إلىٰ فضل الله تعالىٰ ، واشتغاله بالله . . فهو أفضل ، وهو من مقامات التوكل ، وهو أن يشتغل بالله تعالىٰ ولا يهتمَّ برزقه ؛ فإن الرزق يأتيه لا محالة ، وعند هـٰذا يصحُّ ما قاله بعضُ العلماء ؛ وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه ؛ كما لو هرب من الموت لأدركه ، وأنه لو سأل الله تعالىٰ ألا يرزقه لَمَا استجاب له وكان عاصياً ، ولقال له : يا جاهلُ ؛ كيف أخلقك ولا أرزقك ؟!) ، وليحذر البطَّال من هـٰذا الكلام ؛ إذ هو مقامٌ عزيز رُوَّادُهُ أعزُّ من بيض الأَنُوق ، وأبعدُ من العَيُّوق .

(٤) إشارةٌ إلىٰ ما رواه الترمذي (٢٣٤٤) وقال : (حديث حسن صحيح) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٨٠٥) ، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه =

وقد خُيِّرَ(١) ، وأصابَ الكفايةَ وما قُدِّرَ(٢) ، وما على العبدِ إلا الانقيادُ لحُكْمِ ربِّهِ ، والاقتداءُ بالرسولِ في سَمْتِهِ(٣) .

غيرَ أنَّ الانقيادَ وإنْ لزمَ العبدَ إسلاماً . . فما يَهونُ إلا إذا عرفَ مِنَ الحُكْمِ حِكْمتَهُ ، وعرفَ مِنْ سَمْتِ صاحبِ الشرعِ معناهُ وحقيقتَهُ ، وعليَّ بيانُ ذلكَ أيُّها الأخُ بتوفيقٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، هداني اللهُ وإيَّاكَ ، إلىٰ ما عَنَاني مِنْ أمورِ دِيني وعَنَاكَ(٤) .

= مرفوعاً : « لو أنكم كنتم توكَّلون على الله حقَّ توكله . . لرُزِقتُم كما يُرزق الطيرُ ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بِطاناً » .

(١) إشارةٌ لما رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦٧١٠) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما يحدِّثُ : أن الله تبارك وتعالىٰ أرسل إلىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم مَلَكاً من الملائكة ومعه جبريل ، فقال المَلَكُ : إن الله يخيِّرُك بين أن تكون عبداً نبيّاً ، وبين أن تكون مَلِكاً ، فالتفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ جبريل كالمستشير ، فأشار جبريل بيده : أن تواضعْ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل أكون عبداً نبيّاً » ، قال : فما أكل بعد تلك الكلمة طعاماً متكئاً .

(٢) إشارةٌ إلىٰ ما رواه الترمذي (٢٣٤٧) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « عرضَ عليَّ ربِّي ليجعل لي بطحاءَ مكةَ ذهباً ، قلت : لا يا ربِّ ؛ ولـٰكن أشبع يوماً وأجوعُ يوماً ـ وقال : ثلاثاً ، أو نحوَ هـٰذا ـ ، فإذا جُعت تضرَّعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك » ، وقوله : (وما قُدِّر) ؛ أي : وما ضُيِّق . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

(٣) روى ابن عساكر عن محمد بن يزيد المبرِّد قال : قيل للحسن بن علي : إن أبا ذرٍّ يقول : الفقرُ أحبُّ إليَّ من الغنىٰ ، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرٍّ ، أما أنا أقول : من اتَّكلَ علىٰ حسنِ اختيار الله له لم يتمنَّ أنه في غير الحالةِ التي اختار اللهُ تعالىٰ له ، وهـٰذا حدُّ الوقوف على الرضا بما يصرِّفُ به القضاء .

(٤) في هامش (هـ ، و) من شعر محمود الوراق : (من الطويل)

أتـدمـنُ بُهتـانـاً وفُحْشـاً وغِيبـةً وتصبحُ من خوفِ العواقب آمنا =

[وجوهُ المحنِ المتعلِّقةِ بصفة الفقرِ اللازمِ]

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلقَكَ عبداً ألزمَكَ الفقرَ بناءً علىٰ صفةِ العبوديَّةِ علىٰ ما سبقَ القولُ فيهِ[1] ، وأُقيمَ الدليلُ عليهِ ، وابتلاكَ بأربعةٍ مِنْ وجوهِ المِحَنِ متعلِّقةٍ بهـٰذهِ الصفةِ : معرفةِ الغنيِّ ، والقناعةِ بما أُوتيَ ، وتركِ الفرحِ عليهِ مِلْكاً ، وتركِ الأسىٰ علىٰ ما فاتَهُ .

فهي وجوهٌ أربعةٌ[2] ؛ لأنَّ العبدَ معَ فقرِهِ مستغنٍ بما نالَ مِنَ الكفايةِ ، فكانَتْ نعمةً عليهِ مِنَ الغَنِيِّ[3] ، فلزمَهُ معرفتُهُ ، والقناعةُ بما أُوتيَ ؛ لأنَّهُ وإنْ قلَّ فنعمةٌ نالَها بغيرِ سببٍ سابقٍ منهُ ، ولا يفرحَ عليهِ فَرَحَ المَلِكِ ؛ لأنَّهُ فقيرٌ بسببِ العبوديَّةِ ؛ لا يملكُ على اللهِ تعالىٰ وإنْ آتاهُ ، ولا يأسىٰ إذا فاتَهُ ؛ لأنَّهُ لم يكنْ لهُ حينَ آتاهُ .

ثم معرفةُ الغنيِّ مِنْ طرقٍ أربعةٍ : النظرِ في حالِهِ قبلَ التسبُّبِ ، وفي حالِهِ بعدَ التسبُّبِ ، وفي حالِهِ بعدَ الإصابةِ ، وفي حالِهِ بعدَ الانتفاعِ بهِ .

فإنَّ مَنْ نظرَ في حالِهِ قبلَ انعقادِ سببِ المِلْكِ لهُ . عرفَ نفسَهُ فقيراً لا يملكُ شيئاً ، محتاجاً إلىٰ ما يربِّيهِ مِنْ أغذيةٍ[4] ، أو يشفيهِ مِنْ أدويةٍ ، وإلىٰ ما يصونُهُ

= وترضىٰ بصرَّافٍ وإن كان مشركاً ضميناً ولا ترضىٰ بربِّكَ ضامنا

(١) في هامش (هـ ، و) : (عبدٌ لا مشيئة لك) ، وانظر (ص٩٣) .

(٢) في (ز) وهامش (و) : (اثنان عبودية ؛ وهي معرفة الغني ، ومعرفة القناعة ، واثنان عبادة ؛ وهو ترك الفرح ، وترك الأسىٰ) ، وانظر ما تقدم (ص١٦٢) .

(٣) في هامش (و) : (الله تعالىٰ) .

(٤) أراد بالغذاء هنا : سببَ النماء والبقاء عادةً ، وإلا فالربُّ والمربِّي هو الله جلَّ شأنه كما سيذكر .

عنِ الآفاتِ مدَّةَ بقائِهِ[1] ، ثم وجدَهُ يصلُ إلىٰ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ لباسِهِ وغذائِهِ[2] ؛ علمَ أنَّهُ مِنْ مالِ غنيٍّ ، ضامنٍ لهُ ذلكَ مَلِيٍّ .

فنظرَ في أصولِهِ[3] ، فإذا هم في صفةِ الفقرِ علىٰ سبيلِهِ .

فنظرَ في البساطِ الممهَّدِ ، والبناءِ المشيَّدِ[4] ، فرأى الموجودَ منهما مِنْ مطرٍ أو نباتٍ علىٰ سبيلِ التسخيرِ ، بلا اختيارٍ لتقديرٍ[5] ؛ علمَ أنَّ الغنيَّ مَنْ خلقَ الأرضَ والسماءَ ، آلةً للإبداءِ والإنماءِ[6] ، ثم للإخفاءِ والإبلاءِ[7] .

---

(1) في هامش (و) : (مثل البيت يصونه عن الحرِّ والبرد) .

(2) الضمير فيما سبق راجع إلى النفس ، والمصنف يذكِّرُ هـٰذه اللفظة .

(3) في (ب ، و) زيادة : (أي : في الوالدينِ) ، وفي هامش (و) : (الوالدينِ الأب والأمّ) .

(4) البساط الممهَّد : الأرض ، والبناء المشيَّد : السماء .

(5) التقدير : الترويةُ ـ وروَّىٰ في الأمر ترويةً ؛ نظرَ فيه ـ والتفكيرُ في تسوية أمر . مفادٌ من هامش (هـ ، و) ، أراد : أن العلاقة بين المطر والنبات محالٌ أن تكون عن تدبيرِ سماء أو أرض ، بل كلُّ ذلك مسخَّرٌ بأمره ، مفتقر إلىٰ حكمته ، مستندٌ إلىٰ إرادته ، وعَمِيَ من أسنده إلىٰ جمادٍ لا يعقل ، أو إلىٰ طبيعة محتاجةٍ إلىٰ من يطبعُها ، قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

(6) قوله : (آلة) الأولىٰ حملُها علىٰ معنى المَظْهَرِ ؛ يعني : فيما يظهرُ لنا ، وإلا فقدرةُ الله تعالىٰ من غير علاج ، وجلَّ الغني عن الوسائط ، وقال العلامة المحقق محمد الأمير في « حاشيته علىٰ إتحاف المريد » (٢/ ٩٦) : (اعلم : أن خلق الله ليس بآلة ، خلافاً لقول ابن عربي : للعبد آلة ، والعبدُ آلةٌ لفعل الربِّ ، ذكره في ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ ؛ أي : إيجاداً ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [الأنفال : ١٧] كسباً ، فلا تناقض) .

(7) إذ بلاءُ التكليف في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ [الملك : ٢] ؛ أي : ليختبركم وهو العليم سبحانه . . لا يكون إلا بالغيب ، وتجلِّي اسمه (الباطن) سبحانه ، وإلا آمن كلُّ أحدٍ ، ولهـٰذا المعنىٰ قال جلَّ من حكيم عليم : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٢ـ ٣٣] ، وقال : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الحديد : ٢٥] ، جاء في « مفاتيح الغيب » (٢٩/ ٢٤٤) : (قال ابن عباس : ينصرونه =

ثم ينظرُ في حالِهِ بعدَ التسبُّبِ ـ وأصلُ السببِ : الاستخراجُ مِنَ الأرضِ ، وبهِ قِوامُ كلِّ أحدٍ ؛ فإنَّ التجارةَ للنقلِ مِنْ يدٍ إلىٰ يدٍ[1] ـ ، فلا يجدُ مِنْ نفسِهِ إلا سببَ الإتلافِ بتبذيرِ الحَبِّ وإخفائِهِ[2] ، والصلاحُ في إنباتِهِ وإنمائِهِ ، وذلكَ بطبائعَ هوائيَّةٍ تتَّصلُ بالأرضِ ، ما لأحدٍ عليها مِنْ يدٍ[3] ؛ علمَ أنَّهُ مِنْ مالكِ الأرضِ والسماءِ ، ومغيِّرِ أحوالِ الهواءِ .

ثم ينظرُ في حالِهِ بعدَ الإصابةِ ، فيجدُهُ لا ينتفعُ بهِ إلا بعدَ حاجتِهِ إليهِ ؛ مِنْ جوعٍ أو عطشٍ أو شَبَقٍ ، وتلكَ حوائجُ لا تثبتُ إلا بقوَّةِ طبائعِهِ[4] ، ويجدُ نفسَهُ

= ولا يبصرونه) ، وقال الخبير سبحانه : ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [المائدة : ٩٤] ، ومن هنا تعلم عظم ذنب بني إسرائيل لما قالوا فيما حكاه تعالىٰ عنهم : ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : ١٥٣] .

(١) يعني : التجارة وإن كانت واسعة الكسب ، إلا أنها ليست أصلَ التسبُّب ؛ فما هي إلا نقل ما تنتجه الأرض ؛ من قوت وفاكهة ، أو تضمُّه في باطنها ؛ من معدن وركاز وغير ذلك ، وبخيرية الزراعة وقع ضرب المثل في قوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .
وقال الإمام الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص٣٣٧) : (**أسباب الموادِّ المألوفة ، وجهات المكاسب المعروفة** . . من أربعة أوجه : نماءُ الزراعة ، ونِتاج الحيوان ، وربح التجارة ، وكسب الصناعة) .

(٢) **التبذير** : زرعُ الأرض بالبذور ، وبذَّر الحبَّ ـ بالتشديد ـ : فرَّقَهُ في الأرض ، **وإخفاء البذر** : أن يدسَّهُ الزارع تحت التراب ، ولهٰذا المعنىٰ سمَّتِ العرب الزارع كافراً ؛ إذ أصل الكَفْرِ الستر والتغطية .

(٣) **الطبائع** : جمع طَبْعٍ ؛ وهو ما يقع على الإنسان بغير إرادة منه ، ويأتي بمعنى الجبلَّة التي خُلِقَ عليها . انظر « التعريفات » (ص١١٩) ، فالقوم حينما يذكرون الطبائع لا يعنون أن لها تأثيراً ، بل هي في نفسها مطبوعة تنادي بوجود من يطبعها ، حتىٰ قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص١١٦) : (الطابع مقهور ، لا يقدر على الامتناع عمَّا طُبِعَ عليه) .

(٤) **غاية ما يراد بالطبع كما سبق : أنه يقع من غير إرادة من صاحبه ؛ فالجوع والعطش والشبق** ـ=

لا يملكُ مِنْ قوَّتِها شيئاً ، ثم بعدَ الحاجةِ لا يصلُ إلى الاستيفاءِ إلا بسلامةِ آلاتِ الاستعمالِ ، والسلامةُ مقرونةٌ بانعدامِ الآفاتِ ، ويجدُ نفسَهُ لا يملكُ مِنْ ردِّها شيئاً ، ثم يجدُهُ بعدَ سلامةِ الآلاتِ لا يقدرُ على الاستيفاءِ إلا ببقاءِ ما نالَ مِنَ الأرزاقِ ، وهو عاجزٌ عن حفْظِ بقائِها ؛ كما عجزَ عن حفْظِ نفسِهِ وإبقائِها ، فيجدُ نفسَهُ في حالِ الإصابةِ أشدَّ افتقاراً منهُ مِنْ حالِ العدمِ ؛ لافتقارِهِ في حالِ الإصابةِ إلى الحفظِ ليبقىٰ ، ثم إلى الاستنماءِ كي لا يفنىٰ ؛ فيعرفُ عندَهُ مالكَ الغنىٰ[1] .

[التعبُ والنصَبُ في طلبِ الزيادةِ ، لا في تحصيلِ القوتِ]

فقالَ الأخُ : جاءَ موضعُ الإشكالِ ، وكأنَّكَ مخطئٌ في ذا المقالِ ؛ أنَّ حفْظَ المالِ أيسرُ مِنْ بُغائِهِ[2] ، والاستنماءَ أخفُّ مِنْ إنشائِهِ !

قلتُ : مَنْ ألزمَكَ تعبَ الطلبِ ؟! إذْ لم أنهكَ عنِ السببِ ![3] .

= وهو شدة الشهوة ـ ضُربت على ابن آدم لإحكام ابتلائه وتصحيح تكليفه بالنظر إلىٰ وجوده الإمكاني ، لا لافتقار القديم سبحانه إلىٰ ذلك في استخراج حقيقته ، والمراد بقوة الطبع : صفتُهُ التي هو عليها ، لا أن للطبع وجوداً في ذاته متصفاً بقوة مودعة فيه ؛ إذ غاية المطبوع بالجوع : أن يجد في نفسه جوعاً لا يلائم ما جُبلَ عليه ، وهو متفاوت كما لا يخفىٰ ، وكلُّ ذلك بخَلْقِ الله ابتداءً .

ومما يوضح هـٰذا : ما جاء في « الرسالة القشيرية » (ص٤١٧) حيث قال الإمام القشيري : (جاع النوريُّ في البادية ، فهتف به هاتف : أيُّما أحبُّ إليك : سببٌ ، أو كفاية ؟ فقال : الكفاية ، فليس فوقها نهاية ، فبقي سبعة عشر يوماً لم يأكل) .

(١) وهو الله سبحانه وتعالى المقدِّرُ المدبِّرُ لكلِّ ما ذكر ، ولا يربِّبُ الطبيعةَ إلا أعمى البصيرة ، أو معاندٌ أَشِرٌ ، أو مقلِّدٌ غافل ، أو ضِلِّيلٌ مُغْوٍ ، حتىٰ إن الشيطان قال فيما حكاه عنه القرآن : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩] .

(٢) البُغاء : الطلب .

(٣) في هامش (و) : (قيل في السؤال : الحفظ أيسر من الطلب ؟ =

وإنَّما قلْنا لكَ : نيلُ الكفايةِ حالَ الفقرِ وما عليكَ مِنْ غمٍّ . . ألذُّ مِنْ نيلِها مشوباً بالهمِّ ، وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الذي يصيبُ شيئاً مِنَ الدنيا : « إنَّ المَلَكَ الموكَّلَ بهِ يقولُ : هاكَ بمثلَيهِ مِنَ الغمِّ »[١] ؛ أي : غمِّ الحفْظِ ، وغمِّ الاستنماءِ ، فقَلَّ مَنْ طلبَ فنالَ فلم يحفظْ ، وقلَّ مَنْ حفظَ فلم يَسْتَنْمِ ، وكيفَ يدعُهُما ولم يطلبْهُ إلا لمحبَّتِهِ ؟![٢] ومَنْ ظفِرَ بمحبوبِهِ اهتمَّ لحفظِهِ ؛ خوفاً علىٰ فراقِهِ ، وسروراً بالظَّفَرِ بمشتاقِهِ ، وفي الإنفاقِ منهُ فراقٌ ، فيبخلُ ويكُدُّ لاستنمائِهِ ؛ خوفاً مِنْ فَنائِهِ ، وحبّاً لنمائِهِ .

ولن يتمتَّعَ المرءُ بالمالِ إلا بعدَ الاستهانةِ بهِ ، ومَنِ استهانَ بهِ لم يطلبْهُ إلا لضرورةٍ فَرَجاً ، ومَنْ توكَّلَ علىٰ ربِّهِ جعلَ لهُ عنِ الضرورةِ مَخْرجاً[٣] .

= جوابه : أنت غير مكلَّفٍ بطلب شدَّته ، بل بطلب الكفاية عند الفقر) .

(١) قال الحافظ العجلوني في « كشف الخفاء » (١٢٠٤) : (« خُذْ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدريها همّاً » ، هٰكذا اشتهر ، ولم أره في كلام أحد سوى النجم ـ يعني : محمد نجم الدين الغزي في كتابه : « إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن » ـ ؛ فإنه ذكره بلفظ : « خذ ما تشاء من الدنيا ، وخذ بقدره همّاً » ، وقال : لعله من كلام بعض الحكماء ، وقد يستشهد له بحديث الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه : « الزهد في الدنيا يريح القلب والجسد » ، قال المنذري : سنده مقارب . انتهىٰ) .

وروى البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ينادي منادٍ : دَعُوا الدنيا لأهلها ، دَعُوا الدنيا لأهلها ، دَعُوا الدنيا لأهلها ـ ثلاثاً ـ ، من أخذ من الدنيا أكثر ممَّا يكفيه أخذ جيفةً وهو لا يشعر » .

(٢) يعني : وكيف يدع الحفظ والاستنماء وهو إنما طلب المال لمحبته له ؟!

(٣) أراد : أن المتعةَ بالمال . . حينما يُطلب للفرج عن همٍّ نازل ، وليس المال هو المخرجَ من هٰذا الهمِّ كما قد يُظنُّ ، بل المفرِّجُ هو اللهُ تعالىٰ عند الفزع إليه وإحكام سُبُل التقوىٰ ؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢] ، فهو سبحانه يأتيك بالمال علىٰ سبيل السبب =

ثم نقولُ لكَ : إنَّ الطلبَ للكفايةِ . . أيسرُ وألذُّ مِنْ حفظٍ ليسَ لهُ نهايةٌ ، الكفايةُ فرضٌ وقتَ الحاجةِ ، وذلكَ تافهٌ يُنالُ بأدنىٰ عملٍ ، وأمَّا وقتُ الحفظِ فما لهُ مِنْ نهايةٍ ؛ فهو مِنْ فروضِ الأملِ[1] ، ثم عملُ الكفايةِ يسيرٌ ، لا ينازعُهُ على الإصابةِ لتفاهتِهِ كثيرٌ ، والحفظُ عسيرٌ ، ينازعُهُ عليهِ لنفاستِهِ الجمهورُ .

وأمَّا الاستنماءُ ففيهِ القيامةُ[2] ، وسيأتيكَ إنْ شاءَ اللهُ بيانُهُ في بابِ القناعةِ[3] .

ثم ينظرُ في حالِهِ وقتَ أكلِهِ أو شربِهِ ؛ لا يصلُ إليهِ نفعُهُ ولا يتخطَّاهُ شرُّهُ إلا باعتدالِ الطبائعِ التي لا يدَ لهُ عليها ، ولا وصولَ بالحيلةِ إليها ؛ إلا بالاصطبارِ علىٰ ما يكرهُ مِنَ الأدويةِ ، والاحتماءِ عمَّا يحبُّ مِنَ الأغذيةِ ، وربَّما أخطأَ في تدبيرِ الدواءِ ، أو تقديرِ الغذاءِ ، فاتَّصلَ بهِ الفناءُ ؛ فيعلمُ عندَ افتقارِهِ إلى الصلاحِ وعندَ الاستيفاءِ . . مَنْ جمعَ بينَ هـٰذهِ الطبائعِ الأضدادِ على اعتدالٍ ، وأجراها ما شاءَ مِنَ الزمانِ علىٰ مثالٍ ، وأنَّهُ هو القديرُ ، الغنيُّ عنِ التفكيرِ .

= العادي الذي ٱلْفَتَهُ ، وإن أنت توكَّلت عليه حقَّ توكله أخرجك من همِّك وغمِّك من غير سبب أصلاً ؛ كرماً ومِنَّةً وفضلاً .

(١) وليس للأمل حدٌّ يوقف عنده ؛ حتىٰ قال سبحانه : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣] ، وروى البخاري (٦٤٢٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين : في حبِّ الدنيا ، وطولِ الأمل » .

(٢) أراد : أنه أمر عظيم . مفادٌ من هامش (د ، هـ) .

(٣) انظر (ص١٩٥) .

[وجوهُ تحصيلِ القناعةِ]

فإذا عرفَ الغنيَّ بالأحوالِ الأربعِ ، وعرفَ فقرَهُ فيها أجمعَ . . قنعَ بما أُوتيَ مِنْ وجوهٍ أربعةٍ : معرفةِ أصلِ الكفايةِ ، ومعرفةِ اجتماعِ جدوىٰ جميعِ الدنيا فيهِ ، ومعرفةِ قبائحِ الطمعِ ، وفضائحِ الحرصِ .

أمَّا معرفةُ أصلِ الكفايةِ : فلأنَّهُ يجدُها مِنَ اللهِ تعالىٰ إحساناً بلا سابقةٍ كانَتْ منهُ إليهِ[١] ، وإكراماً بلا لاحقةٍ تكونُ منهُ بهِ[٢] ، فإنْ لم يشكرْهُ علىٰ ما تمتَّعَ بهِ . . رضيَ بهِ وقَنِعَ ، فإذا قَنِعَ بالموجودِ واشتغلَ بشكرِهِ . . عرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ فوائدَ الموجودِ وعوائدَ أمرِهِ[٣] ، فيجدُ نفسَهُ علىٰ سَنامِ اليُسْرِ والغنىٰ ـ إنْ تُصوِّرا في الدنيا ـ متختِّماً بخاتمِ المُلْكِ علىٰ سريرِ الإمارةِ ، بقَدْرِ ما تَجَوَّزُ عنهما مِنْ حيثُ الإملاكُ والاستيلاءُ في العاجلِ العبارةُ[٤] .

قالَ الأخُ : فصلٌ بديعٌ ، وأمرٌ فظيعٌ ؛ أَمَّرْتَ رجلاً بلا جاهِ علمٍ ولا زهدٍ ولا نسبٍ ، ولا مُلْكِ عبيدٍ ولا حشمٍ ولا نَشَبٍ[٥] . . بقوتِ يومِهِ ، وإنَّهُ لَمِنْ

---

(١) ألا ترىٰ أن نعمة الإيجاد محالٌ تصوُّرُ سابقة فيها ، وأين كانت السابقة وإحسانُهُ تعالىٰ متوجِّهٌ إلى العبد وهو ما يزال في بطن أمِّهِ ؟!

(٢) إذ العبادةُ والإخلاصُ فيها من جود الجواد سبحانه ، وهل شكرُ العبد لربِّهِ إلا هبةٌ من هباته ؟! وأنشد الإمام السنوسي في « شرح العقيدة الوسطىٰ » (ص٣٠٣) : (من الطويل)

لك الحمدُ مولانا علىٰ كلِّ نعمةٍ ... ومن جملة النَّعماء قَوْلي لك الحمدُ
فــلا حمــدَ إلا أن تمــنَّ بنعمــةٍ ... تعاليتَ لا يقوىٰ علىٰ حمدِكَ العبدُ

(٣) والأجرُ على المعرفة بالمعرفة أعظمُ الأجر ؛ لرجوع المعرفة الثانية ـ وعبادات التفكُّرِ أرفع من نوافل حركات الجوارح ـ إلىٰ أجر الآخرة الباقية .

(٤) قوله : (عنهما) ؛ يعني : اليسر والغنىٰ . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٥) النشب : المال والعَقار ، ومن سجعات « أساس البلاغة » (٢/٢٦٩) (ن ش ب) : =

أخسِّ قومِهِ ، ازدرَتْهُ العيونُ ، ولفظَتْهُ الظنونُ ، ما أُرىٰ هـٰذا أمراً يكونُ !

قلتُ : تأمَّلْ بقلبِكَ مكانَ عينِكَ ، فالذي حكيتَهُ ممَّا تمليهِ الحواسُّ ، ويستحليهِ عوامُّ الناسِ .

فقالَ الأخُ : كيفَ السبيلُ إليهِ ؟ وما الدليلُ عليهِ ؟

قلتُ : أخبِرْني عنِ الذي ملكَ الدنيا بأسرِها ، وأعطىٰ عمرَهُ في مهرِها ؛ ما الذي استدرَّ مِنْ ضَرْعِها ؟

[الردُّ علىٰ مَنِ ادَّعىٰ أنَّ القناعةَ عجزٌ وغباوةٌ]

فقالَ : ملكَ الأمصارَ ، واستخدمَ الأحرارَ ، وصفَّ الأشجارَ ، وخرقَ الأنهارَ ، وشيَّدَ القصورَ ، وابتكرَ الحُورَ ، وأكلَ الألوانَ ، وشربَ على الألحانِ ، ونجَّدَ المغانيَ[1] ، وأَذِنَ للأغاني[2] ، وتلهَّىٰ بالغواني[3] ، وأطاعَتْهُ الجنودُ طَوْعاً وكَرْهاً ، وجاءَتْهُ الوفودُ رَغَباً ورَهَباً ، وما عليهِ في كلِّ ذلكَ مِنْ وِزْرٍ ؛ إذا قامَ فيها بالأمرِ .

أما سمعتَ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

= (لكم نسب ، وما لكم نشب ، ما أنتم إلا خشب) .

(١) المغاني : جمع مغنىً ؛ المنزل الذي غني به أهله ، وأراد : أنه زيَّنها وفرشها بالنَّجْد ؛ وهو ما يزيَّن به البيت من بُسُط وفُرُش ووسائد وكِلَل .

(٢) أي : استمع للأغاني . من هامش (ب) .

(٣) الغواني : جمع غانية ؛ وهي التي غنيت بحسنها وجمالها عن الزينة والحليِّ . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

وقالَ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

وقالَ : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] ؟! أفترى اللهَ تعالىٰ مَنَّ بالمرتبةِ المهجورةِ ؟!

وقالَ سليمانُ صلواتُ اللهِ عليهِ : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص : ٣٥] ، فكأنَّهُ سألَ اللهَ تعالى المرتبةَ المذمومةَ !

وقالَ في قصَّةِ يوسفَ صلواتُ اللهِ عليهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] ، بيَّنَ أنَّ التمكينَ في الأرضِ رحمةٌ منهُ وجزاءٌ علىٰ ما سبقَ مِنْ حُسْنِ تسليمِهِ لربِّهِ .

وقالَ لمحمَّدٍ خاتمِ المرسلينَ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعليهم أجمعينَ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٧ـ٨] ، مَنَّ عليهِ بالغنىٰ ، كما مَنَّ عليهِ بالهدىٰ .

فما الدعاءُ إلى القناعةِ ـ ولهُ طريقٌ إلى المراتبِ العليا شرعاً ـ إلا مِنْ طريقِ العَجْزِ والغباوةِ ، فأمَّا إذا لم ينلْها إلا بوِزْرٍ . فليدعْها للهِ بحُكْمِ الأمرِ ، وإنَّما المناظرةُ معَكَ علىٰ بيانِ الأَوْلىٰ منهما ، معَ انفتاحِ الطريقِ شرعاً إليهما .

فقلتُ : غُصْتَ لعمري في بحارِ خاطرِكَ لتُخرجَ إليَّ منها دُرّاً فما أصبتَ إلا الصَّدَفَ الخاليَ ، وكأنَّكَ قد غَلَوْتَ فذلكَ سبيلُ كلِّ غاليِ[1] .

---

(١) الغالي : المبالغ الذي يتجاوز الحدَّ ، وأثبت الياء مراعاة للسجعة .

أمَا علمتَ : إنَّ الجسومَ لَتتعبُ في نيلِ هـٰذهِ الأمورِ وما لها منها مِنْ ثمرةٍ غيرُ قضاءِ شهوةِ بطنٍ أو فَرْجٍ أو بدنٍ ؟! والقانعُ بما أُوتيَ قاضٍ لهـٰذهِ الشهَواتِ بلا تعبٍ علىٰ سَكَنٍ[١] ، فإلىٰ كم تتَّبعُ الأسامِيَ ، وتتركُ المعانيَ ؟!

فقالَ : إنَّ الغنيَّ لَيقضيها باللَّيِّنِ والحَسَنِ ، والفقيرَ يقضيها بالجَشْبِ والخَشِنِ[٢] .

فقلتُ : تنبَّهْ ! فكلامُنا في القانعِ والحريصِ ، ليسَ في الفقيرِ والغنيِّ ، وكم مِنْ قانعٍ أُوتيَ المُلْكَ ، وكم مِنْ حريصٍ استعجلَ الهُلْكَ ، علىٰ أنِّي فرضتُ الكلامَ في فقيرٍ قنعَ بقوتِ يومِهِ .

فأقولُ : إنَّ منزلةَ معتادِ الفقيرِ مِنْ قلبِهِ مثلُ منزلةِ معتادِ الغنيِّ في نفسِهِ[٣] ، فقد هانَتْ منزلتُهُ لديهِ لِيُسْرِ الإصابةِ ، وعزَّتْ منزلةُ هـٰذا لدى الفقيرِ لعُسْرِ الإجابةِ[٤] ، فالظفرُ بابُ المَلالةِ ، والحرمانُ بابُ الاستطرافِ[٥] ، وإنَّ التافهَ

---

(١) نعم ؛ ذاك شبعانُ من لحم ، وهـٰذا من خبزٍ بلا أُدْم ، ولـٰكنْ فرقُ ما بينهما الشهوة ، فمن أجابها سخطَ عند معاندة الأقدار الغلَّابة ، ومن كبحها رضي بالقسمة عزيزاً ، علىٰ أن تحصيلَ أسباب الشهوات مَشْغَلةٌ ونَصَبٌ ، ونيلَ الكفاية علىٰ طرف الثمام .
وفي « الرسالة القشيرية » (ص٤٠٦) : (قيل : رأىٰ رجلٌ حكيماً يأكل ما تساقط من البقل علىٰ رأس ماءٍ ، فقال : لو خدمت السلطان لم تحتج إلىٰ أكل هـٰذا ، فقال الحكيم : وأنت لو قنعت بهـٰذا لم تحتج إلىٰ خدمة السلطان) . وفي هامش (و) : (« أو بدن » ؛ أي : اللباس) .

(٢) الجَشْبُ ـ ويصح بوزان كَتِف أيضاً ـ : الغليظ الخشن ، أو الذي لا أُدْم معه .

(٣) من الشهوات . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) يعني : يرى الغنيُّ منزلة الفقير ومعتاده من حاله هينة لما خوَّله الله تعالىٰ من مال ، ويرى الفقيرُ منزلة الغني عزيزة لعُسْر الأحوال .

(٥) إذ كلُّ مبذولٍ مملول ، وكلُّ ممنوع متبوع ، ولو عزَّت الباقلاء لكانت زينةَ أطباق الملوك ، =

قَدْراً ليَحْلَىٰ في العينِ عندَ العزَّةِ[1] ، ويسقطُ قَدْرُ الرفيعِ معَ الكثرةِ .

ثمَّ الفقيرُ لحاجتِهِ إلى التقلُّبِ ببدنِهِ في حوائجِهِ ؛ لعدمِ الخدمِ والعبيدِ ، والأكلِ عندَ الحاجةِ ؛ لقلَّةِ الوجودِ . . تقوىٰ طبائعُهُ ، وتتَّقِدُ نارُ شهواتِهِ ، **وتفاوتُ الاستلذاذِ بسببِ الشهواتِ أكثرُ مِنَ التفاوتِ بسببِ المطعومِ**[2] .

فإنْ قلتَ : وراءَ قضاءِ الشهوةِ سرورٌ[3] .

قلتُ لكَ : فما السرورُ إلا في نيلِ المحبوبِ ، ولكلِّ قلبٍ معتادٌ محبوبٌ ينالُهُ مِنْ دنياهُ على اختلافِ الطبقاتِ ، علىٰ ما ذكرتُ لكَ في معتادِ قضاءِ الشهواتِ ، **بلِ الفقيرُ القانعُ يفضُلُ المكثرَ في سرورِهِ مِنْ حيثُ قلَّةُ الهمومِ** ؛ فإنَّها تعتري القلوبَ لفواتِ المألوفِ ، ومألوفاتُ المكثرِ أكثرُ مِنْ مألوفاتِ الفقيرِ بكثيرٍ ، وكلٌّ علىٰ شَرَفِ الفواتِ والرحيلِ[4] ، فعلىٰ قَدْرِ ذلكَ منزلتُهُما في الهمومِ .

فإنْ قلتَ : وراءَ هـٰذا نشاطُ النفسِ في نفاذِ الأمرِ ، وعلوِّ المكانِ علىٰ بساطِ الأمنِ .

قلتُ : إنَّ الأحوالَ طبقاتٌ ، وما مِنْ حالةٍ للعبدِ إلا وهو منها بينَ طبقتينِ ؛

= ولو استُرخصَ العسلُ لصار دِبْساً .

(١) يقال : حَلِيَ الشيءَ بعيني وبصدري يَحْلَىٰ ـ من باب تعب ـ ؛ إذا حسُنَ عندي وأعجبني .

(٢) ولهـٰذا ترىٰ ذا المال يستطيبُ رخيصَ الطعام إذا اشتدَّت شهوته إليه ، وتعاف نفسه اللحم لإلفه إياه .

(٣) يجده الإنسان عند قضاء الشهوة ؛ كالشراب والطعام ، أو بعد قضائها ؛ كالمنام .

(٤) يقال : أشرف علىٰ كذا ؛ إذا أشفىٰ عليه ، يقال : هو علىٰ شرف من قضاء حاجته ؛ إذا دنا منه تحققُ نيلها .

عليا ودنيا ، وأمرُهُ نافذٌ في حالِهِ علىٰ مَنْ دونَهُ ، غيرُ نافذٍ علىٰ مَنْ فوقَهُ ، ونشاطُ كلِّ نفسٍ في معتادِ حالِهِ في طبقتِهِ مثلُ حالِ الأخرىٰ ، كما في السرورِ وقضاءِ الشهوةِ ، ثمَّ القانعُ فَضَلَ الحريصَ بإغماضِ عينِهِ عنِ الطبقةِ التي فوقَ طبقتِهِ ، فكانَ نشاطُ نفسِهِ في نفاذِ أمرِهِ فيها غيرَ مشوبٍ بالتحسُّرِ على ارتدادِ أمرِهِ فيمَنْ فوقَهُ ، ومشوبٌ نشاطُ الحريصِ ، في النفاذِ بالتحسُّرِ والتنغيصِ .

وعلىٰ هـٰذا علوُّ المكانِ .

فأمَّا الأمنُ : فللقانعِ دونَ غيرِهِ ؛ إذِ الأمنُ بعدمِ الأعداءِ ، وعدمُ الأعداءِ بعدمِ المنازعةِ معَ الناسِ ، وذلكَ في القناعةِ بما أُوتيَ سهلاً وجُنِيَ عفواً ، يتمتَّعُ بلا منعٍ ، ويتبرَّعُ بلا طمعٍ .

إنَّ الدنيا عجوزٌ بِكْرٌ تبرَّجَتْ لأزواجِها ، وأطمعَتْ في ازدواجِها ، فعشقَها الكلُّ إلا مَنْ شاءَ اللهُ ، وجادلَ بعضُهم بعضاً لتخلُصَ لهُ ، فهلكوا قبلَ الوصولِ إليها صَفْواً(١) ، إلا مَنْ تمتَّعَ بمسِّها قانعاً بالشِّرْكَةِ حالَ غفلتِهِ لضرورةِ شَبَقٍ ، ثم طلَّقَها بموجَبِ الغيرةِ نادماً علىٰ ما سبقَ ؛ كأكلِ الميتةِ ـ وعليها الذئابُ والكلابُ ـ لسدِّ الرَّمَقِ .

أمَا علمتَ : أنَّ التعبَ في ترْكِ القناعةِ لجلْبِ صفةِ الغَناءِ ؟! وإنَّهُ عبارةٌ عنِ الاستغناءِ ، وأنتَ إذا بلغتَ منزلةَ مَنْ سمَّيْتَهُ غنيّاً افتقرْتَ لحفْظِ حالِكَ إلىٰ مَنْ دونَكَ افتقارَ اضطرارٍ ، وكانَ افتقارُكَ وأنتَ على الكفايةِ إلى الزيادةِ علىٰ سبيلِ الاختيارِ ؛ فإنَّكَ تجدُ كثيراً مِنَ الفقراءِ القانعينَ مِنْ أهلِ الزهدِ والوحوشَ تمضي أعمارُهم بغيرِ ادِّخارٍ ، ولا حاجةٍ إلى اليسارِ ، ولا ترىٰ غنيّاً مستغنياً بنفسِهِ عن

---

(١) صفواً : خالصاً . انتهىٰ من هامش (و) .

خدمٍ وعبيدٍ ، ولا أميراً إلا مفتقراً إلىٰ عساكرَ وجنودٍ ، فلماذا التعبُ فراراً عنِ الفقرِ وأنتَ متهافتٌ في حبائلِهِ ؟! ولماذا الحرصُ وروداً على الغَناءِ وأنتَ ضالٌّ عن مناهلِهِ ؟!

فالقانعُ بحالِهِ قدِ استغنىٰ بتعفُّفِهِ ، وهِيبَ بتجمُّلِهِ ، وأُحِبَّ في مروءتِهِ ، واستُشيرَ لحُسْنِ رأيِهِ ، وأُطيعَ لإصابتِهِ ، فسوَّدَهُ كرمُ نفسِهِ ، وأمَّرَهُ عِظَمُ خُلْقِهِ ، فأصبحَ مقصوداً وما عليهِ أثقالُ الحَشَمِ ، ولا أوزارُ الهِمَمِ[١] ، آمناً عن جدالِ الأضدادِ ، ما يشغلُهُ إلا حسدُ الحُسَّادِ ، وذلكَ بابٌ مفتوحٌ علىٰ كلِّ طبقةٍ ، مَنْ تأمَّلَ في سببِهِ حمدَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، ولم يطلبْ لنفسِهِ في منازلِ النِّعَمِ مُقاماً إلا لديهِ[٢] ؛ فإنَّ الحسدَ نارٌ تتَّقِدُ في الحاسدِ بنعمةٍ في المحسودِ تزدادُ أبداً بزيادةِ النعمةِ فيهِ .

فقالَ : ومِنْ أينَ التجمُّلُ والمروءةُ للفقيرِ القانعِ ؟!

فقلتُ : إنَّ تجمُّلَ كبارِ النفوسِ ليسَ بزيِّهم ، ولا مروءتَهم في حُلِيِّهم ، وإنَّما تجمُّلُهم بمكارمِ الأخلاقِ ، وإنَّ تمامَ كرمِ الخُلُقِ بتركِ الدنيا لأهلِها ؛ فإنَّهم طالبوها ، فالبخلُ بعدَ الطلبِ قبيحٌ بالمُصابِ ، فكيفَ البخلُ قبلَ الإصابةِ بالأسبابِ ؟![٣] .

وأمَّا المروءةُ فكلُّها في الإحسانِ ، وحدُّهُ : تركُ حقِّكَ لغيرِكَ ،

---

(١) في (أ ، د ، هـ) : (الهموم) ، وفي (ب ، و) : (الأمم) بدل (الهمم) ، وإنما الهموم علىٰ قدر الهمم .

(٢) أي : عند الحسد . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : البخلُ بما تصيبه وتحرزه قبيحٌ إن طُلبَ منك ، فكيف إن بخلْتَ بأسباب جمعِ الدنيا ولم تُصب منها شيئاً بعدُ ؟!

وأصلُهُ : تركُ المنازعةِ فيما لكَ مِنْ خَيْرِكَ .

فإذا عرفتَ هـٰذا : تبيَّنَ لكَ أنَّ طيِّباتِ الرزقِ ، متكاملةٌ لذي القناعةِ مِنَ الخَلْقِ ، وما حرَّمْناها ، وإنَّما منعناكَ عن كشْفِ الفقرِ بالحرصِ ، وإتعابِ النفسِ بالطلبِ ، واحتمالِ الذلِّ بالطمعِ[1] ، غيرَ أنَّ مُلْكَ القانعِ مُلْكٌ خفيٌّ ، لا يصلُ إليهِ إلا قلبٌ ذكيٌّ[2] ؛ عملَ صالحاً فأنارَ اللهُ تعالىٰ صدرَهُ بالعقلِ ، ونصرَ روحَهُ بالقلبِ[3] .

[معنى الحياةِ الطيبةِ]

وقد تُكُلِّمَ في تأويلِ الحياةِ الطيِّبةِ[4] :

فقيلَ : رغدُ العيشِ علىٰ سلامةِ النفسِ ، وقد يصيبُهُ القانعُ عطاءً مِنَ اللهِ تعالىٰ[5] ؛ كما أصابَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم مِنْ غيرِ إدآبِ نفسٍ ، ولا إتعابِ جسمٍ .

---

(١) يعني : منعناك عن دفع الفقر وأنت حريص على الغنىٰ ، وعن إجهاد النفس بطلب زيادة على الكفاية ، وعن بذل ماء الوجه طمعاً فيما لا أرب فيه .

(٢) ولذلك لا يتشاحُّ الناس فيه ، ويزهد فيه عامَّةُ الخلق ، ولا يراه إلا بصير موفَّق ، وإنما يتجمَّل فيه أمام أمثاله من أهل البصيرة ، علىٰ أن القانع لا يرقب إلا نظر الحقِّ ، وهو في شُغُلٍ عن نظر الخلق .

(٣) في (ب ، د ، هـ ، و ، ز) : (وبَصَّرَ) بدل (ونصر) .

(٤) في هامش (و) : (هـٰذا جواب الآيات التي تمسَّك بها الأخ) ، وأراد هنا قوله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

(٥) يعني : قد يحظى القانعُ برغد العيش وسعته هبةً من الله تعالىٰ وإن رضي بالدون ، وغيرُ ما قسم الله تعالىٰ لا يكون ، وفي (ب) وحدها : (يصيبُ القانعَ . . .) ، وهي ظاهرة المعنىٰ على المجاز .

وقيلَ : الحياةُ الطيِّبةُ لمَنْ تلذَّذَ بما أُوتيَ بقوَّةِ طبائعِهِ وصحَّةِ بدنِهِ ، ولم ينغِّصْهُ ما فاتَ بقناعتِهِ .

وقيلَ : الحياةُ الطيِّبةُ لمَنْ شُغِلَ عنِ الدنيا بالمولىٰ ، فطابَتْ حياتُهُ في مقامِ الخلوةِ قريراً بالقُرْبِ ، مسروراً بزوالِ الوسائطِ والحُجبِ .

وأمَّا قولُ اللهِ تعالىٰ لمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٨] . فمعناهُ واللهُ أعلمُ : ووجدَكَ عائلاً تفتقرُ إلى العملِ لقُوتِكَ ، فأغناكَ عنِ العملِ بمالِ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها ، ولم ينكرْ عليكَ مِنْ مالِكَ إلا الحرصَ(١) .

ويحتملُ : ووجدَكَ عائلاً ببواعثِ الشهوةِ ، فأغناكَ بالقناعةِ والتوكُّلِ .

ويحتملُ : ووجدَكَ عائلاً برؤيتِكَ نفسَكَ ، فأغناكَ برؤيتِكَ ربَّكَ .

وأمَّا المُلْكُ العظيمُ لآلِ إبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليهِ(٢) : فكانَ في النبوَّةِ والعلمِ والحكمةِ ، والقناعةِ والرضا والشكرِ على المقسومِ لهم مِنْ ظاهرِ النعمةِ ؛ فقد بيَّنَّا لكَ أنَّ المُلْكَ في الدنيا إنْ تُصُوِّرَ لكانَ فيهما لا يعدوهُما(٣) .

ولم نقلْ فيما سبقَ : إنَّ زيادةَ النِّعَمِ الظاهرةِ عقوباتٌ في نفسِها ؛ فقد ذكرْنا أنَّ قَدْرَ ما أُوتيَ مِنَ الكفايةِ نعمةٌ ، فكذا الزيادةُ مِنْ جنسِها تكونُ علىٰ صفةِ أصلِها(٤) .

---

(١) أي : لم ينكر عليك مالك ، وإنما ينكر عليك حرصك في تحصيله ؛ حتىٰ لو كان فقيراً أو حريصاً يكون مذموماً . مفادٌ من هامش (و) ، والمعنى : لم يجعل للحرص إليك سبيلاً .

(٢) يعني : قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] .

(٣) قوله : (فيهما) ؛ أي : القناعةِ والرضا ، وقوله : (يعدوهما) ؛ أي : الشكرَ والقناعة . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) في هامش (هـ) : (بطريق الكفاية ، لا بطريق الحرص) .

وأمَّا سؤالُ سليمانَ عليهِ السلامُ : فحَسَنٌ ؛ سؤالُ فقيرٍ مِنْ أغنى الأغنياءِ ، وإنَّما نهيناكَ عنِ الطمعِ في أمثالِكَ مِنَ الفقراءِ ، والسخطِ علىٰ ما قُسِمَ لكَ ، والشكايةِ معَ ما أُسديَ إليكَ ، وقد نطقَ القرآنُ بهِ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [سبأ : ٤٧] .

وفي قصصِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ كلِّهم : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩][(١)] ، فالسؤالُ مِنَ الربِّ حَسَنٌ[(٢)] ، وما يجوزُ للعبدِ قطُّ أنْ يشبعَ مِنْ إحسانِ ربِّهِ ، أو يدعَ الافتقارَ إليهِ ، غيرَ أنَّ الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ سألوا الدنيا ليأسِرُوها للمولىٰ ، ويتوصَّلوا بقهرِها وإهانتِها إلى العُقْبىٰ[(٣)] ، وأنتَ تسأَلُها لتكرمَها وتهينَ نفسَكَ ، وتعلوَ بها وتنسىٰ ربَّكَ ، وتكونَ عبداً مِنْ عبيدِها ، وواحداً مِنْ جنودِها .

ثم ندعُ هـٰذا الذكرَ ، ونرجعُ إلى الشرعِ والأمرِ ؛ فأعلى المنازلِ ما صرتَ إليهِ بأمرِ شرعِكَ ، لا ما مِلْتَ إليهِ ببعثِ طبعِكَ[(٤)] ، وإنَّ الغنيَّ مأمورٌ بالزكاةِ

---

(١) كذا وردت هـٰذه الآية الكريمة حكايةً عن سيدنا نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، علىٰ نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

(٢) حتىٰ في المحقَّرات ؛ كشِراك النعل وملح العجين ، وفي « قوت القلوب » (٢/ ١٥) : (أوحى الله تعالىٰ إلىٰ بعض الصدِّيقين : أدركْ لي لطف الفطنة وخفيَّ اللطف ؛ فإني أحبُّ ذلك ، قال : يا ربِّ ؛ وما لطفُ الفطنة ؟ قال : إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أوقعتها ، فسلْني أرفعْها ، قال : وما خفي اللطف ؟ قال : إن أتتك فولة مسوَّسة فاعلم أني قد ذكرتك بها) .

(٣) كما فعل سليمان عليه السلام . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٤) يعني : أحسنُ أحوال العبد ما جمع فيه بين النفل والفرض ، فلم يترك أمراً من أوامر الشارع إلا لبَّاه وأدَّاه ، وما ترَخَّصَ أحدٌ بترك نفل إلا عن غلبة هوىً ، والله غفور رحيم ، ولـٰكن لا يبلغ رتبةَ المقرَّبين أصحابُ اليمين .

فرضاً[1] ، وبإقراضِ اللهِ تعالىٰ نفلاً ، والفرضُ يأتي على البعضِ ، والقرضُ يأتي على الكلِّ ، فيصيرُ فقيراً بالأمرِ[2] ، والفقيرَ ما أُمِرَ بالكسبِ إلا حالَ الضرورةِ قَدْرَ الكفايةِ ، والزيادةُ عليها تكونُ بدعوةِ الطبيعةِ، لا أمرٍ مِنَ الشريعةِ .

[أحوالُ الناسِ معَ الدنيا]

ثمَّ الناسُ أربعةٌ في الدنيا : مشغولٌ بالدنيا عنِ المولىٰ ، ومتَّخذٌ إلـٰهَهُ الدنيا ، ومشغولٌ بالمولىٰ عنِ الدنيا ، ومستولٍ على الدنيا للمولىٰ .

فالمشغولُ بالدنيا عنِ المولىٰ : جُهَّالُ الكفرةِ مِنَ الذينَ اتَّبعوا آباءَهم ، ولم يعرفوا إلا أرضَهم وسماءَهم ، فشُغلوا بها عنِ اللهِ تعالىٰ فجهلوهُ[3] .

والمتَّخذُ إلـٰهَهُ الدنيا : حكماءُ الفلاسفةِ مِنَ الطبائعيِّينَ[4] ، والقرامطةُ مِنَ الباطنيِّينَ[5] ، تأمَّلوا فيما أحسُّوا مِنَ الظواهرِ ، فوجدوا فيها أمارةَ الحَدَثِ

---

(١) يعني : ربع العشر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : العبد إذا نظر إلىٰ أمر الله تعالىٰ له بأداء الزكاة فرضاً ، وبالصدقة بما يزيد عن حاجته نفلاً . . عاد والفقيرَ سواء .

وفي هامش (ب) : (أي : فإنه ما دام في يده شيءٌ فهو مأمور بالإقراض نفلاً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المزمل : ٢٠]) .

(٣) وهـٰؤلاء هم الذين قال المولىٰ سبحانه فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، وحكىٰ قولهم فقال تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال جلَّ جلاله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة : ١٠٤] .

(٤) قال جلَّ من قائل حكيم : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

(٥) ذكرهم الإمام الرازي في « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » (ص٧٩) فيمن =

فتعدَّوا عنها إلى العناصرِ ، وسمَّوها الهَيُولىٰ ، وقالوا : هيَ العلَّةُ الأولىٰ .

والمشغولُ بالمولىٰ عنِ الدنيا : أولياءُ العُزْلةِ مِنَ الذينَ علموا المُحْدَثاتِ بحقائقِها[1] ، فتعدَّوا عنِ العناصرِ إلىٰ خالقِها ، فبَقُوا عندَهُ طالبينَ رضاهُ أو راغبينَ في ثوابِهِ ، أو خاشينَ سُخْطَهُ أو هاربينَ مِنْ عقابِهِ ، واشتغلوا بشدَّةِ الطلبِ ، أو فَرْطِ الرغبةِ ، أو صدْقِ الخشيةِ ، أو قصدِ الهربِ عنِ الدنيا ؛ خوفاً مِنْ تقاعدِهم عن مقامِهم إنِ التفتوا إليها ، فهي في أيديهم كأنَّها ليسَتْ في أيديهم[2] ، وليسَتْ لهم كأنَّها لهم[3] .

ومقاماتُهم في ذلكَ أربعةٌ : مقامُ المحبةِ ، ومقامُ الخشيةِ ، ومقامُ الرغبةِ ، ومقامُ الرهبةِ .

فمقامُ المحبَّةِ : بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ صفةِ الكمالِ .

ومقامُ الخشيةِ : بمعرفةِ العبدِ نفسَهُ على النقصانِ والقصورِ .

ومقامُ الرغبةِ : مِنْ معرفةِ ما في جميلِ الموعودِ .

= يتظاهرون بالإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، وانظر أخبارهم في « الكامل في التاريخ » (٦/ ٤٦١) ، وفي هامش (و) : (رئيسهم رجلٌ نشأ في الكوفة ، وابتدع البدعة ، واتبعه أتباع) .

(١) قوله : (علموا . . .) ؛ يعني : بعدما تأمَّلوا فيها ، وفي (أ) : (تأملوا) بدل (علموا) ، وفي هامش (و) : (أي : عند العلم بأن العناصر مخلوقة لله) .

(٢) لعدم اشتغالهم بها والالتفات إليها .

(٣) لأنهم نالوا منها ما يحتاجون بقدر كفايتهم ، والزيادة على الكفاية همٌّ وتعب ، وهـٰذا الأسلوب في التعبير شبيهٌ بقول بعضهم : (من الكامل)

خُلقوا وما خُلقوا لمكرمة ... فكأنهم خُلقوا وما خُلقوا
رُزقوا وما رُزقوا سماحَ يدٍ ... فكأنهم رُزقوا وما رُزقوا

ومقامُ الرهبةِ : مِنْ معرفةِ ما في شديدِ الوعيدِ .

فالمحبَّةُ : أصلُها : الصفوةُ[1] ، وفرعُها : طلبُ رضا المحبوبِ ، وثمرتُها : أُنْسُ المحبِّ .

والخشيةُ : أصلُها : الحياءُ ، وفرعُها : الاعتذارُ ، وثمرتُها : القبولُ .

والرغبةُ : أصلُها : الطمعُ ، وفرعُها : التعبُ ، وثمرتُها : الوجودُ .

والرهبةُ : أصلُها : العجزُ ، وفرعُها : الهربُ ، وثمرتُها : النجاةُ .

فمَنْ رَهِبَ عجزاً أمسكَ عن سببِهِ ، ومَنْ رغبَ طمعاً سعىٰ لأربِهِ ، ومَنْ خَشِيَ حياءً شُغِلَ عن رؤيةِ أعمالِهِ بالتهذيبِ ، ومَنْ أحبَّ صفْوةً عَمِيَ عن تفاوتِ أقسامِ الحبيبِ .

فالمقامانِ الأوَّلانِ للمستدلِّينَ[2] ، والآخرانِ للمستمعينَ[3] ؛ فالوصولُ إلىٰ علمِ ذاتِ اللهِ بالكمالِ ، وقصورِ ذاتِ العبدِ . . بالاستدلالِ ، والوصولُ إلىٰ علمِ الجنَّةِ والنارِ . . بالسماعِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، و(إنَّما) لإثباتِ المذكورِ ونفْيِ ما عداهُ[4] .

---

(١) فالصفوة لكلِّ رجل محبتُهُ [أن] يكونَ صافياً مع الله تعالىٰ ، لا يبصر بما دفع الله تعالىٰ له ، بل يبصر مجرَّد الدفع . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

(٢) **يعني** : مقام المحبة ، ومقام الخشية ، وإنما كانا للمستدلِّين لعدم توقُّفهما علىٰ سماع الخطاب الغيبي .

(٣) **يعني** : مقام الرغبة ، ومقام الرهبة ، وإنما كانا للمستمعين لتوقُّف تحقُّقهما علىٰ معرفة الجزاء ثواباً وعقاباً .

(٤) وهو يفيد قصر صفة الخشية علىٰ موصوفٍ هو العالم بالله أو بأفعاله .

ورأينا العالِمَ يرهبُ اللهَ تعالىٰ ، ويرهبُهُ مَنْ سواهُ[1] ، فدلَّ علىٰ أنَّ الخشيةَ غيرُ الرهبةِ ؛ كالطمعِ غيرِ الرغبةِ .

فالخشيةُ : بمعرفةِ العبدِ نفسَهُ على النقصانِ والقصورِ ، فلا يُتصوَّرُ ذلكَ مِنْ جاهلٍ بنفسهِ رَهِبَ اللهَ تعالىٰ بالسيفِ والسعيرِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وإنَّما خَشِيَ رسولُ اللهِ عليهِ السلامُ الناسَ حياءً أنْ يُنسبَ إلى الاستئثارِ[2] ، لا لمكروهٍ يلحقُهُ منهم على اقتدارٍ .

واللهُ تعالىٰ ذكرَ المقاماتِ كلَّها في كتابِهِ ؛ فقالَ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، **فهٰذا مقامُ المحبَّةِ** .

وقالَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، **فهٰذا مقامُ الخشيةِ** ،

---

(١) لأن الجاهل المنصف يرىٰ سطوة العالِم عليه بالعلم ، حتىٰ ذكر حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٠٥) وهو يتحدَّث عن فضل العقل : أن أعظم البهائم بدناً ، وأشدَّها ضراوة ، وأقواها سطوة ؛ إذا رأىٰ صورة الإنسان . . احتشمه وهابه ؛ لشعوره باستيلائه عليه ؛ بما خُصَّ به من إدراك الحيل .

(٢) من أن يظنَّ ضعفةُ أهل الإيمان ذلك ، وحاشاه وحاشىٰ منصبَ النبوة من ذلك ، ولهٰذا قال الإمام السنوسي في « شرح صغرى الصغرىٰ » (ص٢٢٣) بعد كلام منوَّر بديع : (ليس فيه عَتْبٌ عليه كما يعتقده من لا خلاقَ له ولا أدب ولا فهمَ ولا دين ، وإنما هو مدحٌ له عليه الصلاة والسلام بالخُلُقِ الجميل والطبع الكامل ؛ وهو الخشية من الناس ؛ أي : الحياءُ منهم أن يقابلهم بما يسوءهم ، ثم أمره سبحانه أن يرجِّحَ خشيتَهُ والحياءَ منه عند ورود أمره على الحياء من الناس ، وهٰكذا كان عليه الصلاة والسلام في هٰذه القضية وغيرها ، لا يبالي بشيء إذا حضره حقٌّ لله تبارك وتعالىٰ) ، وقال تعالىٰ في صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

وقالَ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠][١] .

[أحوالُ الأنبياءِ وورثتِهم مِنَ الأولياءِ معَ الدنيا]

والمستولونَ على الدنيا للمولىٰ : الأنبياءُ عليهمُ السلامُ وورثتُهم مِنْ أولياءِ العِشْرةِ[٢] ؛ وهمُ الزُّهَّادُ مِنَ الفقهاءِ[٣] ؛ عرفوا اللهَ تعالىٰ فآمنوا بهِ ، وعرفوا أعداءَهُ فقصدوهم بالاسترقاقِ ، وعرفوا مأواهم ؛ وهوَ الدنيا فقصدوها بالاستغنامِ ؛ ليكونَ الكلُّ للهِ تعالىٰ[٤] ، ولعبادِ اللهِ مصروفاً إلىٰ سبيلِ اللهِ ، فتصيرَ الدنيا عندَ ذلكَ للوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ أسباباً[٥] ، بعدَما كانَ عنِ اللهِ حجاباً ، وأعداءُ اللهِ أنصاراً ، بعدَما كانوا كفَّاراً ، وإنَّها لَمِنْ أعلى

---

(١) وفي الآية إشارة إلىٰ مقامي الرغبة والرهبة .

(٢) معاشرة الخلق . مفادٌ من هامش (هـ ، و) ، مقابل أولياء العزلة المشغولين بالمولىٰ عن الدنيا ، وتقدم ذكرهم قريباً .

(٣) وقيدُ الزهادة في الفقهاء ليكونوا من ورثة الأنبياء . . اشتهر عن الإمام الغزالي ، وأنت ترىٰ أن الإمام المصنف سبقه إلىٰ ذلك بتصريحه هنا ، إلا أن تفصيل الحجة الغزالي وتطويل الكلام له في ذلك يجعله العَلَمَ الذي فتَّقَ القول في التفريق بين الفقيه الطالب للدنيا ، والفقيه الرباني الصادق .

وروى الدارمي في « سننه » (٣٠٥) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (إن الفقيه حقَّ الفقيه ؛ من لم يُقَنِّط الناس من رحمة الله ، ولم يُرَخِّصْ لهم في معاصي الله ، ولم يُؤْمِنْهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره ، إنه لا خير في عبادة لا علمَ فيها ، ولا علمٍ لا فهمَ فيه ، ولا قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها) .

وروىٰ أيضاً (٣٠٢) عن عمران المِنْقَري قال : قلت للحسن يوماً في شيء قاله : يا أبا سعيد ؛ ليس هـٰكذا يقول الفقهاء ؟ فقال : ويحك ! ورأيت أنت فقيهاً قطُّ ، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بأمر دينه ، المداوم علىٰ عبادة ربه .

(٤) أي : الدنيا وساكنوها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) قوله : (عند ذلك) ؛ أي : عند الاستغنام . انتهىٰ من هامش (و) .

المراتبِ ، وهـٰذهِ القوَّةُ مِنْ أعظمِ المواهبِ .

ومثالُ الفريقينِ مِنْ أصحابِ ملوكِ الأرضِ[1] : الندماءُ والوزراءُ[2] ، غيرَ أنَّ الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ :

منهم مَنْ سألَها ربَّهُ لنفسِهِ ؛ ليصرفَها إلىٰ عبادِهِ ، في سبيلِهِ وجهادِهِ ؛ كسليمانَ صلواتُ اللهِ عليهِ ، ومَنْ أُوتيَ مُلْكاً في الدنيا مِنَ النعيمِ الظاهرِ العامِّ[3] .

ومنهم مَنْ سألَها ربَّهُ لعبادِهِ ؛ ليكونَ أقربَ إلى الكرمِ والسخاءِ ، وأدلَّ علىٰ هوانِ الدنيا ، وكي لا يُرىٰ فيما هي نعمةٌ عندَ الأعداءِ ؛ تحقيقاً لديهم أنَّ الدارَ للابتلاءِ ، وأنَّما نعيمُها متاعٌ ثم حسابٌ ، أو غرورٌ وعذابٌ ، وإنَّما هو عبدٌ فقيرٌ مأمورٌ مسجونٌ في مملكةِ الأعداءِ[4] ، ما يريدُ بَراحاً عنِ الفقرِ ، ولا إعراضاً عنِ الأمرِ ، ولا عِتْقاً في الحالِ عنِ الرقِّ ، بل يعاديهم في اللهِ ؛ ليفتحَ المملكةَ للهِ ، ويأسِرَهم للهِ ، فيرجعَ إليهِ منصوراً ، إنْ رجعَ إليهِ وليُّ العُزْلةِ مذعوراً[5] ؛ كمحمدٍ رسولِنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، وإنَّها لأعظمُ الدرجتينِ وأعلى المنزلتينِ عندَ اللهِ .

ومقاماتُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ في حقِّ الدنيا أربعةٌ : مَنْ زُويَتْ عنهُ الدنيا

---

(١) قوله : (الفريقين) هما أولياء العزلة وأولياء العِشْرة . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .
(٢) الأولياء بمنزلة الندماء ، والأنبياء بمنزلة الوزراء . انتهىٰ من هامش (هـ) .
(٣) إذ فيه الإيثار بالدنيا على العباد ، وبالمحمدة والثناء على الله . انتهىٰ من هامش (ب ، و) .
(٤) قوله : (وإنما هو عبد) ؛ أي : محترزٌ عن الدنيا . مفادٌ من هامش (هـ) .
(٥) في هامش (ج ، هـ ، و) : (نسخة : معذوراً) .

فلم يطلبْها ، ومَنْ عُرضَتْ عليهِ الدنيا فلم يقبلْها ، ومَنْ لم يُعْطَ فطلبَها ، ومَنْ أُعطيَ الدنيا فلم يردَّها[١] .

فالأوَّلُ : مقامُ الرضا والهيبةِ ، **والثاني** : مقامُ الكرمِ ، **والثالثُ** : مقامُ الافتقارِ ، **والرابعُ** : مقامُ الجودِ .

رضيَ **الأوَّلُ** بالقسمةِ فلم يتحرَّكْ لغيرِها هيبةً ، فشكرَ مكانَ الشكوىٰ مِنْ غيرِهِ ، وسكتَ مكانَ السؤالِ مِنْ خيرِهِ .

وكَرُمَ **الثاني** فآثرَ غيرَهُ علىٰ حظِّهِ ، وقد خُيِّرَ في أخذِهِ ، وأخلصَ للهِ تعالىٰ شُكْرَ الخلقِ ، بالتفويضِ إليهِ قسمةَ الرزقِ[٢] ، فآثرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ بالشكرِ ، وعبادَ اللهِ عليهِ بالمِلْكِ ، مكانَ شُكْرِ الأوَّلِ وسكوتِهِ ، وكم فَرْقٍ ما بينَ العبدِ ومِلْكِهِ وما بينَ اللهِ وملكوتِهِ ![٣] .

وأمَّا **الثالثُ** : فرأىٰ فقرَهُ وغنىٰ ربِّهِ ، فلم يصبرْ عنِ الإظهارِ إليهِ تحقيقاً بلسانِهِ ما اعتقدَهُ بقلبِهِ ؛ مِنَ السؤالِ مِنْ مُلْكِهِ تحقيقاً لما أيقنَ في وعدِهِ بنُجْزِهِ ، فشكا إلى اللهِ تعالىٰ مكانَ رضا الأوَّلِ ، وطلبَ مكانَ سكوتِهِ وسألَ .

---

(١) **فالأول** : كسيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، **والثاني** : كسيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، **والثالث** : كسيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، **والرابع** : كسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . مفادٌ من هامش (ب ، هـ ، و) .

(٢) يعني : اختار الله تعالىٰ علىٰ نفسه عليه السلام بالتفويض قسمةَ رزقِ عباده تعالىٰ ليشكروه خاصة ، واختار عباد الله تعالىٰ علىٰ نفسه عليه السلام بأن يكون الملك لهم ، لا له عليه السلام . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

(٣) قوله : (وكم فرقٍ . . .) هو [من] تتمة قوله : (قسمة الأرزاق) ؛ إذ لو قَبِلَ العبد ثم أعطىٰ لكان العبد معطياً ملكه وما يليق بعبوديته ، وحيث فوَّض إلى الله كان الله معطياً ملكه بلا واسطة العبد وما يليق بجوده وكرمه من الدوام والكثرة ؛ كما وصف [نفسه] بالرحمـٰن والرحيم ، وكم فرقٍ بين المِلْكين . انتهىٰ من هامش (و) .

وأمَّا الرابعُ : فقد أُوتيَ نعيمَ الدنيا مصفّىً عن خُبْثِها ؛ كما صُفِّيَتْ نفسُهُ عن دنسِها ، فقَبِلَها ليجودَ بها علىٰ خلقِهِ تحقيقاً عليهم كرمَ اللهِ بفعلِهِ ، فاستأثرَ بالحظِّ قبلَ أنْ آثرَ ، وأثبتَ الجودَ لنفسِهِ قبلَ أنْ أظهرَ[1] ، لـٰكنَّهُ جادَ علىٰ خلقِهِ مكانَ شكوى الثالثِ ورضا الأوَّلِ ، وعملَ للهِ مكانَ سكوتِ الأوَّلِ وسؤالِ الثالثِ .

فصارَ مقامُ الكرمِ أعلى المقاماتِ ، ثم مقامُ الجودِ ، ثم مقامُ الرضا ، ثم مقامُ الافتقارِ[2] .

[أحوالُ رزقِ الناسِ في منازلِ الدنيا]

والناسُ في منازلِ الدنيا علىٰ أربعةِ أقسامٍ : قسمٌ رأوهُ مِنَ الدنيا بالأسبابِ[3] ، وقسمٌ اتَّكلوا[4] ، وقسمٌ رأوهُ بالأسبابِ مِنَ المولىٰ ، وقسمٌ توكَّلوا .

فالأوَّلونَ : عامَّةُ الناسِ مِنَ الذينَ لم يعلموا إلا ما أدركوا بحواسِّهم ، فأقبلوا على الأسبابِ بأنفاسِهم ، غادينَ إلىٰ تَعَبٍ ، رائحينَ بنَصَبٍ ، ما باينوا الأنعامَ إلا بفَرْطِ الكدِّ بدعوةِ الأملِ ، وترْكِ التمتُّعِ في مدَّةِ المَهَلِ ، فأولـٰئكَ

---

(١) أي : قبل أن أظهر الجودَ بواسطة الإيثار والردِّ كما فعله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو نهاية مقام إبراهيم ، وبداية مقام نبينا صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ من هامش (و) ، والمعنىٰ : استأثر بالحظِّ قبل إيثاره ، وأثبت الجود لنفسه قبل إظهاره .

(٢) مقام الكرم : للذي عرض عليه فلم يقبل ، ومقام الجود : للذي أُعطِي فقبل ، ومقام الرضا : للذي زويت عنه الدنيا فلم يطلبها ، ومقام الافتقار : للذي لم يُعطَ فطلبها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الضمير في قوله : (رأوه) راجع إلى الرزق .

(٤) يعني : علىٰ أموال الناس ؛ كالسُّؤَّال والمتطفِّلين والبطَّالين .

الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ لهم : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، معَ ما لم يصلوا إليهِ إلا بخدمةِ الأنعامِ ، أو صحبةِ الطَّغامِ[١] .

وأمَّا المتَّكلونَ : فالمُكْدُونَ الذينَ لا يرونَ رزقَهم إلا مِنْ أموالِ غيرِهم[٢] ، فيتكفَّفونَهم خاضعينَ بالسؤالِ مِنْ خيرِهم ، وإنَّهم لشرُّ الفريقينِ في بابِ الطلبِ والجُشوعِ[٣] ؛ فالأوَّلونَ ما رجعوا فيما باشروا مِنَ السببِ إلىٰ ذلٍّ وخُضوعٍ ، وما لهٰؤلاءِ إلىٰ غيرِ مذلَّةٍ وهوانٍ مِنْ رجوعٍ ، وإنَّ الذلَّ والهوانَ لأحطُّ منزلةً مِنَ الكدِّ والسؤالِ ، والأخذَ أدونُ درجةً مِنَ البخلِ .

وأمَّا الطالبونَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بأسبابٍ : فعامَّةُ المسلمينَ ؛ باشروا الأسبابَ بظاهرِ الشرعِ[٤] ، وتوكَّلوا على المسبِّبِ بحقيقةِ الأمرِ ؛ كما قالَ النبيُّ عليهِ السلامُ للأعرابيِّ الذي قالَ : أَأُرْسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ ؟ : « بلِ اعْقِلْها وتوكَّلْ »[٥] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١][٦] ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

---

(١) الطَّغام : أوغاد الناس ممن يعمل بطعام بطنه ، ويقال للواحد والجمع .

(٢) المكدون : جمع مُكْدٍ ؛ الملحُّ في المسألة .

(٣) في هامش (ب) : (الجشوع : الحرص) ، وفي سائر النسخ : (الخشوع) بدل (الجشوع) .

(٤) بما ندب إليه أو أباحه من أسباب الكسب الحلال ؛ كالبيع ، والغنيمة ، والهبة ، والوصية ، والصدقة ، والركاز ، والجُعالة ، والصيد ، وأخذِ ما لا مالك له مما هو مباح في ملك الله تعالىٰ .

(٥) رواه الترمذي (٢٥١٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٦) الثُّبات : الجماعات المتفرقة ، واحدها : ثُبَةٌ .

وكانَ عليهِ السلامُ إذا خرجَ إلى الغزْوِ لبسَ درعَهُ ، ويومَ أُحُدٍ ظاهرَ بينَ درعينِ(١) ، وكانَ يَنْصِبُ الحرَّاسَ ، حتىٰ نزلَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧](٢) ؛ إذْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ قدوةً للمسلمينَ كافَّةً(٣) .

وفيما ذكرناهُ صلاحُ العامَّةِ ؛ إذْ توكُّلُهم على اللهِ تعالىٰ لا يبلغُ منزلةً تلغي السببَ ، فذاكَ أعلى الرُّتَبِ ، لا ينالُهُ كلُّ أحدٍ(٤) .

---

(١) يعني : جمع بينهما ، رواه أبو داود (٢٥٩٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٥٢٩) ، وابن ماجه (٢٨٠٦) من حديث سيدنا السائب بن يزيد رضي الله عنه .

(٢) روى البخاري (٢٨٨٥) ، ومسلم (٢٤١٠) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم سَهِرَ ، فلما قدم المدينة قال : « ليت رجلاً من أصحابي يحرسني الليلة » ؛ إذ سمعنا صوتَ سلاح ، فقال : « من هـٰذا ؟ » ، فقال : أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك ، ونام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية عند مسلم : وقع في نفسي خوفٌ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أحرسُهُ ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نام .

وروى الترمذي (٣٠٤٦) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحْرَسُ حتىٰ نزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسَهُ من القبة فقال لهم : « يا أيُّها الناس ؛ انصرفوا ؛ فقد عصمني الله » .

(٣) هـٰذا تعليل لإظهار النبي صلى الله عليه وسلم الأخذ بالأسباب .

(٤) قال الحافظ ابن بطال في « شرح صحيح البخاري » (٤٠٦/٩) : (**ومن سنَّتِهِ صلى الله عليه وسلم** : أن يحترز من عدوِّه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُدٍ ؛ من مظاهرته بين درعين ، وتغفُّره بمغفرٍ يتقي به سلاح المشركين ، وإقعاده الرماة علىٰ فم الشعب ليدفعوا من أراد إتيانه ، وكصنيعه الخندق حول المدينة حصناً للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكُّل والثقة بربه بمحلٍّ لم يبلغه أحد .

ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد ؛ من تحوُّلهم عن منازلهم ؛ مرة إلى الحبشة ، ومرة إلىٰ مدينته عليه السلام ؛ خوفاً علىٰ أنفسهم من مشركي مكة ، وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم إياهم . =

فمَنْ تسبَّبَ بقَدْرِ الكفايةِ كانَ عَدْلاً[١] ، ومَنْ تسبَّبَ للتكثيرِ كانَ رَذْلاً ، وخفْنا أنْ يكونَ في دعوىٰ توكُّلِهِ كاذباً ، فإنْ لم يكنْ فلازمٌ عليهِ السَّفَهُ ؛ جمعٌ في غيرِ منفعةٍ ، ومنعٌ في وقتِ الحاجةِ لا لمتعةٍ .

وأمَّا المتوكِّلونَ : فهم خاصَّةُ المسلمينَ ، الذينَ اطمأنَّتْ قلوبُهم إلى الضمانِ ، وانشرحَتْ صدورُهم بنورِ الإيقانِ ، فتأتيهمُ الكفايةُ كما تأتي الأجنَّةَ والطُّفُولَ والدوابَّ ، التي ما في أيديها إلىٰ أرزاقِها مِنْ أسبابٍ ، يرزقُها اللهُ تعالىٰ وإيَّاهم وهوَ العليمُ القديرُ .

وبلغَنا : أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ زمنَ رسولِ اللهِ عليهِ السلامُ كانوا مِنَ المتوكِّلينَ[٢] ، فلمَّا كانَ عهدُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وخَلَفَهم خَلْفٌ بدَّلوا طريقَهم

= وقد أحسن الحسن البصريُّ حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام علىٰ ماء ، فحال الأسد بينهم وبين الماء ، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته ، فقيل له : قد خاطرت بنفسك ، قال : لأن تختلف الأسنَّةُ في جوفي خير لي من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه : « قد خاف من كان خيراً من عامر ؛ موسىٰ عليه السلام حين قيل له : ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٠ـ ٢١] ، وقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : ١٨] ، وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيَّهم : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٧ـ٦٨] ») ، ثم قال : (ولو ترك السعيَ في طلب ما يتغذَّىٰ به حتىٰ هلك . . كان لنفسه قاتلاً ، وقد كان رسول الله يتلوَّىٰ من الجوع ما يجد ما يأكله ، ولم ينزل عليه طعام من السماء وهو أفضل البشر) .

(١) في (ب ، د ، هـ ، و) زيادة : (وفي دعوىٰ توكله صادقاً) .

(٢) روى البخاري (٦٤٥٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه خبراً فيه صفتهم ، ومنه : (وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلىٰ أهل ولا مال ولا علىٰ أحد ، إذا أتته ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها) .

بقلوبِهم ، وسلكوهُ بجسومِهم . . قالَ لهم عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : المتوكِّلونَ ، فطردَهم وقالَ : أنتمُ المتأكِّلونَ[١] .

ألا يعلمُ العبدُ لو حقَّقَ النظرَ أنَّ الأرزاقَ مقسومةٌ ، والأمورَ كلَّها مكتوبةٌ ، لا تبديلَ لما سبقَ وهوَ الحكيمُ العليمُ ، وأنَّ رزقَهُ لا يأكلُهُ غيرُهُ ؛ فلماذا خوفُ الفوتِ والهربُ ؟ ![٢] ورزقَ غيرِهِ لا وصولَ لهُ إليهِ ؛ فلماذا كدُّ الجَمْعِ والطلبِ ؟ !

كم مِنْ آكلٍ ممَّا جمعَ غيرُهُ ، وكم مِنْ جامعٍ لغيرِهِ خيرُهُ ! وكم مِنْ ميتٍ جوعاً ولهُ مالٌ ، وكم مِنْ ميتٍ شِبَعاً وريّاً ومالُهُ خالٍ ![٣] .

وإنَّما خوفُكَ الموتَ علىٰ نفسِكَ في توكُّلِكَ . . مِنْ حديثِ النفسِ ، فلن تموتَ نفسٌ إلا بما قُدِّرَ لها في الأزلِ ، ومَنْ كُتِبَ عليهِ القتلُ لبرزَ إليهِ في المنزلِ .

وقد قالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (علمتُ أنَّ رزقي لا يأكلُهُ غيري فاطمأنَنْتُ ، وعلمتُ أنَّ عملي لا يعملُهُ غيري فاجتهدتُ ، وعلمتُ أنَّ اللهَ يراني في كلِّ حالٍ فاستحييتُ ، وعلمتُ أنَّ الموتَ كائنٌ فاستعدَدْتُ لهُ)[٤] .

---

(١) وفي « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٤/ ٣٧٠) : (رأىٰ عمر رجلاً مطأطئاً رأسه ، فقال : ارفع رأسك ؛ فإن الإسلام ليس بمريض ، ورأىٰ رجلاً متماوتاً ، فقال : لا تُمت علينا ديننا ، أماتك الله) .

(٢) في هامش (د ، هـ ، و) : (أي : الهرب من التوكل) .

(٣) في هامش (و) : (« مالُهُ » بالرفع ، « خالٍ » بالخاء المعجمة ؛ ليس له مال ؛ من خلا يخلو ، وفي نسخة بالحاء المهملة ، و« ما لَهُ » بالفتح ؛ أي : حالُ الأغنياء) .

(٤) روىٰ أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٧٣) عن حاتم الأصم غلامِ شقيق البلخي وقد قيل له : علامَ بنيتَ علمك ؟ قال : علىٰ أربع : علىٰ فرض لا يؤدِّيه غيري فأنا به مشغول ، =

وقالَ الرسولُ عليهِ السلامُ : « إنَّ الروحَ الأمينَ نفثَ في رُوعي : أنَّ نَفْساً لن تموتَ حتىٰ تستوفيَ رزقَها ، فاتقوا اللهَ وأجملوا في الطلبِ »[١] .

[مباشرتُكَ لِمَا يصلحُ آخرتَكَ علامةُ فلاحِكَ]

فقالَ : فعلىٰ هـٰذا يجبُ تـرْكُ العبـاداتِ ؛ فمـا بجَهْـدِهِ يتغيَّـرُ الحُكْـمُ الماضي ، ولا يرجعُ بسببِهِ عن قضائِهِ القاضي[٢] .

فقلتُ : أجلْ ، غيرَ أنَّ اللهَ تعالى ابتلانا في أسبابِ الآخرةِ خلافاً لأنفسِنا بفعلِها إلا لعذرٍ[٣] ، وفي أسبابِ الدنيا ابتلانا خلافاً لأنفسِنا بتركِها إلا لحاجةٍ ، فما الابتلاءُ إلا في جهادِ النفسِ ، وسببُ السعادةِ هوَ الطاعةُ في الأصلِ[٤] ،

= وعلمت أن رزقي لا يجاوزني إلىٰ غيري فقد وثقت به ، وعلمت أني لا أخلو من عين الله طرفةَ عين فأنا منه مستحْيٍ ، وعلمت أن لي أجلاً يبادرني فأبادره .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٢٩١٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ١٩٤) من حديث سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، وفي هامش (هـ ، و) : (**الإجمال في الطلب** : أن يطلب على الوجه المشروع وقدر الكفاية) ، **والرُّوع** : القلب أو الروح أو العقل ، ووقع هـٰذا النفث من غير سماع ظاهر بالأُذن ، **والروح الأمين** : سيدنا جبريل عليه السلام .

(٢) **القاضي** : هو الله سبحانه وتعالىٰ ، فما قضاه جلَّ وعزَّ ماضٍ لا يمكن أن يتخلَّف ، وأراد القضاء المبرم ، وما كانت هِمَمُ الرجال لتَخْرِق أسوار الأقدار ، **والمعنىٰ** : إن كان الإنسان يأتيه رزقه لسَبْقِ قضائه سبحانه . . فليتركِ العملَ والاجتهاد في أمر آخرته ؛ إذ الشقاوة والسعادة سبقتا وهو في بطن أمه !

(٣) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] ، وقال جلَّ من قائل : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

(٤) أي : في أصل الأمر . انتهىٰ من هامش (هـ) .

فتدلُّ مباشرةُ أسبابِ الآخرةِ على السعادةِ ، ومباشرةُ أسبابِ الدنيا على الشقاوةِ .

[المولىٰ ضمنَ لنا الدنيا ، ولم يضمنِ الآخرةَ ابتلاءً]

ودليلُ ذلكَ : أنَّ الحكيمَ عزَّتْ قدرتُهُ لمَّا جعلَ الآخرةَ جزاءً ـ والجزاءُ لا يكونُ إلا لاحقاً ـ عُلِمَ أنَّ العملَ لها سابقٌ ، ولمَّا جعلَ الدنيا متاعاً لكَ وهي كانَتْ قَبْلَكَ عُلِمَ أنَّكَ بلا عملٍ لها بها لاحقٌ[1] ، ولأنَّهُ خَلَقَنا فيها للابتلاءِ بالعباداتِ[2] ، وذلكَ بالعملِ ، فعُلِمَ أنَّهُ حقٌّ مطلوبٌ ، وبنى الخطابَ بها علىٰ قدرةٍ لا تنالُها إلا بالرزقِ ، ثم لم يُلزِمْنا طلبَهُ ، فعُلِمَ أنَّ الرزقَ مضمونٌ .

فإنِ اشتبهَتْ عليكَ هـٰذهِ الجملةُ[3] : فاقرأْ كتابَ اللهِ ، وعُدَّ الأوامرَ بجَمْعِ المالِ ، والأوامرَ بصالحِ الأعمالِ ، وضمانَ المغفرةِ بغيرِ سببٍ ، وقِرانَ الرزقِ بالطلبِ ؛ أليسَ قد قالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] .

وقالَ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : ١٣٢] .

---

(١) يعني : خلقنا مولانا ، وجعل الآخرة جزاء لأعمالنا في الدنيا ، فعلمنا أن العمل للآخرة بأخذ أسباب النجاة مقدَّمٌ عليها ؛ لأن الجزاء لا يكون إلا بعد العمل ، وخلق مولانا الدنيا قَبْلَنا ، فعلمنا أننا مدركو متاعنا فيها ، وأن أرزاقنا لاحقة بنا إن نحن انفضضنا عنها .

(٢) إذ قال جلَّ من قائل : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] .

(٣) فظننت أن نحو قوله تعالىٰ مثلاً : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك : ١٥] . أمرٌ بوجوب طلب الرزق ، واتفق العلماء علىٰ أنه أمرٌ للإباحة في المشي والأكل .

وقالَ : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، قرنَ التهلُكةَ بالبخلِ الذي يُبقي المالَ ، والنجاةَ بالإنفاقِ الذي يُتْلفُهُ ، فكيفَ ظننتَ أنتَ النجاةَ بالبخلِ ، والهُلْكَ بالجودِ ؟!

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السعيدُ مَنْ سَعِدَ في بطنِ أمِّهِ ، والشقيُّ مَنْ شَقِيَ في بطنِ أمِّهِ »[1] ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ففيمَ العملُ ؟ فقالَ : « كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ » ، ثم تلا قولَهُ تعالىٰ : « ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ »[2] .

فأشارَ إلىٰ أنَّ السعادةَ مقرونةٌ بعملِ الخيرِ ، وبدأَ تفسيرَهُ بالإعطاءِ والبذلِ ، والشقاوةَ مقرونةٌ بعملِ الشرِّ ، وفسَّرَهُ بالاستغناءِ والبخلِ ، فكلُّ نوعٍ مِنَ العملِ دليلٌ علىٰ ما عُلِّقَ بهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٨ـ ٤٠] .

وأمَّا الرزقُ : فممَّا ضمنَهُ اللهُ تعالىٰ لخلقِهِ ؛ لأنَّهم عبادُهُ لا لأنَّهم عابدوهُ بحقِّهِ ، فقدِ اشتركَ الناسُ والوحوشُ فيما يَبْقَوْنَ برزقِهِ ، وإنَّما الأسبابُ الظاهرةُ ليبتلِيَنا بتركِها إلىٰ ما ضمنَ في الأزلِ إلا لحادثِ أمرٍ[3] ؛ كأسبابِ الآخرةِ التي

---

(١) إلى هنا رواه البيهقي في « القضاء والقدر » (١٠٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى البخاري (٤٩٤٥) ، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه قال : كنَّا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة ، فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كُتبَ مقعدُهُ من الجنة ، ومقعدُهُ من النار » ، فقالوا : يا رسول الله ؛ أفلا نتَّكلُ ؟ فقال : « اعملوا ، فكلٌّ ميسَّرٌ » ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ـ ١٠] ، وللخبر ألفاظ وروايات كثيرة تفيد ما هنا .

(٣) كالأخذ بالأسباب عند الضرورة ؛ إذ ترك السبب عندها معصية .

هي خلافُ النفسِ ليبتليَنا فيها بالعملِ إلا لعارضِ عذرٍ[١] ، أمْ أنتَ أطعتَ النفسَ وقلبْتَ القصَّةَ ؛ فتركتَ أعمالَ الآخرةِ اعتماداً على ضمانِ المغفرةِ مقروناً بأصلِ الجبلَّةِ[٢] ، وباشرتَ أسبابَ الرزقِ لتعلُّقِهِ بتلكَ الجملةِ .

فقالَ : فلا نظنُّ أحداً أعلىٰ رتبةً مِنَ الرسولِ الأمينِ المبينِ ، الذي أكملَ اللهُ بهِ الدينَ ، وأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يتسبَّبُ للرزقِ[٣] ، ويتسبَّبُ لغيرِهِ مِنَ الخلقِ[٤] .

قلتُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عُرِضَتْ عليهِ الدنيا لمَّا توكَّلَ ، لـٰكنَّهُ أعرضَ عنها استهانةً بها ، وإيثاراً لغيرِهِ ، وتركاً لراحةٍ تنالُهُ بمالِ الدنيا وخيرِهِ ، ثمَّ اشتغلَ بالسببِ خلافاً لنفسِهِ فيما ينالُ مِنَ الدَّعَةِ بتركِ السببِ[٥] ، وتفريغاً لقلوبِ الناسِ عن كفايتِهِ بما أَتَىٰ مِنَ الطلبِ ، ووصولاً إلىٰ إقامةِ كفايةِ المحتاجينَ ؛ مِنَ الفقراءِ والمساكينِ ، لا أنَّهُ رأىٰ منهُ رزقَهُ مضموناً ، بل لينالَ بالطلبِ بتلكَ النيَّاتِ معَ حقيقةِ التوكُّلِ ثوابَ العملِ[٦] .

---

(١) كترك الطاعة الواجبة لنحو عذر مرض مثلاً .

(٢) كلهم يولد على الفطرة . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٣) كتجارته صلى الله عليه وسلم ورعيه الغنم قبل النبوة ، وأما بعد النبوة فلم يباشر عليه الصلاة والسلام أسباب الرزق المعتادة ، بل جعل الله تعالىٰ رزقه صلى الله عليه وسلم مما أحلَّ الله له من الفيء والغنيمة ، وسبق أنه أطيب الكسب .

(٤) روى البخاري (١٤٧١) من حديث سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه مرفوعاً : « لأن يأخذَ أحدكم حبلَهُ ، فيأتيَ بحزمة الحطب علىٰ ظهره ، فيبيعَها ، فيكفَّ اللهُ بها وجهه . . خيرٌ له من أن يسأل الناس ؛ أعطوه أو منعوه » .

(٥) فتكون المباشرة في مثل هـٰذه الأسباب للرزق كمباشرة أسباب الآخرة ؛ لمشاركتها في خلاف دعوى الطبيعة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) في (د ، هـ) زيادة : (في إظهار الحقِّ من قسمة الرزق) .

ثم طلبَهُ بأسبابِ ابتلانا اللهُ تعالىٰ بفعلِها ممَّا تكرهُها النفوسُ ؛ مِنْ قتالِ المشركينَ ، ورعايةِ المسلمينَ ، لا بالأسبابِ التي هي أسبابُ عِمارةِ الدنيا ؛ ممَّا ابتلانا فيها بالتركِ ؛ مِنْ تجارةٍ أو حراثةٍ أو صناعةٍ ؛ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « جُعِلَ رزقي تحتَ ظلِّ رُمْحي »[1] ، وإنَّ تلكَ الدرجةُ المتناهيةُ عُلُوّاً ، الجامعةُ بينَ العبوديَّةِ والعبادةِ .

فالتوكُّلُ عبوديَّةٌ ، والطلبُ بسببٍ هو عبادةٌ . . عبادةٌ .

وكما كانَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خيرُ الأممِ . . كانَ علىٰ أعلى الهِمَمِ ، وذروةِ سنامِ الكرمِ ، علىٰ أنَّ الرسولَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ مقتدىً بهِ ، فباشرَ سبباً لرزقِهِ ممَّا هو عبادةٌ بنفسِهِ ؛ ليكونَ في ظاهرِهِ صلاحُ العامَّةِ ، وفي باطنِهِ صلاحُ الخاصَّةِ[2] ؛ ليتمَّ عندَهُ فائدةُ الاقتداءِ ، وعائدةُ الاهتداءِ .

[إنَّما الصبرُ بتركِ الجزعِ]

قالَ : فإذاً قد رجَّحْتَ مقامَ الصبرِ ـ وذلكَ مقامُ الفقرِ ـ علىٰ مقامِ الشكرِ ،

---

(١) علَّقه البخاري (٤/ ٤٠) بقوله : (باب ما قيل في الرماح ، ويُذكر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « جُعلَ رزقي تحت ظلِّ رمحي ، وجُعلَ الذلَّةُ والصَّغار علىٰ من خالفَ أمري ») ، ورواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٠) وزاد : « ومن تشبَّه بقوم فهو منهم » .

وأما حديث : « إن لي حرفتين اثنتين ؛ من أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني ؛ ألا وهما الجهاد والفقر » . . فقال الحافظ ابن عراق في « تنزيه الشريعة » (٢/ ١٨٢ـ ١٨٣) : (من حديث أنس ، وفيه ثلاثةٌ كذابون علىٰ نسق ؛ محمد بن تميم ، عن عثمان بن عبد الله القرشي ، عن غُنيم بن سالم) .

(٢) فكانت مباشرة الأسباب سنةَ ظاهره ، والتوكُّلُ على الله تعالىٰ سنةَ باطنه صلى الله عليه وسلم .

والصبرُ ضروريٌّ ، والشكرُ اختياريٌّ ، وما مقامُ صاحبِ الاضطرارِ ، كمقامِ المختارِ .

قلتُ : إنَّكَ أيُّها الأخُ إلى الاسترشادِ أحوجُ منكَ إلى الاحتجاجِ قبلَ الفهمِ ؛ فإنَّكَ تتكلَّمُ في المقامينِ وما لكَ بهما مِنْ علمٍ ؛ أمضطرٌّ مَنْ تركَ الغَناءَ مختاراً ؟! أصابرٌ مَنْ طلَّقَ البرصاءَ فراراً ؟!

إنَّما مقامُ الصبرِ عندَ تركِ الجزعِ علىٰ ما كرهَهُ كَرْهاً ، لا عندَ النجاةِ عنِ الحجابِ والحسابِ طوعاً ، وسيأتيكَ شرحُ ذلكَ في (ذكرِ الدنيا) إنْ شاءَ اللهُ[1] .

وقد سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذي اختارَ اللهَ وتركَ الدنيا عن جَهْدِهِ في عملِهِ[2] ، فقالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ؟! »[3] .

وقد سُئِلَ واحدٌ : مَنِ الزهَّادُ ؟ فقالَ : الذينَ إذا وَجدوا شكروا ، وإذا فَقدوا صبروا ، فقيلَ لهُ : وكذلكَ الكلابُ ! فقالَ : مَنْ هم ؟ فقيلَ لهُ : الذينَ إذا وَجدوا آثروا ، وإذا فَقدوا شكروا[4] .

---

(١) انظر (ص٣٣٣ ، ٣٤٦) .

(٢) صلاة الليل وغيرها . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٣) رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) من حديث سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٤) روىٰ أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٣٧) عن حذيفة المرعشي قال : دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم ، فإذا شقيق البلخي قد حجَّ في تلك السنة ، فاجتمعنا في شِقِّ الطواف ، فقال إبراهيم لشقيق : علىٰ أيِّ شيء أصَّلتُم أصلكم ؟ قال : أصَّلْنا أصْلَنا علىٰ أنَّا إذا رُزقنا أكلنا ، وإذا مُنعنا صبرنا ، فقال إبراهيم : هٰكذا تفعل كلاب بلخَ ، فقال له شقيقٌ : فعلىٰ ماذا أصَّلْتم ؟ قال : أصَّلْنا علىٰ أنَّا إذا رُزقنا آثرنا ، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا ، فقام شقيق فجلس بين يدي إبراهيم ، فقال : يا أستاذُ ؛ أنت أستاذُنا .

فقالَ : ما تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذاً : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكم ثلاثٌ : النساءُ ، والطِّيبُ ، وجُعلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاةِ »[1] ، وقد ذكرتَ أنَّها عُرِضَتْ عليهِ منكوحةً فطلَّقَها ، ومملوكةً فأعتقَها ، فكيفَ أحبَّ منها النساءَ والطِّيبَ ؟

قلتُ : إنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبانَ بقولِهِ : « دنياكم » أنَّها ليسَتْ لهُ ، وأبانَ بقولِهِ : « حُبِّبَ إليَّ » أنَّ الذي بيدِهِ القلوبُ حَبَّبَ إليهِ منها النساءَ ؛ لأنَّ في النكاحِ وِصالاً وإحساناً قبلَ قضاءِ الشهوةِ ، ووجوبَ نفقةٍ ورعايةٍ ، وضروبَ مِحْنةٍ مِنْ جنسِ ما يكونُ في رعايةِ الأمَّةِ .

ثم فيهِ إقامةُ حُكْمِ اللهِ تعالىٰ عُلِّقَ بفعلِنا ؛ مِنْ تعلُّقِ بقاءِ العالمِ بنسلِنا ، ولا نسلَ إلا بالماءِ ، وبقاءٌ عُلِّقَ بماءِ رجلٍ لا يُتصوَّرُ مِنْ ماءِ غيرِهِ ، ولا يُتصوَّرُ مِنْ مائِهِ علىٰ ما شرعَ اللهُ تعالىٰ إلا بعدَ مِلْكٍ ، ولا مِلْكَ إلا بعدَ سببِهِ

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه بلفظ : « حُبِّبَ إليَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجُعلَ قرَّةُ عيني في الصلاةِ » ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٣/ ٣٧٠) : (ومن زاد ـ كالزمخشري والقاضي ـ لفظَ « ثلاث ».. فقد وَهِمَ ، قال الحافظ العراقي في « أماليه » : لفظ « ثلاث » ليس في شيء من كتب الحديث ، وهي تفسد المعنىٰ) .

قال العلامة القاري في « مرقاة المفاتيح » (٨/ ٣٢٩٤) : (الصلاة عند الجمهور : محمولة على العبادة المعروفة ، وقيل : المراد بالصلاة في هـٰذا الحديث الصلاةُ عليه ، عليه الصلاة والسلام وشرفه لديه) ، وإنما اختار الجمهور أنها العبادة المعهودة لكونها محلَّ مناجاة الحقِّ سبحانه ، وجعلت قُرَّةَ عينه عليه الصلاة والسلام ـ وهو منتهى الراحة ـ لذلك ، فلا يتصوَّر منه مَلالٌ لها ولو أضرَّت ببدنه عند طول القيام عليه الصلاة والسلام ؛ فقد كان يرىٰ ما عداها تعباً ، ولذا قال : « أرحنا بها يا بلال » .

المشروعِ ، فصارَ مُبْتَلىً بفعلِهِ ؛ طاعةً لربِّهِ في إقامةِ حكمِهِ ، بما شرعَ لهُ مِنْ سببِهِ[1] .

ولأنَّا أُمرنا بالجهادِ لتبديلِ صفةِ الكفرِ بالإيمانِ خوفاً مِنَ القتلِ ، وفي النكاحِ تسبيبٌ لإيجادِ المؤمنِ مِنَ الأصلِ[2] ، غيرَ أنَّهُ عُلِّقَ بالشهوةِ ليكونَ أدعىٰ إلىٰ إقامةِ ما فيهِ بقاءُ العالمِ إلىٰ يومِ القيامةِ .

فأمَّا بقاءُ الحياةِ المعلَّقُ بأكْلِ الرجلِ مِنْ خيرِهِ : فممَّا يكونُ بمالِ غيرِهِ ، فلا يفوتُ حُكْمُ اللهِ بإعراضِهِ عنِ التكسُّبِ ، إلى التوكُّلِ والترهُّبِ .

فصارَ الأصلُ في بابِ الرزقِ ـ لمَّا كانَ يحصلُ بالمباحِ ـ الإعراضَ عن سببِ المِلْكِ ، إلا إذا خافَ الفقرَ[3] ، وفي بابِ بقاءِ الجنسِ بالنسلِ ـ لمَّا لم يُشرعْ بغيرِ مِلْكٍ ـ الاشتغالَ بسببِهِ ، إلا إذا خافَ الظُّلْمَ[4] .

وأمَّا الطِّيبُ : فإنَّهُ حظُّ الروحِ والملائكةِ ، حتىٰ لا يكادُ ينتفعُ بأصلِهِ إلا الروحانيُّونَ مِنْ بينِ الحيواناتِ ، والملائكةُ رُسُلُ اللهِ والروحُ مِنْ أمرِهِ جاءَ مِنْ عندِهِ مِنْ بينِ الموجوداتِ[5] ، فكانَ الطِّيبُ مِنْ حظوظِ أهلِ الآخرةِ ،

---

(١) وهو إما ملك اليمين ، أو ملك النكاح . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٢) ولو كان عاصياً ، ولذلك قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٣/ ١١٣) : (وقولُ القائل : إن الولد ربما لم يكن صالحاً . . لا يؤثِّرُ ؛ فإنه مؤمن ، والصلاحُ هو الغالب علىٰ أولاد ذوي الدين ، لا سيما إذا عزم علىٰ تربيته وحمله على الصلاح) .

(٣) فيتعيَّن الأخذُ بأسباب الكسب .

(٤) فيتعيَّن الامتناعُ من النكاح ؛ كخوفه مثلاً من عدم القدرة على النفقة وأداء الحق .

(٥) ووصف الملائكة بأنها تتأذَّىٰ بالروائح الخبيثة ؛ لما في مدة النشأة العنصرية من التعفين ؛ بأنَّ الإنسان مخلوق من صلصال من حمأ مسنون متغيِّر الريح ، فتكرهه الملائكة بالذات ؛ لطهارة نشأتهم عن العفونات والفضلات المنتنة ، ولذلك أُمرنا بطهارة الثوب والبدن ودوام=

وإنْ كانَتْ جواهرُهُ في الدنيا ظاهرةً .

وأمَّا **الصلاةُ** : فرأسُ العباداتِ ظاهرةً وباطنةً ، فكانَ ذكرُ الصلاةِ معهما دليلاً علىٰ أنَّ المذكورَينِ قبلَها في المعنىٰ مثلُها[1] .

ولهٰذا : قدَّمَ العلماءُ النكاحَ على التخلِّي لعبادةِ اللهِ[2] ، وجعلوا التطيُّبَ مِنْ سنَّةِ يومِ العيدِ والجمعةِ وآدابِ سائرِ الصلواتِ للهِ .

[موجباتُ تركِ الطمعِ]

فإذا عرفَ العبدُ نظامَ الأمرِ في القناعةِ : أعرضَ عنِ الأسبابِ التي لم يُبتلَ العبدُ بفعلِها لولا الشهواتُ الداعيةُ إليها طلباً للراحةِ والدَّعَةِ ، قبلَ أنْ ينظرَ إلى التقوىٰ والرِّعَةِ[3] ، ثم ينظرُ فيما يدعوهُ إلىٰ تركِها ، فيجدُ نَشْأَهُ مِنَ الطمعِ فيما ليسَ عندَهُ ، حتىٰ إذا تأكَّدَ طمعُهُ حَرَصَ علىٰ طلبِهِ ، **فيلزمُهُ بموجَبِ العبادةِ تركُ الطمعِ لِمَا فيهِ مِنْ قبائحَ أربعةٍ** : أوَّلُها : الكفرانُ الظاهرُ ، ثمَّ الفقرُ الحاضرُ ، ثمَّ الذلُّ اللازمُ ، ثمَّ الأسفُ الدائمُ .

لأنَّهُ لا يطمعُ فيما ليسَ عندَهُ حتىٰ يستقلَّ حظَّهُ ، ولا يستقلُّ حظَّهُ حتىٰ يقومَ عن مقامِ الشكرِ ، ولن يقومَ عن مقامِ الشكرِ إلا بضدِّهِ ؛ وهوَ الكفرانُ ، وإنَّهُ سببُ ذهابِ القديمِ[4] ، دونَ وجدانِ النعيمِ ، **فلن يزدادَ العبدُ كفراناً ـ**

= الوضوء ، واستحباب استعمال الروائح الطيبة ؛ لتحصل المناسبة بيننا وبين الملائكة ، فنلحقَ بالطيِّبين . انتهىٰ من هامش (و) .

(١) والمذكوران قبلُ : الطيب والنساء . مفادٌ من هامش (د ، هـ) .

(٢) في (أ) : (لنفل العبادة) بدل (لعبادة الله) ، وهي كالشرح لما هنا .

(٣) الرِّعَةُ : الورع ، والهدي والأدب ، يقال : فلان سيِّئ الرِّعة ؛ أي : قليل الورع .

(٤) أي : النِّعَم السابقة . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

وهو رأسُ القبائحِ ـ إلا ازدادَ حرماناً .

ثم يتحوَّلُ عنهُ في قيدِ الافتقارِ إلىٰ شكلِهِ ، وقد أطلقَهُ اللهُ عن مثلِهِ ؛ وذلكَ لأنَّ المطموعَ ، حظٌّ هو عنهُ ممنوعٌ ، فإذا أرادَهُ ـ ولا يجدُهُ عندَهُ ـ كانَ العدمُ فقراً اختياراً ، ثم يسعىٰ إلىٰ ذي اليدِ ليطلبَهُ منهُ فكانَ افتقاراً ، وأيُّ سفهٍ وقبحٍ أعظمُ مِنْ سعْيِ عاقلٍ لردِّ فقرِهِ ، بما يزيدُ فقراً في أمرِهِ ؟!

ثم يتحوَّلُ إلىٰ مجلسِ الذلِّ ؛ إذْ سعْيُ الطامعِ معَ القلَّةِ سعْيُ طالبِ وسائلٍ عنِ افتقارٍ ، لا سعْيُ مغالبٍ على اقتدارٍ ، وإنَّما يتمُّ سعْيُ الفقيرِ بالتذلُّلِ والاستكانةِ ، أوِ المَلَقِ والخيانةِ[1] ، وكلُّها خصالٌ قبيحةٌ غيرُ مرضيَّةٍ لمختارٍ ، ومناهلُ أُجاجٌ غيرُ مأتيَّةٍ إلا عنِ اضطرارٍ .

ثم يَحُلُّ إذا افتقرَ وسعىٰ وتذلَّلَ ، ورأىٰ ما في أيدي الورىٰ . . بميادينِ الأسفِ ، سقياها المُنىٰ ، وغراسُها البغيضةُ ، وجناها الأسىٰ ، فيجتني لنفسِهِ منها للوجهِ صُفرةً ، وللعينِ سُخْنةً ، وللقلبِ حسرةً .

فإذا تغذَّىٰ بها تولَّدَ منها علَّةُ الحسدِ ، وإنَّهُ لنارٌ تُحرِقُ الكبدَ ، وتأكلُ الجسدَ ، والمحسودُ عنهُ غافلٌ ، والطبيبُ بعلَّتِهِ جاهلٌ ، وما بعدَما تحسَّرَ بالفوتِ ، إلا تجرُّعُ كأسِ الموتِ ، علىٰ حالٍ قبيحٍ[2] ، وبالٍ جريحٍ .

---

(١) المَلَقُ هنا : أن تعطي باللسان ما ليس في القلب ، والمودَّة الممزوجة بالذلِّ .

(٢) أي : في مرض الحسد ، وليس له في هـٰذا الحسد فواتٌ ، ولأنه محلٌّ للترحُّم ؛ لأن علة الحسد ليست بسبب لكفارة الذنوب ، بخلاف سائر الأمراض . انتهىٰ من هامش (و) .

[فضائحُ الحرصِ]

ولئنْ أخطأهُ الأجلُ دعاهُ الشَّرَهُ إلى الحرصِ ، وقد وجبَ تركُهُ لفضائحَ أربعٍ : أوَّلُها إرقاقُ الجسمِ بلا متعةٍ ، ثم إعلانُ الفقرِ بلا حاجةٍ ، ثمَّ استعذابُ البخلِ بلا فائدةٍ ، واستحلاءُ الكدِّ بلا ثمرةٍ .

لأنَّ مَنْ حَرَصَ علىٰ شيءٍ دامَ عليهِ دوامَ الرقيقِ بوَثاقِ الرقِّ وعبادةِ العبيدِ في لباسِ الذلِّ لُبْسَ طواعيَةٍ ، بعَلَمٍ مِنَ الفقرِ أبداهُ علانيَةً .

فالفقرُ صفةٌ لازمةٌ للعبدِ لجانبِ مولاهُ ، مستورٌ عن أهلِ دنياهُ ، ما يُعْلِنُهُ إلا الحرصُ ، ولا يحملُهُ على الحرصِ إلا شَرَهُ النفسِ ، وأيُّ فضيحةٍ أسوأُ مِنْ إعلانِ الفقرِ للبشرِ ، وفيهِ ذهابُ القَدْرِ والمنزلةِ والخَطَرِ ؟![1] .

ألم يبلغْكَ قولُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (استغنِ عمَّنْ شئتَ وكُنْ نظيرَهُ ، وامنُنْ علىٰ مَنْ شئتَ وكُنْ أميرَهُ ، واحتجْ إلىٰ مَنْ شئتَ وكُنْ أسيرَهُ) ؟![2] .

فالطمعُ إحضارُ الفقرِ والحرصُ إظهارُهُ ، وذهابُ القَدْرِ والمنزلةِ ثمارُهُ .

بئسَتِ الشجرةُ وبئسَتِ الثمارُ ، وبئسَ التدبيرُ وبئسَ الاختيارُ .

---

(١) الخطر : القدر والرتبة .

(٢) رواه الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٦٤٠) عن بعض الحكماء ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨/ ١٦٩) : (هو من قول بعض الحكماء ، ومنهم من نسبه إلىٰ علي رضي الله عنه ، وقد روى البزار ، والطبراني في « الكبير » ، والعسكري في « الأمثال » ، والقضاعي في « المسند » من طريق الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رفعه : « استغنُوا عن الناس ولو بشَوْص السِّواك » ، ورجاله ثقات ، والأحاديثُ في القناعة والتعفُّف عن الناس مفردةٌ بالتأليف ، ومن أقربها لهٰذا المعنىٰ حديث : « لأن يأخذَ أحدكم حبلاً ، فيأتيَ بحزمة حطب علىٰ ظهره ، فيبيعَها ، فيكفَّ بها نفسه . خيرٌ له من أن يسأل الناس ؛ أعطوه أو منعوه ») .

وليتَهُ رجعَ إلىٰ فائدةٍ فيما أرقَّ نفسَهُ ؛ فقلَّ مَنْ حَرَصَ فلم يُحرمْ ، وقَلَّ مَنْ أنصفَ فلم يُنعَمْ ، غيرَ أنَّهُ أعلنَ فقرَهُ للجماعةِ ، وكانَ مستتِراً بالقناعةِ ، فلم يغنمْ بإرقاقِ جسمِهِ إلا حرماناً ، فربَّاهُ بإعلانِ فقرِهِ فأثمرَ هواناً ، فذاقَ منهُ فاستعذبَ البخلَ ، بما عندَهُ مِنَ الفضْلِ .

فمَنْ دعاهُ الحرصُ إلى الطلبِ ، بشرِّ سببٍ[١] . . ألزمَهُ منعَ الموجودِ ، وإساءةَ الظنِّ بالمعبودِ .

والبخلُ كتابُ عزْلِ المهابةِ والمحبَّةِ والحِشمةِ ، ومنشورُ المسكنةِ والبغضاءِ والخِسَّةِ[٢] ، فإذا تململَ في هـٰذهِ الولايةِ الدنيَّةِ[٣] ، بهمَّةٍ في الحرصِ عليَّةٍ . . ملَّ وتمنَّى الخروجَ منها[٤] ، فاستحلى الكدَّ ، واستراحَ إلى الجَهْدِ ، وقد خانَهُ جَدُّهُ[٥] ، وغَرُبَ سعدُهُ[٦] ، فسارَ عن مملكةِ البخلِ في طريقِ الجَهْدِ إلىٰ سجنِ الجَزَعِ ، في قيدٍ مِنَ الهَلَعِ ، لا راحةَ لهُ قَدْرَ نَفَسٍ ، ولا نجاةَ لهُ إلا بتَعَسٍ[٧] .

وإنْ قلتَ : كم مِنْ طامعٍ نالَ ، وحريصٍ تموَّلَ !

---

(١) كالغصب ، والسرقة ، والاحتيال ، والغشِّ ، والعقود الباطلة .

(٢) المنشور : الكتاب من السلطان غير مختوم ؛ إذ المراد منه إذاعته بين الناس ليعرف مضمونه .

(٣) تململ : اضطرب وتحرك . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي (أ ، ز) وأصل (هـ) : (تأمَّل) بدل (تململ) ، وفي هامشها نسخة كالمثبت .

(٤) أي : تمنى الانتقال من مقام استعذاب البخل إلىٰ مقام الكدِّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) الجَدُّ في الأمر : الاجتهاد فيه ، والجَدُّ : الحظُّ والنصيب .

(٦) غَرُبَ ـ بضم الراء ـ : بَعُدَ ، ولو قُرئ بفتح الراء على المعنى المشهور لم يبعد .

(٧) التَّعْسُ ـ وفتح العين لغة ـ : أن يخرَّ المرء علىٰ وجهه .

قلنا لكَ : أكانَ ما أصابَ عوضاً يُساوي ما لزمَهُ مِنَ الفضائحِ ، أو طُهْرةً عن دنسِ القبائحِ ؟!

وإنْ ساوىٰ وطهَّرَ . . فماذا أفادَ وأثمرَ ؟! هل أنالَهُ وراءَ المقسومِ حقّاً ، أو آتاهُ فوقَ الكفايةِ رزقاً ؟! إلا عذاباً مِنَ الكدِّ عاجلاً ، وحساباً على الجَمْعِ آجلاً ، علىٰ أنَّهُ قد نالَ مثلَ حظِّهِ في الناسِ مَنْ ليسَ بحريصٍ ، فما بالُهُ توشَّحَ بهـٰذهِ الفضائحِ وما واسطتُها إلا التنغيصُ ؟!

[موجباتُ تركِ الفرحِ]

فإذا قَنِعَ لم يفرحْ بما أتاهُ بوجوهٍ أربعةٍ[1] : اثنينِ في أنْ أتتْكَ نعمةً ، واثنينِ في أنْ أتتْكَ فتنةً .

أمَّا وجها النعمةِ : فإنَّ النعمةَ ذاتُ مهرٍ ، لا تقيمُ عندَكَ إلا بإيفائِهِ وهوَ الشكرُ ، وإنَّهُ المهرُ الغالي الذي أفلسَ الخلقُ عن وفائِهِ ؛ حتىٰ كانَ الدعاءُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرحمةِ موروثاً[2] ؛ ليخرجَ عن شكرِ نعمةِ

(١) تركُ الفرح هو القسم الثالث من المحن الأربعة المتعلِّقة بمقام الفقر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) روى البخاري في « الأدب المفرد » (٦٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من قال : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما صلَّيت علىٰ إبراهيم وآلِ إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آلِ محمد ، كما باركت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم ، وترحَّم علىٰ محمد وعلىٰ آلِ محمد ، كما ترحَّمت علىٰ إبراهيم وآلِ إبراهيم . . شهدتُ له يوم القيامة بالشهادة وشفعت له » .

وقد قال جمعٌ من الحنفية بجواز الترحُّم بُعيد الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ومنعه بعضٌ ، والمختار : أنه لا عيب علىٰ من اتبع الأثر ، ولأن أحداً لا يستغني عن رحمة الله تعالى . انظر « المحيط البرهاني » (١/ ٣٦٧ـ ٣٦٨) . =

خُصَّ بها مِنْ بينِ البشرِ ؛ فقد كانَ غُفرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ ، وحتىٰ تضرَّعَ سليمانُ صلواتُ اللهِ عليهِ إلى اللهِ تعالىٰ ليوزعَهُ شكرَ ما أنعمَ عليهِ وعلىٰ والديهِ[(١)] ، أمليٌّ لهُ أحدٌ بعدَ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ بما في يديهِ ؟![(٢)] كلَّا ، معَ

= والأصلُ في سؤال الرحمة للأنبياء : أنه لا يجوز ؛ لعصمتهم ، ولـٰكن لمَّا ورد طلبُها شرعاً دلَّ ذلك علىٰ جواز سؤالها لهم ، ونعتقد أنها من المتشابه الذي يجب تأويله بما يليق بمقامهم العليِّ عليهم الصلاة والسلام .

ولهـٰذا المعنىٰ منع بعض العلماء صيغة الترحُّم في حقِّ الأنبياء ؛ حتىٰ قال الإمام النووي في « الأذكار » (ص٢١٣) : (وأما ما قاله بعضُ أصحابنا وابنُ أبي زيد المالكيُّ من استحباب زيادةٍ علىٰ ذلك ؛ وهي : « وارحم محمداً وآلَ محمد » . . فهـٰذه بدعة لا أصل لها ، وقد بالغ الإمام أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه « شرح الترمذي » في إنكار ذلك ، وتخطئةِ ابن أبي زيد في ذلك ، وتجهيلِ فاعله ؛ قال : لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم علَّمنا كيفيةَ الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، فالزيادة علىٰ ذلك استقصار لقوله ، واستدراك عليه صلى الله عليه وسلم) .

وبمثل قول المانعين قال الصيدلاني من الشافعية ، وابن عبد البر من المالكية ، لـٰكن قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (١/ ٤٩٢) : (وليس كما قالوا ، وقد وردت هـٰذه الزيادة في الخبر ، وإذا صحَّت في الخبر صحَّت في اللغة) ، ثم قال : (ومما يشهد لجواز إطلاق الرحمة في حقِّه صلى الله عليه وسلم حديثُ أبي هريرة عند البخاري في قصة الأعرابي ؛ حيث قال : اللهمَّ ؛ ارحمْني ومحمداً ، ولا ترحمْ معنا أحداً ، فقال : « لقد تحجَّرتَ واسعاً » ، ولم ينكر عليه هـٰذا الإطلاق) .

ومحلُّ جواز الترحُّم : بعد الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز مفرداً ، وانظر « السراج المنير » للعزيزي (١/ ٢٧) ، ولا يخفىٰ أن المانعين بنَوا منعهم علىٰ تضعيف الآثار الواردة في ذلك ، وحملِ سكوته صلى الله عليه وسلم في دعاء الأعرابي على التواضع .

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] .

(٢) المليُّ : الغني ، والحسنُ القضاء من الأغنياء في إعطاء الدين وتسليمه لمتقاضيه من غير مشقة .

ما أنَّها علىٰ شَرَفِ الزوالِ ، ولعمري ؛ إنَّ همَّ الفراقِ لينافي فرحَ الوصالِ .

علىٰ أنَّا ذكرْنا أنَّها لا تزيدُ في متعتِكَ ، ولا عِزِّكَ ومَنَعَتِكَ ، إنَّما أثقلَ بدنَكَ ، وشغلَ قلبَكَ ؛ لتعلمَ أنَّ الدنيا دارُ محنةٍ ، لا دارُ نعمةٍ .

وأمَّا وجها الفتنةِ : فإنَّها ذاتُ غرورٍ وخداعٍ بحُسْنِ إقبالٍ ، وإطماعِ وصالٍ ، ثم مهرُها ـ وهي قينةٌ[١] ـ كلُّ عمرِكَ ، فإذا أوفيتَها كانَتْ لا بدَّ لغيرِكَ ، معَ ما أنَّكَ إذا ظننتَ اعتناقَها ، وأمنتَ فراقَها . . نسيتَ ربَّكَ ، فانتقلتَ مِنْ مجلسِ النسيانِ[٢] ، إلىٰ فرسِ الطغيانِ ، فبينَما أنتَ تجولُ في ميادينِ اللهوِ علىٰ فرسِكَ الطاغي . . إذْ سلبَكَ العِنانَ ، وجاوزَ بكَ الميدانَ ، فصرعَكَ في وادٍ ، لا يغيثُكَ فيهِ نادٍ ، ما لكَ وجهُ خروجٍ ، ولا وسْعُ عروجٍ[٣] .

والدنيا رافلةٌ عنكَ إلىٰ مثلِكَ بلا اعتدادٍ[٤] ، كما شاهدتَها أقبلَتْ عليكَ عن أعدادٍ[٥] ، أيفرحُ عاقلٌ بمثلِها ، أم يُسَرُّ بوصلِها ؟! ما لذي حزمٍ سرورٌ ، بالخديعةِ والغرورِ .

هـٰذا لكَ في الدنيا معَ ما لكَ منها في الآخرةِ مِنَ القطيعةِ والسَّعيرِ .

---

(١) القينة : الأمةُ ، فمثلها لا يُمهرُ أصلاً ، وفي (ب ، د ، هـ ، و ، ز) : (قُنية) بدل (قينة) ؛ وهي ما يقتنىٰ ، ولا معنىٰ لها هنا .

(٢) أي : إذا أردت الانتفاع بها ففيه فسادٌ آخر ، وهو نسيان الله تعالى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الوسع ـ بتثليث الواو هنا ـ : الطاقة ، ويأتي بمعنى الغنىٰ والجِدَة والرفاهيَة .

(٤) رَفَلَ في ثيابه ؛ أطالها وجرَّها متبختراً ، من باب (نَصَرَ) ، فهو رَفِلٌ ، وكذا أرفلَ في ثيابه . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٥) أي : عن أزواج . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

[طُرُقُ تركِ الأسىٰ علىٰ ما فاتَ]

فإذا لم يفرحْ بما آتاهُ اللهُ . لم يأسَ بما فاتَ مِنْ دنياهُ[1] ؛ مِنْ طرقٍ أربعةٍ :

أمَّا إنْ كانَتْ أتتْكَ نعمةً : فلأنَّهُ بريءٌ مِنَ المهرِ ، ولم يزدْ شيئاً في الفقرِ ، فالمتعةُ الأولىٰ باقيةٌ ، وذخيرةُ الصبرِ في الأُخرىٰ حاصلةٌ ، ولأنَّها لم تكنْ وهي في يدِهِ بمِلْكِهِ ، بل كانَتْ لربِّهِ[2] ، ولم ينقصْ ـ وقد فاتَتْ ـ شيئاً مِنْ رزقِهِ[3] ؛ فإنَّهُ على اللهِ تعالىٰ يؤتيهِ بحقِّهِ .

وأمَّا إنْ كانَتْ فتنةً : فلأنَّهُ بائنٌ حذَرَ الوقوعِ فيها فأمِنَ ، وانقطعَ عنهُ دعوةُ الشهوةِ فسكنَ ، فما العبدُ في قناعتِهِ ، إلا كالمريضِ في حمايتِهِ ؛ فإذا عَدِمَ ما لا يوافقُهُ سكنَتْ طبائعُهُ ، وإذا عُرِضَ عليهِ انبعثَتْ نوازعُهُ ، فربَّما لا يملكُ أعنَّتَها ، فيهلكُ في فتنتِها .

وإنَّ مِنَ العصمةِ ألا تجدَ[4] ، وهي أوَّلُ مصراعي بابِ الرحمةِ[5] ،

---

(١) قوله : (فإذا لم يفرح وترك الأسىٰ) هو القسم الرابع من المحن المتعلقة بمقام الفقر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) لأن العبد وما ملكت يمينه لمولاه ، ولله تعالىٰ حقيقة الملك ؛ إذ الخلق والتكوين منه ، كما في قوله : « أنت ومالُكَ لأبيك » ، لمَّا صار حقيقة الملك للابن حقيقةً أضافه ، فلأن يكون حقيقة الملك لله تعالىٰ بالطريق الأَوْلىٰ ، هـٰذا جواب قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٩] انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الضمير في (فاتت) راجع إلى الدنيا ، ولا يخفىٰ أن (شيئاً) مفعول (ينقص) .

(٤) روى البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/٢٠٨) عنه أنه قال : (صحبت الصوفية عشر سنين ، ما استفدت منهم إلا هـٰذين الحرفين : الوقتُ سيفٌ ، ومن العصمة ألا تقدر) ، وهـٰذا الذي يقال فيه : قد يكون المنع عينَ العطاء .

(٥) فيرحمك المولىٰ بعدم وجدانك ما تهلك به نفسك .

والمصراعُ الآخرُ مِنَ التوفيقِ[1] ، وما الأسىٰ للعاقلِ ـ وهو في بابِ الرحمةِ ـ برفيقٍ[2] ، بل واجبٌ عليهِ حَمْدُ وليِّ النعمةِ والإحسانِ ، مكانَ القناعةِ والصبرِ بكلِّ لسانٍ[3] .

[أنواعُ الأموالِ مِنْ حلالٍ وحرامٍ]

ثم أقسامُ الأموالِ أربعةٌ : حرامٌ ما لذي اليدِ فيهِ مِنْ مِلْكٍ ، وحرامٌ ما لمالكِهِ فيهِ مِنْ نفعٍ ، وحلالٌ فيهِ للهِ حقٌّ ، وحلالٌ لمالكِهِ محضٌ .

فأمَّا الأوَّلُ : فالأموالُ المغصوبةُ قهراً ؛ وهيَ المجموعةُ ظُلْماً ، بلا تراضٍ مِنَ الخلقِ ، ولا إذنٍ مِنَ اللهِ الحقِّ[4] ؛ نحوُ ما في أيدي اللصوصِ المحتالينَ[5] ، واللصوصِ الغالبينَ[6] ، ومَنِ اتصلَ بهما مِنَ الظالمينَ ، ما لهم خروجٌ عن وبالِها قطعاً إلا بالردِّ علىٰ أربابِها ، والتوبةِ عن أسبابِها ؛ علىٰ ندامةٍ واستغفارٍ ، ومخافةٍ واعتذارٍ ، إلىٰ أنْ يعدمَ طاقةَ الإيفاءِ بفعلٍ أو لسانٍ ، فيقربُ مِنْ رحمةِ الرحمـٰنِ .

وأمَّا الثاني : فالأموالُ المستفادةُ بتراضٍ علىٰ فسادٍ ، بأسبابٍ نُهِيَ عن مثلِها

---

(١) أي : التوفيقِ على الامتناع بعد الوجدان عن الوقوع فيما يضرُّهُ في الدين . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : الأسىٰ لا يكون رفيقاً وحاله أن يكون هو في باب الرحمة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : يحمد مولى الحمد بكلِّ لسان علىٰ ما وهبه من نعمتي القناعة والصبر .

(٤) فائدة هـٰذا القيد : أن الأموال المغصوبة حلال وإن لم يكن فيها تراضٍ من المأخوذ عنهم ، ولـٰكن بإذن الله تعالى . انتهىٰ من هامش (و) ، ومثالُها : الغنيمة والفيء .

(٥) يعني : السوقيِّين الطرَّارين . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) يعني : قطَّاع الطريق . انتهىٰ من هامش (و) .

العبادُ ؛ مِنْ عقودٍ فاسدةٍ شرعاً ، وخياناتٍ اتَّصلَتْ بها وَضْعاً[1] .

وإنَّ خبيثَ الأموالِ للأبدانِ شرٌّ مِنَ السُّمومِ ؛ إذْ فيها قضاءُ الحياةِ الدنيا وفي الخبيثِ نارُ الجحيمِ ؛ حتىٰ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما وُقِيَ أكلةَ خيبرَ وكانَتْ مسمومةً[2] ، ووُقِيَ أكلةَ الشاةِ المصليَّةِ إذْ كانَتْ مغصوبةً[3] ، ما يخرجُ عن عهدتِها ، إلا بصدقتِها[4] ، فإذا تصدَّقَ بها خلَتْ يدُهُ غيرَ مَقْضيِّ وطراً ، إلا تعباً وتحسُّراً .

أَسْفِهْ برجلٍ أتعبَ نفسَهُ بجمعِ الخبيثِ فمزَّقَ دينَهُ ، ثم رقَّعَ بالتصدُّقِ وما صدَّقَ ظنونَهُ ، فصارَ رِداءُ الدِّينِ مرقَّعاً ، وسكونُ النفسِ مودَّعاً !

---

(١) أي : عند حضور المال ومباشرة السبب ؛ مثل ترويج السلعة بالمدح ، ودسِّ العيب . انتهىٰ من هامش (و) ، ومثالها أيضاً : عقد الربا وإن كان عن تراضي الطرفين ، وعقد الصرف الذي لم يستتم شروطه ، وهـٰذا ممَّا يتساهل به أهل الزمان ، قال جلَّ وعزَّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء : ٢٩] .

(٢) رواه البخاري (٣١٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٣٥١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤ / ٢٣٤) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ مرُّوا بامرأة ، فذبحت لهم شاة ، واتخذت لهم طعاماً ، فلما رجع قالت : يا رسول الله ؛ إنَّا اتخذنا لكم طعاماً ، فادخلوا فكلوا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ ، وكانوا لا يبدؤون حتىٰ يبدأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فأخذ النبيُّ لقمةً ، فلم يستطع أن يسيغها ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « هـٰذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها » ، فقالت المرأة : يا نبيَّ الله ؛ إنَّا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ ، ولا يحتشمون منَّا ، نأخذ منهم ، ويأخذون منَّا .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ـ٢٧٩] .

وأمَّا الثالثُ : فما اكتسبَهُ بأسبابٍ صدَّقَ الشرعُ في إباحتِها عقلَهُ[1] ، وحقَّقَ فعلُهُ في أداءِ الأمانةِ قولَهُ ، فطابَ الزرعُ ، وزكا الرَّيْعُ[2] ، وحَلِيَ ذَواقُهُ ، وحُمِدَ سياقُهُ[3] ، إلا أنَّهُ ابتُلِيَ بأداءِ اليسيرِ على اليسارِ ، وإخراجِ العددِ مِنَ الأوقارِ[4] ، وقدِ استحلاهُ الجامعُ وشعَفَهُ حُبّاً[5] ، فلم تطعْهُ نفسُهُ علىٰ بذلِهِ بخلاً ، فزُيِّنَ لهُ عندَ ذلكَ سوءُ عملِهِ ، ومُدِّدَ أَمَدُ أملِهِ ، وأُنسِيَ حلولَ أجلِهِ ، وقالَ : في الأمرِ بعدُ تراخي ، وللخللِ تداركٌ وتلافي[6] ، حتىٰ رانَ علىٰ قلبِهِ ، وأسرَ الهوىٰ قُوىٰ لُبِّهِ ، وصارَ الشُّحُّ طبعاً ، والمنعُ حتىٰ عن نفسِهِ شرعاً[7] ، فهنالكَ حُرِمَ جُلَّ خيرِهِ ، وصارَ جَمَّاعاً لغيرِهِ .

فبينَما هو في حسابِ أموالِهِ ؛ إذْ حُوسبَ عليهِ أنفاسُهُ ، وأتاهُ مَلَكُ الموتِ وبيدِهِ كاسُهُ ، وعاينَ مصيرَهُ إلىٰ عذابِ القبورِ ، ومصيرَ المالِ إلىٰ كلِّ وارثٍ كفورٍ ، وما بَخِلَ بهِ طوقٌ ناريٌّ يُكوىٰ بهِ عنقُهُ وصدرُهُ[8] ، وحِمْلٌ

---

(١) مثل الزراعة والتجارة والصناعة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الرَّيْعُ : الزيادة والنماء .

(٣) صار محمود العاقبة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) كربع العُشر في نصاب الذهب والفضة ، والشاة من أربعين شاةً ، والعُشر من الزروع والثمار مما سقته السماء قلَّ أو كثُرَ ، ونصف العُشر إن سُقي بغَرْب أو دالية ، ونحو ذلك .

(٥) تقدم (ص١٧٠) أن (شعف) بمعنىٰ (شغف) ، وهي كذلك في (د ، هـ ، و ، ز) ، أراد : غلبَ حبُّ جمعِ المال علىٰ قلبه وتبطَّن فيه .

(٦) كذا بإثبات الياء في الموضعين علىٰ لغة ، أو مراعاة للسجعة .

(٧) من التمتع بالأكل واللبس والصدقة وغيره . انتهىٰ من هامش (و) .

(٨) قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ـ٣٥] .

ثقيلٌ يُقصَفُ بهِ كتفُهُ وظهرُهُ[١] .

وأمَّا الرابعُ : فالمالُ الذي حَسُنَ لصاحبِهِ في الابتداءِ عقدُهُ ، وفي الانتهاءِ قصدُهُ ، فاستوفىٰ منهُ متعتَهُ ، وأمضىٰ بالفضْلِ صدقتَهُ[٢] ، فكانَ قِواماً لمدَّةِ حياتِهِ ، وإماماً لما بعدَ وفاتِهِ ، قد زكَّىٰ أسبابَهُ ، وسوَّىٰ حسابَهُ ، وأعدَّ للرسولِ جوابَهُ ، فجاءَهُ الرسولُ للرحيلِ فسارعَ إلى الطاعةِ ، وحُوسبَ فأدَّاهُ بساعةٍ ، فكانَ حساباً يسيراً ، ثمَّ انقلاباً إلىٰ أهلِهِ مسروراً .

وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الدنيا : « حرامُها عذابٌ ، وحلالُها حسابٌ »[٣] ، مصداقُهُ قولُ اللهِ تعالىٰ[٤] : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ

(١) يقصف : يكسر ، وروى البخاري (١٤٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملُها علىٰ رقبته لها يُعارٌ ، فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلَّغتُ ، ولا يأتي ببعير يحمله علىٰ رقبته له رُغاءٌ ، فيقول : يا محمدُ ، فأقول : لا أملكُ لك شيئاً ، قد بلَّغتُ » .

إن قلت : هـٰذا الخبر يفيد عدمَ شفاعته صلى الله عليه وسلم وقد سُئلَها .

فالجواب : أن هـٰذا يكون قبل الإذن له صلى الله عليه وسلم بالشفاعة في هـٰذه الأصناف ؛ فقد روى البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه حديثَ الشفاعة ، وفيه : « ثم أشفع فيحدُّ لي حدّاً ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه فإذا رأيت ربي مثلَهُ ، ثم أشفع فيحدُّ لي حدّاً ، فأدخلهم الجنة . . . » الحديثَ ، فيكون هـٰؤلاء ممن لم يدخلوا تحت الحدِّ حينئذٍ ، والله أعلم .

(٢) في هامش (هـ ، و) : (نسخة : بالعقل) مكان (بالفضل) .

(٣) هو عند الديلمي في « الفردوس » (٨١٩٢) ، وإسناده في « زهر الفردوس » لابن حجر (٣٠٥٢) (٨/ ٢٤) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٧) ، والبيهقي في « الجامع لشعب الإيمان » (١٠١٣٨) من طريقه عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه موقوفاً عليه ، ولفظه : قالوا لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أبا الحسن ؛ صِفْ لنا الدنيا ، قال : أطيلُ أم أُقصِرُ ؟ قالوا : أقصرْ ، قال : حلالُها حسابٌ ، وحرامُها النارُ .

(٤) أي : حجَّته ودليله . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر : ٨] ، وقولُهُ : ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق : ٧ـ٩] .

[مقاماتُ العبادِ بشأنِ أموالِ الدنيا]

والمقاماتُ فيها أربعٌ[١] :

مقامُ الشكرِ والحمدِ ، ومقامُ الكفرِ والسخطِ ، ومقامُ الصبرِ والرضا ، ومقامُ الجزعِ والشكوىٰ .

فسببُ مَقامِ الشُّكرِ : معرفةُ اللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ بالإنعامِ ، فقبيحٌ ترْكُ الشكرِ بسببِ انعدامِ ما لم يكنْ لهُ وعندَهُ ممَّا أنعمَ عليهِ أقسامٌ ؛ أدناها : الحياةُ ؛ فهي رأسُ المالِ ، وأعلاها : الإيمانُ ؛ فهو المقصودُ في كلِّ حالٍ ، فيتركُ القبيحَ إلى الحسنِ ؛ مِنْ شكرٍ بالقلبِ وحَمْدٍ باللسانِ ، وذلكَ جَهْدُ الضعيفِ[٢] .

وسببُ مَقامِ الكفرِ : الجهلُ بالقسَّامِ ، أو ظَنُّهُ الخطأَ عليهِ في الأحكامِ ، فيَعُدُّ ما أُوتيَ غيرُهُ دونَهُ مأخوذاً عنهُ ظُلْماً ، فيستحسنُ الكفرَ بمثلِهِ[٣] ، والسخطَ علىٰ فعلِهِ[٤] .

---

(١) أي : في أموال الدنيا . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الجَهْدُ هنا : الغاية القصوىٰ والنهاية من المراد .

(٣) في (ب) ونسخة في هامش (د ، هـ ، و) : (بميله) بدل (بمثله) .

(٤) أي : بأن يقول : الله مال حتىٰ أعطىٰ دوني شيئاً لم يعطني ، أو يقولَ : أنا مستحقٌّ للإنعام ، ولم يعطني وأعطىٰ من لم يستحقَّ . انتهىٰ من هامش (و) ، ولا شكَّ أن هـٰذا القول جهلٌ عظيم بالله تعالىٰ وبحكيم أفعاله ، فمن ذا الذي يقضي على الله سبحانه بفعلٍ دون فعل ؟! بل إنَّ من ظنَّ شيئاً من أفعاله تعالىٰ مائلاً عن الحكمة ، غيرَ موصوف بالحُسْن =

وسببُ مَقامِ الصبرِ : معرفةُ الأعواضِ ؛ فإنَّها تهوِّنُ على المرءِ ما يلحقُهُ مِنَ المكارهِ والأعراضِ ، حتىٰ لابسَ العقلاءُ المكارهَ في الدنيا ؛ لأعواضٍ قصدوها للحالِ دونَ العُقْبىٰ ، وشَرَّبَ الطبيبُ الدواءَ ؛ لِمَا في عاقبتِهِ مِنَ الشفاءِ ، وكانَ ذلكَ ـ وإنْ كانَ مكروهاً ـ عندَ أولي العقولِ رَضِيّاً ، وراودَ المريضَ شربُهُ كأنَّهُ أصابَ زُلالاً هَنِيّاً[1] .

وسببُ مَقامِ الجَزَعِ : الجهلُ بالأبدالِ ؛ فما اصطبرَ عاقلٌ لدواءٍ ، جَهِلَ مِنْ عاقبتِهِ الشفاءَ ، ولا لابسَ حَرْباً لم يؤمِّلْ نفسَهُ إصابةً[2] ، ولا أجهدَ نفسَهُ بدعاءٍ لم يرجُ منهُ إجابةً ، ومتىٰ أُكرهَ عليهِ جَزِعَ ولم يقنعْ بهِ حتىٰ شَكَا ، ووَلْوَلَ وبكىٰ ، وهل جزعُهُ وشكواهُ ، لو عقلَ المحكومُ عليهِ كَرْهاً إلا ممَّا يزيدُ

= من حيث كونُهُ فعلاً له جلَّ جلاله . . لم يترك من الجهل شيئاً ، والعاقل من اتَّهم عقله القاصر ، في مثل هـٰذه الخواطر .

وقد بيَّن إمامنا الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص١٢٤ـ ١٢٧) وغيرِهِ من كتبه : أن فعل الله تعالىٰ حَسَنٌ دوماً ، وما من شرٍّ يراه العبد إلا وهو منطوٍ علىٰ خيرٍ تحته ، يُبصر ذلك أهل البصيرة ، ويعمىٰ عنه أهل الحَيْرة ، ومع هـٰذا نسأله تعالىٰ عفوه وعافيته .

فإن قال قائل : ثَمَّ شرٌّ لا خيرَ تحته ، أو قال : كان من الممكن تحصيلُ ذلك الخير لا في ضمن ذلك الشرِّ .

فالجواب : هـٰذا ظنٌّ بُنِيَ على افتراضِ وَهْمٍ ، لا علىٰ أُسُسِ العلم ، ولذلك قال الحجة الغزالي في هـٰذا : (ليس كلُّ محالٍ أو ممكن مما يُدركُ استحالته وإمكانه بالبديهة ولا بالنظر القريب ، بل ربَّما عُرِفَ ذلك بنظر غامض دقيق يقصر عنه الأكثرون ، فاتَّهِمْ عقلَك في هـٰذين الطريقين ، ولا تشكنَّ أصلاً في أنه أرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمتُهُ غضبَهُ ، ولا تستريبنَّ في أن مريد الشرِّ للشرِّ لا للخير غيرُ مستحقٍّ لاسم الرحمة) .

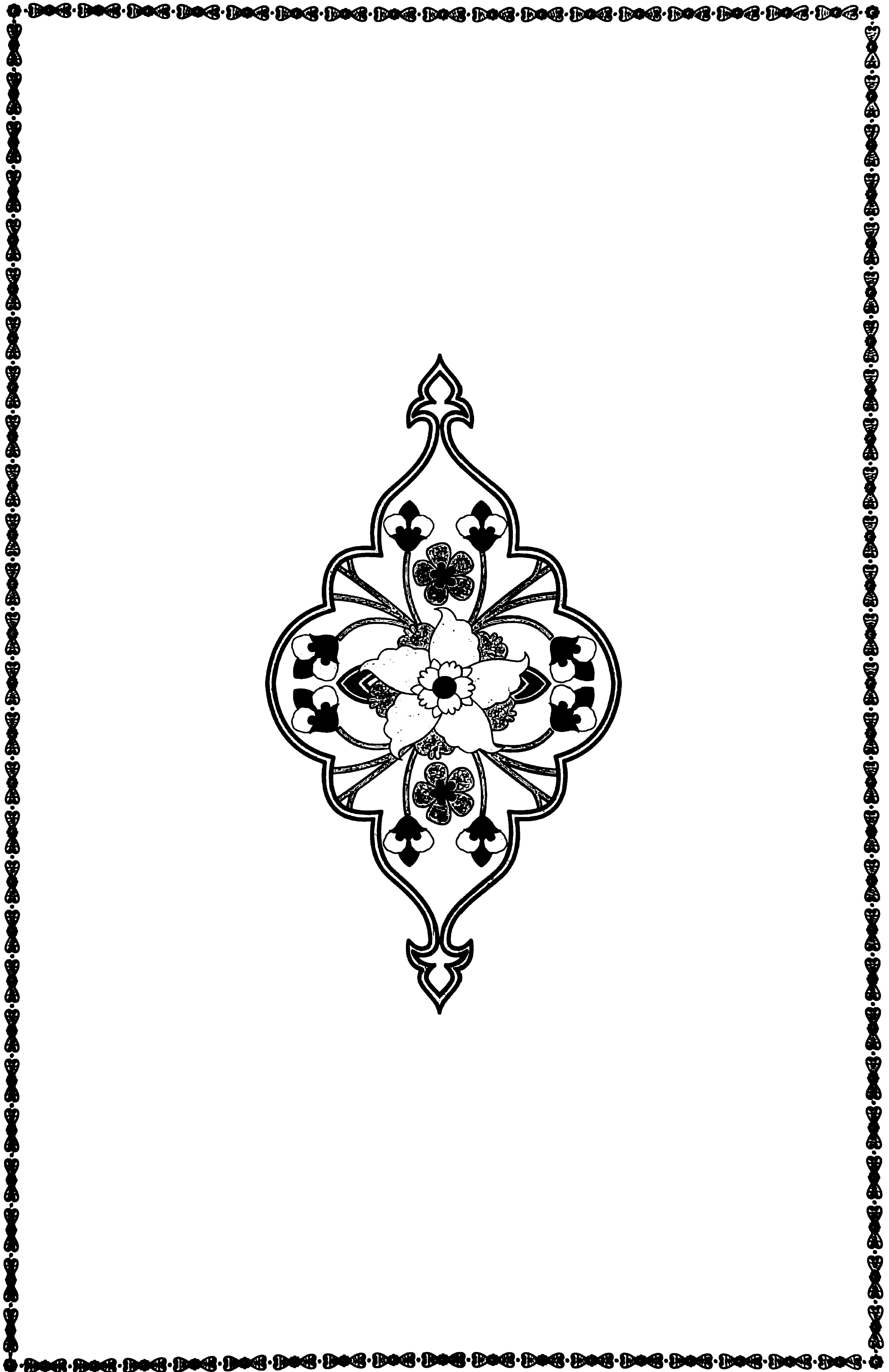
(١) راود : طلب . انتهىٰ من هامش (هـ) .

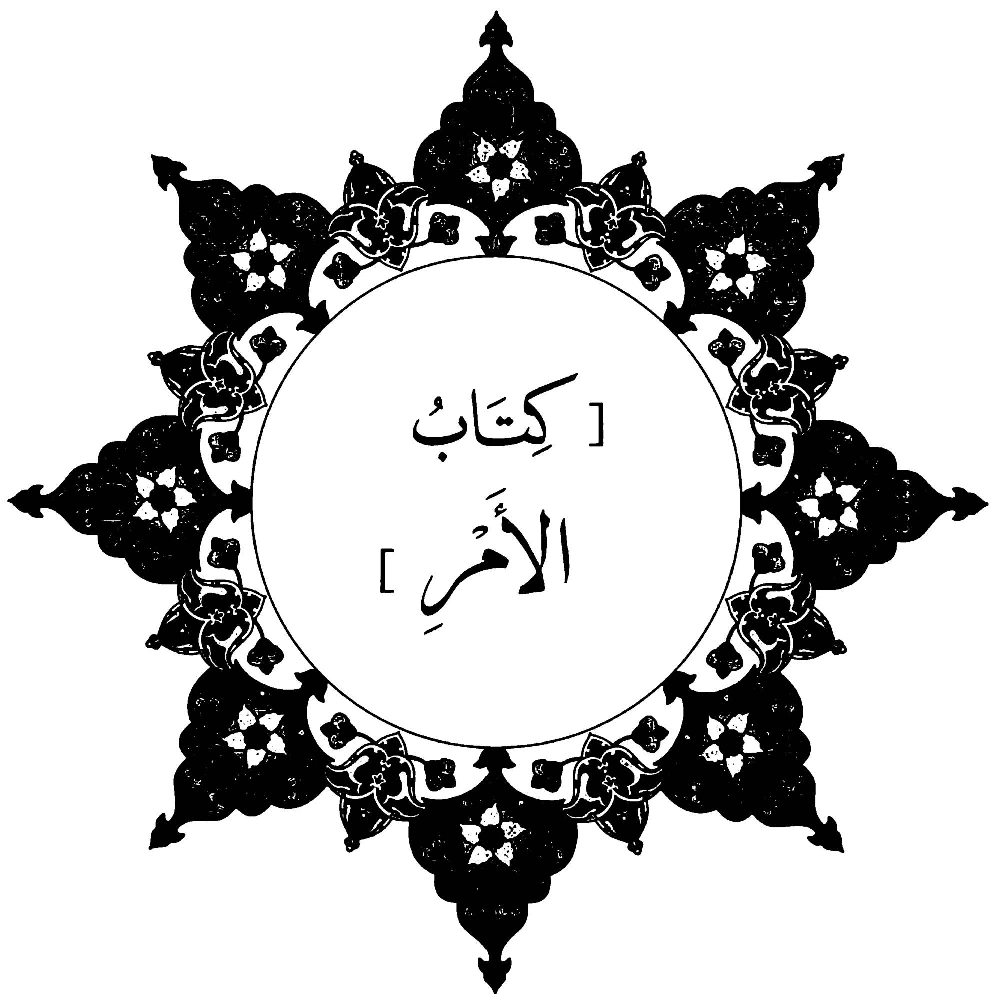
(٢) يعني : لم يُقدِم علىٰ ما فيه هلاكُ نفسه إلا وهو راجٍ في مغبَّته عاقبةً حميدة ؛ من نحو فرحٍ وعزٍّ وعلوٍّ مرتبة . مفادٌ من هامش (و) .

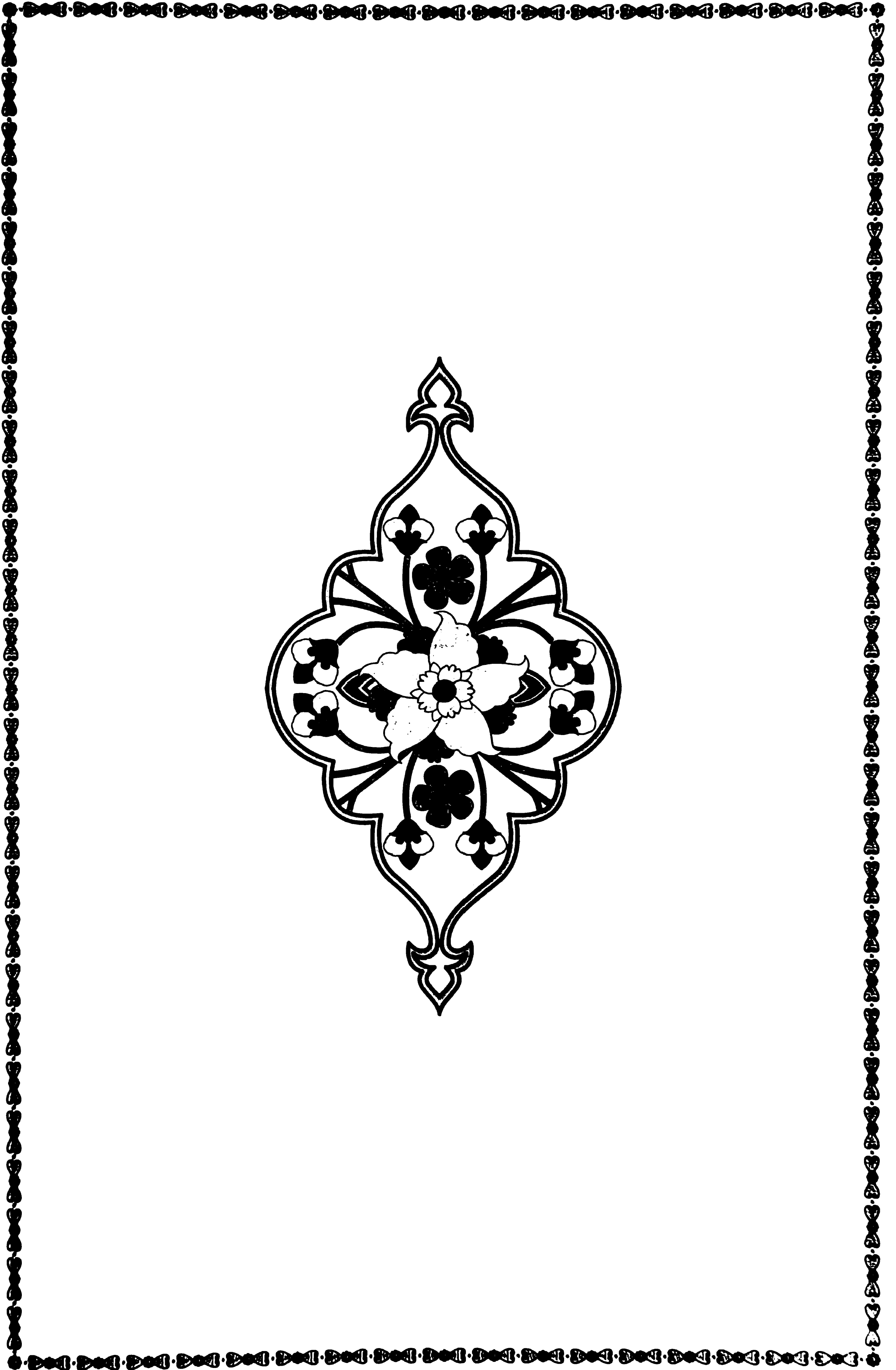
بلواهُ ؟! فما الحكمُ مِنَ الحاكمِ يتبدَّلُ بجزعِهِ ، ولا ما قضىٰ على العبدِ يرتدُّ بحذرِهِ ، وإنَّما يزيدُهُ الجزعُ ضَعْفاً وعليهِ حِمْلٌ حالَ القوَّةِ فيزيدُ في ضررِهِ .

فسبحانَهُ مِنْ مَلِكٍ تمَّتْ نعمتُهُ ، وعمَّتْ رحمتُهُ ! حتىٰ لا يخلو عبدٌ عنهما بحالٍ ! واستبانَ سبيلُهُ ، واستنارَ دليلُهُ ، فلم يَعْدَمْهُما ذو عقلٍ وبالٍ ، فلهُ الشكرُ علىٰ أقسامِهِ ، فما وجدْنا قِسْماً خارجاً عن إنعامِهِ ، وإلَّا فالصبرُ ، فمَا يَعمىٰ عنِ العوضِ صَدْرٌ ، إلا ما أُعميَ بالكفرِ ، والعياذُ باللهِ مِنْ عمى القلوبِ وضيقِ الصدورِ والمصيبةِ في الدينِ ، والبينونةِ عنِ المسلمينَ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ .






[كِتَابُ
الأَمْرِ]



كتاب الأمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لمَنْ عَظُمَ قَدْرُهُ فلم يُحَدَّ ، ونفذَ أمرُهُ فلم يُرَدَّ[1] ، ولم يبقَ في يدِ أحدٍ نَهْيٌ ولا أمرٌ ، ولا إطلاقٌ ولا حَظْرٌ .

والصلاةُ على مَنْ قامَ بأمرِهِ بلا مداهنةٍ ، ونابذَ الكلَّ بلا مُهادنةٍ[2] ، حتى أتاهُ اليقينُ ، وعلى آلِهِ أجمعينَ ، فكَمَلَ الدينُ بشريعتِهِ ، وخُتِمَ الأمرُ على طريقتِهِ ، ولزمَ المأمورَ معرفةُ الآمرِ ، ومعرفةُ الأوامرِ ، والمسارعةُ إليها ، والانتهاءُ إلى حدودِها .

فهي مِحَنٌ أربعٌ ؛ ثنتانِ عبوديَّةٌ ، وثنتانِ عبادةٌ ؛ تعلَّقَتْ بقسمِ أنَّهُ مأمورٌ ؛ لأنَّهُ لمَّا ثبتَ أنَّهُ عبدٌ فقيرٌ لا يملكُ شيئاً ، ثم رآهُ يبسطُ يدَهُ إلى حوائجِهِ ، وينطلقُ في مناهجِهِ . علمَ ضرورةً أنَّ لهُ ذلكَ بأمرِ المالكِ الغنيِّ ، ولزمَهُ بعدَهُ أنْ يعرفَ الأوامرَ بحدودِها[3] ؛ ليمكنَهُ العملُ بها والوقوفُ لمحدودِها .

[سُبُلُ معرفةِ وجودِ الآمرِ تباركَ وتعالى]

فأمَّا معرفةُ الآمرِ بالأوامرِ فمِنْ طرقٍ أربعةٍ : المنهاجِ المشروعِ ، وصاحبِهِ ، وسهولتِهِ ، وقُربِهِ مِنَ المنزلِ .

---

(1) الأمر هنا : الشأن والحادث ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

(2) نابذ : حارب ، والمهادنة : المصالحة . مفادٌ من هامش (هـ) .

(3) بعد معرفة الآمر . انتهى من هامش (و) .

إذِ المنهاجُ المشروعُ ـ وهو شريعةُ الإسلامِ ـ مشتملاً علىٰ مصالحِ العبادِ ، في أمورِ المعاشِ والمعادِ ، والعبدُ بقُواهُ عاجزٌ عن بلوغِ مداهُ . . دليلٌ علىٰ آمرٍ عالمٍ لا علىٰ سبيلِ علمِهِ(١) ، وحاكمٍ حكيمٍ فوقَ ما يخطرُ بوهمِهِ .

وقد فَقَدَ هـٰذهِ الحكمةَ والعلمَ في الآباءِ والجدودِ(٢) ، فعَدَّهم مِنَ العبيدِ ، فتأمَّلَ في الأرضِ والسماءِ ففَقَدَ فيهما كلَّ صفاتِ ذي العلمِ ، وأماراتِ ذي الحكمةِ والحُكْمِ ، فآمنَ بعالمٍ حكيمٍ دبَّرَ الكونينِ المحسوسينِ فسَخَّرَ(٣) ، ثم ابتلى العالِمَ المميِّزَ الذي سخَّرَهما لهُ فنهىٰ وأمرَ(٤) .

ثم ينظرُ في صاحبِ المنهاجِ ؛ وهوَ الرسولُ المبعوثُ إليهِ ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيجدُهُ صاحبَ آيةٍ عجزَ البلغاءُ عن معارضتِهِ(٥) ، والعقلاءُ عن مناقضتِهِ ؛ كلامٌ علىٰ غيرِ وزنِ الشعرِ ، وفوقَ نظمِ النثرِ ، مبانيهِ فصيحةٌ ،

---

(١) قوله : (دليلٌ) هو خبر قوله : (إذ المنهاجُ المشروع) ، وجملة : (والعبد بقواه. . .) حالية كما لا يخفىٰ ، والضمير في : (علمه) راجع إلى العبد ، وكذا في قوله الآتي : (بوهمه) .

(٢) قوله : (فَقَدَ) ؛ يعني : العبدَ المتأمِّل في أمر العالم ، المتدبِّرَ لما اشتمل عليه من مصالح وحكم ، وفي هامش (و) : (أي : العبدُ عاجزٌ [عن] الوقوف [على] الجزئيات) ، فلا يمكنه أن يكون مدبِّراً لما يجهل .

(٣) أراد بالكونين هنا : العالم العلويَّ ، والعالم السفليَّ ؛ لأنه وصفهما بالحسيَّين ، وبعيدٌ أن يريد بهما الدنيا والآخرة ، أو الغيب والشهادة ، أو الروح والجسد ، والمعنىٰ : أن كلَّ ما في السماء والأرض مدبَّرٌ ، وللإنسان مسخَّرٌ ، وذاك علامة العلم والحكمة ، وهما معنيان لا بدَّ من قيامهما بذات عالمة حكيمة .

(٤) يعني : تأمَّل العبدُ بعدما أثبت العلم والحكمة. . في صاحبهما الذي تجلَّىٰ تدبيره وعلمه وحكمته في خلقه ، وعرف أن له خطاباً من أمر ونهي .

(٥) يعني : معجزة القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته التي تحدَّىٰ بها فصحاء العرب أهل البيان والبلاغة .

ومعانيهِ بليغةٌ ، باينَ في تفصيلِهِ كلَّ كلامِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في فصولِهِ[1] ، إذا قرأتَهُ طمعْتَ في مثلِهِ ، وإذا قصدتَهُ حُصِرْتَ عن قولِهِ[2] ، فاقَ بتأويلِهِ وهو قَصْدٌ ، الكتبَ كلَّها وهي فوقَ العَدِّ .

ألزمَ صاحبَهُ والناسَ كلَّ ما كرهَتْهُ النفوسُ ؛ مِنْ مخالفةِ الآباءِ ومجادلةِ الأقاربِ ، ومجانبةِ الأصدقاءِ ومنابذةِ الأجانبِ ، وهجرةِ الوطنِ والمالِ والأهلِ ، وقتالِ أهلِ الجبلِ والسَّهْلِ ، واختيارِ الفقرِ وتخييرِ أهلِهِ علىٰ ذلكَ[3] ، ما لهُ مِنَ الناسِ مِنْ أجرٍ هنالكَ ، معَ شهادةٍ عليهِ بما كانَ يكونُ لولا العصمةُ ، ويجبُ السَّترُ عن مثلِهِ لولا الحكمةُ[4] ؛ فقالَ : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٤][5] ، وقالَ : ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ

---

(١) قوله : (باين في تفصيله) ؛ أي : أحكامه ؛ أي : باين الوحيُ المتلوُّ من حيث فصاحة اللفظ وبلاغةُ المعنىٰ ، واشتمالُهُ على الحِكَمِ والمعاني ، عبارةً وإشارة ودَلالةً واقتضاءً ومعنىً جامعاً فقهياً . . الوحي غير المتلوِّ من هـٰذه الأنواع . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) حَصِرَ وحُصِرَ القارئ : مُنِعَ القراءةَ ، والحَصَرُ : العِيُّ وضيق الصدر .

(٣) أرادَ : قوله سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٨ـ٢٩] .

(٤) أي : الشهادة عليه دليلٌ علىٰ أنه ليس من كلامه ، وذاك نحو قوله تعالىٰ : ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وانظر ما تقدم تعليقاً (ص٢٠٨) .

(٥) ومفاد معنىٰ (لولا) : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم تُفارقه العصمةُ طرفةَ عينٍ ؛ لأن كلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره ، ولا تظنَّنَّ أنه صلى الله عليه وسلم مالت نفسه إلى الوقوع في الفتنة ، بل عَصَمَهُ الله تعالىٰ من هـٰذا الميل أصلاً ، والمراد من الآية : بيانُ شدَّة إغراء الكفار من قريش وثقيف للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يرضيهم في بعض أهوائهم ؛ كالإلمام بآلهتهم قبل استلام الحجر الأسود ، وإقصاء فقراء المسلمين ليحضره =

أَن تَخْشَىٰهُ . . . ﴾ الآيةَ [الأحزاب : ٣٧] ، فأظهرَ عليهِ ما كانَ سَتَرَهُ ؛ ليكونَ فعلُهُ شريعةً لأوليائِهِ ، ما تلوَّنَ قصدُهُ وقد تلوَّنَ بهِ الأحوالُ ؛ كما تتلوَّنُ هممُ الرجالِ ؛ مِنِ استكانةٍ في قِلَّةٍ ، واستكبارٍ في منعةٍ[١] ، بل كانَ أقوىٰ ما يكونُ إذا انفردَ ، وأعزَّ ما يُرىٰ إذا توحَّدَ[٢] ؛ خرجَ إلىٰ بدرٍ الصغرىٰ وقد قعدَ أصحابُهُ[٣] ، وثبتَ يومَ حنينٍ وأُحُدٍ وقد تمزَّقَتْ أسبابُهُ .

فيعرفُ بالكلامِ المباينِ سائرَ الكلامِ ، والسيرةِ المباينةِ سِيَرَ الأنامِ ؛ أنَّهُما ليسا مِنْ طريقِ قُوى العاداتِ في الورىٰ ، لـٰكنَّهُما مِنْ ربِّ القُوىٰ ؛ لاستحالةِ فعلِ الجزءِ ما بالكلِّ عنهُ عجزٌ[٤] .

= أكابرُ قريش من المشركين ، ومع هـٰذا كلِّه لم يعطهم صلى الله عليه وسلم طرفاً مما راموا ، وعليه فيحمل الوعيد الشديد . . علىٰ شدة إلحاحهم وإغرائهم ، أو علىٰ خطاب الأمة ، ومثله قوله تعالىٰ : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] .

(١) إذ الرجال إذا أفقروا استكانوا ، وإذا كانوا في منعةٍ من كُراع وسلاح وعدد . . استكبروا ، فهـٰذا هو تلوُّن حالهم ، بخلاف الأنبياء وأتباعهم ، لا تغيِّرهم الأحوال ، بل هم على الحقِّ ثابتون ، إلا أن يأتيهم الأمر من الشرع بالمداراة ، فيختاروها على المداهنة .

(٢) قال جلَّ جلاله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

(٣) وتعرف أيضاً بغزوة بدر الموعد ، وبدر الآخرة ؛ وذلك للوفاء بميعاد أبي سفيان ، وكانت عقب العودة من غزوة ذات الرقاع ، وأقام النبي صلى الله عليه وسلم ثمانيَ ليالٍ ينتظره ، وكان أبو سفيان قد بلغ عسفانَ ، ثم رجع بالجيش معتلاً بأن العام عام جدب ، وسمَّاهم أهل مكة بجيش السويق ، وإنما الذين لم يخرجوا وثبطوا الناس هم المنافقون ، وقد خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ قولٍ ألفٌ وخمس مئة من الصحابة الكرام . انظر « السيرة النبوية » لابن كثير (٣/ ١٦٩) ، و« سبل الهدىٰ والرشاد » (٤/ ٣٣٧) .

(٤) أي : يستحيل أن يفعل فردٌ ما يُعجِزُ الكلَّ . انتهىٰ من هامش (و) .

فإذا عرفَ الآمرَ ببرهانِهِ ، ومَنْ وصلَ إليهِ الأمرُ علىٰ لسانِهِ . . تأمَّلَ في المنهاجِ فيجدُهُ سهلاً سَمْحاً حنيفيّاً ، عَدْلاً وَسَطاً مرضيّاً ، لا يتعبُ فيهِ إنسانٌ ، ولا يَكسَلُ عنهُ كسلانُ ؛ فإنَّها صلواتٌ خمسٌ في اليومِ والليلةِ ، ما يضعفُ عنها نفسٌ فإنَّها علىٰ قَدْرِ وسعِ الجبلَّةِ ؛ إمَّا قائماً وإمَّا قاعداً وإمَّا علىٰ جَنْبٍ ، ما ينقصُ مِنْ ثوابٍ ولا يزدادُ في ذنبٍ ، وصومُ شهرٍ مِنْ جملةِ الشهورِ ، على العاقلينَ البالغينَ الأصحَّاءِ الحضورِ ، وأمَّا الزكاةُ والحجُّ : فلا يجبانِ علىٰ فقيرٍ ؛ فإنْ لم تتعبْ بحِفْظِ المالِ أو جمعِهِ . . لم يلزماكَ بشرعِهِ[١] .

ثم بعدَ الصلاةِ والصومِ ، كلُّ الشريعةِ مبنيٌّ على التركِ والنومِ ؛ أيكسَلُ عبدٌ عنهما لربٍّ كوَّنَهُ وصوَّرَهُ[٢] ، ثم علَّمَهُ وأقدرَهُ ، ثم وعدَ لهُ بهما العَتَاقَ والمِلْكَ ، والوِلايةَ والمُلْكَ ، بلا نهايةٍ آجلاً ، علىٰ حُسْنِ أُحْدوثةٍ وتمامِ كفايةٍ عاجلاً ، وما لهُ مِنَ الناسِ فيهما مِنْ منازعٍ[٣] ، ولا مجادلٍ ممانعٍ ؛ اشتغالاً بالدنيا لمتعةٍ مضمونةٍ لا تقيمُ[٤] ، وكفايةٍ مقدَّرةٍ مخزونةٍ ما تَريمُ[٥] ، والناسُ كلُّهم دافعوهُ عنها ، ومنازعوهُ فيها ؟!

ما هـٰذهِ إلا صفقةٌ خاسرةٌ ، بعدَ حُجَّةٍ ظاهرةٍ .

فإذا أيقنَ بسهولةِ هـٰذا المنهاجِ ، وصعوبةِ ما إلى الدنيا مِنَ المعراجِ[٦] . .

---

(١) يعني : بشرع الله سبحانه وتعالىٰ . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .
(٢) الضمير في (عنهما) راجع إلى الصلاة والصوم .
(٣) الضمير في (فيهما) راجع إلى الصلاة والصوم .
(٤) قوله : (اشتغالاً) مفعول من أجله لما سبق من قوله : (أيكسل عبدٌ . . .) ، ولا تقيم : لا تدوم .
(٥) أي : ما تتحرك وما تفوت . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .
(٦) المراد من المعراج : ما يكون وسيلة إلىٰ تحصيل الدنيا . انتهىٰ من هامش (هـ ، ز) .

عادىٰ نفسَهُ وما ملكَهُ ، وأقبلَ على الطريقِ فسلكَهُ ، فما خطا إلا خَطَواتٍ أنْ حَطَّ بالمنزلِ الرفيعِ إيوانُهُ ، البسيطِ ميدانُهُ ، فحضرةُ اللهِ تعالىٰ أعزُّ مكانٍ ، وأبسطُ ميدانٍ ، وما إليها للقاصدِ مسافةٌ ، وصحبةُ اللهِ أهنىٰ صحبةٍ ، وأعلىٰ قُرْبةٍ ، وما فيها للمُخلِصِ مِنْ آفةٍ ، وللعبدِ هـٰذهِ الصحبةُ بلا حَجْرِ حِجَابٍ ، وهـٰذهِ الحضرةُ بلا زَجْرِ حُجَّابٍ .

فيعلمُ عندَ ذلكَ : أنَّهُ ما شرعَ هـٰذا الطريقَ على السهولةِ والاستقامةِ والقُرْبِ إلىٰ أعلى المنازلِ وأبعدِها عنِ الحواسِّ . . إلا العالمُ الحاكمُ بغيرِ مثالٍ وقياسٍ .

ثم شاهدَ الحقَّ بسرِّهِ ، وأيقنَ بعدَ العلمِ في أمرِهِ ، واستغنىٰ عنِ المُحاجَّةِ ؛ فقد صارَ حُجَّةً في حالِهِ ، وسكتَ عنِ التذكيرِ ؛ فقد أصبحَ عِبْرةً بفعالِهِ .

أعاقلٌ يبيعُها بحضرةِ ملوكِ الأرضِ(١) ، وإليها مسافاتٌ بعيدةٌ ذاتُ طولٍ وعرضٍ ، ودونَها حاجبٌ لا يأذَنُ إلا بنوالٍ ، وحِجابٌ لا يُرفعُ إلا بأموالٍ ؟!

وبعدَ ذلكَ صحبةٌ ما لها مِنْ صحَّةٍ ؛ فمِنْ عاداتِهمُ الاستطرافُ(٢) ، وفي هِمَمِهمُ الاستنكافُ ، وما لمستطرِفٍ صاحبٌ ، ولا في مستنكِفٍ راغبٌ ، إلىٰ وجوهٍ مِنَ الفسادِ ، فما هم إلا أُبَّاقُ عِبادٍ(٣) ، معَ ما دعاهُ الربُّ جَلَّتْ قدرتُهُ إليهِ بأكرمِ رسولٍ وأحسنِ كتابٍ ، واستغنىٰ عنهُ الآبقُ الذي خالَهُ مَلِكاً وتحجَّبَ عنهُ بالعبيدِ والأبوابِ ، ثم لا يروجُ عليهِ إلا المعيبُ ، ولا يقرُبُ منهُ إلا المُريبُ ؛

---

(١) الضمير في (يبيعها) راجعٌ إلىٰ حضرة الله تعالىٰ والدخول فيها .

(٢) يعني : من عادات ملوك الأرض أنهم لا يُدنون منهم إلا من يَعدُّونه طريفاً .

(٣) قوله : (فما هم) ؛ أي : ليس الملوك إلا أُبَّاقَ عِبادٍ ؛ لأنهم أعرضوا عن حضرة الله ، وشُغلوا بالدنيا ، فيكونون بمنزلة الأُبَّاق . انتهىٰ من هامش (و) .

إذْ لا وصولَ إليهِ إلا بمَنْ حولَهُ مِنَ الرجالِ[١] ، وإنَّهم قطُّ لا ينصحونَ لذي كمالٍ ؛ مخافةَ أنْ يُبدَلوا بهِ لو صدقوا فيهِ .

وإنِ اتَّفقَتْ لهُ فرصةٌ فانتهزَها للوصولِ إليهِ[٢] . . لزمَهُ ـ إنِ استطابَ المُقامَ لديهِ ـ ألا يَرُدَّ خطأَهُ ولا يظهرَ عيبَهُ عليهِ ، فيرجعُ عنهُ بعمىً بصرِ القلبِ وخَرَسِ لسانِ العقلِ ، وكَتِفُ قلبِهِ مُثقلٌ بمَجانَّ اتَّرَسَ بها عن سهامِ الأعداءِ[٣] ، وقَدَمُ عقلِهِ حسيرٌ في الفرارِ عن حسدِ الأولياءِ .

فجانبْهم إنْ كنتَ علىٰ كمالٍ إلى الكاملِ[٤] ، ودعِ الجهَّالَ للجاهلِ[٥] ، فالشَّكلُ إلى الشَّكلِ أميلُ ، والجنسُ بالجنسِ أوصلُ .

وبلغَنا : عن معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ سُئِلَ : كيفَ مالَ الناسُ إليكَ ، وعليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بفضائلِهِ عليكَ ؟ فقالَ : إنَّ أنوارَ الناسِ لم تبلغْ نورَهُ ، وإنَّ الشكلَ إلى الشكلِ أميلُ .

فإنْ جهلْتَ هـٰذهِ الطريقةَ معَ وفورِ فضْلِكَ فتعلَّمْها مِنَ البهائمِ[٦] ، وتأمَّلْ في

---

(١) إذ غالب هـٰؤلاء من أهل الدنيا الطامعين الخسيسة نفوسهم ، ولذلك يخافون من أن يقترب من الملك أهلُ الكمال .

(٢) يعني : للوصول إلىٰ مَلِكٍ من ملوك الدنيا ، وسيذكر عيوبَ صحبة ملوك الدنيا ، وأنها لا تصحُّ إلا من أعمىٰ أصمَّ أبكمَ .

(٣) المجانُّ : جمع مِجَنٍّ ؛ وهو التُّرْس .

(٤) يعني : جانب ملوك الأرض وأهل الجاه في الدنيا ، وفي هامش (و) : (الكامل : هو الله) .

(٥) إن كنت ذا ديانة فارجع إلىٰ حضرة الله ، ودعْ حضرة ملوك الأرض للمشتغلين بالدنيا . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) أراد بالطريقة : القول بالمناسبة ، وميل الجنس إلى الجنس ، وأن أهل الكمال لا يألفون إلا أمثالهم ، وأرذال الناس يألفون أرذالهم .

الأنعامِ السوائمِ ؛ هلِ اجتمعَتْ أضداداً ، وإنْ كُنَّ أفراداً ؟ فإنَّكَ ماثلْتَها بطبعِكَ ، وإنَّما باينْتَها بعقلِكَ ، واللهُ تعالىٰ ما رزقَكَ العقلَ إلا لتردَّ سفهَ الطبيعةِ ، لا لتزيدَ سفهاً لم يكنْ في الطبائعِ شريعةً .

[أنواعُ الأوامرِ الشرعيَّةِ]

فإذا عرفَ الآمرَ ووجوبَ العملِ عليهِ بأمرِهِ . . احتاجَ إلىٰ معرفةِ الأوامرِ ؛ وهي أقسامٌ أربعةٌ : العباداتُ البدنيَّةُ والماليَّةُ ، والمعاملاتُ الماليَّةُ والنفسيَّةُ ، فالأوَّلانِ حقُّ اللهِ المجيدِ ، والآخرانِ حقُّ العبيدِ .

حكمَ الحكيمُ دقَّتْ حكمتُهُ ، وجلَّتْ نعمتُهُ ، علىٰ هـٰذا العالمِ بالابتلاءِ ؛ لحكمةِ الجزاءِ ، فعلَّقَ بقاءَ أنفسِها بالأموالِ ، وبقاءَ جنسِها بازدواجِ النساءِ بالرجالِ[1] ؛ توفيراً على النفسِ حظَّها في دعائِها ، إلىٰ جَمْعِ الدنيا ونعمائِها ، وإلىٰ مخالطةِ بناتِها وأبنائِها ، وقرنَ أسبابَها بشهواتِها الطبيعيَّةِ لتكونَ باعثةً عليها وسائقةً إليها[2] ، وما خلقَهم لذلكَ ، بل ليوحِّدوهُ ثم ليعبدوهُ بأمرِهِ علىٰ خلافِ الطبعِ[3] ، معرضينَ عمَّا تدعو إليهِ الشهواتُ إلا بالشرعِ ، فيكونوا مُبْتَلَيْنَ ، تباركَ اللهُ أحكمُ الحاكمينَ .

---

(١) كما قال : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦٠] ، وقال : ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ؛ تكميلاً لموجَب دعوة الطبيعة ، فكذلك في البيع والنكاح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) فكانت الشهوات سبباً خفياً لعمارة الدنيا .

(٣) إذ الطبيعة داعية إلى الاستزادة والاستكثار ، دون مراعاة حقٍّ للجوار ، وإنما الشرائعُ حدودٌ تحجز النفوس عن الطغيان والتعدِّي ؛ ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فالعبادة هي المقصود من إيجاد الإنس والجانّ .

وعلَّقَ مُلْكَ الآخرةِ بالتوحيدِ والهدىٰ ، مكانَ تعليقِ مُلْكِ الحاضرةِ بالشهوةِ والهوىٰ[1] ، ثم شرعَ العقوباتِ مكروهةً بالطبائعِ ؛ لتكونَ زاجرةً لهم عن طاعةِ النفوسِ إلىٰ موجَبِ الشرائعِ ، مكانَ الشهواتِ الداعيةِ إلىٰ نفْعِ العاجلِ ، الزاجرةِ عنِ الآجلِ ، **فالعقوباتُ زواجرُ** ، وفيها معنى التطهيرِ عن آثامِ الارتكابِ والافتراءِ[2] ، ولـٰكنْ بشرطِ الالتزامِ والانتهاءِ[3] ، لا أنَّها أصلٌ في بابِ الابتلاءِ ، وإنَّما الأصلُ ما ذكرناهُ مِنَ الابتداءِ[4] .

وإنَّما مثلُ العقوباتِ معَ العباداتِ مثلُ الأدويةِ معَ الأغذيةِ ؛ فالأدويةُ ليسَتْ ممَّا دَعَتِ الطبائعُ إليها على الابتداءِ ، ولا ممَّا تعلَّقَ بها في الأصلِ البقاءُ مِنْ جملةِ الغذاءِ ، ولـٰكنَّها زواجرُ عنِ الإفراطِ فيها ، والتناولِ فوقَ الكفايةِ منها ؛ لِمَا أنَّها في طباعِها ومذاقِها ممَّا تنفرُ عنها النفوسُ وتقذفُها الطِّباعُ[5] .

وفيها معنى التطهيرِ مِنْ أمراضِ فضولِ الغذاءِ ، ولـٰكنْ بشرطِ الاحتمالِ

---

(١) أي : بين إجابة دعوة الله إلىٰ أداء الطاعات ، وبين دعوة الطبع إلى استيفاء اللذات . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : يلزم الحدُّ في الحال ، وينهىٰ عن المعصية في المآل ؛ ليحصل معنى الزجر والتطهير . انتهىٰ من هامش (و) ، ومثال **الافتراء** : قذف المحصن . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) أي : بشرط أن يلتزم الحدود ، والانتهاء عن مباشرة أسبابها ، والعقوباتُ قبل الارتكاب للزجر ، وبعد الارتكاب للجبر . انتهىٰ من هامش (و) ، والمراد **بالابتداء** : أصل الخطاب الشرعي دون مراعاة سبب أو شرط أو مانع .

(٤) أي : العقوبات مشرَّعة جزاءً ، لا ابتداءً ، ولا ابتلاءً أصالة ، بخلاف العبادات . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) لما فيها من حَرافة الرائحة والمرارة . انتهىٰ من هامش (و) ، **والحَرافة** : طعمٌ يحرق اللسان والفم .

والاحتماءِ[1] ، فتُشاكِلُ الأغذيةَ ؛ لِمَا فيها مِنَ الإصلاحِ بشرطِ الحِمْيَةِ في محلِّ الأجزيةِ[2] ، وعلى الابتداءِ ، غيرُ معدودةٍ في الغذاءِ ؛ فكذلكَ العقوباتُ تُشاكِلُ العباداتِ ؛ لِمَا فيها مِنَ التطهيرِ بشرطِ الانتهاءِ في محلِّ الجزاءِ[3] .

وعلى الابتداءِ ، غيرُ معدودةٍ في أقسامِ الابتلاءِ[4] ، بلِ ابتلى اللهُ تعالى العبدَ بالعباداتِ ، بقَدْرِ ما ابتلى النفسَ بالمعاملاتِ ؛ مِنْ ماليٍّ وبدنيٍّ ؛ فالماليُّ : ما يتأدَّىٰ بالمالِ ، والبدنيُّ : ما يتأدَّىٰ بالبدنِ ، والماليُّ تجري فيهِ النيابةُ ؛ لأنَّهُ ابتُليَ في إخراجِهِ بالنقصانِ[5] ، وحصولُهُ بيدِهِ وبيدِ غيرِهِ سيَّانِ ، والبدنيُّ لا نيابةَ فيهِ ؛ فقدِ ابتُليَ بشُغُلِ نفسِهِ في طاعةِ ربِّهِ ، وأنَّهُ يفوتُ بنيابةِ غيرِهِ[6] .

ثمَّ اللهُ تعالىٰ شرعَ المعاملاتِ ؛ لتُعِينَهُ علىٰ تحقيقِ معنى العباداتِ ؛ بزيادةِ

---

(١) أي : يشترط أن يتحمَّل مرارة الأدوية ، ويُحمىٰ بعد ذلك عن الإفراط في الغذاء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) بجزاء إفراطٍ سبق منه في إسراف الأكل . انتهىٰ من هامش (ب) ، وفي هامش (و) : (وهو أمراض تحصل بواسطة فضول الغذاء) .

(٣) عند ارتكاب أسباب الحدود . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) فعلمت : أن الأدوية والعقوباتِ لا ابتداء فيهما ، بل شُرعا عند وجود المرض والمخالفة ، ولهٰذا لم تكن الأدوية غذاءً ، ولا العقوباتُ عباداتٍ في ذواتها ؛ إذ الطائع المجتنب لما جعل الله تعالىٰ له عقوبة . . يُتصوَّر منه أن يعبد الله ويموت دون أن تجري عليه الحدودُ والعقوبات .

فقوله تعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] : البلاء فيه إنما هو بالأوامر والنواهي المختصَّة بالعبادات ؛ إذ هي التي يُتصوَّر فيها الابتداء دون ملاحظة سابق عليها ، ثم المعاملات تابعة ومعينة عليها .

(٥) كالزكاة . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٦) فلا نيابة في الصلاة والحج ، ولا في التوبة من الذنوب .

العبيدِ وتقويةِ الأجسامِ[1] ، فالنفسُ تَشْرَعُ في العباداتِ لتُعينَهُ علىٰ تحقيقِ الدنيا بكسْبِ المحمدةِ مِنَ الخاصِّ والعامِّ ؛ تحقيقاً لمعنى المِحْنةِ والحَبْسِ ، والتسويةِ مِنْ حيثُ الظاهرُ بينَ حظِّ الروحِ والنفسِ .

فصارَتِ العباداتُ كلُّها مشروعةً للابتلاءِ ، بخلافِ هوى النفسِ والطبيعةِ .

ولن يتحقَّقَ معنى الابتلاءِ ، إلا في الأداءِ ؛ إذْ ذلكَ فعلُ العبيدِ ، فأمَّا الوجوبُ فحُكْمُ الحاكمِ المجيدِ ، فصارَتِ الإقامةُ مطلوبةً مِنَ المخاطبينَ بالعباداتِ لا محيصَ لهم عنها ، إلا بأنفسِهم فيما لا يحتملُ النيابةَ أو بالإنابةِ منهم فيما يحتملُها لا بدَّ لهم منها .

كما أنَّ الحكمةَ مِنَ العقوباتِ لِمَا كانَ معنى الردعِ ، لم ينفكَّ مَنْ أُقيمَ عليهِ عن ذَوْقِ ما يكرهُهُ الطبعُ .

فتبيَّنَ للعبدِ أنَّ عملَهُ لا يعملُهُ أحدٌ مِنَ الورىٰ ، وبذلكَ نطقَ الكتابُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ـ ٤٠] ، فيجتهدُ في تحصيلِهِ قبلَ أنْ تختطفَهُ المَنُونُ ، وهو علىٰ مَطِيِّ الأملِ سائقاً بسَوْطِ الظُّنونِ .

وأمَّا المعاملاتُ : فالماليَّةُ منها لبقائِهِ مدَّةَ مَهَلِهِ ، وتلكَ الفائدةُ حاصلةٌ لهُ بغيرِ عَمَلِهِ ؛ ممَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ مباحاً لهُ مِنْ خيرِهِ ، أو ممَّا خلقَ بسببٍ مِنْ غيرِهِ ، فلا يَشْغَلَنَّ بهِ قلباً ، ولا يَعُدَّنَّهُ خَطْباً .

وأمَّا البدنيُّ مِنَ النكاحِ : فإنْ لم يَقُمْ ما كانَ يكونُ منهُ بغيرِهِ فما عليهِ باسٌ ،

---

(١) فزيادةُ العبيد بما أباح من النكاح ، وتقويةُ الأجسام بنحو عقد البيع والشراء في اقتناء الطعام والشراب .

وإنِ انقطعَ النسلُ وهلكَ الناسُ ، ولا يميلَنَّ إليهِ إذا خافَ فيما عليهِ خللاً[١] ، بل مالَ إذا لم يخفْ علىٰ سبيلِ الترحُّمِ على الجنسِ متنفِّلاً .

ثمَّ العباداتُ في حُكْمِ الابتلاءِ علىٰ قسمينِ : في معنىٰ رياضةٍ وخدمةٍ .

فالخدمةُ ثمرةُ الرياضةِ ، والمملكةُ والولايةُ ثمرةُ الخدمةِ ؛ كالدَّابَّةِ تُراضُ لتَصْلُحَ لركوبِ المَلِكِ وخدمتِهِ ، ثم يُجرىٰ عليها وظائفُ دوابِّ نوبتِهِ ، وكالأميرِ يمتحنُ كثيراً مِنْ قومِهِ بفتحِ البلادِ وقَمْعِ العِدَا ، ثم يُقَرِّبُهُ للخدمةِ والنجوىٰ ، فإذا صَلَحَ لهما صرفَهُ في خِلْعةِ الوِزارةِ ، علىٰ نسبةِ الإمارةِ[٢] .

فعلىٰ مقدارِ حُسْنِ الرياضةِ حُسْنُ الخدمةِ ، وبقَدْرِ قَبولِ الخدمةِ تجبُ الخِلْعةُ .

والصَّومُ والحجُّ والزكاةُ والجهادُ ، وكلُّ العباداتِ في معنىٰ رياضةِ العبادِ ، إلا الصلاةَ فإنَّها مَحْضُ عبادةٍ علىٰ بساطِ قُربَةٍ[٣] ، فإذا صَلَحَ لها صُرِفَ إلىٰ دارِ الجوارِ وأرضِ المملكةِ[٤] ، ولهـٰذا كانَتِ الصلواتُ الخمسُ عَهْدَ اللهِ لإدخالِ

---

(١) أي : إذا علم التقصير في امتثال الأوامر من قوله : ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ [الطلاق : ٦] ، وقوله : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة : ٤٣] وغيرها . . فليمتثل قوله : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور : ٣٣] . مفادٌ من هامش (و) ، وعطف قوله : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرُهُ : أنه لا يقيمُها بخشوع إن هو اشتغل بهمِّ العيال ، والله أعلم .

(٢) أي : الأمير وزيرٌ والوزير أميرٌ من حيث المعنىٰ ؛ لأن الأمير يعمل برأي الوزير ، فكان المتصرِّفُ الوزيرَ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) القُربَةُ : القُرْب في المنزلة ، وأصل إطلاق القُرب إنما هو في المكان ، والقُربىٰ والقرابة في الرحم ، وكلُّ ما يتقرَّب به إلى الله تعالىٰ يُسمَّىٰ قُرْبة .

(٤) دار الجوار : الجنة . انتهىٰ من هامش (و) .

الجنَّةِ[1] ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجدُ فيها للعينِ قُرَّةً[2] .

أمَا يرى العبدُ سائرَ عباداتِهِ لا تتأدَّىٰ إلا بغيرِ اللهِ تعالىٰ ؛ مِنْ بيتٍ في الحجِّ بالزيارةِ ، وفقيرٍ في الزكاةِ بالمبرَّةِ ، ونَفْسٍ في الصومِ يُقهرُ بالكفِّ عمَّا تعلَّقَ بهِ قِوامُهُ ، وبهِ يتأدَّىٰ صيامُهُ ، **والصلاةُ لا تتأدَّىٰ إلا باللهِ العظيمِ** ؛ كالخدمةِ اسمٌ لِمَا لا يتأدَّىٰ إلا بالمخدومِ ، **وكذلكَ سائرُ العباداتِ تتأدَّىٰ بما لا يُعرفُ مثلُهُ في الشاهدِ خدمةً** ، ولا يُستجازُ نحوُهُ علىٰ بساطِ القُربةِ ، بل أركانُها تتأدَّىٰ بما يكونُ رياضةً للنفسِ في مخالفةِ شهواتِها ، ومنابذةِ إراداتِها ؛ **كالصومِ** تَأَدِّيهِ بالكفِّ عنِ الشهواتِ الطبيعيَّةِ ؛ مِنْ أكلٍ وشربٍ وجماعٍ ، التي هي أصولُ ما في الدنيا مِنْ متاعٍ ، وإنْ فعلَ ما ينافي الخدمةَ ، وينفي عن بساطِ القُربةِ ؛ مِنَ الجدالِ بلا حقٍّ ، والكلامِ بغيرِ صدقٍ ، وجميعِ أحوالِ الدنيا التي تضادُّ التقوىٰ ، وإنَّما الأحسنُ لهُ أنْ يَقرُنَ الكفَّ عمَّا لا يعنيهِ مِنَ المعاملاتِ ؛ بالكفِّ عمَّا عناهُ مِنَ المُفْطراتِ ، **فصارَ معنى الرياضةِ أصلاً ، ومعنى الخدمةِ فرعاً** ؛ كي لا يخلوَ الأصلُ عن ثمرتِهِ ، والسببُ عن عائدتِهِ ؛ حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغِيبةُ تفطرُ الصائمَ »[3] ؛ أي : تُذهِبُ ثوابَهُ ،

---

(1) رویٰ أبو داود (١٤٢٠) ، والنسائي (١/ ٢٣٠) ، وابن ماجه (١٤٠١) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً : « خمسُ صلوات كتبهنَّ الله على العباد ، فمن جاء بهنَّ لم يضيع منهنَّ شيئاً استخفافاً بحقِّهنَّ . كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة ، ومَنْ لم يأتِ بهنَّ فليس له عند الله عهدٌ ؛ إن شاء عذَّبه ، وإن شاء أدخله الجنة » .

(2) تقدم (ص١٧٠) .

(3) روى البخاري (١٩٠٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من لم يدعْ قول الزور والعملَ به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ، وروىٰ هـٰذا الحديث الترمذيُّ وبوَّب له بقوله : (بابُ ما جاء في التشديد في الغِيبة للصائم) .

وتَصرِمُ ثمرتَهُ ، وهو في مقابلةِ ما يدعو الطبعُ إلى الحِمْيةِ عنِ الغذاءِ ؛ لطلبِ الشفاءِ .

وكذلكَ الحجُّ تَأَدِّيهِ بالوقوفِ علىٰ فِناءِ بيتِ اللهِ بعرفةَ ، ثم بالمزدلفةِ ، ثمَّ القُرْبانِ بمنىً ، ثمَّ الطوافِ حولَ بيتِ المولىٰ ، وابتداؤُهُ بفُرْقةِ الأهلِ والوطنِ بوداعٍ ، للوصولِ بعدَ طولِ السفرِ إلىٰ هـٰذهِ البقاعِ ، وما هـٰذهِ الأمورُ كلُّها إلا علىٰ سبيلِ الرياضةِ لنفسِهِ ، علىٰ خلافِ شهواتِهِ ؛ في حبِّ وصالِ السَّكَنِ ، والمُقامِ بينَ الأهلِ والوطنِ ، وهي في مقابلةِ حبِّ الأسفارِ إذا كَبُرَتِ النفوسُ وعَلَتِ الهِمَمُ وبُسطَتِ الآمالُ ؛ لطلبِ نفيسِ الأموالِ ، ونيلِ عِظامِ الأغراضِ مِنَ الملوكِ والوَقَفاتِ علىٰ أبوابِهم ؛ إظهاراً لصِدْقِ اعتقاداتِهم ، بتحمُّلِ مشقَّةِ السفرِ علىٰ فِراقِ أهليهم وأوطانِهم وأسبابِهم ، وتجرُّعِ كأسِ المذلَّةِ بالوَقَفاتِ ، والتردُّدِ في تلكَ المقاماتِ ؛ ليتوصَّلوا بما يظهرُ منهم إلىٰ بساطِ القُرْبةِ ، ويصلحوا لإقامةِ مَرْضِيِّ الخدمةِ ، فما يكونُ قبلَ الوصولِ إلىٰ مَلِكِهم رياضاتٌ ، غيرُ مُتَّصِلٍ بالمَلِكِ فوائدُ تلكَ المقاماتِ[1] ، حتىٰ كانَتْ تلكَ الأعمالُ مِنْ كثيرٍ ، لا يشعرُ بهم صاحبُ السريرِ .

والخدمةُ اسمٌ لا ينفكُّ عنِ المخدومِ ، وغيرُ صالحٍ إثباتُ هـٰذا الوصفِ للخدمةِ للمَلِكِ إلا لمَنْ هو عندَهُ معلومٌ[2] ، فعلىٰ ذلكَ تحقيقُ معاني العباداتِ للربِّ ، وإنْ لم يقعْ شيءٌ منهُ علىٰ عيبٍ[3] ، كما شبَّهْنا مكَّةَ بالحَضْرةِ ، والكعبةَ بالإيوانِ ، تعالى اللهُ عن تحديدِ مكانٍ لهُ فما لهُ مِنْ مكانٍ ، بل كانَ

---

(١) في (ب ، و) ، ونسخة في هامش (د ، هـ) : (المعاملات) بدل (المقامات) .

(٢) أي : إلا لمن هو قائم في بساط القرب ، ووافى المالك . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) في هامش (و) نسخة : (منها) بدل (منه) .

ولا مكانَ ، فخلقَ المكانَ فبقيَ علىٰ ما كانَ[1] .

فدلَّ هـٰذا البناءُ على الرياضةِ ، ودلَّ تأدِّيها معَ أعمالِ الدنيا علىٰ أنَّها ليسَتْ بعبادةٍ[2]، وإنَّما نُدِبْنا إلىٰ تحصيلِ معاني الخدمةِ مِنَ التهليلِ والثناءِ، والتلبيةِ والدعاءِ؛ ليتَّصلَ بالرياضةِ معنى الخدمةِ[3]، وتتزيَّنَ النخلةُ بعدَ عثاكيلِها بالثمرةِ[4] .

---

(١) روى البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما خبراً فيه الحديث عن نشأة الخلق ، وفيه : « كان الله ولم يكن شيء غيرُهُ » ، وقول الإمام المصنف : (فبقي علىٰ ما كان) هو ما أجمع عليه أهل الحقِّ ؛ إذ يتعالىٰ مولانا عن التغيير والتبديل ، وسبقه إلىٰ بيان هـٰذا المعنى الإمام الطحاوي ؛ حيث قال في « عقيدته » ـ كما في « شرحها » للغنيمي (ص٢٥) ـ : (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، لم يزددْ بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفاته) ، قال العلامة الغنيمي (ص٥٦) : (إذْ لو استفاد صفةً لم يكن موصوفاً بها في الأزل .. لكان إذ ذاك ناقصاً ، تعالى الله عن ذلك) ، وقد قال القاضي شيذله ـ كما في « تبيين كذب المفتري » (ص٣٠٦) ـ : (كان ولا مكان ، فخلق العرش والكرسيَّ ، فلم يحتج إلىٰ مكان ، وهو بعدَ خَلْقِ المكان كما كان قبل خلقه) .
وقال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٦٩) بعدما ذكر قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، وشبهةَ رفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء ، وغيرَ ذلك مما يشير إلىٰ جواز المكانية في حقه سبحانه وتعالىٰ : (**الأصل فيه أن الله سبحانه كان ولا مكان** ، وجائزٌ ارتفاع الأمكنة وبقاؤه علىٰ ما كان ، **فهو علىٰ ما كان ، وكان علىٰ ما عليه الآن** ، جلَّ عن التغيُّر والزوال ، والاستحالة والبطلان ؛ إذ ذلك أمارات الحدث التي بها عُرِفَ حَدَثُ العالم ، ودَلالة احتمال الفناء ؛ إذ لا فرق بين الزوال من حال إلىٰ حال ليعلم أن حاله الأولىٰ لم تكن لذاته ؛ إذ لا يحتمل زوال ما لزم ذاته ، وبين أنها ليست لذاته ؛ لما احتمل هو قبول الأعراض وانتقال الأحوال) .

(٢) قوله : (**مع أعمال الدنيا**) كما قال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، والمراد بالفضل : التجارة ، وقوله : (**ليست بعبادة**) ؛ أي : ليست بعبادة خدمة ، بل عبادةُ رياضة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) في سياق المصنف تدليلٌ علىٰ جواز إطلاق لفظ (الخدمة) على الله تعالىٰ .

(٤) **العثاكيل** : جمع عُثْكول أو عِثْكال ؛ وهو قِنوُ النخلة الذي عليه البُسْرُ ؛ إذا ظهر فيه الرطب فهو العِذْق .

وكذلكَ الصدقةُ تَأَدِّيها بإزالةِ مِلْكِهِ إلى الفقيرِ على سبيلِ الإيثارِ ، خلافاً لطبعِهِ في الاستئثارِ ، معَ ارتكابِ ما ينافي معانيَ الخدمةِ ، على ما ذكرْناها في الحِجَّةِ ، إلا على سبيلِ الأدبِ والسنَّةِ ، وهي في مقابلةِ ما تأمرُهُ النفسُ بالجودِ في شهواتِها العاجلةِ .

[فضْلُ عبادةِ الصلاةِ]

فإذا آلَ الأمرُ إلى الصلاةِ أُلزمَ العبدُ شرائطَ الخدمةِ في الشاهدِ[1] ؛ مِنَ التطهُّرِ عن أنجاسِهِ ، والتزيُّنِ بلباسِهِ[2] ، ودخولِ مكانٍ خاصٍّ للرحمـٰنِ[3] ، ثمَّ استقبالِ الكعبةِ مقامَ جهةِ الوجهِ لمَلِكٍ لهُ جِهَةٌ[4] ، وإذا شَرَعَ فيها لم تَتَأَدَّ إلا

---

(١) أراد بالشاهد : قسيم الغائب ؛ إذ الصوم والحجُّ والصدقة في الشاهد لا تنفع المَلِكَ ، فلا خدمة فيها ، أما الخضوع بالسجود والركوع فهو خدمة في الشاهد ، ولله المثل الأعلىٰ .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، والمسجد : لفظ عامٌّ يُراد به كلُّ موضع سجود ، وإطلاقه على الصلاة من باب المجاز المرسل ؛ إذ أُطلقَ البعض وأُريدَ الكل .

(٣) قال جلَّ جلاله : ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ [الجن : ١٨] ، قال العلامة ابن قتيبة في « غريب القرآن » (ص٤٩١) : (أي : السجودَ لله ، هو جمع مسجد ؛ يقال : سجدت سجوداً ومسجداً ؛ كما يقال : ضربت في البلاد ضرباً ومَضرَباً ، ثم يجمع فيقال : المساجدُ لله ؛ كما يقال : المضارب في الأرض لطلب الرزق) ، والأليق في عبارة المصنف : حمل المكان على المسجد الجامع أيّاً كان ؛ إذ المساجد أوقاف لا تدخل تحت ملك أحد ولو مجازاً .

(٤) إذ مولانا سبحانه وتعالىٰ لا يتصف بالمكان كما سبق قريباً ، والجهة فرعُ إثبات المكان ، وانتفاء الأصل مؤذنٌ بانتفاء الفرع ، ولهـٰذا أجمع أهل السنة أنه تعالىٰ يُرىٰ لا في جهة وبلا تكييف ، كما يَرىٰ سبحانه العالمَ وليس العالمُ منه في جهة .

والمراد هنا : أنه لما امتنع عقلاً وشرعاً التوجُّهُ إلىٰ ذات الله تعالىٰ باعتبار الجهات الحسية الستة . . أقيم التوجُّهُ إلىٰ بيت الله الكعبة المشرفة مُقامَ ذلك ، والأصل : هو أن التوجُّهَ إلىٰ أيِّ جهة بقصد الخدمة والسجود لله تعالىٰ جائزٌ ؛ وهو المعبَّرُ عنه بقوله سبحانه :=

بما يُحَقِّقُ معانيَ الخدمةِ ؛ مِنْ قيامٍ على استقبالٍ واستقامةٍ ، وكلامٍ يليقُ بتلكَ المَقامةِ[١] ، وتذلُّلٍ بالركوعِ وتخشُّعٍ بالسجودِ ، وسؤالٍ على الجُثُوِّ ، ما يَحِلُّ فيها التفاتةٌ ، ولا لغيرِ اللهِ تعالىٰ حركةٌ .

ثم يتَّصلُ بهـٰذهِ المعاني التي هي خدمةٌ . . معاني الرياضةِ في مخالفةِ شهواتِهِ الداعيةِ لهُ إلىٰ خدمةِ الكُبراءِ ؛ بالأفعالِ مِنْ قيامٍ وانحناءٍ وسجودٍ وقعودٍ ، وبالأقوالِ مِنْ شكرٍ وثناءٍ ، وتمجيدٍ وتحميدٍ ، غيرَ أنَّ هـٰذهِ المعانيَ فيها اتباعٌ والتي ذكرناها أصولٌ ، حتى ارتفعَتْ بضوادِّها مِنْ مَقُولٍ أو مفعولٍ[٢] ؛ لتُجْنى الخدمةُ التي هي ثمرةٌ مِنْ أصلِها[٣] ، فأحسنُ ما يكونُ القُطُوفُ علىٰ غصنِها[٤] .

= ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وما من أحد من أهل السنة قائلٌ بأنه تعالىٰ في كلِّ مكان ، بل هم مجمعون علىٰ نفي المكان عن ذاته العلية ، وإنما تساوت الأشياء من حيث كونها سواء أمام قدرة الله تعالىٰ وجبروته ، ولـٰكن هـٰذا نُسخ بقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، وفي (أ ، ج) : (ليس له جهة) ، وفي (د ، هـ) : (لا له جهة) ، فتكون الجملة صفة لله تعالىٰ ، والمعنىٰ واحدٌ .

(١) المقامة : المجلس ، ومراده هنا : الصلاة من مفتتحها إلىٰ مختتمها .

(٢) في هامش (ج ، هـ) : (بأضدادها) بدل (بضوادِّها) ، وسبب الارتفاع : استحالة اجتماع الضدَّين ؛ فإذا وُجدَ أحدهما انتفى الآخر ، والظاهر : أنه جمعُ (ضادَّةٍ) أو (ضادٍّ) ، وهو غير قياسي ؛ إذ اسم الفاعل من (ضادَّ) : هو مضادٌّ ، والله أعلم .

(٣) وأصل الخدمة : الرياضة في مخالفة الطبيعة والعادة ، والخدمة في الأصل : إيصال نفعٍ من الخادم إلى المخدوم في الشاهد ، ويتعالىٰ ربُّنا عن الانتفاع ؛ ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] .

(٤) القُطُوف : جمع قِطْف ؛ وهو العنقود .

وفي ذلكَ : تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكم ثلاثٌ : النساءُ ، والطِّيبُ ، وجُعلَتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ »[1] ؛ لأنَّ الكريمَ مِنْ قومِ الملكِ العظيمَ مِنْ بينِهم الصالحَ لبساطِ القُربةِ والنجوىٰ . . لا تقرُّ عينُهُ بما ينالُ فيما يُراضُ ويُمتحنُ بالأسفارِ وقَمْعِ العِدىٰ ، وإنِ استولىٰ علىٰ مَنْ تحتَ يدِهِ مِنَ العبادِ ، ونفذَ أمرُهُ فيما فتحَ مِنَ البلادِ ، وإنَّما تقرُّ بهِ عينُ المنقوصِ حالُهُ عن محلِّ المشاهدةِ والشورى ، العاجزِ عنِ الخدمةِ علىٰ بساطِ القُربةِ أوِ اللُّقْيا ، حتىٰ لم يُعرفْ رتبةُ قرَّةِ العينِ في الصلاةِ إلا لسيِّدِ الساداتِ ، خاتِمِ النبوَّةِ والرسالةِ ، قائدِ يومِ القيامةِ .

ولهـٰذا تكرَّرَتِ الصلواتُ في اليومِ والليلةِ وتفرَّقَتْ غيرُها على الأحايينِ[2] ، بناءً علىٰ ما يكونُ مِنْ تكرارِ خدمةِ الوزيرِ ونجواهُ وتأخُّرِ الأمورِ عن زعماءِ الجيوشِ وأمراءِ أطرافِ المملكةِ إلىٰ حينٍ .

ولهـٰذا اشتملَتْ شروطُ الصلاةِ علىٰ معاني الحجِّ والصومِ ، ثم فضلَتْهما بأركانِها ؛ فالرياضةُ لا تقصدُ إلا لتحصيلِ الخدمةِ بها في أوانِها ، فكانَتِ الخدمةُ زائدةً علىٰ بنيانِها .

---

(١) تقدم (ص١٧٠) ، وانظر ما قيل فيه تعليقاً (ص٢٢٣) .

(٢) فالصوم والزكاة في السنة مرة بشرائطهما ، والحج في العُمُر مرة .

نعم ؛ النطق بالشهادتين يجب في العمر مرة على الانفراد في حقِّ الكافر الأصلي ، ولـٰكنه والمؤمن مستديمانِ للنطق بهما باطناً واعتقاداً في كلِّ وقت وحين ، وبهـٰذا تعلم شأن التوحيد .

[تعليلُ عدمِ ركنيَّةِ الجهادِ]

فقالَ الأخُ : كلامٌ بديعٌ ، وفصلٌ مَرِيعٌ[(١)] ، ولـٰكنَّكَ سكتَّ عن جهادِ المشركينَ ، وقتالِ الباغينَ ، وبهِ نطقَ القرآنُ ، وجاءَ مِنَ الرسولِ البيانُ[(٢)] .

قلتُ : أما عرفْتَ أنَّا في شرحِ أقسامِ الابتلاءِ ، التي لزمَتْنا على الابتداءِ ؟![(٣)] وقتالُ الناسِ جاءَ مِنْ بعدُ زجراً لهم عن حربِهم[(٤)] ، وحَمْلاً

---

(١) مَرِيع : خصب وافر الجنىٰ .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى ﴾ [الحجرات : ٩] ، وقوله : (من الرسول البيان) ؛ أما في قتال الكفار فظاهر ، وأما في قتال البغاة فقال لعليٍّ : « إنك ستقاتل الهالكين والمارجين » . انتهىٰ من هامش (و) .

وروى البخاري (٤٥١٤) عن نافع : أن رجلاً أتى ابنَ عمر فقال : يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ ما حملك علىٰ أن تحجَّ عاماً وتعتمر عاماً ، وتتركَ الجهاد في سبيل الله عز وجل ، قد علمت ما رغَّبَ الله فيه ؟ قال : يا بنَ أخي ؛ بُنِيَ الإسلام علىٰ خمس ؛ إيمانٍ بالله ورسوله ، والصلاةِ الخمسِ ، وصيام رمضان ، وأداء الزكاة ، وحجِّ البيت .

قال : يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات : ٩] ، ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : ٣٩] ، قال : فعلنا علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يُفتن في دينه ؛ إمَّا قتلوه ، وإمَّا يعذِّبوه ، حتىٰ كثر الإسلام ، فلم تكن فتنةٌ .

وعند الإمام ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١/ ٧٧) : (فسأله رجلٌ من أهل العراق فقال: يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ إنك تحجُّ وتعتمر ، ولا تغزو ؟! فسكت عنه ، ثم أعادها ، فسكت عنه ، ثم أعادها ، فقال له ابن عمر : إن الإسلام بني علىٰ خمس ؛ شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحجِّ البيت ، وصوم رمضان، والجهادُ والصدقةُ من العمل الصالح ، هـٰكذا حدَّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٣) وسبق أن العقوبات والزواجر لم تشرع ابتداءً في الابتلاء . انظر (ص٢٥١) .

(٤) أراد بالناس : المشركين . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

لهم علىٰ سواءِ أمرِهم ؛ كما وجبَتْ إقامةُ العقوباتِ للزجرِ ، علىٰ مَنْ تولَّىٰ عنِ الأمرِ[١] ، وإنَّما هـٰذا في مقابلةِ ما تبعثُ نفوسُ شرارِ الرجالِ ، علىٰ طلبِ الدنيا بالقتالِ ، لينضمَّ معنى الرياضةِ في مخالفةِ النفسِ إلىٰ طلبِ مصلحةِ الزجرِ ، كما كانَتْ في عاداتِ الظَّلَمةِ طلبُ مصالحِ خزائنِهم ومملكتِهم بالسياسةِ والقتلِ والجلدِ ، فشرعَ اللهُ تعالىٰ لإقامةِ مصالحِ الشريعةِ أمثالَها مِنْ كلِّ حدٍّ[٢] .

ولذلكَ سقطَ الجهادُ إذا كُفيتَ بغيرِكَ ، وحدُّ العبادةِ والابتلاءِ الأصليِّ ممَّا لا يسقطُ إلا بكَ .

فإذا علمتَ أيُّها الأخُ : أنَّ الابتلاءَ بدنيٌّ وماليٌّ ، والمالُ عارضٌ لا يأتيكَ إلا بالنكاحِ[٣] ، ويبينُ عنكَ بالسماحِ . . فاكفُفْ عن كسبِهِ ، أو أتلفْهُ في رضا ربِّهِ ، فلا تَزِدْ علىٰ نفسِكَ نصفَ الابتلاءِ[٤] ؛ إنْ لم تقدرْ علىٰ إسقاطِ ما لزمَكَ بحقِّ البدنِ على الابتداءِ[٥] .

أمَا يعلمُ العاجزُ عن نفقةِ نفسِهِ أنَّهُ غيرُ جائزٍ لهُ الطمعُ في ثوابِ نفقةِ امرأتِهِ[٦] ،

---

(١) نفس الكفر لا يكون سبباً للقتال ، بل الكفر المفضي إلى الخراب ؛ ولهـٰذا لا يقتل النساء والصبيان والشيوخ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) إذ في القطع في السرقة صيانةُ الأموال ، وفي حدِّ قُطَّاع الطريق صيانةُ الطُّرُق ، وفي حدِّ الشرب صيانةُ العقل ، وفي حدِّ القذف صيانةُ الأعراض ، وفي حدِّ الزنىٰ صيانةُ الفرج والأنساب ، وفي حدِّ القصاص صيانةُ حياة النفوس . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : بنكاح الدنيا ؛ أي : بالكسب . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) الزكاة والحج . انتهىٰ من هامش (و) ؛ أراد : بيان ما كان من العبادات مالياً .

(٥) الصلاة والصوم . انتهىٰ من هامش (و) ؛ أراد : بيان ما كان من العبادات بدنياً .

(٦) كأن يتزوَّج غيرُ القادر على الوفاء بشروط ﴿أَسْكِنُوهُنَّ . . .﴾ [الطلاق : ٦] والنفقة ؛ طمعاً في=

أو نكحَ لكونِ نفقتِهِ على امرأتِهِ وإنَّهُ لَلُؤْمٌ على اغترارٍ بـ (لعلَّ) و(عسىٰ) ، ثمَّ اختداعٌ بالأملِ والمُنىٰ ؟![1] .

وما للعاقلِ أنْ يبنيَ أمرَهُ إلا على الحقيقةِ ، ولا أن يسلكَ إلا ما نهجَ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنَ الطريقةِ[2] .

دعْ أيُّها العاجزُ عن نفقةِ امرأتِكَ ثوابَ صلةِ النكاحِ إلى القادرينَ ، فما أنتَ فيما قصدْتَ مِنَ الصادقينَ ؛ إنَّما سعيُكَ إليهِ سَعْيُ مخدوعٍ مِنَ الطامعينَ[3] ، فإنْ لم تشعرْ وتزوَّجْتَها طمعاً في مالِها ، ورَغَباً في جمالِها ، فبخلَتْ بالمالِ عليكَ ، وطالبَتْكَ بالمهرِ والنفقةِ والسُّكْنىٰ ، وحَبَسَتْكَ وهي تنطلقُ[4] ، ونفسُكَ في غيرةٍ تنفلقُ ، فلماذا منكَ إمساكُها وقد فَرِكَتْكَ ورضيَتْ بالافتداءِ[5] ، أم أنتَ طلبْتَ زيادةً ؟! كلَّا ، بل كسبْتَ بالطمعِ في مالِها حَبْساً ، ولتَكسِبَنَّ بجمالِها قِيادةً[6] .

أيكونُ مِنْ مُنى النفسِ ، انطلاقُ المحبوبِ وأنتَ في الحبسِ ؟! إنَّهُ لَعَمْري سوءُ اختيارٍ ، فما لكَ إليها مِنِ اضطرارٍ[7] ؛ الطلاقُ في مِلْكِكَ ، وإلا فأبشرْ

= أن ينال المال من زوجه .

(١) تقريبه : أن العاجز والكسلان عن الصوم والصلاة غيرُ جائز له الطمع في ثواب الحج والزكاة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) وهي أن تنفق أنت على امرأتك ، لا أن تنفق امرأتك عليك . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) لأنك تتمنَّىٰ أن تنفق عليك ، وهـٰذا خلاف العادة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) لأنك لا تنفق عليها ، وليس لك أن تحبسها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) رضيَتْ بأن تفتديٰ وتخلص منك . انتهىٰ من هامش (و) ، والفِرْك: البغضة .

(٦) لأنها تتطلَّق ، وأنت معلَّق . انتهىٰ من هامش (و) ، والظاهر : أنه أراد بالقيادة : الديائة ، فتأمَّل .

(٧) أنت مالكُ الطلاق . انتهىٰ من هامش (و) .

بهُلْكِكَ ، وما عليَّ إلا البلاغُ إنْ أنا إلا نذيرٌ مبينٌ ، وما التوفيقُ إلا باللهِ ربِّ العالمينَ .

[الرياضةُ والخدمةُ]

قالَ : زادَ اللهُ لصدرِكَ نوراً ، ولقلبِكَ بصراً وسروراً ، لو مَنَنْتَ عليَّ بل علىٰ أُناسِ زمانِكَ ؛ بكشفِ ما يُتوصَّلُ بهِ إلىٰ إقامةِ ما ابتُلينا بهِ علىٰ وجهِهِ مِنْ بيانِكَ ، شَرِكْتَ في ثوابِ المهتدينَ بهِ مِنَ البريَّةِ ، وفُزْتَ بتُراثٍ مِنْ تُراثِ النبوَّةِ .

قلتُ : استُجيبَتْ دعوتُكَ ، فأجابَتْ لكَ مُنْيَتُكَ ، وإنَّا بادئونَ بالرياضاتِ وخاتمونَ بالخدمةِ ، بتوفيقٍ مِنَ اللهِ ورحمةٍ .

وذلكَ مِنْ بابِ الإقامةِ ؛ فإنَّ العبدَ إذا عرفَ ما ابتُلِيَ بهِ ولا بدَّ لهُ مِنْ فعلِهِ تسارعَ إلىٰ إقامتِهِ مِنْ طُرُقٍ أربعةٍ : لعلمِهِ أنَّهُ لا يعملُهُ غيرُهُ ، ولعلمِهِ بما فيهِ مِنْ إظهارِ صدقِهِ[1] ، ورغبتِهِ في اكتسابِ شرفِ تلكَ المقاماتِ[2] ، ثم ثوابِها في الآخرةِ .

إذْ معدومٌ في عاداتِ العقلاءِ التكاسلُ عمَّا لا بدَّ لهم منهُ حالَ الاقتدارِ[3] ، فيبقَوْا تحتَ وبالِ التَّرْكِ وما بهم وسعُ الفِرارِ ، وغيرُ موجودٍ فيهم كتمانُ الصدقِ

---

(١) في الدعوى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : أن كلَّ عبادة فهي مشتملة علىٰ مقامات ، تُستحقُّ تلك المقامات بواسطة تلك العبادات ، فيقدم على العبادة لتحصل له تلك المقامات . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) في هامش (ب ، و) : [من الوافر]

ولـم أرَ فـي عيـوب النـاسِ شيئـاً ... كنقـص القـادريـنَ علـى التمـامِ

والبيت للمتنبي . انظر « ديوانه » (ص٤٨٣) .

وإعلانُ الكذبِ في مقامِ التَّجْرِبةِ ، للمجازاةِ علىٰ ما يُعلمُ منهم حالَ المقدرةِ .

فإذا لم يستجزِ الكسلَ . . جدَّ في العملِ ، وإذا لم يرضَ بالمَذيقِ جاءَ بالصريحِ[١] ؛ إذْ هو قادرٌ علىٰ نوعيِ الكلامِ فصيحٌ[٢] ، فإذا كابرَهُ نفسُهُ علىٰ ما عَلِمَ . . رَغَّبَهُ في شَرَفِ المقامِ ترغيبَ نصيحٍ[٣] .



(١) المذيقُ : اللبن الذي خُلط بالماء ، والصريح : الصافي من اللبن هنا .

(٢) نوعا الكلام : الصدق والكذب . مفادٌ من هامش (د ، هـ) .

(٣) في حال العمل شرف المقام بأنه مؤمن موحِّد ، وفي حال الجزاء بأنه في الجنة ؛ أي : إذا لم ينقذه نفسُهُ علىٰ موجَب العلمينِ ؛ أحدهما : أنه علم أن عمله لا يعمله غيره ، والثاني : أن في العمل إظهار الصدق . . حرَّضه على الانقياد في أداء العبادات ؛ لحصول شرف الوصول إلىٰ مقاماتها . انتهىٰ من هامش (و) .

[مقامات الصّيام]

فنبدأُ بالصيامِ فنقولُ واللهُ أعلمُ[١] :

مقامُ الصائمِ مقامُ الصِّدِّيقينَ[٢] ، ومقامُ المخلصينَ ، ومقامُ الواصلينَ بالربِّ بلا حِجابٍ مِنَ المخلوقينَ[٣] ، ومقامُ الخِلْعةِ المخزونةِ عن أيدي الملائكةِ والناسِ أجمعينَ[٤] ، ومقامُ الأضيافِ ، ومقامُ استخدامِ الأشرافِ ، ومقامُ الرضا بهِ .

أمَّا مقامُ الصِّدِّيقينَ : فلأنَّهُ خالفَ شهواتِهِ الطبيعيةَ بأمرِ ربِّهِ ؛ مِنْ جماعِهِ وأكلِهِ وشُرْبِهِ[٥] ، وما الصدقُ للهِ تعالىٰ إلا في خلافِ النفسِ وأنَّهُ يَقْدِرُ ما يدعو

---

(١) روى ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢٣) عن ضمرة بن حبيب مرسلاً : « إن لكل شيء باباً ، وإن باب العبادة الصيام » ، فلهٰذا ابتدأ الشيخ قدَّس الله روحه بالصوم ، والثاني : أن العبادات البدنية المحضة علىٰ نوعين ؛ الصوم والصلاة ، فالصوم رياضة ، والصلاة خدمة ، والخدمة من جنس الرياضة . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) سيأتي تفصيل الكلام علىٰ كلِّ مقامٍ مما سيذكره الإمام المصنف .

(٣) أي : الله تعالىٰ يجزي به بلا واسطة أحد . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) إذ لا تعرف الملائكة أجر الصائم؛ فقد روى البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١/١٦٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيامَ ، فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنَّةٌ ، وإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفُثْ ولا يصخبْ ؛ فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتله فليقلْ : إني امرؤٌ صائم » .

(٥) قدَّم الجماع لأجل السجع . انتهىٰ من هامش (و) .

إليهِ الطبعُ[1] ، وذلكَ تأويلُ قولِهِ واللهُ أعلمُ : « الصيامُ جُنَّةٌ »[2] ؛ لأنَّ شهواتِهِ تَفْتُرُ بالجوعِ ، فيصيرُ جُنَّةً لهُ عن طباعِها ؛ ليثبتَ معنى الصدقِ في مخالفتِها .

وأمَّا مقامُ المخلصينَ : فلأنَّهُ يتأدَّىٰ بالكفِّ الذي لا يطَّلعُ عليهِ إنسانٌ ، ولا جنيٌّ ولا شيطانٌ ، إلا المَلَكُ الكاتبُ بأمرِ الرحمـٰنِ ، وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : الصومُ لي ، وأنا أجزي بهِ »[3] ، وكلُّ العباداتِ للهِ تعالىٰ ، فدلَّ تخصيصُ الصومِ بالإضافةِ إليهِ ، علىٰ أنَّهُ ممَّا لا حظَّ لأحدٍ فيهِ لعدمِ اطِّلاعِهم عليهِ ، فإذا لم يطَّلعوا عليهِ سَلِمَ عن شِرْكَةِ الرياءِ ، فخَلَصَ للهِ تعالىٰ .

وأمَّا مقامُ الواصلينَ بلا حِجابٍ : فلأنَّهُ ثمرةُ الإخلاصِ[4] ، وهـٰذا عملٌ مستورٌ عنِ الجنِّ والناسِ .

وأمَّا مقامُ الخِلْعَةِ المخزونةِ : فلأنَّ الجزاءَ يكونُ وِفاقَ الطاعةِ ، وهـٰذهِ الطاعةُ عنِ الكلِّ مصونةٌ ، وذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالىٰ : « وأنا أجزي بهِ »[5] ،

---

(١) يقدِرُ : يُضيِّقُ ويخفِّفُ .

(٢) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥١/ ١٦٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٢) ، ومسلم (١١٥١/ ١٦٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وزاد مسلم روايتَهُ عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٠/ ٤٣٤) : (وقد عُلِمَ أن الكريم إذا تولَّى الإعطاء بنفسه كان في ذلك إشارة إلىٰ تعظيم ذلك العطاء ، ففيه مضاعفة الجزاء من غير عدد ولا حساب) .

(٤) لأن المخلص يدخل إلى الملك بلا حجاب . مفادٌ من هامش (و) .

(٥) تقدم تقريباً .

وكلُّ الأجزيةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فدلَّ تخصيصُ هـٰذا بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ ؛ علىٰ خروجِ رسولٍ بينَ اللهِ وبينَ عبدِهِ .

ومقامُ الأضيافِ : لأنَّهُ خالفَ نفسَهُ بأمرِ ربِّهِ تعالىٰ في تناولِ ما يُستضافُ بهِ الناسُ معَ القدرةِ في الدنيا[١] ، فيجازيهِ اللهُ تعالىٰ بأضعافِ ذلكَ حينَ العُسْرةِ في العُقْبىٰ ؛ يُؤْتَوْنَ بموائدَ يومَ القيامةِ ـ علىٰ ما جاءَتْ بهِ الأخبارُ ـ حيثُ الناسُ في الحسابِ ، وما وصلوا بعدُ إلىٰ ثوابٍ[٢] .

وذلكَ أيضاً : تأويلُ قولِهِ واللهُ أعلمُ : « للصائمِ فرحتانِ ؛ فرحةٌ عندَ إفطارِهِ ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ »[٣] ؛ أي : جازيناهُ على الكفِّ عن غذائِهِ ، بفرحةٍ زائدةٍ في فَطُورِهِ قبلَ عِشائِهِ ، ما لم يكنْ ينالُها لو تفكَّهَ بغدائِهِ[٤] ، ثم بخيرٍ منها عندَ لقائِهِ ، والناسُ في الحسابِ وما وصلَ أحدٌ إلىٰ جزائِهِ ، فإنَّما لهم ذلكَ في الآخرةِ مقامَ الفَطُورِ قبلَ الصلاةِ في العاجلةِ ، فيَحُلُّ الصائمونَ يومَ القيامةِ محلَّ الأضيافِ ، والناسُ حَلُّوا محلَّ الخصومِ ، ومَنْ كانَ ضيفاً لكريمٍ

---

(١) ما يُستضاف به الناس : هو الطعام والشراب . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، وفي هامش (ب) : (يعني : يترك ضيافة الخلق إلىٰ ضيافة الله تعالىٰ ، أو لأن الجوع ضيافة الله في الأرض يُشبع به أبدانَ الصدِّيقين) .

(٢) روى الشجري ـ كما في « ترتيب الأمالي الخميسية » (١٣٩٤) ـ من حديث سيدنا علي رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا كان يومُ القيامة نادىٰ منادٍ : أين الظامئةُ أكبادهم ؟ وعزَّتي ؛ لأُرْوِيَنَّهم اليوم » ، قال : « فيؤتىٰ بالصائمين ، فتوضعُ لهم الموائد ، فإنهم ليأكلون والناسُ يحاسبون » .

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٢) ، ومسلم (١١٥١/ ١٦٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم بعضه .

(٤) الفَطُور ـ بوزان رسول ـ : ما يُفطَرُ عليه من الطعام عند الغروب ، والعَشاء : طعامُ المساء ، والغداء : طعامُ الغُدْوة أول النهار ، والعِشاء في كلامه : صلاة المغرب .

خدمَهُ الأشرافُ ، وما هم إلا الملائكةُ ، فكم بينَ قومٍ خصومٍ قامَتْ عليهمُ الملائكةُ موكَّلينَ طالبينَ ، وبينَ قومٍ أضيافٍ قامَتْ عليهمُ الملائكةُ مُكَرِّمينَ راغبينَ .

وأمَّا مقامُ الرِّضا بهِ : فلأنَّ مقامَ الوصولِ بلا واسطةٍ ، ومقامَ الإخلاصِ بلا رياءٍ . . مقامُ الرِّضا بالعبدِ ، وكذلكَ مقامُ الضيفِ ، وذلكَ تأويلُ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ولَخُلُوفُ فَمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِنْ ريحِ المِسْكِ »[1] ، واللهُ تعالىٰ عليٌّ جلَّ وعلا عن وصولِ الروائحِ الطيِّبةِ أوِ المؤذيةِ إليهِ[2] ، ولـٰكنْ هـٰذا علىٰ مثالِ مَنْ رَضِيَ بإنسانٍ وأحبَّهُ استحسنَ كلَّ ما ظهرَ

(١) رواه البخاري (٥٩٢٧) ، ومسلم (١١٥١/ ١٦٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وخُلُوف الفم : تغيُّرُ ريحه لخلاء المعدة من الطعام .

قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ٣٤٦) : (فإن قلت : لِمَ كان خُلُوفُ فم الصائم أطيبَ عند الله من ريح المسك ، ودمُ الشهيد ريحُهُ ريحُ المسك ، مع ما فيه من المخاطرة بالنفس وبذل الروح ؟

أجيب : بأنه إنما كان أثرُ الصوم أطيبَ من أثر الجهاد ؛ لأن الصوم أحد أركان الإسلام ، المشارِ إليها بقوله عليه الصلاة والسلام : « بني الإسلام علىٰ خمس » ، وبأن الجهاد فرض كفاية ، والصومَ فرض عين ، وفرضُ العين أفضل من فرض الكفاية كما نصَّ عليه الشافعي) .

(٢) قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ٣٤٦) : (واستشكل هـٰذا من جهة أن الله تعالىٰ منزَّهٌ عن استطابة الروائح الطيبة ، واستقذار الروائح الخبيثة ؛ فإن ذلك من صفات الحيوان .

وأجيب : بأنه مجاز واستعارة ؛ لأنه جرت عادتنا بتقريب الروائح الطيبة منَّا ، فاستعير ذلك لتقريبه من الله تعالىٰ .

وقال ابن بطال : أي : أزكىٰ عند الله ؛ إذ هو تعالىٰ لا يُوصف بالشمِّ .

قال ابن المنيِّر : لـٰكنه يوصف بأنه تعالىٰ عالم بهـٰذا النوع من الإدراك ، وكذلك بقية =

منهُ أو رأىٰ عليهِ ، وكيفَ لا يكونُ مرضياً للهِ تعالى وإنَّما غيَّرَ رائحةَ فمِهِ العبادةُ على الإخلاصِ[1] ، وطِيبُ أثرِها ممَّا لا يُعرفُ بالقياسِ ؟!

هـٰذا للصائمِ إلىٰ كثيرٍ لا يخطُرُ بالصدورِ[2] ، ولذلكَ خُصَّ وقتُ فرضِ الصومِ بالإضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ بينِ الشهورِ[3] ؛ كما خُصَّ المسجدُ مِنْ بينِ الدُّورِ[4] .

ثم صُفِّدَتْ فيهِ مَرَدَةُ الشياطينِ تسبيباً لصيانةِ ما شُرِعَ مضموناً بالضميرِ[5]، وغُلِّقَتْ أبوابُ النِّيرانِ وفُتِّحَتْ أبوابُ الجِنانِ ليدلَّ علىٰ أنَّهُ شهرُ العَتاقِ عنِ السعيرِ[6] ،

= المدركات المحسوسات يعلمها تعالىٰ علىٰ ما هي عليه ؛ لأنه خالقها ؛ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك : ١٤] ، وهـٰذا مذهب الأشعري .

وقيل : إنه تعالىٰ يجزيه في الآخرة حتىٰ تكون نكهته أطيبَ من ريح المسك ، أو إن صاحب الخُلُوف ينال من الثواب ما هو أفضل من ريح المسك عندنا) .

(١) أي : وكيف لا يستحسنه ولا يرضىٰ به وهو أثر العبادة ؟! انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قوله : (هـٰذا) ؛ أي : المذكور من المقامات والأجزية والمنفعة وغير ذلك مما لا يطلع عليه إلا الله . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : خصَّ الله تعالىٰ هـٰذا الشهر بهـٰذه الفريضة الجليلة دون غيره من الشهور ، وأضاف أجرها إليه ، وإلا فالمحرَّم من بين الشهور سُمِّي بشهر الله ، وروىٰ مسلم (١١٦٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أفضلُ الصيام بعد رمضان : شهرُ الله المحرَّم » .

(٤) فقيل : بيت الله .

(٥) قوله : (تسبيباً) ؛ يعني : جُعل تصفيدها سبباً لصون ما شُرع من عبادات الباطن ، وفي هامش (و) : (أي : كما يمنع نفسه عن المفطرات الظاهرة شرعاً لصيانة الباطن من الخواطر الرديَّة ، كما في باب الوضوء ألحقه تكميلاً للطهارة الظاهرة) .

(٦) روى البخاري (٣٢٧٧) ، ومسلم (١٠٧٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا دخل رمضانُ فُتِّحت أبوابُ الجنة ، وغُلِّقت أبوابُ جهنمَ ، وسُلسلت الشياطينُ » .

وخُصَّ بليلةٍ هي خيرٌ مِنْ ألفِ شهرٍ[1] ، وذلكَ يُرْبِي علىٰ أضعافِ العُمْرِ[2] .

ثمَّ الحسنةُ بعشرِ أمثالِها ، والسيئةُ بمثلِها[3] ؛ ليدلَّ علىٰ أنَّ مَنْ أحياها مرَّةً بالطاعةِ ، وعصىٰ كلَّ عمرِهِ . . محاها بقَدْرِها ، وفازَ بفضْلِها ، وذلكَ في قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ »[4] .



---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ٣] .

(٢) بيانه : أن ألف شهر يكون ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وأكثر عمر المرء من الستين إلى السبعين بالحديث ، وبعضُ عمره مضىٰ بالطفولة ، وبعضُه بالليالي ، فتكون ليلة القدر أضعافَ عمره من هـٰذا الوجه . من هامش (ب) ، وقوله : (يُرْبِي) من أربىٰ يربي ؛ بمعنىٰ : يزيد ، ومنه قولهم : أربىٰ على الخمسين .

(٣) هـٰذا عامٌّ في كل طاعة ، وروى البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وقد نصحه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في صفة الصوم النفل : « وصمْ من الشهر ثلاثةَ أيام ؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر » .

(٤) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٣٤٠٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه البخاري (٣٨) ، ومسلم (٧٥٩) من حديثه أيضاً من غير قوله : (وما تأخر) ، وفي هامش (و) عند قوله : (إيماناً واحتساباً) : (أي : تصديقاً لحقِّيَّته ، وانتظاراً للأجر يوم القيامة ، يحتمل أن يكونا مصدرين نُصبا على الحالية ؛ يعني : مؤمناً بفرضيَّته ، ومخلصاً في أدائه ، ويحتمل أن يكونا مفعولاً له) بأدنىٰ تصرُّف .

[مقامات الزكاة]

وأمَّا الصدقةُ : ففيها مقامُ الجودِ ، ومقامُ الإحسانِ ، ومقامُ الكَرَمِ ، ومقامُ الرحمةِ ، ومقامُ المحبّةِ ، ومقامُ الطُّهْرةِ ، ومقامُ الشكرِ .

أمَّا مقامُ الجودِ : فلأنَّ الصدقةَ لا تتأدَّىٰ إلا بإزالةِ مِلْكِهِ بغيرِ سببٍ مِنَ المُزالِ إليهِ[1] ، وذلكَ الجودُ متىٰ كُشِفَ عن معناهُ ووُقِفَ عليهِ[2] ، فأمَّا مَنْ أعطىٰ بسببٍ سابقٍ ، أو بمعنىً لاحقٍ . . فما هو بجوادٍ ، ولـٰكنَّهُ مُعوِّضٌ أو مُعتاضٌ[3] .

قالَ اللهُ تعالىٰ في صفةِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٧ـ ٢١][4] .

وقالَ في عليٍّ وأهلِ بيتِهِ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ ـ ١٠][5] .

---

(١) أي : الفقير . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : اطُّلعَ علىٰ معناه ، ومن معاني الجود : البذل من غير استكثار ، أو أن الجواد الذي لا يصعب عليه العطاء ، ويطلق على الفرس الكريم ، والواسع الغزير . انظر « الأسماء والصفات » للأستاذ أبي منصور البغدادي (١/ ٧٥٠ـ ٧٥٤) .

(٣) المعتاض : الذي يسأل عوضَ ما بذل .

(٤) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٦٦ ، ٢٩١) ، والبزار في « المسند » (٢٢٠٩) من حديث سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه .

(٥) انظر « زاد المسير » (٤/ ٣٧٧) ، و« الدر المنثور » (٨/ ٣٧١) .

وأمَّا مقامُ الإحسانِ : فلأنَّهُ كفاهُ بمالِهِ مُهِمَّهُ في دنياهُ ، ولم يُثقِلْهُ بعوضٍ توخَّاهُ ، وهوَ الإحسانُ متىٰ تُعُرِّفَ معناهُ .

وأمَّا الكرمُ : فإنَّهُ وَحْشِيٌّ ما صِيدَ إلا بشَرَكِ إيثارِكَ ، علىٰ نفسِكَ بحظٍّ مطلوبٍ مِنْ مالِكَ أو جاهِكَ أوِ اقتدارِكَ ، وإنَّهُ لبَابٌ أحدُ مِصْراعيهِ مِنْ صبرِكَ ، والآخرُ مِنْ فضلِكَ ، فلن تجدَ مِنَ النفسِ طاعةَ الإيثارِ ، إلا بعدَ الحبسِ في سجنِ الاصطبارِ ، وذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] ؛ أي : صُبُراً عنِ الجوابِ ، وتركِ المناقشةِ في الخطابِ ، بفضْلٍ رَكَّبَهُ اللهُ تعالىٰ فيهم ، لا بعجْزٍ عن مجاوبتِهم وعِيِّهم .

وفي حكمةِ الشعرِ[١] : [من الطويل]

وأغفـرُ عَـوْراءَ الكـريـمِ ادِّخـارَهُ وأُعْرِضُ عن شَتْمِ اللئيمِ تكَرُّما

وما نُحِتَ هٰذا البابُ الذي سمَّيناهُ كرماً إلا بإيثارٍ جاهيٍّ أو ماليٍّ[٢] ، فعلى الجاهِ والمالِ تدورُ أمورُ أصحابِ الدنيا مِنَ الأقسامِ ، حتىٰ لا نجدُ قِسْماً منهم مِنَ الملوكِ والتُّجَّارِ وغيرِهم إلا إذا تمَّتْ أحوالُهم جاهاً ختموها بالكنوزِ العظامِ ، وبقَدْرِ ما يحبُّ الرجلُ صفةَ الكرمِ . . يدعو إلى التصبُّرِ علىٰ سَنِيَّةِ الهِمَمِ .

وقد بلغَني عن كثيرٍ مِنَ الملوكِ أنَّهُ قالَ : حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتىٰ كادَ الناسُ يتقرَّبونَ إليَّ بالذنوبِ[٣] .

---

(١) البيت لحاتم الطائي ضمن قصيدة له في « ديوانه » (ص٢٣٨) ، وقوله : (ادِّخاره) هو مفعول من أجله مضاف ، والبيت شاهدٌ علىٰ جواز ذلك .

(٢) نَحَتَ الباب : نجرَهُ علىٰ هيئته المعروفة .

(٣) قال الحافظ ابن الجوزي في « المنتظم » (١٠/ ٦٥) : (قال المأمون : أنا والله أستلذُّ =

ولهـٰذا نُهينا عنِ الصدقةِ بالخبيثِ الذي هانَ على النفوسِ ، وأُمِرْنا بالإنفاقِ ممَّا نحبُّهُ مِنَ النفيسِ[1] ؛ ليتحقَّقَ معنى الكَرَمِ[2] ، في الجودِ بهِ على الأممِ[3] .

وأمَّا مقامُ الرحمةِ : فلأنَّهُ أشفقَ علىٰ غيرِهِ ؛ حيثُ رجَّحَ حظَّهُ علىٰ حظِّهِ ، بما آلَ إليهِ أمرُ الدنيا بأسرِهِ .

فهـٰذهِ مقاماتٌ محمودةٌ بينَهُ وبينَ العبادِ ، وبتلكَ الصفاتِ يُنادىٰ وعليها يُقامُ يومَ التنادِ[4] ؛ فالدعاءُ يومَ القيامةِ بأسماءِ الأفعالِ دونَ أسماءِ الآباءِ ؛ تحقيقاً لمعنى المكافأةِ والجزاءِ[5] ، والمقاماتُ الثلاثُ بينَهُ وبينَ ربِّهِ[6] ، كما كانَتِ

= العفوَ حتىٰ أخافُ ألَّا أوجرَ عليه ، ولو علم الناس مقدار محبتي للعفو لتقرَّبوا إليَّ بالذنوب) .

(١) إذ قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(٢) قوله : (الكرم) مثبت من نسخة في هامش (هـ) ، وفي أصول سائر النسخ : (التكرُّم) بدل (الكرم) ، والمثبت أليق بالسجعة .

(٣) الأمم ـ بفتح الهمزة والميم ـ : القُرْبُ ، والقصد ، أو أراد أُمَم جمع أمة على الظاهر .

(٤) حيث ينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار ، وبالعكس ، أو يومَها يُدعىٰ كلُّ أُناس بإمامهم ، أو إن بعضهم ينادي فيقول : وا ثبوراه ، يا ويلتا ، يا حسرتا . انظر « معاني القرآن » للزجاج (٤/ ٣٧٣) ، و« النكت والعيون » (٥/ ١٥٤) .

(٥) أي : يقال له : يا جواد، ويا محسن، ويا كريم، بمثله . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و).

(٦) أي : البواقي ؛ وهي : مقام المحبة ، والطهرة ، والشكر . انتهىٰ من هامش (و) .

الصدقةُ بينَ اللهِ وبينَ العبيدِ ؛ إذِ الإعطاءُ بأمرِ اللهِ إخراجٌ إلى اللهِ[1] ، ومِلْكُ الفقيرِ مِلْكٌ مِنْ مالِ اللهِ ؛ رزقاً وصِلَةً[2] .

وأمَّا مقامُ المحبَّةِ : فلأنَّهُ ما لم يحبَّ اللهَ تعالىٰ على الحقيقةِ لم يبغضِ الدنيا ، ومَنْ لم يبغضِ الحسناءَ لخيرٍ منها لم يطلِّقْها بلا عَدْوىٰ[3] ، وعلىٰ هٰذا التأويلِ لم يقبلِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الدنيا واختارَ الفقرَ ، ومرَّ عليهِ كبارُ آلِهِ وما تنعَّموا باليُسْرِ .

وأمَّا مقامُ الطُّهْرةِ : فلأنَّ الإعطاءَ طهَّرَهم عن دَنَسِ الوُصْلَةِ الذي كانَ فيهم ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة : ١٠٣] .

ولهٰذا قالَ الرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ واللهُ أعلمُ : « الصدقةُ تطفئُ غَضَبَ الربِّ »[4] ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يغضبُ إلا علىٰ ذنبٍ .

وأمَّا مقامُ الشكرِ : فلأنَّ الشكرَ بالقلبِ : أنْ يعرفَ النعمةَ نعمةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وبالفعلِ : أنْ يصرفَهُ إلىٰ مَنِ احتاجَ مِنْ عبادِ اللهِ ؛ إذِ الشكرُ واجبٌ على العبدِ جزاءً ، وجزاءُ الشيءِ بمثلِ ما كانَ ابتداءً ، والعبدُ عَجَزَ عن مثلِهِ في

---

(١) بقوله تعالىٰ : ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة : ٤٣] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) بقوله تعالىٰ : ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور : ٣٣] . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) العَدْوىٰ : طلبُك إلىٰ والٍ ليُعْدِيَكَ علىٰ من ظلمك ؛ أي : ينتقمَ منه ، يقال : استعديت الأمير علىٰ فلان فأعداني ؛ أي : استعنت به عليه فأعانني ، والاسم منه : العَدْوىٰ ؛ وهي المعونة . انظر « مختار الصحاح » (ع د ا) .

وقوله : (**لخير منها**) ؛ أي : لأجل خير منها يصل إليه ، ولمَّا طلَّقها بالإعطاء إلى الفقير استُدلَّ علىٰ أنه وجد عند الله تعالىٰ أحسن منها . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٤) رواه الترمذي (٦٦٤) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال : (هٰذا حديث حسن غريب من هٰذا الوجه) .

حقِّ ربِّهِ ، فلم يبقَ إلا الإقرارُ بقلبِهِ ، لـٰكنْ قَدَرَ في حقِّ عبيدِهِ علىٰ شكلِهِ ، فأخذَ في حقِّهم بفعلِهِ .

فآلَ أمرُ المتصدِّقِ في مقاماتِهِ بعدَ تمامِها بإعطاءِ الكلِّ . . إلىٰ أوَّلِ مقاماتِ الفقيرِ التاركِ للدنيا مختاراً ؛ ليعلمَ أنَّ التركَ معَ القدرةِ أعلىٰ درجةً مِنَ الإعطاءِ بعدَ الأخذِ وأتمُّ إيثاراً .

هـٰذا للمتصدِّقِ معَ ما أنَّها تزيدُ في العمرِ[1] ؛ علىٰ ما قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصدقةُ تزيدُ في العمرِ »[2] ، وتأويلُهُ واللهُ أعلمُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ علمَ مِنْ أمرِهِ أنَّهُ يتصدَّقُ ، فقَسَمَ لهُ مِنَ العمرِ في الأزلِ قَدْرَ ما لو علمَ أنَّهُ يبخلُ لقَسَمَ لهُ منهُ شَطْراً[3] ، أو لأنَّها تُثْمِرُ لهُ حديثاً حَسَناً ، فيبقىٰ بهِ حيّاً بعدَهُ ذكرُهُ ، فكأنَّهُ حيٌّ وإنِ انقضىٰ عُمْرُهُ[4] .

---

(١) الإشارة راجعةٌ إلى المقامات السبعة السابقة . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٢) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٥٠٢) من حديث سيدنا رافع بن مَكِيث رضي الله عنه مرفوعاً : « حسنُ الخلق نماء ، وسوءُ الخلق شؤم ، والبِرُّ زيادة في العمر ، والصدقة تمنع مِيتةَ السوء » .

(٣) فيكون هـٰذا التقدير من الله سبباً لمباشرة العبد صلة الرحم ، لا أن فعل العبد أوجبَ على الله تعالىٰ زيادةَ العمر ؛ إذ العبوديةُ معلولة ، والربوبية غير معلولة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) ومثله ما رواه البخاري (٥٩٨٦) ، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثره . . فليصلْ رحمه » .

قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٤/ ١٧) : (استُشكل هـٰذا مع قوله في الحديث الآخر : « كتب رزقه وأجله في بطن أمه » .

وأجيب : بأن معنى البسط في الرزق : البركة فيه ؛ إذ الصلة صدقةٌ ، وهي تُربي المال =

وأيضاً : تشفي مِنَ المرضِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « داوُوا مرضاكم بالصدقةِ »[1] ، وتأويلُهُ واللهُ أعلمُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أمرضَ عبادَهُ ليكونَ كفارةً لهم عن مظالمِهم ، وتطهيراً عن آثامِهم ، فإذا تصدَّقوا طُهِّروا وشُفُوا مِنْ أسقامِهم .

وتكونُ حِصْناً للمالِ عنِ السرقةِ ، علىٰ ما رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حَصِّنوا أموالَكم بالصَّدقةِ »[2] .

وتكونُ سِتاراً عن مكروهِ القبرِ[3] ، ولباساً والناسُ عراةٌ يومَ الحشرِ[4] ،

= وتزيد فيه ، فينمو بها ، وفي العمر : حصول القوة في الجسد ، أو يبقىٰ ثناؤه الجميل على الألسنة ، فكأنه لم يمت ، وبأنه يجوز أن يكتب في بطن أمه : إن وصلَ رحمَهُ فرزقه وأجله كذا ، وإن لم يصل فكذا) .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/١٥٧) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/١٠٤) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : « حَصِّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدُّوا للبلاء الدعاء » .

(٢) هو قطعة من الحديث المتقدم بتمامه تعليقاً .

(٣) روى الطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٦٣٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣١١٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنَّ الميت إذا وُضع في قبره إنه يسمعُ خفقَ نعالهم حين يولُّون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات ؛ من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس . . عند رجليه ، فيؤتىٰ من قِبَلِ رأسه ، فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخَلٌ ، ثم يؤتىٰ عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قِبَلي مدخَلٌ ، ثم يؤتىٰ عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قِبَلي مدخَلٌ ، ثم يؤتىٰ من قبل رجليه ، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قِبَلي مدخَلٌ . . . » الحديث .

(٤) روىٰ أبو داود (١٦٨٢) ، والترمذي (٢٤٤٩) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أيُّما مسلم كسا مسلماً ثوباً علىٰ عُرْيٍ كساهُ الله من خُضْر الجنة ، وأيُّما مسلمٍ أطعم مسلماً علىٰ جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيُّما مسلمٍ سقىٰ مسلماً علىٰ ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » ، والجزاء من جنس العمل .

ومركوباً والناسُ رِجالٌ[1] ، وظِلاًّ والناسُ ما لهم ظلالٌ[2] ؛ فالجزاءُ على شَكْلِ ما قَدَّمَ العبدُ مِنَ المثالِ ، المالُ بشبيهِهِ مِنَ المالِ .

قالَ اللهُ تعالى في مانعي الصدقةِ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

وقالَ تعالى في الكنزِ : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة : ٣٥] .

وقالَ تعالى في الغلولِ : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٦١] .

فلمَّا كانَ جزاءُ المنعِ على مثالِ الممنوعِ . . دلَّ أنَّ جزاءَ الدفعِ على مثالِ المدفوعِ[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَمِّنوا ضحاياكم ؛ فإنَّها مطاياكم »[4] ؛

---

(١) رجال : مُشاة على أقدامهم ، وسيأتي قريباً خبر : « استفرهوا ضحاياكم ؛ فإنها مطاياكم على الصراط » .

(٢) روى أحمد في « المسند » (٤/١٤٧) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً : « كلُّ امرئ في ظلِّ صدقته حتى يُفصل بين الناس » .

(٣) فتكون المماثلة في المنع ثابتاً بعبارة النصِّ ، وفي الدفع بدلالته . انتهى من هامش (و) .

(٤) هو عند الديلمي في « الفردوس » (٢٦٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « استفرهوا ضحاياكم ؛ فإنها مطاياكم على الصراط » ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٠٨) : (أسنده الديلمي من طريق ابن المبارك ، عن يحيى بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رفعه بهـٰذا ، ويحيى ضعيف جداً ، ووقع في « النهاية » ـ « نهاية المطلب » « ١٨/ ١٧٥ » ـ ، ثم في « الوسيط » ـ « الوسيط في المذهب » « ٧/ ١٣١ » ـ ، ثم في « العزيز » ـ « فتح العزيز » « ١٢/ ٦٠ » ـ : « عظِّموا ضحاياكم ؛ فإنها على الصراط مطاياكم » ، وقال الأول : معناه : أنها تكون مراكب للمُضَحِّين ، وقيل : إنها تسهِّلُ الجواز على الصراط ، لـٰكن قال ابن الصلاح : إن هـٰذا =

لِيُعلَمَ أنَّ الجزاءَ ، واقعٌ علىٰ مثالِ الابتداءِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٠] ، فالهاءُ كنايةٌ عنِ المقدَّمِ بعينِهِ .

فهٰذهِ الخِلَعُ جزاءُ مقامِ الجودِ والكرمِ ؛ إذِ الكريمُ الجوادُ في كلِّ مقامٍ بجودِهِ محروسٌ وبكرمِهِ مُعَظَّمٌ .



= الحديث غير معروف ولا ثابتٍ فيما علمناه ، وقال ابن العربي في « شرح الترمذي » : ليس في فضل الأضحية حديث صحيح ، ومنها قوله : « إنها مطاياكم إلى الجنة ») .

[مقامات الحجّ]

وأمَّا الحجُّ : فلهُ شَبَهٌ بالصومِ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الكفِّ عن محظوراتِ الإحرامِ ، غيرَ أنَّهُ مباينُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ شرطٌ في الحجِّ لا يتأدَّىٰ بهِ وركنٌ يتأدَّىٰ بهِ الصيامُ[١] .

ولهُ شَبَهٌ بالصدقةِ ، لِمَا فيهِ مِنْ بَذْلِ المالِ ونقصانِهِ ، إلا أنَّهُ ليسَ بعينِها ؛ إذْ في الصدقةِ صرْفُ المالِ إلىٰ فقراءِ إخوانِهِ ، وفي الحجِّ صرْفُهُ إلىٰ نفسِهِ وأعوانِهِ .

ولهُ شَبَهٌ بالصلاةِ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الوقوفِ والطوافِ بالكعبةِ ، ولـٰكنْ ليسَ بنظيرِها لتأدِّي الحجِّ ماراً بعَرَفَةَ بغيرِ وقفةٍ وتأدِّي الطوافِ منحرفاً عنِ القِبلةِ ، ولأنَّ قضاءَ حقِّ المكانِ في الحجِّ ركنٌ[٢] ، وفي الصلاةِ شرطٌ .

وفيهِ محلُّ التهاونِ بالدنيا ، ومحلُّ الشجاعةِ ، ومحلُّ العزمِ القويِّ ، ومحلُّ الصبرِ ، ومحلُّ الخلوةِ ، ومحلُّ الذِّكرِ ، ومحلُّ الرجاءِ ، ومحلُّ الفوزِ .

لأنَّ مَنْ لم يتهاونْ بأحوالِ دنياهُ . لم تَجُدْ نفسُهُ بالخروجِ مودِّعاً أهلَهُ ومالَهُ ومَغْناهُ[٣] .

---

(١) يعني : أن الحجَّ يباين الصومَ من حيث إنَّ الكفَّ عن المحظور ليس من ماهية الحجِّ ، بل هو شرط لا يتأدَّىٰ به الحجُّ ، وأما في الصوم فهو من ماهيته يتأدَّىٰ به الصوم .

(٢) يعني : الوقوف بعرفة . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٣) مغناه : منزله . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

ومَنْ لم يَشْجُعْ قلبُهُ لم يألفِ السفرَ في المآمنِ والمخاوفِ ، والمهالكِ والمتالفِ ، ومكَّةُ بينَ أيديها مِنْ كلِّ جانبٍ اختطافٌ واستلابٌ ، أو قتالٌ وحِرابٌ[1] ، والسلامةُ بلا عُدَّةٍ ندرةٌ ، وما لها مِنْ عِبرةٍ ، وذلكَ تأويلُ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ جهادٌ »[2] .

ومَنْ لم يَقْوَ عزمُهُ لم يتمَّ لهُ هـٰذا الغرضُ الخطيرُ ، علىٰ خطرٍ كثيرٍ ، وسفرٍ مديدٍ ، غيرَ مرتدعٍ عن خَطْبِهِ ، ولا منقمعٍ لصعبِهِ[3] ، مقبلاً في إعراضٍ عن عواقبِ العاجلةِ ، معرضاً عنِ الدنيا في إقبالٍ علىٰ مواهبِ الآخرةِ .

ومَنْ لم يَسْتَحْلِ مذاقَ الصبرِ بعزيمةِ صدرِهِ ؛ لِمَا لهُ مِنَ الشفاءِ في آخرِ أمرِهِ . . لم يُقْدِمْ علىٰ معارضةِ الحضرِ بالسفرِ ، ومبادلةِ السرَّاءِ بالضرَّاءِ ، ومرافقةِ الأجانبِ علىٰ خلافٍ ، مكانَ موافقةِ الأقاربِ على ايتلافٍ ، ولم يتحمَّلْ ذُلَّ الغُرْبةِ وضُرَّ الافتقارِ ، مكانَ عِزِّ الأُسْرةِ ويُسْرِ اليسارِ ، فأوَّلُ مِصْراعي بابِ الصبرِ اختياراً مِنَ الشكرِ ، كما أنَّ آخرَ مِصْراعي بابِ الشكرِ افتقاراً مِنَ الصبرِ ، وإنَّهما لَلْغايةُ في مقاماتِ العبوديَّةِ والعبادةِ ، والمعرفةِ والزَّهَادةِ .

فإذا فارقَ الأهلَ والمالَ والوطنَ ، والأحبابَ والأولادَ والسَّكَنَ ؛ لوجْهِ اللهِ بمهجتِهِ . . أخلاهُ اللهُ تعالىٰ بينَهُ وبينَ حضرتِهِ ، ثم ذكَّرَهُ بعِيانِ الموقفِ الأصغرِ الموقفَ الأكبرَ ، وبالإفاضةِ عنهُ إلىٰ مِنىً راجعينَ ، الإجابةَ للداعي إلى

---

(١) الحِراب : مصدر حاربه ، وهو بمعنى المحاربة .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٩٨٩) من حديث سيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وزاد : « والعمرة تطوُّع » .

(٣) المنقمع : الذليل المُهان .

الحسابِ مهطعينَ[1] ، وبزيارةِ البيتِ الآمنِ زيارةَ الجنَّةِ آمنينَ ، بل أكرمَ عبدَهُ بلقاءِ بيتِ ربِّهِ بلقائِهِ بقلبِهِ ، وأذاقَهُ كأسَ حبِّهِ ، فذَهَلَ عمَّا قدَّمَ وأخَّرَ مِنْ أمرِهِ ، واستأنسَ عندَهُ بذكرِهِ ، فَرِحاً عندَ ذلكَ اللقاءِ ، فائزاً بالعطاءِ .

هـٰذا لهُ معَ ما لهُ واللهُ أعلمُ مِنْ سُؤدَدٍ وزعامةٍ ، يومَ الحشرِ والقيامةِ ، فعلىٰ قَدْرِ عزمِ المرءِ وصبرِهِ وشجاعتِهِ ونهوضِهِ لعِظامِ الأمورِ . يَسُودُ الجماعةَ ويقودُ الجمهورَ .



---

(١) يعني : مسرعين ، وهَطَعَ هطوعاً : أسرع مقبلاً خائفاً ، لا يكون إلا مع الخوف ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٢ـ٤٣] ، وعليه يحمل قوله تعالىٰ : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٧ـ٨] .

[مقامات الصّلاة]

وأمَّا الصلاةُ : فعمادُ الدينِ[1] ، والأذانُ إعلاءُ شعارِ المسلمينَ[2] ، وإنَّها لعلىٰ مثالِ خدمةٍ مَشُوبةٍ بكرامةِ التقريبِ ، بعدَ حُسْنِ رياضةٍ وتهذيبٍ ، شاملةٌ علىٰ معاني الجميع بأصولِها والفروعِ .

وفيها محلُّ الإعراضِ عنِ الدنيا بواحدةٍ ، ومحلُّ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ بواحدةٍ ، ومحلُّ الصَّفوةِ ، ومحلُّ القُرْبةِ ، ومحلُّ الدَّعوةِ ، ومحلُّ النجوىٰ ، ومحلُّ التقوىٰ .

إذْ دخلَ موضعاً لصلاتِهِ ما لأحدٍ فيهِ نصيبٌ[3] ، بأصحابٍ ما لهم فيهِ إلىٰ

---

(١) روى البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٥٥٠) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ أيُّ شيء أحبُّ عند الله في الإسلام ؟ قال : « الصلاة لوقتها ، ومن ترك الصلاة فلا دين له ، والصلاة عماد الدين » ، قال البيهقي : (قال أبو عبد الله ـ يعني : الحاكم ـ : عكرمة لم يسمع من عمر ، وأظنه أراد : عن ابن عمر) ، وجاء في حديث عن بلال بن يحيىٰ مرسلاً بنحوه ، وفيه : « الصلاة عمود الدين » ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٦٣٢) عن هـٰذه الرواية : (وهو مرسل ، ورجاله ثقات) .

(٢) قال العلامة الموصلي الحنفي في « الاختيار » (١/ ٤٢) : (قال أبو حنيفة في قوم صلَّوا في المصر بجماعة بغير أذان وإقامة : خالفوا السنة وأثموا ، وقيل : هو واجب ؛ لقول محمد : لو اجتمع أهل بلد علىٰ ترك الأذان لقاتلتهم ، وذلك إنما يكون على الواجب ، والجمع بين القولين : أن السنة المؤكدة كالواجب في الإثم بتركها ، وإنما يقاتل علىٰ تركه لأنه من خصائص الإسلام وشعائره) .

(٣) يعني : هو علىٰ هـٰذه المحالِّ لكونه اختار دخولَ المسجد الذي ليس فيه للعبد نصيبٌ إلا لله =

أمورِ الدنيا مِنْ سبيلٍ ، مقبلاً على اللهِ تعالىٰ بوجهِهِ ، متحرِّماً بقلبِهِ ولسانِهِ ، مؤدِّياً لجميعِ أركانِهِ . . صفا للهِ تعالىٰ منهُ كلُّ شيءٍ بالخلوةِ عمَّا سواهُ ، والتحرُّمِ عن كلِّ أمورِ دنياهُ ، فإذاً دعاؤُهُ مستجابٌ ، وغرضُهُ مصابٌ ، ونجواهُ فيها مسموعةٌ ، وتقواهُ عنِ الدنيا بقلبِهِ مقروناً إلىٰ شخصِهِ مرفوعةٌ .

فكأنَّهُ وقد قرَّتْ عينُهُ علىٰ بساطِ القُربةِ ، وتنفَّسَ قلبُهُ في مضمارِ الصفوةِ(١) ، وتعزَّزَ بسماعِ الدعوةِ(٢) . . عُجِّلَ لهُ اللقاءُ الموعودُ ، وما شَهِدَ بعدُ اليومَ المشهودَ(٣) ، ما يَرِيمُ عنهُ بَراحاً(٤) ، ولا إلىٰ غيرِ اللهِ سَراحاً ، فازَ بالمُنعِمِ فنَسِيَ النعيمَ ، وطارَ إلى الآخرةِ وهو في الدنيا مقيمٌ .

فإذا اهتزَّتِ الهمَّةُ العاليةُ لهـٰذهِ المقاماتِ حثَّها بسَوْطِ أعواضِها حتىٰ تستويَ عليها(٥) ؛ فالصلواتُ تكفِّرُ ذنوبَ الساعاتِ ، وما فَضَلَ منها في الأيامِ كفَّرَهُ الجُمُعاتُ ، وما فَضَلَ منها في الشهورِ كفَّرَهُ الصيامُ ، وما فَضَلَ منها في السنينَ كفَّرَهُ حَجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ(٦) .

= تعالىٰ . مفادٌ من هامش (هـ) .

(١) المضمار : الميدان . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) في (ب ، و) : (وتعزَّرَ) بدل (وتعزَّز) ، ولكل وجه وجيه .

(٣) أي : القيامة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) أي : ما يتحرَّك عن مقام اللقاء . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٥) إذ معرفةُ الأجر والثواب مدعاةٌ لفعل ما هو لهما كالأسباب .

(٦) روىٰ مسلم (١٦/٢٣٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « الصلوات الخمسُ ، والجمعةُ إلى الجمعة ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ . . مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنب الكبائر » ، وذلك أن الكبائر لا تُمحىٰ إلا بالتوبة ، وذلك للجمع بين الأخبار .

وروى البخاري (١٧٧٣) ، ومسلم (١٣٤٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « العمرةُ إلى العمرة كفارةٌ لما بينهما ، والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنةُ » .

فالصلاةُ كفَّارةٌ للأصولِ ، وما سواها كفَّاراتُ الفضولِ ، ولكلِّ عبادةٍ خاصِّيَّةٌ علىٰ ما بيَّنَّا لا تُنالُ في غيرِها[1] ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بمقاديرِ خيرِها ، غيرَ أنَّ الحُجَجَ والأدلَّةَ ، قد دَلَّتْ علىٰ أنَّ الصلاةَ أخصُّ باللهِ تعالىٰ مِنْ بينِ الجملةِ .

وما على العبدِ أنْ يُطيعَ الربَّ علىٰ شريطةِ الثوابِ فذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ فَضْلٌ ، بل يطيعُهُ متسارعاً إليهِ بحُكْمِ العبوديَّةِ فذلكَ مِنَ العبدِ عَدْلٌ[2] .

وإنَّما ذكرناها ترغيباً للكُسالىٰ ، وتنبيهاً للسُّكارىٰ ، وهدايةً للحَيارىٰ ، بل إبانةً لفَضْلِ اللهِ ؛ فإنَّهُ الخالقُ ثمَّ الهادي ، ثمَّ الموفِّقُ للعملِ ثمَّ المجازي .

فمَنْ صامَ جانَبَ شهواتِ طبعِهِ ، ومَنْ زكَّىٰ جانَبَ شهواتِ مالِهِ ، ومَنْ حجَّ جانَبَ شهواتِ نفسِهِ ، ومَنْ صلَّىٰ فقد طلَّقَ الدنيا ، وقرَّتْ عيناهُ باللقاءِ علىٰ بساطِ النجوىٰ ؛ وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ واللهُ أعلمُ : « إذا أقبلَ العبدُ علىٰ صلاتِهِ أقبلَ اللهُ عليهِ »[3] .

ومَنْ صامَ فقد تَتَرَّسَ عنِ العصيانِ ، ومَنْ تصدَّقَ فقد تبرَّأَ مِنَ الطُّغيانِ ، ومَنْ

---

(١) انظر (ص٢٥٤) .

(٢) في هامش (هـ) هنا تبييناً لمعنىٰ هـٰذه الجُمل : (حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين) .
وفي هامش (ب) : (قال رضي الله عنه : العبد بالعمل لا يستوجب شيئاً من الثواب ، أو لا يستحقُّه ، إلا أن الله جلَّ جلاله جعل له ثواباً بطريق الفضل والإحسان ؛ كالمولىٰ يقول لعبده : إن فعلتَ كذا فلك من الأجر كذا ، يكون ذلك علىٰ وجه التبرُّع ، لا علىٰ وجه الاستحقاق والاستيجاب) .

(٣) رواه ابن ماجه (١٠٢٣) من حديث سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الرجل إذا قام يصلي أقبل الله عليه بوجهه ، حتىٰ ينقلب أو يحدث حدثَ سوء » .
وروى ابن المبارك في « الزهد » (١٢٢) عن كعب الأحبار رحمه الله تعالىٰ قال : (إذا قام العبد في صلاته فأقبل عليها أقبل الله عليه ، وإذا انفتل انصرف عنه) .

حجَّ فقد حقَّقَ عهودَ الإيمانِ ، ومَنْ صلَّىٰ فقد مزَّقَ حبائلَ الشيطانِ متَّصلاً بالرحمـٰنِ ؛ وذلكَ في قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ إذا سَمِعَ الأذانَ أدبرَ ولهُ حُصَاصٌ »(١) .

أو نقولُ واللهُ أعلمُ : مَنْ صامَ ـ وهوَ العبادةُ المستورةُ ـ وُقِيَ العذابَ المستورَ في القبرِ ، ومَنْ زكَّىٰ ـ وهوَ الإحسانُ إلى الناسِ ـ وُقِيَ العذابَ المشهورَ يومَ الحشرِ ، ومَنْ حَجَّ ـ وهو ركوبُ الأهوالِ ـ وُقِيَ هولَ المرورِ على الصراطِ ، ومَنْ صلَّىٰ ـ وهي عبادةٌ علىٰ بساطِ إكرامٍ ـ أُدخلَ الجنَّةَ بسلامٍ ؛ وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خمسُ صلواتٍ كتبَهُنَّ اللهُ علىٰ عبادِهِ في اليومِ والليلةِ ، مَنْ أتىٰ بهنَّ يومَ القيامةِ كانَ لهُ عهدٌ عندَ اللهِ أنْ يدخلَهُ الجنَّةَ »(٢) .

أو نقولُ واللهُ أعلمُ : إنَّ مَنْ صامَ مالَ إلى الوِفاقِ ، ومَنْ تصدَّقَ تبرَّأَ عنِ النفاقِ ، ومَنْ حجَّ أقامَ التقوىٰ على الساقِ ، ومَنْ صلَّىٰ عجَّلَ للجنةِ الصَّداقَ .

فإذا تسارعَ العبدُ بحقِّ الألوهيَّةِ ، أو بحكمِ العبوديَّةِ ، أو رَغَباً أو رَهَباً إلى

---

(١) رواه مسلم (٣٨٩/ ١٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، **والحُصاص** : شدَّةُ العدْوِ في سرعة ، وهو في الأصل : أن يَصُرَّ الحمارُ بأذنيه ، ويمصع بذنبه ويعدو .
وروى البخاري (٦٠٨) ، ومسلم (٣٨٩/ ١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا نُودِيَ للصلاة أدبرَ الشيطان وله ضُراط ؛ حتىٰ لا يسمعَ التأذين ؛ فإذا قضى النداءَ أقبل ، حتىٰ إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر ، حتىٰ إذا قضى التثويبَ أقبل ؛ حتىٰ يَخْطِرَ بين المرء ونفسه ؛ يقول : اذكرْ كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكرُ ؛ حتىٰ يظلَّ الرجلُ لا يدري كم صلَّىٰ » ، وفاعلُ (قضىٰ) ضميرٌ يرجع إلى المنادي المقدَّر من قوله : (نُودِيَ) .
(٢) رواه أبو داود (١٤٢٠) ، والنسائي (١/ ٢٣٠) ، وابن ماجه (١٤٠١) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وتقدم تعليقاً (ص٢٥٥) .

الطاعةِ ، وعرفَ عِظَمَ الشانِ . . رغبَ في إقامةِ الحدودِ فتركُها ظلمٌ بزيادةٍ كانَ أو نقصانٍ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا . . . ﴾ الآيةَ [الحديد : ٢٧] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقد علَّمَ الوضوءَ ثلاثاً ثلاثاً : « فمَنْ زادَ أو نقصَ فقد تعدَّىٰ وظَلَمَ »(١) .

[الحدودُ الأربعةُ في بيانِ المقبولِ والمردودِ باطناً]

ولهٰذهِ العباداتِ حدودٌ للجوازِ والفسادِ ظاهراً ؛ وهي مِنْ بابِ الفقهِ ذكرناها في كتابِ « خزانةِ الهدىٰ »(٢) ، وإنَّما هٰذا الكتابُ لبيانِ الحدودِ التي هي للقبولِ والردِّ باطناً ، وإنَّهُ مِنْ بابِ التعظيمِ والتقوىٰ ، وهي أربعةٌ(٣) : حدُّ

---

(١) رواه النسائي (١/ ٨٨) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) انظر (ص٢٦) .

(٣) يعني : الحدود التي هي للقبول والردِّ باطناً ، فهي ميزان لقبول العمل في الباطن ، أما قبول العمل في الظاهر فيُبحثُ عنه في كتب الفقه ، ومهمته تصحيح العبادة في الدنيا ظاهراً ، وإلىٰ هٰذا التفريق الإشارة فيما رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دماءهم وأموالهم ، إلا بحقِّ الإسلام ، وحسابُهم على الله » .
وقد مثَّلَ لهٰذا الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٧٠) فقال : (وأما الصلاة : فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتىٰ بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أوَّلها إلىٰ آخرها ، مشغولاً بالتفكُّر في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير ، وهٰذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولٰكن الفقيه يفتي بالصحة ؛ أي : أنَّ ما فعله حصل به امتثالُ صيغة الأمر ، وانقطع به عنه القتلُ أو التعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العملُ =

الخطابِ ، وحدُّ الزمانِ ، وحدُّ المكانِ ، وحدُّ الفعلِ ، تجبُ مراعاتُها بطرقٍ أربعةٍ : النظرِ في حالِهِ إذا دُعِيَ ، وفي حالِهِ إذا أجابَ ، وفي حالِهِ إذا فعلَ ، وفي حالِهِ إذا استحقَّ .

أمَّا حدُّ الخطابِ : فأنْ يعرفَ مِنَّةَ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ بأنْ خاطبَهُ داعياً ، وأرسلَ إليهِ هادياً[١] ، على استغنائِهِ عنهُ وافتقارِ العبدِ إليهِ باطناً وظاهراً ، أو رجوعِ فائدةِ الخطابِ إلى العبدِ دونَهُ أوّلاً وآخراً ؛ كرماً وحكمةً ، وفضلاً ورحمةً .

فيجيبَ جوابَ مُخْبِتٍ بأعباءِ المِنَّةِ[٢] ، مسرورٍ بآلاءِ النعمةِ .

ثم يعرفُ مِنَّةَ اللهِ تعالىٰ في بيانِ زمانِ الأداءِ وتشريفِ خدمتِهِ[٣] ؛ ليتمكَّنَ فيهِ مِنْ إقامتِهِ ، ويُحْرِزَ أجزلَ عائدتِهِ ، ويترفَّهَ بالتَّرْكِ عندَ انقضائِهِ ، ويتمكَّنَ مِنَ

= الظاهر . . لا يتعرَّضُ له الفقيه ، ولو تعرَّض له لكان خارجاً عن فنِّهِ) .

(١) إذ قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] ، وقال في صفة رسوله الهادي حكاية عن الجن : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٣١ـ ٣٢] ، ونقل عصريُّ المصنفِ الأستاذ عبد القاهر البغدادي في « الأسماء والصفات » (٢/ ١٩٣) عن بعضهم : (إن الله عز وجل دعانا من دار أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، إلىٰ دار أولها الرِّضاء ، وأوسطها اللقاء ، وآخرها البقاء) .

(٢) المخبت : الخاضع لله تعالى ، الخاشع قلبُه ، المتواضع المطيع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج : ٣٤] ، وقال : ﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : ٢٣] .

(٣) إذ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] ، وقال : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، وقال سبحانه : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، وقال : ﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج : ٢٨] ، وقال عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

السعْيِ لطلبِ فَضْلِ اللهِ وابتغائِهِ[1] ، تعالى اللهُ عن منافعِ الأفعالِ ومضارِّها ، بطاعاتِ الخليقةِ وإنكارِها[2] ، فيزدادُ إخباتاً وسروراً ، فيبعَثُهُ السرورُ ، علىٰ شغلِ الزمانِ بالمأمورِ ، ويردعُهُ الإخباتُ عنِ النظرِ ، إلىٰ غيرِ ما أُمِرَ .

ثم يعرفُ مِنَّةَ اللهِ تعالىٰ في بيانِ المكانِ[3] ؛ ليكونَ للعبدِ مُتَسَلّىً إذا قصدَ بيتَ ربِّهِ ، ومُتَشَرَّفاً إذا دخلَهُ ، ومستراحاً إذا ناجاهُ فيهِ ، ومِثالاً علىٰ ما يُرىٰ مِنْ عاداتِ الناسِ في خدمةِ ملوكِهم .

ثمَّ اللهُ تعالىٰ سهَّلَ الطريقَ ورفعَ الحجابَ ، وطردَ البوَّابَ وفتحَ البابَ ؛ ليتسارعوا إليهِ رغبةً ، ولا يقفوا رهبةً .

فيزدادُ القلبُ خشوعاً بترادفِ المِنَنِ ، والعينُ قرَّةً بتضاعفِ النِّعَمِ ، فيتمنَّىٰ ألا يكونَ لهُ عن ذلكَ المكانِ خروجٌ ، ولا إلىٰ غيرِ اللهِ عروجٌ .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

(٢) وفي خبر رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث سيدنا أبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعاً : عن الله تبارك وتعالىٰ : « يا عبادي ؛ لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم . . ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحدٍ . . ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . . . » الحديث .

(٣) روى البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً : « أعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي » ، وذكر منها : « وجُعلت لي الأرض طيِّبةً طَهُوراً ومسجداً ، فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاة صلَّىٰ حيث كان » .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، وقال جلَّ من حكيم : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

ثم يعرفُ مِنَّةَ الفعلِ في إعطائِهِ قدرةً عليهِ[١] ، ثم في توفيقِهِ لهُ مُحسناً إليهِ ، حتى اشتغلَ بأداءِ أمرِهِ مطيعاً ، واهتدىٰ لفعلِهِ بصيراً سميعاً[٢] ، وفي الناسِ مَنْ علا شانُهُ ، وعمَّ سلطانُهُ وكثُرَ أعوانُهُ ، وهو مخذولٌ لأمورِ الدنيا ، طريدٌ عن بساطِ المولىٰ[٣] ، وكلُّهم مشغولونَ بخدمةِ الورى ؛ العبيدُ بجسومِهم للأكابرِ ، والملوكُ بقلوبِهم للعساكرِ[٤] .

فيزدادُ تواضعاً ونشاطاً ، وخشوعاً واغتباطاً[٥] ، فيُصيِّرُ الأجزاءَ كلَّها بعدَ الأعضاءِ ، في شُغُلِ الأداءِ يَفرَقُ على الانتهاءِ[٦] .

فإنْ كانَ صوماً وكفَّ عنِ المحظوراتِ فمَهُ وفرجَهُ . . كفَّ عن مثلِها لسانَهُ ،

---

(١) قال القويُّ المتين سبحانه حكاية : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] ، وأما نحو قوله تعالىٰ : ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : ٥٢] : فيحمل على الأسباب العادية غير المؤثِّرة ؛ كاعتياد الناس القوَّةَ في المال والولد والعشيرة ، والشدَّةَ في الأعضاء ، علىٰ أن قوله : ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ دليل علىٰ أن القوة من الله ابتداءً وخَلْقاً كما لا يخفىٰ .

(٢) روى البخاري (٢٨٣٧) ، ومسلم (١٨٠٣) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل التراب وقد وارى الترابُ بياضَ بطنه وهو يقول : « لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا . . . » الحديث .

(٣) قال سبحانه : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء : ١٨-٢٠] .

(٤) انظر معنىٰ طواعية الملوك لعساكرهم (ص١٧٥) .

(٥) الاغتباط : التبجُّحُ بالحال الحسنة .

(٦) يَفْرَقُ : يخاف . انتهىٰ من هامش (ب ، د ، هـ) ، كأنه أراد : دوام التلبُّس بالطاعة التي تفضَّل بها المولىٰ علىٰ عبده .

وكفَّ عن نظيرِها قلبَهُ ؛ حتىٰ يكادُ يصيرُ الصائمُ صوماً ، والعمرُ يوماً ، لولا الأمرُ . لَمَا شَعَرَ بوقتِ الفطرِ .

وإنْ كانَ صدقةً وهو يعرفُ مِنَّةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ في أنْ أغناهُ بالمالِ فضلاً ورحمةً ، وأحوجَ غيرَهُ إليهِ عَدْلاً وحكمةً ، ثم جعلَ يدَهُ اليدَ العليا ، ويدَ غيرِهِ اليدَ السفلىٰ[١] ، معَ ما لَهُ بعدَ اكتسابِ الجمالِ ، مِنَ النجاةِ عن فِتَنِ المالِ . . آتاها ووجهُهُ يتهلَّلُ حمداً ، وهامتُهُ ترتفعُ مجداً ، وقلبُهُ يتخشَّعُ شكراً ، حتىٰ تمنَّىٰ أنْ يجعلَ نفسَهُ صدقةً مكانَ مالِهِ ، لالتذاذِهِ بشرفِ الإيتاءِ وجمالِهِ .

وإنْ كانَ حجّاً وخرجَ إلى البيتِ وهو ينظرُ إلىٰ أنَّهُ كانَ عبداً ، فصارَ وَفْداً بنى اللهُ تعالىٰ لهُ بيتاً[٢] ؛ ليكونَ لهُ بالوِفادةِ إليهِ شَرَفاً وشاناً ، وأمرَ خليلَهُ صلواتُ اللهِ عليهِ بالدعاءِ إليهِ رِجالاً ورُكْباناً[٣] ؛ ليريَهم مثالَ الحشرِ الأكبرِ ، واللقاءِ بعدَ المحشرِ ، وتعجَّلَ لهم عِتْقاً خفيّاً ، سيظهرُ يومَ الجزاءِ ظهوراً جليّاً ، ثم أكرمَهُ بالاستطاعةِ ، وجعلَ لهُ في أهلِ بيتِهِ الشفاعةَ[٤] . . تألَّمَ

---

(١) اليد العليا : هي المنفقة ، واليد السفلىٰ : هي الآخذة السائلة ، وعند الإمام المحقق الخطابي : العليا : هي المتعفِّفة وإن كان صاحبها فقيراً ، وانظر « شرح النووي علىٰ صحيح مسلم » (٧/ ١٢٤ـ ١٢٥) .

(٢) روى النسائي (٥/ ١١٣) ، وابن ماجه (٢٨٩٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وَفْدُ الله ثلاثةٌ : الغازي ، والحاجُّ ، والمعتمرُ » ، وفي رواية ابن ماجه : « الحُجَّاجُ والعُمَّار وفدُ الله ؛ إن دَعَوْهُ أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم » .

(٣) إذ قال جلَّت حكمته : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٦ـ٢٧] ، والرجال : المشاة .

(٤) روى الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٥٩٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « اللهمَّ ؛ اغفر للحاجِّ ، =

بالخروجِ عنها ، وتمنَّى الدوامَ فيها ، فيصيرُ وقد خرجَ ببدنِهِ وراحلتِهِ ، خارجاً بقلبِهِ وكُلِّيَّتِهِ ، يقودُهُ النشاطُ ، ويحدوهُ الاغتباطُ ، حتىٰ إذا طهَّرَ ظاهرَهُ للإحرامِ بالماءِ ، طهَّرَ باطنَهُ للهِ تعالىٰ بالإصفاءِ .

ثـم إذا أحـرمَ بتلبيتِـهِ جسمُـهُ عـنِ الصيـدِ والطِّيـبِ والنسـاءِ وغيـرِهـا مِـنَ المحظورِ . . أحرمَ قلبُهُ بإخلاصِهِ للهِ تعالىٰ عمَّا يخطرُ بالصدورِ ، ثم يمضي ملبِّياً بلسانِهِ ، مصدِّقاً بقلبِهِ ، مستأنساً بذكرِ ربِّهِ ، حتىٰ يبلغَ الموقفَ ، فيقفُ بعرفةَ ظاهراً ، ويقفُ بالمحشرِ باطناً ، ويستقبلُ الكعبةَ بوجهِهِ ، واللهَ تعالىٰ والجنَّةَ بقلبِهِ ، ويدعو اللهَ ويُثني عليهِ بذكرِهِ ، ويحاسبُ نفسَهُ بصدرِهِ ، حتىٰ يَحُلَّ بمنىً ، فيأخذُ النَّحيرةَ بيدِهِ ليذبحَها لزيارةِ البيتِ العظيمِ ، والبُراقَ بعَقْدِهِ ليركبَهُ إلىٰ دارِ النعيمِ .

فإذا لقيَ البيتَ ناظرُهُ . . لَقِيَ اللهَ خاطرُهُ ، فإذا طافَ بالبيتِ برِجْلِهِ . . طافَ الجنَّةَ معَ أهلِهِ ، ومَنِ الذي لَقِيَ الربَّ عزَّتْ قدرتُهُ وهو عنهُ راضٍ ثم خطرَ وَهْمُ الزوالِ ببالِهِ ؛ إذْ دخلَ الجنَّةَ مُكْرماً ولم يقلقْ على ارتحالِهِ ؟!

وأمَّا المصلِّي : فإذا سمعَ الأذانَ ، وهو نداءُ الرحمـٰنِ ، علىٰ أعلىٰ بنيانٍ ، إلىٰ أشرفِ مكانٍ ، ما إليهِ مسافةٌ ، ولا فيهِ آفةٌ ، بل فيهِ كرامةُ الإذْنِ بالنجوىٰ ، وشكوى البثِّ والحزنِ إلى المولىٰ ، وعرفَ عِظَمَ هـٰذهِ المنزلةِ . . قامَ ببدنِهِ متواضعاً سريعاً ، وبقلبِهِ مسروراً سميعاً ، إلىٰ طهارةِ الأعضاءِ عنِ الحَدَثِ الخارجِ لخدمةِ ربِّهِ ، موصولةً بطهارةِ القلبِ عنِ الحَدَثِ الداخلِ للقاءِ ربِّهِ[1] .

= ولمن استغفر له الحاجُّ » .

(١) أراد بالداخل : خُبثَ الباطن ؛ من حقد وحسد وغلٍّ ونحوها .

ثم يدخلُ المسجدَ بأركانِهِ[١] ، ويستقبلُ عرشَ اللهِ بجَنانِهِ ، ثم يكبِّرُ بلسانِهِ جهراً ، ويناجي بضميرِهِ سِرّاً[٢] ، موقناً بقلبِهِ ، أنَّهُ بينَ يدي ربِّهِ ، عارفاً عِظَمَ شانِهِ ، وعلوَّ مكانِهِ[٣] ، حتىٰ يصيرُ ظاهرُهُ كباطنِهِ دائباً[٤] ، وباطنُهُ عن مكانِهِ إلى اللهِ تعالىٰ آيباً .

فهو حاضرٌ غائبٌ ، موجودٌ معدومٌ ، واصلٌ بائنٌ ، أعمىٰ عينَهُ وبَصَّرَ سِرَّهُ ، لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ[٥] .

أو أنتَ ممَّنْ يعبدُ اللهَ تعالىٰ بعادةِ أوليائِكَ ، وأتباعِ آبائِكَ ، فتصومُ عنِ الأُكْلةِ وتفطرُ بالغِيبةِ[٦] ، وتتصدَّقُ بالمالِ وتُبطلُ بالمِنَّةِ ، ويَحُجُّ ظاهرُكَ ، ويَلَجُّ باطنُكَ ، ويركعُ ظهرُكَ في بيتِ المولىٰ ، ويرتعُ سرُّكَ في الدنيا ؟!

فأنتَ إذاً حاضرٌ غائبٌ ، موجودٌ معدومٌ ، واصلٌ بائنٌ ، عميَتْ عنِ الدنيا عينُكَ ، وأبصرَها سرُّكَ ، والدنيا عن سرِّكَ علىٰ غفلةٍ[٧] ؛ لو سألتَها بحقِّ الإخلاصِ بقلبِكَ لُقْمةً ما نلتَها بحيلةٍ .

---

(١) أي : بأعضائه . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) إذ لا جهرَ ولا قراءةَ خلف الإمام في مذهب الإمام المصنف كما لا يخفىٰ .

(٣) انظر (ص٢٥٦) .

(٤) من دأب في عمله ؛ أي : جدَّ وتعب ، وبابه : قَطَعَ . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) في خبر رواه البخاري (٢٧٠٣) ، ومسلم (١٦٧٥) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : « إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبرَّهُ » ؛ يعني : لا يحنثه ؛ لكرامته عليه .

(٦) الأكلة ـ بضم الهمزة وفتحها ـ : المأكول أيّاً كان .

(٧) قال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس : ٢٨ـ٢٩] .

تعبْتَ يا رجلُ بمخالفةِ شهواتِكَ على العادةِ ، وما كُتبَتْ لكَ مِنْ عبادةٍ ، وغبتَ عنِ الدنيا ببدنِكَ ، وحضرتَها بقلبِكَ ، فغابَتْ عنكَ فما لها بالقلوبِ مِنْ بصرٍ ، وحضرْتَ العبادةَ ببدنِكَ ، وغبْتَ بسرِّكَ ، فغابَتْ عنكَ الآخرةُ ! فما للأبدانِ عندَ اللهِ تعالىٰ مِنْ خطرٍ ، فما أسوأَ عادتَكَ ! وما أغبنَ صفقتَكَ ! أو راءَيْتَ فأحبطْتَ الثوابَ بالشركِ الباطنِ ، أو أُعجبْتَ بنفسِكَ فأبطلْتَ العملَ بالكفرِ اللازمِ .



[أقسام العابدين]

فقالَ الأخُ : لو صرَّحْتَ عمَّا أجملْتَ مِنْ أقسامِ العابدينَ ، بأسامٍ مُسْفرةٍ عن معانيها للسامعينَ .

قلتُ وما توفيقي إلا باللهِ ربِّ العالمينَ : إنَّ العابدينَ أربعةٌ : الفائزُ ، والخاسرُ ، والمغرورُ ، والأحمقُ .

أمَّا الفائزُ : فالذي عبدَ اللهَ ببدنِهِ مخلصاً بقلبِهِ ، أعمىٰ في حالِهِ إلا عن ربِّهِ ، فسواءٌ عندَهُ ذُمَّ عليها أو حُمِدَ ، قُرِّبَ فيها أو طُرِدَ ، أُهينَ أو وُقِّرَ ، اتُّبِعَ أو هُجِرَ ، إلا شفقةً عليهم إنْ كانوا ضالِّينَ ، أو حميَّةً للهِ تعالىٰ إنْ كانوا عاصينَ ، لا يطلبُ منهم أجراً ، ولا يتوقَّعُ ذِكْراً ، إلا أنْ يستتبعَهم إنْ أظهرَ العبادةَ قولاً أو فعلاً[1] ؛ نصرةً لدينِ اللهِ ، أو يسكتوا عنهُ إنْ أخفىٰ ليصونَهم عن زيادةِ عصيانٍ ، ويكفَّهم عن سبِّ الرحمـٰنِ ، ما لنفسِهِ فيهم مِنْ نصيبٍ عاجلٍ في الدنيا ، إلا المحبَّةُ في المولىٰ ، عارفاً بعدَ الإخلاصِ مِنَّةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ في توفيقِهِ ، للثباتِ علىٰ طريقِهِ ، إلىٰ ما لا نهايةَ لهُ في أوهامِ الصدورِ ، فيرجعُ إلى الإقرارِ بالقصورِ ، والاعتذارِ عن تركِ الواجبِ في الأمورِ ، قائماً في مقامِ الافتقارِ ، مستغيثاً في قيدِ الاضطرارِ ، لا يرىٰ مِنْ نفسِهِ أمراً ، إلا ما يلتزمُ بهِ للهِ تعالىٰ شُكْراً[2] ، فيتحقَّقُ لهُ عندَ ذلكَ حالُ العبوديَّةِ في عجزِهِ وإفلاسِهِ ،

---

(١) وهو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

(٢) كالشاكر ؛ فإنه لا يرىٰ في مقام أداء الشكر فعلَهُ حتىٰ يعدَّ نفسَه شاكراً مكافئاً نعمَهُ ، بل يرىٰ=

ومِنَّةُ اللهِ تعالىٰ عليهِ في كلِّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ـ٢] .

وأمَّا الخاسرُ : فالمُتْعِبُ بالعملِ بدنَهُ ، الساهي عنهُ بقلبِهِ ، فتفوتُهُ الدنيا علىٰ سخطٍ مِنْ ربِّهِ ؛ فالدنيا تُنالُ بظواهرِ الأمورِ ، والمولىٰ لا يرضىٰ إلا بأسرارِ الصدورِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : ٤ـ٥][1] .

وأمَّا المغرورُ : فالمُتْعِبُ بدنَهُ وسرَّهُ ، المرائي عبادَ اللهِ في أمرِهِ ؛ طمعاً في علوِّ شأنِهِ أو حُسْنِ ذكرِهِ ، وإنَّ الرياءَ ليقعُ مِنْ طريقينِ : قصدٍ بالقلبِ مكابرةً ودفعُهُ يسيرٌ ، أوِ اهتزازِ النفسِ إلىٰ ما يتعجَّلُ لهُ مِنْ نفعٍ علىٰ عبادتِهِ مخادعةً وإنَّهُ لأمرٌ عسيرٌ .

فمِنْ جبلَّةِ النفوسِ الكسلُ ، إلا بنفعٍ لها يُتعجَّلُ ؛ مِنْ مالٍ أو علوِّ شانٍ أوِ

= توفيقَهُ في أداء الشكر حتىٰ يزداد نعمةً فيزداد شكراً . انتهىٰ من هامش (ب) .

(١) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/٣٦٧) : (يُعْنىٰ بهـٰذا المنافقون ؛ لأنهم كانوا إنما يراؤون بالصلاة ؛ إذا هم رآهم المؤمنون صلَّوْا معهم ، وإذا لم يروهم لم يصلُّوا ، وقيل : ﴿ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ يؤخرونها عن وقتها ، ومن تعمَّدَ تأخيرها عن وقتها حتىٰ يدخل وقتُ غيرها فالويل له أيضاً كما قال الله عز وجلَّ) ، وكما قال العلامة الصاوي : (كلُّ آية وردت في الكفار تجرُّ ذيلَها علىٰ عصاة المؤمنين) .

ارتفاعِ مكانٍ ، أو نفاذِ أمرٍ أو حُسْنِ ذكرٍ بأيِّ سببٍ كانَ ، لا يخلو عنهُ إلا مَنْ محا عن قلبِهِ حبَّ العبادِ والدنيا ، بحبِّ اللهِ وحُبِّ الأخرىٰ ، وأبغضَهم بمعرفتِهِ أنَّ الناسَ طالبونَ مِنَ الدنيا ذلكَ الحظَّ فهم مجادلوهُ علىٰ ذلكَ غيرُ باذلينَ ، وإلا فحاسدونَ وإلا فعاجزونَ عن تبديلِ قسمةِ ربِّ العالمينَ .

فإذا أيسَ منهم ، واعتقدَ أنَّهم منازعوهُ . . قطعَ الطمعَ منهم ، فنجا عن شَبَكِ الإراءةِ وإنَّها لشِرْكٌ خفيٌّ ، ونفاقٌ غيرُ مرضيٍّ ، تُتراءىٰ تلكَ العباداتُ يومَ الحسابِ ، كما يُتراءىٰ للظمآنِ السَّرابُ ، وذلكَ في قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشِّرْكِ ، فمَنْ عملَ لي ولشريكي فهو كلُّهُ لشريكي »[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون : ٤ـ٦] .

وأمَّا الأحمقُ : فالمُجْهِدُ بدنَهُ للعملِ وقلبَهُ للإخلاصِ ، الصابرُ على الفقرِ والخلوةِ عنِ الناسِ ، فإذا هو في خلوتِهِ وطاعتِهِ إذْ وَسْوَسَ إليهِ نفسُهُ فزيَّنَ لهُ أمرَهُ ، وشَرَّفَ لديهِ في العبادةِ قدرَهُ ، كأنَّهُ مبتدئٌ إلى اللهِ تعالىٰ إحساناً ، تعالى اللهُ عن ذلكَ شاناً ، فنظرَ إلىٰ حالِهِ بعينِ العُجْبِ ، وعقدَ عليهِ القلبَ ، فاحترقَتْ عباداتُهُ بهِ احتراقَ الحَطَبِ بالنارِ ، وتساقطَتْ أعمالُهُ تساقطَ الثمارِ بالإعصارِ ، فاسودَّتْ منظراً ، وفسدَتْ مَخْبراً ، فإنَّ العُجْبَ لَلْكُفْرُ السَّريُّ[2] ،

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَهُ » .

(٢) السَّريُّ : الرئيس ، وإنما جعله كذلك لأنه كفرُ إبليس .

والجَحْدُ الخفيُّ ؛ إذْ كانَ التمكينُ مِنَ اللهِ تعالىٰ لعبادتِهِ أعظمَ مِنَّةً عليهِ مِنَ التكوينِ ، فإذا رآها إحساناً منهُ إلى اللهِ تعالىٰ فقد كفرَ بمِنَّةِ التمكينِ ، وجحدَ إنعامَ اللهِ عليهِ مِنْ بينِ العالمينَ .

فصارَ العُجْبُ شرّاً مِنَ الرياءِ ؛ إذْ فسادُ الأوَّلِ لم يتعدَّ إلى الصورةِ عنِ المعنىٰ ، ولا عنِ الآخرةِ إلى الأولىٰ ، وفسادُ العُجْبِ شملَ الأمرينِ ، وعمَّ الدارينِ ، فكانَ عملاً بلا جَدْوىٰ ، وما هو إلا عملُ الحمقىٰ .

والنجاةُ عنِ العُجْبِ عزيزةٌ ؛ فالنفسُ مُدَّعيةٌ المِلْكَ والإمرةَ ، والاختيارَ والقدرةَ ، إلا بالرجوعِ إلىٰ معرفةِ عجزِها وافتقارِها ، بالوقوفِ علىٰ أسرارِها ، ومعرفةِ قدرةِ خالقِها ، ومِنَّتِهِ عليهِ في جميعِ طرائقِها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

ثم لا ترىٰ مُعْجباً إلا ممقوتاً بينَ الناسِ ، مهجوراً بفَرْطِ الوسواسِ ، فكيفَ حالُهُ معَ ربِّهِ ، وهو مشركٌ بعُجْبِهِ ؟!

باللهِ أستعينُ وبهِ أعوذُ ، وإيَّاهُ أستهدي وإليهِ ألوذُ ، تباركَ مِنْ مقدِّرٍ لا يتحرَّكُ العبدُ ولا يسكنُ ، ولا يتكلَّمُ ولا يسكتُ . . إلا بنعمةٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ جديدةٍ ، مضمومةٍ إلىٰ مِنَّةٍ قديمةٍ[1] ، فلهُ الحمدُ دائماً سرمداً ، والشكرُ متوالياً أبداً .

---

(١) فما أنعم سبحانه على العبد لكون العبد مستأهلاً لهٰذا الإنعام ؛ تعالَتْ أفعال الله عن أن تكون معلولة لعلَّةٍ قديمة أو حادثة ؛ إذ لو اعتلَّت لعلة قديمة لكان الخلق علىٰ نمطٍ واحد ، أو حادثة للزم التغيُّر والتبدُّل على القديم ، وهما علامتا الحدوث ، وإنما هو الفعَّال لما يريد ، يحكم ما شاء في شأن العبيد ؛ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورىٰ : ١٤] .

أُعجِبَ إبليسُ بكونهِ مِنَ النارِ اعتقاداً فكفرَ والتحقَ بالملعونينَ(١) ، وأُعجبَ فرعونُ بنفسهِ في مُلْكِهِ فادَّعى الألوهيَّةَ فأُغرقَ بآلِهِ أجمعينَ(٢) ، وأُعجبَ قارونُ بعلمِهِ فرأىٰ قدرتَهُ فخُسِفَ بهِ وبدارِهِ الأرضُ وهو مِنَ المخذولينَ(٣) .

وأُعجبَ سليمانُ بالخيلِ فأحبَّها واشتغلَ عن ذكرِ ربِّهِ ففُتِنَ وانعزلَ عن كرسيِّهِ بجسدٍ(٤) ، وأُعجبَ آلُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جندُ اللهِ يومَ حنينٍ فهُزموا وما وقفَ أحدٌ علىٰ أحدٍ(٥) ، إلا نفراً قليلينَ ، معَ الرسولِ الثابتِ بأَيْدِ ربِّ العالمينَ(٦) .

---

(١) قال سبحانه : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ * قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ * وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص : ٧٥ـ٧٨] .

(٢) قال جلَّ جلاله في صفة استكبار فرعون : ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وقال : ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس : ٩٠] ، وقال : ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة : ٥٠] .

(٣) قال سبحانه في خبر قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص : ٧٨] ، ثم قال تعالىٰ : ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص : ٨١] .

(٤) قال جلَّ من قائل : ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ * وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص : ٣٠ـ٣٤] .

(٥) الآل هنا : من كان معه سواء كان من آله أو أصحابه صلى الله عليه وسلم .

(٦) الأَيْدُ : القوّة ، قال تعالىٰ : ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥] .

ورأىٰ يوسفُ صلواتُ اللهِ عليهِ مِنَّتَهُ علىٰ صاحبِ الرؤيا ، فسألَهُ التذكيرَ عندَ ربِّهِ ، فلبثَ في السجنِ بضعَ سنينَ(١) .

وقالَ موسىٰ لأخيهِ هارونَ : ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] ، فعبدوا العجلَ وموسىٰ في مناجاةِ ربِّهم وخالقِهم وما يعبدونَ(٢) ، وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] ، فأظهرَ اللهُ تعالىٰ دينَهُ بعدَهُ بالحوارِيِّينَ(٣) ، ومحمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تُوُفِّيَ فلم يفوِّضِ الأمَّةَ إلىٰ عينٍ منهم ، بل سلَّمَهم إلى اللهِ تعالىٰ ، فعمَّ البلادَ دينُهُ بالخلفاءِ الراشدينَ ، ثم بعدَهم بأقوامٍ أكثرُهم ممَّنْ لا خلاقَ لهم في الدينِ ؛ تتميماً لما فُوِّضَ إليهِ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ .

وقالَ شعيبٌ لموسىٰ عليهما السلامُ : ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٧] ، وإسماعيلُ عليهِ السلامُ : ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فوُفِّقا للنُّجْزِ ، وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ للعبدِ الصالحِ عليهِ السلامُ : ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف : ٦٩] ، فأقرَّ بالعجزِ ، ولم يظهرْ فَرْقُ ما بينِهم إلا مِنْ حيثُ تخصيصُ موسىٰ نفسَهُ عندَ ذكرِ الصبرِ ، وتعميمُ شعيبٍ وإسماعيلَ في بابِهما الأمرَ .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] .

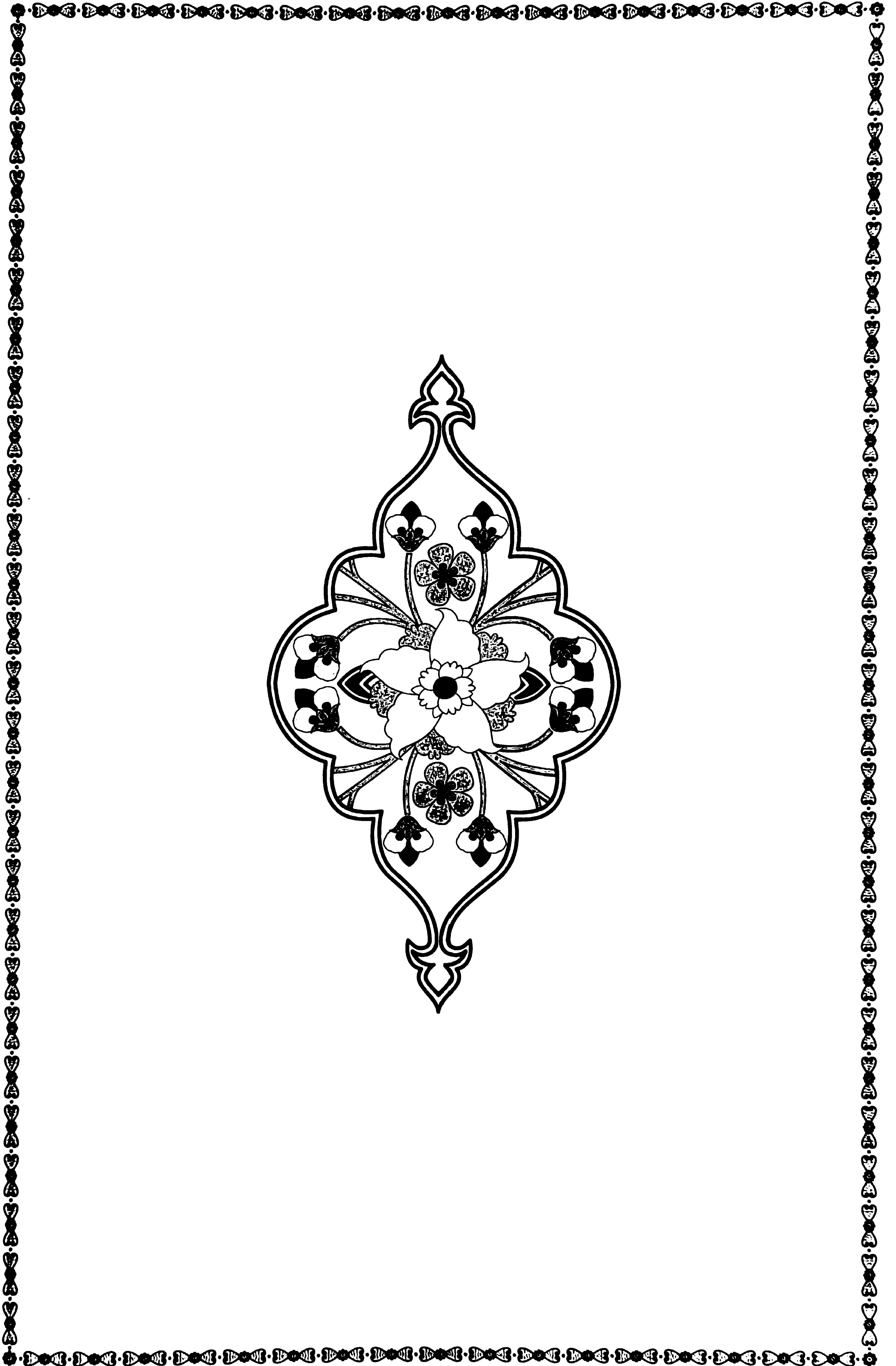
(٢) يعني : وخالق ما يعبدون .

(٣) لأنه علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام استخلف المولىٰ من بعده ، ويجب اعتقاد أن كلَّ نبيٍّ قد اختار ما هو الأحسن ، وقدرُ الله تعالىٰ غلّاب ، وله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .

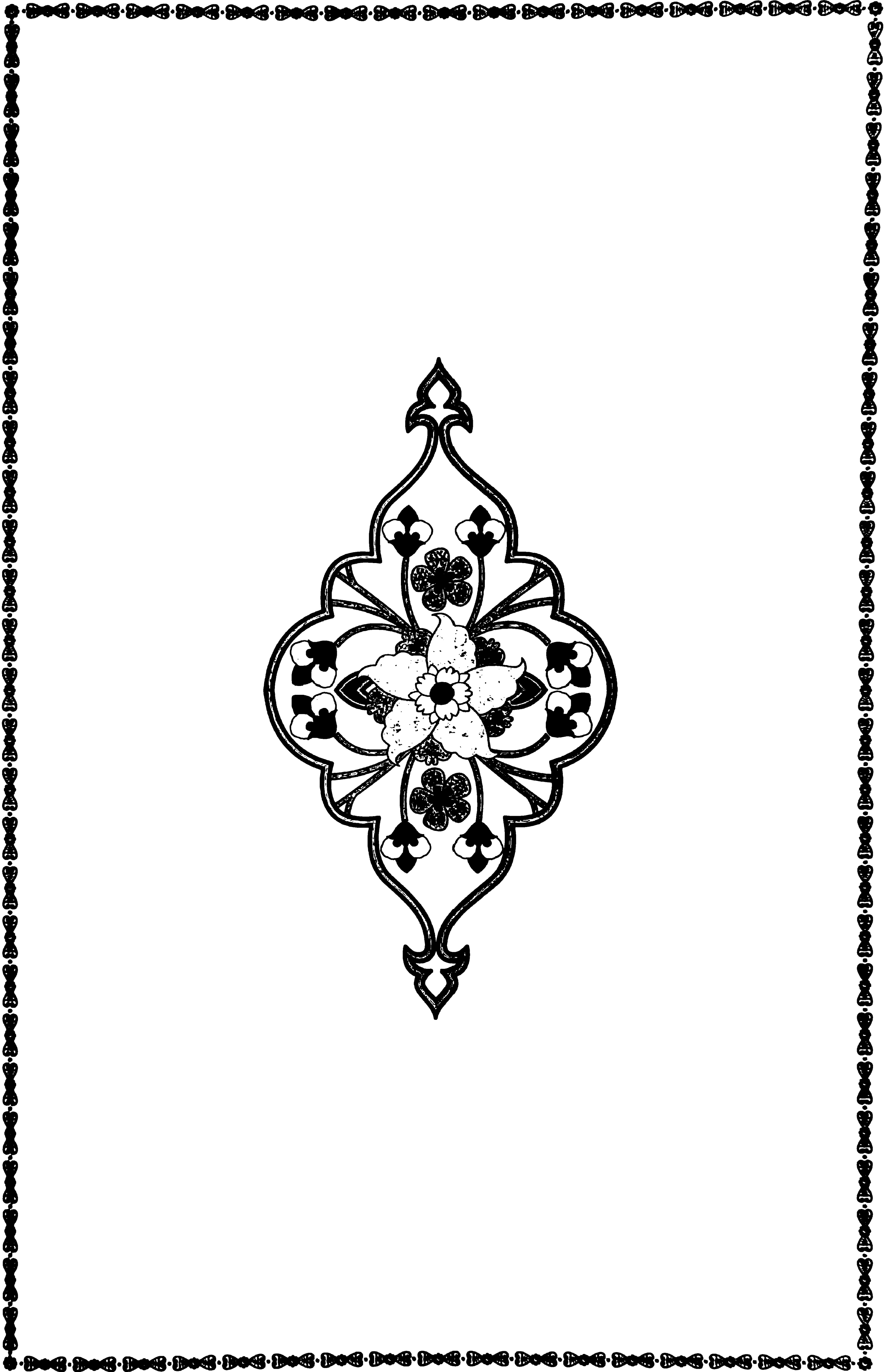
فالعُجْبُ كلُّ العُجْبِ : أنْ ترىٰ لنفسِكَ فَضْلاً ، وشَكْلُهُ[1] : أنْ ترىٰ لمَنْ دونَ اللهِ تعالىٰ بغيرِ أمرِ اللهِ أمراً ؛ فالأوَّلُ طريقٌ إلى الكفرِ ، والثاني طريقٌ إلى الذُّلِّ ، ولا ينجو منهما عبدٌ إلا بتثبيتٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وعِصْمةٍ ، وتوفيقٍ مِنْ لَدُنْهُ ورحمةٍ ؛ ليرىٰ بنورِ التوفيقِ القدرةَ والإحسانَ للهِ تعالىٰ ، والعجزَ والإساءةَ مِنَ العبدِ ، فلهُ الحمدُ أبداً علىٰ كلِّ نعمةٍ ، والصلاةُ علىٰ رسولِهِ محمدٍ وآلِهِ صفوةِ الأمَّةِ .



(١) أي : العُجْب الآخر المشابه للأول : أن ترىٰ كمال الغير لذاته بدون مِنَّةِ التمكين من الله في حقِّه . انتهىٰ من هامش (هـ) .




[كِتَابُ
السِّجْنِ والمَمْلَكَةِ]



كتاب السّجن والمملكة (١)

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمدُ لمَنْ سَجَّنَ عبادَهُ في بسيطِ الأرضِ ، حتىٰ لو رامُوا النفوذَ مِنْ طولِها لتحيَّروا في العرضِ ، تَسْجِيناً مَنْ جحدَهُ بجهلِهِ . ازدادَ احتباساً بقولِهِ وفعلِهِ(٢) .

والصلاةُ علىٰ رسولٍ عرفَ المَمْلكةَ والمُلْكَ ، فلم يطلبْهما في السِّجْنِ ودارِ الهُلْكِ ، فأقامَ فيهِ عبداً مسجوناً مقيَّداً ، وخرجَ منهُ حرّاً مَصُوناً مؤيَّداً ، واستدلَّ بالسِّجْنِ على المَلِكِ الذي حبسَهُ فيهِ وهو عندَهُ علىٰ إطلاقٍ(٣) ، ثم نظرَ في حكمةِ حَبْسِهِ فاستدلَّ علىٰ مَمْلكتِهِ بعدَ الانطلاقِ ، فأبغضَ السجنَ بدليلٍ ، وأعدَّ للرحيلِ .

---

(١) سيظهر لك : أنه أراد بالسجن : الدنيا ، وبالمَمْلكةِ : الجنَّةَ في الآخرة ، هـٰذا بشأن المؤمن ، وعلى العكس فيهما بشأن الكافر ، وفي هامش (ب) : (إنما ذُكِرَ مقابلُ السجن ـ وهو المملكة ـ في هـٰذا الكتاب ، ولم يذكر في كتاب الفقر والعبودية والأمر مقابلاتُها ؛ لما أن السجن لم « . . . » ؛ فالدنيا سجنٌ في حقِّ المؤمن بالنسبة إلىٰ مملكة الجنة ، وهي بعينها جنة في حقِّ الكافر بالنسبة إلىٰ جهنم) ، ولذلك كان من أسماء جهنم التي هي مآل الكفَّار : سِجِّين ، وهو مبالغة في السجن كما قال أبو عبيدة في « مجاز القرآن » (٢/ ٢٨٩) .

(٢) قال تعالىٰ في صفة هـٰذا التسجين : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] .

(٣) وهو عنده ؛ أي : عند نفسه . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ ، و ، ز) ، وفي (أ ، ب ، ز) : (عبده) بدل (عنده) ، وسيأتي أن العبد يعتقد أنه طليق ظاهراً ، محبوس باطناً ؛ عند قوله قريباً : (فيعلم أنه مطلق ظاهراً ، محبوس باطناً) .

فهٰذهِ الأربعةُ الخصالُ مِنَ المَحْنِ[1] ، تتعلَّقُ بقِسْمِ السِّجْنِ .

[وجوهُ معرفةِ المَلِكِ]

فأمَّا معرفةُ المَلِكِ فبأربعةِ أوجهٍ : بمعرفةِ حالِ السِّجْنِ ، وحالِ احتباسِهِ ، وحالِ عملِهِ ، وحالِ إصابتِهِ .

[السِّجْنُ هوَ العالَمُ المحسوسُ]

أمَّا السِّجْنُ : فهٰذا العالَمُ المحسوسُ ؛ مِنَ السَّقفِ العالي والبساطِ الممسوسِ ، فمتىٰ تأمَّلَ العبدُ فيهِ وجدَهُ سقفاً رفيعاً لا ينالُهُ بصرُهُ ، وبساطاً بسيطاً لا تجوزُهُ قدمُهُ ، وأوتاداً راسخةً لا تزعزعُها يدُهُ ، وسراجاً وهَّاجاً لا يقاربُهُ سُرُجُهُ ، فيتيقَّنُ بالعجزِ عن صنْعِهِ ، مِنْ رفعِهِ ووضعِهِ[2] .

ثم رأىٰ ما فيها مِنَ الأشياءِ سواهُ مسخَّرينَ لمنافعِهِ ، مذلَّلينَ لمصالحِهِ[3] ، فيعلمُ أنَّها متاعٌ ، وأنَّهُ المقصودُ مِنْ بينِ الأنواعِ ، وأنَّ للبناءِ بانياً غيرَ شبيهٍ بالبِناءِ ، وبمَنْ فيهِ ممَّنِ اتَّصفَ بالعجزِ عنِ الإنشاءِ .

ثم ينظرُ في حالِهِ ، فيجدُهُ هالكاً فيهِ لا يمكنُهُ النفوذُ مِنْ أقطارِهِ[4] ، ثم في عملِهِ ، فلا ينجيهِ عن مكارهِ أدوارِهِ ، معَ ما يرىٰ في الدنيا مِنَ الفُسْحةِ ، ويجدُ

---

(١) المَحْنُ : الاختبار ، والاسم منه : المحنة ، والجمع : مِحَن ؛ كسدرة وسِدَر .

(٢) كذا في (أ ، ج ، ز) ، وفي سائر النسخ : (عن صُنْعِهِ ، بمن رفعه ووضعَهُ) .

(٣) إذ قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم : ٣٢ـ ٣٤] .

(٤) قال جلَّت حكمته : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٖ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

لنفسِهِ مِنَ القدرةِ ، ولقلبِهِ مِنْ حُسْنِ الرأْيِ والاختيارِ ؛ لفَرْطِ الذكاءِ وجودةِ الاختبارِ ، فيعلمُ أنَّهُ مطلَقٌ ظاهراً ، محبوسٌ باطناً ، وحاكمٌ في الأسبابِ ، محكومٌ عليهِ في الأغراضِ ، مبتلىً بينَ ذلكَ ، لا هنا ولا هنالِكَ(١) .

فالإطلاقُ الظاهرُ يُسَوِّلُهُ النهوضَ إلىٰ ما أرادَ(٢) ، والحبسُ الباطنُ يقطعُ عليهِ الطريقَ إلى المُرادِ ، وحكومتُهُ تعطيهِ حَلاوةَ الإمضاءِ لنفسِهِ ، والحكومةُ عليهِ تذيقُهُ مَرارةَ القضاءِ عليهِ ، وأنَّ لهُ حابساً فيهِ وحاكماً حكمَ عليهِ ، وذلكَ اللهُ تعالىٰ ؛ حبسَ عبدَهُ في فُسْحةٍ لا تعرفُها العيونُ إلا مَمْلكةً ، وحكمَ عليهِ في حظوظِهِ المتعلِّقةِ بأسبابٍ لا تعرفُها النفوسُ إلا ولايةً .

ثم ينظرُ في إصابتِهِ إذا عملَ وأصابَ كيفَ امتنعَ عليهِ مقصودُهُ(٣) ، وتباعدَ عنهُ مطلوبُهُ ، ما دامَتِ اليدُ تشهدُ بالامتلاكِ ، والكاتبُ ينسخُهُ في وردِ الأملاكِ(٤) ، إلا أنْ يزيلَ عن نفسِهِ صفةَ مُلْكِهِ ، الذي في تحصيلِهِ قُرْبٌ مِنْ هُلْكِهِ ، ومتىٰ يصفو تمتُّعٌ بهلاكِ المحبوبِ ، أو تلذُّذٌ بزوالِ المطلوبِ ؟!

---

(١) أي : مبتلىً بين الحاكميَّة والمحكوميَّة ، لا هنا في محكومية ، ولا هنالك في الحاكمية . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٢) يقال : سوَّلَ له كذا ؛ إذا زيَّنه له وحسَّنه ، فيتعدَّىٰ إلى المفعول الأول باللام ؛ قال تعالىٰ حكاية عن السامري : ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه : ٩٦] ، وإلى الثاني بنفسه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ١٨] .

(٣) فكم يحكمُ العبد ويُبرِمُ في أسبابه ، ويعاندُهُ الدهرُ في قضائه .

(٤) إذ وضْعُ اليد علامة الامتلاك ، ونسخة المِلْك في دار القضاء تجعل المملوك من جملة أملاك المالك .

ولئنْ نِلْتَ متعةً بلا إزالةٍ ، كانَ كما كنتَ عليها قبلَ الحيازةِ ، فهي متعةُ نظرٍ أو متعةُ فكرٍ ، وصرتَ فيما حُزْتَ خالياً عنِ الغرضِ ، فعادَتْ حكمتُكَ في فعلِهِ إلىٰ عبثٍ .

وعلمتَ أنَّ الذي حبسَكَ وأنتَ مطلَقٌ ، وحكمَ عليكَ وأنتَ حاكمٌ ، وحرمَكَ الغرضَ وأنتَ مصيبٌ . . فسحَ الدنيا عليكَ وهي سجنٌ ، وأنتَ فيهِ محبوسٌ عنِ النجاةِ ببدنِكَ ، محبوسٌ عنِ الإصابةِ بعملِكَ ، محبوسٌ عنِ الانتفاعِ بإصابتِكَ ، وإنَّ الحبسَ عنِ الانتفاعِ بالمصابِ ، لَأَضرُّ مِنَ الحَبْسِ عنِ الأسبابِ ، والحبسَ عنِ الإصابةِ بعدَ العملِ والنَّصَبِ ، لَأَوجعُ مِنَ المحبوسِ عنهُ بتركِ السببِ ، وحبسَ البدنِ بالعلَّةِ والحالِ ، لَأَشدُّ مِنَ الحبسِ بالقيدِ والأغلالِ .

ثم ضربَ اللهُ تعالىٰ لذلكَ مثلاً مِنْ أحوالِكَ : بضالٍّ في التِّيهِ حُبِسَ عنِ الوطنِ بضلالِهِ ، ومحبوسٍ في السِّجنِ عن أهلِهِ ومالِهِ ، ومحبوسٍ عنِ الثمرةِ بفسادِ عملِهِ ، ومحبوسٍ عنها بكَسَلِهِ ، ومحبوسٍ عنِ التمتُّعِ باعتلالِهِ ، ومحبوسٍ عنهُ بفَقْدِ مالِهِ .

فقلبُ الضالِّ المحزونِ ، أضيقُ مِنْ قلبِ المسجونِ ، وقلبُ المحرومِ وقد تَعِبَ بعملِهِ ، آلمُ مِنْ قلبِ المحرومِ وقدِ استراحَ بكَسَلِهِ ، وقلبُ الصحيحِ الفقيرِ ، أسلمُ مِنْ قلبِ الموسرِ الكسيرِ .

فدلَّ الاحتباسُ مِنَ الوجوهِ الأربعةِ على الحابسِ ؛ وهوَ الربُّ القديرُ .

[الحكمةُ مِنْ حَبْسِ العبدِ في الدنيا]

فقالَ الأخُ : أشحذَ اللهُ فهمَكَ[١] ، وهذَّبَ علمَكَ[٢] ، لقد بالغْتَ في بيانِ الحَبْسِ ، فما الحكمةُ التي تطمئنُّ إليها النفسُ ؟ فلسْنا نرىٰ حَبْساً في الشاهدِ إلا رَدْعاً ، أو زَجْراً لظالمٍ وقَمْعاً ، فكيفَ جازَ مِنَ اللهِ تعالى ابتداءً ؟ وكيفَ أنشأَ الخلقَ فيهِ إنشاءً ؟

قلتُ : كما خلقَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ علىٰ صفةِ الفقرِ ، والإفقارُ في الشاهدِ بينَنا أمرٌ نُكْرٌ ، وكما جَبَلَهم على الحَجْرِ ، حتىٰ لم يتصرَّفوا في أملاكِهم إلا بقَدْرِ الأمرِ ، ومثلُهُ في الشاهدِ بعدَ الرُّشْدِ جَوْرٌ[٣] ، وكما كوَّنَهم علىٰ صفةِ العبوديَّةِ ابتداءً ، ولنْ يجوزَ في الشاهدِ نقضُ الحريَّةِ إلا على الكفرِ جزاءً .

أو أنتَ في الكلِّ علىٰ إشكالٍ ، ناظرٌ فيها بعينِ إغفالٍ ؟ أمَا علمتَ أنَّ العقوبةَ في حَجْرِنا ، بزوالِ إطلاقٍ أثبتَهُ المَلِكُ في حقِّنا ؟ فأمَّا الحَجْرُ عن لا مِلْكٍ فأصلٌ ، والإطلاقُ فيهِ بالأمرِ فَضْلٌ ، ومِلْكُ العبدِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ مجازٌ ما لهُ أصلٌ ، وعقوبةَ الرِّقِّ في حقِّنا كانَتْ في نقضِ الحريَّةِ ، وما العبدُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ إلا علىٰ صفةِ العبوديَّةِ ؟! فلم يكنْ حرمانُ ما لم يكنْ لهُ عقاباً ، بل

---

(١) شحذ وأشحذ السكين ؛ إذا حدَّدها فصارت ماضية الحدِّ ، ففي الكلام استعارة لا تخفىٰ .

(٢) نقَّاه وصفَّاه مما لا ينفع ، وجعله خالصاً لوجهه الكريم .

(٣) يعني : أمرَ الله تعالىٰ ونهىٰ في حقِّ أموال العباد ؛ فأحلَّ وحرَّم ، وأوجب إخراج الزكاة بقَدْر ، ومنع السفيه من التصرُّف بماله بحَجْرٍ ، وفي الشاهد ـ يعني : العالَم الحادث بما يراه الناس ويعتادونه ـ كلٌّ من الإفقار والحَجْر جَوْرٌ وظلم ، تعالىٰ عن ذلك مَنْ أفعاله لا تعلَّل ، وعطاياه لا تقلَّل ؛ إذ كلُّ ذلك لحكمة تقاصرت عن إدراكها العقول ، ولوَّحت بها أنوارُ النقول .

كانَ إعطاءُ ما أُعطيَ ممَّا لم يكنْ لهُ مِنَ التكوُّنِ عطاءً حساباً .

وكذلكَ الإفقارُ عقوبةٌ لما فيهِ مِنْ زوالِ الغنىٰ ، وما للعبدِ غَناءٌ في حقِّ ما بينَهُ وبينَ المولىٰ .

وكذلكَ السِّجنُ عقوبةٌ لما فيهِ مِنْ حرمانِ نعمةِ الفُسْحةِ ، فأمَّا في حقِّ مَنْ أُخرجَ إليهِ مِنَ البئرِ فنعمةٌ[1] ، وذلكَ مثلُ الآدميِّ في إخراجِهِ ابتداءً مِنْ بطنِ الأرضِ إلىٰ ظهرِها ، وفي الانتهاءِ مِنْ بطنِ الأمِّ إلىٰ حَجْرِها[2] .

هـٰذا بيانُ أنَّ الدنيا سِجْنٌ وعقوبةٌ إذا قُوبلَتْ بالآخرةِ ، فأمَّا إذا قُوبلَتْ بالحالةِ الأولىٰ فنعمةٌ حاضرةٌ .

ولأنَّ اللهَ تعالىٰ حكيمٌ لم يخلقْ هـٰذا العالمَ عَبَثاً ولـٰكنْ للجزاءِ ، ولا يصحُّ الجزاءُ علىٰ سبيلِ الحكمةِ إلا بعدَ الابتلاءِ ، فجعلَهُ مستعبداً فقيراً مأموراً محبوساً ليجازيَهُ إذا أطاعَهُ بأضدادِها[3] ، ويزيدَ مِنْ فضلِهِ علىٰ كلِّ طاعةٍ أضعافَ أعدادِها .

[حكمةُ القضاءِ والقدرِ ، وانتفاءُ الإجبارِ]

قالَ : فما حكمةُ إطلاقِ العملِ معَ الحَبْسِ عنِ الغرضِ ؟ هل يبقىٰ دونَهُ إلا تَعَبٌ ؟ وهل ذلكَ إلا عبثٌ ؟ ![4] .

---

(١) يومَ لم تكن السجون مبنية كانوا يحبسون في الآبار ، وفي « المنتظم » (٥/ ٣٠٩) : أن أول من بنى السجون سيدُنا عليٌّ رضي الله عنه ، ثم إنهم إن خفَّفوا عن المسجون في البئر نقلوه إلىٰ بناء السجن ، فكان نقله كالنعمة له .

(٢) الحَجْرُ ـ بفتح الحاء وقد يكسر ـ : الحِضْنُ ؛ وهو ما دون الإبْطِ إلى الكشح ، ويقال : هو في حَجْر فلان ؛ أي : في كنفه ورعايته .

(٣) من الحرية والغنىٰ ونفاذ المشيئة وصاحب المملكة . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٤) اعلم : أن الله تعالىٰ لو خلق الخلق لغير حساب ولا جزاء ، ولا نوال ولا عطاء ، ثم تركهم=

قلتُ : أسألُ اللهَ تعالىٰ في شرحِهِ التوفيقَ ، وهوَ المَضَلُّ والمَضِيقُ[1] .

إنَّ الأغراضَ الدنياويَّةَ أصابَتْها شريكةُ الحِرْمانِ ، في حقِّ العاملِ والكَسْلانِ ؛ ليُعلمَ أنَّ العملَ ليسَ بلازمٍ ، وأنَّ الحرمانَ معَ العملِ غيرُ دائمٍ ، فيتوكَّلَ المبصِرُ بقلبِهِ ـ عملَ أو تَرَكَ ـ على المُسَبِّبِ ، ويتَّكِلَ المبصِرُ بعينِهِ في الحالينِ على السببِ[2] ، ويصيرَ الجسمُ مبتلىً بينَ دعوةِ النفسِ إلىٰ ما أبصرَ عينُهُ ، وبينَ دعوةِ الروحِ إلىٰ ما أبصرَ قلبُهُ[3] .

= هَمَلاً بغير خطاب ، جلَّ عن ذلك ربُّ الأرباب . . لما صحَّ إطلاق العبث علىٰ فعله ؛ إذ العبث ما لا فائدة فيه أصلاً ، والله تعالىٰ لا تلحقه الفائدة ، فلذلك كانت الحكمة عينَ فعله ، وتعالىٰ ربُّنا أن يُحكم عليه بحكمة تُصوِّرُها أوهامُنا .

والله تعالىٰ قال : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ٢٥٥) : (أي : أن يتركَ غير مأمور وغير منهيٍّ) .

(١) المَضَلُّ : موضع الضلال ، والمَضِيق : موضع الضيق . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) ؛ وأراد بهما : بيان حكمة ذلك الحبس مع الإطلاق في الظاهر ، وهو تحويمٌ حول ما قاله محقِّقُو أهل السنة من الأشاعرة : الإنسان مجبور باطناً ، مختار ظاهراً .

(٢) المراد بالحالين : العمل وتركه . مفادٌ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٣) ولهـٰذا ترىٰ أهلَ الطبائع ، ومن قصر نظره على المحسوسات ، وعبَّادَ العادات . . قد اتَّخذوا من الأسباب آلهةً وإن لم يفصحوا عن مكنون نفوسهم ؛ إذ قالوا بأنها تؤثِّر إيجاداً وإعداماً ، ولا تقبل التخلُّف ؛ فهي علَّةٌ لا تنفكُّ عن معلولها ، أو طبيعةٌ تلازمُ بشرطيها مطبوعَها .

وهـٰؤلاء إن أبصروا خرق العوائد تخرَّقت عقولهم ؛ وهم بين التعامي عنها ، أو يدَّعوا أنها فلتةٌ طائشة ، وصدفةٌ عابثة ، وهم بذلك يهدمون ما أسَّسوا ، ويخربون ما أثَّثوا .

وبهـٰذا تعلم رحمة الله تعالىٰ في خرق العادات ؛ بالمعجزات والكرامات ، ورحمته سبحانه في إبقاء الكرامة إلىٰ قريب من الساعة ؛ لأنها من توابع المعجزات ، وهو ما أشار إليه الإمام البوصيري في « همزيته » بقوله : (من الخفيف)

والكـرامـات منهـمُ معجـزاتٌ   حـازهـا مـن نـوالـك الأولـيـاءُ

حُكْمٌ نفذَ عليكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ في حظوظِكَ والنفسُ تراها متعلِّقةً بأسبابٍ وتأمرُكَ بالعملِ ، كما نفذَ القلمُ مِنْ قبلُ بأمورِ آخرتِكَ والشرعُ علَّقَها بالعبادةِ ونهاكَ فيها عنِ الكسلِ ، وإنَّهُ لَلابتلاءُ الذي ضلَّتْ فيهِ القرونُ ، وحارَتِ الأفهامُ والظُّنونُ ، فلا عملَ بغيرِ قَدَرٍ ، والعبدُ مجازىً على العملِ ، لا نجاةَ لهُ ـ وإنْ جدَّ ـ عنِ المقدورِ[1] ، وما هو في الاحتجاجِ بالقَدَرِ عندَ اللهِ بمعذورٍ ؛ إذِ القضاءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ غيرُ ماضٍ بأقدارِهِ ، إلا متعلِّقاً بعملِ العبدِ علىٰ ما علمَ مِنِ اختيارِهِ[2] ؛ فالعملُ مِنْ جهةِ العبدِ غيرُ مُجْبَرٍ عليهِ ، ولـٰكنَّهُ تحتَ مشيئةِ اللهِ تعالىٰ غيرُ مفوَّضٍ إليهِ[3] ؛ ردّاً علىٰ مَنْ فوَّضَ أو أجبرَ ، أو سلَّطَ أو أكرهَ[4] ؛ كي لا يُنسبَ الصانعُ عزَّ ذكرُهُ بمخالفةِ العبدِ مشيئتَهُ إلىٰ عجزٍ[5] ، ولا بمجازاتِهِ علىٰ عملِهِ جبراً إلىٰ سَفَهٍ[6] .

---

(١) الجَدُّ هنا : الاجتهاد ، والمراد : أن المقدور الذي قدَّره الله لا محيدَ عنه ؛ فالسعيد من سَعِدَ وهو في بطن أمه ، والشقيُّ من شقي وهو في بطن أمه ، ولله الحُجَّة البالغة .

(٢) يعني : لن يظهر فعلُ الله وقضاؤه في خلقِهِ إيجاداً وإعداماً إلا بما سبق به قَدَرُهُ ؛ من إرادته لما قضىٰ وعلمه به ، ومن جملة علمه : أن العبد يختار ما سبق به قدرُهُ سبحانه ؛ ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠] ، وهـٰذه الآية حجَّةٌ على العبد ، لا له كما قد يُتوهَّمُ ؛ لأن فعلَ العبد معلوم له سبحانه ، فما ظهر علىٰ لوحة الوجود الإمكانيِّ إلا ما عَلِمَ الله كونَهُ ؛ من اختيار العبد وفعله معاً ، ولذلك خُتمت هـٰذه الآية الفذَّة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ، وليبقى العبد خائفاً راجياً قال عقبها : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣١] .

(٣) هـٰذا حاصل كلام بسيط حكاه إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٣٠٩) .

(٤) أراد : المعتزلة القدرية مجوس هـٰذه الأمة ، والمجبرةَ المرجئة الجهلة بالحكمة .

(٥) إذ لو مضت مشيئة العبد وتعطَّلت مشيئة الله جلَّ وعزَّ . . لنُسِبَ ـ تعالىٰ ربُّنا ـ إلى العجز أيَّ عجز .

(٦) يعني : لو كلَّفَ الله تعالى العبدَ ـ وإرادتُهُ لا يتخلَّف مرادُها ، وقدرتُهُ ناجزٌ مقدورها ـ ولم =

[كلُّ عملٍ دنيويٍّ أو أخرويٍّ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ]

ثم ضربَ لأقسامِ الآخرةِ ، مَثَلاً بالأقسامِ الحاضرةِ ؛ مِنْ تعلُّقِها بالأعمالِ الحسيَّةِ ، غيرَ خاليةٍ عنِ الأقدارِ السماويَّةِ[1] ، لا فرقَ بينَهما إلا مِنْ حيثُ إنَّ أقسامَ الآخرةِ متعلِّقةٌ بأسبابِ ابتُليتَ بفعلِها[2] ، وأقسامَ الدنيا متعلِّقةٌ بأسبابِ ابتُليتَ في الأكثرِ بتركِها ، علىٰ ما مرَّ بيانُهُ[3] .

والغرضُ في البابينِ ؛ ممَّا يُنالُ ظاهراً بالسببِ ولـٰكنْ لا يُنالُ حقيقةً إلا باللهِ العظيمِ ؛ فهوَ الذي علَّقَها بهِ وأقدرَهُ عليهِ وهوَ العليمُ الحكيمُ ، ما لأحدٍ قدرةُ تعليقِ انقلابِ الحَبِّ زَرْعاً ثم حَبّاً بالزراعةِ ، ولا قدرةُ تعليقِ العِتْقِ ثمَّ المِلْكِ ثمَّ الولايةِ ثمَّ المُلْكِ بالطاعةِ ، كيفَ وكانَتِ الطاعةُ لزمَتْكَ بحقِّ العبوديَّةِ ؟![4] فمِنْ أينَ قدرةُ اكتسابِ الحريَّةِ ؟! بل ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ فَضْلٌ ورحمةٌ ، ومجازاةٌ بحِكْمةٍ ، تعالى اللهُ مِنْ مُحْسنٍ تصويراً بقدرتِهِ[5] ، ومُحْسنٍ تحريراً بحكمتِهِ[6] .

فظهرَتِ القدرةُ القاهرةُ بالإنشاءِ ، وعُرفَتِ الحكمةُ الظاهرةُ بالجزاءِ .

= يكن للعبد فعلٌ واختيار يُعلَّق عليهما كسبُهُ . . للزم ـ تعالى الحكيم ـ أن يوصف الآمر الناهي المكلِّف بالسَّفه ؛ إذ لا معنىٰ لتكليف العاجز الذي لا يصحُّ منه فعلٌ ، وهـٰذا علىٰ مذهب الإمام المصنف راجعٌ إلىٰ صفة الحكمة منه سبحانه .

(١) أي : عن حُكْم الله . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٢) قوله : (بينهما) ؛ أي : بين الآخرة والحاضرة . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٣) انظر (ص٢١٧ ، ٢١٩) .

(٤) أي : كيف يحصل العتق والمِلْك والولاية والمُلْك . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٥) أي : في الابتداء أحسنَ الصور . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) .

(٦) أي : تعالىٰ عن السفه والعبث . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) .

[طُرُقُ معرفةِ المَمْلكةِ]

وأمَّـا المَمْلكـةُ : فتُعـرفُ مِـنْ طـرقٍ أربعـةٍ : بحـالِ السِّجْـنِ ، وحـالِ المسجونينَ ، وأعمالِهم ، وحظوظِهم .

أمَّا حـالُ السِّجْـنِ : فـي أنَّـهُ مَحْبِسٌ ، وحـالُ المسجـونِ : فـي أنَّـهُ فـي الاحتباسِ ، وهما مكروهانِ عندَ الناسِ . . فدليلُ وجودِهِما بلا ذنبٍ مِنَ الإنسانِ[1] ، مِنْ طريقِ الحكمةِ على الامتحانِ ، والامتحانُ كما دلَّ علىٰ أنَّ الدارَ للمِحْنةِ ، وأنَّ الممتحَنَ في دارِ المِحْنةِ لا يكونُ مختاراً ، بل يكونُ اضطراراً . . دلَّ مِنَ الحكيمِ على التمييزِ بينَ الخبيثِ والطيِّبِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩][2] .

والتمييزُ دليلٌ على التفريقِ بينَهما محلّاً وجزاءً[3] ؛ الطَّيِّبُ إلىٰ دارِ الطَّيِّبِ معَ الطَّيِّبينَ ، والخبيثُ إلىٰ محلِّ الخبيثِ معَ الخبيثينَ ؛ علىٰ مثالِ صائغٍ حكيمٍ يمتحنُ التِّبْرَ في بَوْتَقَةٍ على النارِ ؛ ليصفِّيَ مِنَ الغشِّ النُّضارَ[4] ، فيكونَ الصافي

---

(١) أي : وجود السجن والاحتباس . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) .

(٢) وتمام الآية : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (١/ ٤٩٢) : (أعلَمَ الله عز وجل : أن حكم من كفر أن يقال له : إنه من أهل النار ، ومن آمن فهو ـ ما آمن وأقام علىٰ إيمانه ، وأدَّىٰ ما افترُضَ عليه ـ من أهل الجنة ، وأعلم أن المؤمنين ـ وهم الطَّيِّب ـ مميَّزون من الخبيث ؛ أي : مخلَّصون ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ أي : ما كان الله ليُعْلِمَكُم من يصير منكم مؤمناً بعد كفره ؛ لأن الغيب إنما يطلع عليه الرسل لإقامة البرهان) .

(٣) محلّاً ؛ أي : من حيث الجنة والنار ، وجزاءً ؛ أي : من حيث الثواب والعقاب . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٤) النُّضار : الذهب أو الفضة ، وغلب إطلاقه على الذهب ، وهو هنا : الخالص من التِّبر ؛ =

تاجاً يرفعُهُ الهامُ[1] ، والغشُّ سَقَطاً تطؤُهُ الأقدامُ .

وأمَّا الأعمالُ والحظوظُ : فإنَّ الناسَ اختلفوا في أعمالِهم ، واشتركوا في نيلِ أَنْزالِهم[2] ؛ فلا عابدٌ أُعطيَ زائدةً ، ولا جاحدٌ حُرِمَ عائدةً[3] ، ولا بَرٌّ أُغنيَ بِرّاً ، ولا شَرٌّ سُقِيَ مُرّاً[4] .

فدلَّ الأمرانِ علىٰ دارٍ أخرىٰ للجزاءِ[5] ، تَفرُقُ بينَهُما في العطاءِ[6] ؛ وذلكَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١ـ ٢٢] .

[الوجوهُ الداعيةُ إلىٰ بغضِ سِجْنِ الدنيا]

فإذا عرفَ السِّجنَ والمَمْلكةَ أبغضَ السِّجْنَ مِنْ طُرُقٍ أربعةٍ : كراهةٍ للمِحْنةِ ، ورغبةٍ في النِّعمةِ ، وحِذارٍ مِنَ الفتنةِ ، ونشاطٍ في الأمنِ .

= وهو الذهب غير المضروب ، وقيل : يطلق على الفضة أيضاً قبل أن تضرب وتصاغ ، وقيل : كلُّ جوهر أرضي ، فيدخل النُّحاس والصُّفْر والحديد والرَّصاص .

(١) **الهامُ** : جمع هامة ؛ وهي الرأس .

(٢) **الأَنْزال** : جمع نُزُل ؛ طعامٌ يقدَّم للنزيل والضيف .

(٣) قال سبحانه : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، **والعائدة** : الفائدة .

(٤) **الشَّرُّ** : المرءُ الشرِّير ، أراد : أن الله تعالىٰ أقام الحُجَّة علىٰ عباده بما يجدون في أنفسهم من الاختيار ، وأن الأسباب مهما تباينت ليس لها تأثير في إيجاد ما يختاره العبد ، وإنما هي من دواعي الامتحان ، وبها عادةً تظهر معادنُ المكلَّفين .

(٥) **الأمران** : الأعمال والحظوظ .

(٦) أي : بين العابد والجاحد ، والبرِّ والشقيِّ . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

إذِ السِّجْنُ مبنيٌّ للحَبْسِ ، وإنَّهُ لمكروهٌ ، وحائلٌ عنِ المَمْلكةِ ، وهي محبوبةٌ ، ثم يشتملُ السِّجْنُ علىٰ فِتَنٍ ؛ مِنْ ضيقِ المكانِ ، وشرِّ الأقرانِ ، لا يَخُصُّ بلواهما الظالمينَ ، بل يعمُّ المسجونينَ ، معَ ما عُرِفَ الأمنُ عنهُ ، بالخروجِ منهُ .

أو أنتَ نظرْتَ بعينِكَ في الدنيا فلم تَلْقَ حَبْساً ، وذُقْتَ بفمِكَ النُّعْمىٰ فلم تجدْ بها بأساً ، وتباعدْتَ عنِ الفتنةِ بعلوِّ شانِكَ ، وأمنْتَ بتمتُّعِ مكانِكَ ، فما أنتَ بمُحْتَبَسٍ لو دُمْتَ علىٰ هـٰذا إلا بأضيقِ مكانٍ لا تجدُ العينُ فيهِ مجالاً ؛ وهوَ القبرُ ، ولا تذوقُ إلا أمرَّ سُمٍّ لا يدعُ عليكَ أوصالاً[1] ؛ وهوَ الموتُ ، ولا تُفتتنُ إلا بأقربِ موجودٍ لا تقدرُ منهُ فراراً ؛ وهوَ النَّفْسُ ، ولا تخافُ إلا في أهولِ مكانٍ لا تجدُ فيهِ أنصاراً ؛ وهوَ المَحْشَرُ .

أمَا علمتَ أنَّ سِجْناً لم تُعرفْ حدودُهُ ولو بالظنِّ . . لم يُعرفْ حرمانُ النعيمِ فيهِ بالعينِ ؟![2] .

ولو تأمَّلْتَ فيما علىٰ جسمِكَ وقلبِكَ ممَّا تخالُهُ نعيماً . . لسمَّيْتَهُ عذاباً أليماً ، ولعلمْتَ أنَّكَ دونَ النعيمِ بالسجنِ محرومٌ .

ولو تأمَّلْتَ فيما ظننتَ بهِ نفسَكَ بينَ الأهلِ والولدِ والخدمِ سليمةً[3] . . وجدْتَها في فتنةٍ صمَّاءَ مقيمةً ؛ ألم تسمعِ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ

---

(١) الأوصال : المفاصل ، أو مجتمع العظام ، وقيل : جمع (وِصْل) بكسر الواو وضمها ، يقال لكل عظم لا يختلط بغيره ولا يوصل به .

(٢) بل يُعرف ذلك بالبصيرة ، وسيشرح ذلك .

(٣) حيث ظننتَ أن الاستكثار من العشيرة والولد والخدم نعيمٌ نفسُكَ فيه مقيمةٌ .

وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن : ١٤ـ١٥] ؟! أفتنةٌ أعظمُ مِنْ مالٍ يطغيك ، وامرأةٍ تلهيك ، وولدٍ ينسيك ؟!

ألسْتَ كنتَ في أعظمِ جهادٍ معَ نفسِكَ وهي فقيرةٌ ، وإنَّها معَ المالِ أميرةٌ ، وقدِ انضمَّتْ إليها امرأتُكَ فصارتا نَفْسينِ ، وصرتَ رهينَ حاجتينِ ؟! بلِ النفسُ الأخرىٰ شرٌّ مِنَ الأولىٰ في جوعِها دَقَعاً[١] ، وفي شبعِها بَطَراً ، وستصيرانِ ثلاثَ نفوسٍ إذا ولدَتْ وشرُّ النفوسِ الآخرةُ ؛ فإنَّها فقيرةٌ عمياءُ محتاجةٌ عاجزةٌ ، ومتىٰ قَدرَتْ وبدا طَلْعُها . . ازدوجَتْ بالأخرىٰ[٢] ، ولمَّا لاحَ يَنْعُها يتناصرْنَ عليكَ ، ثم يشكونَ إليكَ .

هـٰذا لكَ منهنَّ ما دُمْنَ مواهبَ ، وربَّما انقلَبْنَ مصائبَ .

وربَّما خانَتْكَ امرأتُكَ في فراشِكَ ، وأنفقَتْ علىٰ غيرِكَ مِنْ معاشِكَ ، ولَيَشتَغِلَنَّ بهِ قلبُ الغيورِ ، وما الحكيمُ علىٰ مثلِهِ بصبورٍ ، ولا الحافظُ إيَّاها علىٰ كيدِها بسليمٍ ، ثم يُلْحَقُ بهِ عُتُلٌّ دَعِيٌّ زنيمٌ ، تَكُدُّ لهما كَدّاً ، وهما يتمنَّيانِ موتَكَ جِدّاً[٣] .

فإيَّاكَ والاشتغالَ بها ولو بخطرةٍ ؛ فإنَّها تصيرُ فكرةً ثم نظرةً[٤] ، وإذا أنتَ

---

(١) الدقع : الخضوع في طلب الحاجة والحرص عليها ، أو سوء احتمال الفقر .

(٢) وبدا طلعُها ؛ أي : ثمرتُها ؛ يعني : ثديَها ؛ كناية عن البلوغ ، ازدوجت بالأخرىٰ ؛ أي : ولدت بنتاً أخرى . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٣) أي : امرأتُك مع حبيبها . انتهىٰ من هامش (ج) .

(٤) إشارة إلىٰ بداية الافتتان ، فمن قطع الفكرة فهو أدنى الناس إلى السلامة ، ومن افتكر دعته فكرته إلى النظر ، وهـٰكذا إلىٰ أن يسقط علىٰ أمِّ رأسه ، ولاتَ ساعةَ مندم .

مسلوبُ العِنانِ بفَرْطِ الشهوةِ ، مستورٌ لديكَ وأنتَ بادي العورةِ .

أليسَتِ المرأةُ تُطلبُ لمالِها وجمالِها وتبعَ جمالَها الرجالُ ، وأنتَ لها تبعُ المالِ[1] ؛ تحفظُ بنفسِكَ مالَها ، وهي تُرضي بنفسِها رِجالَها ؟!

ألا تميلُ عن مِثْلِها إلىٰ ذاتِ الدِّينِ ؛ امتثالاً بسُنَّةِ خاتِمِ النبيِّينَ[2] ، وإنْ كانَتْ علىٰ دَمامةٍ وفَقْرٍ ، فذلكَ المختارُ مِنَ الأمرِ ؟! فتكونُ لكَ بدَمامتِها صَفْواً ، وتقومُ بفَقْرِها دونَ حوائجِكَ طوعاً ، وكانَتْ عوناً لروحِكَ وأنَّىٰ ذلكَ ؟![3] وكانَ ولدُها الصالحُ بعدَ موتِكَ مِنْ جملةِ أعمالِكَ ، غيرَ أنَّ مثلَ هـٰذا الاتِّفاقِ ناقةُ صالحٍ ، وما لكَ في مثلِها مِنْ ناصحٍ ، والعياذُ باللهِ مِنَ العمىٰ[4] ، والتهافتِ في الرَّدىٰ .

[طُرُقُ الاستعدادِ للرحيلِ إلى المملكةِ]

فإذا أبغضْتَ المكانَ واشتقْتَ إلى المَمْلكةِ استعدَدْتَ للرحيلِ إليها بأربعةٍ : النُّقْلةِ ، والتجرُّدِ ، والزَّادِ ، والراحلةِ .

فزمانُ السفرِ إلى المَمْلكةِ مديدٌ ، وأنتَ في سفرِكَ فريدٌ ، ناقلاً للوطنِ والأهلِ والسكنِ[5] ، ومَنْ رحلَ غيرَ عائدٍ قبلَ النُّقْلةِ امتلأَ غمّاً وحسرةً ، ومَنْ

---

(١) أي : أنت خادم مالها . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) روى البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « تنكح المرأة لأربع ؛ لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

(٣) أي : أين ذلك في هـٰذا الزمان ؟! انتهىٰ من هامش (ج) .

(٤) أي : عن نكاح ذات الدِّين ، والميل إلىٰ نكاح ذات المال والجمال والحسب دون الدين .

(٥) أي : عن الوطن . انتهىٰ من هامش (ب) ، وفي هامش (ج ، د ، و) نسخة : (عن الوطن) .

لم يتجرَّدْ للسفرِ وهو فريدٌ تحيَّرَ خوفاً وفكرةً ، ومَنْ لم يستصحبِ الزادَ والمنزلُ خرابٌ . . عُذِّبَ جوعاً وتحيُّراً ، ومَنْ لم يركبِ الراحلةَ والسفرُ مديدٌ بَقِيَ حَفاً وحَسَراً[1] .

إلا أنَّ النُّقْلةَ عنِ الدنيا بالبذلِ ، والتجرُّدَ بالتركِ ، والزادَ التقوىٰ ، والراحلةَ اليقينُ ، فالتجرُّدُ والراحلةُ عبوديَّةٌ ، والنُّقْلةُ والزادُ عبادةٌ .

فمَنْ ركبَ راحلةَ العبوديَّةِ ، وضمَّرَها بمِضْمارِ العبادةِ . . تسبحُ بهِ إذا ركبَها البرَّ والبحرَ ، ما يفزِعُهُ موجٌ ولا يجزِعُهُ قَفْرٌ[2] ، حتىٰ تجوزَ بهِ إلىٰ منازلِهِ ، وتوردَهُ علىٰ مناهلِهِ ، مصوناً في مهالكِهِ .

وقد كانَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ مِنَ الموقنينَ ، فحلَّ بالنارِ وهي عليهِ بردٌ وسلامٌ ، وكذلكَ كانَ خاتِمُ النبيِّينَ ، يداخلُهُ السُّمُّ وما لهُ إيلامٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ : « لم يسبقْكم أبو بكرٍ بكثرةِ الصلاةِ والصيامِ ، ولـٰكنْ سبقَكم بشيءٍ رَكَنَ في قلبِهِ »[3] ؛ أي : باليقينِ سبقَ إلىٰ ربِّهِ عزَّ وجلَّ .

---

(1) الحَفا ـ بتخفيف الفاء والقصر ـ : أن يُكثرَ على الرجل المشيَ حتىٰ ترقَّ قدمه فتؤلمه ، والحَفاءُ ـ بتخفيف الفاء والمد ـ : أن يمشي الرجل ولا شيء في رِجْله من خفٍّ أو نعلٍ ، والحَسَر : الكشف ؛ كأن يكشف عن صدره أو ذراعه ، وأيضاً : التلهُّف والتأسُّف علىٰ فوات أمرٍ .

(2) القَفْر : المفازةُ التي لا ماء ولا نبات فيها ، والخلاءُ ، والدارُ التي خلت عن أهلها .

(3) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٢٧) من كلام عبد الله بن بكر المزني ، وروىٰ أيضاً (١٢٨) عن الحسن البصري أنه قال : (إنما غلب عمرُ الناسَ بالزهد واليقين) ، وركن : ثبت واستقرَّ ، ولفظ الرواية : (وَقَرَ) .

[علاماتُ النُّقْلةِ]

وعلاماتُ النُّقْلةِ أربعةٌ : استيفازُ القلبِ[1] ، ثم تركُ العِمارةِ ، ثم تفريغُ المكانِ[2] ، ثم بيعُهُ بما يصحبُهُ[3] .

[أنواعُ التجرُّدِ]

وأمَّا التجرُّدُ فيتمُّ بأربعةٍ : تجرُّدِهِ بقلبِهِ للهِ تعالىٰ شكراً ، وتجرُّدِهِ للهِ تباركَ وتعالىٰ بلسانِهِ حمداً ، وتجرُّدِهِ عن مُلْكِ الدنيا للهِ تعالىٰ يَداً ، وتجرُّدِهِ عن عملِ الدنيا للهِ تعالىٰ بَدَناً .

[أنواعُ الزَّادِ]

والزَّادُ أربعةُ أنواعٍ : طعامٌ ، وشرابٌ ، وإدامٌ ، وملحٌ ؛ فالشَّرابُ وحدَهُ ، والطعامُ تمامُهُ بالإدامِ ، وطعمُهُ بالملحِ .

ومثالُهُ مِنَ التقوىٰ : الإيمانُ ، والعباداتُ المفروضةُ ، وسننُها ، وآدابُها ؛ فالإيمانُ وحدَهُ ، وكمالُ المفروضِ بالمسنونِ ، وحُسْنُهُ بالأَدَبِ .

[علاماتُ اليقينِ]

واليقينُ في أربعةٍ[4] : التوكُّلِ ، والتفويضِ ، والصبرِ ، والرضا .

---

(١) الاستيفاز : الجلوس من غير اطمئنان كأنه يريد أن يقوم ، والمراد : التيقُّظ والتفطُّن لكلِّ منفعة ، واجتناب كلِّ مضرَّة .

(٢) يعني : التجافي عن المضجع . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) أي : بيعُ ما له بالثمن الذي يصحبه وينفعه في الآخرة . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) ، وفي هامش (ب) : (مثل أن يشتري بما معه ما لا بدَّ له منه في السفر ؛ يعني به : طاعةَ ربِّه) .

(٤) قال الجنيد رحمه الله : مَنْ لم يصل علمَه باليقين ، ويقينَه بالخوف ، وخوفَه بالعمل ، =

فالتوكُّلُ : اعتمادُ العبدِ علىٰ فضْلِ اللهِ وقدرتِهِ فيما أرادَ ، فلا يجازيهِ الكريمُ القديرُ إلا بالظَّفَرِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران : ١٧٣ـ ١٧٤] .

والتفويضُ : نزولُ العبدِ علىٰ حُكْمِ القسَّامِ الحكيمِ كيفَما كانَ غيرَ مبالٍ بالمكروهِ منهُ ، فيجازيهِ اللهُ تعالىٰ بالوقايةِ دونَهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر : ٤٤ـ ٤٥] .

والصبرُ : آريَّةُ التوكُّلِ(١) ، والرضا : جلاءُ التفويضِ ؛ فمَنْ ربطَ التوكُّلَ بآريَّةِ الصبرِ . . لم يزعزعْهُ ريبُ الدهورِ ، وثبتَ عندَ المكارهِ وهو منصورٌ ، ومَنْ جلا مرآةَ التفويضِ بالرضا لم يغبْ عن قلبِهِ غيبُ الأمورِ ، فاتَّقَىٰ عنهُ كأنَّهُ عاينَهُ وهو عنهُ مستورٌ .

[علاماتُ المسجونينَ]

وعلاماتُ المسجونينَ أربعةٌ : رَثاثةٌ في الزِّيِّ(٢) ، وغَثاثةٌ في

= وعملَه بالورع ، وورعَه بالإخلاص ، وإخلاصَه بالمشاهدة . . فهو من الهالكين .
وقال الثوري : اليقين : المشاهدة . انتهىٰ من هامش (ب) .

(١) الآريَّةُ ـ والمشهور : الآريُّ ـ : الآخيَّةُ ؛ وهي مَحبِس الدابة يكون في الأرض ، وذلك بعروة تربط إلىٰ وَتِدٍ مدقوق ، وتشدُّ فيها الدابة ، وفي « النهاية في غريب الحديث والأثر » (١/ ٤٢) : (أنه صلى الله عليه وسلم دعا لامرأة تَفْرَكُ زوجها فقال : « اللهمَّ ؛ أرِّ بينهما » ؛ أي : ألِّفْ وأثبت الودَّ بينهما ؛ من قولهم : الدابةُ تأري الدابة ؛ إذا انضمت إليها وأَلِفَت معها معلفاً واحداً) ، ثم قال : (أي : احبس كلَّ واحد منهما علىٰ صاحبه ؛ حتىٰ لا ينصرف قلبه إلىٰ غيره ؛ من قولهم : تأرَّيت في المكان ؛ إذا احتبستُ فيه ، وبه سميت الآخيَّة آرياً ؛ لأنها تمنع الدوابَّ عن الانفلات) .

(٢) الزِّيُّ : الهيئة ، وأصله : زِوْيٌ .

الأكلِ[1] ، وطاعةٌ للآمرِ بما هو سببُ الخروجِ ، وبغضُ السجنِ بالقلبِ .

ورثاثةُ الزِّيِّ وغثاثةُ الأكلِ متردِّدتانِ بينَ شهوةٍ وحكمةٍ ، والطاعةُ والبغضُ بينَ حكمةٍ وذِلَّةٍ .

فالذي يَرُثُّ زِيُّهُ ويَغِثُّ أكلُهُ بشهوتِهِ : البخيلُ المحرومُ خيرَ عاجلتِهِ وآجلتِهِ ، بسوءِ حالِهِ بينَ أقرانِهِ ، المُهانُ في ذِلَّةٍ بينَ إخوانِهِ ، المسكينُ بفَقْرٍ ظَهَرَ بُخلاً ، وغمٍّ بَطَنَ حُبّاً ، يخافُ الخروجَ عن سجنِهِ وقد عرفَهُ سجناً خوفاً علىٰ مفارقةِ مالِهِ ، وهو مفارقٌ عن فوائدِهِ شُحّاً في حالِهِ ، فيقيمُ ذليلاً مسكيناً ، ويخرجُ شقيّاً مَهيناً ، وهو يتحسَّرُ علىٰ ما جمعَ بعمرِهِ وحفظَ بقلبِهِ ؛ فقد تركَهُ لغيرِهِ ، ولَمَا حَظِيَ بخيرِهِ[2] .

أمَا يعلمُ هـٰذا المحبوسُ إنْ رَضِيَ بالسجنِ مقاماً ، ولم يتمنَّ سواهُ إكراماً . . أنَّهُ خارجٌ عنهُ لآخَرينَ يَدْخلونَهُ لا محالةَ[3] ، فلا يَكنِزُ ما أحبَّ مِنَ المالِ فيهِ علىٰ جهالةٍ ، بلِ احتالَ لتقديمِهِ إلىٰ ما إليهِ راحلٌ ؛ ليصلَ إلىٰ محبوبِهِ يومَ إليهِ واصلٌ ، أم جاهلٌ لا يَعِي شيئاً أم متحامقٌ متغافلٌ ؟!

أيُّها المتألِّمُ بزوالِ مُلْكِكَ حتىٰ حفظتَهُ عن زِيِّكَ وأكلِكَ ؛ لَتزولَنَّ عنهُ يومَ هُلْكِكَ ، وإنَّ ألمَ الزوالِ جُمْلةً كَرْهاً ، لَأَشدُّ مِنْ ألمِ الزوالِ شيئاً بعدَ شيءٍ طوعاً ، أم سَفِهْتَ فلا تهتدي إلىٰ حكمةٍ ، وشَقِيتَ فسُدَّ دونَكَ بابُ الرحمةِ ؟!

وأمَّا الذي رثَّ وغثَّ لحكمتِهِ : فهوَ الذي سخا بمالِهِ لراحتِهِ عن دارِ

---

(١) غثاثةُ اللحم : هزالُهُ ، والغثُّ : الرديء ، أراد : أن طعامه من غير لذاذة .

(٢) ما : نافية . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) يعني : أنه سيموت فيخرج من الدنيا رغماً عنه ، وسيأتي من بعده قومٌ يولدون ويدخلون فيها امتحاناً .

محنتِهِ[١] ، وقدَّمَهُ إلىٰ مَمْلكتِهِ ، ولم يرضَ أنْ يُرىٰ علىٰ زِيِّ الملوكِ وطعامِهم ، وهو في دارِ المحبوسينَ ومقامِهم ، فيَظُنَّ ظانٌّ أنَّهُ رَضِيَ بهِ وَطَناً ، واستطابَهُ لنفسِهِ مَسْكناً ، فيغتابَهُ عالمٌ عسىٰ[٢] ، أو يَضِلَّ بهِ جاهلٌ مِنَ الورىٰ ، أو يُحْشَرَ في زمرةِ مَنْ يقالُ لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠][٣] .

فأحبَّتْهُ القلوبُ للحالِ إذِ استهانَ بمراتبِهم فلم ينازِعْهم عليها ، وقرَّتْ بهِ العيونُ إذْ لم يشحَّ بمواهبِهِ فآثَرَهم بها ، فهـٰذا يقيمُ حميداً ، ويخرجُ سعيداً[٤] .

وأمَّا الذي أبغضَ وأطاعَ للذِّلَّةِ : فالخسيسُ المحرومُ نورَ الحكمةِ ، أطاعَ السجَّانَ تحرِّياً لصلاحِ عاجلٍ كَرْهاً[٥] ، وملأَ قلبَهُ مِنْ أوامرِهِ بُغْضاً ، واستأنسَ بمَنْ في السجنِ مِنْ أجناسِهِ ، وشكا فيما عليهِ مِنَ الأحوالِ إلىٰ جُلَّاسِهِ ، وكرهَ الخروجَ مِنَ السجنِ حُبّاً لصُحْبتِهِ ، وبُغْضاً لربِّهِ .

فهـٰذا الشقيُّ الذي ركبَ ذُروةَ الشَّقاوةِ ، والغبيُّ الذي صُوِّرَ مِنْ طينةِ الغَباوةِ ؛ فقد خالفَ هوىٰ نفسِهِ بالطاعةِ لغيرِهِ ، وحُرِمَ بسوءِ نيَّتِهِ كلَّ خيرِهِ ،

---

(١) للخلاص من الدنيا . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : عسىٰ يغتابه عالمٌ . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) .

(٣) روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/٩٣٦) عن يحيى بن سعيد : أن عمر بن الخطاب أدرك جابر بن عبد الله ومعه حمالُ لحمٍ ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قَرِمنا إلى اللحم ، فاشتريت بدرهم لحماً ، فقال عمر : أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره ، أو ابن عمِّهِ ؟! أين تذهب عنكم هـٰذه الآية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ؟!

(٤) روى ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال : يا رسول الله ؛ دُلَّني علىٰ عمل إذا أنا عملته أحبَّني الله وأحبَّني الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ازهدْ في الدنيا يحبَّك الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبُّوكَ » .

(٥) أراد بالسجَّان هنا : الله سبحانه وتعالىٰ .

واستأنسَ بفِرْقةِ أشكالِهِ ، وشكا إليهم وهم شامتونَ بحالِهِ ، وأحبَّ أصحابَ السجنِ ولا بدَّ لهُ مِنَ الرحيلِ عنهم ، وأبغضَ الربَّ معَ علمِهِ بالوصولِ إليهِ .

ألم يدرِ الشقيُّ إذا التزمَ الطاعةَ أنَّها على الطَّوْعِ أحلىٰ ، ولربِّ السجنِ أولىٰ ، وعلىٰ سبيلِ يثمرُ لهُ في العاقبةِ أجدىٰ ، وأنَّ الاستئناسَ بالمصابِ غيرُ صوابٍ ، والشكوىٰ إلى الشامتينَ لَشَرُّ عذابٍ ؟! بل لو جازَ الاستئناسُ حالَ المصيبةِ فبالتسليمِ ، وإنْ حلَّتِ الشكوىٰ حالَ التثقيفِ فإلىٰ صاحبِ الثِّقافِ الحكيمِ (١) .

والخروجُ وأنتَ متوطِّنٌ تُجذَبُ جَذْباً . . أضرُّ بكَ مِنْ خروجِكَ وأنتَ متنقِّلٌ تخطو خَطْواً ؛ ألم تقرأْ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات : ١] في توفِّي الكافرينَ ، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات : ٢] في توفِّي المؤمنينَ ؟!

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

ثمَّ العَرْضُ على اللهِ تعالىٰ وأنتَ راغبٌ خيرٌ مِنَ العَرْضِ وأنتَ كارهٌ ؛ فهٰذا الذي شَرَكَ العُبَّادَ في محنةِ طاعةِ الدنيا ، وشَرَكَ الكفَّارَ في مِحْنَةِ شدَّةِ اللَّظَىٰ (٢) .

وأمَّا الذي أطاعَ وأبغضَ للحكمةِ : فالسعيدُ الموفَّقُ لنورِ السعادةِ ، أطاعَ

---

(١) التثقيف : تقويم المعوجِّ ، والثِّقاف : حديدة تكون مع القوَّاس والرمَّاح يقوِّمان بها الشيء المعوجَّ .

(٢) اللَّظىٰ ـ بوزان الفتىٰ ـ : النار نفسها ، أو لهبها ، واسم من أسماء جهنم ، وكذلك يقال : (لظىٰ) بغير (أل) ، وهي معرفة لا تنصرف .

ربَّ السجنِ فراراً عن مِحْنَةِ السجنِ طوعاً ، فملأَ قلبَهُ على السجنِ ممَّا وقفَ علىٰ شدائدِهِ بُغْضاً ، فاعتزلَ جُلَّاسَهُ مستأنساً بمالكِ الأمرِ ، وتجمَّلَ لديهم فيما أُصيبَ بحُلِيِّ الصبرِ ، وتمنَّىٰ فراقَ السجنِ لبُغْضِهِ إيَّاهُ ، وأحبَّ لقاءَ الربِّ لعلمِهِ برضاهُ .

فهـٰذا السعيدُ الذي مُزِجَ بالسعادةِ ، وحُلِّيَ بالعبادةِ ، صَفَتْ في بغضِهِ الدنيا للهِ سريرتُهُ ، وحطَّتْ عنهُ أعباءَ الطاعةِ للهِ محبَّتُهُ ، قدِ استوفزَ في مقامِهِ بقلبِهِ ؛ انتظاراً لرُسُلِ ربِّهِ ، فإذا الرُّسُلُ ينادونَهُ بالبِشارةِ ، قبلَ الحلولِ والزِّيارةِ ، وهو متسارعٌ مِنَ السجنِ الواسعِ إلى الدِّهليزِ الضيِّقِ مستبشراً بما نالَ مِنَ الرحمةِ(١) ، فمكانُ الراحةِ وإنْ ضاقَ خيرٌ مِنْ واسعِ مكانِ الشدَّةِ ، لا بلِ البيتُ الخصيبُ المضيءُ نهاراً أوسعُ مِنَ التيهِ القَفْرِ المظلمِ سَراراً(٢) ، يستبطئُ إذْنَ الخروجِ إلىٰ فِناءِ دارِ المَلِكِ مشتاقاً إلى اللقاءِ(٣) ، مشغولاً بفَرْطِ محبَّةِ المَلِكِ عنِ المُلْكِ والجزاءِ(٤) .

---

(١) كنَّىٰ بالدهليز الضيق عن القبر ، وهـٰذا فيما يُشاهَد ، وإلا فهو في حقِّ أمثاله بعد دخوله روضة من رياض الجنة ، أو سمَّاه دهليزاً باعتبار منزله في الجنة يوم الجزاء .

(٢) السَّرار : آخر ليلة من الشهر ؛ سميت بذلك لأن الهلال يَستسِرُّ فيها ويخفىٰ فلا يظهر .

(٣) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٥) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٢٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما ، وفيه وصف نزع الروح وما يليه من عذاب أو نعيم القبر ، وفيه : « ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه ، حسنُ الثياب ، طيِّبُ الريح ، فيقول : أبشرْ بالذي يَسُرُّك ، هـٰذا يومُكَ الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملُكَ الصالح ، فيقول : ربِّ ؛ أقمِ الساعةَ حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي » .

(٤) سيفصِّلُ القول في أحوال القبر فيما سيأتي .

[مقاماتُ الوجودِ الإمكانيِّ للمؤمنِ]

فصارَتِ المقاماتُ أربعاً بعدَ الوجودِ الظاهرِ : الدنيا ؛ وهيَ السِّجْنُ ، والقبرَ ؛ وهوَ الدِّهليزُ ، والمحشَرَ ؛ وهو فِناءُ المَمْلكةِ ، والجنَّةَ ؛ وهيَ المَمْلكةُ .

هـٰذهِ للذي عرفَ الدنيا سِجْناً فأبغضَها ، وكذَّبَ العينَ في أنَّها مَمْلكةٌ فأعرضَ عنها .

فأمَّا مَنْ عرفَها مَمْلكةً فأحبَّها وكذَّبَ عقلَهُ بالكفرِ . فسيعزلُهُ اللهُ تعالىٰ عنها إلىٰ أضيقِ سجنٍ منها وهوَ القبرُ ، وهو راضٍ بذلكَ الوَهْدِ مَهْداً[١] ، بعدَما كانَ لا يكفيهِ الدنيا طولاً وعرضاً ؛ خوفاً علىٰ جزاءِ فعلِهِ[٢] ؛ إذْ عَرَفَ مِنْ عقدِهِ ، وذاقَ النَّمُوذجَ في لَحْدِهِ ، فبينَما هو كذلكَ إذْ نُفِخَ في الصُّورِ ، وجاءَ أوانُ النشورِ ؛ فيخرجُ مِنَ الضِّيقِ إلى السَّعَةِ وهو يقولُ : يا ويلَنا ؛ مَنْ بعثَنا مِنْ مرقدِنا ؟! هـٰذا لِمَا قَدَّمَتْ يداهُ ، وأظهرَهُ اللهُ تعالىٰ عليهِ وأبداهُ ، فيستوي علىٰ مَتْنِ جهنَّمَ للعَرْضِ وعليهِ سيماهُ[٣] ، فيَخسِفُ بهِ اللهُ تعالىٰ جهنَّمَ خَسْفاً إلىٰ سلاسلَ وحميمٍ ، ودَرَكٍ بعدَ دَرَكٍ في عذابٍ أليمٍ .

---

(١) وفي حديث سيدنا البراء المتقدم بعضُه : « ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشرْ بالذي يسوءُك ، هـٰذا يومُك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشرِّ ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربِّ ؛ لا تُقِمِ الساعة » ، والوَهْد : المنخفض من الأرض .

(٢) و(علىٰ) بمعنىٰ (مِنْ) ؛ كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [المطففين : ٢] .

(٣) أي : سيما الكفر ؛ وهو المعصية . انتهىٰ من هامش (ب) .

[مقاماتُ الوجودِ الإمكانيِّ للكافرِ]

فكانَتْ مقاماتُهُ أربعاً : الدنيا ؛ وهيَ المَمْلكةُ ، والقبرَ ؛ وهوَ السِّجْنُ ، فيُنزعُ عنِ المَمْلكةِ نَزْعاً ، ويُجذبُ إلى السِّجْنِ جَذْباً ، ثم يُخرجُ للعَرْضِ إلىٰ فناءِ المَلِكِ ، وهو يتمنَّى السِّجْنَ خوفاً مِنَ الهُلْكِ ، ثم جهنَّمَ واللَّظَىٰ ، لا يموتُ فيها ولا يحيىٰ .

فأرى اللهُ تعالىٰ عبادَهُ بلطيفِ حكمتِهِ تحقُّقَ الدنيا سِجْناً بعيونِهم بعدَ الوفاةِ ، كما خلقَها سجناً تراها القلوبُ حالَ الحياةِ ؛ كي لا يبقىٰ لأحدٍ على اللهِ تعالىٰ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ والعِيانِ ، ويزدادَ الذينَ آمنوا إيقاناً علىٰ إيقانٍ ، واللهُ المستعانُ ، والعياذُ باللهِ مِنَ الخِذْلانِ .

[أنواعُ المسجونينَ]

والمسجونونَ أربعةٌ : مُصِرٌّ علىٰ هواهُ فعلاً وعَقْداً ، ومُصِرٌّ عَقْداً لا فعلاً ، وتاركٌ لهواهُ ظاهراً وباطناً ، وتاركٌ باطناً لا ظاهراً[1] .

فأمَّا المصرُّ عَقْداً وفعلاً : فلا يَزْدادُ إلا تضييقاً ، ولا ينالُ إلا تشديداً ، يُزادُ أبداً في أغلالِهِ ، ويُرَدُّ إلىٰ أسوأِ حالِهِ ، مِنْ فسحةِ السجنِ إلى البئرِ ، ومِنَ البئرِ إنْ أُخرجَ إلى المِصْرِ[2] ؛ فبجلَّادينَ وهو أظلمُ عليهِ وأضيقُ[3] ؛ خوفاً مِنَ

---

(١) فالأول : الكافر المجاهر بكفره ، والثاني : المنافق ، والثالث : المؤمن الطائع ، والرابع : المؤمن العاصي .

(٢) كنَّىٰ بالبئر عن القبر ، وبالمِصْرِ عن جهنم التي هو صائرٌ إليها وبئس المصير .

(٣) أي : فسُلِّمَ إلىٰ أيدي الجلادين . انتهىٰ من هامش (ج) .

العذابِ الذي لا ينجو بدونِ حياتِهِ[1] . . مِنَ البئرِ العميقِ وزاويةِ المَضِيقِ في ظلماتِهِ .

فعلىٰ ذلكَ : المُصِرُّ علىٰ هواهُ عَقْداً وفعلاً في الدنيا ؛ لا يزدادُ بما يطلبُهُ مُلْكاً وجلالةً ، إلا ضيقاً وسُفالةً[2] ؛ باضطرارِهِ إلىٰ منازعةِ الكبارِ مِنْ أشكالِهِ ، وافتقارِهِ في ردِّ منازعاتِهم إلىٰ مَنْ هو دونَهُ في حالِهِ ، وكانَ مِنْ قبلُ إنْ نازعَ على النَّدْرةِ نازعَ ضعيفاً ، وإنِ احتاجَ قصدَ شريفاً ، غيرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أمضىٰ حُكْمَهُ في زيادةِ تضييقِهِ وتشديدِهِ ، علىٰ مثالِ بناءِ السجنِ وتشييدِهِ ، تعرفُها القلوبُ وتنكرُها العيونُ حتىٰ يُرَدَّ إلى الحبسِ بعدَ الموتِ عِياناً ، ثم يخرجَ إلى المحشرِ بعذابٍ لا ينجو عنهُ بفواتِهِ إيقاناً .

وأمَّا المُصِرُّ عَقْداً لا فعلاً : فمخادِعٌ بظاهرِهِ ربَّهُ ، وما خادعَ إلا نفسَهُ ، وسيخادعُهُ اللهُ تعالىٰ في سجنِهِ ، وسيستدرجُهُ بمَكْرِهِ[3] ؛ فيبعثُهُ علىٰ طلبِ الدنيا وما لديهِ مِنْ إصابةٍ ، أو يملأُ كفَّهُ مِنَ النعيمِ وما لنفسِهِ إلى التمتُّعِ بهِ مِنْ إجابةٍ ، أو يُرَغِّبُ نفسَهُ في التناولِ وشهواتُهُ فاترةٌ لا يجدُ لهُ لذَّةً ، وطبائعُهُ فاسدةٌ لا تعطيهِ إلا عِلَّةً ، أو يُقوِّي شهواتِهِ فيقضمُ النِّعمَ قَضْماً ، ويُسلِّمُها إلى الطبائعِ فتهضمُها هَضْماً ، فيورثُ التناولُ فُضُولاً في القُوىٰ ، فيبعثُهُ علىٰ

---

(١) أي : بزوال حياته ، وذا لا يتصوَّر . انتهىٰ من هامش (ب) ، وفي هامش (ج) : (أي : بغير حياته) .

(٢) السفالة بضم السين : ضدُّ العِلاوة ، وبفتح السين : النَّذالة والخساسة .

(٣) قال العليم الخبير : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] ، وقال سبحانه : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] .

منازعاتِ الورىٰ ؛ إمَّا بلسانِهِ أو بيدِهِ ، أو بمالِهِ وعَدَدِهِ ، فيفقدُ راحةَ جسمِهِ وأُنْسَ صدرِهِ ، إلىٰ أنْ يَحُلَّ بقبرِهِ .

فلا تزالُ المصائبُ تصيبُهُ في لباسِ المواهبِ ، والأُسودُ تعانقُهُ في جسومِ الكواعبِ[1] ، إلىٰ أنْ يأتيَهُ اليقينُ ، فيساوي المسلمَ في مرأى العيونِ[2] .

ثم يخرجُ إلى المَحْشَرِ في معشرِ المسلمينَ ، يظنُّ أنَّهُ خَدَعَ - بما أظهرَ - ربَّ العالمينَ ، غافلاً عن خِداعِ المولىٰ ، كما غَفَلَ عنهُ في الأولىٰ ، يمشي بنورِهم إلىٰ أنْ يعاينَ النعيمَ ، معتقِداً جوازَ الجحيمِ ؛ إذِ اللهُ تعالىٰ ضربَ بينَهم بسورٍ لهُ بابٌ ؛ باطنُهُ فيهِ الرحمةُ والثوابُ ، وظاهرُهُ مِنْ قِبَلِهِ للمخادعِ العذابُ ، يناديهم : ألم أكنْ معَكم ؟! قالوا : بلىٰ ، ولـٰكنَّكَ خادعْتَ اللهَ تعالىٰ واغتررْتَ بإمهالِهِ في الدنيا ، فخادعَكَ اللهُ حتىٰ مشيتَ بنورِنا إلىٰ مأواكَ مِنَ النارِ ، وإنَّما هي مولاكَ اليومَ معَ الكفَّارِ[3] ، فكانَ مأوى المخادعينَ ، مأوى الذينَ كفروا مُعْلِنينَ[4] ، وإنَّما ازدادوا حسرةً بما عاينوا مِنَ

---

(١) قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] .

(٢) قال جلَّ من قائل عليم : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [قٓ : ٢٢] .

(٣) قال سبحانه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٥] ، ومعنىٰ (هي مولاكم) : هي أولىٰ بكم بما أسلفتم من الذنوب .

(٤) روىٰ مسلم (١٩١/٣١٦) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وقد سُئِلَ عن الورود ، وفيه : (ويُعطىٰ كلُّ إنسانٍ منهم ـ منافقٍ أو مؤمنٍ ـ نوراً ، ثم يتبعونه وعلىٰ جسر جهنَّمَ كلاليبُ وحَسَكٌ تأخذ من شاء الله ، ثم يطفأ نور المنافقين ، ثم ينجو المؤمنون) .
وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ =

النعمةِ ، وحَيْرةً علىٰ ما أُخذوا بغتةً .

وأمَّا التاركُ لهواهُ ظاهراً وباطناً : فلا يزالُ ينالُ مِنْ ربِّ السجنِ ترفيهاً ، ووَعْداً حَسَناً وتخفيفاً ، ويُحَلُّ عنهُ كلَّ يومٍ نوعُ قيدٍ ، ويخرجُ كلَّ يومٍ إلىٰ خيرِ سِجْنٍ ، ويصلُ إليهِ مِنْ لَدُنْهُ ضروبُ مواعيدَ صادقةٍ[1] ، ويُدَرُّ عليهِ صنوفُ عوائدَ كلُّها بالفوزِ ناطقةٌ ، حتىٰ يصيرَ معَهُ بقلبِهِ ، وينسى احتباسَهُ في السجنِ بجسمِهِ ، إلىٰ أنْ يأتيَهُ البشيرُ بالإطلاقِ ، فيقومَ إليهِ مجيباً بلسانِهِ متسارعاً بأركانِهِ ، سابقاً في العَرْضِ كلَّ إخوانِهِ ، فلا يقفُ حتىٰ يعتقَ ؛ فقد ظهرَ حالُهُ قبلَ عَرْضِهِ ، وخرجَ عن عُهْدةِ نافلتِهِ وفرضِهِ .

وأمَّا التاركُ لهواهُ باطناً لا ظاهراً : فلا يخفِّفُ تركُهُ عَقْداً مكارهَ الحَبْسِ ، ولا ينجو قلبُهُ في محبَّتِهِ عن مساعدةِ النفسِ ، فهـٰذا عبدٌ خادعَهُ نفسُهُ فأطاعَهُ علىٰ جَحْدِهِ ، وما خادعَ إلا ربَّهُ فأمالَهُ في فعلِهِ عن سَنَنِ عَقْدِهِ ، فصارَ يعصي بينَ ندمٍ عنهُ بقلبِهِ، وخوفٍ عليهِ مِنْ ربِّهِ ، فينمحي العصيانُ بينَ طاعةٍ وطاعةٍ[2] ، وتتلاشى الواحدةُ بينَ عشرةٍ وعشرةٍ[3] .

فلا يزالُ عليهِ حتىٰ يأتيَهُ الرسولُ بالخروجِ ناظراً بعينِ الرحمةِ ، ناطقاً بلسانِ

= بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٣ـ١٥] .

(١) قال سبحانه : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا * لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان : ١٥ـ١٦] .

(٢) يعني : بين ندم وخوف . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) إذ السيئة بمثلها ، والحسنة بعشر أمثالها ؛ كرماً من الله تعالىٰ وفضلاً .

الهيبةِ ، وهو علىٰ خوفٍ ورجاءٍ ، فيجيبُ بـ (نعمْ) ولا يتسارعُ إلى الإجابةِ قلبُهُ ، ويتكاسلُ عنها جسمُهُ ، إلىٰ أنْ يبلغَ شفا القبرِ فيبصرُهُ مظلماً ضيِّقاً بظاهرِهِ ، ويجدُهُ واسعاً نيِّراً بباطنِهِ[1] ، فيمكثُ في قبرِهِ ، غافلاً عن حالِ غيرِهِ ، إلىٰ أنْ يُنادىٰ للعَرْضِ على المولىٰ ، فيُقامُ للحسابِ معَ أقرانِ فعلِهِ في الدنيا .

ونُصِبَ الميزانُ ، وأُزلفَتِ الجِنانُ ، وسُعِّرَتِ النِّيرانُ ، وكُوِّرَتِ الشمسُ وانكدرَتِ النجومُ وطُويَتِ السماواتُ ، وسُيِّرَتِ الجبالُ وبُسِطَ الصَّعيدُ وظهرَتِ الآياتُ ، وصُفَّتِ الملائكةُ صَفَّيْنِ للعزيزِ الوهَّابِ ؛ صفٌّ للعقابِ وصفٌّ للثوابِ ، وجاءَتِ الرُّسُلُ شهوداً ، وقامَ العبادُ وُفُوداً ، وأحاطَ دُخَانُ جهنَّمَ بالخَلْقِ مُحْرقاً ، وأضحى الصعيدُ بنورِ الربِّ مشرقاً[2] ، والعبادُ عُراةٌ حُفاةٌ بُهْمٌ[3] ، مذعنونَ مُهْطِعونَ سُكوتٌ ، لا يشعرُ أحدٌ بقرينِهِ هيبةً[4] ، ولا يرفعُ بصرَهُ إلىٰ شيءٍ خيبةً ، وتطايرَتِ الكُتُبُ إلى الخَلْقِ ، ودُعِيَ كلُّ أُناسٍ بإمامِهم إلى الحقِّ .

---

(١) يعني : يراه بعينه ضيقاً ؛ جزاءً لاتباعه هواه ظاهراً ، ويراه بقلبه واسعاً ؛ جزاءً لتركه هواه باطناً ، ولم يرد ظاهر القبر وباطنه .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩] .

(٣) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩٥) من حديث سيدنا عبد الله بن أنيس رضي الله عنه في صفة الحشر ، وفيه : « يحشر الناس يوم القيامة ـ أو قال : العبادُ ـ عُراةً غُرْلاً بُهْماً » ، قال : قلنا : وما بُهْماً ؟ قال : « ليس معهم شيءٌ . . . » الحديث .

(٤) روى البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « تُحشرون حفاةً عراةً غُرْلاً » ، قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ؛ الرجال والنساء ينظر بعضهم إلىٰ بعض ؟! فقال : « الأمرُ أشدُّ من أن يُهمَّهم ذاكِ » .

والمسكينُ ذاكرٌ ما أظهرَهُ ، ناسٍ ما أضمرَهُ ، يذوبُ حياءً عمَّا في الكتابِ ، ويبكي خَوْفاً مِنْ سوءِ الحسابِ ، يرفعُ يمينَهُ ليأخذَ الكتابَ رفعَ غيرِ راغبٍ ، فإذا مَلَكُ الرحمةِ بيمينِهِ إلىٰ كتابِهِ يقولُ[1] : لا تخفْ فأنا الكاتبُ ، والرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكتفِهِ يقولُ : لا تستحْيِ فأنا الشاهدُ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : أبشرْ فأنا المحاسبُ .

فيخادعُ اللهُ تعالىٰ نفسَهُ جزاءً علىٰ ما خادعَ عبدَهُ[2] ، فيسلمُهُ إلى الجِنانِ مِنْ بينِ أهلِ النيرانِ ، جزاءً للظاهرِ بالظاهرِ ، والباطنِ بالباطنِ ، واللهُ تعالىٰ خيرُ المجازينَ ، وأكرمُ المحسنينَ ، وإنْ غلبَتْ سيئتُهُ حسنتَهُ طهَّرَهُ اللهُ تعالىٰ بماءِ رحمةٍ أو نارٍ ، ثم ألحقَهُ بالأبرارِ .



(١) أي : يشير بيمينه إلىٰ كتابه ، وكذا في الموطن التالي .

(٢) يعني : جزاءً علىٰ ما خادعت النفسُ العبدَ ، وسبق مراراً استعمال النفس مذكَّراً للإمام المصنف ، وبهـٰذا السياق تعلم : أن المؤمن العاصي يحشر غافلاً عن إيمانه ، ذاكراً لعصيانه ، فهو في غمٍّ ما اجتنىٰ بظاهره ، إلىٰ أن يُظهرَ اللهُ له نور باطنه ؛ جزاءً وفاقاً .

فصل
ذكر الدّنيا

كأَنْ لا شيءَ سوى الدنيا ؛ وهو قولُ الكافرينَ[١] ؛ زعموا أنَّ الدنيا مَرْتَعَةٌ وملهاةٌ[٢] ، ومَمْلكةٌ ومفخرةٌ ، فيرتعونَ أيَّامَ صباهم ، ويَلْهُونَ أيَّامَ شبابِهم ، ويملكونَ إذا بلغوا أَشُدَّهم[٣] ، ويفخرونَ بعدَ ذلكَ بأفعالِهم وآثارِهم[٤] .

---

(١) وأخصُّهم : الدهريَّةُ ؛ قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد : ٥] ، وهو لازمٌ لكلِّ من يقول بوجود العالم من غير موجِد مدبِّر مريد حكيم ، أو يقول : العالم قديم ، ولهـٰذا جُعل الإيمان باليوم الآخر ركناً من أركان الإيمان ، ومحالٌ في الحكمة أن تنتهي كلُّ هـٰذه التدبيرات المشاهدات ، الناطقة بغاية الإتقان ، المرتَّبة شاناً بعد شان . . إلىٰ عدمٍ مظلم وصمتٍ مقيت ، ومع هـٰذا فالإيمان بالآخرة يرجع إلىٰ خطاب الشرع من حيث الوجوب .

(٢) المرتعة : محلُّ الأكل والشرب رغداً دون حَجْر ، يقال : رَتَعَتِ الماشية رَتْعاً ورتوعاً ورِتاعاً ؛ إذا أكلت ما شاءت في خِصب وسَعَة ، ويُتوسَّع فيقال : الرتعُ في اللهو والتنعُّم ؛ ومنه قوله تعالىٰ حكاية عن إخوة سيدنا يوسف علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف : ١٢] .

(٣) بلوغ الأَشُدِّ : بالإدراك ، وقيل : أن يُؤنس منه الرشدُ مع كونه بالغاً ، قال العلامة المطرِّزي في « المغرب » (ش د د) : (وآخره : ثلاثٌ وثلاثون سنة) ، وقال العلامة الأزهري في « تهذيب اللغة » (١١/ ١٨٣) : (وأما قوله تعالىٰ في سورة « الأحقاف » : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الآية : ١٥] . . فهو أقصىٰ بلوغ الأشد) .

(٤) قال سبحانه : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ =

وليسَتِ الدنيا كذلكَ ، بل هي مَخْدَعَةٌ بزخارِفِها ، ثم مَتْعَبَةٌ في مطالِبِها[1] ، ثم مَعْرَكَةٌ في منازعةِ أهلِها علىٰ مواهبِها ، ثم مَهْلَكَةٌ عِياناً ، ولم تُنلِ المُنَىٰ منها إيقاناً ، وقد قدَّمْنا فيما مضىٰ عليهِ مِنَ البيانِ برهاناً .

هٰذا إنْ سمَّيناها مَمْلكةً وطلبْناها بولايةٍ طلبَ الأمراءِ والكبارِ .

[الدنيا مملوكةٌ وليسَتْ بمملكةٍ]

وإنْ سمَّيناها مَمْلوكةً وطلبناها بعَقْدٍ طلبَ الرعيَّةِ والتُّجَّارِ[2] : فهي عجوزٌ ، ذاتُ عُشَّاقٍ ، مَلُولةٌ ، فاجرةٌ .

أمَّا العجوزُ : فلأنَّها أمُّ جدَّاتِكَ وآبائِكَ ، وقد كانَتْ أسنَّتْ قبلَ أولٰئكَ ، وللعجوزِ أربعُ خصالٍ : غُرورٌ بالنِّقابِ[3] ، وفرارٌ عنِ الخلوةِ ، وسماجةٌ عندَ النظرِ ، وبشاعةٌ عندَ التمتُّعِ .

= ﴿ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد : ٢٠] .

(١) مَخْدَعة : اسم مكان من الخَدْع ، ومَتْعبة : اسم مكان من التَّعَب ، وكذا فيما سيأتي كلٌّ يُقدَّر له اشتقاقه .

(٢) فيصير وصف الدنيا واسمها مختلفاً باختلاف الاعتقاد والمعاملة فيها ؛ لتسمية صاحب الشرع : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » . انتهىٰ من هامش (ب) ، والحديث رواه مسلم (٢٩٥٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في هامش (ج ، هـ) : [من الكامل]

ليتَ النقابَ على النساء محرَّمٌ كي لا تغرَّ قبيحةٌ إنسانا

وقال الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٧٥) : (ذكَّرَني فوكِ حِمارَيْ أهلي : أصله : أن رجلاً خرج يطلب حمارينِ ضلَّا له ، فرأى امرأة منتقِبة ، فأعجبته حتىٰ نسيَ الحمارينِ ، فلم يزل يطلب إليها حتىٰ سَفَرت له ، فإذا هي فوهاءُ ، فحين رأىٰ أسنانها ذكرَ الحمارينِ ، فقال : ذكَّرني فوكِ حماري أهلي ، وأنشأ يقول) ، وذكر البيت .

وأمَّا ذاتُ عُشَّاقٍ : فلأنَّ الناسَ كلَّهم يحبُّونَها بغيرِ مِلْكٍ ، وهي لَمُلْتفتةٌ إليهم بغُنْجٍ ، **ولها خصالٌ أربعةٌ** : الوعدُ ، والخُلْفُ ، والتَّحَنُّنُ[1] ، والتلوُّنُ .

وأمَّا المَلُولةُ : فلأنَّها ما دامَتْ لقديمٍ ، ولا امتنعَتْ عن جديدٍ ، **ولها خصالٌ أربعةٌ** : الاستطرافُ ، وسرعةُ الإعراضِ ، وسوءُ الاختيارِ ، وتركُ الاختبارِ .

وأمَّا الفاجرةُ : فلأنَّها ما اجتمعَتْ للعادةِ كنوزاً إلا عندَ الغاصبينَ ، مِنَ الولاةِ الظالمينَ ، **ولها خصالٌ أربعةٌ** ، استلذاذُ الحرامِ ، واستبشاعُ الحلالِ ، والتمنُّعُ على الطالبِ ، وتتبُّعُ الهاربِ .

[صفةُ الحكيمِ في تعاملِهِ معَ الدنيا]

غيرَ أنَّكَ حكيمٌ تركْتَ خصالَها الذميمةَ إلىٰ خصالِكَ الحميدةِ ، فنظرْتَ في طبائعِكَ وفُصُولِكَ ووقفْتَ علىٰ نتائجِها الصحيحةِ[2] ، **فأحببْتَ أربعةً** : الراحةَ بالبلغمِ ، والفرحَ بالدمِ ، وعلوَّ الهمَّةِ بالصفراءِ ، وحُسْنَ التدبيرِ بالسوداءِ ، فرأيتَ بَذْرَ الراحةِ في فراغِ القلبِ ، وغِراسَ الفرحِ في طربِ النفسِ ، وعلوَّ الهمَّةِ في استحقارِ أدنى الغَرَضِ ، وحُسْنَ التدبيرِ في دَرَكِ العاقبةِ بالنظرِ .

ثم أصبتَ النظرَ في العواقبِ شاغلاً للقلبِ ، واستحقارَ أدنى الغَرَضِ مُذْهباً للطربِ ، وفراغَ القلبِ منافياً حُسْنَ التدبيرِ ، وطربَ النفسِ واضعاً علوَّ الهمَّةِ ، فتضادَّ أحكامُ عِلَلِكَ ، **فحَسِرْتَ دونَ مَنْهَلِكَ**[3] .

---

(١) في (ب ، ج) إشارةٌ إلىٰ أن كلمة (التحنُّن) بالحاء المهملة .

(٢) يعني : نتائج الطباع . مفادٌ من هامش (د ، هـ) ، وانظر ما تقدم (ص١٠٩ ، ١٣٥) في الحديث عن الطباع والفصول الأربعة .

(٣) حَسِرَ : أصابته الحسرة ؛ وهي التأسُّف ، والمنهل : المورد ؛ وهو عين الماء .

[الأميرُ والوزيرُ والأنيسُ والنديمُ]

ثم رجعْتَ إلىٰ حكمتِكَ ، واستخرجْتَ الدفائنَ بفكرتِكَ[1] ، فوجدْتَ الصفراءَ أميراً ، والسوداءَ وزيراً ، والدمَ أنيساً ، والبلغمَ نديماً ، فجمعتَ بينَها علىٰ هـٰذا الترتيبِ[2] .

[أحوالُ الأميرِ]

ثم نظرتَ إلىٰ إشاراتِها بقلبٍ مصيبٍ ، فرأيتَ الأميرَ عَلِيَّ الهمَّةِ غَيُوراً ، غالباً سائساً .

[مظاهرُ علوِّ الهمَّةِ]

ورأيتَ علوَّ الهمَّةِ في أربعٍ : التهاونِ بالبعضِ ، وترْكِ الرضا إلا بالكلِّ ، وطلبِ الكفاءةِ للمنازعةِ ، والعفْوِ عندَ المقدرةِ .

فتركْتَ أبعاضَ الدنيا مستحقِراً إيَّاها مائلاً إلىٰ كلِّها ، فإذا الكلُّ فائتٌ فيما تركتَ أبعاضاً علىٰ أهلِها[3] ، فحملَتْكَ الشهوةُ علىٰ منازعتِهم للإصفاءِ ، فإذا هم ليسوا بأَكْفَاءٍ ، فأكثرُ مَنْ حَظِيَ بها التُّجَّارُ والملوكُ وما بهم كفاءةُ الحكماءِ ، وقدِ امتزجَ بالشهوةِ الغضبُ فأدَّاكَ إلى المنازعةِ ، فلمَّا قَدَرْتَ عليهم حملَتْكَ الهمَّةُ العاليةُ على العَفْوِ عنهم ، فمِلْتَ إلى الحالةِ الأولىٰ ، إلا أنْ تنتقمَ منهم فتصيرَ تاركاً لعلوِّ الهمَّةِ بنتائجِها ، ضالّاً عن مناهجِها ، إلا أنْ تتركَ الدنيا

---

(١) أي : دفائنَ عقلك . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٢) انظر (ص١٣٥) .

(٣) يعني : علمت وأدركت استحالة أن تكون الدنيا بأسرها لك دون غيرك .

بأسرِها لعلوِّ همَّتِكَ علىٰ أهلِها ، مستغنياً عنهم بنفسِكَ متجمِّلاً بعلمِها[١] .

[مظاهرُ الغَيْرةِ]

ثم رأيتَ الغَيْرةَ في أربعٍ : سوءِ الظنِّ على الغيبِ ، والسخطِ عندَ العيبِ ، وكراهةِ بالشِّرْكةِ ، وإعراضٍ إلا بالقُدْمةِ[٢] .

فإذا أسأْتَ ظنَّكَ فيما غابَ عنكَ لم تصبرْ عليهِ فسيَّبْتَهُ وأينَ الذي لا يغيبُ ؟! وإذا سخطْتَ على العيبِ زهدْتَ إلا في الكاملِ وأينَ الذي هو غيرُ معيبٍ ؟! وإذا كرهْتَ الشِّرْكةَ ولم تنلِ الصَّفْوَ صبرْتَ عليهِ ، فإذا لم تُقْبِلْ إلا علىٰ ما كانَ لكَ مِنَ القديمِ ـ وما مِنْ حظٍّ مِنَ الدنيا إلا وقد تمتَّعَ بهِ مَنْ كانَ قبلَكَ ـ تبرَّأْتَ منهُ ، فلا تكادُ تظفرُ بحظٍّ إلا رأيتَ الخِيرَةَ في نَقْضِ الغَيرةِ[٣] ، وكفىٰ بالعاقلِ عاراً أنْ يكونَ صبوراً علىٰ حظوظٍ ينفيها الغَيُورُ[٤] .

[مظاهرُ الغلبةِ]

ثم رأيتَ الغلبةَ في أربعٍ : قدرةٍ حسيَّةٍ بلا عجزٍ[٥] ، وغَناءٍ بلا فقرٍ ، وهيبةٍ بلا تبذُّلٍ ، وإعطاءٍ بلا منعٍ .

فالهيبةُ تنفي نشوءَ المنازعةِ ، والقدرةُ تقطعُها ، والغَناءُ عنِ الناسِ يورثُ

---

(١) أي : بعلم النفس خاصيَّةَ الدنيا . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .
(٢) أي : بالصحبة القديمة . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ) ، وفي هامش (ب) : (أي : يعرض عن الكلِّ إلا مَنْ رافقه ووافقه مدةً مديدةً ، وصاحبه صحبةً قديمة) .
(٣) الخيرة ـ بسكون الياء وفتحها ـ : الأفضلية ، أما بفتح الياء فقط فالاختيار .
(٤) وهٰذه التي ينفيها الغيور : هي حسن الظنِّ على الغائب ، والرضا بالمعيب ، والقناعة بالشِّركة ، والإقبال على الجديد . مفادٌ من هامش (ب ، و) .
(٥) أي : لا يكون بعده عجز . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

الهيبةَ ، والإعطاءُ يشهدُ بالقدرةِ ، وإنَّكَ لا تقدرُ على الكلِّ إلا بجمعِ البعضِ إليكَ ، ولن تقدرَ عليهِ إلا بحيلةِ العاجزينَ قبلَ الإمكانِ ، ولن تستغنيَ إلا بالمالِ والخَدَمِ ، وفي تحصيلِها الافتقارُ إليهم قبلَ الاستغناءِ عن الأُمَمِ ، ولن تُهابَ إلا بانقباضٍ وحُجَّابٍ ، وتحتَ ذلكَ الانفرادُ ، ومَنِ انفردَ عنِ الكلِّ بذاتِهِ . . هابَهم قبلَ أنْ يهابوهُ باختيالاتِهِ ، ولا إعطاءَ إلا بعدَ الأخذِ[1] ، وإنَّهُ لَأَذَمُّ مِنَ المنعِ ، فلن تنصبَ حِبالةً لصيدٍ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأربعِ إلا صادَكَ بها ضدُّهُ[2] ، ولا نظرتَ إلىٰ مقصودٍ نِيلَ منها إلا وقد نُقِضَ بهِ قصدُهُ[3] .

[مظاهرُ السياسةِ]

ثم رأيتَ السياسةَ في أربعٍ : الحذرِ ، واليقظةِ ، والمعرفةِ ، والعدلِ .

فمَنْ لم يحذرْ غلبَتْهُ عيناهُ زمانَ الراحةِ ، ومَنْ نامَ غَفَلَ عنِ الرعيَّةِ ، فظلمَ ونقضَ بنيانَ السياسةِ ؛ فإنَّها عبارةٌ عنِ الرعايةِ ، بالتأديبِ والكفايةِ ، فمنعُ الكفايةِ يُبَغِّضُكَ إليهم ، والزيادةُ في التأديبِ تنفِّرُهم عنكَ ، والإعطاءُ فوقَ الكفايةِ يشغلُهم دونَكَ ، وتركُ الأدبِ يجرِّئُهم عليكَ .

ولن يحذرَ الوالي الكافي علىٰ رعيَّتِهِ وولايتِهِ بعدَ تيقُّظِهِ إلا بالغفلةِ عن شهواتِهِ ، وخاصَّةِ إراداتِهِ ؛ فلن تكفيَ قَلَنْسُوةٌ رأسينِ ، ولن يحويَ غِمْدٌ سيفينِ ، ولن يقفَ علىٰ مصالحِ الرعيَّةِ ليسوسَهم بالعدْلِ ، إلا بالجورِ علىٰ

---

(١) أي : الأخذ على الوجه المشروع . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الأربع : القدرة ، والغَناء ، والهيبة ، والإعطاء . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) ، والحِبالة : شَرَكُ الصائد .

(٣) أي : إن قصدتَ صيدَ الغنىٰ . . تحصَّل لك الفقرُ قبله ، وإن قصدتَ جمعَ الكلِّ . . تحصَّل لك العجزُ قبل القدرة . انتهىٰ من هامش (ب) .

نفسِهِ والولدِ والأهلِ ، فمَنْ لم يعصِ نفسَهُ ولم يحرمْها جميعَ مُناها . . لم يَسَعْ بعضَ مُنى الخلقِ وهواها[1] .

[أحوالُ الوزيرِ]

وأمَّا الوزيرُ فمشيرٌ عليكَ بأربعةِ أضدادٍ لأوامرِ الأميرِ : التواضعِ ، والاحتمالِ ، والحيلةِ ، والإحسانِ .

[مظاهرُ التواضعِ]

فالتواضعُ في أربعٍ : القناعةِ باليسيرِ ، والإيثارِ بالكثيرِ ، والتسليمِ للكبيرِ ، والمعذرةِ للحقيرِ .

[مظاهرُ الاحتمالِ]

والاحتمالُ في أربعٍ : حسنِ الظنِّ على الغيبِ ، والعمىٰ عنِ العيبِ ، والرضا بالشِّرْكةِ ، ونسيانِ ما مضىٰ مِنَ السيئةِ .

[مظاهرُ الحيلةِ]

والحيلةُ في أربعٍ : عجزٍ حسِّيٍّ بلا قدرةٍ ، وفقرٍ بلا غَناءٍ ، وتبذُّلٍ بلا هيبةٍ[2] ، ومَنْعٍ بلا يدٍ ؛ علىٰ مثالِ مَنِ احتالَ بحِبالتِهِ لصيدٍ ؛ فإنَّهُ لا يتحيَّنُ فرصةَ الأخذِ لمثلِهِ إلا عن عجزٍ وفَقْدٍ[3] ، ولا يتوصَّلُ إليهِ إلا بتبذُّلٍ وجهدٍ ،

---

(1) أي : لم يسع عن إيصال بعض مُنى الخلق . انتهىٰ من هامش (و) .

(2) أي : يخفض نفسه من غير أن يكون له في هـٰذه المعاني رفعةٌ وجاهٌ ، ولا له قدرةٌ واستيلاء عليه . انتهىٰ من هامش (و) .

(3) التحيُّن : طلب الحِين ؛ يعني : انتظار الوقت المناسب ، أراد : أنه ما احتال للصيد إلا =

ومنعِ الناسِ عنِ التعرُّضِ لهُ وما لهُ عليهِ بعدُ مِنْ يدٍ .

[مظاهرُ الإحسانِ]

والإحسانُ في أربعٍ : التغافلِ ، والتناومِ ، والتجاهلِ ، والإمهالِ .

فمَنْ غَفَلَ سكنَتْ نفسُهُ ونامَتْ ، وجَهِلَتْ فأهملَتْ ، وهـٰذا هو مختارُ العامَّةِ ؛ فإنَّهم يكرهونَ عِلْمَ الغيرِ بحقائقِهم ، والإنكارَ عليهم في طرائقِهم ، فمَنْ أرادَ تتميمَ الإحسانِ إليهم . . تكلَّفَ الإعراضَ عنهم والسَّترَ عليهم ، فتغافلَ مكانَ (غَفَلَ) ، وتناومَ مكانَ (نامَ) ، وتجاهلَ إذا علمَ ، وأمهلَ إنْ لم يُهمِلْ .

[التجرُّدُ عنِ الدنيا مجمعُ خصالِ الخيرِ]

ثم لم يقدرْ علىٰ هـٰذهِ إلا بالتجرُّدِ عنِ الدنيا[1] ، فما بهم صبرٌ عنِ استباحةِ ما لا يُحمىٰ[2] ، ولا فيهمُ انتهاءٌ عن قبيحٍ لا يُنهىٰ ، وسيبقىٰ مَنْ علىٰ هـٰذهِ الخِلالِ عنِ الحظوظِ المحسوسةِ فقيراً ، لا أميراً ولا وزيراً ، ومعَ ذلكَ ناقَضْتَ رأْيَ أميرِكَ ، في كلِّ تدبيرِكَ .

[أحوالُ الأنيسِ]

وأمَّا الأنيسُ فمائلٌ بكَ إلىٰ أربعةٍ : اللَّهْوِ ، والطَّربِ ، والسُّخْفِ[3] ، والكذبِ .

= عندما عجز ، ولو كان قادراً علىٰ أخذه من غير حيلة لفعل .

(١) يعني : لا يقوىٰ علىٰ نَجْزِ هـٰذه الخصال المذكورة إلا المتجرِّدُ عن الدنيا .

(٢) يعني : لا يقوى العامَّة علىٰ حبس نفوسهم عن الشهوات غير المحظورة ؛ لغلبة الهوىٰ على التديُّن ، وغلبة شَرَهِ الحرص عندهم على التعفُّف .

(٣) السخف : الهذيان . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

[مظاهرُ اللهْوِ]

أمَّا اللَّهْوُ ففي أربعٍ : الإسرافِ بمِلْكِ الحالِ[1] ، والإعراضِ عنِ المآلِ ، واستطرافِ الحاضرِ ، ونسيانِ الغائبِ .

فمَنْ لم يسرفْ إنفاقاً لم تكمُلْ متعتُهُ ولم يَتِمَّ أُنْسُهُ ، ومَنْ لم يُعرِضْ عنِ العاقبةِ لم تصفُ مسرَّتُهُ ولم تَطِبْ نفسُهُ ، ومَنْ لم يستطرفِ الحاضرَ لم تقرَّ عينُهُ ، ومَنْ لم ينسَ الغائبَ لم يأنسْ قلبُهُ .

وفي الإسرافِ إتلافُ الأملاكِ ، وفي الإعراضِ عنِ المغبَّةِ إشرافٌ على الهلاكِ[2] ، وفي استطرافِ الحاضرِ بلا تَجْرِبةٍ غَبْنٌ ظاهرٌ ، وفي نسيانِ الغائبِ هَجْرٌ واصبٌ[3] .

وهٰذهِ خِلالٌ لا تَرضىٰ لمَنْ أنسَ بالدنيا بالإخلالِ ، حتىٰ تقلعَ العروقَ وتقطعَ الأوصالَ ، ثم تخرجُهُ عُرْياناً ، وتقيمُهُ حزيناً مُهاناً .

[مظاهرُ الطربِ]

وأمَّا الطربُ ففي أربعٍ : الشربِ ، والسماعِ ، والنظرِ ، والفكرِ .

فمَنْ عشقَ أَنِسَ قلبُهُ بالفكرةِ في معشوقِهِ ، وسخَّرَ عينَهُ للنظرِ إليهِ ، وطَرِبَ فلم يرضَ بالاختصاصِ[4] ، فأطربَ معشوقَهُ بالسماعِ ، ثم نَشِطَ مِنَ الشربِ

---

(١) في هامش (و) : (نسخة : المال) بدل (الحال) .

(٢) المغبَّةُ : العاقبة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الواصب : المتعِبُ الممرِض .

(٤) أي : لم يرضَ باختصاص حصول الطرب لنفسه بوجود معشوقه معه ، حتىٰ أطرب معشوقه =

نَفْياً للمَلالةِ بالشرابِ ، فإذا رَوِيَ سَكِرَ ، وجادَ وافتقرَ ، معَ ما يغفُلُ بعدَ تمامِ السُّكْرِ عن كلِّ طربِهِ ، وتصحبُهُ بعدَ الصَّحْوِ ضغطةُ الخُمَارِ مكانَ فرحِهِ(١) .

[مظاهرُ السُّخْفِ]

وأمَّا السُّخْفُ ففي أربعٍ : الخِسَّةِ ، والدناءةِ ، والجهْلِ ، والحُمْقِ .

فمَنْ لم يَحْمَقْ لم يرضَ بالجهلِ ، ومَنْ لم يجهلْ لم يرضَ بالدناءةِ ، ومَنْ لم يَدْنُؤْ لم يَقِرَّ على الخِسَّةِ(٢) ، ومَنْ لم يَخُسَّ نفسَهُ لم يأنسْ بالسُّخْفِ ، وتحتَ ذلكَ سقوطُ الحِشْمةِ ، وذهابُ الهيبةِ ، وجرأةُ الخسيسِ عليهِ ، والانبساطُ بالجوابِ إليهِ ، وإنَّها لَأَسبابُ الوَحْشةِ ، متىٰ أفاقَ عنِ الدهشةِ(٣) .

[مظاهرُ الكذبِ]

وأمَّا الكذبُ ففي أربعةٍ : المَلَقِ ، والنفاقِ ، والغَدْرِ ، والسَّفَهِ .

فمَنْ سَفِهَتْ نفسُهُ استحلى الغَدْرَ ، فسَبَّبَ لهُ النفاقَ ، وتمكَّنَ منهُ بالمَلَقِ ، ونطقَ بالكذبِ .

وفيها : زوالُ ثقةِ العامَّةِ بهِ ، ونفرةُ الخاصَّةِ عنهُ ، وبُعْدٌ عنِ القلوبِ ،

= أيضاً . انتهىٰ من هامش (و) ، وهـٰذا الطربُ هو الأصل في المنادمة ، كما قال بعضهم : (من الرمل)

فاسقني كأساً وخُذْ كأساً إليكا ... فلـذيـذُ العيش أن نشتركا

(١) الخُمار : الداء العارض للرأس من شرب الخمر .

(٢) يقال : دنأ يدنأُ ، ودَنُؤَ يدنُؤُ ؛ إذا لَؤُمَ وخَبُثَ ، وقد يسهَّلُ هـٰذا الفعل علىٰ لغة مسموعة فيقال : دنا يدنو دناوةً ؛ فهو دَنِيٌّ .

(٣) أي : من أقام علىٰ مجلس الممازحة والفرح بقي في الوحشة . انتهىٰ من هامش (و) .

وسقوطٌ عنِ العيونِ ، وإنَّها لكؤوسُ وَحْشةٍ للأميرِ ، لا يصحو عن خُمارِها برأْيِ الوزيرِ ، معَ ما طمسَ أنوارَ حكمةِ السوداءِ ، وآثارَ هِمَّةِ الصفراءِ[1] ، إلا أنْ تلهوَ عمَّا لا يعنيكَ مِنْ أمورِ الدنيا والورىٰ ، وتطربَ بما أتاكَ ممَّا يعنيكَ مِنَ الحِكَمِ والنُّهَىٰ ، وتستخفَّ بالأملِ والمُنىٰ ، وتكذِّبَ النفسَ فيما تهوىٰ[2] .

[أحوالُ النديمِ]

وأمَّا النديمُ فداعيكَ إلىٰ أربعةٍ : فراغِ القلبِ عنِ الأشغالِ ، واليدِ عنِ الأعمالِ ، والظَّهرِ عنِ الأثقالِ ، والسكونِ إلى الحالِ .

[مظاهرُ فراغِ القلبِ]

وفراغُ القلبِ بأربعةٍ : نسيانِ الفائتِ ، والغفلةِ عنِ الحاضرِ ، والجهلِ بالغائبِ ، والنومِ الدائمِ .

ومَنْ نَسِيَ ما فاتَ لم يلحقْ بغرضِهِ[3] ، ومَنْ غَفَلَ عنِ الحاضرِ خرجَ عن يدِهِ ، ومَنْ جَهِلَ بالغائبِ لم يشتغلْ بطلبِهِ ، ومَنْ نامَ فقد غابَ عن بدنِهِ ، وسينتبهُ وهو مريدٌ للدنيا جائعاً ، وإلىٰ ما في يدِ غيرِهِ نازعاً ، فيشتغلُ قلبُهُ بالسببِ ، واليدُ بالطلبِ ، والظَّهْرُ بالتعبِ ، وينتقلُ عنِ الحالِ لدَرَكِ الأربِ ، فيعودُ علىٰ ما شيَّدَ بالنقضِ حتىٰ لا يبقىٰ لهُ أساسٌ ، معَ ما خالفَ الأميرَ والوزيرَ والأنيسَ بما قاسَ[4] .

---

(١) انظر (ص١٣٥) .
(٢) قوله : (إلا أن تلهو . . .) مثبتٌ من (ب ، و) .
(٣) أي : مقصوده . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .
(٤) أي : بما قدَّر ودعا وأثبت القوانين . انتهىٰ من هامش (ب) .

فهٰؤلاءِ قُوَّامٌ فيكَ[1] ، وقد تناقضَتْ آراءُ كلٍّ واحدٍ منهم في ذاتِهِ ، معَ ما ناقضَ برأيِهِ صاحبَهُ في إرادتِهِ ، إذا طلبَتْ عاجلَهُ ، ونازعَتْ فيهِ طالبَهُ[2] ، وتعاونَتِ الآراءُ وتعاونوا ؛ متى استدلَّتْ بها علىٰ تركِهِ ، إلا لمتعةٍ بمِلْكِهِ .

فتتركُ بعلوِّ همَّةِ الأميرِ الحقيرَ على الخسيسِ ، وبالغَيرةِ القَحْبَةَ المشروكَ فيها على الدَّيُّوثِ[3] ، وكَرَرْتَ بالغلبةِ علىٰ نفسِكَ إنْ عصَتْكَ لتهونَ[4] ، وَسُسْتَها بالعدلِ إنْ أساءَتِ الأدبَ لتلينَ .

ثم تصغي إلىٰ آراءِ الوزيرِ فهو مصيبٌ ، ورأيُهُ عجيبٌ ، فتتواضعُ للورىٰ ، وتحتملُ منهمُ الأذىٰ ، وتحتالُ لصيدِ نفسِكَ وتوثيقِهِ[5] ، مُحْسناً إليهِ بعدَ أسرِهِ في تثقيفِهِ .

ثم تصغي إلىٰ رأيِ الأنيسِ ، فما أنتَ في استعمالِهِ بمحبوسٍ ، فتلهو عمَّا لا يعنيكَ طرباً بتثميرِ ما عناكَ ، ساخفاً بمُناكَ ، كاذباً نفسَكَ إذا حدَّثَتْكَ بطلبِ دنياكَ .

ثم تصغي إلىٰ رأيِ النديمِ ، فهو عليمٌ حكيمٌ ، فتُفرِغُ قلبَكَ عنِ الملاهي ،

---

(١) أي : طبائعُك ؛ من الصفراء ، والسوداء ، والدم ، والبلغم ؛ وهي الأمير ، والوزير ، والأنيس ، والنديم .

(٢) في (ب ، و) : (طلب ، ونازع) بدل (طلبت ، ونازعت) .

(٣) القحبة : المرأة البَغِيُّ الفاجرة ، والدَّيُّوث : الرجل الذي لا غيرة له علىٰ أهله ، وأراد بهما : الدنيا والراضي بها .

(٤) كررت : حملت . انتهىٰ من هامش (ج) .

(٥) سبق مراراً أن الإمام المصنف يذكِّر لفظة (نفس) ، فالتوثيق ـ كما لا يخفىٰ ـ لها ، وكذا يقال فيما سيأتي .

ويدَكَ عنِ العواري[1] ، وظهرَكَ عنِ المِنَنِ ، راضياً بما يكونُ ، فصارَ في كلٍّ ذلكَ نصيبُ التأديبِ والسياسةِ لنفسِكَ ونصيبُ الترْكِ والإيثارِ للناسِ ، فلا تقلبَنَّ القسمةَ بالهوىٰ ودَرَكِ الحواسِّ ، فيتناقضَ عليكَ البناءُ بالأساسِ ، بلِ امضِ علىٰ ما أريناكَ بالاستنباطِ والقياسِ ؛ تكنِ الأميرَ عندَ ذلكَ وأنتَ بذاتِكَ مطاعٌ ، والناسُ بحكمتِكَ لكَ أتباعٌ ، وبوزيرِكَ اقتداءٌ واتِّبَاعٌ ، ولقولِ أنيسِكَ سُمَّاعٌ ، ولسَمْتِ نديمِكَ أشياعٌ ، واللهُ الموفِّقُ .



(١) العواري ـ بتخفيف الياء وبتشديدها على الأصل ـ : جمع عاريّة ؛ وهي ما يُستعار ، واختيرت لغة التخفيف مراعاة للسجعة ، والدنيا كلُّها عاريّة لمن تفطَّن .

فصل [آخرُ]
في ذكر الدنيا

على أنَّ في الآخرةِ ثواباً بلا عذابٍ : الدنيا في مقابلةِ الآخرةِ نَمُوذَجٌ وحِجابٌ ، وزادٌ وحسابٌ .

أمَّا النَّمُوذجُ : فلأنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلقَها سِجْناً للامتحانِ ، ووعدَ للترغيبِ المَمْلكةَ والجِنانَ ، ولن تقعَ الرغبةُ بوَعْدِ شيءٍ إلا بعدَ معرفتِهِ بالعِيانِ أوِ القياسِ[١] ، ولا معرفةَ للنفسِ بالنعيمِ إلا مِنْ طريقِ الحواسِّ ؛ فعجَّلَ في السجنِ مِنْ أنواعِ الموعودِ ما يكونُ نموذجاً ؛ تحقيقاً لحكمةِ الموعودِ ، لولا ذلكَ لم يستقمْ كلُّ هٰذا النعيمِ في دارِ المحنةِ ، إلا أنَّها متىٰ رُئيَتْ نموذجاً لم تكُ نعمةً[٢] .

وأمَّا الحِجابُ : فلأنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الخَلْقَ ليميزَ الخبيثَ مِنَ الطيِّبِ ، بأوامرَ على الغيبِ ؛ إذْ لو كانَتِ الآياتُ عِياناً . . ما عصاهُ عبدٌ إيقاناً[٣] ، وما غابَتِ الآياتُ القاهرةُ إلا بالدنيا ، فكانَتْ حِجاباً بينَ العبدِ والمولىٰ ، ولولا

---

(١) وإلى القياس الإشارةُ بقوله جلَّت حكمته : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥] ، فيقيس العبدُ ما غاب عنه من الموعود به علىٰ ما بين يديه ؛ بجامع الاسم بينهما ليس غير .

(٢) قوله : (رئيت) رسمت في جميع النسخ : (رأيت) .

(٣) قال سبحانه : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٥]، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨].

ذلكَ لكانَتْ مِنَ النعماءِ ، وما هو بجائزٍ في الحكمةِ فالدارُ للابتلاءِ[١] .

وأمَّا الزادُ : فلأنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الجُسومَ محتبِسينَ في الدنيا ، والأرواحَ مسافرينَ إلى العُقْبىٰ ، بالجسومِ مدَّةَ حياتِها ، وقرنَ الحياةَ بأقواتِها ، فخلقَ الدنيا زاداً لها ليتمَّ معَهُ حُكْمُ الحكيمِ[٢] ، لولا هو لكانَتِ الدنيا مِنَ النعيمِ[٣] .

وأمَّا الحسابُ : فلأنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَها لتكونَ زاداً ومتاعاً زمانَ سفرِهِ ، لا مُلْكاً وكنوزاً ليدِهِ ، فصارَ العبدُ في الدنيا بينَ أمرٍ ونَهْيٍ ، والثوابُ في مقابلةِ الصوابِ ، ولن يتبيَّنَ ذلكَ إلا بالحسابِ ، لولا هو لكانَ مُلْكاً بلا ارتيابٍ .

[لكونِ الدنيا نموذجاً وجبَ تركُها مِنْ وجوهٍ أربعةٍ]

فكونُها نموذجاً دليلٌ على التركِ مِنْ وجوهٍ أربعةٍ : فالنَّمُوذجُ للإرْغابِ لا للطِّلابِ ، وللذَّوْقةِ لا للشَّبْعةِ ، وللرؤيةِ لا للقُنْيةِ ، وللسائلِ لا للتَّاجرِ ؛ لأنَّهُ لا يقدَّمُ للعرضِ إلا اليسيرُ ، الدالُّ على الكثيرِ ، الهيِّنُ الذي لا ينقُصُ مِنَ الكُلِّ ولا يزيدُ ، وذلكَ تأويلُ قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لو كانَتِ الدنيا تَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقىٰ كافراً منها شربةَ ماءٍ »[٤] .

فدلَّ الحكيمُ ـ عزَّتْ قدرتُهُ ـ عبادَهُ بما عجَّلَ لهم مِنَ النعيمِ حالَ حبسِهم للمحنةِ . . علىٰ ما أعدَّ لهم مِنْ جنسِهِ حالَ جزائِهم بعدَ ظهورِ الطِّيبةِ ، فكانَ

---

(١) يعني : لا يجوز أن تكون نِعَمُ الدنيا نِعماً حقيقية ؛ إذ ليس من الحكمة إيجاد ذلك في الدنيا ؛ من أجل تصحيح التكليف ، والنعمة لو كانت حقيقية لكانت باقية .

(٢) قوله : (معه) ؛ أي : مع الزاد . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) قوله : (هو) راجع إلى الزاد .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وقال : (هٰذا حديث صحيح غريب من هٰذا الوجه) ، وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما .

الموعودُ مِنَ المشهودِ ، علىٰ مقابلةِ صِفَتي العبدِ مِنَ الخُبْثِ في الدنيا ، والطِّيبةِ في الأُخرىٰ[1] ، وعلىٰ مقابلةِ المملكةِ مِنَ السجنِ ليرغبوا بهـٰذهِ في الآخرةِ التي هيَ المقصودةُ ، ويرموا بهـٰذهِ فإنَّها مردودةٌ[2] ؛ لا تصلحُ للتُّجَّارِ لهوانِها ، إلا للمفاليسِ الذينَ ما عندَهم للسِّلَعِ شيءٌ مِنْ أثمانِها .

فهـٰذهِ أعلىٰ وجوهِ التَّرْكِ ؛ فقد تركَها استحقاراً ، تَرْكَ التاجرِ النموذجَ القليلَ اختياراً ، علىٰ طواعيَةٍ مِنَ النفسِ في تركِهِ ، ورغبةٍ في الكثيرِ ومِلْكِهِ .

وأيُّ عاقلٍ يستجيزُ مِنْ نفسِهِ بعدَما صدَّقَ صاحبَ الشرعِ في أنَّها أقلُّ مِنْ جناحِ بعوضةٍ ، وعرفَ بالعقلِ أنَّها نموذجٌ معروضةٌ . . أنْ يرضىٰ بكلِّها لنفسِهِ حظّاً ، أو ينازعَ الناسَ عليها بَعْضاً فبعضاً ، علىٰ يقينٍ أنَّهُ غيرُ آتٍ علىٰ كلِّها ، ولا قادرٍ علىٰ أهلِها ؟! بل مَنْ عَقَلَ أدنىٰ عقلٍ سَفَّهَ المنازعينَ في الجناحِ ، ولو سَلِمَ لهُ تركَهُ للرياحِ .

[لكونِ الدنيا حِجاباً وجبَ تركُها مِنْ وجوهٍ أربعةٍ]

وأمَّا الحِجابُ فدليلٌ على التركِ مِنْ وجوهٍ أربعةٍ : فرارٍ عنِ استخفافِ الحاجِبِ ، وأنفةٍ عن مقامِ الحَجْبِ ، ورغبةٍ في دارِ المَمْلكةِ ، وشوقٍ إلىٰ لقاءِ المَلِكِ .

---

(١) أي : لما كان العبد في دار المحنة ومقام البليّة مشتملاً على النجاسة الحقيقية والحكمية من الآثام وأنواع العيب. . فما أُعطي من المشهود في الدنيا مشتملٌ أيضاً على الصفتين ، ولما صار العبد في الآخرة مصفّىً مطيَّباً مطهَّراً عن نجاسة الآثام والقاذورات ، مبرَّأً عن النقائص والمعايب. . أوصل إليه المعهود مصفّىً أيضاً ؛ تحقيقاً للمناسبة والمقابلة ؛ المكانُ طيِّبٌ ، والعبد طيِّبٌ ، والموعود طيِّبٌ ، وما هو له منه طيِّبٌ . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) الإشارة في الموضعين راجعة إلى الدنيا كما لا يخفىٰ .

فلن ينجوَ المحجوبُ عنِ الأوَّلَيْنِ ، ولن يظفرَ بالآخَرَيْنِ ؛ إلا بأخذِ الحِجابِ للرفعِ ، دونَ الإمساكِ والنَّفْعِ ؛ فإنَّ الحِجابَ لا يعدو البابَ ، ولا يلقىٰ عندَهُ إلا البوَّابَ ، إلا أنْ يرضىٰ بالمُقامِ فيهِ[1] ، وما يرضىٰ بهِ الكاملُ ، ولا يقفُ عندَهُ العاقلُ .

فهـٰذا هوَ التركُ التالي ، للوجْهِ العالي[2] ، فقد لزمَكَ التركُ بُغْضاً ، وإنْ نِلْتَ لنفسِكَ عندَهُ حظّاً ، فالتركُ لداعيةٍ فيكَ فوقَ التركِ لباعثةٍ في المتروكِ ؛ لأنَّهُ إذا كانَ لداعيةٍ فيكَ تركتَهُ قبلَ الخَطْرةِ ، ومتىٰ كانَ لباعثةٍ في غيرِكَ لم تبصرْ إلا بنَظْرةٍ ، وتركْتَ النموذجَ وهو معروضٌ ، وتركْتَ الحجابَ وهو محفوظٌ ، فتركْتَ النموذجَ وهو منبوذٌ ، وتركْتَ الحجابَ وهو مأخوذٌ .

[لكونِ الدنيا زاداً وجبَ تركُها مِنْ وجوهٍ أربعةٍ]

وأمَّا الزادُ فدليلٌ على التركِ ـ إلا قَدْرَ المنفعةِ ـ مِنْ وجوهٍ أربعةٍ : ثمنِ جَمْعِهِ[3] ، وتَعَبِ حَمْلِهِ ، وخوفِ الهلاكِ بسببِهِ ، والاستغناءِ عنهُ عندَ المنزلِ .

فلن يَحْصُلَ مِنَ الدنيا حظٌّ إلا بعِوَضٍ ، ولن يُحْمَلَ في السفرِ إلا بتعبٍ ، وخِيفَ عندَ الزيادةِ هلاكُ الراحلةِ وبقاءُ المسافرِ حَسِيراً ، أو قصْدُ اللصوصِ وصيرورتُهُ أسيراً ، وإنْ سَلِمَ وفَضَلَ لم يَطِبْ قديدُ الأسفارِ ، معَ نعيمِ الأمصارِ[4] .

---

(١) أي : في الباب . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) .

(٢) وهو النموذج . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) .

(٣) وهو عمر المرء . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٤) يعني : وإن فَضَلَ الزاد وبقي محفوظاً فغايته أن لحمَهُ قديدٌ ، وأين القديدُ من اللحم الجديد ؟!

فهٰذا هوَ التركُ التابعُ[1] ، فقد لزمَكَ اضطراراً ، وخوفاً مِنَ الهلاكِ وفراراً ، والتالي لزمَكَ اختياراً[2] ، وتركْتَ فَضْلَ الزادِ ومعَكَ منهُ مقدارٌ ، وتركْتَ الحِجابَ أصلاً وأنتَ مختارٌ ، وتركْتَ الحِجابَ وكانَ مأخوذاً ، وأكلْتَ الزادَ قَدْرَ ما كانَ محمولاً .

[لكونِ الدنيا حساباً وجبَ تركُها مِنْ وجوهٍ أربعةٍ]

وأمَّا الحسابُ فدليلٌ على التركِ مِنْ وجوهٍ أربعةٍ : حاجتِكَ إلىٰ طلبِ الصوابِ ، وتحريرِ الكتابِ ، وإشهادِ العدولِ[3] ، والإثباتِ عندَ القاضي يومَ أنتَ مسؤولٌ ، وإنَّها كلَّها مَضَارٌّ إلا أنْ تغفُلَ إلىٰ يومِ تُسأَلُ[4] .

فهٰذا هوَ التركُ الرابعُ ، وإنَّهُ لبعدَ التابعِ ؛ فقد لزمَكَ تركُ فضْلِ الزادِ وهو للحالِ متعةٌ لضررٍ في المآلِ ، والحسابُ ممَّا يجبُ تركُهُ لضررٍ في الحالِ ، فما الأمرُ بمبنيٍّ على الإغفالِ ، وتركْتَ فَضْلَ الزادِ وهو لكَ ، وتركْتَ الحسابَ وهو عليكَ ، وتركْتَ الفضْلَ وقد ذُقْتَ حلاوتَهُ ، وتركْتَ الحسابَ وقدِ استبشعْتَ مرارتَهُ .



(١) أي : تركُ الدنيا من حيث إنها زاد . . يتبع تركَ الدنيا من حيث إنها حجاب . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) يعني : الحجاب .

(٣) يعني : الملائكة . مفادٌ من هامش (د ، هـ) .

(٤) يعني : يوم القيامة .

فصل التّجارة

ثم إنَّا عفوناكَ عن هـٰذهِ الخِلالِ التي هي للترْكِ في مقابلةِ الآخرةِ ، بخصالٍ حميدةٍ رُزِقْتَها لجَمْعِ الحاضرةِ(١) ؛ فإنَّكَ أمينٌ مشهورٌ ، تاجرٌ كبيرٌ ، حازمٌ يَقِظٌ ، سليمٌ مَجْدودٌ(٢) ، فما يُوصفُ التاجرُ بالكمالِ ، إلا بهـٰذهِ الخصالِ ، ولن يُنالَ إلا بالتجارةِ جمُّ الأموالِ ، فأمَّا ما عندَ الملوكِ فغُصُوبٌ(٣) ، وما عندَ العَمَلَةِ فكفافٌ .

وقد عفوناكَ عنِ الزهدِ ؛ فإنَّهُ عزيزٌ على العبدِ(٤) ، وسلَّمْنا أنَّكَ اشتهرْتَ بالأمانةِ ، فازدحمَ عليكَ الناسُ للتجارةِ ، فتيقَّظْتَ لها وحزَمْتَ ، فسَلِمْتَ عنِ الآفاتِ مَجْدوداً بالأرباحِ .

[مظاهرُ أمانةِ التاجرِ]

وإنَّ أمانةَ التاجرِ في أربعٍ : في الصدقِ ، والنُّصْحِ ، والحِفْظِ ، والردِّ .

لأنَّ التاجرَ المشهورَ بالأمانةِ لا تخلو يدُهُ عن مِلْكٍ ووديعةٍ ، وحُكْمُ المِلْكِ : ما لا يُزالُ عن يدِ المالكِ إلا بهِ طوعاً ، والوديعةِ : ما يلزمُهُ إزالةُ يدِهِ

(١) المرادُ من الخِلال : النموذج ، والحجاب ، والزاد ، والحساب . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) ، والمراد من الحاضرة : الدنيا .

(٢) المجدود : المحظوظ ، صاحب رزق واسع هنا إن باع واشترىٰ .

(٣) الغُصُوب : جمع غَصْب ؛ وهو الشيء المغصوب ؛ يعني : ما أُخذ ظلماً وقهراً . انظر « المغرب » (غ ص ب) .

(٤) يعني : لم نصفك به مع الإنصاف لكون الزهد بعيدَ المتناول ، لا يقوىٰ عليه كلُّ الناس .

إلىٰ غيرِهِ كَرْهاً ، وعليهِ فيما يتصرَّفُ بحقِّ المِلْكِ : الصدْقُ والنُّصْحُ ، وفيما يتصرَّفُ بحقِّ الوديعةِ : الحفْظُ والردُّ .

والصدْقُ : في أَلَّا يُرَوِّجَ الزَّيْفَ بثمنِ الجيِّدِ مدحاً ، والنُّصْحُ : في إيثارِ المشتري علىٰ نفسِهِ بأجودِ السِّلعتينِ عَرْضاً ، وحفظُ الوديعةِ : في حفظِها عنِ الناسِ أجمعينَ وعن نفسِهِ لصاحبِها ، والردُّ : إعادةُ اليدِ فيها كما طُلِبَ لطالبِها .

عُدْنا إليكَ يا تاجرَ الدنيا ليلاً ونهاراً ، وجامعَ أموالِها أوقاراً وقِنْطاراً ؛ إنَّ يدَكَ فيما ظننْتَ مِلْكاً لكَ احتوَتْ علىٰ ما لا يُزالُ عنكَ إلا بكَ اختياراً ، وما يُزالُ عنكَ دونَكَ اضطراراً[1] .

[مظاهرُ زوالِ المالِ بالاختيارِ]

فأمَّا الأوَّلُ[2] : فما صرفْتَهُ إلىٰ مصالحِ بدنِكَ ؛ ممَّا دَفَعَ عنكَ شرّاً ينشأُ عن باطنٍ ؛ مِنْ نحوِ الجوعِ والعطشِ والشَّبَقِ والمرضِ[3] ، أو دفعَ شرّاً يلحقُكَ مِنْ خارجٍ ؛ مِنْ نحوِ البردِ والحرِّ وأنواعِ الضُّرِّ ، أوِ اكتسبْتَ بهِ جَمالاً للعيونِ ؛ مِنَ الحُلِيِّ والزخارفِ والنُّجودِ[4] ، أوِ ادَّخرْتَ جمالاً للنفوسِ ؛ بالإحسانِ إلى الخَلْقِ ومكارمِ الخُلُقِ .

فهٰذهِ أربعةُ أنواعٍ مِنَ الوجوهِ تزولُ يدُكَ عن مِلْكِكَ فيها باختيارِكَ ، فأنتَ

---

(١) مثل الزكاة . انتهىٰ من هامش (هـ) ، وكذلك مالُ الإرث ، وما يُباع من مالك رغماً عنك بالقضاء .

(٢) يعني : الذي أنفقته باختيار منك .

(٣) الشَّبَقُ : هياج شهوة النكاح ، ويدفع بالزواج ، أو شراء الأمة لغير ذي الطَّوْل .

(٤) النجود : جمع نَجْدٍ ؛ ما يزيَّن به البيت من المتاع .

فيها مالكٌ ، والفضْلُ ممَّا تزولُ يدُكَ عنهُ إلى الوارثِ كَرْهاً يومَ أنتَ هالكٌ ، فأنتَ فيها مُودَعٌ ، وذلكَ في قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهل لكَ مِنْ مالِكَ إلا ما أكلْتَ فأفنيْتَ ، أو لَبِسْتَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيْتَ ؟! »[1] ، وما سوىٰ ذلكَ فهو مالُ الوارثِ[2] .

فإذا اقتصرَ مِلْكُكَ ممَّا في يدِكَ ، علىٰ ما صرفْتَهُ إلىٰ حوائجِ نفسِكَ ، دونَ ما بايعْتَ بهِ العبادَ ، وضربْتَ بسببِهِ في البلادِ . . فعليكَ **بالصدْقِ** لنفسِكَ فيما تصرفُهُ إليها **والنصحِ** لها فيهِ ؛ بالكفِّ عن ترويجِ الزَّيْفِ وتركِ الإيثارِ عليهِ ؛ فإنَّكَ مبايعُهُ بذلكَ ، وهو مبايعُكَ هنالكَ ، تؤتيهِ مِنْ مالِكَ ، وهو يردُّ عليكَ في عوضِهِ قُوىً تتوصَّلُ بها إلىٰ جميعِ آمالِكَ ، وإنْ صرفْتَها إلى التجمُّلِ فقد زِدْتَ على العيونِ قُرَّةً ، وإنْ صرفْتَها إلىٰ مكارمِ الأخلاقِ زِدْتَ على القلوبِ بالذكرِ الحَسَنِ مسرَّةً .

فهٰذهِ مبايعةٌ يتحقَّقُ بها يدُ مِلْكِكَ ، ولا يزولُ عنكَ قَهْراً إلىٰ غيرِكَ يومَ هُلْكِكَ ، فاصدقْ نفسَكَ ولا تتيمَّمِ الخبيثَ تتملَّكُهُ ترويجاً بقولِكَ ، مِنْ لسانِ بُخْلِكَ ، ثمَّ انصحْ فآثرْهُ بأطيبِ الأصنافِ عندَ الخَلْقِ ، فما حرَّمَ اللهُ تعالى الطَّيِّباتِ مِنَ الرزقِ .

أتستجيزُ أنْ تتخذَ الخبيثَ مِلْكاً والطيِّبَ وديعةً وأنتَ في القسمةِ مختارٌ ؟!

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨) من حديث سيدنا عبد الله بن الشخِّير رضي الله عنه ، وأمضيت : أعطيت علىٰ جهة الصدقة فأبقيت ، ونفذ عطاؤك وتمَّ .

(٢) فعند مسلم (٢٩٥٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « يقول العبد : مالي مالي ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنىٰ ، أو لَبِسَ فأبلىٰ ، أو أعطىٰ فاقتنىٰ ، وما سوىٰ ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس » .

أمَا تستحْيِي أنْ تَغُشَّ نفسَكَ بما تصرفُهُ إليهِ مِنْ لباسٍ وطعامٍ وتأخذَ منهُ عوضَهُ وما بكَ اضطرارٌ ؟!

وأمَّا الإحسانُ إلى الناسِ : فمبايعةٌ معَ ربِّكَ عزَّتْ قدرتُهُ ، وذخيرةٌ لنفسِكَ إذا أينعَتْ ثمرتُهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَكَ بهِ وسمَّاهُ قرضاً علىٰ نفسِهِ[1] ، وضمنَ لكَ عوضَهُ في الثاني بضِعْفِهِ[2] ، فتخلُصُ منفعةُ العائدِ ذُخْراً لنفسِكَ في الأُخرىٰ ، ما لغيرِكَ فيهِ مِنْ جَدْوىٰ .

فبأيِّ عقلٍ تتجوَّزُ الغشَّ في مثلِهِ ؟![3] ألأنَّ اللهَ تعالىٰ غافلٌ عن أصلِهِ ، أم لأنَّكَ آيسٌ مِنْ خيرِهِ ، أوِ الرجلُ سُخْرِيٌّ عاملٌ لغيرِهِ ؟![4] .

ألم تسمعْ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة : ٢٦٧] ، وقالَ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] ؟!

أَوَلم يبلغْكَ قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « أَتُطْعمينَ ما تكرهينَ ؟! »[5] .

---

(١) إذ قال سبحانه : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وروىٰ مسلم (١٩٥٥) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه قال : ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : « إنَّ الله كتب الإحسان علىٰ كلِّ شيء ؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح ، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرته ، فليرحْ ذبيحته » .

(٢) قوله : (في الثاني) ؛ يعني : من الزمان ، والمراد بالضعف : مطلق التضعيف .

(٣) الضمير في (مثله) راجع إلى العوض . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٤) السُّخْري : من يعمل بلا أجر ولا ثمن .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٠٥) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : أُتِيَ=

فإنْ لم تَجُدْ نفسُكَ لجعلِ الكلِّ مِلْكاً[1] . . فكُنْ في الفضْلِ أميناً[2] ، ولا تحفظْ لنفسِكَ فتصيرَ ضَمِيناً ، ولا تمنعْ صاحبَهُ عندَ الطلبِ فتكونَ خَؤُوناً ، بل ظالماً لنفسِكَ بتحميلِها مشقَّةَ الحفظِ والاسترباحِ ، ولا محالةَ يأخذُهُ صاحبُهُ في صباحِكَ أوِ الرَّواحِ[3] .

فإنْ شقَّ عليكَ حفْظُ مالِكَ لغيرِكَ ، أو إيثارُكَ إيَّاهُ عليكَ بخيرِكَ . . فاصرفِ الكلَّ إلىٰ مصالحِكَ قبلَ تبدُّلِ حالِكَ ؛ ليصيرَ الكلُّ مِنْ مالِكَ ، فما يفضلُ عنكَ شيءٌ ولو ملكْتَ الدنيا ذهباً إذا صرفْتَها إلىٰ معالي الأمورِ ، وعملْتَ فيها بمكارمِ الأخلاقِ ؛ فإنَّ البخلَ وإنْ كانَ مذموماً علىٰ كلِّ حالٍ ففي حقِّ نفسِهِ أذمُّ ، والجودَ وإنْ كانَ محموداً بكلِّ مالٍ فبِمِلْكِ نفسِهِ أتمُّ .

كيفَ ولو بخلْتَ علىٰ نفسِكَ ؛ فحرمتَهُ طيِّباتِ الرزقِ ، ولم تُذِقْهُ طيبَ ثناءِ الخَلْقِ ، وكنتَ حافظاً أميناً علىٰ شرطِهِ . . كنتَ فيهِ أخسرَ مِنَ المستودَعِ أموالَ

= رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بضَبٍّ ، فلم يأكله ، ولم ينهَ عنه ، قلت : يا رسول الله ؛ أفلا نطعمه المساكين ؟ قال : « لا تطعموهم ممَّا لا تأكلون » .

إن قلت : فهل ينتفع ويؤجر بإنفاق ما لا تشتهيه نفسه ؟

فالجواب : أن أجرَهُ علىٰ قدر محبَّتِهِ لما يُنفق ، فلو كان ما ينفقه لو أن الفقير لم يأخذه لرماه . . فلا أجرَ له أصلاً ، أو أنه ينتفع به علىٰ مضضٍ بنحو بيعٍ أو سدِّ خلَّة أهلٍ . . فأجرُهُ علىٰ قدر محبته له ، فيأثم إن رماه ؛ لما في ذلك من هدر النِّعَم ، ولا يؤجر ؛ لانتفاء المجاهدة وصدور الفعل عن غير أمر وَنهْيٍ ، فصار في حكم الهدر ، فهٰذا حكم إنفاق ما لا تحبُّ وإن كان ينتفع به الفقير .

(١) كذا العبارة في (أ) ، وفي سائر النسخ : (تجعل)، وفي (ز): (بجعل) بدل (لجعل).

(٢) أي : لا تدفنه في الأرض في موضع لم يطلع عليه الوارث ، ولا توصِ بأكثر من الثلث . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) والمراد بصاحبه : الوارث الذي سيرث المال عنك بعد جمعه .

غيرِهِ ؟! فإنَّهُ راجعٌ بعُهْدةِ الحفظِ على الأربابِ ، وأنتَ لازمَكَ عُهْدةُ حِفْظِكَ يومَ الحسابِ ، بل ذلكَ المُودَعُ حافظٌ بمِنَّةٍ وحِسْبةٍ ، فائزٌ بثناءٍ وثوابٍ ، وأنتَ حافظٌ بلا مِنَّةٍ ولا احتسابٍ ، باءٍ بحسابٍ أو عذابٍ[١] ، وإنَّ شرَّ المحتبِسينَ مَنْ أتىٰ بهِ علىٰ سبيلِ الاكتسابِ ، فيُحرَمُ للحالِ فائدتَهُ ، وفي الثاني عائدتَهُ .

فما لكَ وجهٌ إلا أحدُ طريقينِ ؛ حفْظُ الفضْلِ علىٰ سبيلِ الحِسْبةِ ، فتسلِّمُ إلىٰ صاحبِهِ إذا جاءَتِ الطِّلْبةُ ، فتصيرُ يدُكَ صِفْراً ، أوِ الأخذُ علىٰ سبيلِ المِلْكِ فتصرفُهُ إلىٰ وجهِهِ فتبقىٰ دونَ الدنيا فقراً[٢] .

فإنْ قلتَ : لعلِّي أعيشُ فأحتاجُ[٣] .

فقابلْ بعدَ شَبْعتِكَ توهُّمَ حلولِ جَوْعتِكَ ، بما تخافُ أو ترجو بعدَ صرعتِكَ ، ثمَّ اعملْ بأهمِّ الأمرينِ حلولاً ، وأخوفِهما نزولاً ، أليسَ قد أمنْتَ شرَّ الجوعِ إلىٰ عَشائِكَ ، ولم تأمنْ حلولَ الموتِ متَّصلاً بغدائِكَ ؟! فما لكَ ـ إنْ صدقَ رأيُكَ ـ تبخلُ بما تحتاجُ إليهِ بعدَ الصَّرْعةِ ، كما تحتاجُ إليهِ بعدَ الجَوْعةِ ، وقد أمِنْتَها ولم تأمنِ الأُخْرىٰ معَ ما أنَّ حاجةَ الجوعِ ممَّا ترتدُّ بمالِ غيرِكَ ، وحاجةَ ما بعدَ الموتِ لا ترتدُّ إلا بما قدَّمْتَ مِنْ خيرِكَ ؟!

فإنْ سامحْتَ نفسَكَ وقلتَ : الغالبُ أنِّي أعيشُ يوماً . . فأنتَ معذورٌ ، فما لكَ تبخلُ عن نفسِكَ بقُوتِ الشُّهورِ ؟!

---

(١) البائي : الراجع ؛ من باءَ يبوءُ بوءاً .

(٢) في (ب) وهامش (هـ ، و) : (نسخة : قفراً) بدل (فقراً) .

(٣) مضارُّ الشرِّ الباطني والخارجي أمرٌ متوهم محتمل (. . .) أوكد للوصول إلى المرجوِّ من الجنة ، والمخوف من النار أمر لازم واقع ، فرعاية جانب الواقع المتيقن ألزم من رعاية المحتمل المتوهم . انتهىٰ من هامش (ب) .

وإنْ سامَحْتَ نفسَكَ وقلتَ : الغالبُ أنِّي أعيشُ شهراً أو سنةً . . فما لكَ تبخلُ بحفْظِ قوتِ الدُّهورِ ، ما نراكَ ترجعُ في حفظِكَ إلىٰ ما ترضىٰ بهِ القلوبُ التي في الصُّدورِ ؟!

ما بقيَ لكَ إلا أنْ تقولَ : إنَّ الجَوْعاتِ في العاداتِ تترادفُ في العمرِ ، وعلى العاداتِ الغالبةِ ما يُبنى الأمرُ(١) .

فنقولُ : أليسَتِ العاداتِ الغالبةَ أنَّ المرءَ لا يعيشُ فوقَ كلِّ أقرانِهِ ، ولا يختصُّ بعُمُرٍ زائدٍ دونَ أهلِ زمانِهِ ؟! فعُدَّ سِنِي أقرانِكَ ، وعامَّةِ أهلِ زمانِكَ ، واحفظْ ذلكَ القَدْرَ ، وأنفقِ البقيَّةَ إنْ صدقَ الأمرُ ، وإنَّا لنراكَ وقد أضعفَكَ المشيبُ(٢) ، علىٰ حفظٍ وإمساكٍ عجيبٍ ، لم تكنْ عليهِ وأنتَ صبيٌّ ومدَّةُ حياتِكَ مديدةٌ ، وشابٌّ وشهواتُكَ شديدةٌ(٣) ، أو رُدَّهُ على الأولادِ ؛ فإنَّكَ تحفظُها لهم فهم أكبادٌ ، وإنَّكَ تنازعُهم إذا طمعوا في قليلٍ منهُ عظيماً ، وقديماً كانَ المُلْكُ عَقِيماً(٤) .

فما أنتَ في مِلْكِكَ إلا سفيهٌ ، وفي وديعتِكَ إلا خَؤُونٌ ، وإنَّما كلَّمناكَ علىٰ أنَّكَ تاجرٌ أمينٌ .

---

(١) يعني : أنما تُبنى الأمور وتتخذ الأحكام علىٰ غالب المعتاد .

(٢) هـٰذه صفة الأخ السائل ، كما نُبِّهَ عليه في هامش (د ، هـ) .

(٣) يعني : ولم تكن عليه وأنت شابٌّ . . . إلىٰ آخره .

(٤) في « مجمع الأمثال » (٢/ ٣١١) : (المُلْكُ عقيم ؛ يعني : إذا تنازع قوم في مُلْك انقطعت بينهم الأرحام ، فلم يُبقِ فيه والد علىٰ ولده ، فصار كأنه عقيم لم يُولد له) .

[اختياراتُ التجارةِ]

وأمَّا التجارةُ فمحتاجةٌ إلى اختياراتٍ أربعةٍ : اختيارِ السليمِ عنِ العيبِ إذا اشترىٰ ، واختيارِ المليءِ الوفيِّ إذا أسلمَ أو داينَ ، واختيارِ الأمينِ إذا أودعَ أو أبضعَ ، واختيارِ المأمنِ إذا سافرَ تاجراً ، أو جهَّزَ مُضارباً .

وإنَّ رأسَ العيوبِ آفةُ الفوتِ(١) ، فما دونَها ينقُصُ البعضَ ، وهـٰذهِ تأتي على الكلِّ ، فليشترِ التاجرُ الجيِّدُ الاختيارِ ما يأمنُ هلاكَهُ ، وليجمعْ مِنْ هـٰذا الجنسِ بحُسْنِ التجارةِ أملاكَهُ .

ثم ليخترْ ـ إذا أسلمَ ولم يصلْ إلىٰ ما يبقىٰ ـ مَنْ لا يخافُ عجزَهُ عنِ الإيفاءِ ، فعسى العجزُ يَضْطرُّهُ إلىٰ مماطلةٍ في الأداءِ ، أوِ الضرورةُ تحملُهُ علىٰ إنكارِ القضاءِ .

فإذا ظفرْتَ بمَنْ أمنتَ عجزَهُ فأسلِمْ إليهِ ، ودايِنْهُ بما شئتَ واعتمدْ ما لديهِ ، فقلَّما يكافرُكَ القادرُ علىٰ حقٍّ ، أو يقابلُكَ بمَطْلٍ(٢) .

ثمَّ اخترْ لوديعتِكَ وبضاعتِكَ ـ إنْ لم تجدْ مَنْ قدرَ مِنْ كلِّ وجهٍ ـ مَنْ لا يحتاجُ إلىٰ ذلكَ القدرِ ، فلعلَّ الحاجةَ تطمعُهُ فيها وعسىٰ ، فإذا اتَّفقَ لكَ ذلكَ أودعتَهُ أو أبضعتَهُ غيرَ خائفٍ ، فليسَ المستغني عن شيءٍ مِنْ كلِّ وجهٍ بمشتغلٍ بهِ عن قلبِ عاقلٍ(٣) .

وإذا سافرْتَ أو ضاربْتَ ولم تتيقَّنْ بالمأمنِ . . فاخترْ موضعَ عونٍ وغوثٍ

---

(١) أي : آفة فوت الكلِّ . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٢) يكافرك : يجحد ما أمنته عليه ، والمطل : التسويف والمدافعة .

(٣) في (ز) : (غافل) بدل (عاقل) .

وتناصرٍ على الحقِّ ، يحكمُ لكَ بوجودِهِ يقيناً الصدقُ[1] ، فقلَّما يُقطَعُ عليكَ الطريقُ ، حيثُ عليهِ مِنَ الرَّصَدِ فريقٌ .

فهٰذهِ إباحاتٌ لكَ بالتجارةِ خارجةٌ عن وجوهِ الحزمِ ، مبنيَّةٌ علىٰ حُسْنِ الظنِّ وغلبةِ الوَهْمِ ، فربَّ غوثٍ يلحقُ التاجرَ ، ولٰكنَّهُ عاجزٌ غيرُ ناصرٍ ، وربَّ غنيٍّ عن شيءٍ مشتغلٌ بهِ عَبَثاً وفاعلٌ سفهاً ، وربَّ مليءٍ مماطلٌ ، وقادرٍ متكاسلٌ ، وربَّ باقٍ في حقِّكَ معيبٌ ، وسهمٍ مرميٍّ غيرِ مصيبٍ .

ومعَ ذلكَ ناهيكَ عنِ التجارةِ إلا معَ المولىٰ جلَّ جلالُهُ[2] ، فما في الدنيا حظٌّ يُرجىٰ دَوْمُهُ ، ولا مدايَنٌ فيها يؤمنُ عجزُهُ ، ولا مثبَتٌ يدُهُ علىٰ ما يُتيقَّنُ بغناهُ عنهُ ، ولا طريقٌ لم يُشَكَّ في غوثِكَ فيهِ ، إلا أنْ تشتريَ بهِ حَظّاً مِنَ الآخرةِ ؛ فحظوظُها سليمةٌ عنِ العيوبِ باقيةٌ ، وتُسْلِمَ إلى المولىٰ جلَّ جلالُهُ فهوَ القادرُ الذي لا يوصفُ بضدِّهِ ، وتودعَهُ فهوَ الغنيُّ تباركَ وتعالىٰ عن أنْ يوصفَ بفقدِهِ ، وتجهِّزَ مالَكَ إلى العُقْبىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ غوثُكَ ضامنٌ ردَّهُ عليكَ بأرباحٍ ، وما بينَكَ وبينَ الالتحاقِ بها غيرُ صباحٍ أو رواحٍ .

وأمَّا الحزمُ : فناهيكَ عنِ البناءِ علىٰ غالبِ الظُّنونِ إلىٰ أنْ تَقطعَ الشبهةَ باليقينِ في الأنواعِ الأربعةِ التي بها تقومُ التجارةُ ، وسادٌّ أبواباً فتحناها عليكَ بتلكَ العبارةِ ، حتىٰ لا يبقىٰ للوهْمِ مجالٌ في ترخيصِ التجارةِ معَ أهلِ الدنيا إلا التسليمُ أوِ الإسلامُ إلى المولىٰ ، جلَّ جلالُهُ وتعالىٰ ، فذلكَ الحزمُ ، والأمرُ العزمُ .

---

(١) أي : بوجود المأمن . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) ناهيك : من النَّهي ؛ أي : العقلُ ينهاك بهٰذه المقدمات ؛ من اختيار المأمن وكذا وكذا . انتهىٰ من هامش (ب) .

[السلامةُ في التجارةِ في أربعٍ]

وأمَّا السلامةُ ففي أربعٍ : سلامةِ الصَّفْقةِ عنِ الخُسْرانِ ، والعوضِ عنِ الحَدَثانِ[1] ، واليدِ عنِ الفِقْدانِ ، والنفسِ عنِ الحِرْمانِ .

فاخترْ إذا عاقدْتَ مَنْ يستكثرُ قليلَكَ مرحمةً عليكَ ، ويستقلُّ كثيرَكَ كَرَماً وإحساناً إليكَ ، واخترْ لرأسِ مالِكَ عِوَضاً لا تنالُهُ الآفاتُ السماويَّةُ ، ولا يزولُ عن يدِكَ بالأحوالِ الاختياريَّةِ ، ولا تُحرَمُ متعتَهُ بعوارضَ نفسيَّةٍ .

وإنَّكَ لن تجدَ في الدنيا مِنْ أبنائِها مَنْ يتاجرُكَ إلا مستربحاً[2] ، فلا تأمَنَنَّ معَهُ الخُسرانَ ، ولا تنالُ عِوَضاً إلا مرهوناً بالأقدارِ غرضاً للحَدَثانِ ، معَ ما أنَّ للعبيدِ إباقاً عن يدِكَ ، وللحيواناتِ ضلالاً عن قيدِكَ ، ولسائرِها اغتصاباً عن يدِكَ ، إلىٰ بُخْلٍ فيكَ وسوءِ اختيارٍ ، يمنعانِكَ عنِ التمتُّعِ بهِ معَ القرارِ .

فمِلْ إلىٰ صفقةٍ هي طاعةٌ ، ومُعاقِدٍ هو ربُّ الساعةِ وخالقُ الجماعةِ ، ما عاقدَكَ إلا ليظهِرَ إليكَ إحسانَهُ وجلالَهُ ، ولا كوَّنَكَ قبلَ أنْ عاقدَكَ إلا لتعرفَ كرمَهُ وإفْضالَهُ ، فيأخذُ منكَ قليلاً ممَّا ليسَ لكَ إلا عاريَّةٌ منهُ ، بكثيرٍ يصيرُ لكَ خالداً مِنْ لَدُنْهُ ، لا تصيبُهُ آفةٌ ، ولا يحولُ بينَهُ وبينَكَ مسافةٌ ، وذُلِّلَتْ قطوفُها لمُتْعتِكَ ، وخُلِّدَتْ لقضاءِ شهوتِكَ .

ألا تدعُ أيُّها الأخُ اللطيفُ ، لسانَ التأليفِ إلىٰ لسانِ التعنيفِ[3] ،

---

(١) الحَدَثانُ من الدهر : نُوَبُهُ وأحداثه .

(٢) قوله : (يتاجرك) ؛ أي : يعاملك في التجارة .

(٣) في (د ، هـ ، و) : (التعفيف) بدل (التعنيف) ، والتأليف : من الألفة ؛ وهي المؤانسة .

فقبيحٌ تركُ الإنكارِ بعدَ التعريفِ .

إلىٰ كم هٰذا الكلامُ ، كأنِّي بينَ نِيامٍ ، موتىٰ بينَ لحومٍ وعظامٍ ؟!

[الشهواتُ الأربعُ وأضدادُها الأربعةُ]

أمَا إنَّكَ عبدٌ أسيرٌ بشهواتٍ أربعٍ ؛ شَهْوَتَيْ باطنٍ ؛ الفرجِ والبَطْنِ ، وشَهْوَتَيْ ظاهرٍ ؛ ممَّا تراهُ العيونُ مِنَ الزينةِ ، وتعيهِ القلوبُ مِنْ نفاذِ الأمرِ في طاعةٍ ، مبتلىً مِنَ اللهِ تعالىٰ بأربعٍ ضوادِّها[1] ؛ المعرفةِ ، والإيمانِ ، والإسلامِ ، والإحسانِ .

فالمعرفةُ : علمُكَ أنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ لهُ .

والإيمانُ : تصديقُكَ بالاعتقادِ حُجَجَ اللهِ تعالى التي أوجبَتِ العلمَ بهِ .

والإسلامُ : تصديقُكَ اللهَ تعالىٰ باستسلامِكَ لأوامرِهِ ونواهيهِ بحُسْنِ الطاعةِ[2] .

والإحسانُ : في ألَّا يشتغلَ قلبُكَ إلا بشكرِهِ ، ولسانُكَ إلا بذكرِهِ ، وبدنُكَ إلا بعبادتِهِ ، وسِرُّكَ إلا بذاتِهِ ، فما جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ، واللهُ تعالىٰ قد أحسنَ إليكَ ابتداءً بتخليقِ قلبِكَ وتنويرِهِ ، وانطلاقِ لسانِكَ وإقدارِ بدنِكَ بعدَ تصويرِهِ ، وإراءةِ سرِّكَ ملكوتَهُ بنورِهِ[3] .

---

(١) انظر (ص ٢٥٩) .

(٢) قيل : الإيمان : ما يتعلَّق بالباطن ، والإسلام : ما يتعلَّق بالظاهر . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٣) الملكوت : ما يتعلَّق في اصطلاحهم بالباطن ، والمُلْكُ : ما يتعلَّق بالظاهر . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

[علاماتُ المعرفةِ والإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ]

وعلامةُ المعرفةِ : الشُّكرُ علىٰ جميعِ أقسامِهِ[١] ، فلا يجدُهُ العبدُ بعدَ أنْ عرفَهُ إلا مُحْسناً بحِكْمتِهِ .

وعلامةُ الإيمانِ : الرِّضا بكلِّ أحكامِهِ ، فلا يلزمُهُ منها وقد صدَّقَهُ إلا عائداً عليهِ بنعمتِهِ .

وعلامةُ الإسلامِ : الصَّبرُ ؛ صبرٌ عنِ الشهواتِ عندَ تتابعِ المواهبِ ، وعنِ الشَّكوىٰ عندَ ترادفِ المصائبِ ، فلا يلقاهُ إذا استسلمَ لهُ إلا مريدَ شفاءٍ بدواءٍ[٢] ، أو مقيمَ بقاءٍ بغذاءٍ[٣] ، إنْ لم تصبرْ عن شهوتِكَ في أُكُلِكَ[٤] . . نُكِسْتَ في عِلَلِكَ ، وإنْ لم تصبرْ علىٰ شهوتِكَ . . لم تعدْ إلىٰ صحَّتِكَ .

وعلامةُ الإحسانِ : الجودُ بقَدْرِ الإمكانِ ؛ فمَنْ أحسنَ إليكَ فخلقَكَ . . لا يقتلُكَ جوعاً وسيرزقُكَ .

فالمعرفةُ والإيمانُ في مقابلةِ شَهْوَتَيْ باطنِكَ ، والإسلامُ والإحسانُ في مقابلةِ شَهْوَتَيْ ظاهرِكَ .

فمَنِ امتلأَ قلبُهُ معرفةً لم ينلْ مِنَ المرأةِ سَكَناً ، ومَنْ رَوِيَ مِنْ شرابِ التصديقِ لم يجدْ مِنَ الخُبْزِ شِبَعاً ، ومَنْ رأىٰ سربالَ الإسلامِ لم يلتفتْ إلىٰ سرابيلِ أهلِهِ ، ومَنْ عرفَ وجوبَ الإحسانِ عليهِ جزاءً لم يعملْ مُعْجباً بفعلِهِ .

---

(١) يعني : الغنىٰ والفقر ، والصحة والمرض . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) قوله : (يلقاه) ؛ يعني : يلقى اللهَ عز وجل . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) في هامش (ب) : (المصائب لمن له الدواء ، والمواهب لمن له الغذاء) .

(٤) الأُكُلُ : المأكول .

قالَ الأخُ : كلامٌ حَسَنٌ إلَّا أنَّهُ خلافُ الشريعةِ ، بعدَ أنْ كانَ خلافَ الطبيعةِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ بالنكاحِ ، ونهىٰ رسولَهُ عنِ البَسْطِ كلَّ البَسْطِ ، وأمرَ الرُّسُلَ عليهمُ السلامُ بالتصرُّفِ في الدنيا[1] ، وولَّاهم أمورَ الورىٰ .

قلنا : بَشَّرَ اللهُ تعالىٰ عبداً سمعَ القولَ فاتَّبعَ أحسنَهُ ، وما أوَّلَ علىٰ ما ظَنَّهُ .

أَمَا علمْتَ أنِّي لم أقصدْ بما ذكرتُ إلا لأُسوِّيَ معاملتَكَ معَ ربِّكَ عزَّتْ قدرتُهُ علىٰ سبيلِ العُزْلةِ كأنْ ليسَ معَكَ أحدٌ سواهُ ، وذلكَ فيما بيَّنَّاهُ ؟![2] .

[المعاملةُ علىٰ سبيلِ العِشْرةِ تكونُ مِنْ أنظارٍ أربعةٍ]

فأمَّا إذا آلَ الأمرُ إلى الجَمْعِ بينَ معاملةِ اللهِ تعالىٰ بالتصديقِ علىٰ سبيلِ العِشْرةِ معَ الخلقِ . فلا بدَّ مِنْ نظرٍ أربعةٍ : نظرٍ لخاصَّتِكَ ، ونظرٍ لأهلِ زمانِكَ ، ونظرٍ للنسلِ ، ونظرٍ للمالِ .

والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم كانوا قُدْوةَ الخَلْقِ دعاةً ، ومتبوعينَ هُداةً ، فما كانَ لهم بدٌّ مِنْ موالاةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ العِشْرةِ معَ البشرِ ، واستجماعِ هٰذهِ الوجوهِ مِنَ النظرِ ، فعندَها تمامُ الابتلاءِ ، وفيها تظهرُ مراتبُ الأنبياءِ .

فيكونُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ اللهِ تعالىٰ في خاصٍّ ما لزِمَهُ كأنَّهُ

---

(١) كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ١٥٢) : (المرضيُّ عند العقلاء : أن تقدِّرَ نفسك في العالم وحدك مع الله ، وبين يديك الموت والعَرْضُ والحساب ، والجنة والنار ، وتأمَّلْ فيما يعنيك مما بين يديك ، ودعْ عنك ما سواه ، والسلام) .

لا شيءَ سوى اللهِ ، ومعَ الناسِ كأنَّهُ لا حظَّ لنفسِهِ ، ومعَ النَّسْلِ كأنَّ اللهَ تعالىٰ ما عَلَّقَ حُكْمَ وجودِهم إلا بهِ ، ومعَ المالِ كأنَّ اللهَ تعالىٰ ما علَّقَ الوجودَ إلا بغيرِهِ ، وكأنَّهُ ممَّنْ لا يَحْظىٰ بخيرِهِ .

فإنَّهُ متىٰ رأىٰ معَ اللهِ غيرَهُ لم يُؤْمَنِ الشركُ عقداً أو فعلاً ، فلا أمنَ إلا في العمىٰ عمَّنْ سواهُ عيناً وقلباً ، ومتىٰ طلبَ مِنَ الناسِ حظّاً لنفسِهِ . . كانَ ناظراً لهم بحظِّهِ ، واللهُ تعالىٰ ما ابتلاهُ بهم وبتركِ التخلِّي للعبادةِ للهِ تعالىٰ لخلقِهِ . . إلا ليهديَهم إليهِ مجاهداً في اللهِ بصدقِهِ .

وأمَّا النَّسْلُ : فاللهُ تعالىٰ علَّقَ وجودَهم بالمياهِ التي في الأصلابِ والأرحامِ ، ولا بدَّ للعبدِ مِنْ إقامةِ حُكْمِ اللهِ تعالىٰ وإنَّهُ لَبابٌ لا تجري فيهِ النيابةُ بينَ الأنامِ ، فما يُتصوَّرُ ولدٌ علقَ بمائِهِ مِنْ ماءِ آخرينَ ، فكانَ البدارُ إليهِ أولىٰ مِنَ التفويضِ إلىٰ سائرِ العالمينَ ، وإنْ جازَ التفويضُ لحصولِ النَّسْلِ بسائرِ الناكحينَ .

وأمَّا المالُ : فمعلَّقٌ بأسبابٍ تجري فيها النيابةُ ؛ مِنَ التجارةِ والزراعةِ ، وبغيرِ أسبابٍ ؛ كالأشياءِ المباحةِ ، فكانَ التفويضُ إلى الغيرِ أولىٰ مِنْ تولِّيها ؛ لوصولِهِ بغيرِهِ إلىٰ معانيها .

وأمَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فما نُهِيَ عنِ البَسْطِ إلا لاحتباسِهِ بسببِهِ في بيتِهِ عن حوائجِ الإسلامِ وأهلِهِ ، لا لافتقارِهِ بذلكَ البَسْطِ عن مالِهِ ومِلْكِهِ ، وما للدَّاعي صلواتُ اللهِ عليهِ أنْ يشتغلَ بما يُخِلُّ بالدعوةِ ، فإنْ كانَتْ حسنةً خاصَّةً فالدعوةُ حسنةٌ عامَّةٌ ، وإنَّهُ لمقامٌ عزيزٌ ، وإنَّما دعوناكَ إلى العُزْلةِ ـ وهيَ المقامُ اليسيرُ ـ لتفُكَّ روحَكَ بما دعوناكَ عن وَثاقِ نفسِكَ ، ثم

تُقبلَ علىٰ فكِّ الوَثاقِ عن غيرِكَ ؛ فإنَّ الصعودَ إلى الذُّرا بدَرَجٍ ، والفَكاكَ عن أَسْرِ الهوىٰ بحُجَجٍ ، فإنْ شقَّ عليكَ التخلِّي . . فما لقلبِكَ عن غطاءِ الشُّبُهاتِ تجلِّي[1] .

فعليكَ بمقامِ العامَّةِ بينَ خوفٍ ورجاءٍ ، ولا تُقِمْ بينَ مغالبةٍ وإرجاءٍ ، فهلاكُ العامَّةِ في ذلكَ ، والعياذُ باللهِ مِنِ اشتباهِ المسالكِ .

فقالَ الأخُ : إنَّ المسالكَ إذا اشتبهَتْ ضلَّ فيها بدونِ الأميالِ السَّالكُ ، ومَنْ ضلَّ فهوَ الهالكُ ، فما الأميالُ ، علىٰ هـٰذهِ الطرقِ مِنَ الأمثالِ ؟

قلتُ : التوفيقُ ، مِنَ اللهِ تعالىٰ لبيانِ الطريقِ .

[علامةُ الخوفِ والرجاءِ]

أمَّا علامةُ الخوفِ : فالامتناعُ عمَّا قصدْتَهُ ؛ لشرٍّ عرفتَهُ ، فمَنْ لم يمتنعْ دلَّ علىٰ عدمِهِ ، أو خَطأِ الفاعلِ لسفهِهِ ، فما نَفَعَ خوفٌ بلا حذرٍ ، والخوفُ بلا نفعٍ سَفَهٌ .

وعلامةُ الرجاءِ : الإقدامُ بحُسْنِ الظنِّ على المقصودِ ، ملابِساً فيهِ سببَ الوجودِ ، فمتىٰ لم تُقْدِمْ فَرَرْتَ آيساً ، ومتىٰ لم تُلابسِ السببَ أقدمْتَ متمنِّياً أو هازئاً[2] .

فتاركُ البعضِ خوفاً والمُقْدِمُ بملابسةِ البعضِ رجاءً . . بينَ خوفٍ ورجاءٍ ، قد أسَّسَ للنجاةِ البناءَ .

---

(١) كذا علىٰ لغة بإثبات الياء مراعاة للسجعة .

(٢) الهازئ : المستهزئ .

[علامةُ المغالبةِ والإرجاءِ]

وأمَّا علامةُ المغالبةِ : فالإقدامُ على المرادِ ، وإنْ خافَ شرّاً على المعتادِ .

وعلامةُ الإرجاءِ المذمومِ : رجاءُ الإصابةِ دونَ المنهلِ المشروعِ[1] .

فمَنْ أطاعَ اللهَ تعالىٰ ولو واحدةً بعدَ أنْ كانَتْ صحيحةً رجاءَ ثوابِهِ[2] ، وفرَّ عن معصيتِهِ ولو واحدةً خوفاً عن عقابِهِ[3] ، ثم أقامَ علىٰ ذلكَ يرجو ثمرةَ ما عَمِلَ ، ويخافُ عاقبةَ ما فعلَ . . فهو مِنَ الرَّاجينَ والخائفينَ .

ومَنْ قالَ : نِلْتُ الدنيا ، ولَئِنْ رُدِدْتُ إلىٰ ربِّي لأجدَنَّ خيراً منها منقلباً ، وهو خليعُ سببِ ثوابِ الآخرةِ عقداً وفعلاً . . فمغالبٌ ربَّهُ طَلَباً[4] .

ومَنْ قالَ : أمِنْتُ ربِّي عزَّتْ قدرتُهُ ، فلا يعذِّبُني بمعاصيَّ وإنْ لم أنزجرْ ندماً . . فمرجِئٌ قَصَدَ الحلولَ بالمنزلِ بغير سيرٍ ولا قضىٰ لهُ سبباً .

ألا وإنَّ المنهلَ البعيدَ ما عليهِ ورودٌ إلا بعزيمةٍ صحيحةٍ ، وسيرٍ شديدٍ ، وسَوْقٍ قويٍّ ؛ ألا وإنَّ المنهلَ الجنةُ ، والعزيمةَ الإيمانُ ، والسيرَ الاستقامةُ ، والسَّوْقَ المخافةُ[5] .

---

(١) يعني : دون اتخاذ الأسباب ؛ كما قيل : الرجاء ما قارنه عملٌ ، وإلا فهو أمنيَّة .

(٢) أي : طاعة واحدة . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

(٣) أي : معصية واحدة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) قيل : المغالبة : هو طلبُ المقصود علىٰ غير طريق . [من الكامل]

زعمت سَخينةُ أنْ ستغلبُ ربَّها ... وليُغْلَبَنَّ مغالبُ الغلَّابِ

أي : اللهِ تعالى . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٥) روى الترمذي (٢٤٥٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنَّ سلعة الله غالية ، ألا إنَّ سلعة الله الجنة » ، وقال : =

وما للعازم غيرَ السيرِ وصولٌ إلا مِنْ طريقِ الكرامةِ[1] ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [فصلت : ٣٠][2] .

وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨][3] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] .

فالكرامةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ مرجوَّةٌ ، وليسَتْ بمحكومةٍ[4] ، إنَّما حقُّكَ العدْلُ[5] ، وما لكَ يأسٌ عنِ الفضْلِ ، تعالى اللهُ مِنْ قادرٍ لا يُخافُ إلا عدلُهُ ،

= (هـٰذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر) .

(١) يعني : بأن يقع إكرامٌ من الله تعالىٰ من غير ولوجٍ فيما جعل الشارعُ سبباً لتحصيل تلك الكرامة ، ولا معوَّل علىٰ ذلك في الشريعة ولا في العوائد المعتبرة ؛ إذ مثلُ هـٰذا مثلُ من يرجو المال بحفر حفرة في الصحراء ؛ رجاء أن يجد كنزاً مخبوءاً .

(٢) فقدَّم المولىٰ سبحانه التصديق بالقول والعمل ، علىٰ نزول الملائكة بالبشرىٰ وتحقيق الأمل .

(٣) فمن رجا الغفران ، مدَّعياً سعة رحمة الرحمـٰن . . فهو من أهل الاستدراج والخسران ، وأحمقُ يزرع الشوك وهو يرجو حصادَ الريحان .

(٤) إذ المولىٰ مختارٌ منع أو أعطىٰ ، فعطاؤه فضل ، ومنعه عدلٌ ، وهـٰذه أنفاسٌ أشعرية ، ولـٰكن الماتريدية ـ والمصنف من أئمتهم ـ لا يعنون ما يتبادر إلى الذهن ؛ من تجويز تخلُّف العطاء مع الطاعة عقلاً ، وتخلُّف الجزاء مع الكفر عقلاً ، وحسبُك بقول إمام الهدىٰ أبي منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص١٠١) : **(وقد أمكن أن نجعل الثواب كلَّه فضلاً ؛ إذ قد سبق من الله من النعم ما استحقَّ الشكرَ عليه بعامَّة ما احتمل الوسع ، فيكون الثواب فضلاً من الله ، ثم كذلك المضاعفة في ذلك ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، فذكر في السيئة ما توجبه الحكمة من الجزاء ، وضاعف الثواب علىٰ ما يحتمله الإفضال ؛ إذ ذلك أصله ، ولا قوَّة إلا بالله)** .

(٥) أي : إنما عليك أن تراعي جانبَ العدل حتىٰ تباشر السير الشديد والسَّوقَ القويَّ بعد =

وقاهرٍ لا يُرجىٰ إلا فضْلُهُ ، وحاكمٍ لا يَستحِقُّ عليهِ الجزاءَ إلا أهلُهُ[1] ، لهُ الحمدُ والثناءُ ، ما اتَّضَعَتِ الأرضُ وارتفَعَتِ السماءُ .



= العزيمة الصحيحة . انتهىٰ من هامش (ب) .

(١) الاستحقاق على الله تعالىٰ هو من طريق الحكمة كما سبق في التعليق المزبور ، وهو قول مبني علىٰ إثبات الحسن والقبح في الثواب والعقاب عقلاً ؛ حتىٰ فرَّعوا عليه بأنه تعالىٰ لا يفعل إلا الحسنَ عقلاً ، وليس من الحُسْن إثابةُ الكافر ولا عقاب المؤمن عقلاً في باب العدل لا الفضل ؛ لإدراك العقل في الشاهد قبحَ الظلم وحُسْن العدل ، ولـٰكن قال العلامة أمير بادشاه الحنفي في « تيسير التحرير » (٢/ ١٥٢) : (سلَّمنا اتفاق العقلاء علىٰ قبح ما ذكر بمعنىٰ أنه يذمُّ فاعله ، لـٰكن لا نسلِّم اتفاقَهم عليه بمعنى استحقاقه الذمَّ عند الله والعقابَ ، والنزاع فيه) في واحدٍ من أجوبة هـٰذه الشبهة .

فصل المعاملة

قالَ الأخُ : إنَّكَ ـ أدامَ اللهُ توفيقَكَ لإصابةِ الحقِّ ، وإرادةِ الصدقِ ـ لقد بالغْتَ في معاملةِ الدنيا علىٰ سبيلِ العُزْلةِ عنها والخلوةِ ، وما لكلِّ إنسانٍ علىٰ ذلكَ قدرةٌ ، فبيِّنْ لنا وجوهَ المعاملةِ علىٰ سبيلِ المُتْعةِ بها والعِشْرةِ .

قلتُ : إنَّها بابٌ اتَّسعَ حتىٰ لم يُرَ سالكوهُ إلا في كثرةٍ ، ولقد وَصَفْتُ لكَ منها فيما مضىٰ وُجُوهاً جمَّةً ، ولَأَزيدَنَّ لكَ مِنْ بيانِ طرقِهِ ما سينجو بعلمِها مُتأمِّلوها عن فطنةٍ .

[أقسامُ المعاشرينَ]

إنَّ المعاشِرينَ أقسامٌ أربعةٌ : غاشٌّ ، ومحتالٌ ، وناصحٌ ، وناصرٌ .

فالأوَّلانِ طالِبا الدنيا ، والآخرانِ طالِبا الأُخْرىٰ ، ومعاشِرانِ للمولىٰ .

[خصالُ الغاشِّ]

أمَّا الغاشُّ فلهُ أربعُ خصالٍ : استرسالٌ ، ولباقةٌ[1] ، وحسنُ الإجابةِ قولاً ، والخُلْفُ فعلاً .

لأنَّهُ عاشرَ الناسَ ليسلِّموا إليهِ دنياهم ، وإنَّها لمعشوقتُهم وغايةُ مُناهم ؛ فإذا لم يغالبْهم عليها لم يكنْ بدٌّ مِن استرسالٍ إليهم مُتَّضِعاً ليقبلوهُ ، ثم لباقةٍ

---

(١) أراد بالاسترسال : إظهار التواضع ؛ يعني : الانقياد والطاعة ، وباللباقة : التملُّق والتودُّد . مفادٌ من هامش (ب ، هـ) .

مرائياً ليحبُّوهُ ، ثم حُسْنِ إجابةٍ أبداً ليعتمدوا عليهِ ، ثمَّ الخُلْفِ إذا ظفرَ بمعشوقتِهم حالَ التفويضِ إليهِ .

وقد أتعبَ بدنَهُ بتحميلِهِ أسبابَ الغشِّ وما لهُ عنها مِنْ بَراحٍ[1] ؛ فقد رَوَّجَ عليهم وما يَرُوجُ المَطْلُ إلا بمقدِّماتٍ وإصلاحٍ ، معَ ما يخافُ قلبُهُ في صدرِهِ ، عاقبةَ أمرِهِ ، فلا يزالُ يعيشُ عليها خائفاً تَعِباً ذليلاً ، حتىٰ يَحُلَّ بهِ الموتُ حلولاً ، وقلبُهُ فقيدُ الأُنْسِ بخوفِ العاقبةِ ، وجسمُهُ فقيدُ الراحةِ بأسبابٍ واجبةٍ .

[خصالُ المحتالِ]

وأمَّا المحتالُ فلهُ أربعُ خصالٍ : الإطماعُ ، والإغراءُ ، والتخويفُ ، والإبداءُ .

لأنَّهُ عاشرَ الناسَ ليسلبَهم معشوقتَهم بغلبةٍ ، وهو جزءٌ مِنْ كلِّهم ما لهُ عليها مِنْ قدرةٍ[2] ، فيميلُ أوَّلاً إلى الحيلةِ ؛ فيُطمعُ الناسَ فيهِ ليصيرَ لهُ تَبَعٌ ، ثم يغريهم على الباقينَ فهو للعداوةِ سببٌ ، حتىٰ إذا بدَتْ بينَهمُ العداوةُ والبغضاءُ . خوَّفَ مَنْ خالفَهُ ، بإبداءِ قوَّةِ مَنْ تبعَهُ ووافقَهُ ؛ لينزجروا عن شرِّهِ انزجاراً ، فيسلبَهمُ المعشوقةَ عندَ ذلكَ جِهاراً .

لـٰكنَّهُ سلبَ قلبَهُ الراحةَ بأسبابِ الحيلةِ وما لتركِها وجهٌ ؛ فقد واترَ الجملةَ

---

(١) البَراح : الزوال من المكان .

(٢) يعني : الدنيا للناس بمثابة جزء منهم ، فعشقهم لها عشقُ الكلِّ لبعضه ؛ كمحبة الوالد لولده .

وما لهُ منهم مِنْ أمانٍ[١] ، حتىٰ يُخْفيهِ عنهم يدُ الحَدَثانِ[٢] ، فهـٰذا أهدىٰ إلىٰ قلبِهِ نَصَباً بنَصْبِ حبائلِ الحِيَلِ ، وحَمَّلَ خوفُ عاقبةِ الحيلةِ جسمَهُ أعباءَ مغالبةِ الجُمَلِ[٣] .

[خصالُ الناصحِ]

وأمَّا الناصحُ فلهُ أربعُ خصالٍ : وقارٌ ، ولِينٌ ، وإيثارٌ ، وصِدْقٌ .

لأنَّهُ عاشرَ العبيدَ بمعنى المولىٰ[٤] ؛ ليميلَهم إليهِ عنِ الدنيا ؛ رحمةً عليهم في قُنُوعِهم بالسِّجْنِ عنِ المَمْلكةِ ، وبالذَّواقِ عنِ الشَّبْعةِ ، وبالمرضِ عنِ الصحَّةِ ، وكانَ ذلكَ اختياراً ؛ ورثوا آباءَهم ، وورَّثوهُ أبناءَهم ، فصارَ عقدُهُ لهم طبيعةً ، وردُّ مخالفيهِ شريعةً .

وأنَّهُ طبيبٌ قصدَ شفاءَهم بدواءٍ مُرٍّ ، تنبو عنهُ العينُ والصدرُ ، وما رامَ سقيَهم إيَّاهُ بقَهْرٍ ، فلا بدَّ لهُ مِنْ وقارٍ بعلمٍ ليصيرَ منظوراً إليهِ ، **ولينٍ** ليكونَ مرغوباً فيهِ ، **وإيثارٍ** ليصبحَ محبوباً ، **وصدقٍ** فيمسيَ مقبولاً ، فيستريحَ لسانُهُ عندَ ذلكَ عنِ المُحاجَّةِ ، وقلبُهُ عنِ المُلاجَّةِ[٥] ، ويكونَ شمسَ يومِهِ ، وبدرَ قومِهِ .

---

(١) **واتر الجملة** : أصابهم بفجيعة فهم ينتظرون الثأر منه ؛ إذ الموتور هو الذي قُتل له قتيل فلم يُدرِكْ بدمه .

(٢) **الحدثان** : الموت . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) ؛ إذ الموتُ أعظم نوائب الدهر .

(٣) قوله : (جسمه) مفعول أولُ لـ (حَمَّلَ) ، و(أعباء) مفعول ثانٍ ، **والجُمَل** : جمع جملة ؛ أراد قوله قبلُ : (واتر الجملة) .

(٤) لأجل الله تعالى . انتهىٰ من هامش (هـ) ، والضمير في (إليه) الآتي راجعٌ إلى الله تعالىٰ أيضاً .

(٥) **الملاجَّة** : التمادي في الخصومة ، والاستمرار على المعارضة في الخصام .

غيرَ أنَّ العبدَ لا يثبتُ علىٰ وقارٍ ، في عِشْرتِهِ معَ الناسِ وهم أطوارٌ ؛ إلا بصحبتِهِ على اعتقادِ الغَدْرِ منهم ؛ حتىٰ لم يستفزُّهُ عن أصلِ الأمرِ ، إنْ جُوزيَ علىٰ إحسانِهِ بالشرِّ ، وإنْ ندرَ منهم وِفاقُ إحسانِهِ في جزاءٍ عدَّهُ رِبْحاً ، وزادَ لهم بسببِهِ نُصْحاً .

ولن يلينَ لهم إلا بعدَ اعتقادِ مِنَّةِ اللهِ تعالىٰ عليهِ ؛ بأنْ خصَّهُ بفضْلٍ رجعَ الناسُ بسببِهِ إليهِ .

ولن يدومَ على الإيثارِ ، إلا بالعمىٰ عمَّا دونَ الواحدِ القهَّارِ .

ولن يوجدَ على الصدقِ ، إلا بمشاهدةِ الحقِّ .

[شمائلُ الناصرِ]

وأمَّا الناصرُ فلهُ أربعُ شمائلَ : العدلُ ، والإحسانُ ، والثباتُ ، والقوَّةُ .

لأنَّ هـٰذا عاشرَهم علىٰ أنْ يسقيَهُمُ الدواءَ قهراً ، ويشفيَهم طوعاً أو كَرْهاً ، وما لهُ يدٌ عليهم فهو فردٌ ، والناسُ كلُّهم علىٰ ضدٍّ ؛ إلا أنْ يعدلَ في سيرتِهِ ليأمنَ الناسُ شرَّهُ فيرمُقُوهُ ، ثم إحسانٌ فيميلوا إليهِ ويعشقوهُ ، ثم ثباتٌ عليهِ ليسكروا في محبَّتِهِ ، ثمَّ القوَّةُ ليردَّ على السفيهِ وينتصرَ للضعيفِ ، فيستتبعَ الناسَ بسلْبِ قلوبِهم ، ويَعِزَّ مطاعاً بينَ ضروبِهم .

ولن يقدرَ على العدْلِ إلا بالغفلةِ عنِ الخصومِ بالحُجَجِ ، ولا على الإحسانِ إلا بالغفلةِ عن حظِّهِ بحظوظِ الناسِ ، ولا على الثباتِ إلا بالغفلةِ عنِ الجزاءِ بشكرِ الأقرانِ[1] ، ولن يقوىٰ إلا بالغفلةِ عن نفسِهِ بالمولىٰ .

---

(١) في سائر النسخ : (الإمكان) بدل (الأقران) ، والمثبت من (أ) .

فعليكَ أيُّها الأخُ : بالنُّصْحِ للورىٰ مكانَ الغِشِّ لمعنى الدنيا ، ونُصْرةِ المولىٰ مكانَ الحِيلةِ للأولىٰ ، فما الغِشُّ والحِيلةُ في العاجلِ بمُثْمِرَيْنِ إلا تعباً وهُلْكاً ، ثم عذابَ الخلودِ ، وما النُّصْحُ والنُّصْرةُ إلا مُولِيَيْنِ للحالِ أُنْساً وعزّاً ، ثم نعيماً لا يبيدُ .

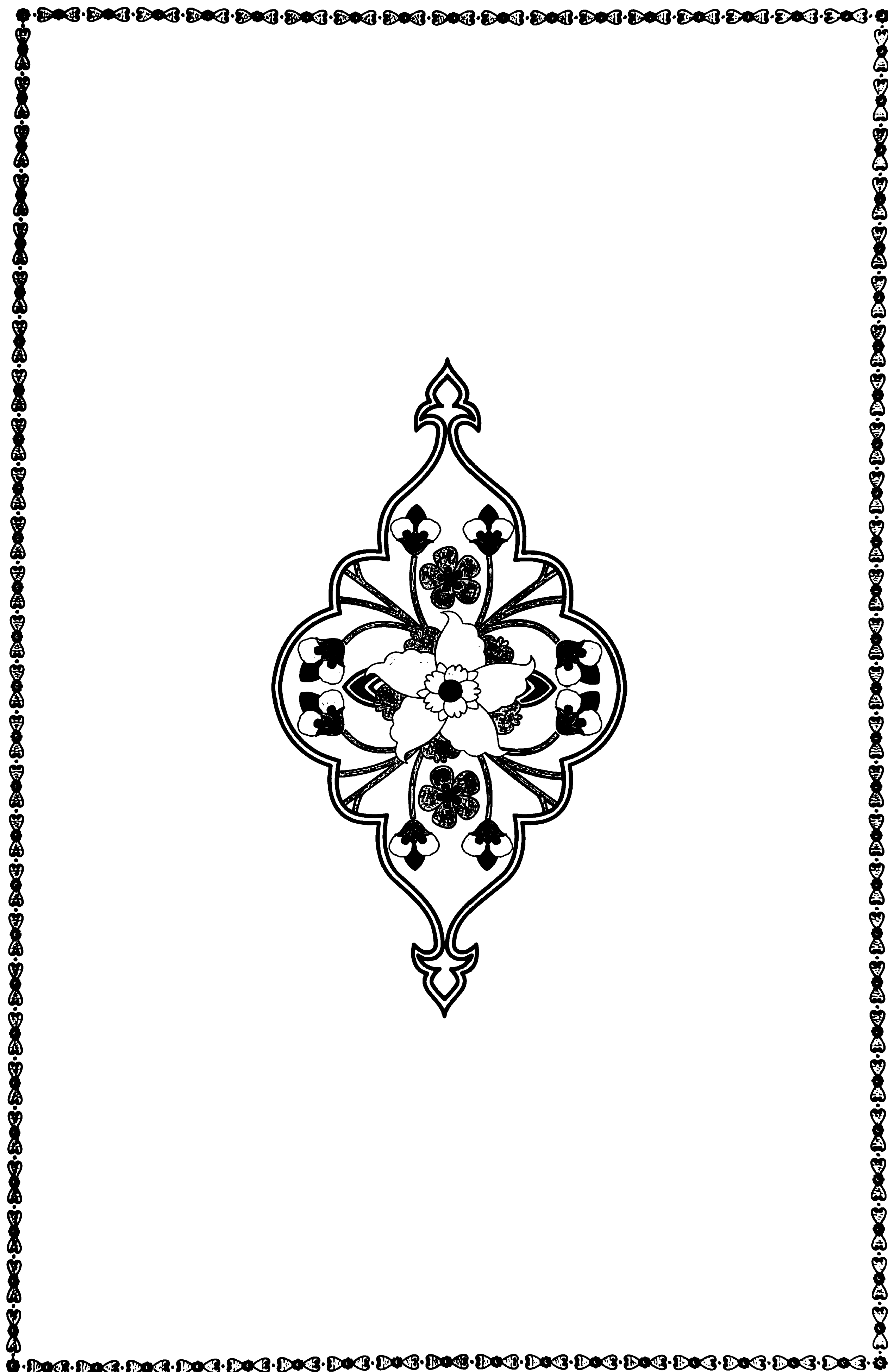
أيقظَ اللهُ تعالىٰ نواظرَ قلبِكَ ، ونوَّرَ مشاعلَ لُبِّكَ ، ومَهَّدَ لكَ سُهُولَ النصحِ والنصرةِ ، ووعَّرَ عليكَ عِقابَ الغشِّ والحيلةِ[1] .

فما التوفيقُ لنا إلا باللهِ ، عليهِ توكَّلْنا وإليهِ نُنيبُ ، وما التضرُّعُ إلا إليهِ ؛ فهو الوهَّابُ السميعُ المجيبُ .

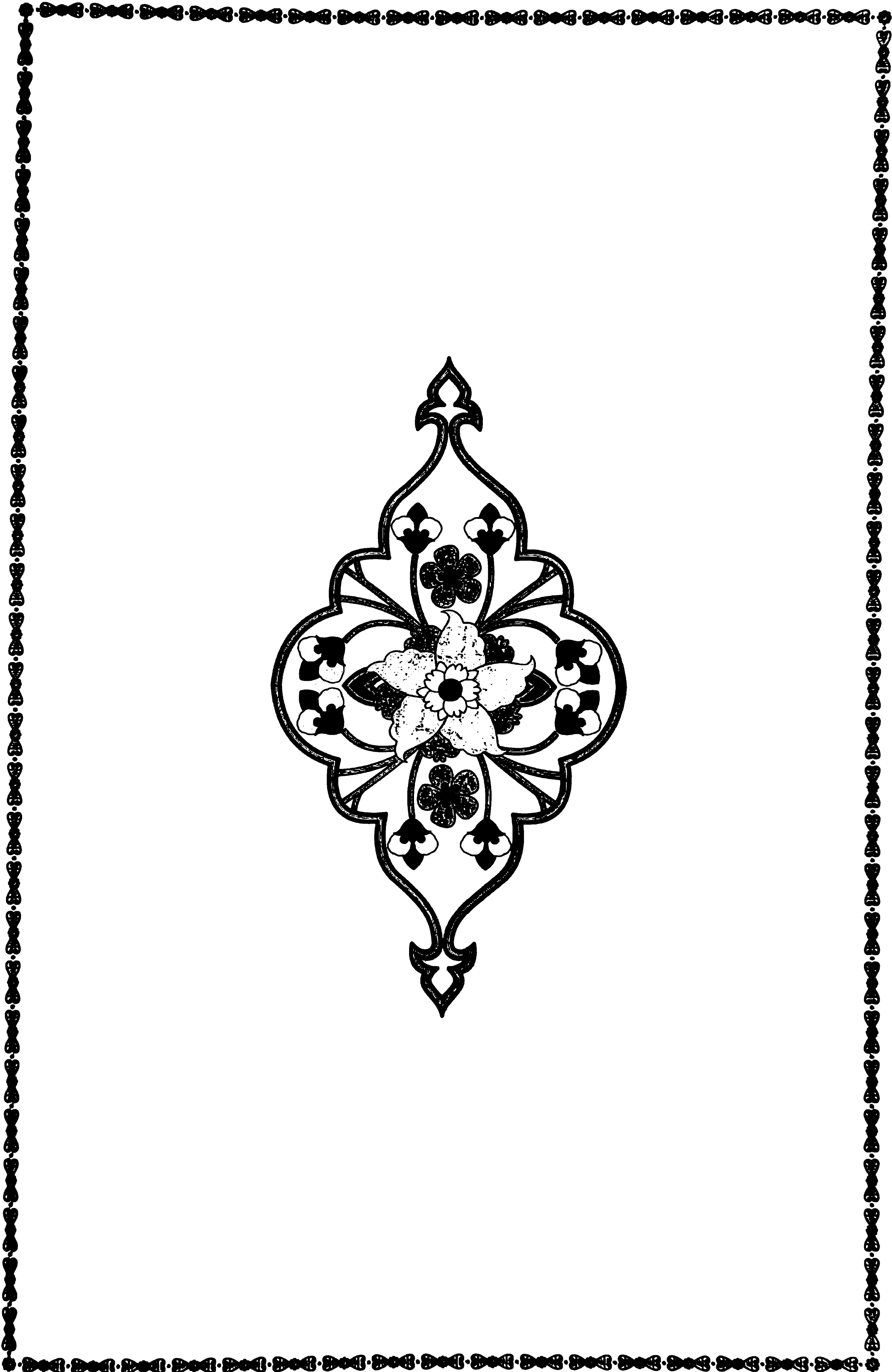
ونسألُهُ أنْ يصلِّيَ علىٰ رسولِهِ محمدٍ وآلِهِ ؛ فقد هُدينا بأقوالِهِ وأفعالِهِ ، ولزمَنا شكرُهُ إلى اللهِ تعالىٰ شكراً للهِ علىٰ إفضالِهِ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ .



(١) عِقاب : جمع عَقَبة ؛ مثل رقاب ورقبة ، والعقبة : مرقىً صعبٌ في الجبل ، وتجمع علىٰ عقبات أيضاً .




[كِتَابُ
الْمِيزَانِ]



كتاب الميزان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ الكتابَ والميزانَ بالحقِّ ، ليقومَ الناسُ بالقسطِ[1] ، ثم وضعَهُ ليومِ الحسابِ ؛ لئلَّا تُظلمَ نفسٌ شيئاً في ثوابٍ أو عقابٍ ، فبدأ جلَّ جلالُهُ الأمرَ بهِ وختمَ عليهِ[2] ، وأشارَ في كلِّ الأحوالِ إليهِ[3] ، فبعثَ الرسولَ الخاتمَ بالدينِ الميزانيِّ[4] ، والميزانِ الفُرْقانيِّ ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسليماً[5] ، وعلىٰ آلِهِ وكرَّمَهُ تكريماً .

فسبحانَهُ مِنْ ربٍّ جليلٍ جعلَ الدنيا للميزانِ كِفَّةً ، والآخرةَ أُخرىٰ[6] ، وما في الدنيا كلِّها ممَّا تشتهيهِ النفوسُ سَنَجاتِ الميزانِ في كِفَّةِ الدنيا[7] ،

---

(١) قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورىٰ : ١٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، فالكيل : للمكيلات ؛ كاللبن والبُرِّ والشعير ، والوزن : للموزونات ؛ كاللحم والفاكهة ؛ وبه تُعرف مقادير الأشياء ، وذلك بمعياره ، وهو وحدة الوزن التي يوزن بها ؛ كالرطل والمثقال والأوقية .

(٢) يعني : بدأ بالإلزام بالميزان في الدنيا ، وختم به في الآخرة حساباً .

(٣) قوله : (الأحوال) ؛ أي : الأحكام . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٤) أي : العدلِ . انتهىٰ من هامش (هـ ، و ، ز) .

(٥) يعني : بعثه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالعدل والقسط ، فأحكام الدين فرقانٌ بين الحق والباطل ، مَنْ وزنَ به عدلَ وفاز ، والمعرضُ عنه بين إخسارٍ وتطفيف .

(٦) أي : كِفَّة أخرى . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) ، وهي كذلك في (ز) ؛ يعني : جعل الآخرة الكفَّة الأخرىٰ .

(٧) سَنَجات : جمع سَنْجة ؛ كسَجْدة وسَجَدات ، وتجمع علىٰ سِنَجٍ أيضاً ؛ كقصعة وقِصَع ، =

وجعلَ عِلاقاتِها مدرَكاتِ الحسِّ وشهواتِ الطَّبْعِ ، والتقوىٰ عنها والطاعةَ للهِ جلَّ جلالُهُ بمنزلةِ الذهبِ المصفَّىٰ والدُّرَّةِ الكُبْرىٰ ، وجعلَ عِلاقاتِها موجَباتِ العقلِ ومسموعاتِ الشرعِ[1] .

وجعلَ الجسمَ عمود الميزانِ[2] ، والنفسَ لسانَهُ ، والقلبَ مِنْجَمَهُ[3] ، والروحَ وَزَّانَهُ[4] .

فبينَ اللسانِ والعمودِ بعضيَّةٌ وامتزاجٌ ، وبينَ العمودِ والسَّنَجاتِ تجانسٌ وازدواجٌ ، وبينَهَا وبينَ الذهبِ مباينةٌ مكاناً[5] ، ومفارقةٌ معنىً وعِياناً ، وبينَ اللسانِ والمِنْجَمِ اتصالٌ بحيلةٍ في مجانسةٍ ، وبينَ الميزانِ والوزَّانِ وُصْلَةُ مجاورةٍ في مباينةٍ .

= وسنجة الميزان ـ ويقال : صنجة ، كما في النسخة (ز) ـ : معيارُ الوزن لنعرفَ أوزان الموزونات ، ومثالها : مثقال الكيل ونصف الكيل والأوقية في زماننا .

والمعنىٰ : جعل الله المشتهَيات في الدنيا معياراً لما في النفوس ؛ تتميماً للابتلاء ، وإخراجاً لما أضمرته النفوس وادَّعت خلافه ، فمعايير وسنجات كفة الدنيا هي الشهوات المتوسَّل إليها بالإدراكات والطباع .

(١) يعني : وجعل التقوىٰ عن الدنيا والطاعةَ لله جلَّ جلاله بمنزلة الذهب الخالص والدُّرة النفيسة .

وفي هامش (و) : (أي : جعل الآخرة كِفَّةً أخرىٰ ، وجعل الإعراض عن الدنيا بمنزلة الذهب المصفَّىٰ ، فحينئذٍ يرجع الضمير في « علاقاتها » إلى الكفة الأخرىٰ ، ولا بدَّ من هـٰذا الدرج ، تأمَّلْ تَدْرِ) .

(٢) ويقال لعمود الميزان : الشاهين .

(٣) المِنْجَمُ : حديدة معترضة في الميزان فيها لسانُهُ ، فإذا استوى اللسانُ معها حصل العدل في الوزن .

(٤) الوزَّان : هو من يقوم بالوزن ، فيخفض يده ويرفعها ليظهر أثر الوزن وعدله .

(٥) قوله : (بينها) ؛ أي : بين العمود واللسان والسنجات . انتهىٰ من هامش (هـ) .

فلا يزالُ هوى اللسانِ في المَيْلِ إلىٰ كِفَّةِ جنسِهِ ، مُخَيِّلاً للعمودِ الحقَّ مِنْ نفسِهِ ، ولا يزالُ الوزَّانُ يأمرُ العمودَ بالعدْلِ ويُثْبِتُ على اللسانِ بالمِنْجَمِ المَيْلَ ؛ فقد عرفَ أنَّ مَعْذبَهُ ما بينَ جانبيهِ[1] ، وقد بانَ في ميلِهِ إلى السَّنَجاتِ حافَتَيْهِ[2] ، والعمودُ وجهُهُ إلى السَّنَجاتِ في حالِ ميلِ اللسانِ ، يرىٰ تجانسَ ما بينَهما معرضاً عنِ الوزَّانِ[3] ، غافلاً عن فراقِ المِنْجَمِ الذي هوَ العَلَمُ على الحقِّ ، والشاهدُ بالصدْقِ .

فإنْ غلبَ اللسانُ[4] ، وصَمَّ عن نداءِ الوزَّانِ[5] . . طفَّفَ وَزْناً ، ونالَ مِنَ المِنْجَمِ عليهِ عَوْناً[6] ، والوزَّانُ في ندائِهِ يقولُ : أيُّها العمودُ ؛ مِلْتَ معَ اللِّسانِ تظنُّ أنَّهُ الوالي ؟! قِفْ فما أنتَ في مذهبِكَ إلا غالي[7] ؛ أمَا تراهُ لا يقدرُ علىٰ مقصودِهِ مِنَ التطفيفِ إلا بكَ ، ولا قدرةَ لكَ إلا بحيلةٍ مِنَ المِنْجَمِ ؟! أفلا تعلمُ أنَّهُ أولىٰ مِنَ اللسانِ بالائتمارِ ؟! أمَا لكَ مِنِ استبصارٍ ؟![8] .

واللسانُ يقولُ : ما هو إلا كاذبٌ ، فما أنتَ إلا منِّي ، وما لنا في غيرِ السَّنَجاتِ مِنْ نصيبٍ ، وليُعْجِبِ العمودَ كلامُهُ فبينَهُما اتصالٌ قريبٌ .

---

(١) المعذب : أراد العَذَبة ؛ وهي الخيط الذي يرفع به الميزان ، وقوله : (ما بين جانبيه) ؛ أي : جانبي المنجم ، وهو خبر (أن) .

(٢) بان : أظهر . انتهىٰ من هامش (و) ، والحافَةُ ـ بتخفيف الفاء ـ : الجانب .

(٣) بينهما : بين العمود والسَّنَجات . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٤) في هامش (و) : (مطلبٌ : الإنسان لسانُ الميزان) .

(٥) يقال : صَمَّ يَصَمُّ صَمَماً ؛ إذا بطل سمع أذنه .

(٦) ونال ؛ أي : اللسان . مفادٌ من هامش (و) .

(٧) كذا بإثبات الياء علىٰ لغة مراعاة للسجعة .

(٨) وذلك أنه إذا لم يرفعه المنجم . . يسقط ويبطل الوزن . انتهىٰ من هامش (و) .

فإنْ خُذِلَ ولم يلتفتْ إلى المِنْجَمِ ، وغفلَ عنِ الميلِ . . مالا إلى السَّنَجاتِ لتكونَ الرؤيةُ وِصالاً[1] ، على اعتقادِ أنَّهما لم يركبا ضلالاً ، فلا يزالُ يهوي مطفِّفاً طمعاً في الوصالِ ، وما لهما ذلكَ إلا بعدَ مفارقةِ الوزَّانِ ، وعندَها يبطلُ الوزنُ ويخلو عنِ السَّنَجاتِ الميزانُ[2] .

وإنْ وُفِّقَ العمودُ لالتفاتِهِ إلى العدْلِ ، وأبصرَ المِنْجَمَ ووقفَ على الميلِ . . أمسكَ عن مساعدةِ اللسانِ ، ورجعَ واللسانُ تابعُهُ إلىٰ قولِ الوزَّانِ ، إلىٰ أنْ يقومَ الوزْنُ بالحقِّ ثم بالرُّجْحانِ ، إلىٰ ألا يبقىٰ لكِفَّةِ الدنيا قوَّةُ تحريكٍ لكِفَّةِ التقوىٰ ، ويبقى اللسانُ أسيراً ، تحتَ رأْيِ الوزَّانِ بعدَ أنْ كانَ أميراً[3] ، والمِنْجَمُ في الأحوالِ كلِّها على اعتدالِهِ ، بهِ يُعرفُ فعلُ اللسانِ في تردُّدِهِ وانتقالِهِ .

[أحوالُ النفسِ]

فصارَتِ الأحوالُ للِّسانِ ـ وهي النفسُ ـ أربعاً :

[النفسُ المَلِكةُ]

حالُ غلبةٍ واستعبادٍ للجسمِ ، فهيَ النفسُ المَلِكةُ[4] ؛ تأمرُ وتنهىٰ ، ما يأتيهِ

---

(١) مالا ؛ أي : اللسان والعمود . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) عندها ؛ أي : المفارقة ؛ أي : الموت . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : تبقى النفس أسيرة بيد الروح . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) سمَّاها بهـٰذا لأنها تملَّكت وتغلَّبت ، فاستعبدت البدن ، ولم تجعل لنداء الروح استجابة ؛ كنفس فرعون الذي تملَّك وتغلَّب وقال كما حكىٰ عنه المولىٰ سبحانه : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] ، وقال في صفته الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ=

معارضةٌ مِنْ جانبِ التقوىٰ[1] ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣][2] .

[النفسُ اللَّوَّامةُ]

ثم حالُ تيقُّظِ الجسمِ في رجوعِهِ عن عبوديَّةِ النفسِ إلىٰ أمرِ الروحِ برأْيِ القلبِ ، فهيَ النفسُ اللَّوَّامةُ ؛ تلومُهُ في رجوعِهِ ، وتعاتبُهُ علىٰ خضوعِهِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢][3] ، فيحتملُ هٰذهِ الحالةَ[4] ، ثم يومَ القيامةِ[5] .

= ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] ، وقال : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢١ـ ٢٤] ، وبه تعلم : أن صفة المُلْك للنفس هنا صفة ذمٍّ ؛ إذ حقُّها العبودية لله تعالىٰ ، واتِّباعُ أمر الروح ، وسيذكر قريباً أن النفس الملكة هي نفس الكافر .

(١) قوله : (يأتيه) ؛ يعني : يأتي النفسَ ، وسبق مراراً للمصنف تذكير لفظ (النفس) .

(٢) فاتخاذ النفس هواها إلٰهاً علامةٌ علىٰ أنها ركبت رأيَها فضلَّت ، ولم تكن ممن قال الله سبحانه فيه : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات : ٤٠ـ٤١] .

(٣) قال العلامة الماوردي في « النكت والعيون » (٦/ ١٥١) : (وفي وصفها باللوامة قولان : أحدهما : أنها صفة مدح ؛ وهو قول من جعلها قسماً ، الثاني : أنها صفة ذمٍّ ؛ وهو قول من نفىٰ أن تكون قسماً) ، ثم قال : (ومن جعلها صفة ذمٍّ فلهم في تأويلها ثلاثة أوجه : أحدها : أنها المذمومة ، قاله ابن عباس ، الثاني : أنها التي تُلام علىٰ سوءِ ما فعلت ، الثالث : أنها التي لا صبر لها علىٰ محن الدنيا وشدائدها ، فهي كثيرة اللوم فيها) .

(٤) قوله : (فيحتمل) ؛ يعني : قول الله تعالىٰ . مفادٌ من هامش (و) ، والمراد بالحالة : الدنيا .

(٥) يعني : يقع اللوم في الدنيا بمثل الحالة المذكورة ، ثم يقع اللوم يوم القيامة ، وروي ذلك عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما . انظر « زاد المسير » (٤/ ٣٦٨) .

[النفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ]

ثم حالُ تمامِ يقظةِ الجسمِ وسكونِهِ عندَ طاعةِ الروحِ ؛ **فهيَ النفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ** ، فاللسانُ في تلكَ الحالِ أشدُّ ما يكونُ اضطراباً ؛ فقد قامَ بالعدْلِ ، وما انقطعَ بعدُ طمعُهُ عنِ الميلِ(١) ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

[النفسُ المطمئنَّةُ]

ثم حالُ رجوعِ الجسمِ إلىٰ طاعةِ الروحِ في الإرجاحِ ، والميلِ إلىٰ ما فيهِ النجاحُ ؛ **فهيَ النفسُ المطمئنَّةُ** ؛ لفقْدِها قوَّةَ المعارضةِ لسكونِ الجسمِ إلى الذهبِ الذي أخبرَهُ الروحُ بخبرِهِ ، فقد تجلَّىٰ لهُ إذْ مالَ إليهِ بمنظرِهِ ، ومَنِ الذي أبصرَ الحديدَ ثم أبصرَ النُّضارَ(٢) . . فمالَ عينُهُ إلى الحديدِ على اختيارٍ ؟!

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴾ [الفجر : ٢٧ـ ٢٩] .

فهٰذا تفسيرُ الميزانِ .

والحقُّ في الوزنِ للهِ تعالىٰ على العبدِ ، وهو مخاطبٌ بالأداءِ ، واللهُ تعالى الضَّامنُ للجزاءِ .

أم أنتَ عميتَ عنِ الذهبِ بالحديدِ ، فلم ترَ فراقَهُ برشيدٍ ؟!

أمَا علمْتَ أنَّ السَّنْجةَ لم تُوضعْ في الكِفَّةِ لتوزنَ ، ولٰكنْ ليُوزنَ بها الذهبُ

---

(١) أي : حال ميل الجسم عن طاعة النفس إلىٰ طاعة الروح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) النُّضار : اسم الذهب أو الفضة ، وقد غلب ـ كما هنا ـ على الذهب .

ثم يُخزنَ ؟! إلا أنَّ السَّنْجةَ معيارٌ ، ما لها مِنْ مقدارٍ ، وما صُنِعَ لها الميزانُ ، ولا جاءَ لأجلِها الوزَّانُ ، وما لكَ بها مِنْ مُتعةٍ ، إلا قَدْرُ ما تصلُ بها إلى السِّلعةِ ، فلا تَقْتَنِ عينَها فلن تَرُدَّ بها الجَوْعةَ[1] ، ولا تنالُ بها الكُسْوةَ ، بلِ ارضَ بها إنْ أُعطيتَ الذهبَ بغيرِ الوزنِ فهوَ المقصودُ ، وإلا فزِنْ بالعدلِ فهوَ الطريقُ المورودُ .

أم أنتَ صيرفيٌّ أستاذٌ عرفتَ الموازينَ بحقائقِها ، ووقفْتَ منها علىٰ طرائقِها ، وجمعْتَ بالميلِ إلى السَّنَجاتِ مِنَ الذهبِ كثيراً ، وكَنَزْتَ بالموازنةِ كنزاً كبيراً ؟!

أمَا علمْتَ أنَّ هـٰذا ميزانُ البعضِ ولكلِّ بعضٍ كلٌّ ؟! أم غَفَلْتَ بالفرعِ عنِ الأصلِ ، أم نفسُكَ مَلِكةٌ زَيَّنَتْ لكَ الحديدَ بقُرْبِ النِّسَبِ[2] ، وأعماكَ عنِ الدُّرِّ والذهبِ ؟! فما أحرزْتَ لو حَقَّقْتَ النظرَ إلا حديداً ، ولن تنالَ بهِ إذا رجعْتَ عنِ الوزنِ إلى الدارِ عَيْشاً حميداً .

فالحياةُ الدنيا يومُ وزنِكَ ، والعُقْبىٰ دارُ مقامِكَ ، ولن يصحبَكَ إليها ما جمعْتَهُ بأيَّامِكَ ، بل يبقىٰ حيثُ كانَ الوزنُ .

[مظاهرُ النفوسِ]

ثمَّ النفسُ المَلِكةُ نفسُ الكافرِ الجاهلِ ، والنفسُ اللوَّامةُ نفسُ الكافرِ العالمِ[3] ، والنفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ نفسُ العالمِ المؤمنِ ،

---

(١) أي : لا تمسك عين السنجة مقصوداً . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) سبق مراراً للإمام المصنف استعمال لفظة (النفس) مذكَّرةً ، وهي كذلك في هـٰذا السياق .

(٣) أي : الفلسفي . انتهىٰ من هامش (و) .

والنفسُ المطمئنَّةُ نفسُ المقرِّ العاملِ[1] .

فمتىٰ جهلَ العبدُ بربِّهِ جلَّ جلالُهُ استغنَتْ نفسُهُ في استعبادِهِ عن ترغيبٍ أو إنذارٍ[2] ، فما عرفَ لمُتْعتِهِ غيرَ هـٰذهِ الدارِ مِنْ دارٍ .

وإذا عرفَ ربَّهُ عزَّتْ قدرتُهُ احتاجَتِ النفسُ إلى اللائمةِ ، وقامَتْ عليهِ تنذرُهُ وترغِّبُهُ قائمةً ؛ تلبِّسُ عليهِ بطريقِ آبائِهِ[3] ، وتُضعِفُ رأيَهُ بخلافِ نُظرائِهِ[4] ، ثم تلومُهُ يومَ القيامةِ علىٰ كفرِهِ ، فهيَ اللوَّامةُ أبداً .

فإذا أقرَّ العبدُ بما عرفَ ، وكذَّبَ النفسَ فيما افترىٰ واقترفَ . . كانَ عَدْلاً ، وغسلَ ثوبَهُ عن نجاسةِ الكفرِ غَسْلاً ، فرأى الدنيا بالعينِ والآخرةَ بالقلبِ ، والنفسُ معزولةٌ ، لم تغبْ بعدُ عن مكانِ الولايةِ[5] ، فظَلَّتْ أمَّارةً بالميلِ تحتَ

---

(١) في (أ) وحدها : (المقل) بدل (المقر) .

(٢) استعباد العبد للجسم ؛ إذ العبد بلغ إلىٰ أسفل السافلين ، فلا حاجة إلى الوسائط . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) فيه خدعة التقليد وذمُّهُ ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٤] ، وقال جلَّ من قائل : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات : ٦٩ـ٧٠] ، والمراد : نفس الكافر .

(٤) فيه خدعة التظنُّن بعد جلاء اليقين ، واعتبار الجمهور معياراً في الحق والباطل ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣٦] ، وقال الحكيم العليم : ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : ١٧] ، وقال سبحانه : ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [الصافات : ٥٤ـ٥٦] .

(٥) أي : عن وسط المِنجم . انتهىٰ من هامش (و) .

إقامةِ العدلِ[١] ، أو أمَّارةً بالسُّوءِ في تلقينِهِ الخيرَ[٢] ، وتربيهِ العُجْبَ ، وتُزيِّنُ لهُ الرُّخصةَ[٣] ، وتوقعُهُ في البدعةِ ، إنْ عجزَتْ عنِ التصريحِ ، بتعاطي القبيحِ ؛ رجاءَ أنْ يعودَ إليها بجدٍّ وعِنايةٍ ، تدعوهُ إلى الغَوَايةِ ، بلسانِ شرعٍ وهدايةٍ .

فإذا عملَ العبدُ بما اعترفَ ، نادماً على ما جارَ وأسرفَ . . جاءَ حالُ عمى العينِ عنِ الدنيا ، ومشاهدةِ القلبِ الحقَّ والأُخْرىٰ ، وإذا النفسُ مُشْخَصَةٌ عنِ الولايةِ بجنودٍ[٤] ، مأسورةٌ في قيودٍ ، فكانَتْ مطمئنَّةً ليأسِها عنِ الفَكاكِ ، مطيعةً للروحِ مخافةَ الهلاكِ .

فعندَها تتساقطُ السَّنَجاتُ ويخلصُ الذهبُ بلا وزنٍ ، وتصلُ إلى المقصودِ بلا طَنٍّ[٥] .

فإنْ لم تقفْ أيُّها الأخُ علىٰ هـٰذا الميزانِ بالاستدلالِ . . فكيفَ غفلْتَ عنِ السماعِ واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمـٰن : ٩] ؟!

---

(١) أي : في حالٍ يأمر الجسمَ الروحُ بالعدل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : تأمر بالشر في صورة الخير . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) كبدل الإحسان ، وشرب المثلَّث . انتهىٰ من هامش (و) ؛ ففي بدل الإحسان شبهة الربا ، والمثلَّث : ما طُبخ من عصير العنب حتىٰ ذهب ثلثاه ، وهو حلال في مذهب الإمام المصنف إذا قصد به التقوِّي ، أما إن قصد التلهِّي فحرام . انظر « الاختيار » (٤/ ١٠٠) .

(٤) مشخصة : محضرة رغماً عنها ، يقال : شَخَصَ من بلد إلىٰ بلد ؛ إذا ذهب إليه ، وأشخصته أنا ، وفي هامش (و) : (معزولة) .

(٥) الطنُّ : صوتٌ كالطنين ، ولعله قصد رنَّة الصيرفي للذهب ليعرف خالصه من بهرجه ، وفي (ب ، هـ ، و ، ز) : (بلا ظنٍّ) بدل (بلا طنٍّ) .

[أحوالُ النفوسِ علىٰ لسانِ السَّفْرِ]

ثم حالُ النفسِ المَلِكةِ علىٰ لسانِ السَّفْرِ تُسمَّىٰ : حالَ نومٍ ، وحالُ اللوَّامةِ : حالَ يقظةٍ ، وحالُ الأمَّارةِ بالسُّوءِ : حالَ مسيرٍ ، وحالُ الطُّمأنينةِ : حالَ الوصولِ .

وذلكَ لأنَّ نفسَ الكسلانِ في السَّفَرِ تقضي مُنْيَتَها إذا نامَ المسافرُ[١] ، ومتىٰ تيقَّظَ للمسيرِ خوَّفَتْهُ بالليلِ وصعوبةِ الطريقِ ، ولامَتْ علىٰ مساعدةِ الرفيقِ ، حتىٰ إذا سارَ إلى القافلةِ أمرَهُ بالوقوفِ ، وأمَّلَهُ النجاةَ والراحةَ في العُكُوفِ ، حتىٰ إذا وصلَ إلى المنزلِ واستطابَ المَنْهَلَ اطمأنَّ .

[أحوالُ النفوسِ علىٰ لسانِ أهلِ الطبِّ]

وعلىٰ لسانِ الطبِّ تُسمَّى الأولىٰ : حالَ شهوةٍ ، والحالةُ الثانيةُ : حالَ مرضٍ ، والثالثةُ : حالَ دواءٍ ، والرابعةُ : حالَ شفاءٍ .

لأنَّ الشَّهْوانيَّ لا صبرَ لهُ على الوجودِ عنِ الإسرافِ حتىٰ يخامرَهُ المرضُ[٢] ، فيندمَ حالَ ضعفِهِ علىٰ سَرَفِهِ والنفسُ تلومُهُ علىٰ هٰذا الغرضِ ؛ تقولُ : قِوامُكَ بغذائِكَ ، وباقتضاءِ الشهواتِ تصلُ إلىٰ شفائِكَ ، وما تَلَفُكَ إلا في دوائِكَ ، وإنَّما هٰذا هَيْجُ طبيعةٍ لا قرارَ لهُ[٣] ، وكسوفُ طالعٍ لا فِرارَ عنهُ .

والطَّبيبُ يذكِّرُهُ عاقبةَ ما جرَّبَ آمراً بحميةٍ ، وبشَرْبَةٍ مِنَ الدواءِ قويَّةٍ ،

---

(١) المُنْية : الأمنيَّةُ نفسها .

(٢) قوله : (على الوجود) ؛ أي : مع وجود المشتهى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) هيجُ طبيعة : ثورانها وغليانها .

وبالطبعِ عن رائحتِها فِرارٌ ، وما للنفسِ علىٰ مَرارتِها اصطبارٌ ، حتىٰ إذا أيقنَ بفسادِ حالِهِ . . شربَها طلباً لاعتدالِهِ ، فقامَتِ النفسُ أمَّارةً مضطربةً في ضعفِها تأمرُ بتناولِ الغذاءِ ، وفي عطشِها بشربِ كلِّ ماءٍ ، والطبيبُ يذكِّرُهُ الداءَ ، ويؤمِّلُهُ في الصبرِ الشفاءَ ، حتىٰ إذا صبرَ وشُفِيَ وقويَتْ طبائعُهُ . . اطمأنَّتْ وزالَتْ عنهُ فجائعُهُ .

[أحوالُ النفوسِ علىٰ لسانِ الدينِ]

وعلىٰ لسانِ الدِّينِ تُسمَّى الحالةُ الأولىٰ : حالَ غفلةٍ ، والثانيةُ : حالَ دعوةٍ ، والثالثةُ : حالَ إجابةٍ ، والرابعةُ : حالَ قَبولٍ .

لأنَّ الجاهلَ لا يَنْعَمُ وإنْ ملكَ الدنيا بحذافيرِها إلا إذا غَفَلَ عن أحوالِ الحكماءِ ومراتبِ العلماءِ[١] ، حتىٰ إذا حرَّكَهُ عقلُهُ عن نومِ غفلتِهِ ، ودعاهُ إلى التأمُّلِ في نَظْرتِهِ . . أقبلَتِ النفسُ لائمةً علىٰ سماعِهِ ، والعقلُ يحرِّكُهُ عن مهادِهِ ؛ يعلنُ الدعوةَ[٢] ، ويَمزُجُها بالشريعةِ[٣] ، حتىٰ إذا التفتَ إليهِ ليراهُ رأىٰ تلكَ المراتبَ[٤] ، وعاينَ ما لديهِ مِنَ المواهبِ ، فاختارَ والنفسُ في اضطرارٍ ، ما لها مِنْ قرارٍ ، حتىٰ إذا استحكمَتِ الإجابةُ ، وتمَّتِ الإصابةُ . . اطمأنَّتِ النفسُ عندَهُ ، وحَمِدَتْ هنالكَ رِفْدَهُ[٥] .

---

(١) الحذافير : جمع حُذْفُور ؛ الجانب والناحية .

(٢) في (د ، هـ ، ز) : (بنيان الدعوة) بدل (يعلن الدعوة) .

(٣) في (ب ، ز) ونسخة في هامش (هـ) : (بالشُّنْعة) بدل (بالشريعة) .

(٤) المثبت من (أ ، ج)، وفي (ز): (لردِّهِ) ، وفي سائر النسخ : (ليردَّه) بدل (ليراه) .

(٥) أي : عطية الروح . انتهىٰ من هامش (و) .

فالحالةُ الأولىٰ للترابِ[1] ، والثانيةُ للسُّلالةِ مِنْ طينٍ[2] ، والثالثةُ للاعتدالِ القابلِ للتصويرِ[3] ، والرابعةُ للصَّلصالِ الذي تَمَّ صورةً[4] .

فما الترابُ بمدعوٍّ للبناءِ ، وإنَّما دُعِيَ حينَ مُزِجَ بالماءِ ، لـٰكنَّهُ غيرُ قابلٍ للصنعةِ حتىٰ يعتدلَ ، ولن تُحكمَ الصنعةُ حتىٰ ييبسَ ، وما ذلكَ مِنَ اللهِ بعجيبٍ ، لهُ الحمدُ وإيَّاهُ أسألُ التوفيقَ فهوَ السميعُ المجيبُ .

قد ذكرْنا لكَ مِنْ حِكَمِ أصلِ الفطرةِ ، بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ ما صارَ لنظيرِهِ عِبْرةً ، يهتدي بها ذَوُو التأمُّلِ بالعقولِ ، ويضلُّ عنها ذَوُو الغفلةِ بالتأميلِ ، ولسْنا وإنْ تقصَّيْنا بمُسْتنفِدٍ أصلَها بفرعِها ، ولا بمستنبِطٍ جنسَها بنوعِها ، فقد جُبِلَ العبدُ على العجزِ والجهلِ ، إلا ما آتاهُ اللهُ مِنَ الاقتدارِ والعلمِ .

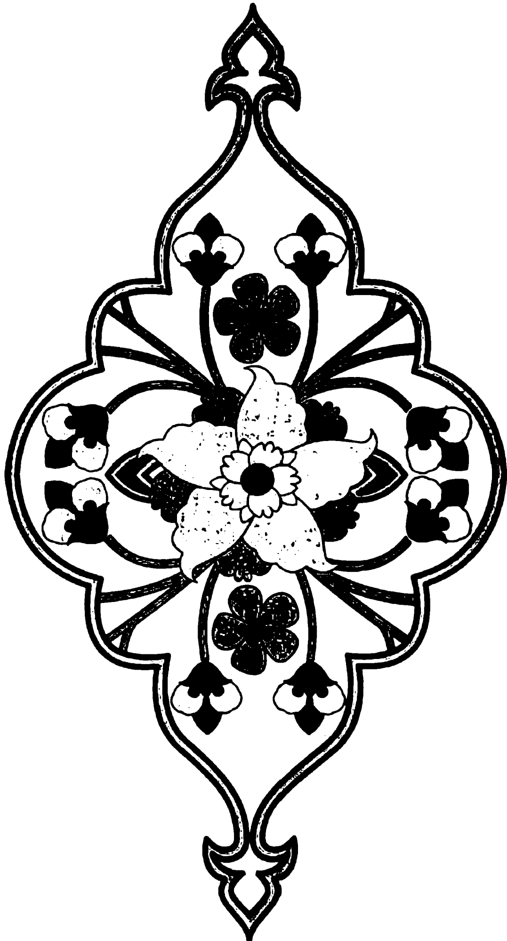
وسنذكرُ بعدَ هـٰذا مِنْ أقسامِ الناسِ في الاعتقادِ ـ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ ـ ما لا يخلو عنها عبدٌ ، ولا يعدوها مِنْ أحدٍ قصدٌ ، وباللهِ التوفيقُ ولهُ الحمدُ .



---

(١) وهي النفس المَلِكة ؛ وهي نفس الكافر الجاهل .
(٢) وهي النفس اللوَّامة ؛ وهي نفس الكافر العالم .
(٣) وهي النفس الأمَّارة بالسوء ، وهي نفس المؤمن العالم .
(٤) وهي النفس المطمئنَّة ، وهي نفس المقرِّ العامل .

[كِتَابُ
أَقْسَامِ النَّاسِ فِي الدِّينِ]



كتاب
أقسام الناس في الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لمَنْ خلقَ الخَلْقَ أطواراً[1] ، ليعبدوهُ إعلاناً وإسراراً ، وخلقَ الجزاءَ جنَّةً وناراً ، وما تركَ غيرَهما للعالمينَ بعدَ الحياةِ الدنيا داراً ، وعرَّفَهُمُ الطريقينِ بالعقولِ ، وألزمَهُمُ الحُجَّةَ على المعرفةِ بالكتابِ والرسولِ ؛ ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

والصلاةُ على مَنْ تمَّتْ بهِ الدَّلالاتُ ، وخُتِمَتْ عليهِ الرِّسالاتُ[2] ، واختيرَ سيِّداً لمَنْ مضىٰ مِنَ الأئمَّةِ[3] ، واختيرَ لهُ مِنَ الناسِ خيرُ أُمَّةٍ ؛ فقالَ جلَّ

---

(١) أي : مختلفين علىٰ أحوال شتَّى . انتهىٰ من هامش (و) ، والطَّور : الحالة والهيئة .

(٢) روى البخاري (٣٥٣٥) ، ومسلم (٢٢٨٦/ ٢٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنَّ مثلي ومثلَ الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنىٰ بيتاً ، فأحسنه وأجمله ، إلا موضعَ لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويَعجَبُون له ، ويقولون : هلَّا وُضعت هـٰذه اللبنة ؟! » ، قال : « فأنا اللبنةُ ، وأنا خاتمُ النبيين » .

(٣) روى البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أنا سيدُ الناس يومَ القيامة . . . » الحديث ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٥/ ٣٢٨) : (إذا كان سيِّدَهم في يوم القيامة ففي الدنيا أولىٰ ، وقوله : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء » ؛ أي : تخييراً يؤدِّي إلىٰ تنقيص ، أو : لا تُخيِّروا في ذات النبوة والرسالة ؛ إذ الأنبياء فيهما علىٰ حدٍّ واحد ، والتفاضل بأمورٍ أُخر) .

جلالُهُ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، فوضعَ اللهُ تعالىٰ عنهم في الدنيا الأغلالَ والإصْرَ(١) ، وضاعفَ لهم في الآخرةِ الثوابَ والأجرَ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فكنتُم أقلَّ عملاً ، وأكثرَ أجراً »(٢) ، وبيَّنَ لهم صدْرَ المجالسِ في دارِ الخصومةِ بالوَساطةِ ، ثم أعدَّهُ منها لهم في دارِ الحكومةِ بالشهادةِ ؛ فقالَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ؛ حكمةً مِنَ اللهِ تعالىٰ بالغةً ، بحُجَجٍ مِنْ لَدُنْهُ واضحةٍ .

ولسْتَ أيُّها الأخُ بعدَما تلوتُ عليكَ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ ما يجبُ لهُ التصديقُ . . بمطمئنٍّ قلباً إلا بما يوجبُ التحقيقَ ؛ مِنَ المعقولِ الضَّروريِّ ، والدليلِ النُّوريِّ ؛ وذلكَ في معرفةِ أقسامِ الناسِ ومنازِلِهم ، وأحوالِهم في حصائلِهم(٣) ؛ فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

---

(١) الإصر : الذنب والثقل ، وهي أحكام أُلزِمَها بنو إسرائيل .

(٢) روى البخاري (٧٤٦٧) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على المنبر : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلىٰ غروب الشمس ، أُعطي أهل التوراةِ التوراةَ ، فعملوا بها حتى انتصف النهارُ ثم عجزوا ، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أُعطي أهل الإنجيلِ الإنجيلَ ، فعملوا به حتىٰ صلاة العصر ثم عجزوا ، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطيتم القرآن ، فعملتم به حتىٰ غروب الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربَّنا ؛ هٰؤلاء أقلُّ عملاً وأكثر أجراً ! قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا ، فقال : فذلك فضلي أوتيه من أشاء » .

(٣) ما حصل لهم من أعمالهم . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

[الناسُ أربعةُ أقسامٍ ؛ صدِّيقونَ ، وفاسقونَ ، وجاحدونَ ، ومنافقونَ]

إنَّ الحكيمَ القديمَ الذي خلقَ الخلقَ مِنْ أربعةِ عناصرَ(١) ، سلكَهم في أربعِ طرائقَ(٢) ؛ فكانوا صِدِّيقينَ ، وفاسقينَ ، وجاحدينَ ، ومنافقينَ .

فالصِّدِّيقُ : المطيعُ عَقْداً وفِعْلاً ، والفاسقُ : المطيعُ عَقْداً لا فِعْلاً ، والجاحدُ : العاصي فِعْلاً وعَقْداً ، والمنافقُ : العاصي عَقْداً لا فِعْلاً .



(١) انظر ما تقدم (ص ١٠٩) في بيان ذلك .

(٢) باعتبار الإيمان والإسلام .

فصل الصّدّيقين [1]

الحمدُ للهِ الذي اصطفىٰ رَهْطاً مِنْ أُولي الألبابِ [2] ، فخصَّهم بوراثةِ الكتابِ [3] ، وقادَهم بنورِهِ إلى الطريقِ ، كما يقودُ الأعمى الهادي الرفيقُ ، حتى استقاموا علىٰ سواءِ السبيلِ ، وساروا إلى المنزلِ بينَ قائدٍ ودليلٍ [4] ، آمنينَ عنِ الضَّلالِ ، وحلُّوا بالمُسْتَناخِ الرَّحْبِ والمكانِ الخِصْبِ مطمئنِّينَ تحتَ الظِّلالِ .

والصلاةُ على السِّراجِ المنيرِ ، البشيرِ النذيرِ ، وآلِهِ الطيِّبينَ المقتدينَ بأفعالِهِ وأقوالِهِ .

[أقسامُ الصدِّيقينَ]

اعلمْ : أنَّ الصِّدِّيقينَ أربعةُ أقسامٍ : الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم ،

---

(١) هـٰذا القسم الأول من أقسام الناس .

(٢) فيه تنويهٌ بقلَّةِ عدد الصِّدِّيقين ؛ إذ الرهط : ما دون العشرة من الرجال خاصة ، وعن الأصمعي : ما فوق العشرة إلى الأربعين ، وعن أبي العباس ثعلب : الجمعُ مطلقاً ؛ كالنفر والقوم والمعشر ، وعزَّة الصديقيَّة تقتضي القول الأول ، ولـٰكن الناظر في الكتاب يعلم أنه أراد الجمع أيّاً كان عددهم .

(٣) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، وبه تعلم : أنه لم يُرِد الصديقيّة المعهودة عند السادة الصوفيّة .

(٤) فالدليل : يهديهم من بين أيديهم ، والقائد : يسوقهم من ورائهم إن هم تاهوا فضلُّوا الطريق .

والأولياءُ ، والمقتصدونَ ، والظَّالمونَ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، غيرَ أنَّ السابقينَ قسمانِ : الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم ، ثم الأولياءُ .



[مقامات الأنبياء]

وللأنبياءِ أربعُ مقاماتٍ[1] : مقامُ الحَيْرةِ ، ثم مقامُ الرؤيةِ ، ثم مقامُ العصمةِ ، ثم مقامُ النُّصْرةِ .

لأنَّ الأنبياءَ عليهمُ السلامُ همُ الرَّهطُ الذينَ اختارَ اللهُ تعالىٰ في الأزلِ لهم أطيبَ بَذْرٍ ، وأخصبَ مَنْبِتٍ ، وأسعدَ وقتٍ ، وأهنأَ غذاءٍ ؛ فكانَ ابتداءُ الوجودِ على الطَّهارةِ بحُكْمِ طيبِ البَذْرِ ، وعلى الزكاةِ بحُكْمِ خِصْبِ المَنْبِتِ ، وعلى الجَدِّ بحُكْمِ سعادةِ الوقتِ[2] ، وعلى الصفاءِ بحُكْمِ عذوبةِ الماءِ وموافقةِ الغذاءِ ، فنشؤُوا مطهَّرينَ مزكَّيْنَ مجدودينَ أصفياءَ ، مِنَّةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، قد وُقُوا خُبْثاً يكونُ مِنَ البَذْرِ ، وقسوةً تُعْدِي مِنَ المَنْبِتِ ، وحرماناً ينشأُ مِنْ نُحوسةِ الوقتِ ، وفساداً يتولَّدُ مِنَ الغذاءِ[3] ، وما معَهم في أصلِ الفطرةِ عقلٌ يهديهم إلى المحلِّ ، ولا خُبْثٌ فيهم يدعوهم إلى المَضِلِّ[4] ، فبقُوا على المكانِ المختارِ متحيِّرينَ ، كالسَّفْرِ لَحِقَهُمُ الليلُ وأعماهم الظلامُ وهم على الطريقِ

---

(١) هنا يبدأ الحديث عن القسم الأول من أقسام الصدِّيقين .

(٢) الجَدُّ هنا : الحظُّ الحسن ، وكذا قوله الآتي : (مجدودين) بمعنىٰ محظوظين بالسعد ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

(٣) وهـٰذا كلُّهُ كما لا يخفىٰ علىٰ سبيل العادة المشاهدة والمستنبطة ، من غير إثبات تأثير بحال ، بل غاية ما يقال : أنه جَرْيٌ مع المألوفات من المقترنات ؛ إذ كلُّ ما ذُكِرَ لزومُ سبب لمسبَّب عادةً .

(٤) المَضلُّ ـ بفتح الضاد وكسرها ـ : المكان الذي يُضَلُّ فيه الطريق .

فحلُّوا منتظرينَ[1] ، فكانوا ما شاءَ اللهُ في عنايةِ المولىٰ ، إلىٰ أنْ جاءَ أوانُ الرؤيةِ والهدىٰ[2] ، وذلكَ في قولِ اللهِ تعالىٰ واللهُ أعلمُ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٧] ؛ أي : في مقامِ حَيْرةٍ ضالاً عنِ الطريقِ بالوقوفِ على المنزلِ[3] ، فهداكَ بالعقلِ والكتابِ المُنزَلِ .

ثم فجَّرَ اللهُ لهم أنوارَ العقولِ ، وأيقظَ لهم أبصارَ القلوبِ ، فأراهم ملكوتَ السماواتِ والأرضِ[4] ، فكانوا مِنَ المهتدينَ ، فسلكوا الطريقَ المستقيمَ إلىٰ مولاهم آمنينَ ؛ وذلكَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ .

فساروا ما شاءَ اللهُ بهدايتِهِ ، بعدَما أقاموا مدَّةً بعنايتِهِ ، فرأَتْ نفوسُهم والشياطينُ سلوكَهم طُرُقَ الآخرةِ عُمْياً عنِ الدنيا بأسرِها ، فاضطربَتْ لإسماعِهم أحلىٰ صوتِها ، وإراءتِهم أبهىٰ زَهْرِها ، هٰذا علىٰ يمينِ الصراطِ وهٰذا على

(١) يعني : نزلوا وأناخوا ريثما ينجابُ الظلام ، ويسفر الفجر مظهِراً معالمَ السبيل .
(٢) يعني : جاء وقت زمن الإنباء والإيحاء المقدَّر أزلاً .
(٣) قال العلامة السعد في « شرح المقاصد » (٢/ ١٩٧) : (معناه : فقدان الشرائع والأحكام) ، وهٰذا من أعدل التفاسير ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الصافات : ٩٩] ، وقال صلى الله عليه وسلم ـ وتقدم تعليقاً (ص٢٩٠) ـ : « واللهِ ؛ لولا اللهُ ما اهتدينا » .
(٤) رؤية الملكوت بالقلب ، ورؤية المُلْك بالبصر . انتهىٰ من هامش (و) .

الشِّمالِ[1] ، وترويحِهم مِنَ الجانبينِ بالصَّبا والشَّمالِ[2] ، إلىٰ نَصْبِ شَبَكِ المهالكِ ، علىٰ سواءِ المسالكِ ، حتىٰ هَمُّوا لولا أنْ عُصِموا[3] ، وزاغوا لولا أن ثُبِّتوا ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقالَ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤][4].

فقَوُوا بالتأييدِ والتوفيقِ ، وما خافوا شَبَكَ المِحَنِ على المَضِيقِ ، ولا التفتوا إلىٰ جانبي الطريقِ ، إلا للدعوةِ إلى الحقِّ الدُّعاةَ إلى الزيغِ[5] ، واللهُ تعالىٰ مِنْ ورائِهم بالتأييدِ بالرَّصَدِ والجنودِ ، فما أجابوهم إلا مستهزئينَ[6] ، إلا قليلاً مِنَ المساكينِ[7] ، فثَبَتوا على الدعوةِ نُذراءَ وبُشراءَ[8] ، فكابروهم متعنِّتينَ ، وقصدوا استفزازَهم مِنَ الطريقِ متغلِّبينَ ، فنصرَهم اللهُ تعالىٰ بجنودِهِ فصاروا غالبينَ ، قاهرينَ الضُّلَّالَ عنِ الصراطِ إلىٰ جانبيهِ بالعدولِ بهم إلىٰ

---

(١) يعني : النفس والشيطان .

(٢) الصَّبا : ريح تكون عند استواء الليل والنهار ، وتُسمَّىٰ بالقبول ؛ لأنها تهبُّ من تلقاء الكعبة ، والشَّمال : الريح التي تهبُّ من جهة الشِّمال .

(٣) فالعصمة منعتهم من الهمِّ ، لا أنهم هَمُّوا ثم عصموا ، وانظر ما تقدم (ص ٢٤٥) .

(٤) انظر (ص٢٤٥) ، والركون : الميل إلى الشيء والاعتماد عليه .

(٥) يعني : أنما كان التفاتهم ليدعوا الذين يدعون إلى الزيغ والضلال ، إلى الحقِّ والرشاد .

(٦) قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۞ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ٣٥ـ ٣٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل : ١٠] ، وقال : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] .

(٧) قال سبحانه : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] .

(٨) قال جلَّ جلاله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ [الكهف : ٥٦] .

سوائِهِ ، محذِّرينَ ما علىٰ حافَتَيْهِ مبشِّرينَ بما لهم عندَ انتهائِهِ[1] ، حتى ازدحموا بهم على الصراطِ مستقيمينَ ، وتَبِعوا الأنبياءَ ـ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ ـ مطمئنِّينَ ، فجُوزُوا بما صبروا في الدنيا بالولايةِ ، وبما صَدَقوا في الآخرةِ بالشهادةِ .

[العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ]

وللأنبياءِ عليهمُ السلامُ ورثةٌ ؛ وهمُ العلماءُ أحسنَ اللهُ تعالىٰ إليهم ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ أمَّتي كأنبياءِ بني إسرائيلَ »[3] .

وهـٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ لأنَّ الأنبياءَ كانوا للهِ وللعقبىٰ ، وإنْ كانوا في أصلابِ البشرِ ونَشَؤوا مِنْ نعيمِ الدنيا ، فلم يُورِّثوا إلا ما كانَ للهِ مِنَ العلمِ والحكمةِ ، وكانَ ما تركوا مِنْ نعيمِ الدنيا صدقةً[4] ، كمَالٍ لا مالكَ لهُ مِنْ نحوِ اللقطةِ ، ولم يَرِثْهم إلا مَنِ اتَّصلَ إليهم بالربِّ ، دونَ مَنِ اتَّصَلَ إليهم بالصُّلْبِ[5] .

---

(١) ما علىٰ حافتيه : نار جهنم ، وما عند انتهائه : جنة الخلد .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، وتقدم تعليقاً (ص١٠١) .

(٣) تقدم (ص١٠١) أنه لا أصل له ، مع بيان وجه التشبيه .

(٤) قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٢/ ٧٤) ، (والحكمة في أن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لا يورثون : أنه لا يُؤمنُ أن يكون في الورثة مَنْ يتمنَّىٰ موته فيهلك ، ولئلا يُظنَّ بهم الرغبة في الدنيا لوارثهم ، فيهلكَ الظانُّ ، وينفرَ الناس عنهم) .

(٥) روى البخاري (٣٠٩٣) ، ومسلم (١٧٥٩) من حديث سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورثُ ، ما تركنا صدقةٌ » ، وفي الخبر غضبُ السيدة فاطمة رضي الله عنها ، ومهاجرتها لسيدنا أبي بكر حينما روىٰ لها هـٰذا الحديث وامتنع من دفع ما تركه الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم ، قال الحافظ البيهقي =

ثم نصَّ اللهُ تعالىٰ لنوحٍ عليهِ السلامُ في ابنِهِ فقالَ لهُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] ، فأخرجَهُ من جملةِ الأهلِ ، بما كانَ منهُ مِنْ فاسدِ الفعلِ[١] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ في أهلِ بيتِ رسولِهِ رضوانُ اللهِ عنهم : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣][٢] ، وصفَ أهلَ البيتِ بالطهارةِ لتكونَ الصفةُ علىٰ أعيانِهم عَلَماً ، ولا يدَّعي الأهليّةَ لنفسِهِ مَنِ انتسبَ إليهِ ممَّنْ عَدِمَ الصفةَ عَدَماً .

ثم أكَّدَ هٰذا المعنى الرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلسانِهِ فقالَ : « العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ » ؛ ليُعْلِمَنا بالإرثِ الأهليّةَ[٣] ، ويصرفَنا عنِ الوُصْلةِ الصُّلْبيّةِ ،

= في « الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد » (ص٤٣٩) : (ثم شجرَ بين فاطمةَ وأبي بكر كلامٌ بسبب الميراث ؛ إذ لم تسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب الميراث ما سمعه أبو بكر وغيره ، فكانت معذورةً فيما طلبته ، وكان أبو بكر معذوراً فيما منع) ، وقد قام سيدنا عمر وعثمان وعلي بما قام به سيدنا أبو بكر رضي الله عنهم أجمعين ، ويحمل غضب سيدتنا فاطمة رضي الله عنها علىٰ أنه كان علىٰ مقتضى البشرية ، أو أنها تأوَّلت الحديث ببعض ما خلَّفه صلى الله عليه وسلم دون بعض ، والله أعلم .

(١) إشارة إلىٰ قراءة الكسائي : ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ ﴾ . انظر « الدر المصون » (٦/ ٣٣٦) .

(٢) ولمَّا كان سبحانه وتعالىٰ فعَّالاً لما يريد ، وقد نرىٰ تخلُّفاً في هٰذه الصفة في بعض أهل البيت . . علمنا أن الإرادة هنا مشتملةٌ علىٰ مسكوتٍ عنه مرادٍ ؛ فكأنه قيل : أراد لمن أخذ بالهدي الذي في بيت النبي صلى الله عليه وسلم تمامَ الطهارة عن الرجس ، فالعبرة بالاهتداء بالقدوة الحسنة صلى الله عليه وسلم ، فالإرادة مُتَّجهةٌ نحو قانونٍ كلِّيٍّ هو الذي لا يتخلَّف أثره ، فيكون التطهير هو فعلَ الطاعات ، وهجرَ المنكرات ؛ قال سبحانه : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، فالمنفعة حاصلة للمكلَّف ، والمراد : السببُ والمسبَّب الشرعيّان معاً .

(٣) حيث علَّق الوراثة على العلم النافع المقرِّب من الله عز وجل ، الذي يرزقك الخشية من الله =

فما يُحرمُ الابنُ ميراثَ أبيهِ لأخٍ أو لعمٍّ أو لأبعدَ منهُ إلا بكفرٍ أو قتلٍ أو رقٍّ ، وما يرثُ الزوجُ امرأتَهُ علىٰ بُعْدٍ مِنَ النَّسَبِ ، إلا لقُرْبِ السببِ[1] ، فالنَّسَبُ للميراثِ سببٌ يُدَّعىٰ ، والولايةُ والإرثُ منهُ المقصودُ والمعنىٰ[2] ، وما في سببٍ دونَ المسبَّبِ مِنْ جَدْوىٰ[3] .

[بيانُ حقيقةِ الوراثةِ عنِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم]

أتعلمُ أيُّها الأخُ العالمُ ما تفسيرُ الوراثةِ وحكمُها ، أم أنتَ ممَّنْ غابَ عنكَ علمُها ؟!

ألا إنَّ الوراثةَ خلافةٌ عنِ الميتِ فيما كانَ لهُ ممَّا انتقلَ إليهِ[4] ، كأنَّ الميتَ حيٌّ واعتمدَ في حقوقِهِ بالأمرِ عليهِ[5] .

أيُّها المسكينُ ؛ فلا تُسَرَّنَّ باسمِ الإرثِ واغتمَّ لحُكْمِهِ ؛ فقد لزمَكَ الاحتذاءُ بسَمْتِ الرسولِ بما وَرِثْتَ مِنْ علمِهِ[6] ، ولسْتَ في أصلِكَ علىٰ صفوتِهم[7] ،

= تعالىٰ ، إذ العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في القلب .

(١) وهو هنا الزوجية ، وقد يجتمع سبب النسب مع سبب الزوجية ؛ كمن كانت زوجَهُ ابنةَ عمِّهِ ، وماتت ولا وارثَ لها غيره ؛ فإنه يأخذ النصف لكونه زوجاً ، والنصفَ الآخر لكونه ابن عمٍّ .

(٢) يعني : إنما يدَّعي المنتسبُ النسبَ ليتسبَّب حصولَ أمرين ؛ حقِّ الولاية إن كان من أهلها ورتبتها ، وحقِّ الميراث إن كان وارثاً ، فالمقصودُ والمعنىٰ من ادِّعاء هـٰذا السبب الذي هو النسب . . هو تحصيل هـٰذين الأمرين .

(٣) أي : ليس في نسب لا ميراث فيه . . من فائدة . مفاد من هامش (د ، هـ) .

(٤) فالوارث كأنه خليفةُ الميتِ المنتقلِ إلى الله تعالىٰ علىٰ ماله الذي كان بحوزته .

(٥) أي : بأن يأمر الوارث . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) الاحتذاء : الاقتداء والاتباع .

(٧) تعليلٌ لسبب الاغتمام الذي أمرك قبلُ به ، وسيفصَّل ذلك .

وحُرِمْتَ إذْ لم يؤيِّدْكَ الوحيُ كُنْهَ قُوَّتِهم ، كانوا معلَّمينَ بالوحْيِ ابتداءً وأنتَ متعلِّمٌ ، وكانوا معصومينَ وأنتَ معتصمٌ ، وكانوا مقوَّمينَ وأنتَ متقوِّمٌ ، **وليسَ ما حصلَ بتكلُّفٍ كالحاصلِ طبعاً ، ولا ما عُرِفَ بالاجتهادِ كالذي عُرِفَ سمعاً .**

هل وقفْتَ على الطريقِ حينَ هُدِيتَ ؟ وهل عُصِمْتَ عنِ الميلِ إذْ دُعيتَ ؟ وهل دعوْتَ الخلقَ إلى الحقِّ إذْ أُريتَ ؟

أم زِغْتَ عنِ الطريقِ فأخذْتَ الدنيا وقلتَ : سيُغفرُ ويُوهَبُ ، وهَديْتَ الناسَ الطريقَ بقولِكَ وأنتَ تَرُدُّ عليكَ بفعلِكَ وتُكذِّبُ[1] ، وضللْتَ وأنتَ عالِمٌ ، فضَلَّ بسببِكَ عالَمٌ ، فكنتَ قائداً ، كما عرفْتَ الرسولَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قائداً ، لـٰكنْ أنتَ إلى الجحيمِ ، والرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ دارِ النعيمِ ؟!

يا مَنْ عِبْتَ صاحبَ النَّسَبِ على اكتفائِهِ بالسَّبَبِ[2] ؛ قد دخلْتَ تحتَ هـٰذا الحُكْمِ بقُنُوعِكَ بالاسمِ واللقبِ[3] ، **فالمقصودُ مِنَ الاسمِ معناهُ** ، كما أنَّ المطلوبَ مِنَ السببِ عُقباهُ .

أمَا علمْتَ أنَّ العلمَ زيادةُ حُجَّةٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ للهدايةِ[4] ، فما

---

(١) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] ، فهـٰذا الآمر غيره بالحَسَن ، والمتلبِّس بغيره بمرأىً من الناس . يردُّ علىٰ قولِ نفسه بفعله ، فهو يقول ما لا يفعل .

(٢) روى الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/ ٣٦) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً : « كلُّ سبب ونسب منقطعٌ يوم القيامة إلا سببي ونسبي » .

(٣) يعني : ظننت نفسك وارثاً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم لمجرَّد تسمية الناس لك عالماً .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] . =

تزدادُ بهِ إلا عذاباً عندَ الغَوَايةِ ؟!

أمَا سمعْتَ اللهَ تعالىٰ يحكي عن قارونَ جمعَهُ بعلمِهِ ، ثم منعَهُ بوهْمِهِ ؟![1] ثم أخبرَكَ بحُكْمِهِ ؛ فلم يرضَ مجموعَهُ بسببِ العلمِ لأحدٍ مِنَ الأنامِ[2] ، ورَضِيَ مالَ فرعونَ وآلِهِ علىٰ دعوى الربوبيَّةِ لأهلِ الإسلامِ[3] .

أمَا علمتَ أنَّ الذي ضلَّ علىٰ عمىً ، ليسَ كالذي ضلَّ علىٰ بصرٍ وهُدىً ؟!

أمَا علمتَ أنَّ الذي نامَ والليلُ سِرارٌ[4] ، ليسَ كالذي نامَ والوقتُ نهارٌ ؟!

شاورْ في ضلالِكَ قلبَكَ ، وحَكِّمْ فيهِ لُبَّكَ ، ثم عُدْ بحُكْمِهِ إلى الطريقِ ، واستغفرْ ذنوبَكَ ربَّكَ تجدِ اللهَ غفوراً رحيماً ، ثمَّ اثْبُتْ على الاستقامةِ تكُنْ سيِّداً كريماً .

= وروىٰ مسلم (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « والقرآن حُجَّة لك أو عليك ، كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (٣/١٠٢) : (أي : تنتفع به إن تلوته وعملت به ، وإلا فهو حُجَّة عليك ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ».. **فمعناه** : كلُّ إنسان يسعىٰ بنفسه ؛ فمنهم من يبيعها لله تعالىٰ بطاعته ، فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوىٰ باتباعهما ، فيوبقها ؛ أي : يهلكها) .

(١) وذلك حينما طولب بزكاة ماله ، قال سبحانه : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص : ٧٨] .

(٢) إذ قال سبحانه : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص ٨١] .

(٣) إذ قال جلَّ من قائل عليم : ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء : ٥٧ـ٥٩] .

(٤) وهو آخر ليلة من الشهر ؛ إذ لا قمر فيها ، أو الليل أيّاً كان يومه ولـٰكن عند غياب نور القمر ، أو آخر الليل .

[بيانُ صفةِ الوراثةِ]

ما بينَكَ وبينَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا أنَّكَ ممَّنْ وصلَ إليكَ الوَحْيُ بواسطةٍ مِنَ البشرِ ، والنبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلغَهُ بواسطةٍ مِنَ المَلَكِ .

إنْ لم تعرفْ قدرَكَ هـٰذا ـ ولذلكَ هلكْتَ[١] ـ فما فرقُ ما بينَكَ وبينَ الخلفاءِ الراشدينَ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ إلا أنَّهم كانوا مطاعينَ ببيعةٍ مِنَ الخليقةِ ، وأنتَ مطاعٌ بنورٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ لو كنتَ على الطريقةِ ، وكانوا مطاعينَ بأنصارٍ مِنَ الإنسِ ، وأنتَ مطاعٌ بأنصارٍ مِنَ الذاتِ والنفسِ[٢] ، وكانوا مكلَّفينَ زيادةَ أعمالٍ ، وأنتَ مخفَّفٌ عنكَ كثيرٌ مِنَ الأثقالِ ، إلا أنَّهُ كانَتْ لهم ولايةُ الإلزامِ كَرْهاً ، وعليكَ الصبرُ إنْ لم يقبلوا منكَ قولاً ، ويسيرٌ عليكَ هـٰذا الصبرُ ؛ إذا أمرتَهم بحقِّ الأمرِ ، فما أمرَ اللهُ تعالىٰ قلبَكَ بعدَ الردِّ عليكَ إلا الإعراضَ ، والإعراضُ أيسرُ مِنَ الإلزامِ[٣] .

وإنَّما بقيَ عليكَ تهذيبُ أعمالِكَ ، وتحسينُ أخلاقِكَ ، وذلكَ بحُسْنِ الرياضةِ منكَ ، والتوفيقُ مِنَ اللهِ تعالىٰ موعودٌ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

---

(١) أي : هلاكُك باعتبار أنك لا تعرف قدرك [المذكور] . انتهىٰ من هامش (و) ، وجواب الشرط محذوف تقديره : فاعلم أن ليس فرق ما بينك وبين الخلفاء . . . إلىٰ آخره .

(٢) قوله : (بأنصار من الذات) ؛ يعني : طبائع النفس . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٣) قال سبحانه : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النجم : ٢٩] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وقال جلَّ من قائل : ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ـ٢٢] .

ثم دعوةُ الخَلْقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، والنصرةُ مضمونةٌ كما كانَتْ للرُّسُلِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ، وبذلكَ نطقَ أصدقُ الكلامِ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر : ٥١][1] ، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : ٧][2] ، وإنَّما الهلاكُ مِنْ قِبَلِ جَهْلِ المرءِ بقَدْرِهِ[3] ، فوضعَ نفسَهُ عنهُ على ظنٍّ أنَّهُ رافعٌ ، وغفلتِهِ عن ربِّهِ ؛ فطلبَ غيرَهُ على حِسْبانِ أنَّهُ ضائعٌ[4] .

[مقاماتُ الأنبياءِ في النُّصْرةِ]

ومقاماتُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ في النُّصْرةِ أربعٌ :

قالَ القاضي الإمامُ رضيَ اللهُ عنهُ ورحمَهُ[5] :

---

(١) فهم منصورون في الدنيا بالحُجَّة ، وبالمدح والتعظيم على ألسنة أهل الحق من المتبِعين وغيرهم ، وبقوة اليقين ، وبموت آثار المبطلين وبقاء آثارهم . انظر « مفاتيح الغيب » (٢٧/ ٧٧) ، واعلم : أن نصرة المؤمنين محقَّقة وإن قَصُرَتْ بعض أعمارهم عن إدراكها ومشاهدتها ؛ فمنهم من يحيا فيراها كمن شهد فتح مكة من المسلمين ، ومنهم من يؤمن بها ونصيبه أن يراها يوم تقوم الملائكة أشهاداً يوم القيامة ، وتبلغه في برزخه في الدنيا ، على أن نصرة دين الله وأهله لله تعالى طاعةٌ وعبودية ، سواء أدرك العبد آثارها أو لم يدرك ، قضى الله أيامنا بخير وعافية ، وأبهج القلوب بنيل المرغوب .

(٢) على النحو الذي يريد ، وفي الوقت الذي يريد ، كما سبق بذلك علمه وقَدَره ؛ إذ عليهما يمضي قضاؤه وخلقه ؛ ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٧] ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَـٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

(٣) حيث ظنَّ تأثيره في التغيير والتبديل ، وإنما هو مذكِّر ، وليس على العباد بمصيطر .

(٤) أي : لا ناصرَ له ؛ كأنه ضائعٌ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) لا يخفىٰ أن هـٰذه العبارة تكون في نسخة الإمام المصنف بنحو قوله : (قلتُ) .

[أنواعُ القُوى العلميَّةِ غيرِ الشرعيَّةِ]

جملةُ القُوى العلميَّةِ في العبادِ مِنْ غيرِ شرعٍ وإيمانٍ لصيانةٍ أو لغلبةٍ . . أربعةُ أنواعٍ : علمُ التنجيمِ والهندسةِ ، وعلمُ الطبِّ والفلسفةِ ، وعلمُ التعزيمِ والكهانةِ ، وعلمُ السحرِ والشعوذةِ .

فالأوَّلانِ للصيانةِ : **الطبُّ** للصيانةِ عنِ الآفاتِ الداخليَّةِ لعلمِهِ بتغيُّرِ طِباعِهِ عنِ الاعتدالِ ، **والنجومُ** للصيانةِ عنِ الآفاتِ الخارجيَّةِ لعلمِهِ بتغيُّرِ ما على الفَلَكِ مِنَ الأحوالِ[1] .

والعلمانِ الآخرانِ للغلبةِ : فبالتعزيمِ يزدادُ قوَّةً بالجنِّ[2] ، وكذلكَ بالسحرِ ، غيرَ أنَّ قوةَ علمِ السحرِ ترجعُ إلى الذاتِ ، والتعزيمِ يرجعُ إلى الغيرِ ؛ لأنَّ نصرةَ المعزِّمِ بالجنِّ وهم على اختيارٍ ، ونصرةَ الساحرِ بآلاتٍ تُخيِّلُ علىٰ إجبارٍ ، أو علاماتٍ تُسْحَرُ بها الأبصارُ .

---

(١) كأن الإمام المصنف جعل الهندسة من العلوم الرياضية سبيلاً لتحقيق علم التنجيم ، وجعل مبحث الطبيعيات عند الفلاسفة أصلاً لعلم الطب ، والله أعلم .

(٢) أصل التعزيم ما ذكره تعالىٰ بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] ؛ إذ كانوا يعزمون على الجنِّ بالنصرة والنجدة ، وروى الطبراني في « المعجم الكبير » (١٩/ ١٩١) عن كَرْدَم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرجت مع أبي لحاجة من المدينة نريد مكة ، وذلك أوَّلَ ما ذُكِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأتىٰ بنا إلىٰ صاحب غنم ، فلما انتصف الليل جاء الذئب فأخذ حَمَلاً من غنمه ، فوثب الراعي فقال : يا عامرَ الوادي ؛ جارك ، قال : فسمعنا صوتاً لا نرىٰ صاحبه : يا سرحانُ ؛ أرسله ، قال : فجاء الحَمَلُ يشتدُّ ما به كدمة حتىٰ دخل في الغنم ، قال : وأُنزلَ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ . . . ﴾ الآية .

وما وراءَ هٰذهِ مِنَ القُوىٰ معدودةٌ في الحسيّةِ[1] ، خارجةٌ في عاداتِ الناسِ عنِ العلميَّةِ .

[زمنُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ زمنُ علمِ النجومِ]

فزمنُ إبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليهِ كانَ زمنَ علمِ النجومِ والإيمانِ بها ، فنظرَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ فيها بالعقولِ ، فوجدَها مسخَّرةً لا تمتنعُ عنِ الأُفُولِ ، فتبرَّأَ عنها إلى القديرِ ، الذي أجراها علىٰ تسخيرٍ ، فنُصِرَ بآيةٍ مِنْ ذلكَ الطريقِ ، فوُقِيَ آفةَ الحريقِ وهو في الحريقِ ، فكانَتْ وقايةُ قومِهِ عنِ النارِ إذا خافوها بالاحترازِ عن سببِ الوقوعِ لا بالبَرْدِ ، فلمَّا وُقِيَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بتغيُّرِ النارِ عليهِ وهو فيها إلىٰ سَلامٍ وبَرْدٍ ، لا نوالِهِ بالعجزِ وهو فردٌ ، فكما تبرَّأَ إبراهيمُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عنِ السببِ إلى المسبِّبِ ، وإلى اللهِ تعالىٰ عنِ الشُّهُبِ[2] . . أُكرمَ بالوقايةِ دونَ السببِ .

[زمنُ سيِّدِنا عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ زمنُ علمِ الطبِّ]

وكانَ زمنُ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ زمنَ الفلسفةِ والطبِّ وعلمِ الطبائعِ والإيمانِ بها ، فأُرِيَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فرآها ضوادَّ لا تُنْشِئُ إلا باجتماعٍ[3] ، ولا اجتماعَ إلا بقهرٍ ، فهي ضوادُّ على امتناعٍ ، فتبرَّأَ عنها إلى القاهرِ الجامعِ ، الواحدِ الصانعِ ، فنُصِرَ بآيةٍ مِنْ ذلكَ البابِ ؛ فأحيا الميتَ

---

(١) سيذكر من هٰذه القُوىٰ قريباً : قُوَّةَ اللسان والقلب والسيف والقلم .

(٢) الشُّهُب : الدراريُّ السبعة ؛ وهي الشمس ، والكواكبُ الستة ؛ عطاردٌ والزُّهَرة والقمر السفليةُ ، والمِرِّيخ والمشتري وزُحَلُ العلويةُ .

(٣) أراد بالضوادِّ : المتضادَّاتِ ، وانظر ما تقدم (ص ٢٥٩) .

وأبرأَ الأكمَهَ وما عندَهُ الأدويةُ والأسبابُ ، فلمَّا تبرَّأَ عنِ الطبائعِ إلىٰ خالقِها وقاهرِها . . أُكرمَ بإيجادِ المعدومِ ؛ حياةٍ في الميتِ ونُورٍ في الأكمهِ وما كانَ ذلكَ مِنَ الطبائعِ بموهومٍ ، خصوصاً بلا شربِ دواءٍ ، أو تناولِ غذاءٍ .

[زمنُ سيِّدِنا سليمانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ زمنُ التعزيمِ والكهانةِ والإيمانِ بالجنِّ والشياطينِ]

وكانَ زمنُ سليمانَ صلواتُ اللهِ عليهِ زمنَ التعزيمِ والكهانةِ والإيمانِ بالجنِّ والشياطينِ ، فعرَّفَ اللهُ تعالىٰ سليمانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنْ لا سلطانَ لهم على الإنسِ إلا مَنِ اتَّبَعَهم عنِ اختيارٍ ، وما بهم قدرةُ الدفعِ عن أنفسِهم لما توجبُهُ الأقدارُ ، فتبرَّأَ عنِ الجنِّ إلىٰ خالقِها ، فنُصِرَ بآيةٍ مِنْ ذلكَ الجنسِ لم تكنْ معهودةً لأولـٰئكَ الأمَّةِ في طرائقِها ، فحُشِرَ لهُ الجنُّ والشياطينُ والإنسُ والطيرُ طَوْعاً وكَرْهاً ، وبنىٰ على الماءِ صَرْحاً ، وهبَّتِ الريحُ بعرشِهِ هبّاً .

[زمنُ سيِّدِنا موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ زمنُ السحرِ]

وكانَ زمنُ موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ زمنَ السحرِ(١) ، فكانوا يؤمنونَ بهِ ،

---

(١) قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص١٨٩) : (علم السحر أصله من السماء ، لـٰكن الناس نسوا أصله ، وتوارثوه بالتعلُّم) .

واعلم : أن السحر خارقٌ للعادة المألوفة عند أكثر الناس ، وليس خارقاً للعادة بإطلاق كالمعجزة والكرامة ، ولـٰكن خفاء أسبابه ألحقه بخوارق العادات ، ولهـٰذا ألحقه الإمام القرافي في « الفروق » (٤/ ٢١١) بنحو علم الكيمياء والعقاقير .

ولهـٰذا المعنىٰ : منع المتكلِّمون من معارضة المعجزة بمثلها مهما تطاول الزمن واتَّسعت دائرة العلم ؛ إذ مهمة العلم الكشفُ عن السبب المجهول لتحقيق المسبَّب المطلوب ، وحاشىٰ أن تكون معجزات الأنبياء من هـٰذا النوع ؛ إذ هو استغلال لجهل الناس ، لا دلالة =

فبُصِّرَ موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حاصلَ ما يرجعُ إليهِ السحرُ ، فعلمَهُ ضعيفاً مِنَ الأمرِ ، فتبرَّأَ عنِ الانتصارِ بالتهويلِ والتخييلِ إلىٰ خالقِ الأهوالِ والخيالِ ، ومغيِّرِ الذواتِ بعدَ الأحوالِ[1] ، فنُصِرَ بآيةٍ مِنْ ذلكَ المثالِ ؛ عصاً تسعىٰ حقيقةً لا تخييلاً ، وتلقفُ ما أَفَكُوا يقيناً لا تهويلاً ، فلمَّا تبرَّأَ عن مُخَيِّلِ الصفاتِ إلىٰ مُحِيلِ الذاتِ . . نُصِرَ بتبدُّلِ الذاتِ بلا أسبابٍ وآلاتٍ[2] .

فكانَتِ الآياتُ كلُّها للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم . . علىٰ معتادِ قومِهم[3] ، ولـٰكنَّها فوقَ ذلكَ عِياناً ، بلا أسبابٍ عَهِدوها إيقاناً .

= حقيقية فيه علىٰ إثبات النبوة .

ومما يؤكِّد لك هـٰذا : أن السحر مكتسبٌ يمكنُ تعلُّمه ؛ ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، والتعلُّم في مثل هـٰذه العلوم : معرفة السبب ، وأنه مقترن بمسبَّبه عادة ، وأما المعجزة فغير مكتسبة أصلاً ، فشفاء الأبرص وإبراء الأكمه من العمى اليوم غيرُ ممكن أصلاً ، ولا يهولنَّك ما يُشاعُ ولا رصيد له من الحقيقة .

نعم ؛ قد يقع خرق العادة من غير سبب وهو غير معجزة ؛ ككرامة الأولياء ؛ وهي على التحقيق معجزة لأنبيائهم ، أو الاستدراج ؛ وعلامته : أن يكون علىٰ يد كافر معاند كالدجال .

(١) وهـٰذا لا يقضي أن السحر عند الإمام المصنف يكون بغير سبب يعرفه السحرة ، غايته : إثباتُ أثرٍ للسحر ، والمغيِّرُ على الحقيقة هو الله الذي بيده ملكوت كلِّ شيء ، علىٰ أنه سيذكر أن هـٰذا الأثر إنما هو تخييل لا حقيقة له .

(٢) قال العلامة الفرهاري في « النبراس » (ص٦١٥) : (قال المحقِّقون ومنهم الإمام أبو منصور الماتريدي : ليس عمل السحر علىٰ إطلاقه كفراً ، بل إذا كان فيه تكذيبُ ما وجب الإيمانُ به فكفرٌ ، وإلا فكبيرةٌ) .

(٣) كذا في (أ) ، وفي سائر النسخ : (قواهم) بدل (قومهم) ، والمراد : قوىٰ أقوام الأنبياء .

[زمنُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ زمنُ فصاحةِ اللسانِ وقوَّةِ الجَنانِ]

ثمَّ اللهُ تعالىٰ لمَّا أرادَ خَتْمَ الرسالةِ بمحمدٍ عبدِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لفضلِهِ ، ونصرةِ دينِهِ على الدينِ كُلِّهِ . . أخرجَهُ مِنْ بينِ قومٍ أُعطوا فَضْلَ قوَّةِ اللسانِ وهي مِنْ فضائلِ الرأسِ ، وفَضْلَ قوَّةِ الجَنانِ وهي مِنْ فضائلِ الصَّدرِ ، وهما راجعانِ إلىٰ قُوى النفسِ المعروفةِ بالحسِّ(١) .

وفي قوَّةِ اللسانِ مِنَ الكلامِ قُوَّتا علمِ الطبِّ والنجومِ ؛ فإنَّ الكلامَ يدفعُ شرَّ داخِلِي البلدِ مِنَ الحاضرينَ بحُجَّةِ الخطابِ ، وشرَّ الخارجينَ مِنَ الغائبينَ بحُجَّةِ الكتابِ(٢) ، وإنَّهُ في الدفعِ والإلزامِ ، أبلغُ مِنَ الطبِّ والنجومِ علىٰ ما عليهِ مبنىٰ أمورِ عقلاءِ الأنامِ .

وفي قوَّةِ الجَنانِ مِنَ البَسالةِ ، قُوَّتا علمِ السحرِ والكهانةِ ؛ غلبةُ الأدنَيْنَ بضَرْبِ السيفِ الباترِ ، وغلبةُ الأقْصَيْنَ ببعثِ الجيشِ الزاجرِ ، وكلا الأمرينِ ينشأانِ مِنْ بسالةِ الصدرِ ، وأثرُهما في الغلبةِ فوقَ أثرِ الكهانةِ والسحرِ ، علىٰ ما يدورُ عليهِ في الشاهدِ الأمرُ .

ثم قوَّةُ البسالةِ وقوَّةُ الفصاحةِ وإنْ كانتا في قالَبَيْ قُوى الطبعِ . . فإنَّهما في المزاجِ مِنْ قُوى العلمِ ؛ فلا إلزامَ باللسانِ إلا بعدَ الوقوفِ على الحُجَّةِ ، ولا غلبةَ بالجَنانِ إلا بعدَ الوقوفِ على العورةِ(٣) .

---

(١) يعني : لا إلى القوى العلمية التي سبق الحديث عنها ، ولـٰكنه سيذكر أنهما في المزاج من القُوى العلمية .

(٢) إذ القلم أحدُ اللسانينِ .

(٣) فغلبة اللسان راجعة إلى العلم بتأليف الحُجج وصياغة الجدل ، وغلبة القلب راجعة إلى العلم بمكامن ضعف العدو .

معَ ما يرجعُ الكلامُ في المعنىٰ إلىٰ حقيقةِ علمِ الحسابِ ؛ فإنَّهُ مبنيٌّ علىٰ حروفٍ مجموعةٍ وموازينَ معدودةٍ[١] ، لا وقوفَ بدونِ الحسابِ علىٰ حدودِها المحدودةِ .

ولأجزاءِ الحسابِ في الكلامِ أسامٍ موجودةٌ ، فرجعَ إلىٰ علمِ الفلسفةِ والطبائعِ ؛ فلهـٰذهِ الحروفِ مخارجُ عجيبةٌ ، ولِلِّسانِ في إخراجِها مجارٍ لطيفةٌ ، وللقلبِ قُوىً بديعةٌ في ضبطِها ، وإلقائِها على اللسانِ في وقتِها ، لا يُعرفُ حقائقُ ذلكَ إلا بعدَ علمِ الفلسفةِ ، كما لا يُعرفُ الضربُ الأوَّلُ إلا بالهندسةِ[٢] .

فصارَ ذانِكَ العلمانِ[٣] ، بعضَ ما دخلَ تحتَ اللسانِ .

وكذلكَ في حِيَلِ أصحابِ الجيوشِ وذوي النجدةِ مِنَ التهويلاتِ والإراءاتِ في الحروبِ ، علىٰ ما أَرْبَتْ علىٰ تهويلاتِ السحرةِ وتمثيلاتِ المعزِّمينَ ، بعدَ الرجوعِ إلىٰ أمرٍ فاصلٍ ؛ وهوَ السيفُ القاتلُ .

فشاهدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ وهي أعلىٰ أسبابِ الدَّرَكِ[٤] ـ القوَّتينِ مِنْ عضوينِ صغيرينِ اللسانِ والقلبِ[٥] ، ثم رأىٰ دخولَهما تحتَ حسِّ البصرِ

---

(١) أي : أوزان العرب في الكلام . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : علم الحساب . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) ، والضرب : النوع ، وضروب الأقيسة مشهورة .

(٣) أي : علم الحساب وعلم الحروف . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٤) أي : المشاهدة . انتهىٰ من هامش (ب ، د ، هـ) .

(٥) في هامش (و) : (من الطويل)

لسانُ الفتىٰ نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ =

بشيئينِ عاجزينِ القلمِ والسيفِ ، فتبرَّأَ مِنَ الحولِ بها إلىٰ خالقِ الحولِ والقُوىٰ[1] ، فنُصِرَ بآيةٍ مِنْ ذلكَ الجنسِ على الورىٰ ، فحاجَّهم بكلامٍ داعياً إلىٰ أحكامٍ أعجزَهم عن مثلِها ، ولم يكنْ قارئاً علىٰ أحدٍ ولا كاتباً بقلمٍ وما دونَ القراءةِ والكتابةِ سببٌ لعِلْمِها .

ثم قادَ الكافَّةَ كما يُقادُ البعيرُ الأَنِفُ إلىٰ قبولِ الشريعةِ بالبَسالةِ وهي مُجمِعةٌ علىٰ نَبْذِها[2] ، وما معَهُ الرجالُ ولا المالُ وما دونَهما سببٌ لقهرِها ، فنُصِرَ يومَ بدرٍ بكفٍّ مِنَ الترابِ[3] ، وفي كثيرٍ مِنَ المواضعِ

= وهو للأعور الشَّنِّي كما في « البيان والتبيُّن » (١/ ١٧٠) .

(١) الضمير في (بها) : راجع إلى اللسان والقلب والقلم والسيف جميعاً .

(٢) الأَنِفُ ـ ويقال أيضاً : الآنِفُ ـ : الذليل الذي لا يمتنع علىٰ قائده ، يقال : أَنِفَ البعير ؛ إذا عقر الخِشاشُ أنفه ، روى ابن ماجه (٤٣) من حديث سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعاً : « فإنما المؤمن كالجمل الأَنِف ؛ حيثما قِيدَ انقاد » .

وروى البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنما مثلي ومثلُ الناس كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهـٰذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل ينزعهنَّ ويغلبنه فيقتحمْنَ فيها ، فأنا آخُذُ ـ ويروىٰ : آخِذٌ ـ بحُجزكم عن النار ، وهم يقتحمون فيها » .

والضمير في (وهي) : راجع إلىٰ قوله قبلُ : (الكافة) ؛ يعني : يأبونَ اتباع الشريعة .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٤٤٥) عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وروىٰ أحمد في « المسند » (١/ ٣٠٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما وفيه : فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ قام علىٰ رؤوسهم ـ يعني : نادي قريش وكانوا عزموا وتعاقدوا علىٰ قتله صلى الله عليه وسلم ، فضُربت عليهم الذلَّة لمَّا دخل عليهم مجلسهم ـ ، فأخذ قبضة من التراب فقال : « شاهت الوجوه » ، ثم حصبَهم بها ، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصا حصاةٌ إلا قُتلَ يومَ بدرٍ كافراً » . =

بالإرعابِ[1] ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾ [الحشر : ٦][2] .

فكما تبرَّأَ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ قوَّةِ اللسانِ والقلبِ والقلمِ والسيفِ . . نصرَهُ اللهُ بمعجزةٍ هي كلامٌ مِنْ غيرِ قراءةٍ ولا قلمٍ[3] ، وبقاهرةٍ هي إرعابٌ مِنْ غيرِ سيفٍ ولا أُمَمٍ ، بل قامَتْ نفسُهُ فوقَ مقامِ السيوفِ والزُّحوفِ فنُصِرَ بالرعبِ مسيرةَ شهرينِ[4] ، وقامَ الفرقانُ فوقَ مقامِ الكُتُبِ والخُطَبِ فنُصِرَ بالعجزِ على الثقلينِ ، وإنَّهُما لجامِعتا كلِّ القُوىٰ ، لـٰكنَّهُما في غيرِ قالَبِ القُوى العلميَّةِ عندَ

= وروى البخاري (٢٩١٥) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو في قبَّةٍ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أَنْشُدُكَ عهدك ووعدك ، اللهمَّ ؛ إن شئت لم تعبد بعد اليوم » ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حَسْبُكَ يا رسول الله ؛ فقد ألححت علىٰ ربِّك ، وهو في الدرع ، فخرج وهو يقول : « ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٥ـ٤٦] » ، وذلك يوم بدر .

(١) روى البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً : « أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر . . . » الحديث .

(٢) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ١٤٥) : (يعني : ما أفاء الله علىٰ رسوله من بني النضير مما لم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً ـ والركاب : الإبل ، والوجيف : دون التقريب من السير ، يقال : وَجَفَ الفرسُ وأوجفته ، والمعنىٰ : أنه لا شيء لكم فيه ـ إنما هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصاً يعمل فيه ما أحبَّ ، وكذلك كلُّ ما فتح على الأئمة مما لم يوجف المسلمون عليه خيلاً ولا ركاباً) .

(٣) يعني : من غير تعلُّمه من بشرٍ .

(٤) كما في حديث سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٦٠٨) ، وروى الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/ ٦٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : (نُصِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب مسيرة شهرين علىٰ عدوِّه) .

الورىٰ ، **فكانَتْ أبلغَ في الإعجازِ ؛ لظهورِها في غيرِ ذلكَ الطِّرازِ** ، **مع** ما شاركَها في الوجودِ بدونِ السببِ ، **وزادَ عليها بعدَ الاحتواءِ علىٰ جميعِها في** الرُّتَبِ .

[إكرامُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ فوقَ سائرِ المرسلينَ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ]

ثمَّ الرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا تبرَّأَ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ اللسانِ والقلبِ وفيهما كلُّ القُوىٰ ، وهما كلُّ الآدميِّ في المعنىٰ[١] . . **أُكرِمَ بجميعِ ما نُصِرَ بهِ أنبياءُ الهُدىٰ ، بل فوقَها رتبةً وأعلىٰ** .

فإنَّ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إنْ وُقِيَ شرَّ آلةٍ مِنْ آلاتِ النعيمِ[٢] . . **عُصِمَ محمدٌ** صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ شرِّ الناسِ أجمعينَ[٣] ، **وإنْ أُكرِمَ بعدَ السؤالِ بلسانِ صِدْقٍ في الآخِرِينَ**[٤] . . **أُكرِمَ محمدٌ** صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ **بلا سؤالٍ بِقِرانِ ذكرِهِ بذكرِ ربِّ العالمينَ**[٥] .

---

(١) في « البيان والتبيُّن » (١٧١/١) : (ولما دخل ضَمْرة بن ضَمْرة على النعمان بن المنذر زرىٰ عليه للذي رأىٰ من دَمامته وقِصَره وقلَّته ، فقال النعمان : تسمعُ بالمُعَيدِيِّ لا أن تراه ، فقال : أبيت اللعن ! إن الرجال لا تُكال بالقُفْزان ، ولا توزن بالميزان ، وليسَتْ بمُسُوك يُستقىٰ بها ، وإنما المرء بأصغريه ؛ بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجَنان ، وإن قال قال ببيان) .

(٢) أي : النارِ من آلات النعيم ؛ لأنه قال الله تعالىٰ فيها : ﴿ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : ٧٣] ، والمتاع : عبارة عن التمتع ، والتمتع يكون نعمةً . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي (ز) : (اللعين) بدل (النعيم) .

(٣) قال الجليل سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وقال : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] .

(٤) قال سبحانه حاكياً دعاءه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، وهو الذكر الجميل الباقي طولَ الدهر ، واستجابة دعائه بقوله سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩ـ ٥٠] .

(٥) قال تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الانشراح : ٤] ، وفي « الدر المنثور » (٥٤٨/٨) عن =

وإنْ نُصِرَ سليمانُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالجنِّ والشياطينِ(١) . . نُصِرَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بخمسةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مسوَّمينَ(٢) ، وإنْ أُكرمَ فسارَتِ الريحُ بعرشِهِ مسيرةَ شهرينِ يوماً لتنفيذِ إراداتٍ . . أُكرمَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأسرى اللهُ تعالىٰ بهِ مثلَ تلكَ المدَّةِ ليلاً لإراءةِ آياتٍ(٣) .

وإنْ نُصِرَ موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالرُّعْبِ بواسطةِ العصا مدَّ بصرِ العينِ وانفلاقِ البحرِ . . نُصِرَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرُّعْبِ بلا واسطةٍ مسيرةَ شهرينِ وانشقاقِ البدرِ(٤) ، وإنْ أُكرمَ بطُورِ سَيناءَ للتكليمِ(٥) . . أُكرمَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمعراجِ للنَّجْوىٰ والتسليمِ(٦) .

وإنْ نُصِرَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بروحٍ حيوانيٍّ يُحيي العظامَ وينوِّرُ العيونَ(٧) . . نُصِرَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بروحٍ فُرْقانيٍّ يُحيي القلوبَ وينوِّرُ

= مجاهد : لا أُذكرُ إلا ذُكرتَ معي ؛ أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

(١) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ * وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١ ـ ٨٢] .

(٢) قال جلَّ من قائل : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] .

(٣) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

(٤) تقدم حديث النصرة بالرعب مسيرة شهرين (ص٤١٣) ، وقال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] .

(٥) قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ . . . ﴾ [الأعراف : ١٤٣] الآية ، وقال : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

(٦) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٨ ـ ١٠] .

(٧) قال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ =

العقولَ(١) ، ثم الحياةُ بروحِ عيسىٰ عليهِ السلامُ إذْ رُفِعَ ذاهبةٌ ، والحياةُ بهٰذا الروحِ بعدَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باقيةٌ ، وتلكَ الحياةُ كانَتْ للدنيا ، وهٰذهِ الحياةُ للعُقْبىٰ وللمولىٰ ، حكمةً مِنَ اللهِ تعالىٰ بالغةً ؛ إذْ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ مبعوثاً إلى الناسِ كافَّةً ، وفيها الطبقاتُ عامَّةً ، ولن يغلبَ الجزءُ الكلَّ ، إلا بخالقِ الكلِّ ، ولن تحصلَ الغلبةُ بالخالقِ جلَّ جلالُهُ إلا بالتبرِّي عنِ المخلوقِ ، ولن تقعَ البراءةُ عامَّةً ، إلا بالتبرِّي عنِ النفسِ خاصَّةً .

فأخرجَ اللهُ تعالىٰ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ قومٍ ما رأوا إلا نفوسَهم ، وما تَقَوَّوا إلا بألسنتِهم وقلوبِهم ، حتىٰ لم يقعْ نصرُهُ إذا رأى الحقَّ إلا فيها(٢) ، ولزمَهُ إذْ عرفَهُ التبرِّي إلى اللهِ تعالىٰ منها(٣) ، فنُصِرَ بالقُوىٰ عامَّةً علىٰ حَسَبِ البراءةِ في عمومِها ، ونُصِرَ سائرُ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ بقوَّةٍ خاصَّةٍ علىٰ حَسَبِ البراءةِ في خصوصِها .

ثم إنَّ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَقَّقَ تبرِّيَهُ عنِ النفسِ بأخلاقِهِ ؛ فعاشَ

= تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة : ١١٠] ، وتنوير العين : هو إبراء الأكمه . انتهىٰ من هامش (و) .

(١) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، وقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

(٢) في (أ) : (بصره) بدل (نصره) .

(٣) يعني : لزمه التبرِّي منها إلى الله تعالىٰ حينما عرف الحقَّ .

مُشْفِقاً بقلبِهِ على الأعداءِ حتىٰ عُوتبَ فقيلَ : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣][١] ، فجُوزيَ علىٰ شفقتِهِ عليهم بالشفاعةِ للظالمينَ .

وعاشَ مُؤْثِراً بما في يديهِ حتىٰ نُهِيَ فقيلَ : ﴿ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، فجُوزيَ علىٰ إيثارِهِ بالكوثرِ يومَ الدينِ .

وسكنَ الدنيا غيرَ ملتفتٍ إليها استهانةً بها ، فجُوزيَ بقُرَّةِ العينِ في نَجْوىٰ ربِّ العالمينَ[٢] .

وأقامَ فيها مُقامَ مُجِمٍّ في سفرِهِ تحتَ ظلٍّ[٣] ، فجُوزيَ بإقامةِ شريعتِهِ أبدَ الآبدينَ .

فخالقَ بالخُلُقِ الأوَّلِ الصفراءَ ، وبالثاني السوداءَ ، وبالثالثِ الدمَ ، وبالرابعِ البلغمَ[٤] ، فلم يُعْطِ نفسَهُ رضاً طلباً لرضاءِ اللهِ ، فجُوزيَ بإعطاءِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ حتىٰ يرضىٰ[٥] .

وآثرَ بحُسْنِ الخُلُقِ الخَلْقَ علىٰ نفسِهِ ، فجُوزيَ بتَوْلِيَةِ إمامةِ الورىٰ .

---

(١) باخع نفسك : مهلكٌ نفسَك ومجهدُها . انظر « مجاز القرآن » لأبي عبيدة (٢/ ٨٣) .

(٢) انظر (ص١٧٠) .

(٣) المجمُّ في السفر : مَنْ نزل ليرتاح قليلاً ثم يعاود السير ، يعلم أن لا مقام له في هـٰذا المنزل ، ويقال : أُجِمَّ الفرس ؛ إذا تُرِك أن يُركبَ ، والضمير في (فيها) : راجع إلى الدنيا كما لا يخفىٰ .

(٤) وسبق أن علوَّ الهمَّة بالصفراء ، وحسن التدبير بالسوداء ، والفرحَ بالدم ، والراحة بالبلغم ؛ يعني : خالق بالشفقة علوَّ الهمَّة ، وبالإيثار حسنَ التدبير ، وبعدم الالتفات إلى الدنيا الفرحَ ، وبعدم الاستراحة الراحةَ ، وانظر (ص٣٣٦) .

(٥) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ : ٥] .

واطمأنَّ على المكارهِ والبأسِ مفوِّضاً أمرَهُ إلى اللهِ ، **فجُوزيَ بالعصمةِ عنِ الناسِ** .

وتجاسرَ على الجميعِ غيرَ خائفٍ مَنْ دونَ ربِّهِ ، **فجُوزيَ بتخويفِ اللهِ الناسَ بقلبِهِ** .

وقد دلَّتْ هٰذهِ الأخلاقُ : على انخلاقِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الجزءِ القلبيِّ[1] ، فما يُوجدُ قلبُ العاقلِ إلا قَلِقاً علىٰ خَطاءِ النفسِ في معاداةِ النفسِ إيَّاهُ ، رادّاً عليهِ وعلىٰ هواهُ[2] ، ولا يوجدُ إلا مُؤْثِراً بما عندَهُ مِنَ الحكمةِ ، لا يَتِمُّ سرورُهُ إلا ببثِّها على الأمَّةِ ، ولا يوجدُ قلبُهُ في الدنيا إلا مستوحشاً ، وعن طلبِها متوحِّشاً ، ولا يوجدُ القلبُ مِنَ الحكيمِ في إقامةِ الجسمِ بموضعٍ خبيثٍ بسببٍ ، إلا مسافراً عنهُ طائراً إلىٰ معالي الرُّتَبِ .

[دَلالاتٌ ربَّانيَّةٌ على الكمالاتِ المصطفويَّةِ]

ثمَّ اللهُ تعالىٰ دلَّ علىٰ هٰذهِ المعاني : ببَعْثِهِ مِنْ مكَّةَ فهي أمُّ القُرىٰ ، وبمنزلةِ الرأسِ لسائرِ الدنيا ، فأوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ لَلَّذي ببكَّةَ مباركاً[3] ، وأوَّلُ جزءٍ

---

(١) أي : قلبِ الأرض . انتهىٰ من هامش (ب ، و) ، قال العلامة المطرِّزي ـ وهو الخبير بما في كتب الحنفية من لغة ـ في « المغرب » (ص١٥٣) : (خلقه الله خلقاً : أوجده ، و« انخلقَ » في مطاوعه غيرُ مسموع) .

(٢) الضمير في (عليه) : راجع إلى (النفس) ، وقد سبق مراراً تذكير لفظة (النفس) عند الإمام المصنف .

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورىٰ : ٧] ، قال أبو عبيدة في « مجاز القرآن » (١/ ٩٧) : (بكة : اسم لبطن مكة ؛ وذلك لأنهم يتباكُّون فيها ويزدحمون) .

ظهرَ مِنَ الأرضِ تلكَ البقعةُ[١] ؛ كما يظهرُ أوَّلَ شيءٍ مِنَ الإنسانِ الرأسُ عندَ الوَقْعةِ[٢] .

وأمرَهُ بالهجرةِ إلى المدينةِ وإنَّها كالصدرِ لهـٰذهِ الأرضِ على ما وردَتْ بهِ الأخبارُ[٣] ؛ أنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ جبريلَ عليهِ السلامُ أنْ يقبضَ مِنْ قلبِ الأرضِ قُبضةً ، فكانَ منها محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثم أُمِرَ فقبضَ قُبضةً أخرىٰ مِنْ أديمِ الأرضِ ، وجعلَ القُبضةَ الأولىٰ فيها ، ثم خلقَ آدمَ عليهِ السلامُ[٤] .

وقد دُفِنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمدينةِ ، فدلَّ علىٰ أنَّها موضعُ خَلْقِهِ علىٰ ما جاءَتْ بهِ الأخبارُ[٥] ، حتى اجتمعَ في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

(١) في « الدر المنثور » (٨/ ٤١٢) : (وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : بلغني أن الأرض دُحِيَتْ دحياً من تحت الكعبة) .

(٢) يعني : عند الولادة ، وفي هامش (و) : (مطلبٌ : في أن مكة أمَّ القرىٰ بمنزلة الرأس ، وأن المدينة المنورة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام بمنزلة الصدر ، وبيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بمنزلة القلب) .

(٣) يعني : عن أهل الكتاب ؛ ممن أسلم منهم وعُرف بالورع في الرواية ؛ فقد قال الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (١/ ٦٨) : (روىٰ أبو سعد النيسابوري في « الشرف » ، وابن الجوزي في « الوفا » عن كعب الأحبار قال : لما أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يخلق محمداً صلى الله عليه وسلم أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ، فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلىٰ ، فقبض قبضةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع قبره الشريف ، وهي بيضاء نيرة ، فعُجنت بماء التسنيم في معين أنهار الجنة حتىٰ صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم . . .) الخبر .

(٤) انظر « الأسماء والصفات » للبيهقي (٢/ ١٣١ ، ٢٦٩) .

(٥) روىٰ أحمد في « فضائل الصحابة » (٥٢٨) عن سَوَّار بن عبد الله قال : كان أبي يوماً يحدث قوماً ، وكان فيما حدَّثهم : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبر يُحفَرُ ، فقال : « قبرُ من هـٰذا ؟ » ، قالوا : قبرُ فلان الحبشيِّ ، قال : « يا سبحان الله ! سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التي خُلقَ منها » ، قال أبي : يا سَوَّارُ ؛ ما أعلم لأبي بكر وعمر فضيلةً =

وسلَّمَ قُوى الرأسِ والصدرِ مِنْ طريقِ المَنْبِتِ والمَنْشأِ والمولدِ والموضعِ الذي أرادَ اللهُ تعالىٰ نُصرتَهُ بها ، وقد دلَّ ما ظهرَ علينا مِنَ الأعضاءِ وفينا مِنَ القُوىٰ وقد خُلقنا مِنْ أديمِ الأرضِ أنَّها موجودةٌ فيها(١) .

كذلكَ مِنْ طريقِ المعنىٰ وإنْ غابَ عنَّا مرأىً(٢) ؛ فمكَّةُ ـ واللهُ أعلمُ ـ بمنزلةِ الرأسِ ؛ لأنَّها كانَتْ أوَّلَ جزءٍ وُجُوداً ، وبيتُ اللهِ بمنزلةِ الدماغِ منهُ ، والحرمُ بمنزلةِ ما وراءَهُ مِنَ الوجهِ إلى العُنُقِ ، والمدينةُ بمنزلةِ الصدرِ ، وبيتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذي دُفِنَ فيهِ بمنزلةِ القلبِ ، وسائرُ الأجزاءِ كسائرِ الأعضاءِ ممَّا يُنتفعُ بها ولا يُنتفعُ ، ويُتأذَّىٰ بها ولا يُتأذَّىٰ(٣) .

[سببُ تسميةِ مكَّةَ بأمِّ القُرىٰ]

ولهٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ سُمِّيَتْ مكَّةُ أمَّ القرىٰ ؛ كما سُمِّيَ موضعُ الدماغِ أمَّ الرأسِ(٤) ، ولأنَّ مرجعَ الولدِ إلى الأمِّ ، ومنها كانَ المبدأُ(٥) ، ومرجعَ البدنِ إلى الرأسِ ، ومرجعَ القُرىٰ إلىٰ مكَّةَ ، ومنها كانَ الابتداءُ ، ولهٰذا ـ واللهُ

= أفضلَ من أن يكونا خُلقا من التربة التي خُلق منها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يعني : أن القبضة الأولىٰ موجودة في القبضة الثانية ، والله أعلم .

(٢) يعني : كون مكةَ كالرأس ، والمدينةِ المنورة كالصدر ، وبيتِ النبي صلى الله عليه وسلم كالقلب .

(٣) قوله : (وسائر الأجزاء) ؛ يعني : أجزاء الأرض ؛ كالأرض الطيبة والسَّبِخة . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) انظر « تاج العروس » (أ م م) (٣١/ ٢٣٣) ، وأيضاً : لأن جميع الناس يقصدونها ويَؤُمُّونها ، ولأنها أعظم القرىٰ شأناً .

(٥) قال سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] ، وقال تعالىٰ في حقِّ من كان من أهل النار : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة : ٩ـ١١] .

أعلمُ ـ كانَ الحرمُ آمناً ، يأمنُ فيهِ مَنِ التجأَ إليهِ مِنْ مباحِ الدمِ إلا إذا تعدَّىٰ فيهِ بما أوجبَ حدّاً[1] ، والرأسُ إلى العنقِ كانَ آمناً مِنَ الآدميِّ إذا استبيحَتْ نفسُهُ بجَلْدٍ إلا إذا تعدَّىٰ في الوجهِ عَيْناً[2] .

ثمَّ اللهُ تعالىٰ خلقَ آدمَ عليهِ السلامُ مِنْ أديمِ الأرضِ ، فجمعَ فيهِ أجزاءَ النَّسْلِ كلِّهِ مِنْ أجزاءِ الأرضِ[3] ، فكانَ حظُّ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ واللهُ أعلمُ ـ مِنَ القُبضةِ الجزءَ الرأسيَّ ؛ إذْ كانَ أوَّلَ الناسِ ، وقوَّاهُ بالقُوى الدماغيَّةِ واللهُ أعلمُ[4] .

وخَلَقَ سائرَ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ غيرَ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الأجزاءِ الوجهيَّةِ وما يتَّصلُ بها مِنْ دونِ الرأسِ إلى الصدرِ ، وقوَّاهم بقُوى السمعِ والبصرِ والذوقِ والشمِّ ، فهي مِنْ جنسِ القُوى الأربعِ التي نُصِروا بها ؛

---

(١) وهـٰذا مذهب الحنفية والإمامُ المصنف من أئمتهم ؛ فمن أتىٰ ما يوجب الحدَّ وهو في الحرم أقيم عليه الحدُّ ، وإن أصابه وهو خارج الحرم ثم دخله فهو آمنٌ ، ولا يقام عليه حتىٰ يخرج من الحرم ، وهو قول عبيد بن عمير الليثي ، وعليه يحمل قول سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما : (لو وجدت قاتل عمر رضي الله عنه في الحرم ما هِجْته) ، وانظر « شرح مشكل الآثار » (٩/ ٣٧٨) .

(٢) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٢٦٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : أُتي برجل سكران ، أو في حدٍّ ، فقال : اضربْ ، وأعطِ كلَّ عضوٍ حقَّهُ ، واتقِ الوجه والمذاكير .

(٣) ويفيده ما رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٧٨٠) عن سيدنا ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ، وفيه : (فبعث ملكَ الموت ، فعاذَتْ منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض ، وخلط ، فلم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، ولذا سُمِّي آدمَ ؛ لأنه أُخِذَ من أديم الأرض) .

(٤) يعني : بالكلام والتأمل . انتهىٰ من هامش (ب) .

فقوَّةُ السمعِ والذوقِ تُنسبانِ إلىٰ علمِ التنجيمِ والطبِّ ، وقوَّةُ البصرِ والشمِّ تُنسبانِ إلىٰ علمِ التعزيمِ والسحرِ .

وخَلَقَ نبيَّنا محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الجزءِ القلبيِّ ، وقد وردَتِ الأخبارُ ـ واللهُ أعلمُ ـ بذلكَ ، ونصرَهُ بقوَّةِ اللسانِ واليدِ ؛ فهما عاملا القلبِ ؛ اللسانُ بحُجَّةٍ لا يُوقفُ عليها إلا بالاستدلالِ والقياسِ ، واليدُ بغلبةٍ يوقفُ عليها مِنْ طريقِ الحواسِّ ، هـٰذا مِنْ طريقِ الظاهرِ .

ثم جعلَ قُوى الحواسِّ تابعةً لقُوى القلبِ مِنْ طريقِ الباطنِ ؛ فنسخَ الشرائعَ كلَّها بشريعةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وصارَ الأنبياءُ كلُّهم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ أتباعاً لهُ ؛ علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ . . .﴾ الآيةَ [آل عمران : ٨١][1] ؛ وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لو كانَ موسىٰ حيّاً ما وسعَهُ إلا اتِّباعي »[2] .

---

(١) فالميثاق خاصٌّ به صلى الله عليه وسلم علىٰ هـٰذا ، وهو قول سيدنا علي وابن عباس وقتادة والسدي . انظر « مفاتيح الغيب » (٨/ ١٢٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٨٧) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن عمر بن الخطاب أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكُتُب ، فقرأه على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فغضب وقال : « أمتهوِّكون فيها يا بن الخطاب ؟! والذي نفسي بيده ؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍّ فتكذِّبوا به ، أو بباطل فتصدِّقوا به ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو أنَّ موسىٰ كان حيّاً ما وسعَهُ إلا أن يتبعني » .

وفي رواية عنده (٣/ ٣٣٨) : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يَهدوكم وقد ضلُّوا ؛ فإنكم إما أن تصدِّقوا بباطل ، أو تكذِّبوا بحقٍّ ؛ فإنه لو كان موسىٰ حيّاً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني » .

ثم جعلَ ميلادَهُ الظاهرَ مِنْ مكَّةَ ـ وكانَ ميلادُهُ الباطنُ مِنَ المدينةِ[١] ـ ليدلَّ علىٰ سيادتِهِ لوَلَدِ آدمَ ؛ فالقُوامُ الظاهرُ للآدميِّ برأسِهِ ، وفي الباطنِ بقلبِهِ ، ولذلكَ كانَ ابتداءُ سُكْناهُ بمكَّةَ ومآلُهُ بالمدينةِ ؛ كما أنَّ مآلَ الرأسِ إلى القلبِ ؛ ولهٰذا كانَتْ مكَّةُ نافيةً ، والمدينةُ ناصرةً[٢] ؛ علىٰ حَسَبِ مخالفةِ قُوى الرأسِ بالطبعِ قُوى القلبِ ، إلا بعدَ حُسْنِ رياضةٍ وضَرْبٍ مِنَ القهرِ[٣] .

[سيرُ الظاهرِ عونٌ علىٰ سيرِ الباطنِ]

ولهٰذا فرضَ اللهُ تعالى المسيرَ إلىٰ مكَّةَ للحِجَّةِ وهي ظاهرةٌ ، والمسيرَ إلى المدينةِ للحُجَّةِ[٤] ـ وهي نصيبُ القلبِ ـ وهي باطنةٌ ، فدلَّ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ بهٰذا الحكمِ : علىٰ جمعِ شرفِ الرأسِ والوجهِ والقلبِ في محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإعطاءِ كلِّ القُوىٰ إيَّاهُ ، فما قوَّةُ النفوسِ إلا بألسنتِهم وأيديهم ، ولا قوَّةُ حواسِّهم نافعةٌ إلا بقلوبِهم .

ثم دلَّ علىٰ هٰذهِ الجملةِ بابتدائِهِ جلَّ جلالُهُ الرسالةَ بآدمَ عليهِ الصلاةُ

---

(١) يعني : بدلالة دفنه في تربتها كما سبق قريباً .

(٢) وسُمِّي من آمن من أهلها بالأنصار ، وأما قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] . . فقد قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٤/١٥٨) : (جاء في التفسير : لرادُّك إلىٰ مكانك بمكة ، وقيل : ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلىٰ مكانك في الجنة ، وأكثر التفسير : لَباعثُكَ ، وعلىٰ هٰذا كلام الناس : اذكر المعاد ؛ أي : اذكر مبعثك في الآخرة) .

(٣) القلب للمغيبات ، والرأس للمحسوسات . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) الحُجَّة : النبي أو الأحكام الشرعية ، وقبول الكل نصيب القلوب . انتهىٰ من هامش (و) ، ومعنىٰ فرض المسير إلى المدينة : بالهجرة إليه صلى الله عليه وسلم ، ثم نسخ هٰذا الفرض ليصير سنة مؤكدة في زيارته صلى الله عليه وسلم .

والسلامُ ، واختتامِها بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذِ ابتداءُ قوَّةِ الآدميِّ برأسِهِ ، وانتهاؤُها بقلبِهِ ، والنورُ الذي بهِ تهتدي القُوى العقلُ ، وهو مخصوصٌ للقلبِ ، وهو المقصودُ مِنَ الدماغِ والقُوىٰ كلِّها ؛ فإنَّ العقلَ بمنزلةِ نورِ السراجِ ، والدماغَ بمنزلةِ الزيتِ ، والأرضَ علىٰ مثالِ منارةٍ صنعَها حكيمٌ لعبيدٍ لهُ طلبَ منهم معرفتَهم إيَّاهُ لحكمةٍ أرادَ ، والوقتُ ليلٌ لا سبيلَ إليها إلا بسراجٍ ، فصنعَ منارةً للمَسْرَجةِ ، ثم اتَّخذَ للمَسْرَجةِ أفواهاً ، وملأَها زيتاً ، وحشاها فتائلَ ، ثم نوَّرَها ، فكانَتِ المقدِّماتُ للنورِ ، والنورُ للمعرفةِ واللقاءِ ، واللقاءُ للخدمةِ ثمَّ للجزاءِ .

فاللهُ تعالىٰ طلبَ منَّا ذلكَ ؛ فخلقَ الأرضَ للمَسْرَجةِ ؛ وهي القُبضةُ التي خُلقَ منها آدمُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فكانَ المخصوصُ بهِ منها الزيتَ ، وكانَتْ مِنَ الأفواهِ الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الفتيلةَ ، ونورُهُ السراجَ ، والمطلوبُ منهُ المعرفةَ واللقاءَ .

[النورُ المحمديُّ]

وهٰذا تأويلُ الأخبارِ في أنَّ نورَ الأنبياءِ كانَ مِنْ نورِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، فما للمَسْرَجةِ نورٌ إلا بنورِ السراجِ ، فعلىٰ ذلكَ مثالُ الجسمِ خُلِقَ لهُ

(١) روىٰ أحمد في « المسند » (٤/ ١٢٧) من حديث سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعاً : « إني عند الله لخاتمُ النبيين وإن آدم عليه السلام لمنجدلٌ في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوةِ أبي إبراهيم ، وبشارةِ عيسىٰ بي ، ورؤيا أمي التي رأتْ ، وكذلك أمهات النبيين تَرَيْنَ » .

وروى الطبراني في « المعجم الكبير » (٤/ ٢١٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣٢٧) من حديث سيدنا خُرَيم بن أوس رضي الله عنه قال : كنَّا عند النبي صلى الله =

الرأسُ والوجهُ ، ومآلُهُ إلى القلبِ ، ونورُهُ العقلُ ، والمقصودُ بهِ : معرفةُ اللهِ.

ثمَّ اللهُ تعالىٰ أكرمَ رسولَهُ بنورٍ ظاهرٍ وهوَ القرآنُ(١) ، وورَّثَ هٰذا النورَ علماءَ أمَّتِهِ حتى استناروا بنورِهِ مِنْ بعدِهِ وِراثةً إلىٰ يومِ الدينِ ؛ كما استنارَ بنورِهِ

= عليه وسلم ، فقال له العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ إني أريد أن أمدحك ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « هاتِ ، لا يفضضِ الله فاكَ » ، فأنشأ العباس يقول : [من المنسرح]

من قبلِها طبتَ في الظلال وفي مستودعٍ حيث يُخصف الورقُ
ثم هبطتَ البلاد لا بشرٌ أنت ولا مضغة ولا عَلَقُ

الخبرَ ، وانظر جملة الآثار التي وردت في هٰذا المعنىٰ عند الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (١/ ٦٩) ، وعنون فقال : (الباب الأول : في تشريف الله تعالىٰ له صلى الله عليه وسلم بكونه أول الأنبياء خلقاً) ، وما يليه من أبواب .

إن قلت : هل يجب اعتقاد أن نوره صلى الله عليه وسلم أوَّلُ الخلق خَلْقاً ، وأن المخلوقات خُلقت من هٰذا النور ؟

فالجواب : أن اعتقاد مثل هٰذا لا يضرُّ مع ثبوتِ كثيرٍ من الآثار التي تُومِئ بهٰذا المعنىٰ وإن لم تصرِّحْ به ، وما صحَّ منها من كون أول المخلوقات القلمَ أو غيرَهُ تأوَّلَهُ القائلُ بأوَّليَّة النور المحمدي بأنه اسم من أسماء هٰذا النور باعتبار ، ولا يُغلَّطُ مَنْ لا يعتقدُ ذلك ؛ إذ هو ممَّا لا يتوقف عليه سلامة الإيمان ، ولا هو من أصول الاعتقادات المتفق عليها ، ولله درُّ الإمام البوصيري إذ قال : (من البسيط)

لم يمتحنَّا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهمِ

علىٰ أن إماماً جليلاً كالمصنف ذهب إلى اعتقاد أوَّليَّة النور المحمديِّ ، ولٰكن لا داعيَ للتهويل من شأن هٰذا الاعتقاد ، وجعله عَلَماً علىٰ معرفته صلى الله عليه وسلم ؛ فليس هٰذا شأن القدوات من العلماء سلفاً وخلفاً ، وإنما تعويلهم علىٰ معرفته صلى الله عليه وسلم بعطر شمائله وجميل صفاته وكمال أخلاقه ؛ إذ بهٰذه المعاني الجليلة صرَّحَتْ عبائر الشريعة ، وتُترك الأشائر في موضعها لمن يستملحُها ، والله أعلم .

(١) قال تعالىٰ : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

الباطنِ مَنْ كانَ قبلَهُ مِنَ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ مؤتمنينَ ، بل كانَ بهِ مِنْ قبلِ آدمَ نورُ السماواتِ والأرضينَ[1] ، فما بنورِ السماءِ يكونُ اللقاءُ[2] ، وإنَّما هو مخصوصٌ بهٰذا الضياءِ ، وهوَ المطلوبُ مِنْ كلِّ البناءِ .

لا أطفأَتْ عنَّا نيرانُ الهوىٰ هٰذا النورَ ، ولا بُعِثْنا إلا وهو محيطٌ بنا يومَ النشورِ[3] ، والحمدُ للهِ علىٰ ما شرحَ بهِ مِنَ الصدورِ ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صاحبِ النورِ .



(١) أي : ضياءُ محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ . انتهىٰ من هامش (هـ) ، وقال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٤/ ٤٣) في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ . . . ﴾ الآية [النور : ٣٥] : (وجائزٌ أن يكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو النورَ الذي قال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ ؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم هو المرشد والمبيِّن والناقل عن الله ما هو نيِّرٌ بيِّنٌ) .

(٢) أي : لقاءُ الله تعالى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ ﴾ [الحديد : ١٢] .

[مقامات الأولياء]

وأمَّا الأولياءُ والمعنيُّ بهم أولياءُ العزلةِ(١) ـ فالعلماءُ الزُّهَّادُ أولياءُ العِشْرةِ ، وقد ذكرْناهم في تبَعِ أصحابِ الدعوةِ(٢) ـ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : مقامُ الغفلةِ ، ثم مقامُ اليقظةِ ، ثم مقامُ الجهادِ ، ثم مقامُ الحيرةِ .

وذلكَ لأنَّهم قومٌ منزلتُهم دونَ منزلةِ الأوَّلَيْنِ(٣) ؛ فقدِ اهتدَوْا وما هَدَوْا غيرَهم(٤) ، وجاهدوا نفوسَهم وما جاهدوا سائرَهم(٥) ، ورحموا ذواتِهم ولم يرحموا أغيارَهم ، وأَنِسُوا بقُرْبِ الحالِ ، ولم يصبروا لمختلِفِ الأحوالِ .

فكانوا مخلوقينَ مِنْ بَذْرٍ طيِّبٍ ، في مَنْبِتٍ زَكِيٍّ ، في وقتِ سَعْدٍ ، وغُذُوا بغذاءٍ لطيفٍ ، لـٰكنْ لم تَصْفُ هـٰذهِ الأربعُ في أصلِ الجِبلَّةِ عن شَوْبٍ ، وإنْ لم يظهرْ لقلَّتِهِ العيبُ ، فدعاهم ذلكَ الشوبُ إلى الميلِ ، وما فيهم مانعٌ مِنَ الإجابةِ(٦) ؛ فما في أصلِ الجِبلَّةِ مِنْ عقلٍ ، فأجابوهُ غافلينَ ، فمَنَّ اللهُ تعالىٰ عليهم بالعَفْوِ عنهم بعُذْرِ فِقْدانِ العقلِ وإنْ كانوا مِنْ جنسِ المُمْتحنينَ .

---

(١) هـٰذا القسم الثاني من أقسام الصدِّيقين .

(٢) من وُرَّاث الأنبياء من العلماء الدعاةِ إلى الله تعالىٰ ، وإنما نعتهم بالزهادة لأنهم نشؤوا في نعيم الدنيا ولم يرثوا إلا ما كان لله من العلم والحكمة ، وانظر (ص٢٠٩) .

(٣) أراد : منزلة الأنبياء ، وورَّاثهم من أولياء العشرة الزهَّاد .

(٤) لأنهم اختاروا العزلة على العِشْرة .

(٥) لأن العزلة بشروطها مسقطة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٦) يعني : دعاهم ذلك الشوبُ المستكنُّ في نفوسهم إلى الميل عن الحقِّ ، أو إلى الدنيا ، فكانت منهم استجابة له ، وعدم طاعة لداعي أرواحهم .

فلمَّا عَقَلُوا واستنارَتْ بقَدْرِ الصفاءِ صدورُهم . . شعروا بالضلالِ في مسيرِهم ، وخافوا فسَلَبَ الخوفُ نومَ الغفلةِ ، فانتقلوا إلىٰ مقامِ اليقظةِ ، خائفينَ ما في عاقبةِ الضلالِ مِنَ الردىٰ ، راجعينَ إلىٰ دُعاةِ الهُدىٰ .

فأكرمَهمُ اللهُ تعالىٰ بتأييدِ دعاةِ الحقِّ فيهم وهمُ الأرواحُ علىٰ دعاةِ الميلِ وهمُ النفوسُ ، فأقبلوا عليهم مجاهدينَ ، فانتقلوا إلىٰ مقامِ الجهادِ متضرِّعينَ إلى اللهِ تعالىٰ متأيِّدينَ .

فأكرمَهمُ اللهُ تعالىٰ بالظَّفَرِ علىٰ نفوسِهم ، فتحيَّروا عندَ ذلكَ في مِنَنِ اللهِ تعالىٰ عليهم في كلِّ مقامٍ ، فبَقُوا عندَ اللهِ تعالىٰ في مقامِ الحيرةِ يؤنسُهمُ اللهُ تعالىٰ بقُرْبِ المكانةِ ، ويلهيهم عنِ الدنيا وأهلِها بكأسِ المحبَّةِ ، فصاروا إلى الحياةِ الطيِّبةِ التي وعدَها اللهُ تعالىٰ للمجاهدينَ في سبيلِهِ علىٰ سريرِ الوَلاءِ ، في أكرمِ مكانِ الولايةِ للأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ .

فكانَ هـٰؤلاءِ الرهطُ في المِنَنِ مجازَيْنَ ، وللأنبياءِ عليهمُ السلامُ مسبوقينَ ؛ فإنَّهم غَفَلُوا فعُذروا كرامةً لفَقْدِ العقولِ ، وخافوا العدوَّ في ضلالتِهم ، فتيقَّظوا فهُدوا بإراءةِ العدوِّ كرامةً علىٰ تيقُّظِهم ، ثم جاهدوا فأُكرموا بالظَّفَرِ .

والأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ سُلِبوا الدعاةَ إلى الزيغِ فلم يزيغوا[1] ، ثم

---

(١) يعني : لكونهم معصومين ، والمقصود : أنه ليس في الأنبياء داعٍ من داخلهم يدعوهم إلى الزيغ ؛ إذ أثر داعي الزيغ الخارجي هو تحريك الداعي الداخلي ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٣ـ ٧٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم : ٨ ـ ٩] ، وبهـٰذا أيضاً تعلم حكمة نزع حظِّ الشيطان المتمثل بالعلقة المستخرجة في حادثة شقِّ الصدر الشريف التي رواها مسلم (١٦٢) من حديث =

أُكرموا بالإراءةِ فأَبْصَروا ، ثم عُصِموا فلم يُجيبوا للباطلِ ، ثم نُصروا فانتصروا ، وجُوزُوا بالولايةِ .

حتىٰ كانَ أدنىٰ مراتبِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ الحيرةَ بحُكْمِ الفطرةِ ، وأقصىٰ مراتبِ الأولياءِ الحيرةَ بحُكْمِ السَّكْرةِ ، إلا أنَّ حيرةَ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ كانَتْ على الطريقِ[1] ، وحيرةَ الأولياءِ عندَ المنزلِ[2] ، عاشوا في الدنيا لم يشغلْهم شيءٌ عنِ اللهِ تعالىٰ[3] ، وسيحشرونَ في الآخرةِ لا يحجبُهم شيءٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

[مقاماتُ الحيرةِ بالسكرةِ]

ومقاماتُ الحَيْرةِ بالسَّكْرةِ أربعٌ : سكرةُ المحبَّةِ ، وسكرةُ الخشيةِ ، وسكرةُ الحميَّةِ ، وسكرةُ المِنَّةِ .

فسكرةُ المحبَّةِ : تتولَّدُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ حقَّ معرفتِهِ[4] .

= سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، فداعي الزيغ الخارجي لا ينفكُّ عنه أحدٌ غالباً ، فإن لم يكن له شريك من الداخل فلا أثر له .

(١) في ابتداء الأمر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) عند انتهاء الأمر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٤) يعني : علىٰ حسب الطاقة الإمكانية التي بها حصل التكليف ، وإلا فمعرفته تعالىٰ حقَّ معرفته محالةٌ ، قال العلامة السعد في « تهذيب المنطق والكلام » (ص٨٧) : (الحقُّ : أنه لا يُعلمُ من الله تعالىٰ إلا الوجودُ ، والصفات ، والسُّلوب ، والإضافات) ، وهـٰذا المعنىٰ هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم ـ الذي رواه مسلم (٤٨٦) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها ـ : « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك » ، قال حجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص١٠٦) : (ولم يُرِدْ به أنه عرف منه ما لا يُطاوعه لسانُهُ في العبارة عنه ، بل معناه : أني لا أحيط بمحامدك وصفاتِ إلـٰهيَّتك ، =

وسكرةُ الخشيةِ : تتولَّدُ مِنْ معرفةِ العبدِ نفسَهُ بصفتِهِ .

وسكرةُ الحميَّةِ : تتولَّدُ مِنِ اعتقادِ فرضيَّةِ الطاعةِ لأوامرِهِ ونواهيهِ بحقِّهِ .

وسكرةُ المِنَّةِ : تتولَّدُ مِنِ اعتقادِ الإحسانِ مِنَ اللهِ تعالىٰ في أقسامِهِ لديهِ بصدقِهِ[1] .

ومعَ السُّكرِ بأيِّ سببٍ ما كانَ مِنْ هٰذهِ الأقسامِ[2] . . **لم يلحقِ العبدَ إنْ زلَّ فيهِ لولا السكرُ عتابٌ[3]** .

فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في قصَّةِ موسىٰ وهارونَ عليهما السلامُ : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، ومثلُ هٰذا الصنعِ بغيرِ ذنبٍ بمسلمٍ غيرُ جائزٍ ، فكيفَ بنبيٍّ ؟! وقد فعلَهُ موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وما عُوتبَ عليهِ ؛ **لأنَّهُ فعلَهُ في حالِ سُكْرِ الحميَّةِ لأمرِ اللهِ تعالىٰ[4]** .

= وإنما أنت المحيط به وحدك) ، وقال في « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٦٩) : (وليس المعنيُّ به أني أَعجز عن التعبير عما أدركتُهُ ، بل هو اعترافٌ بالقصور عن إدراك كُنهِ جلاله) ، ولا شكَّ أن الإمام المصنف قائلٌ بذلك .

ومما اشتهر لعصريِّ الإمام المصنف ـ وهو الشيخ أبو علي بن سينا ـ أنه قال عند موته : (من الخفيف)

اعتصـامُ الـورىٰ بمغفـرتـك   عجـزَ الـواصفـون عـن صفتـكْ
تُـبْ علينـا إنَّـا بشـرٌ   مـا عـرفنـاك حـقَّ معـرفتـكْ

(١) أقسامه ؛ أي : أقسام الله تعالىٰ ، والقِسْم : الحظُّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قوله : (ما) زائدة للتوكيد . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٣) يعني : لولا السكر لعُوتب . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) وغضب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا لله تعالىٰ ، وطلباً لمرضاته ، وهم فيه مطيعون لله سبحانه ، وما ينشأ عنه مما لا يملكون لا يؤاخذون به ، وحاشاهم أن يفهم قاصرٌ أنه ينشأ عن أعمالهم ساعةَ الغضب أحكامٌ تخالف شرع الله تعالىٰ ؛ إذ مثل هٰذا =

وكـذلـكَ رُوِيَ أنَّ عمـرَ رضـيَ اللهُ عنـهُ أخـذَ بـرداءِ رسـولِ اللهِ صلَّـى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجرُّهُ مانعاً مِنَ الصلاةِ على المنافقِ[1] ، وما رُوِيَ فيهِ مِنْ

= مخالفٌ للعصمة ، وروىٰ أبو داود (٣٦٤٦) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كنت أكتبُ كلَّ شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريشٌ وقالوا : أتكتب كلَّ شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشرٌ يتكلَّم في الغضب والرضا ؟! فأمسكتُ عن الكتاب ، فذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بإصبعه إلىٰ فيه فقال : « اكتبْ ؛ فوالذي نفسي بيده ؛ ما يخرج منه إلا حقٌّ » .

إن قلت : فما معنى المعاتبة هنا ؟

فالجواب : أن الماتريدية ـ والإمام المصنف من أئمتهم ـ يجوِّزون وقوع الزلَّات من الأنبياء عن سهوٍ أو نسيان ـ وإليهما يرجع سُكْر الحميَّة هنا ـ بمقتضى البشرية ، واستدلُّوا بنحو قوله تعالىٰ : ﴿ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] ، قال العلامة الكمال بن الهمام في « المسايرة » كما في « المسامرة » (ص٣٢٦) : (إلا أنه لا يقرُّ عليه فيما هو أمر ديني ، بل ينبَّهُ) .

وبه تعلم : أن الزلَّة عندهم هي صورة معصية فقط ، نشأت عن سهو أو نسيان ، وهـٰذانِ أمران مانعان من ماهيَّة المعصية ؛ إذ هي مبنية علىٰ عزمٍ على الفعل ، ومعرفةٍ بكونه حراماً ، ومن تتبَّع زلَّات الأنبياء يجد أنهما لا يجتمعان فيها بحالٍ ، وانظر « إشارات المرام » (ص٣٢٢) .

(١) روى البخاري (٤٦٧٢) ، ومسلم (٢٤٠٠) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما توفي عبد الله بن أُبيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه قميصه ، وأمره أن يكفِّنه فيه ، ثم قام يصلي ، فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه ـ وعند البخاري (١٢٦٩ ، ٥٧٩٦) : فجذبه عمر ـ فقال : تصلِّي عليه وهو منافقٌ ، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ؟! قال : « إنما خيَّرني الله ـ أو : أخبرني ـ فقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] » ، فقال : « سأزيده علىٰ سبعين » ، قال : فصلَّىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلينا معه ، ثم أنزل الله عليه : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

إنكارٍ[١] ؛ لأنَّهُ فعلَهُ في سُكْرِ الحميَّةِ للواحدِ القهَّارِ .

وكـذلـكَ رُوِيَ أنَّ أبـا طيبـةَ الحجَّـامَ شـربَ دمَ رسـولِ اللهِ صلَّـى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وشُرْبُ الدمِ حرامٌ ، وحُرِّمَ أبو طيبةَ بشُرْبِهِ على النارِ ، بشهادةِ النبيِّ المختارِ[٢] ؛ فإنَّهُ شربَهُ في سُكْرِ المحبَّةِ للهِ تعالىٰ ولرسولِهِ ،

---

(١) ويحمل فعل سيدنا عمر رضي الله عنه علىٰ تذكيره صلى الله عليه وسلم ، وسبق تجويز النسيان على الأنبياء صلوات الله عليهم عند الماتريدية ، وإلا ففعله صلى الله عليه وسلم كان غاية الحكمة ؛ فقد روي أنه أسلم ألفٌ من الخزرج برؤيتهم تبرُّكَ ابنِ سلولَ بثوب النبي صلى الله عليه وسلم . انظر « إرشاد الساري » (٨/ ٤٢٣) .

(٢) حَجْمُ سيدنا أبي طيبة ـ واسمه ميسرة ، وقيل : دينار ، وقيل : نافع ـ رضي الله عنه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم رواه البخاري (٢١٠٢) ، ومسلم (١٥٧٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأما أنه شرب دمَ النبي صلى الله عليه وسلم فنقله ـ وأحسب عن الإمام المصنف ـ الإمامُ السَّرَخسيُّ في « المبسوط » (٣/ ٦٩) ، وجعل إفطارَ سيدتنا أمِّ هانئ رضي الله عنها بشربها لسؤر النبي صلى الله عليه وسلم غيرَ موجب للقضاء ؛ لفَرْط قصدها إلى التبرُّك بسؤره صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك خَصِيصة لها ، وقال في تعليل تحريم جسد سيدنا أبي طيبةَ على النار : (وشربُ الدم لا يوجب هـٰذا ، ولـٰكنه لفَرْط المحبَّة غَفَلَ عن الحرمة ، فأكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ذكر) ، ويظهر من سياقه اتِّباعُهُ للإمام القاضي المصنف .

وقال العلامة ابن الملقن في « البدر المنير » (١/ ٤٧٣) : (هـٰذا الحديث غريب من هـٰذا الوجه ، لا أعلم من خرَّجه بعد شدَّة البحث عنه ، قال الشيخ تقي الدين بن الصلاح في « كلامه على الوسيط » : هـٰذا الحديث غريب عند أهل الحديث ، لم أجد له ما يثبت به .

وقال النوويُّ في « شرح المهذب » : هـٰذا الحديث معروف ، لـٰكنه ضعيف) ، ثم ساق خبراً ضعيفاً جدّاً فيه ما هنا ، ولـٰكن دون التصريح باسم أبي طيبة ، بل علىٰ أن الفاعل كان غلاماً .

أما شربُ بعض الصحابة الكرام لدم النبيِّ صلى الله عليه وسلم . . فقد ثبت ؛ من ذلك : ما رواه البزار في « مسنده » (٢٢١٠) عن سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاني الدم فقال : « اذهبْ فغيِّبْهُ » ، فذهبت =

فسقطَ عنهُ الحظرُ الثابتُ بدليلِهِ[1] .

وكيفَ أشكلَ علىٰ بعضِ الناسِ هـٰذا الحكمُ والخطابُ قد سقطَ بالنومِ ؟ ![2] والنومُ بمنزلةِ السُّكْرِ ، ولـٰكنَّهُ بسببٍ غيرِ محظورٍ ، وذلكَ السُّكْرُ بسببٍ مأمورٍ[3] .

= فشربتُه ، ثم أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال لي : « ما صنعتَ به ؟ » ، قلت : غيَّبته ، قال : « لعلك شربتَه ؟ » ، قلت : شربتُهُ .

قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٧٠) : (رواه الطبراني ، والبزار باختصار ، ورجال البزار رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم ، وهو ثقة) ، وذكر شُرْبَ سيدنا مالك بن سنانٍ رضي الله عنه لدمه صلى الله عليه وسلم حينما مصَّهُ يوم أُحُدٍ حين أُصيب وجهُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكذا شربُ سيدنا سفينةَ رضي الله عنه لدمه صلى الله عليه وسلم حين احتجم .

(١) ومثل ما هنا من سكر المحبَّة : ما حكاه القاضي عياض في « الشفا » (ص١٠٩) : (وقد رُوِيَ نحوٌ من هـٰذا عنه في امرأة شربت بوله ، فقال لها : « لن تشتكي وجعَ بطنكِ أبداً » ، ولم يأمرْ واحداً منهم بغسلِ فمٍ ، ولا نهاهُ عن عودة ، وحديث هـٰذه المرأة التي شربت بوله صحيح ، ألزم الدارقطنيُّ مسلماً والبخاري إخراجه في الصحيح ، واسم هـٰذه المرأة : بركةُ ، واختلف في نسبها ، وقيل : هي أمُّ أيمن . . .) .

(٢) يعني : عدم مؤاخذةِ مَنْ غلبَهُ سُكْرُ المحبَّة ، وكلام المصنف تأصيل فقهي لما دار في كتب السادة الصوفية المحقِّقين من مصطلح (السكر) الذي يُؤخذُ فيه صاحبه عن نفسه .

(٣) إذ محبَّةُ الله ورسوله وأتباعه من أوليائه . . واجبةٌ ، ولا رخصة في تركها ، وقد قال الحافظ ابن الصلاح في « طبقات الفقهاء الشافعية » (١/ ١٥٥) : (قال الشيخ أبو الفتح عبد الرحيم بن أحمد خادمُ ابنِ خفيف ـ صالحٌ فاضل ـ : سمعت أبا عبد الله محمد بن خفيف يقول : سألَنا يوماً القاضي أبو العباس بن سريج بشيرازَ وكنَّا نحضر مجلسه لدرس الفقه ، فقال لنا : محبَّةُ الله فرضٌ أو غير فرض ؟ قلنا : فرضٌ ، قال : ما الدلالة علىٰ فرضها ؟ فما فينا من أتىٰ بشيء فقُبل ، فرجعنا إليه وسألْناه الدليلَ علىٰ فرض محبَّة الله عز وجل ، فقال : قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى =

ولا نرىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ تركَ الاستعانةَ بجبريلَ عليهِ السلامُ وقد عرضَ نفسَهُ عليهِ حينَ رُمِيَ بهِ في النارِ ، علىٰ ما جاءَتْ بهِ الأخبارُ . . إلا لسكرِهِ في محبَّةِ المنعِمِ القهَّارِ ، وشغلِهِ بمعرفةِ إحسانِهِ في كلِّ أحكامِهِ ، عن تفاوتِ معاني أقسامِهِ ، فجُوزيَ بما اعتقدَ مكانَ الجحيمِ نعيماً ، والنارِ بَرْداً سليماً ، لولا هو لَمَا حلَّ تركُ الاستعانةِ بمَنْ ينجيهِ عنِ الجحيمِ وقد عرفَهُ قاتلاً(١) ، ولم يَجُزْ تأويلُ التركِ علىٰ أنَّهُ كانَ غافلاً(٢) .

وعلىٰ هـٰذا الطريقِ(٣) ـ واللهُ أعلمُ ـ لم تعملِ الأُكْلةُ المسمومةُ في معدةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٤) ، والسمُّ أحرقُ النارينِ(٥) ، والمعدةُ أضعفُ المحلَّينِ .

= سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ ﴾ [التوبة : ٢٤] ، قال : فتوعَّدهم الله عز وجل علىٰ تفضيل محبَّتهم لغيره علىٰ محبَّته ومحبَّة رسوله ، والوعيد لا يقع إلا علىٰ فرض لازم وحتمٍ واجب) .

(١) الضمير في قوله : (لولا هو) راجع إلىٰ سُكر المحبة كما لا يخفىٰ .

(٢) والماتريدية وإن جوَّزوا السهو والنسيان في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إلا أن الموطن هنا وقع فيه التذكير والتنبيه من سيدنا جبريل عليه السلام ، فلا رخصة لأحدٍ في اعتقاد الغفلة هنا ، هـٰذا على القول بترادف النسيان والغفلة والسهو ؛ قال الحافظ الزبيدي في « تاج العروس » (س هـ و) (٣٨/٣٣٩) : (صريح سياقهم الاتحادُ بين السهو والغفلة والنسيان) .

(٣) يعني : عدمَ تأثير النار في الإحراق بخرق العادة ، وإثباتُ التأثير لغيره سبحانه وتعالىٰ لغةً هو باعتبار المشاهدات والعادات ، وإلا فهو وحده لا شريك له المؤثِّرُ في الظواهر والبواطن ، والأعراض والجواهر ، والأفكار والخواطر .

(٤) تقدم (ص٢٣٤) .

(٥) أي : نارِ نمروذَ والسمِّ ؛ بطريق التغليب ؛ لأن النارَ تؤثِّر أوَّلاً في الظاهر ثم في الباطن ، والسمَّ ابتداء يؤثر في الباطن ، فكان أحرقَ . انتهىٰ من هامش (و) .

وعليهِ يُخرَّجُ قولُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ مرضَ ، فقيلَ لهُ : ألا ندعو لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطَّبيبُ أمرضَني[1] ؛ أي : حالي فيهِ كحالِ صحيحٍ سقاهُ الطبيبُ دواءً فضَعُفَ ، والطبيبُ عالمٌ شهيدٌ قد عرفَ .

وهٰذا علىٰ ما قلْنا لكَ : إنَّ مَنْ غَفَلَ عن أسبابِ الرزقِ بالرزَّاقِ أتاهُ الرزقُ مِنْ حيثُ لم يحتسبْ ، وكانَ العيشُ رَغَداً وإنْ لم يكتسبْ[2] ، ومَنْ غَفَلَ عنِ الأمكنةِ بالمولىٰ حملَهُ البرُّ والبحرُ ، ومَنْ غَفَلَ عنِ الأقسامِ بالقسَّامِ نفعَهُ الخيرُ والشرُّ ، ومَنْ غَفَلَ عنِ الأوامرِ والنواهي بالآمرِ والناهي تأخَّرَ عنهُ النهيُ والأمرُ .

غيرَ أنَّ هٰذا السُّكْرَ ممَّا لا يجوزُ دوامُهُ على الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ، ويجبُ الاستغفارُ عمَّا زلُّوا فيها حتىٰ لا يقتديَ بها الأنامُ[3] ؛ قالَ موسىٰ

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٣٩) عن أبي السَّفَر قال : دخلوا علىٰ أبي بكر في مرضه فقالوا : يا خليفةَ رسول الله ؛ ألا ندعو لك طبيباً ينظرُ إليك ؟ قال : قد نظر إليَّ ، قالوا : ما قال ؟ قال : قال : إني فعَّال لما أريد .

ورویٰ أيضاً (٣٦٠) ، والبيهقي في « الجامع لشعب الإيمان » (٢٢٦٧) : أن عثمان بن عفان رضي الله عنه عاد ابن مسعود في مرضه ، فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمةَ ربِّي ، قال : ألا ندعو لك الطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا آمرُ لك بعطائك ؟ قال : ما منعتَنيه قبل اليوم فلا حاجة لي فيه ، قال : تَدَعُهُ لأهلك وعيالك ، قال : إني قد علَّمتُهم شيئاً إذا قالوه لم يفتقروا ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ (الواقعةَ) كلَّ ليلة لم يفتقرْ » .

(٢) إذ يغلب على الظنِّ أن المتوكِّل يأتيه رزقه نكداً لا رغداً ، وانظر ما تقدم (ص١٣٩) .

(٣) قوله : (فيها ، بها) راجع إلى السكرات المقدرة من قوله : (السُّكر) ، وهٰذا نصٌّ أصيلٌ في جواز وقوع الزلَّات من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ طريقة السادة الماتريدية ، وسبق أن الزلَّة ليست بمعصية أصلاً (ص١٤٧) ، ولهٰذا علَّل الاستغفار بقوله : (حتىٰ لا يقتدي بها الأنام) .

صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ بعدَما أخذَ برأسِ أخيهِ يجرُّهُ إليهِ : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف : ١٥١][1] .

ولأنَّ الحيرةَ بسُكْرِ شرابِ المحبَّةِ ، بمنزلةِ الحيرةِ بسُكْرِ الخمرِ والغفلةِ ، وما في السُّكْرِ مقصودٌ مِنَ الشرابِ ، وإنَّما المقصودُ منهُ الأُنْسُ والنشاطُ ، والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم وُقُوا السُّكْرَ معَ ما حصلَ لهم مِنَ الأُنْسِ والنشاطِ بشرابِ المحبَّةِ[2] ؛ كرامةً مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهم وتحقيقاً لِمَا أعطاهم مِنَ الإمامةِ ، فعاشوا أئمَّةً ، ويُنْشَرونَ أمَّةً[3] ، وغيرُهم حُرموا هٰذهِ الكرامةَ ؛ بياناً أنْ ليسَتْ لهم زعامةٌ ، فعاشوا عُبَّاداً ، ويُنْشَرونَ أفراداً .

[خوارقُ العاداتِ حاصلةٌ مِنْ طريقينِ]

فصارَتِ الآياتُ علىٰ خلافِ العاداتِ مِنْ طريقينِ :

إحداهما[4] : بالغفلةِ عمَّا دونَ اللهِ تعالىٰ باللهِ تعالىٰ ، وذلكَ ممَّا يشاركُ

---

(١) ومما يؤكِّد هٰذا استغفاره له ولأخيه معاً صلوات الله وسلامه عليهما ، ولا بدَّ أن يكون أحدهما ـ إن كان ثَمَّ معصية ـ علىٰ صواب ، وإنما قال ما قال تعليماً لبني إسرائيل كما سبق .

(٢) قوله : (وُقُوا السكر) ؛ أي : دوامَ السكر . انتهىٰ من هامش (و) ؛ يعني : باعتبار قوله قبلُ : (لا يجوز دوامه) .

(٣) الأمَّة : إمامٌ وجماعة ، وكلُّ جامعٍ للخير يُسمَّىٰ أمَّة ؛ أي : يحشرون مع أممهم . انتهىٰ من هامش (و) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] ، وروى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٣١) من حديث سيدتنا أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نُفَيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة وهو يقول : ما منكم اليوم أحد علىٰ دين إبراهيم غيري ، وكان يقول : إلٰهي إلٰهُ إبراهيم ، وديني دينُ إبراهيم ، قالت : وذكره النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : « يبعث يوم القيامة أمَّةً وحده بيني وبين عيسىٰ » .

(٤) وهي مشتركة بين المعجزة والكرامة .

الأولياءُ فيها الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم ، وأكثرُها للأولياءِ[١] .

والأخرىٰ : بالحاجةِ إلىٰ إثباتِ الدعوىٰ حالَ التجاحُدِ والخصومةِ ؛ إمَّا خصومةِ نفسِ العبدِ معَهُ ؛ ليعرفَ أنَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ حقٌّ ، أو خصومةِ العبادِ معَهُ ؛ ليعرفوا أنَّ الأمرَ صِدْقٌ ، وهـٰذا ممَّا يختصُّ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم[٢] .

ثم هـٰذهِ الغفلةُ متىٰ كانَتْ بطاعةِ النفسِ لم يَزِدْ علىٰ نفسهِ إلا حجَّةً[٣] ؛ لأنَّهُ معصيةٌ ، فلا ينالُ بهِ خفَّةً ؛ كالغفلةِ بسُكْرِ الشرابِ المحرَّمِ ، لا يزدادُ بهِ إلا عِظَمَ المأثمِ ، بخلافِ سُكْرِ النومِ .

[أنواعُ السُّكْرِ]

فصارَ أنواعُ السُّكْرِ أربعةً :

سُكْرٌ بعارضٍ مفتِّرٍ لقُوى النفسِ ؛ نحوُ النومِ والأدويةِ المُرْقِدَةِ[٤] .

وسُكْرٌ بعارضِ رِقَّةٍ تأتي علىٰ قُوى القلبِ ، وهيَ المحبَّةُ .

وسُكْرٌ بغلبةِ النشاطِ والسرورِ مِنَ الخمرِ .

وسُكْرٌ بغلبةِ شهواتِ النفسِ مِنَ الهوىٰ .

---

(١) إذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا ينفكُّون عن هـٰذا الاشتغال ، فهم في حضرة القُرْب علىٰ كلِّ حال ، وبمعنىً خاصٍّ لا يشاركهم فيه الأولياء مهما بلغت ولايتهم .
نعم ؛ السُّكر الذي سبق الحديث عنه لا يجوز دوامه كما قال .

(٢) يعني : علىٰ جهة التحدِّي ، ويلزم عنه وجوب الاتباع ؛ لإقامة الحجة ، بخلاف ما إذا وقع التحدي بالكرامة ، علىٰ خلافٍ عند المتكلمين في جواز ذلك ، والمشهور عُرْفاً جوازه .

(٣) يعني : نفسه أمرته بالغفلة عن الرزَّاق بالرزق مثلاً .

(٤) المُرْقِدُ : دواء يُرْقِدُ شاربه وينوِّمه .

[السادةُ الصوفيةُ ورثةُ أولياءِ العزلةِ]

ولأولياءِ العُزْلةِ ورثةٌ ، وهمُ الصوفيّةُ[1] ، فالمورِّثونَ خَلَوا عنِ الدنيا وأهلِها لهوانِها وغدرِهم ، واعتزلوا إلىٰ ربِّهم لعِظَمِ حقِّهِ ووجوبِ شكرِهِ ، والورثةُ خَلَوا عنِ الدنيا وأهلِها بالرياضةِ والصبرِ ، واعتزلوا إلى الربِّ جلَّ جلالُهُ بحُكْمِ الأمرِ[2] .

أيُّها المتصوِّفُ[3] ؛ هل علمتَ أنَّكَ في حالِكَ متكلِّفٌ ؟ أخليتَ يدَكَ عنِ الدنيا فهل أخليتَ قلبَكَ ؟ اعتزلتَ ببدنِكَ الناسَ فهل واصلتَ ربَّكَ ؟ أمِ استغنَيْتَ بالاسمِ دونَ المعنىٰ ، فصرتَ بالإعراضِ عنِ الخلقِ بَدَناً . . بلا دنيا ، وبالاشتغالِ بهم قلباً . . بلا مولىً[4] .

ثم قمتَ في مقامِ الخوفِ والرجاءِ ؛ خِفْتَ الجوعَ في فقرِكَ فكشفتَهُ بالسؤالِ ، ورجوتَ نيلَ ما في أيدي الناسِ فتذلَّلْتَ لهم للنَّوالِ ، فجُوزيتَ في

---

(١) قال لسان الدين بن الخطيب في « روضة التعريف » (ص٦٢٠) : (الصوفية هم سادةُ المسلمين) .

(٢) فالمورِّثون خلَّوا الدنيا بلا أمر ؛ فهم من قسم : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، والورثة بحكم الأمر ؛ فهم من قسم : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [قٓ : ٣٧] . مفادٌ من هامش (و) ، والذي تفيده كتب التفسير : أن من كان له قلب يسعىٰ للسماع ويتفهَّم ما يسمع ، والثانيَ إذا سمع ولو عفواً لم يشغل قلبه بغير ما سمع . انظر « معاني القرآن » للزجاج (٥/٤٨) .

(٣) المتصوِّف : من تشبَّه بالصوفيّة وليس منهم ، واستغنىٰ بنسبته للصوفيّة عن التحقُّق بمعانيهم الشريفة ، من هـٰؤلاء الذين يتذلَّلون للناس بالتقرُّب إليهم ، وسؤالهم ما في أيديهم .

(٤) أي : صرتَ بالإعراض الظاهر خالياً من الدنيا ، وبالشغل الباطن بعيداً عن المولى . انتهىٰ من هامش (و) .

حظوظِ الدنيا بالحِرْمانِ ، وفي حظوظِ الآخرةِ بالخِذْلانِ .

لزِمْتَ أيُّها المتصوِّفُ سَمْتَ الوليِّ ظاهراً ، فاعرفْ سببَ سمتِهِ والزمْهُ باطناً ، فعلىٰ حَسَبِ اتِّحادِ العِلَلِ تتَّحِدُ الأحكامُ ، وبقَدْرِ ضياءِ الشمسِ تتجلَّى الأيامُ(١) .



(١) أراد بالأيام : النُّهُر ؛ جمع نهار .

وفي هامش (و) : (واعلمْ : أن كلَّ وارث يأخذ من مورِّثه ما يكون له من الأموال بحسب نصيبه المقدَّر له ، وأموال الأنبياء : هي العلوم الإلـٰهيَّة ، والأحوال الربانيَّة ، والمقامات ، والمكاشفات ، والتجلِّيات ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء ما ورَّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر » ، فالعلم الحاصل لهـٰذا الوارث أكمل وأتمُّ من الحاصل لوارثِ نبيٍّ آخر ؛ لأنه صلَّى الله عليه وسلَّم أكملُ الأنبياء علماً وحالاً ومقاماً ، فكذا وارثه أكمل الوارثين علماً وحالاً ومقاماً ، وكما يحكم أن المال الموروث يتملَّكُهُ الوارث قهراً من الله ، أراد الوارث ذلك أو لم يرد. . كذلك هـٰذا الوارث يأخذ العلم والحال والمقام من الله علىٰ حسب استعداده ، إن شاء ذلك أو لم يشأ ؛ فإنه تمليك قهريٌّ ؛ بمعنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن أخذه » ؛ أي : من أخذ العلم الإلـٰهيَّ من الله العالم بربوبيَّته باطنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهرَهُ. . فقد سَعِدَ وخَلَصَ من الشكوك والشبهات الوهمية .

ولمَّا كانت علومهم وأحوالهم ومقاماتهم حاصلةً من التجلِّيات الأسمائية والذاتية علىٰ سبيل الجذب والوهب ، من غير تعمُّلٍ وكسب. . كان علوم هـٰذا الوارث وأحواله ومقاماته أيضاً كذلك من غير كسب وتعمُّلٍ ؛ قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩] ، فعلومُ الأولياء والكُمَّل غيرُ مكتسبة بالعقل ، ولا مستفادةٍ من النقل ، بل مأخوذة من الله معدنِ الأنوار ومنبع الأسرار ، وإتيانُهم بالمنقولات فيما بيَّنوه. . إنما هو استشهاد لما علموه ، وإثباتُهم المعانيَ بالدلائل العقلية تنبيهٌ للمحجوبين وتأنيسٌ لهم ؛ رحمةً منهم عليهم ؛ إذ كلُّ أحد لا يقدر على الكشف والشهود ، ولا يفي استعداده بإدراك أسرار الوجود ، فلهم نصيبٌ من الإنباء والرسالة بحُكْم الوراثة والأصالة ؛ كالمجتهدين من العلماء في الظاهر ، ونصيبٌ من التشريع ، ولذلك لا يزالون يبينون عن المعاني الغيبية) .

[مقامات المقتصدين]

وأمَّا المقتصدونَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ :

مقامُ الاقتصادِ ، ثم مقامُ الندمِ ، ثم مقامُ الإنابةِ ، ثم مقامُ الخوفِ والرجاءِ .

لأنَّهم في الأصولِ الأربعةِ في الصفاءِ ، دونَ صفوةِ الأولياءِ[1] ، فتنبَّهوا علىٰ زيغِهم بقلوبِهم ، ولـٰكنْ لم ينزجروا في شِرَّةِ حداثتِهم عن شرِّ نفوسِهم[2] ، فكانوا في مقامِ الضلالةِ ولـٰكنْ مقتصدينَ بنورِ صدورِهم ، وإنْ أقاموا في غرورِهم .

حتىٰ لمَّا بلغوا أشُدَّهم وتهذَّبَتِ الآراءُ وازدادَتِ البصيرةُ . . انتقلوا إلىٰ مقامِ الندمِ ، معتذرينَ إلى اللهِ تعالىٰ عن أنفسِهم[3] ، مُمْسِكينَ عنِ الغَوايةِ ، متأمِّلينَ في عواقبِ وقْفَتِهم علىٰ غيرِ هدايةٍ ، فأنابوا إلى اللهِ تعالىٰ مسرعينَ بعنايةٍ ، حتىٰ بلغوهُ فوقفوا عندَهُ خائفينَ ، حذراً عمَّا كانَ عن ضلالتِهم راجينَ ، نظراً في كرمِ اللهِ تعالىٰ وجلالِهِ[4] ، قد حالَ الخوفُ بينَهم وبينَ العَوْدِ ، وآمَنَهمُ الرجاءُ

---

(١) الأصول الأربعة ؛ أي : البَذْر ، والوقت ، والمنبت ، والغذاء . انتهىٰ من هامش (و) ، وانظر ما تقدم (ص٣٩٣) .

(٢) الشِّرَّةُ : الحرصُ والرغبة والنشاط ، وهي أيضاً مصدر الشرِّ ، وفي هامش (هـ) : (أي : شدة الشباب) .

(٣) حيث علموا قبحَ أفعالهم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) في (ب ، د ، هـ ، و) : (حذراء ، نظراء) بدل (حذراً ، نظراً) .

مِنَ الردِّ ، حتىٰ لمَّا استقاموا بينَ الخوفِ والرجاءِ أُكرموا بهيبةٍ لهم في قلوبِ العُصاةِ ، ومحبَّةٍ مِنْ قلوبِ الهُداةِ ، وفُسحةٍ مِنَ الأمنِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٣] .

وقالَ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ اللهَ خافَهُ كلُّ شيءٍ »(١) .

جُوزوا في الدنيا على الخوفِ بالأمنِ عنِ الشرورِ ، وعلى الرجاءِ بمحبَّةِ الصدورِ ، وفي الآخرةِ جُوزوا على الخوفِ بالأمنِ عنِ الحسابِ والنارِ ، وعلى الرجاءِ بالجِنانِ وصحبةِ الأخيارِ .

[المتقشِّفةُ ورثةُ المقتصدينَ]

ولهم ورثةٌ ، وهمُ المتقشِّفةُ(٢) ، فالمورِّثونَ أقبلوا على اللهِ تعالىٰ خوفاً مِنْ عدْلِ اللهِ ، وقاموا على البابِ رجاءً لفضلِهِ ، والورثةُ رجعوا إلى البابِ متكلِّفينَ بدعاءِ الأمرِ(٣) ، فقاموا متقشِّفينَ بوِفاقِ الزجرِ ؛ تركوا طيباتِ الدنيا للحالِ

---

(١) رواه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٣٧٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال : (لا يصحُّ) ، وأورده الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (٤/ ٢٦٧) من حديث سيدنا واثلة بن الأسقع وقال : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » ، ورفعه منكر) .

ورواه الرافعي في « تاريخ قزوين » (٢/ ١٨٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) المتقشف : الذي يتبلَّغُ بالقوت وبالمرقَّع ، أو التارك للنظافة والترفُّه .

(٣) روى البخاري (٧٢٩٣) عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال : (نُهينا عن التكلُّف) ، وروى الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥/ ٢٧٨) من حديث سيدنا الزبير بن أبي هالة رضي الله عنه مرفوعاً : « إني بريء من التكلُّف وصالح أُمَّتي » .

فحُرِموا لذَّتَها ، وخسروا طيباتِ الآخرةِ فقد أحبَّتِ القلوبُ منهمُ الدنيا ومتعتَها .

أمَا علمتُم أنَّ التكلُّفَ لا دوامَ لهُ ، والتقشُّفَ لا محمَدةَ فيهِ ؟! إنَّما تشبَّهتُم بالمقتصدينَ ظاهرينَ ، فاعرفوا سببَ اقتصادِهم وباشروهُ معتقدينَ ، فما يلتحقُ لاحقٌ بالسابقِ وإنْ ظَفِرَ بمركبِهِ ، إلا إذا سارَ علىٰ مذهبِهِ ، ولا ورثَ ولدٌ والداً لُوعِنَ في نسبِهِ[1] .



---

(١) في (ز) : (والدٌ ولداً) بدل (ولد والداً) ، وكلاهما صحيح .

[مقامات الظالمين أنفسهم]

وأمَّا الظالمونَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ :

مقامُ الظلمِ ، ثم مقامُ الإرجاءِ[1] ، ثم مقامُ اللومِ ، ثم مقامُ العُذْرِ .

لأنَّهم في الأصولِ الأربعةِ في الخبثِ فوقَ المقتصدينَ[2] ، فلم ينزجروا عن ضلالتِهم وقد عاشوا أربعينَ[3] ، وكانوا في تماديهم على الغَيِّ وقد بلغوا أشُدَّهم ظالمينَ ؛ إذْ قد تمَّتْ عليهمُ الحُجَجُ ، ووَضَحَ لقلوبِهمُ النَّهَجُ[4] ، **فكانَ الظلمُ أوَّلَ مقاماتِهم .**

حتىٰ لمَّا فتَرَتْ شهواتُهم ، واستثقلَهم أبناءُ الدنيا وفَرِكَهم غوانيهم وهجرَهم قَيْناتُهم[5] . . تأمَّلوا زمانَ كسادِهم في رأسِ مالِهم ، فإذا هو نسيئةٌ علىٰ مفاليسَ منكرينَ بأقوالِهم وأفعالِهم ، ما لهم عليهم لسانُ تقاضٍ ولا يدُ اقتضاءٍ ، فأُلقيَ في قلوبِهمُ التحوُّلُ إلىٰ صفِّ المِلاءِ[6] ؛ تثميراً لما بَقِيَ مِنْ رأسِ المالِ فأشعلَتِ

---

(١) في (د ، هـ) : (الرجاء) بدل (الإرجاء) ، وهما هنا بمعنىً .

(٢) سبق أن الأصول الأربعة : هي البذر ، والمنبت ، والوقت ، والغذاء ، وانظر ما تقدم (ص٣٩٣) .

(٣) إذ هو سنٌّ تمام العقل ، وهو داعٍ إلى اليقظة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

(٤) النَّهج ـ بسكون الهاء وفتحها ـ : الطريق الواضح .

(٥) فَرِكَه : أبغضه ، الغواني : جمع غانيَة ؛ وهي التي تستغني بجمالها عن الحلية . انتهىٰ من هامش (و) ، والقينة : الأمة البيضاء ، أو المغنية .

(٦) المِلاءُ ـ ويقال : المُلَآء بوزان كُبراء ـ : الأغنياء ذوو المال ، جمع مليء ؛ ككريم وكرام ، =

النفوسُ نيرانَ الشهوةِ ، وحالَتْ بدخانِها بينَ القلوبِ ونورِ تلكَ الخطرةِ ، تُرْجِئُ ما خطرَ بالفكرةِ ؛ ترغيباً في قضاءِ ما بَقِيَ مِنَ الشهوةِ ، وتأميلاً في تداركِ تلكَ الصَّفْقةِ .

حتىٰ إذا شاخَ العبدُ ، ونامَ علىٰ فراشِ اللَّحْدِ ؛ تفكَّرَ في فِراقِهِ فوجدَهُ لا يرافقُهُ جليسٌ ، ولا يوافقُهُ عليهِ أنيسٌ . . أقبلَ باللائمةِ علىٰ نفسِهِ ، وضَنَّ بما بَقِيَ مِنْ نَفَسِهِ ، يتفكَّرُ في عيبِهِ ، ويتذكَّرُ كرمَ ربِّهِ ، فتخرسُ الفكرةُ لسانَهُ ، وتقوِّي الذكرىٰ جَنانَهُ .

فيُقْبِلُ بقلبِهِ علىٰ بابِ التوبةِ يسوقُهُ الندمُ ، وتدعوهُ الرغبةُ حتىٰ يقفَ على البابِ ، فإذا هو عريضٌ رفيعٌ ما عليهِ حُجَّابٌ[1] ، ولا دونَهُ بوَّابٌ ، فيقومُ مستغفراً معتذراً فيكرمُ بالقبولِ ، ويؤذنُ للدخولِ ، فالذنوبُ مغفورةٌ ، والعيوبُ مستورةٌ ، حتىٰ مِنْ بينِ صحائفِ الحُسَّابِ ، وعن قلوبِ كرامِ الكُتَّابِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٣ ـ ٥٤][2] .

= وفي هامش (و) : (يريد بهم : الزهّاد والعبّاد والعلماء) .

(١) أي : مفتوح . انتهىٰ من هامش (هـ) ، روى الترمذي (٣٥٣٦) وقال : (هـٰذا حديث حسن صحيح) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١١٤) من حديث سيدنا صفوانَ بن عسَّال رضي الله عنه : أن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرةُ سبعين عاماً للتوبة ، لا يغلق حتىٰ تطلع الشمس من قِبَله ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

(٢) والآيتان بتمامهما : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

فالتائبُ عنِ الذنبِ هوَ الظالمُ المُصْطَفىٰ ، وقد يُسمَّىٰ بهـٰذا الظلمِ الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ[1] ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ في قصَّةِ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ، وقالَ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

وفي قصَّةِ موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ [القصص : ١٦] .

وفي قصَّةِ الأولياءِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وبدأَ اللهُ تعالىٰ بذكرِ الظالمينَ لأنَّهم أكثرُ ، ثم بالمقتصدينَ ، ثم بالسابقينَ لأنَّهم أعزُّ[2] .

---

(١) وإنما يسمِّيهم بذلك مولاهم سبحانه وتعالىٰ ؛ إذ علمت أن الزلة التي قال بجوازها السادة الماتريدية ليست ذنباً على التحقيق، بل صورتها صورة معصية ، والتوبة منها راجعة إلىٰ معنيين :
الأول : ما حكاه الإمام السنوسي بقوله في « شرح صغرى الصغرىٰ » (ص٢١٧) : (وأما قول آدم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ : فقولٌ صدر منه علىٰ سبيل الاستكانة والتعظيم لجناب أوامر المولىٰ تبارك وتعالىٰ ومناهيه ؛ بحيث يَحِقُّ على العبيد أن لو كان الأمر بأيديهم ألا تقع منهم مخالفة بوجهٍ من الوجوه ، لا عمداً ولا نسياناً ، ولا بانتهاك ولا بتأويل ، وأشار عليه السلام بذلك إلىٰ أنه لا حجَّة للعبد علىٰ سيده ، ولا يعتذر لنفسه فيما خالف من أمره تعالىٰ ونهيه ، ولا حقَّ له على المولى العظيم أن يَعْذِرَهُ بنسيان أو تأويل ، بل الحجة للمولىٰ تبارك وتعالىٰ علىٰ كل حالٍ ، وحكمُهُ علىٰ عبده بأنه معذورٌ في بعض الأحوال . . محضُ فضْلٍ منه جلَّ وعلا) .
الثاني : ما حكاه الإمام المصنف قريباً (ص٤٣٥) حيث قال : (ويجب الاستغفار عمَّا زلُّوا فيها حتىٰ لا يقتديَ بها الأنام) ، فبيَّن أن استغفارهم لكونهم قدوة ، لا لكون معصية قد صدرت منهم ، وهـٰذا كله بالنظر إلىٰ جانب الأنبياء مع الخلق ، أما مع الخالق فالأليق ما سبق نقله عن الإمام المحقق السنوسي .

(٢) يعني : في قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . . . ﴾ الآية [فاطر : ٣٢] .

[عامَّةُ الجهلةِ هم ورثةُ الظالمينَ أنفسَهم]

ولهم ورثةٌ ؛ وهم **عامَّةُ الجهلةِ** ، فالمورِّثونَ عركوا أنفسَهم باللائمةِ ، والتمسوا كرامةَ ربِّهم بحُسْنِ المعذرةِ .

وأنتَ ـ **أيُّها الوارثُ** ـ عركْتَ نفسَكَ علىٰ ما كانَتْ عليهِ بحُكْمِ العَجْزِ ، والتمسْتَ قبلَ العذرِ مِنَ اللهِ تعالى النَّجْزَ ، وتخشَّعْتَ بلا عقيدةٍ ، واستغفرْتَ بلا إنابةٍ ، فكنتَ بقلبِكَ على الإصرارِ ، وإنْ دخلْتَ ببدنِكَ في هـٰذا المضمارِ ، فما أنتَ في تركِكَ إلا علىٰ سُخْرِيَّةٍ ، ولا في طلبِكَ إلا علىٰ أُمْنِيَّةٍ ، وما جزاءُ السخريَّةِ إلا فوتُ الإيمانِ عندَ حلولِ المنيَّةِ ، ولا جزاءُ الأُمْنِيَّةِ إلا العدمُ وقتَ العطيَّةِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣] .



[فصل الفاسقين][1]

[أقسامُ الفُسَّاقِ]

وأمَّا **الفُسَّاقُ** فأربعةٌ : مصرُّونَ غيرُ متفكِّرينَ ، متفكِّرونَ غيرُ نادمينَ ، نادمونَ غيرُ واقفينَ ، واقفونَ غيرُ راجعينَ ؛ لأنَّهم متىٰ رجعوا إلى الحقِّ ، فقد تابوا وزالَتْ عنهم سِمَةُ الفِسْقِ .

فالمصرُّ لهُ أربعُ مقاماتٍ : طاعةُ النفسِ ، والتهاونُ بالعقلِ ، والغطاءُ ، ثم العمىٰ .

هٰذا قد أطاعَ نفسَهُ في التمسُّكِ بالمواردِ علىٰ إعراضٍ عنِ المصادرِ[2] ، فجُوزيَ بالتسليطِ عليهِ ، فأطاعَها بقولِهِ وفعلِهِ ، متهاوناً بعقلِهِ ، فجُوزيَ بالغطاءِ ، فصارَ كأنَّهُ أُرخيَ علىٰ بصرِ قلبِهِ سَجْفٌ[3] ؛ وذلكَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة : ٨٨] ، فأمعنَ في طريقِهِ علىٰ خلافِ عقلِهِ طاعةً لنفسِهِ غيرَ مدبِّرٍ لرفْعِ الحجابِ ، ولا واقفٍ ولا مرتابٍ[4] ، فانتقلَ إلىٰ مقامِ العمىٰ ،

---

(١) هٰذا القسم الثاني من أقسام الناس .

(٢) يعني : رضي بموارد الحياة الدنيا ، وهو في إعراض عن عواقب الآخرة .

(٣) السجْفُ ـ بفتح السين وتكسر ـ : السِّتْرُ .

(٤) إذ لو دبَّر لرفعِ الحجاب عنه لجُوزي بذلك ؛ روى الطبراني في « المعجم الكبير » (٤/ ٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٢٤٨) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ جاءه حرملةُ بن زيد ، فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ الإيمان ها هنا ـ =

فصارَ لا يبصرُ شيئاً ؛ كأنَّما بينَ عينَيهِ سَدٌّ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٩] .

فجُوزوا بالضلالِ عنِ المسالكِ ، والوقوعِ في المهالكِ ، ومعَهم نورُ الإيمانِ ، يرجونَ بهِ الأمانَ ؛ علىٰ مثالِ البصيرِ وَسَطَ البحارِ ليلَ السِّرارِ ؛ يخافُ الهُلْكَ ويرجو النجاةَ بمجيءِ النهارِ ، وربَّما أدركَهُ الغرقُ ، قبلَ نورِ الشَّرْقِ ، أو علىٰ مثالِ مَنِ ابتُليَ بغشاوةٍ فكَلَّ بصرُهُ ، فاستهانَ بها فصارَتْ لَحْماً حائلاً عنِ الانتفاعِ بالبصرِ كأنَّهُ لا ينفعُهُ نظرُهُ ؛ كأنَّهُ أعمىٰ وبهِ رجاءُ العَوْدِ بعلاجٍ ، وربَّما بَقِيَ عليهِ ففسدَ المزاجُ ؛ فنورُ البصرِ ممَّا يزولُ بامتدادِ زمانِ الظلمةِ ؛ كنورِ الإيمانِ ممَّا يُسلبُ تحتَ ظلماتِ المعصيةِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً بَعَثَ ٱللهُ مَلَكاً ، فَنَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ »[1] ، ثم لا يزالُ يسوَدُّ إذا أصرَّ حتىٰ لا يبقىٰ معَهُ نورُ الإيمانِ ، بخذلانِ

= وأشار بيده إلىٰ لسانه ـ ، والنفاق ها هنا ـ وأشار بيده إلىٰ صدره ـ ، ولا يذكر الله إلا قليلاً ، فسكت عنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فردَّد ذلك عليه ، وسكت حرملةُ ، فأخذ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بطرف لسان حرملةَ فقال : « اللهمَّ ؛ اجعلْ له لساناً صادقاً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبِّي وحبَّ من يحبُّني ، وصيِّرْ أمره إلى الخير » ، فقال حرملةُ : يا رسول الله ؛ إن لي إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ، أفلا أدُلُّك عليهم ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا ، من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومن أصرَّ علىٰ ذنبه فاللهُ أولىٰ به ، ولا تخرق علىٰ أحدٍ ستراً » .

(١) روى الترمذي (٣٣٣٤) وقال : (هـٰذا حديث حسن صحيح) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقِلَ قلبه ، وإن عاد زِيدَ فيها حتىٰ تعلوَ قلبَهُ ؛ وهو الرانُ الذي ذكر الله ؛ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] » .

يلحقهُ مِنَ الرحمـٰنِ ، فلا يبقىٰ بعدَهُ موضعُ رجاءٍ ؛ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

[مقاماتُ المتفكِّرِ]

وأمَّا المتفكِّرُ فلهُ مقاماتٌ أربعٌ : حبُّ الدنيا ، ثمَّ المكابرةُ ، ثمَّ الجهلُ ، ثم طاعةُ النفسِ .

هـٰذا تفكَّرَ في أمورِ نفسِهِ ، فلم يطعْها معرفةً بجهلِهِ ، غيرَ أنَّهُ حُبِّبَ إليهِ الدنيا ، فقامَ في مقامِ المحبَّةِ ، فجُوزيَ بالعمىٰ عن عيوبِها ، والصممِ عن خُطُوبِها ، فانتقلَ إلىٰ مقامِ المكابرةِ ، فقابلَ علمَهُ بعماهُ ، وانهمَكَ في دنياهُ ، فجُوزيَ بالنسيانِ ، فقامَ في مقامِ الجهلِ ، فكَرَّ لنيلِ المُنىٰ غيرَ منزجرٍ ، واستدرَّ أخلافَ الدنيا علىٰ تهوُّرٍ[1] ، فصارَ في مقامِ طاعةِ النفسِ ، الذي هو أوَّلُ مقاماتِ المُصِرِّ .

[مقاماتُ النادمِ]

وأمَّا مقاماتُ النادمِ : فأوَّلُها الطمعُ ، ثمَّ الرقُّ ، ثمَّ الضريبةُ ، ثمَّ المحبَّةُ .

هـٰذا تفكَّرَ في أمرِهِ ، ولم يحبَّ الدنيا حبّاً بقلبِهِ ، فأبصرَ بعضَ معايبِها ، ووقفَ علىٰ عجائبِها ، غيرَ أنَّهُ خُذِلَ بالطمعِ وشربَ مِنْ شرابِهِ ، فقامَ في مقامِهِ ، فتذلَّلَ بهِ للمعيبِ ، فخالفَ رأيَهُ وهو مصيبٌ ! فجُوزيَ بالهوانِ والهَلَعِ ، فقامَ لهوانِهِ في مقامِ الرقِّ لإدراكِ الطَّمَعِ ، وسعىٰ لهُ سَعْيَ الرقيقِ ، فجُوزيَ بالاستعبادِ عملاً بلا أجرٍ وإنَّهُ لَخليقٌ ، حتىٰ لمَّا اعتادَهُ ضُرِبَ عليهِ بعدَ

---

(١) الأخلاف : جمع خِلْف ؛ وهو من ذوات الخفِّ كالثدي للإنسان .

الرقِّ الضرائبُ ، فقامَ لأدائِها قيامَ المكاتِبِ[1] ، وسعىٰ علىٰ جدٍّ واشتياقٍ ؛ لشمِّهِ في الأداءِ رائحةَ العَتاقِ ، ولم يشعرْ أنَّ عتقَهُ في قناعتِهِ ، وإنَّهُ لَيُتَعَجَّلُ لهُ بها مِنْ ساعتِهِ ، فجُوزيَ بالإصابةِ استدراجاً ، فأَنِسَ بالجزاءِ وجَدَّ لجمعِهِ خَبَباً[2] ، وأحبَّ جمعَها عَجَباً ، وهو أوَّلُ المقامِ لمَنْ مضىٰ سبباً[3] .

[مقاماتُ الواقفِ]

وأمَّا مقاماتُ الواقفِ : الرِّيبةُ ، ثمَّ الرخصةُ ، ثمَّ الاستحلالُ ، ثمَّ الطمعُ .

هـٰذا تفكَّرَ كثيراً ، فما أحبَّ الدنيا إلا يسيراً ، ونظر إلىٰ معايبِها بصيراً ، فزَهِدَ فيها ، ثم رأىٰ قِوَامَهُ منها ، فوقفَ مرتاباً ليُرَوِّيَ رأيَهُ[4] ، ويحكمَ أمرَهُ ، ويحدِّثَ نفسَهُ بالفرارِ عنها ؛ لضروبِ فِتَنِها ، فتحدِّثُهُ نفسُهُ بالهلاكِ دونَها ؛ لتعلُّقِ قِوَامِهِ بها .

فجُوزيَ في امتدادِ وقفتِهِ باتِّقادِ نارِ الجوعِ ، والنفسُ تنادي : ما المالُ عنكَ بممنوعٍ ، وتقرأُ ما في التمتُّعِ بالدنيا مِنَ الرُّخَصِ[5] ، فأطاعَها منتهِزاً للفُرَصِ ، فصارَ في مقامِ الرُّخَصِ ، راضياً مِنْ نفسِهِ بالتخلُّسِ مِنَ الحرامِ[6] ، والتجنُّبِ

---

(١) يقال للعبد الذي كاتب سيده : مكاتب علىٰ صيغتي اسم الفاعل واسم المفعول ؛ لأنه من المفاعلة .

(٢) الخبب : ضربٌ من العَدْوِ فيه سرعة ، وهو فوق الرمَلِ ، وقيل : نفسه .

(٣) أي : المتفكِّر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) يقال : رَوَّيت في الأمر ؛ إذا نظرت فيه وتفكَّرت .

(٥) قوله : (ما) ليست للنفي ، بل هي اسم موصول . مفادٌ من هامش (د ، هـ) .

(٦) التخلُّسُ : استلاب الشيء خلسة ؛ عند حدوث فرصة ، وفي (ب ، ز) : (التخلُّص) بدل (التخلُّس) .

عنِ الآثامِ ، فجُوزيَ بالتزيينِ ؛ فزُيِّنَ لهُ سوءُ عملِهِ ، فاتَّبعَ هواهُ في الرضا بالمُقامِ على الرخصةِ ، فهي مِنْ حمى المحارمِ ، وشَفا هارٍ لأوديةِ المآثمِ ، فما لبثَ إلا انهارَ بهِ في وادي الاستحلالِ ، فسلكَهُ سلوكَ مستحِلٍّ ، واجتنىٰ جَناهُ غيرَ متأوِّلٍ ، كأنَّهُ حلالٌ ، فجُوزيَ بالبخلِ وساءَتْ بهِ الحالُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] ، لا ينتفعُ بمالِهِ ـ واللهُ أعلمُ ـ بخلاً ، وإنِ استولىٰ على الدنيا مُلْكاً ، ثم بالحرصِ طلباً لنفسِهِ بالزيادةِ نفعاً .

فإذا هو بعدَ الحرصِ في مقامِ الطمعِ فيما في العالمِ ، وهو أوَّلُ مقاماتِ النادمِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ـ ٧٧] .



[فصل الجاحدين][1]

[أقسامُ الجاحدينَ]

وأمَّا الجاحدونَ فأربعةٌ : الجهَّالُ غيرُ المتأمِّلينَ ، والمتأمِّلونَ غيرُ المبصِرينَ ، والمبصِرونَ غيرُ العارفينَ ، والعارفونَ غيرُ المهتدينَ .

[مقاماتُ الجاهلينَ]

فالجاهلونَ لهم مقاماتٌ أربعٌ : النَّبْوَةُ ، ثمَّ القسوةُ ، ثمَّ الشدَّةُ ، ثمَّ الخيبةُ .

لأنَّهم رهطٌ جُبِلوا على مضادَّةِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ ؛ مِنْ أخبثِ بَذْرٍ ، في أرذلِ مَنْبِتٍ ، في أنحسِ وقتٍ ، وغُذُوا بأفسدِ غذاءٍ ، فكانَ ابتداءُ الوجودِ على الخُبْثِ بحُكْمِ البَذْرِ ، وعلى الشدَّةِ بحُكْمِ المَنْبِتِ ، وعلى الحرمانِ بحُكْمِ الوقتِ ، وعلى الغشِّ بحُكْمِ الغذاءِ .

فنشؤوا خُبَثاءَ أشدَّاءَ محرومينَ غاشِّينَ في مقامِ هٰذهِ الخصالِ ، وعقولُهم مغلوبةٌ بنفوسِهم فلم ينتبهوا بها على الحالِ ، فقاموا في مقامِ النَّبْوَةِ عمَّنْ باينَهم طريقةً ، وما رافقَهم حقيقةً ، فجُوزوا بقُوى النفوسِ وكثرةِ الأولادِ والأموالِ ، فصاروا في مقامِهم كمَثَلِ الأَرْزةِ المُجْذِيَةِ في الأرضِ على ما قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ

---

(١) هٰذا القسم الثالث من أقسام الناس .

عليهِ وسلَّمَ(١) ، لا يُمِيلُهم عقلٌ ، ولا يحرِّكُهم قولٌ .

ثمَّ انتقلوا إلىٰ مقامِ القسوةِ ، فقسَتْ قلوبُهم بطولِ المباينةِ نَهْجاً ، واختلافِ المكالمةِ حُجَجاً ، فجُوزوا بالعمىٰ عنِ الوعظِ ، والصَّمَمِ عنِ النصحِ ، فصارَتْ كالحجارةِ أو أشدَّ قسوةً ؛ لا يتفجَّرُ منها ماءُ رحمةٍ ، ولا يهبطُ أو يميلُ لحكمةٍ(٢) .

ثمَّ انتقلوا إلىٰ مقامِ الشدَّةِ ؛ فاشتدُّوا علىٰ مخالفيهم بألسنةٍ لُدٍّ وسيوفٍ بُتَّرٍ(٣) ، متهوِّرينَ غيرَ مكترثينَ ، مُعْجَبينَ بقولِهم متكبِّرينَ ، فجُوزوا بالخِذلانِ وخطأِ التدبيرِ ، ووَهاءِ الأساسِ والتقديرِ(٤) .

---

(١) رویٰ مسلم (٢٨١٠) من حديث سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « مَثَلُ المؤمن كمَثَلِ الخامة من الزرع تُفيئُها الريح ؛ تصرعُها مرَّة ، وتَعْدِلُها أخرىٰ ، حتىٰ تهيج ، ومَثَلُ الكافر كمَثَلِ الأرزة المُجْذِيَةِ علىٰ أصلها ، لا يفيئُها شيءٌ حتىٰ يكون انجعافُها مرَّةً واحدةً » ، والمجذية : الثابتة في الأرض ، والخامة : الطاقة اللينة من الزرع ، والانجعاف : الانقلاع ، قال العلامة القاري في « مرقاة المفاتيح » (٢/ ١١٣٠) : (كذلك المنافق والفاسق يُقِلُّ لهم الأمراضَ والمصائبَ لئلا يحصلَ لهم كفارةٌ ولا ثواب) .

(٢) إشارة إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٤] .

(٣) اللُّدُّ : جمع ألدَّ ، والمرأة لدَّاءُ ، واللَّدَدُ : شدة الخصومة ، وبُتَّر : جمع باتر ؛ وهو القاطع ، وهٰذه الشدة منهم هي سلاحُ الضعيف المغلوب ؛ وَهَتْ حجَّته فلم تقم به ، واستعدىٰ باطله على الحقِّ فلم يسعفه إلا بالنبذ ؛ فهو يخلع علىٰ مخالفيه صفته ؛ يحسب أنه يبرأ بذلك منها ، فلا يزيده جحوده إلا طغياناً ، ولا يزيده وقارُ العالِم إلا هواناً .

(٤) الوَهاء : أراد : الوَهْي ؛ وهو الضَّعف والوَهْن ، قال العلامة المطرِّزي في « المغرب » (و هـ ي) (ص٤٩٩) : (الوهاء بالمد خطأٌ ، وإنما هو الوَهْيُ ؛ مصدر : وَهَى الحبلُ يَهِي وَهْياً ؛ إذا ضعف) ، ويقال : وهى الحائط ؛ إذا استرخىٰ وهمَّ بالسقوط .

فصاروا عندَ ذلكَ في مقامِ الخيبةِ ؛ خابَ عن رشدِهم نذيرُهم ، وعن فوزِهم كبيرُهم ، علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ في خيبةِ الرُّسُلِ عليهمُ السلامُ عنهم : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود : ٣٦][1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ ﴾ [يونس : ٨٨][2] .

---

(١) الآية بتمامها : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

(٢) الآية بتمامها : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ ، واللام في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ هي لام العاقبة ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] ؛ أي : فالتقطوه وآل أمره أن صار لهم عدواً وحزناً ، لا أنهم قصدوا إلىٰ ذلك ، ويجوز في قوله : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ ﴾ أن يعطف علىٰ قوله : ﴿ لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ ، وبهـٰذا لا يرد الإشكال الآتي علىٰ لسان الأخ ، وقوله : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ دعاءٌ عليهم بالموت على الكفر ؛ إذ الإيمان عند العِيان لا ينفع ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : ٨٥] .

واعلم : أن الله جلَّت حكمته لمَّا خلق النار خلق فيها الإحراق في كلِّ آن ، فهي محرِقة لا تنفكُّ عن الإحراق إلا بإذنه خرقاً للعادة ، حتىٰ ظنَّ الطبائعيُّون أنها محرقة بطبعها ؛ لإحكام الحكيم بين السبب والمسبَّب ، فمن اعتبر اهتدىٰ ، ومن عَمِيَ ضلَّ وما ارعوىٰ ، وكذلك الكفَّار خلقهم الله للنار ، والعبرة بالموافاة ؛ فمن مات كافراً اختار لنفسه المستقرَّ ؛ وهو الجحيم ، ومن كُشف له حالُ الكافرين وعرف مآلهم هان عليه الدعاءُ عليهم بالإشقاء ، فما دعاء سيدنا موسىٰ وهارون ـ علىٰ نبينا وعليهم الصلاة والسلام ـ إلا حينما أُوحي إليهما بالخواتيم لهـٰؤلاء المجرمين ، فما سألوا إلا ما أراده الله لهم في أزله ، ولا تحسبنَّ أن هـٰذا قولٌ بالجبر ، بل هو تحقيقٌ للأمر .

فقالَ الأخُ : كيفَ استقامَ القولُ باليأسِ عنِ الإيمانِ معَ قيامِ الدعوةِ ؟(١) .

قلتُ : كما استقامَ القولُ بتكليفِ السكرانِ معَ اليأسِ للحالِ عنِ القدرةِ ؛ لأنَّهُ عَجزَ بسببِ السُّكْرِ وكانَ منهيّاً عنهُ ، وإنَّما ارتكبَهُ باختيارِهِ ، فلم يَصِرْ عذراً عندَ ربِّهِ سبحانَهُ(٢) ، فكذلكَ قلبُ الآدميِّ في الأصلِ خُلِقَ على جِبِلَّةٍ قابلةٍ للحُجَّةِ مهتديةٍ بها(٣) ، وإنْ خُلِقَ على هٰذهِ الهيئةِ بنورِ سِرِّهِ(٤) ، وإنَّما عَشِيَ السرُّ وأظلمَ القلبُ بمعصيتِهِ التي نُهِيَ عنها وارتكبَها باختيارِهِ ، فلم يُعذَرْ وإنْ أَيِسَ بفَرْطِ العَشىٰ عن أنوارِهِ ، وقد وردَ بمصداقِهِ الحديثُ عنِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٥) ، ونطقَ بهِ الكتابُ العزيزُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ حكايةً عنهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾ [فصلت : ٥] ، ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة : ٨٨] ، ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود : ٩١] ، ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود : ٣٦] .

---

(١) أي : لو كان اليأس كائناً والدعوة إلى الإيمان ثابتةً يلزم تكليف العاجز !
قيل له : نعم ؛ ولٰكن مثل هٰذا جائز إذا كان اليأس بفعل من العبد ؛ كتكليف السكران . . . إلىٰ آخره . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) ولهٰذا أثبت الحنفية آثار تصرُّفات السكران ؛ فقالوا بإيقاع عتقه لو أعتق ، وطلاقه إن طلَّق ، وصحة تزويجه للصغار من كفء ، وصحة عقود بيعه ، وإقراره ، وإقراضه ، واستقراضه ، لٰكن منعوا من صحة ردَّته إذا ارتدَّ ـ بخلاف الجمهور ـ ، قال العلامة المحقق ابن عابدين في « حاشيته » : (٤/ ٤٢) : (السكران إن كان سكره بطريق محرَّم لا يبطل تكليفه ، فتلزمه الأحكام) ، ثم قال : (لأن العقل قائم ، وإنما عرض فواتُ فهم الخطاب بمعصيته ، فبقي في حقِّ الإثم ووجوب القضاء ، ويصحُّ إسلامه ـ يعني : السكران ـ كالمكرهِ ، لا ردَّته ؛ لعدم القصد) .

(٣) وإلىٰ هٰذا المعنىٰ ترجع الفطرة .

(٤) في (د ، هـ) : (بنور السرِّ) بدل (بنور سرِّه) .

(٥) كما سبق في حديث النكتة السوداء قريباً (ص٤٤٨) .

[مقاماتُ المتأمِّلينَ]

وأمَّا المتأمِّلونَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : الغِشاوةُ ، والكسلُ ، والاستدراجُ ، والنُّبُوَّةُ .

هٰؤلاءِ قومٌ دونَ الأوَّلِينَ في حظِّ الخُبْثِ[1] ، فوقَهم في حظِّ الطِّيبةِ ، فحملَتْهم هٰذهِ المزيَّةُ على التأمُّلِ في أفعالِهم بقلوبِهم ، وطلبِ العواقبِ بعقولِهم ، لٰكنَّ خُبْثَهم لم يَدَعْهم يتأمَّلونَ إلا لأمورِ الدنيا ، فجُوزوا بالحجابِ عنِ الأُخْرىٰ ، فقاموا في مقامِ الغِشاوةِ ، وصاروا بفَرْطِ معرفتِهم ساداتِ قومِهم ، وشموسَ يومِهم .

فلمَّا رأَوا ذلكَ انتقلوا إلىٰ مقامِ الكسلِ ، فأراحوا قلوبَهم عن جِدِّ التأمُّلِ ، وطلبوا جِسامَ الأمورِ بالهُوَيْنىٰ[2] ، وأرادوا عِظامَ الحظوظِ بالمُنَىٰ ، فجُوزوا بالإصابةِ فاغترُّوا .

وانتقلوا إلىٰ مقامِ الاستدراجِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وقالَ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ـ١٨٣] .

فركبوا عندَ ذلكَ مطيَّ التحكُّمِ ، لا يخطرُ ببالِهم زوالٌ ، ولا بوهمِهم تغيُّرُ حالٍ ، فجُوزوا بانسدادِ أبوابِ المصائبِ ، وارتدادِ أسهمِ المكارهِ ، لا تعي

---

(١) أراد بالأولين : الجاهلين .

(٢) الهوينىٰ ـ بوزان فُعَيْلىٰ بتخفيف العين ـ : تصغير الهُونىٰ تأنيث الأهون ؛ التؤدةُ والرفق والسكينة والوقار .

قلوبُهم وعظاً ، وتنبو عيونُهم عمَّنْ يَعيبُهم لَحْظاً ، فانتقلوا إلىٰ مقامِ النَّبْوَةِ ، الذي كانَ للذينَ كانوا دونَهم في الصفوةِ .

[مقاماتُ المبصرينَ]

وأمَّا المبصرونَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : الغلبةُ ، والعُجْبُ ، والقصورُ ، والغِشاوةُ .

وهـٰؤلاءِ قومٌ سبقوا الأوَّلِينَ عقلاً[1] ، فسبقوهم فَضْلاً ، وأدركوا الأمورَ أكثرَ مِنْ دَرَكِهم ، لـٰكنَّ الخبثَ فيهم أصلٌ فجرَّهم بذلكَ الدَّرَكِ إلىٰ هُلْكِهم ، فغالبوا الناسَ بتلكَ الفضيلةِ ، وقصدوا صيدَهم بالقوَّةِ أو بالحيلةِ ، فجُوزوا بالظَّفَرِ ، وفراغِ القلبِ عنِ الحَذَرِ .

فأضْحَوا معجبينَ بأفعالِهم ، مستأنسينَ بأحوالِهم ، لا يرونَ لأحدٍ فَضْلاً ، ولا لاستحقاقِ مَكْرُمةٍ أهلاً ، فجُوزوا بمَقْتِ القلوبِ ، وملابسةِ العيوبِ .

فأمْسَوا في مقامِ القصورِ ، رانَ عليهمُ القبائحُ[2] ، وبَدَتْ منهمُ الفضائحُ ، فجُوزوا بسِتْرٍ بينَها وبينَ نواظرِهم ، حتىٰ غَفَلُوا عنها بسرائرِهم ، كأنَّما علىٰ عيونِهم غشاوةٌ ، وقلوبُهم في غلافٍ مِنَ الغباوةِ ، وهو أوَّلُ مقامِ مَنْ قبلَهم ، ممَّن حُرِموا فضلَهم .

[مقاماتُ العارفينَ غيرِ المهتدينَ]

وأمَّا العارفونَ غيرُ المهتدينَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : الكبرُ ، والأنفةُ ، والحميَّةُ ، والغلبةُ .

---

(١) أراد بالأوَّلِينَ : المتأمِّلين .

(٢) رانَ : غلبَ ؛ يقال : ران النعاس في العين ؛ إذا خامرها .

هـٰؤلاءِ قومٌ تجلَّىٰ صفاؤُهم ، واختفىٰ غِشُّهم ، حتىٰ كادَ يتلاشىٰ ظلمةُ الغشِّ في نورِ الصفاءِ ، حتىٰ لم يَرَوا مِنْ أنفسِهم إلا الضياءَ ، ففتحوا عيونَ قلوبِهم ، فعرفوا الصراطَ المستقيمَ ، إلى النعيمِ المقيمِ ، فسلكوهُ والخبثُ الباطنُ يلقِّنُهم عَقْدَ السَّبْقِ ، لأنفسِهم علىٰ جميعِ الخلقِ[1] ، فقاموا في مقامِ الكبرِ .

فابتُلوا بسابقٍ دونَهم بظاهرِهِ[2] ، وإنَّما فضَّلَهُ اللهُ تعالىٰ بنورِ باطنِهِ ، وأُمروا بالإقرارِ لسَبْقِهِ ، والطاعةِ إيَّاهُ بحقِّهِ ؛ انقياداً لحُكْمِ اللهِ علىٰ جميعِ خلقِهِ ، فأَنِفُوا إذْ عَمُوا في حالِهم عن فَضْلِ اللهِ عليهم[3] ، وأبصروا الفَضْلَ لأنفسِهم ، فتكبَّروا عندَ ذلكَ ، فحملَهم على الأنفةِ عن طاعةِ مَنْ دونَهم في عَقْدِهم[4] ، وحاجُّوا ربَّهم عزَّتْ قدرتُهُ في ردِّهم ؛ كإبليسَ حيثُ قالَ إذْ تكبَّرَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ : ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف : ١٢] .

فابتُلُوا بالردِّ عليهم مِنَ الحاكمِ النافذِ حكمُهُ ، الماضي أمرُهُ ، فحملَتْهم حميَّةُ الجاهليةِ بعدَ انقطاعِهم في المُحاجَّةِ ، إلى الوقاحةِ والمُلاجَّةِ[5] ؛ كإبليسَ اللعينِ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [صٓ : ٨٢] ، ﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] ، وفرعونَ إذْ قالَ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ،

---

(١) يعني : خبثُ نفوسهم يملي عليهم ويلهمهم أنهم السابقون علىٰ جميع الخلق .
(٢) أي : الله تعالى ابتلى الأمراء بمتابعة العلماء والواعظين ، والعلماء أولىٰ مرتبةً من الأمراء من حيث الظاهر . انتهىٰ من هامش (و) .
(٣) أي : عن فضل الله على السابقين بالعلم عليهم . انتهىٰ من هامش (و) .
(٤) يعني : بحَسَبِ اعتقادهم هم ، والحقُّ خلافه .
(٥) الملاجَّة : التمادي في الخصومة وأشدُّ اللَّجاج .

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص : ٣٨] بعدَما ثبتَتِ المعرفةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] ، وبقولِهِ : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، ونحوِ علماءِ أهلِ الكتابِ في إنكارِ رسالةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ خوفاً علىٰ ذهابِ رئاستِهِم ، واعتقادَهِمُ الفَضْلَ لأنفسِهِم على العربِ ، بما عندَهم مِنْ علمِ الكُتُبِ .

فجُوزوا بالإمهالِ ، ودَرَكِ الآمالِ[1] ، **فثاروا هنالكَ إلىٰ غلبةِ العبادِ بقوَّةٍ أو بحيلةٍ** ، وهو أوَّلُ مقامِ مَنْ كانَ دونَهم في الفضيلةِ ، ثم صاروا وإنْ كانوا خيرَ هٰؤلاءِ الأقسامِ صفوةً ، شرَّهم بهٰذهِ الصفوةِ[2] ؛ فأولٰئكَ ضلُّوا غافلينَ ، وهٰؤلاءِ ضلُّوا عالِمينَ[3] ، وهٰؤلاءِ كفروا باللهِ العظيمِ مكابرينَ متعنِّتينَ ،

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، وقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل : ١١] ، وقال : ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق : ١٧] .

(٢) أي : صاروا شرَّهم بسبب الصفوة ؛ لأن الإنكار مع العلم أقبح . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٣) كعب بن الأشرف كان من العالمين ، وأبو جهل كان من الغافلين . انتهىٰ من هامش (و) ، وكعب بن الأشرف هٰذا كان طاغوت اليهود ، وهو في الأصل عربي من خزاعة ، ولٰكن أمه كانت يهودية ، فدان بدين أخواله وكان سيداً فيهم ، ولما خان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يعين عليه أحداً ، وشبَّب بنساء المسلمين ، وهجا المبرَّأ الأمين صلى الله عليه وسلم . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخاري (٢٥١٠) ، ومسلم (١٨٠١) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ـ : « مَنْ لكعبِ بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم » ، فقال محمد بن مسلمة : أنا ، وفي الخبر أنه =

وأولـئكَ كفروا مغرورينَ جاهلينَ ، فكانَ الجهلُ أساسَ الضلالةِ ، والكبرُ بناءً علىٰ أساسِ الجهالةِ ، وما النجاةُ عنِ استطابةِ هـٰذا البناءِ ، إلا باللهِ فهوَ القادرُ علىٰ ما يشاءُ .



= مكرَ به حتىٰ تمكَّن منه فقتله ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٢/ ١٦١) نقلاً عن القاضي عياض : (ولا يحلُّ لأحد أن يقول : إن قتله كان غدراً ، وقد قال ذلك إنسانٌ في مجلس علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأمر به عليٌّ فضُربَ عنقه ، وإنما يكون الغدر بعد أمان موجود ، وكان كعب قد نقض عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤَمِّنْهُ محمد بن مسلمة ورفقتُهُ ، ولـٰكنه استأنس بهم ، فتمكنوا منه من غير عهد ولا أمان) .

[فصل المنافقين](١)

[أقسامُ المنافقينَ]

وأمَّا المنافقونَ فأربعةُ أقسامٍ : المستهزئونَ غيرُ المبالينَ ، والمبالونَ غيرُ المنزجرينَ ، والمنزجرونَ غيرُ الموالينَ ، والموالونَ غيرُ الراضينَ .

[مقاماتُ المستهزئينَ]

فأمَّا المستهزئونَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : المرضُ ، ثمَّ الدَّنَفُ(٢) ، ثمَّ النَّزْعُ ، ثمَّ الموتُ .

هـٰؤلاءِ قومٌ مرضَتْ قلوبُهم(٣) ، ففقدوا الصحَّةَ في غرضِهم ، ولم يطلبوا شفاءً مِنْ مرضِهم ، فصحبوا الناسَ علىٰ عَقْدِ المخالفةِ ، مستهزئينَ بظاهرِ المؤالفةِ(٤) ، غيرَ مبالينَ مِنْ فسادِ القصدِ ، وقبحِ إظهارِ خلافِ العَقْدِ ، فأصابوا لهُ رَوَاجاً ، حتى اعتادوهُ فصارَ المرضُ لطباعِهم مِزاجاً .

فانتقلوا إلىٰ مقامِ الدَّنَفِ ، وهم جاهلونَ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

(١) هـٰذا القسم الرابع من أقسام الناس .

(٢) الدَّنَف : المرضُ الملازم ، أو الملازمُ المخامر .

(٣) قال سبحانه : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١٤ـ١٥] .

﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ، فاستحسنوا الزيادةَ علىٰ أصلٍ اعتقدوهُ حسناً[١] ، وسَكَنوا إلىٰ ثمرةٍ عرفوا أصلَها سَكَناً ، فجُوزيَتْ أبدانُهمُ الدَّنِفةُ بحُسْنِ ألوانٍ مِنِ التهابِ الحُمَّىٰ ، وألسنتُهم بلُطْفِ قولٍ في الشكوىٰ ، وعندَهم أنَّ حُسْنَ اللونِ مِنْ آثارِ الصحَّةِ ، ولُطْفَ القولِ مِنْ أنوارِ الحُجَّةِ ، فعَدُّوا السالمينَ عندَ ذلكَ مرضىٰ ، وأمْرَ الصادقينَ هنالكَ فوضىٰ[٢] .

فأبدلوا الهُزْءَ بالمغالبةِ ، وأرادوا تحقيقَ القولِ بالمحاربةِ ، وقالوا : نحنُ الملوكُ والأَجِلَّةُ ، ولنُخْرِجَنَّ مِنْ بلدِنا الأذلَّةَ[٣] ، فقاموا في مقامِ النَّزْعِ مغالبينَ ، بعدَما كانوا مخاتِلينَ[٤] ، يظنُّونَ أنَّ عَرَقَ جبينِهم مِنْ قوَّةِ يمينِهم ، وما شعروا أنَّهُ لانقطاعِ وَتينِهم[٥] ، فكادوا ولمَّا فعلوا ؛ إذْ جُوزوا بسقوطِ القوَّةِ وظهورِ آياتِ المنيَّةِ[٦] ، فأنكروا ما قالوا مُتَشَكِّينَ في البليَّةِ[٧] .

ومتىٰ نفعَ المرضىٰ شكواهم إلى الطبيبِ ، وقد جُذبَتْ نفوسُهم إلى القلوبِ ، إلا تعلَّةَ ساعةٍ ، ثمَّ الموتُ قهراً بلا إذنٍ في رَجْعةٍ[٨] ،

---

(١) أي : الزيادة المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وأراد بالأصل : النفاق . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : قومٍ فوضىٰ ؛ أي : مختلفين لا أمير لهم ، وطعام فوضىٰ ؛ أي : مختلف بعضه ببعض . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

(٤) الختل : الخداع .

(٥) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .

(٦) آيات المنية : آثارها .

(٧) قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] .

(٨) قال جلَّ جلاله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس : ٤٥] ، وقال جلَّ وعزَّ : =

ثمَّ الدخولُ قبراً بسرعةٍ[1] .

[مقاماتُ المبالينَ غيرِ المنزجرينَ]

وأمَّا المبالونَ غيرُ المنزجرينَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : الشبهةُ ، ثمَّ الشكُّ ، ثمَّ اللَّبْسُ ، ثمَّ المرضُ .

هٰؤلاءِ قومٌ شابَ مرضَ قلوبِهم صحَّةٌ فبالَوا عندَها بمرضِهم[2] ، غيرَ أنَّ المرضَ غالبٌ فلم يلحقوا دونَهم بغرضِهم[3] ، فسحابُ المرضِ مطبقٌ ، والصحَّةُ برقٌ مشرقٌ ، فقاموا في مقامِ الشبهةِ ؛ لا ينزجرونَ عن هزءِ مرضى الصدورِ[4] ، لٰكنْ لا يتلذَّذونَ بتلكَ الأمورِ[5] .

فامتُحنوا بقيامِ المعارضةِ بينَ الحُجَّتينِ[6] ، فوقفوا للتأمُّلِ وَقْفةً أو وَقْفتينِ ، ثمَّ انتقلوا إلىٰ مقامِ الشكِّ ، وعاضدوا فيهِ أهلَ الإفْكِ[7] .

= ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس : ٥٠] ، والتعِلَّة : التسلِّي والتلهِّي .

(١) القبر الحكمي ، فهنا ما ذكره في قوله تعالىٰ من قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾ [فصلت : ٥] ، وقوله : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وما جزاؤهم بعده إلا بالمسارعة بهم قبراً ؛ فقد خيف عليهم الفساد لعللهم ، فما لبثوا إلا وقد خرجوا إليه عن منزلهم ، ختم الله بل طبع علىٰ قلوبهم ، وطبعُ الله : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ ﴾ [هود : ٣٦] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قوله : (بالَوا) ؛ يعني : من المبالاة ؛ وهي الاهتمام والاكتراث .

(٣) أي : نفوسهم حائلة بينهم وبين غرضهم ، فلم يلحقوا بالغرض ، و(دون) بمعنىٰ (قدَّام) . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : حال كونهم مرضى الصدور . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) أي : أصول الصحة . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٦) يعني : الصحيحة والفاسدة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٧) قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور : ١١] ، وفي هامش (و) : (يعني : إفك عائشة والافتراء عليها) .

فامتُحنوا بترائي رُجْحانِ كِفَّةِ المرضِ فمالوا إليهِ ، وقاموا في مقامِ اللَّبْسِ قد طُبِعَ عليها بكفرِهم[1] ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩][2] .

فلم يَرَوا بعدَ اللَّبْسِ كِفَّةَ الصحَّةِ بسرِّهم ، فحلُّوا بمقامِ المرضِ أوَّلِ مقامِ الأوَّلينَ ، وإنْ كانوا رَهْطاً آخرينَ .

[مقاماتُ المنزجرينَ غيرِ الموالينَ]

وأمَّا المنزجرونَ غيرُ الموالينَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : الرؤيةُ ، ثمَّ الحذرُ ، ثمَّ الجُبْنُ ، ثمَّ الشبهةُ .

هٰؤلاءِ قومٌ قُسِمَتْ قلوبُهم للمرضِ والصحَّةِ قسمينِ ؛ فأضاءَتْ كالقمرِ وقد خَلَتْ سبعُ ليالٍ[3] ، فرَأَوا ما عَمِيَ عنها المستهزئُ والمبالي ، فقصدوا فِراقَهم ، ثم حَذِروا فِراقَ الجماعةِ ، فوقفوا بينَهم يتأمَّلونَ في عواقبِ أمورِهم ساعةً بعدَ ساعةٍ ، فابتُلوا بالتهدُّدِ والشناعةِ ، والخديعةِ والشفاعةِ ، فجَبُنوا بينَ ذلكَ وسُلِبوا قوَّةَ الشجاعةِ ، فجُوزوا بظلمةِ الصدورِ ، وانكسافِ البدورِ ، فحَلُّوا بمقامِ الشبهةِ ، وهو أوَّلُ مقامِ مَنْ قبلَهم مِنَ الفُرْقةِ .

---

(١) يعني : طبع الله علىٰ قلوبهم لعلمه بموافاتهم بكفرهم ، والمراد هنا : الالتباس والاشتباه .

(٢) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٢/ ٢٣١) : (يقال : لَبَسْتُ الأمر على القوم أَلْبِسه ؛ إذا شبَّهتُه عليهم وأشكلته عليهم ، وكانوا هم يَلْبِسون علىٰ ضَعَفَتِهم في أمر النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيقولون : إنما هٰذا بشرٌ مثلكم ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا ﴾ فرأوا هم المَلَكَ رجلاً . لكان يلحقهم فيه من اللَّبْسِ مثلُ ما لحق ضَعَفَتَهم منهم) .

(٣) خلت : مضت ؛ يعني : في الليلة السابعة من الشهر ، ونورها نصف نور البدر .

[مقاماتُ الموالينَ غيرِ الراضينَ]

وأمَّا الموالونَ غيرُ الراضينَ فلهم مقاماتٌ أربعٌ : خطأُ التدبيرِ ، ثمَّ التقديرِ ثمَّ التفكيرِ ، ثمَّ الرؤيةِ .

هٰؤلاءِ قومٌ غلبَ نورُ عقلِهم مرضَ الصدرِ ، فأضاءَ كالقمرِ ليلةَ العَشْرِ[١] ، فأبصروا الطريقَ والضلالةَ ، فوالَوا أهلَ الحقِّ منزجرينَ عن أهلِ الجهالةِ ، غيرَ أنَّهم أخطؤوا التدبيرَ في الموالاةِ بمرضٍ وإنْ قلَّ في الصدورِ[٢] ، وضلُّوا عنِ الصِّدْقِ بنقصانِ ما انتقصَ مِنَ النورِ ، فلم يصبروا بعدَ الموالاةِ عن إفشاءِ الأسرارِ ، وإبلاغِ الأخبارِ ؛ علىٰ تقديرِ أنَّهم لو ظهروا عليهم . . كانَتْ لهم يدٌ لديهم[٣] .

فأفْشَوا إلىٰ قومِهم ما كانَ في الصدورِ ، ولمَّا كانَ للآخرينَ ظهورٌ ، فانتقلوا إلىٰ مقامِ الفكرةِ ، يَبْعُدونَ منهم سِرّاً خَطْرةً بعدَ خَطْرةٍ ، فازدادَ نقصانُ نورِ البدرِ فصارَ كسوفاً حتى انتصفَ ، وقاموا بينَ عمىً ورؤيةِ ما في صدورِهم مِنْ ولاءٍ ، وهو أوَّلُ مقامِ الذينَ كانوا دونَهم في الضياءِ .

[الإيمانُ الهلاليُّ والإيمانُ البدريُّ]

فالقلبُ مِنَ العبدِ بمنزلةِ القمرِ ، والصدرُ بمنزلةِ العالَمِ ليلاً ، فالقمرُ في أصلِهِ لا نورَ لهُ إلا برؤيةِ الشمسِ ، والعالَمُ لا نورَ له ليلاً إلا بنورِ القمرِ ،

---

(١) ويكون نورُهُ دون نورِهِ ليلة أربع عشرة ، وفَرْقُ ما بينهما من النور هو المقصود من النقصان الآتي ذكره .

(٢) لأن حقيقة الموالاة عدم المرض أصلاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : علىٰ تقدير أن الكفار لو غُلِّبُوا على المؤمنين كانت للمنافقين يدٌ عند الكافرين ، بواسطة إفشاء أسرار المؤمنين . انتهىٰ من هامش (و) .

فالقلبُ لا نورَ لهُ إلا برؤيةِ الربِّ جلَّ جلالُهُ ، والصدرُ لا نورَ لهُ إلا بنورِ القلبِ .

فلا يأسَ معَ أدنىٰ نورِ الهلالِ ؛ فإنَّهُ لا يزالُ إلىٰ كمالٍ ، ولا اعتمادَ علىٰ تمامِ نورِ البدرِ ؛ فإنَّهُ لا يزالُ إلىٰ زوالٍ .

فالإيمانُ الهلاليُّ إيمانُ المقصِّرِ المقرِّ بقصورِهِ ، والإيمانُ البدريُّ إيمانُ المرائي بنورِهِ ، فالرياءُ انحرافٌ إلى الناسِ عنِ اللهِ تعالىٰ كانحرافِ القمرِ بعدَ التمامِ عنِ الشمسِ ، وربَّما أُعجبَ فكانَ كُسُوفاً للحالِ ، فالعُجْبُ برؤيةِ النفسِ ، ولن تُرى النفسُ إلا بينَ القلبِ والربِّ ؛ كالأرضِ بينَ البدرِ والشمسِ ، فينكسفُ القلبُ بظلمةِ النفسِ كما ينكسفُ البدرُ بظلِّ الأرضِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ[1] : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقالَ في المنافقينَ : ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧] .



(١) يعني : في صفة إيمان المؤمنين .

فصل

[في أقسام الناس بالنظر إلى شؤون الدنيا]

أقسامُ الناسِ علىٰ ما يشتملُ عليها مصالحُ الدنيا أربعةٌ[1] : العمَّالُ ، والتُّجَّارُ ، والأمراءُ ، والعلماءُ .

فأمَّا العُمَّالُ : فطُلَّابُ الأموالِ بمنافعِهم ، والأموالُ في أصولِها تبعٌ إنْ وُجدَتْ[2] ؛ وهمُ الحرَّاثونَ ، والغوَّاصونَ ، والحفَّارونَ ، والصيَّادونَ ، والصُّنَّاعُ ، والأُجراءُ .

وأمَّا التُّجَّارُ : فطُلَّابُ الأموالِ بأموالِهم ، ومنافعُهم تبعٌ فيها إنْ وُجدَتْ .

وأمَّا الأمراءُ : فهمُ الرعاةُ للخَلْقِ بالحقِّ .

وأمَّا العلماءُ في هـٰذا القسمِ : فهمُ الهداةُ إلى المصالحِ ؛ كمفاتيحِ الأبوابِ ومصابيحِ البيوتِ .

قالَ رضيَ اللهُ عنهُ :

إنَّ الحكيمَ القديمَ جَلَّتْ قدرتُهُ جعلَ الناسَ علىٰ هـٰذا التقسيمِ ، وعلَّقَ

---

(١) كذا العبارة في جميع النسخ .

(٢) العملُ للعمَّال أصلٌ والمال تبعٌ ، والمالُ للتجّار أصلٌ والعمل تبعٌ ، وربَّ تاجر لا يكون له عملٌ ، ويحصل له المال بالشركاء . انتهىٰ من هامش (و) ، وقوله : (**أصولها**) ؛ أي : أنفسها . انتهىٰ من هامش (ب) .

صلاحَ بعضِهم ببعضٍ في دنياهم ، ثم علَّقَ بعاقبتِهِ صلاحَ عُقْباهم[1] ؛ فجعلَ النفوسَ أصلاً لا يقومُ إلا بالمالِ ، والمالَ فرعاً وأداةً لا توجدُ إلا بالعُمَّالِ .

وبعدَ الوجودِ لن تحصلَ المصالحُ إلا بالنقلِ مِنْ بلدٍ إلىٰ بلدٍ ، ومِنْ يدٍ إلىٰ يدٍ ، ولن يتهيَّأَ النقلُ بغيرِ كُلفةٍ إلى المحتاجِ إليهِ إلا لطَمَعِ التُّجَّارِ في الأرباحِ ، ولا تتناسخُهُ الأيدي إلا بأخذٍ وإعطاءٍ على اصطلاحٍ[2] .

ولن يتيسَّرَ النقلُ والاصطلاحُ إلا بسكونِ الناسِ ، ولن يسكنَ الناسُ وهم أطوارٌ إلا براعٍ سَوَّاسٍ .

ولا سياسةَ إلا بالإنصافِ والمَعدَلةِ ، ولن تُعرفَ وجوهُ العَدْلِ والإنصافِ إلا بشرعٍ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أعلمُ بمصالحِ العبادِ وأكرمُ المحسنينَ إليهم ، فكانَ الوجهُ الأجدىٰ ما شرعَ لهم وعليهم ، ولن يعرفَ مشروعَ اللهِ تعالىٰ إلا العلماءُ .

وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحونَ[3] ؛ لبعثِ همَّتِهم عليهِ وإعذابِهِ لديهم ، لولاهُ لصاروا أمَّةً واحدةً ، ولا يزالونَ مختلفينَ ، ولذلكَ خلقَهم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

قالَ العبدُ رضوانُ اللهِ عليهِ :

---

(١) قوله : (عاقبته) الضمير راجعٌ إلى التقسيم ، وفي (د ، هـ) : (عاقبتهم) بدل (عاقبته) .

(٢) يعني : مصالحة ، من غير مخاصمة ومنازعة ، وقوله : (تتناسخه) ؛ أي : تتداوله . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٣) العامل بعمله ، والتاجر بتجارته ، وإن كانت مرتبة العلماء أعلى المراتب . انتهىٰ من هامش (و) .

إنَّ التجَّارَ والعمَّالَ طلَّابُ الأموالِ ، وأوفرُ الأسبابِ رِبْحاً ، وأقلُّها كَدْحاً ، وأعلاها قِدْحاً[1] . التجارةُ ، ثمَّ الصناعةُ ، ثمَّ الزراعةُ ، وأنكدُها : الصيدُ ، وأكدُّها : الإجارةُ .

[أحوالُ العُمَّالِ]

أمَّا الزراعةُ : فتُلجِئُ إلىٰ خدمةِ البقرِ ، وتبعثُ طولَ الأملِ ، ثم يفنىٰ ما جمعَ بها ، قبلَ إدراكِ ما زرعَ منها .

وأمَّا الصائدُ : فمبتلىً بمرافقةِ السباعِ ، ومواظبةِ الخِداعِ ، ثم إنْ أصابَ فكفافٌ ، وإنْ أخطأَ فإتلافٌ .

وأمَّا الإجارةُ : ففيها إرقاقُ النفسِ ، واجتلابُ التَّعْسِ ، وتذهبُ أجرةُ يومِهِ للَيْلتِهِ ، ويبقىٰ دائماً في عَيْلتِهِ .

وأمَّا الحفَّارُ ـ وهو صاحبُ المعادنِ ـ : فيأوي الجبالَ ، ويبسطُ الآمالَ ، وينفقُ الأموالَ ، وربَّما نبعَ مكانَ الرَّقينِ[2] ، ماءٌ معينٌ .

وأمَّا الغوَّاصُ : فيخاطرُ البحارَ ، ويتحملُ المضارَّ ، وكم أصابَ آجُرَّةً ، مكانَ دُرَّةٍ .

وأمَّا الصانعُ[3] : فيعيشُ بينَ الناسِ ، ويعملُ بقياسٍ ، ويجدُ الكفايةَ ، مِنْ غيرِ جدِّ عنايةٍ .

---

(١) القِدْح : السهم قبل أن يُراش ، والقِداح كانوا يقامرون بها ويتخذونها للقرعة ، وهي عشرة ؛ أعلاها : المعلَّىٰ ؛ إذ له سبعة أنصباءَ من عشرة .

(٢) الرَّقين : الدرهم ، أو جمع رِقَةٍ ؛ وهي الفضة ، وهي الأليق هنا ، ومنه قولهم : وِجدانُ الرَّقين يغطِّي أَفَنَ الأفينِ .

(٣) في (أ) وحدها : (الصائغ) بدل (الصانع) .

[التجارةُ أكسبُ المكاسبِ]

وأكسبُ المكاسبِ : **تجارةٌ حاضرةٌ بيدِهِ** ، تَدُرُّ عليهِ الربحَ ليومِهِ وغدِهِ ، بلا تقديرٍ ولا تقتيرٍ ، وينمو المالُ نموَّ الزرعِ أيامَ الربيعِ ، بِبَرٍّ وغيثٍ وريحٍ وطُلوعٍ[1] ، فيجتمعُ أوقاراً ، ثم ينقلبُ أحْكاراً[2] ، علىٰ راحةٍ مِنَ الجسمِ ، وامتداحٍ مِنَ الاسمِ ، وسكونٍ مِنَ النفسِ ، حتىٰ لا تكادُ توجدُ الأموالُ الجمَّةُ إلا عندَ هـٰذا الجنسِ .

[آفاتُ التجارةِ]

فأمَّا الشِّرْكَةُ : فافتضاحٌ واتِّضاعٌ[3] ، **وفي الإبضاعِ** ضياعٌ[4] ، **وفي الإقراضِ** إعراضٌ ، **والنسيئةُ** منسيَّةٌ .

ولن يجتمعَ المالُ إلا بعدَ محافظةٍ ومحاسبةٍ ، فما بينَهُ وبينَ طالبٍ مناسبةٌ[5] ، وفي الاجتماعِ غنىً ، وفي الغنىٰ طغيانٌ ، وفي الطغيانِ استحقاقُ النيرانِ ، وقبلَ النارِ ذهابُ المروءةِ ، وبيعُ الحريَّةِ ، فما المروءةُ إلا في

---

(1) **البَرُّ** : الأرض ، **والطلوع** ؛ أي : طلوع من الشمس . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي (ج ، ز) : (بين غيث) بدل (ببرٍّ وغيث) .

(2) **احتكار الطعام** : جمعه وحبسه يُتربَّص به الغلاء . انتهىٰ من هامش (و) ، **والأحكار** : جمع حَكَر ؛ وهو الحُكْرة من الاحتكار .

(3) **افتضاحٌ** بمعرفة رؤوس الأموال ، **واتِّضاع** بمقاسمة الأرباح .

(4) **الإبضاع** : دفعُ المال لمن يتَّجرُ به علىٰ أن يكون الربح كله لصاحب رأس المال ، فهو عقد تبرُّع كما ترىٰ ، ولهـٰذا المعنىٰ قد يفرط ويقصِّر من دُفعَ إليه المال ، ومثاله : اشتركا بمالٍ متساوٍ علىٰ أن يكون العمل علىٰ أحدهما ، والربح مناصفةً ، فالثاني كأنه دفع ماله للأول العاملِ دون اعتبار عمله .

(5) **يعني** : ليس بين طالب المال وبين المال مناسبة .

الإيثارِ ، وما الغَناءُ إلا بالاستئثارِ ، ولا حريَّةَ حيثُ لا تواضعَ وإجلالَ ، ولا كِبْرَ واستخفافَ إلا معَ المالِ .

ففرُّوا عن مالٍ أنفقَ المرءُ عمرَهُ وراحتَهُ في حيازتِهِ ، حتىٰ لمَّا جمعَهُ في خزانتِهِ . . حجبَهُ عنِ الاستمتاعِ بهِ طولُ الآمالِ ، وخوفُ الزوالِ ، وأثقلَ ظهرَهُ بالآثامِ ، وكَسَبَ لهُ مقتَ الكرامِ ، ومنزلةً بينَ النَّذْلِ مِنَ الأنامِ ، قد أَجَّلَ لهُ أملُهُ ، وعاجَلَهُ أجلُهُ ، فتركَ ما جمعَ بالأنفاسِ ، لعدوِّهِ مِنَ الناسِ ، وارتحلَ إلىٰ عذابِ اللهِ معَ الأنجاسِ .

[أحوالُ الإمارةِ ، ومثالُ الأميرِ]

وأمَّا **الأميرُ** : فعبدٌ راعٍ للمولىٰ ؛ وهوَ **المَلِكُ الأعلىٰ** ، **والعصا** وزيرُهُ ، ومعتمدُهُ وبشيرُهُ ونذيرُهُ ، **والكلابُ** جندُهُ ، وعونُهُ ورِفْدُهُ ، **والغنمُ** رعيَّتُهُ ؛ وهم خَلْقُ اللهِ وبريَّتُهُ ، وأهلُ البَغْيِ **ذئابٌ** ، يرعاهم عنهم بالكلابِ ، **والدنيا** قَحْبةٌ ذاتُ دَلالٍ ، **والشيطانُ** قائدٌ ودلَّالٌ ، **والعقلُ** رقيبٌ مراقبٌ ، **والمَلَكُ** شهيدٌ كاتبٌ ، **وأجرُ العملِ** دارُ النعيمِ ، **وجزاءُ الزللِ** نارُ الجحيمِ ، **ورزقُهُ** مدَّةَ عملِهِ لهُ مضمونٌ ، **ومقدارُ أجلِهِ** لرَعْيِهِ عنهُ مكنونٌ[1] .

---

(١) وهـٰذه الأمثلة ـ « وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته » ـ في حقِّ كلِّ عبدٍ : **الملكُ الأعلىٰ** : الله جلَّ وعلا ، وله المَثَلُ الأعلىٰ ، **والعبدُ** : المكلَّفُ من إنسٍ وجانٍّ ، **والوزير** : العقل من الرأس ، والقلبُ من الربِّ ، **والجند** : الجوارحُ من الحواسِّ الخمس ، **والرعيَّة** : كلُّ ما سيُسْألُ عنه العبد ، وأعظمها : قلبه الذي أُمرَ بأن يأتي به مولاه سليماً معافىً من الكفر والنفاق ، كما وهبه إياه علىٰ فطرة سليمة ، **والذئاب** : الدنيا والشيطان والنفس والهوىٰ ، **والكلاب** : كلُّ ما يدفعُ عنه ما يعصي به ربَّه ؛ من جوارحه وخواطره ، وانظر ما تقدم (ص١٠٦) في كتاب (جهاد النفس) .

[مثالُ العبدِ الراعي معَ رعيَّتِهِ مِنْ جوارِحِهِ]

فهٰذا عبدٌ حَمَّلَهُ المولىٰ رعايةَ أغنامِهِ ، مدَّةً لم يقدِّرْها لهُ مِنْ أيَّامِهِ ، وعَضَدَهُ بعصاً قويَّةٍ ، وأرفدَهُ بكلابٍ جريَّةٍ[١] ، وكرَّرَ عليهِ : إيَّاكَ والقِحابَ ، وغنمَكَ والذئابَ ، وضمنَ لهُ رزقَهُ ، وطلبَ منهُ حقَّهُ ، ووعدَ لهُ الجزاءَ على الوفاءِ ، وأوعدَهُ بالنيرانِ على الكُفْرانِ ، وجعلَ عليهِ رقيباً يقاربُهُ ، وشهيداً يراقبُهُ[٢] .

فذهبَ العبدُ الراعي يفي وصيةَ سيِّدِهِ ، قانعاً بما قسمَ لهُ رَغَباً في موعدِهِ ، ورَهَباً عن توعُّدِهِ ، في مفازةٍ لا فوزَ فيها بأملٍ[٣] ، بينَ رجاءٍ ووَجَلٍ .

فجاءَهُ الشيطانُ وأوحىٰ إليهِ : أنِ ارْقَ مَتْنَ هٰذا الوادي تهُبُّ عليكَ الشَّمْألُ فتقوىٰ ، والغنمُ بينَ عينيكَ فتحفظُها كما أمرَكَ ربُّكَ ، ولا تقمْ بينَ الوادي فيصيبَكَ ضُرٌّ مِنَ الحرِّ عسىٰ فتمرضَ وتضيعَ الغنمُ ، ثم لا ينفعَكَ ندمٌ .

فرآهُ العبدُ قريباً مِنَ الصوابِ ، فجعلَ يصعدُ بتفكُّرٍ وارتيابٍ ، وعيناهُ إلى الشاءِ[٤] ، وهو يخافُ عاقبةَ الإنشاءِ[٥] ؛ فإنَّهُ خلافٌ صوريٌّ ، ثم يترخَّصُ بما يرىٰ مِنْ وِفاقٍ سِرِّيٍّ .

فلمَّا استوىٰ على المتنِ هبَّتْ عليهِ الشمألُ والصَّبا ، مِنْ جانبِ اليمينِ

---

(١) من الجراءة ؛ وهي السرعة في الهجوم .

(٢) أراد بالرقيب المقارب : العقلَ ، وبالشهيد المراقب : المَلَكَ . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٣) أراد بالمفازة : الدنيا . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٤) الشاء : جمع شاةٍ ؛ وهي للذكر والأنثىٰ .

(٥) الإنشاء هنا : الأخذُ في الصعود .

والقفا ، وتنسَّمَ نسيماً[1] ، زادَ فيهِ مِنَ القوَّةِ جسيماً ، وطابَ لهُ بينَهما الرَّوْحُ .

فألهمَهُ الشيطانُ التفاتةً إلىٰ مهبِّ الريحِ ليعرفَ المتنسَّمَ ، فما فيها ضياعُ النَّسَمِ[2] ، فأطاعَهُ بها فإذا بساتينُ فيها أنهارٌ جوارٍ ، ورياضٌ وجَوارٍ ، وبساتينُ وميادينُ ، وكؤوسٌ مِنْ مَعينٍ ، وقصورٌ ومغاني[3] ، وألحانُ الأغاني ، وخَيْراتُ الغواني[4] ، ينظرْنَ إليهِ بأعينٍ مِراضٍ ، ويؤمِّلْنَهُ وِصَالاً بلا إعراضٍ ، يسحرْنَهُ بكَسْرِ الألحاظِ ، ويأسِرْنَهُ بلُطْفِ الألفاظِ ، يمشينَ بغُنْجٍ ودَلالٍ ، ويبدونَ ببَهَجٍ وجمالٍ ، ويرتَعْنَ في نعيمٍ ، قد أحسَّ منهُ بالنسيمِ .

فصارَتِ الالتفاتةُ إليهنَّ نظراً ، ووقفَ لا يخطو إليهنَّ حَذَراً ، ينهاهُ الرقيبُ ، وهو بينَ أنْ يرجعَ أو يجيبَ .

والشيطانُ يقولُ : إنَّ هـٰذهِ شجرةُ الخُلْدِ ومُلْكٌ لا يبلىٰ ، وإنَّ لكَ ألا تجوعَ فيها ولا تعرىٰ ، وإنَّكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَىٰ ، وما لكَ بعدَها إلىٰ ربِّكَ مِنْ إيابٍ ، ولا عليكَ فيما تذرُهُ مِنْ حسابٍ ، ولئنْ رجعتَ فهو كريمٌ وهَّابٌ[5] .

---

(١) وجد ريحاً طيبةً . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) يعني : التفاتته هـٰذه لن تكون سبباً في ضياع الغنم .

(٣) أثبت الياء مراعاة للسجعة .

(٤) من قوله سبحانه : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمـٰن : ٧٠] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ١٠٤) : (أصله في اللغة : خَيِّرات ، والمعنىٰ : أنهن خيرات الأخلاق حسان الخَلْق ، وقد قُرئ بها ؛ أعني : بتشديد الياء) ، والمراد هنا : غواني الدنيا من فتنة النساء .

(٥) وهـٰذا من أعظم المكر ، وأكذب الرجاء ، وأثقل الغطاء ، وهو المترجم في قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : ٥٠] ، وكذا قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٦] .

فلم يزلْ بهِ حتىٰ أزلَّهُ ، وسكنَ إلىٰ ما بَدَتْ لهُ كأنَّها لم تزلْ لهُ[1] ، فأقبلَ نحوَها ثم رجعَ ، وأرسلَ نفسَهُ ثم منعَ ، والرقيبُ يذكِّرُهُ الضمانَ ، ويحذِّرُهُ عاقبةَ العصيانِ .

فلاحظَ الشاءَ ، فإذا هي بينَ النجمِ والماءِ[2] ، ورحلُهُ عندَ عصاهُ ، فقابلَهُ بقفاهُ ، علىٰ أنْ يقضيَ ممَّا رأىٰ مُناهُ ، ثم يعودَ إلىٰ مرعاهُ ، فتكونَ الأوطارُ مِنَ النعيمِ مقضيَّةً[3] ، والأنعامُ بعدَ ذلكَ مرعيَّةً ، وسيعاينُ الكلابُ عصاهُ ورَحْلَهُ ، فيظنونَهُ معَهُ ، فيثبتونَ حُرَّاساً ، وتخشى الذئابُ كلابَهُ فلا تجترئُ افتراساً ، ورجا عَفْوَ المولىٰ عمَّا عصى ؛ اعتماداً على الكلبِ والعصا ، واتِّكالاً إلىٰ لعلَّ وعَسَىٰ .

فانصبَّتْ قدماهُ إلى الصَّبَبِ ، يتخطَّىٰ بهما سَبَباً بعدَ سببٍ[4] ، حتى اطَّلعَ علىٰ بابِ البستانِ فإذا ازدحامٌ ، وجدالٌ واضطرامٌ ، وقتالٌ بينَ أمثالِهِ مِنَ العبيدِ ، أولي بأسٍ شديدٍ ، كلٌّ يكادُ يرتعيها وحدَهُ ، فيزاحمُ الكلَّ بما عندَهُ ، وقدِ اشتعلَتْ فيهِ نارُ الشهوةِ ، وسُلِبَ رقيبُهُ كلَّ قوَّةٍ ، فجادلَهم بنفسِهِ ، وقاتلَهم ببأسِهِ ، ناسياً أمرَ ربِّهِ ، شُغْلاً بخَطْبِهِ .

فجاءَتِ الكلابُ[5] ، فأتَتِ الرَّحْلَ والعصا فما ظفرَتْ بالطعامِ ، فحَرِدَتْ

---

(١) أي : لم تزل هـٰذه الأشياء مملوكة له . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) أراد بالنجم : الكلأ من العشب والبقل .

(٣) الأوطار : جمع وَطَر ؛ الحاجة ، وقضاؤها : نيلُها وتحصيلها .

(٤) أي : طريقاً بعد طريق . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) من جوارح البدن ، وخواطر النفوس .

وطمعَتْ في الأغنامِ[١] ، وسارَتْ فيها كالذئابِ ومزَّقَتْ[٢] ، وندَّتْ منها كالوحوشِ وتفرَّقَتْ ، وضاعَتْ أيَّ ضياعٍ ، وصارَتْ نُهْبَةً للسباعِ .

وانتهىٰ أجلُ العبدِ عندَ سيِّدِهِ ، فبعثَ إليهِ رسولاً لموعدِهِ[٣] ، وهو بعدُ في جدِّ النِّزالِ[٤] ، وما حَظِيَ ممَّا رأىٰ بجَدٍّ ووصالٍ ، فشَمِتَ بهِ مَنْ ببأسِهِ جادلَهم ، وخذلَهُ مَنْ بنفسِهِ جادَ لهم ، فندمَ علىٰ أوَّلِ قدمٍ ، ولاتَ حينَ ندمٍ .

ومرَّ بمكانِ الشاءِ ، فلا شاءَ ولا رُغاءَ ، ولا نُباحَ ولا ثُغاءَ ، وإذا فيهِ زئيرٌ وعُواءٌ[٥] ، فتحسَّرَ وتابَ ، ولاتَ حينَ متابٍ ، حتى انتهىٰ إلىٰ مولاهُ ، فسكتَ حَذَراً عن فعلِهِ ، فشهدَ الشهيدُ بكُلِّهِ ، فأمرَ الأشدَّاءَ بحبسِهِ[٦] ، وتعذيبِ نفسِهِ .

فقالوا لهُ : ما سلكَكَ في الحبسِ ؟ فقالَ : طاعةُ النفسِ ، ولعلَّ وعسىٰ ، وأنَّىٰ ومتىٰ ، فقالوا لهُ : ألم يأخذِ اللهُ عليكَ ميثاقاً أكيداً ؟! ألم يبعثْ معَكَ رقيباً شهيداً ؟! فقالَ : بلىٰ ، فقالوا لهُ : اخسأْ فيهِ ولا تكلِّمْنا ، فأنتَ مِنْ أهلِ اللَّظَىٰ[٧] .

ألا ينظرُ الأميرُ أنَّهُ مِنْ أيِّ العبدينِ ، وإلىٰ أيِّ الوعيدينِ ؟! هل اعتصىٰ

---

(١) حردت : غضبت وهاجت .

(٢) يعني : سارت بسيرة الذئاب ؛ من الفتك والعضِّ والنهش والقتل والتمزيق .

(٣) يعني : ملك الموت .

(٤) النِّزال في الحرب : أن ينزل الفريقان عن مركوبهما فيتضاربوا .

(٥) الرغاء : صوت الإبل ، والنباح : صوت الكلب ، والثغاء : صوت الغنم ، والزئير : صوت الأسد ، والعُواء : صوت الذئب . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٦) ملائكةَ القبر . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٧) انظر ما تقدم (ص٣٢٤) .

بوزيرِهِ[1] ، وسها عن أمورِهِ ؟! هل خلَّىٰ بينَ الرعيَّةِ وجنودِهِ ؟! هل تفرَّقوا خوفاً مِنْ عبيدِهِ ؟! هل لها بالملاهي ومعَهُ رقيبٌ ناهٍ ، وشهيدٌ غيرُ ساهٍ ؟! هل قُدِّرَ لهُ اتِّساعُ مدَّتِهِ ؟! هل طمعَ في امتناعٍ بعُدَّتِهِ ؟! هل لهُ اصطبارٌ علىٰ عذابِ النارِ ؟!

ألم يأنِ أنْ يعلمَ أنَّهُ سكنَ مساكنَ الذينَ ظلموا أنفسَهم ، وتبيَّنَ لهُ ما فعلَ اللهُ بهم ، وضربَ لهُ الأمثالَ ، فلا يمكرَ اللهَ فيمكرَهُ اللهُ وإنْ كانَ مكرُهُ لِتزولَ منهُ الجبالُ[2] ، ولا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عن عملِهِ وإنَّما يستدرجُهُ بالإمهالِ ، ويؤخِّرُهُ ليومٍ تشخصُ فيهِ الأبصارُ ، وتُنتهكُ فيهِ الأستارُ ؟!

أليسَ مَنْ كانَ قبلَهُ كانَ أوفرَ منهُ عُدَداً ، وأكثرَ عَدَداً ؟! فاستمتعوا بخَلاقِهم قليلاً[3] ، ثم تدرَّعوا لفِراقِهم رحيلاً[4] ، أو طَمِعَ في خلودٍ وهيهاتَ ؛ فإنَّ الموتَ لا بدَّ آتٍ ، وما هو كائنٌ فكأنْ قد كانَ ، واللهُ المستعانُ وعليهِ التُّكْلانُ .



---

(١) يعني : هل اتَّكأ عليه كما يتَّكأُ على العصا ؟ أراد : الأخذ برأيه .

(٢) يعني : وإن كان مكر العبد عظيماً بالغاً في الشدة ، وهـٰذا علىٰ أن (إن) مخففة من الثقيلة ، أو أن مكر العبد مهما بلغ لن تزول منه الشرائع التي هي كالجبال في ثبوتها وقوَّتها ، فتكون (إن) نافية ، واللام لام الجحود . انظر « الدر المصون » (٧/ ١٢٦) .

(٣) الخَلاق : النصيب الوافر .

(٤) تدرَّع : لبس الدرع . انتهىٰ من هامش (هـ) ، ولعله أراد بعض الكفن .

فصل
في الوزير

الوزيرُ عصاً للأميرِ ، لا يصلحُ للاعتمادِ عليهِ إلا بعدَ قوَّةٍ ، وأمانةٍ ، وكفايةٍ ، وسَدادٍ ، وعقلٍ ، وذكاءٍ[١] ، ورِفْقٍ ، واحتمالٍ ، ولُطْفٍ ، ودَهاءٍ[٢] ، وجُرأةٍ ، واحتيالٍ ، وإيثارٍ ، وحِلْمٍ ، وإشفاقٍ ، وعلمٍ .

فإنَّ الضعيفَ يَجُبُّ بصاحبِهِ[٣] ، والخائنَ عينٌ عليهِ لطالبِهِ[٤] ، والعاجزَ قاصرٌ عن بلوغِ واجبِهِ ، والمُعْوَجَّ يَضِلُّ عن مَطالبِهِ ، والعقلَ كالشهابِ لا تمييزَ بدونِهِ ، والذكاءَ صفاؤُهُ لا ضياءَ إلا بعونِهِ ، والاحتمالَ لدَرَكِ الآمالِ رأسُ المالِ ، والدنيا قِذْرٌ ، والناسَ فيهِ ، والشهواتِ تحتَهُ نارٌ ، والرِّفْقَ مِحْراكٌ لولا العلاجُ بهِ لفارَ[٥] ، واللطفَ كالماءِ ، يوافقُ كلَّ غذاءٍ ، والدهاءَ تسويةُ الصدورِ على الأعجازِ ، وإنَّهُ الآيةُ والإعجازُ ، ولا قوَّةَ إلا بجرأةٍ ، والحيلةَ ردُّ الخُطَّةِ الصمَّاءِ ، بزحفِ الآراءِ ، والإيثارَ بتركِ الاختيارِ ؛ وهو فرعُ الجودِ وأصلُ الزهدِ ونفسُ الكرمِ باجتماعٍ ، ولا عملَ إلا بالعلمِ ، وما عُمِلَ بهِ بغيرِ حلمٍ ،

---

(١) الذكاء : حدَّةُ القلب ، ويستعمل في الكياسة وصفاء العقل . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) الدهاء : جودة الرأي . انتهىٰ من هامش (هـ) ، الداهي : الذي يتحمل المشاقَّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يجُبُّ : يقطع ، وتحتمل في بعض النسخ : (يَخِبُّ) ؛ أي : يخدع .

(٤) يعني : يكون جاسوساً عليه لصالح عدوِّه .

(٥) المحراك : خشبة يحرَّك بها النار ، أو أراد : المِسْواط ؛ وهو الذي يُساط به الطعام لتختلط أجزاؤه .

وفي الإشفاقِ أمانٌ مِنَ النفاقِ ، وأذانٌ بالوِفاقِ .

أَشْقِ برجلٍ جمعَ هٰذهِ الخصالَ[1] ، فتسربلَ بالكمالِ ، وتجلَّلَ بالجمالِ ، واختارَ الوِزارةَ ؛ وهي عصا الإمارةِ ؛ إنْ أطاعَ أميرَهُ . باعَ بدنياهُ دينَهُ ، ورهنَ بشكِّهِ يقينَهُ !

ويأمنُ الأميرَ بمينٍ نابَهُ[2] ، وبغضبٍ مِنَ اللهِ شابَهُ[3] ، قد أفرغَ لهُ وُسْعَهُ في تهذيبِ المُلْكِ والولايةِ ، وبذلَ جُهْدَهُ بجمعِ الزحفِ وإجراءِ الكفايةِ ، فما لهُ راحةٌ لازدحامِ الأشغالِ ، ولا بهِ أُنْسٌ لاضطرامِ الأوجالِ ، واعتاضَ لنفسهِ بعدَ بيعِهِ الآخرةَ ملاحاةَ الرجالِ ؛ مِنْ ندٍّ لهُ راغبٍ في مكانِهِ ، أو ضدٍّ لأميرِهِ طامعٍ في سلطانِهِ ، أو خاملٍ علوُّهُ مَنْشُورُهُ ، أو ميتٍ في تدبيرِهِ نشورُهُ[4] ، وفي إجلالِ هٰذا إذلالُ مثلِهِ ، وفي إنشارِ هٰذا تبارُ شكلِهِ[5] ، وكانَ حرّاً فصارَ عبداً ، أو مطلقاً فاكتسبَ قَيْداً ، **هٰذا حظُّهُ ما استقامَتِ الوِزارةُ ، واعتدلَتِ الإمارةُ .**

وربَّما كثرَتِ الأطماعُ ، وما بيدِهِ اتِّساعٌ ، فهاجَتِ الأتباعُ ، فنظرَ الأميرُ إليهم وإليهِ نظراً ، فأسلمَهُ إليهم حذراً ، فمثَّلوهُ انتقاماً[6] ، وبدَّلوا عدوَّهُ بهِ

---

(١) أَشْقِ : فعل تعجُّب من الشقاوة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) أي : نابَ الوزيرَ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) شابه : خلطه ؛ يعني : خلط ما أصابه من مينٍ ـ وهو الكذب ـ بغضب الله تعالىٰ عليه لعدم أدائه لأمانة النُّصح .

(٤) يعني : الخاملُ يعلو بإصدار منشورٍ منه لا غير ، ومثله رجل ميت بين الناس منكر لا يعرف ولا ينشر لولا تدبير الوزير .

(٥) تبار : هلاك . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٦) مثَّلوه : من المُثْلة ؛ وهي التنكيل بالجدع والقطع بعد القتل .

إكراماً ، ثم مُزِّقَتْ تَرِكَتُهُ تمزيقاً ، وفُرِّقَتْ أُسرتُهُ تفريقاً ، وهو رهينُ رَمْسٍ ، وقرينُ تَعْسٍ ، أوبقَتْهُ الأوزارُ ، وحشرَتْهُ إلى النارِ ، وخذلَهُ الشقيقُ ، وخانَهُ الصديقُ ، ومركبُهُ الهِمْلاجُ يَخُبُّ بمُناوِيهِ[1] ، وحليلتُهُ المِغناجُ زُفَّتْ إلىٰ معاديهِ[2] .

هٰذا إنْ أطاعَ رأْيَ الصاحبِ ، وإنْ ردَّهُ بنورِهِ الثاقبِ . . غضبَ فسبقَ الإساءةُ الإحسانَ ، والنقمةُ الغفرانَ ، وعذَّبَهُ بصَلْبٍ أو قتلٍ ، أو حبسٍ أو عَزْلٍ ، ثم لا يجدُ بعدَ العَزْلِ أماناً مِنْ أمثالِهِ ؛ خوفاً منهم علىٰ طلوعِ سَعْدِهِ عسىٰ وإقبالِهِ ، فيظلُّ خائفاً بعدَ الأمنِ مخذولاً بعدَ الرفعةِ ، فقيراً بعدَ اليُسْرِ حسيراً بعدَ الدَّعَةِ .

ألَا فَكاكُ عن أسرِ الهوىٰ ، والإمساكُ بالتقوىٰ ! فتلكَ العروةُ الوثقىٰ ، لا انفصامَ لها ، واللهُ سميعٌ عليمٌ .



(١) الهملاج : البرذون ؛ وهو التركيُّ من الخيل ، ومشيه يكون بسرعة وبخترة ، والمناوي : المعادي .

(٢) المغناج : الجارية الغنجة ؛ وهي التي فيها تكسُّرٌ وتدلُّلٌ .

[العالم خليفة الله تعالىٰ]

وأمَّا العالمُ : فهو خليفةُ اللهِ تعالى القديرِ ؛ كالوزيرِ الذي تقدَّمَ ذكرُهُ معَ الأميرِ ، فيحتاجُ إلىٰ تلكَ الصفاتِ(١) ، بعدَ العلمِ بالسُّنَنِ والآياتِ ، وإنَّهُ هو حافظٌ في الدنيا ، ودليلٌ إلى العُقْبىٰ .

والناسُ كلُّهم بمنزلةِ القافلةِ ، والطُّرُقُ جائرةٌ وعادلةٌ ، والمنزلُ منزلانِ ؛ خرابٌ وعُمْرانٌ ، فطريقُ العُمْرانِ قَفْرٌ مسالكُهُ ، بادٍ مهالكُهُ ، ويَزْهَرُ علىٰ طريقِ الخرابِ ، رياضٌ غَذَاها جَوْدُ الرَّبابِ(٢) ، ونميرُ العِذابِ ، بينَ غُدْرانٍ تدفَّقَتْ ، وميادينَ اتَّسقَتْ .

فكيفَ حالُ دليلٍ غرَّتْهُ الرياضُ والغُدرانُ ، فعدلَ عن طريقِ العُمْرانِ ، وأحبَّ العاجلةَ ، فتركَ الآخرةَ ، والعيونُ إليهِ ناظرةٌ ، فاقتَدَوا بفعلِهِ ، وإنْ زجرَهم بقولِهِ(٣) ، فساروا فيها صباحَ يومِهم ، فعادَ النباتُ للرواحِ ، هشيماً تذروهُ الرياحُ ، والمنزلُ خرابٌ ، مأوى الذئابِ ، ولا وجهَ للرجوعِ ؛ فقد صافَ الربيعُ وفاتَ الرُّتُوعُ(٤) ، فلِيمَ على الضلالِ

(١) من القوة ، والأمانة . . . إلىٰ آخره ، وتقدمت قريباً (ص٤٧٧) .

(٢) الرَّبابُ : السحاب الأبيض المتراكب علىٰ بعضه .

(٣) لأنهم إن رأوه يخالف بفعله قولَهُ ظنُّوا أنه لم ينصحهم ، وبفعله آثر نفسه ، وحسبوا أنه لو كان خيرٌ فيما يقول لفعله .

(٤) الرتوع : رَعْيُ الماشية للنبات كيف شاءت ، يقال : رتعت الماشية رَتْعاً ورتوعاً ، وصاف : عَدَلَ ومال .

والإضلالِ[1] ، ولم ينفعْهُ السلوكُ تحتَ الظلالِ ؟!

ما أشقَّ سلوكَ صراطٍ مستقيمٍ ، بينَ جَنبَتَيْهِ سورٌ فيهِ أبوابٌ مفتَّحةٌ بالنعيمِ ، وعليها ستورٌ لا تحجبُ عينيكَ عمَّا فيها مِنْ سُرُرٍ مرفوعةٍ ، وأكوابٍ موضوعةٍ ، ونمارقَ مصفوفةٍ ، وزرابيَّ مبثوثةٍ ، وحورٍ عِينٍ ، وخمرٍ لذَّةٍ للشاربينَ ، وولدانٍ كدُرٍّ مكنونٍ ، وغَناءٍ مكانَ عَنا ، وثراءٍ مكانَ ثَرَىٰ ، ولهوٍ ودَدٍ[2] ، مكانَ غمٍّ ونَكَدٍ ، وما على الأبوابِ مِنْ بوَّابٍ ، ولا دونَها حُجَّابٌ ، غيرُ داعٍ علىٰ رأسِ الصراطِ يقولُ[3] : اسلكوهُ ولا تميلوا ، وجُوزوهُ ولا تَقِيلوا ، ولا ترفعوا السُّتورَ ، فما ترونَ إلا الغُرورَ ، وإنَّها للهِ تعالىٰ حدودٌ ، ووراءَها أُخْدودٌ ، تقعونَ فيهِ قبلَ الوصولِ إليهِ ، ولكم لدىٰ منتهى الصراطِ ، مِنَ النعيمِ المقيمِ بساطٌ ، عرضُهُ كعرضِ السماواتِ والأرضِ ، فأسرعوا ولا تضيِّعوا ، بالوقوفِ أيامَكم وأَوْضِعوا[4] .

والسالكونَ بينَ أصمَّ وسميعٍ ، وعاصٍ ومطيعٍ ، ولا طاعةَ إلا بعدَ سماعٍ ، ولا نفعَ في سماعٍ على ابتداعٍ[5] .

---

(١) لِيمَ : من الملامة ؛ وهي العذل ، والفاعل : لائم ، والمفعول : الملوم ، وكلٌّ منهما بعد البلاغ وإقامة الحجة معلوم ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦-١٦٧] .

(٢) الدَّدُ : اللهو واللعب .

(٣) المراد من الداعي : هو النبي صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٤) الإيضاع : العَدْوُ ، وأوضعوا : أسرعوا ، وروى البخاري (١٨٨٦) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من سفر فنظر إلىٰ جُدُرات المدينة . . أوضع راحلته ، وإن كان علىٰ دابَّةٍ حرَّكها ؛ من حُبِّها .

(٥) فليس للأصمِّ نصيبٌ من الطاعة ، فهو والعاصي سواء ، ومن غلبت البدعةُ على قلبه فلن =

وفَّقَنا اللهُ لاتِّباعِ الداعي ، وصبَّرَنا عنِ الدواعي ، ولا وكلَنا إلىٰ قلبٍ ساهٍ لاهٍ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ .



= يسمع إلا بأُذُنها ، فهو غيرُ مرجوِّ الفلاح ، ولن يستويَ على الطريق المستقيم ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، قال مولى العبيد : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

[فصل الزّاهد]

إنَّ الزاهدَ للعالِمِ[1] ، بمنزلةِ العالِمِ لوالي هٰذا العالَمِ ، **فما استقامَتِ الإمارةُ إلا بمشورةِ أُولي العلمِ والرُّشْدِ ، ولا استنارَ العلمُ إلا بقدوةِ أولي التقوىٰ والزهدِ** ، ولا زُهْدَ في شيءٍ لشيءٍ إلا بعدَ معرفةِ معايبِ المزهودِ فيهِ ، ورغائبِ المرغوبِ إليهِ .

آهٍ ! **بئسَ الزُّهدُ بلا علمٍ سلكَهُ في وادي الرَّدَىٰ** ، وهو يظنُّهُ طريقَ الهدىٰ ، وانهمَكَ في الدنيا وهو يحسِبُهُ التقوىٰ ، وخَبَّ علىٰ سبيلِ اللَّظَىٰ علىٰ أنَّهُ يبلغُ الجنَّةَ المأوىٰ !

كلَّا ، سيُسألُ عمَّا قدَّمَ وأخَّرَ ، وسيستقرُّ في سَقَرَ[2] ، حرمَهُ الزُّهدُ خيرَ عاجلتِهِ ، وحرمَهُ الجهلُ أجرَ آجلتِهِ ، ظلَّ في عذابٍ ، وحلَّ بعقابٍ ، فكانَ أخسرَ الأخسرينَ ، وأشقى الأوَّلينَ والآخرينَ .

ثكلَتِ الدنيا أمُّها[3] ، فهي أمُّ الورىٰ ، وبئسَتِ الأمُّ الدنيا ؛ لا ترضعُ الولدَ

---

(١) أراد بالزاهد : العالم العامل ، وبالعالم : العالم بغير عمل . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٢) في هامش (هـ ، و) نسخة : (ويُسْتَسْقَرُ) ؛ أي : يحرق ، وقالوا : سقرته الشمس ؛ أي : أذابته .

(٣) العبارة مثل قولك : ثكلَتْ زيداً أمُّهُ ، وإنما أراد الدعاء على الدنيا بالذهاب والفناء ، وفي حديث سيدنا معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه لما شمَّت عاطساً وهما في الصلاة ، فحدَّ إليه القوم بأنظارهم ، فقال : (وا ثُكْلَ أمِّيَاهْ) ، وهو دعاء علىٰ أمه بفقدان ولدها ، فكأنه دعا علىٰ نفسه بالموت .

إلا بأجرٍ ، ولا ترضىٰ بأجرٍ دونَ العمرِ ، فالولدُ يشفقُ عليها لرضاعِها ، ويقلقُ على امتناعِها ، وفي الطمأنينةِ إليها هلاكٌ ثم عذابٌ ، وفي التزوُّدِ منها مِلاكٌ ثم ثوابٌ[1] .

آهاً علىٰ نفسٍ ساهيةٍ عن أجرِها ، طامعةٍ في دَرِّها ، تحسِبُها أُمّاً[2] ، وهي تسقيها سُمّاً ، قَلَّتْ شفقةُ الظِّئْرِ على الرضيعِ ، والولدُ يظنُّها أعطفَ الجميعِ ، لولا الوصيُّ لآثرَتِ الظئرُ مالَهُ[3] ، وجلبَتْ عليهِ بالجوعِ آجالَهُ ، غيرَ أنَّ الصبيَّ يبغضُ الوصيَّ ، ويخالُها أولى الوليِّ ، وربَّما غلبا عليهِ[4] .

حتىٰ إذا جاءَ أوانُ فِصالِهِ . . انفصلَ عن دَرِّها ومالِهِ ، وناداها فبخلَتْ بالجوابِ ، فندمَ ولاتَ حينَ إيابٍ ، فبقيَ في عذابِ الجوعِ ، يتمنَّىٰ خروجَ الرُّوعِ[5] ، لا ينجيهِ وفاةٌ ، ولا تطيبُ لهُ حياةٌ .

إلا أنَّ الوصيَّ العقلُ ، والمالَ العمرُ ، والظئرَ الدنيا ، والولدَ كلُّ الورىٰ ، والفصالَ المنيّةُ ، والندمَ يومَ حَشْرِ البريَّةِ ، والجوعَ النارُ ، وما لهُ غيرَها دارٌ ، لا يموتُ فيها ولا يحيا .

قد أفلحَ مَنْ تزكَّىٰ ، وذكرَ اسمَ ربِّهِ فصلَّىٰ ، وأطاعَ عقلَهُ فلم يؤثرِ الدنيا .

---

(١) المِلاك : القوام ، والقلب مِلاك الجسد ، والقوتُ مِلاك البدن أيضاً .

(٢) تأسُّفٌ منه علىٰ نفسٍ حَسِبَتِ الدنيا أمّاً ، وغفلت عن أجر رضاعها الذي هو العمر ، والدَّرُّ : اللبن .

(٣) الظئر : المرضعة ولدَ غيرها ، وزوجها أيضاً ظئر لهذا الولد ، وسيأتي أن المراد بالوصي : العقل .

(٤) يعني : يناصرُ الصبيُّ الظئرَ على الولي .

(٥) الرُّوع : القلب ، والمراد هنا : الروح .

حتىٰ إذا فصلَ عنها واتَّصلَ بأرباحِ الطاعةِ ، وانفصلَ عن أهوالِ الساعةِ . . طابَ معَ الربحِ محياهُ ، ويُساقُ إليهِ مُناهُ .

إلا أنَّ الطاعةَ في التقوىٰ ، والربحَ جنَّةُ المأوىٰ ، تحتَ سدرةِ المنتهىٰ ، والمُنَىٰ ما تشتهي النفوسُ وتلذُّ العيونُ ، بل ما لم تَسْبِقْ إليهِ الظنونُ ؛ خلودٌ بلا موتٍ ، ووجودٌ بلا فوتٍ .

نبَّهَ اللهُ القلوبَ عن منامِ الغفلةِ ، وأقامَ النفوسَ عن فراشِ العُطْلةِ ، ووفَّقَنا لتجارةٍ لا خُسْرَ فيها ولا خَسارَ ، وألحقَنا بالصالحينَ الأبرارِ ، إنَّهُ كريمٌ بارٌّ .



فصل الراغب

ما سعىٰ عاقلٌ إلا لفوزٍ[1] ، ولا فازَ إلا متَّقٍ ، ولا تقوىٰ إلا بعلمٍ ، ولا علمَ بغيرِ عقلٍ ، ولا عقلَ تحتَ أسرِ الهوىٰ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الرَّدَىٰ ، ونسألُهُ التوفيقَ والهدىٰ ، إنَّهُ ربٌّ كريمٌ ، ومَلِكٌ رحيمٌ .

وليسَ التقوىٰ كلُّها في الإعراضِ ، واجتنابِ الأعواضِ ، فما حرَّمَ اللهُ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ طِيباً ولا طَيِّباً ، ولا أنزلَ إلا للخِصْبِ صَيِّباً ، وما خلقَ صنوفَ الأموالِ إلا للخَلْقِ ، وأحلَّ ما أخرجَ لهم مِنَ الزينةِ وطيِّباتِ الرزقِ .

وإنَّما تعبَّدَكَ بترْكِ الربا إلىٰ بيعِ حلالٍ ، ونهاكَ عنِ الإمساكِ بمواساةِ فَضْلِ المالِ ، فغِنىً لا يطغيكَ كِبْراً محمودٌ ، ومالٌ يكسوكَ مَجْداً محسودٌ .

ولكَ مِنْ مالِكَ : هنيءُ الغِذاءِ ، ولذيذُ الغَداءِ والعَشاءِ ، وألوانُ الشرابِ ، وحِسانُ الثيابِ ، وابتكارُ الحورِ ، وتشييدُ الدُّورِ ، وبثُّ العَبْقرِيِّ وصفُّ النمارقِ ، وخَرْقُ الأنهارِ في ملتفِّ الحدائقِ ، واستخدامُ العبيدِ ومفاكهةُ الأحرارِ ، واستعبادُ الرقيقِ ومنادمةُ الأخيارِ ، وإفراهُ الدوابِّ ، وتقويةُ الأسبابِ ، واسترقاقُ العِتاقِ بالمواهبِ ، واستحقاقُ الأعناقِ بالرغائبِ ، والعَتاقُ مِنَ النارِ ، والتلاقي بالأبرارِ .

فلا حَسَبَ مثلُ الجودِ بالموجودِ ، ولا غنىٰ مثلُ إحسانِ الظنِّ بالمعبودِ .

---

(١) الفوز : النجاة من الخوف ، والوصول إلى المحبوب . انتهىٰ من هامش (و) .

بخٍ بخٍ بمالٍ صالحٍ أُوتيَ عبداً صالحاً[1] ، فلم يجعلْ يدَهُ مغلولةً إلىٰ عنقِهِ فأصبحَ مذموماً مهجوراً ، ولا يبسطُها كلَّ البَسْطِ فيقعدَ ملوماً محسوراً ، فصار حَسَباً لنسبِهِ ، وشَرَفاً لعَقِبِهِ ، واستبدلَ الرفعةَ مكانَ الخمولِ ، وابتذلَ المُتعةَ بمحلِّ الزُّبولِ[2] ، ووَفَتْ فيهِ الظنونُ ، ونظرَتْ إليهِ العيونُ .

ولعمري ؛ إنَّ لذَّتَهُ فيما يُعطي ويُغْنِي ، أشهىٰ مِنْ لذَّةِ غيرِهِ بما يَحْوي ويستغني ، وإنَّ طِيبةَ الإعطاءِ ، أصفىٰ مِنْ طِيبةِ العطاءِ ، معَ ما يَعْقُبُها مِنْ كريمِ الأُحْدوثةِ ، وجسيمِ المثوبةِ .

ولن يَخلُدَ مِنَ المرءِ وإنْ علا أمرُهُ في الدنيا إلا ذكرُهُ ، فأمَّا المالُ : فعن قريبٍ سيزولُ عنهُ وعُمْرُهُ ، ثم يبقىٰ حديثاً ، فالحسنُ في الدنيا حسنٌ في الأخرىٰ[3] ، والقبيحُ فيها هيَ الطامَّةُ الكبرىٰ ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ، وإنَّ سعيَهُ سوفَ يُرىٰ ، ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الأوفىٰ ؛ نماءً لمالٍ أوجبَ جميلَ الثناءِ ، وجزيلَ الجزاءِ ، وشَرَفاً في دارِ الفناءِ والبقاءِ .

هـٰذا لكَ مِنَ المالِ ، وإنِ اتَّفقَتْ لكَ إمارةٌ بغيرِ جدالٍ ، وأنتَ مِنْ أهلِها . . فخُذْ برأسِها ورِجْلِها ، واطمعْ في خيرِها ، ولا تقنعْ بغيرِها ؛ فإنَّها أعلىٰ مراتبِ الدنيا بعدَ الرسالةِ ، ولا تُصْغِ إلىٰ مَنْ عابَها بجهالةٍ[4] .

---

(١) بخ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء ، أو الفخر والمدح ، وتكرَّر للتأكيد بتنوين الأولىٰ وتسكين الثانية ، ويجوز إسكانهما أو تنوينهما معاً ، وتشديد الخاء فيهما . انظر « إرشاد الساري » (٣/ ٥١) .

(٢) الزُّبول : جمع زِبْل ؛ وهو السِّرْقين ؛ وهو الروث .

(٣) أي : الحسن العقلي ، لا الطبيعي . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) وحسبك : أن الإمام العادل أوَّلُ السبعة الذين يظلهم الله في ظلِّ عرشه يوم القيامة ، وروىٰ=

أمهِرْها بأمانةٍ وشفقةٍ ، وزُفَّها إليكَ بلينٍ وقوَّةٍ ، وقُمْ عليها بجدٍّ ويقظةٍ[1] ، فإنَّكَ متىٰ لم تشفقْ على الرعيَّةِ تهاونْتَ بهم فيما يجري ، وخُنْتَهم مِنْ حيثُ لا تدري ، وأبغضَكَ الرعيَّةُ وخالقُ البريَّةِ ، وهَبَّتْ مِنْ كلِّ ناحيةٍ شَكِيَّةٌ ، وأطمعْتَ فيكَ الأعاديَ ، وأشعلْتَ ناراً بكلِّ نادي[2] ، ومتىٰ لم يتيقَّظْ لهم مِنْ قلبِكَ بصرٌ . ما نفعَكَ حذرٌ ، وظفرَ بكَ عدوُّكَ في أقبحِ أفعالِكَ وأحوالِكَ ، ونزعَكَ عن مُلْكِكَ ومِلْكِكَ ومالِكَ ، ومتىٰ لم تَلِنْ لهم تفرَّقوا عنكَ ، ومتىٰ لم تَقْوَ تغالبوا عليكَ ، ومتىٰ خُنْتَ لم تكنْ راعياً ، ومتىٰ لم تحذرْ بِتَّ ساهياً ، وإنْ لم تجِدَّ كنتَ واهياً .

= هٰذا الخبر البخاري (٦٨٠٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي هامش (ب) : (قال عمر رضي الله عنه : إنَّ الإمارة لا تصلح إلا لرجل فيه أربع خصال : جودٌ في غير سرف ، وإمساك في غير بخل ، ولين في غير ضعف ، وشدَّة في غير عنف) .

نعم ، هو لا يسأل الإمارة ، بل كما قال الإمام المصنف : (اتفقت لك إمارة بغير جدال وأنت من أهلها) ، وروى البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) من حديث سيدنا عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه مرفوعاً : « يا عبد الرحمٰن بن سمرة ؛ لا تسأل الإمارة ؛ فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وإن أُوتيتها من غير مسألة أُعنت عليها » .

وروىٰ مسلم (١٨٢٥) من حديث سيدنا أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ ألا تستعملُني ؟ قال : فضرب بيده علىٰ منكبي ثم قال : « يا أبا ذرٍّ ؛ إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة ، إلا من أخذها بحقِّها ، وأدَّى الذي عليه فيها » .

(١) قال المتنبي ـ كما في « ديوانه » (ص٣٧٢) ـ في وضع الشيء في محلِّهِ : (من الطويل)

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدا
ووضعُ الندىٰ في موضع السيف بالعُلا ... مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندىٰ

(٢) أثبت الياء مراعاة للسجعة .

واستشعرِ الحزمَ أمِنْتَ أو خِفْتَ ، واكتحلْ بالعزمِ أردْتَ أو رَدَدْتَ ، ومُرْ بالجزمِ نهيْتَ أو ألزمْتَ ، وعليكَ بالصدقِ أوعدْتَ أو وعدْتَ .

وإيَّاكَ والدُّعابةَ ؛ فإنَّها تسقطُ المهابةَ ، ودَعِ الخُرْقَ[1] ؛ فإنَّهُ فرعُ الحُمْقِ ، وعليكَ بالرفقِ ؛ فإنَّهُ طَوْلُ الخُلْقِ[2] ، وجانبِ الخلافَ فهو حَبُّ الفشلِ ، والتوانيَ فهو أخُ الكسلِ .

وإيَّاكَ والميلَ لقرابةٍ ، أوِ العفوَ لمكانةٍ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أعلىٰ مكاناً ، وأقربُ شاناً .

واتَّخذْ لنفسِكَ وزيراً ، في الفضلِ كبيراً ، علىٰ ما قدَّمْنا ذكرَهُ مشيراً[3] ؛ فلا بدَّ مِنْ مستشارٍ ، فالبناءُ على الإعجابِ برأيِكَ تأسيسٌ علىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ ، ينهارُ بكَ في يدِ مَنْ قامَ لكَ بالمرصادِ ، وكَمَنَ بعثرتِكَ مِنْ كلِّ باغٍ وعادٍ ، ولا تتَّكِلْ عليهِ ؛ فما في قوَّةِ الوِزارةِ ، ما تقومُ بها قناةُ الإمارةِ ، معَ ما أنَّ العبدَ غيرُ مأمونٍ خيانتُهُ ، وإنْ ظهرَتْ أمانتُهُ وديانتُهُ .

وعليكَ بجباياتِكَ بذوي الأحسابِ ؛ فإنَّهم إنْ لم يتَّقوا تكرَّموا[4] ، ولأماناتِكَ وخزائنِكَ بذوي العلومِ والآدابِ ؛ فإنْ لم يقنعوا تعظَّموا .

وأعدَّ لأعدائِكَ ، مِنْ أشدَّائِكَ ؛ كهولاً فحولاً ، وشُبَّاناً شُجعاناً ؛ تُثَبَّتْ أقدامُ الشُّبَّانِ بالشِّيبِ ، ويقوَ بذوي الشبابِ أولو المَشِيبِ ، وأجرِ الكفايةَ

---

(١) الخُرْق : العمل من غير رفقٍ ، وما نُزع الرفقُ من شيء إلا شانه .

(٢) أي : يكون سبباً لزيادة حُسْن الخُلُق . انتهىٰ من هامش (و) ، والخُلق ـ بسكون اللام وضمها ـ : السجية ، والمروءة ، والدِّين .

(٣) انظر ما تقدم (ص٤٧٧) ، ومشيراً : صفة للوزير .

(٤) يعني : إن لم تمنعهم التقوىٰ عن أكل المال . . اجتنبوه بسجية الكرم التي هم عليها .

عليهم ، وأحسنْ بعدَها إليهم ، وأرجحْ كِفَّةَ الخوفِ على الأحداثِ وآنسْهم بإلطافٍ بعدَ تعييرٍ ، وأرجحْ كِفَّةَ الرجاءِ على الشيوخِ وطيِّبْ نفوسَهم بتوقيرٍ ، واتخذْهم مواكبَ ، وقُدْها بأيدي مقانبَ[1] ، ومَلِّكْ أزمَّةَ آرائِهم أدهاهم ، فلا يَبْقَوا شُورىٰ إنْ فَجِئَهم سِجالٌ[2] ، أو يتفرَّقوا أيدي سَبَا إنِ انكشفَتْ بهم حالٌ[3] .

واجعلْ لكَ أربعةَ بيوتِ أموالٍ ، تضعُ فيها ما جَبَىٰ إليكَ العُمَّالُ :

في أحدِها : الخراجُ وما بمعناهُ ممَّا وجبَ بقوَّةِ السيفِ لأهلِ السيفِ والقتالِ ، ومَنْ بمعناهم ممَّنْ فرَّغَ نفسَهُ للدِّينِ مِنَ الأنامِ ، أو عِمارةِ دارِ الإسلامِ .

وفي الآخرِ : الزكاةُ وما هو بمعناها ممَّا أوجبَهُ اللهُ تعالىٰ للفقراءِ ، ومَنْ بمعناهم مِنَ الضعفاءِ ، مِنَ الأموالِ المعدَّةِ للنَّماءِ .

وفي الثالثِ : خُمُسُ الغنائمِ ، وما هو بمعناهُ مِنْ خُمُسِ الرِّكازِ والمعادنِ .

وفي الرابعِ : الأموالُ المجهولةُ مِنْ نحوِ اللُّقَطاتِ والتَّرِكاتِ[4] .

---

(١) الموكب : جماعة ركباناً كانوا أو فرساناً يسيرون للزينة ، والمقانب : جمع مِقْنب ؛ جماعة من الخيل والفرسان ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، ومن سجعات « أساس البلاغة » (ق ن ب) : (هو فارسٌ من فرسان العلم ؛ كُتُبه كتائبه ، ومناقبه مقانبه) .

(٢) يعني : لا يبقوا متحيِّرين كأهل الشورىٰ إن فجئهم حوار وجدال وتداول كلام .

(٣) يقولون : تفرَّقوا أيدي سَبَا ـ بالبناء على السكون كبناء معدي كرب ، وترك الهمز في (سَبَأ) لكثرة الاستعمال ـ ؛ تبدَّدوا واختلفت مسالكهم ، فلا يُرجىٰ بعدُ اجتماعهم ، وانظر « مجمع الأمثال » (١/ ٢٧٥) .

(٤) اللقطات : جمع لُقَطة ؛ كرُطَبة ورُطَبات ؛ وهي ما يوجد مطروحاً على الأرض من مالٍ ونحوه .

ونصيبُكَ مِنَ المالِ ، نصيبُ غيرِكَ مِنَ الرجالِ ، كفايةً بالمعروفِ لا سرفَ ولا تقتيرَ ؛ فإنَّ المالَ للناسِ وأنتَ قَيِّمٌ ، فلا تحسبْهُ مِلْكاً أو مُلْكاً ، فيورثَكَ في الآخرةِ هُلْكاً .

ثم سُسْ طبقاتِ حشمِكَ وطبقاتِ الرعيَّةِ بالعدلِ فإلى العدلِ انتهَتِ السياسةُ ، وأَسِئْ ظنَّكَ فيهم فهوَ الحزمُ وعنوانُ الكِياسةِ[1] ، وذلِّلْ رقابَهم بهيبةِ عنِ اقتدارِكَ ، وأْسِرْ قلوبَهم بمحبَّةٍ مِنْ إيثارِكَ[2] .

ولا تدعِ الوزيرَ أميراً ، ولا صاحبَ الجيشِ إلا مأموراً ، وأوصِ المقانِبَ بالخيرِ لأهلِ المواكبِ ، واحفظْ عليهمُ المراتبَ ، فما هلكَ امرؤٌ عرفَ قدرَهُ ، ولا سَلِمَ قويٌّ تعدَّىٰ طورَهُ .

ولا ترخِّصْ لأحدٍ في الرعيَّةِ ؛ فإنَّها مرعيَّةٌ ، وآمنِ الأسفارَ على التجارِ والأمصارَ على العُمَّالِ . . تنفسحْ فيكَ الآمالُ ، وتتَّسعْ عليكَ الأموالُ .

ولا تأذنْ للعامَّةِ عليكَ لرأيٍ أو منزلةٍ ، ففيهِ سقوطُ الحشمةِ ، وأدنِهم للانتصافِ فمنهُ بقاءُ النعمةِ .

وقَرِّبِ العلماءَ وأطعْهم علىٰ أمورِهم . . تهتدِ بنورِهم ، وإيَّاكَ وعالماً عصىٰ

---

(١) وذلك في حقِّ بعضهم مع الآخر ؛ إذ من حَسَّنَ ظنَّهُ دون ما يوجب ذلك فقد توانىٰ ، وروى البخاري (٢٦٤١) عن عبد الله بن عتبة قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّ الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ؛ فمن أظهر لنا خيراً أَمِنَّاهُ وقرَّبناه ، وليس إلينا من سريرته شيءٌ ، الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنْهُ ولم نصدِّقْهُ وإن قال : إنَّ سريرته حسنةٌ) .

(٢) في (ب) : (وآنسْ) بدل (وأْسِرْ) ، وفي (ز) : (وأَنِّسْ) ، والمثبت أمرٌ من الأسر كما لا يخفىٰ .

مولاهُ لدنياكَ ، وباعَ آخرتَهُ بأُولاكَ ؛ فإنَّهُ هالكٌ مخدوعٌ ، وتابعٌ وليسَ بمتبوعٍ .

وإيَّاكَ والبغيَ ؛ فإنَّهُ أصرعُ لصاحبِهِ ، ووزيرَ السَّوءِ ؛ فإنَّهُ أفضحُ شيءٍ لخاطِبِهِ .

واقنعْ مِنَ الإمارةِ بنفاذِ أمرِكَ ، وعلوِّ قدرِكَ وعِظَمِ أجرِكَ ، فلن يصلحَ لها مَنْ همَّتُهُ بطنُهُ ومالُهُ ، أو قصرُهُ وعيالُهُ ، ولم يكنْ قضىٰ نحبَهُ في إرضاءِ ربِّهِ ، وامتطىٰ ظهرَ العلوِّ والرفعةِ[1] ، في رداءِ العزِّ والمَنْعةِ .

واعلمْ : بأنَّ الذي أنعمَ بها عليكَ يراكَ ، فيما أمرَكَ ونهاكَ ، ويحاسبُكَ ولو مثقالَ ذرَّةٍ يومَ الدينِ ، ويسألُكَ عن ظلمِ مَنْ تحتَ ولايتِكَ بيقينٍ ؛ فإنَّهم لا يخلونَ عن ظالمٍ بأمرِكَ فعليكَ وبالُهُ ، أو غاشمٍ بسكوتِكَ وتقريرِكَ فعليكَ أثقالُهُ ، أو سامعٍ لنهيِكَ ، متأيِّدٍ علىٰ ظلمِهِ بعونِكَ ، فأنتَ مِنْ جملةِ المستهزئينَ ، أو مفترسٍ رعيَّتَكَ وأنتَ مِنَ الغافلينَ ، أو آمنٍ بقوَّتِهِ عن تغييرِكَ فتكونُ مِنَ العاجزينَ ، فتحشرُ لتولِّيكَها وأنتَ غيرُ صالحٍ لها معَ الظالمينَ .

ومتىٰ لم تتفقْ لكَ الإمارةُ وأنتَ علىٰ كمالٍ ، وربُّ خصالٍ ، وظفرتَ بمثلِهِ أميراً . فقمْ إليهِ وزيراً ؛ تُقَوِّ بإشارتِكَ جناحَهُ ، وتُثَمِّرْ بدَلالتِكَ صلاحَهُ ، واكتسِ بالصيانةِ ، وتحلَّ بالأمانةِ ، وضُمَّ أوصافاً مَرَّ ذكرُها إلى الدِّيانةِ[2] ، ولا تغتبْ عندَهُ خَلْقاً ، ولا تُسِئْ لديهِ خُلْقاً ، ولا تُفْشِ عليهِ سِرّاً ، ولا تلقِّنْهُ إلا خيراً ، ولا تخفْ ذهابَ منزلتِكَ بصوابٍ لا يهواهُ فهو رأسُ الخيانةِ ، ولا تطعْهُ

(١) أي : لم يكن امتطى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) انظر (ص٤٧٧) .

علىٰ معصيةِ ربِّكَ ففيهِ تركُ الدِّيانةِ[1] .

ولا تُقَرِّبْ مَنْ طلبَ منزلةً بخدمةِ نفسٍ أو مالٍ ؛ فقلَّ مَنْ بذلَهُما لمثلِكَ وهو علىٰ كمالٍ ، واطلبِ الكاملَ ولو في سَمِّ الخِياطِ[2] ، ولا تقنعْ بالأذلَّةِ عندَكَ لعزِّكَ فإنَّهم سُقَّاطٌ ، وإنَّ مثلَكَ لدىٰ عينِ الكمالِ علىٰ بساطٍ رثٍّ[3] ، تحتَ فُسْطاطٍ غثٍّ ، واهي الأطنابِ والأوتادِ ، ذليلِ القامةِ والعمادِ .

وإيَّاكَ والكذبَ ؛ فإنَّهُ قبيحٌ وطرازُ قُبْحٍ مِنَ السلطانِ ، أوِ التغافلَ عن أمرٍ خُولفْتَ فيهِ ؛ فإنَّهُ عجزٌ وما أقبحَ العجزَ معَ الإمكانِ !

وإيَّاكَ ثم إيَّاكَ أنْ تطلبَ حمداً بما فعلتَ ، أو شكراً علىٰ ما بذلْتَ ؛ فما نجا مَنْ أحبَّ مِنَ الناسِ محمدةً ، أو خافَ منهم مذمَّةً ؛ فإنَّهُ وادٍ جمُّ المسالكِ ، كلُّها إلى المهالكِ .

وإيَّاكَ والحسدَ ؛ فما كَمَلَ مَنْ حسدَ ، ولا أضرَّ بمَنْ قصدَ ، وسيبعثُهُ ذلكَ علىٰ جفاءِ أولي الكمالِ ، وإنَّهُ أقوىٰ أساسِ الإخلالِ ، معَ ما يحترقُ باطنُهُ بشَرَرِهِ ، ويتأذَّىٰ داخلُهُ بضررِهِ .

---

(١) روىٰ أبو داود (٤٣٤٤) ، والترمذي (٢١٧٤) وحسَّنه ، وابن ماجه (٤٠١١) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أفضلُ الجهاد : كلمةُ عدلٍ عند سلطان جائر ، أو أميرٍ جائر » .

(٢) الخِياط ـ بتخفيف الخاء المكسورة ـ والمِخْيَط : الإبرة ، وسَمُّها : الثَّقْب الضيق في رأسها .

(٣) تنبيهٌ على المآل ، وفي « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » (ص٣٢٧) : (عين الكمال : إذا انتهى الشيء إلىٰ منتهاه ، وبلغ غايته ، ووافق إعجاب من يراه ، ثم عرض له بعض أعراض الدنيا . . قيل : أصابته عين الكمال ، وفي الدعاء : صرف الله عنك عينَ الكمال) ، وفي هامش (و) : (متىٰ تمَّ أمرٌ بدا نقصه) .

واجعلْ عوضَكَ في الدنيا عن راحتِكَ وقضاءِ شهوتِكَ : أنْ يُشارَ إليكَ بحُسْنِ الإشارةِ ، ويعتدلَ علىٰ يديكَ أسبابُ الإمارةِ ، وغرضَكَ الجسيمَ مِنْ أمانتِكَ ودينِكَ : أنْ تُحشرَ معَ المتَّقينَ إلى الرحمـٰنِ وفداً ، ولا تُساقَ معَ الظالمينَ إلىٰ جهنَّمَ وِرْداً ، فما صَلَحَ للوِزارةِ مَنْ جعلَها سبباً لقضاءِ الشهواتِ ، وأكلِ الطيِّباتِ ، والتسلُّطِ على الأنامِ ، والإحسانِ إلىٰ مادحٍ والإساءةِ إلىٰ ذامٍّ .

وفَّقَنا اللهُ تعالىٰ لتهذيبِ الأعمالِ ، وبلغَ بنا منزلةَ الكمالِ ؛ إنَّهُ ذو الإكرامِ والجلالِ .

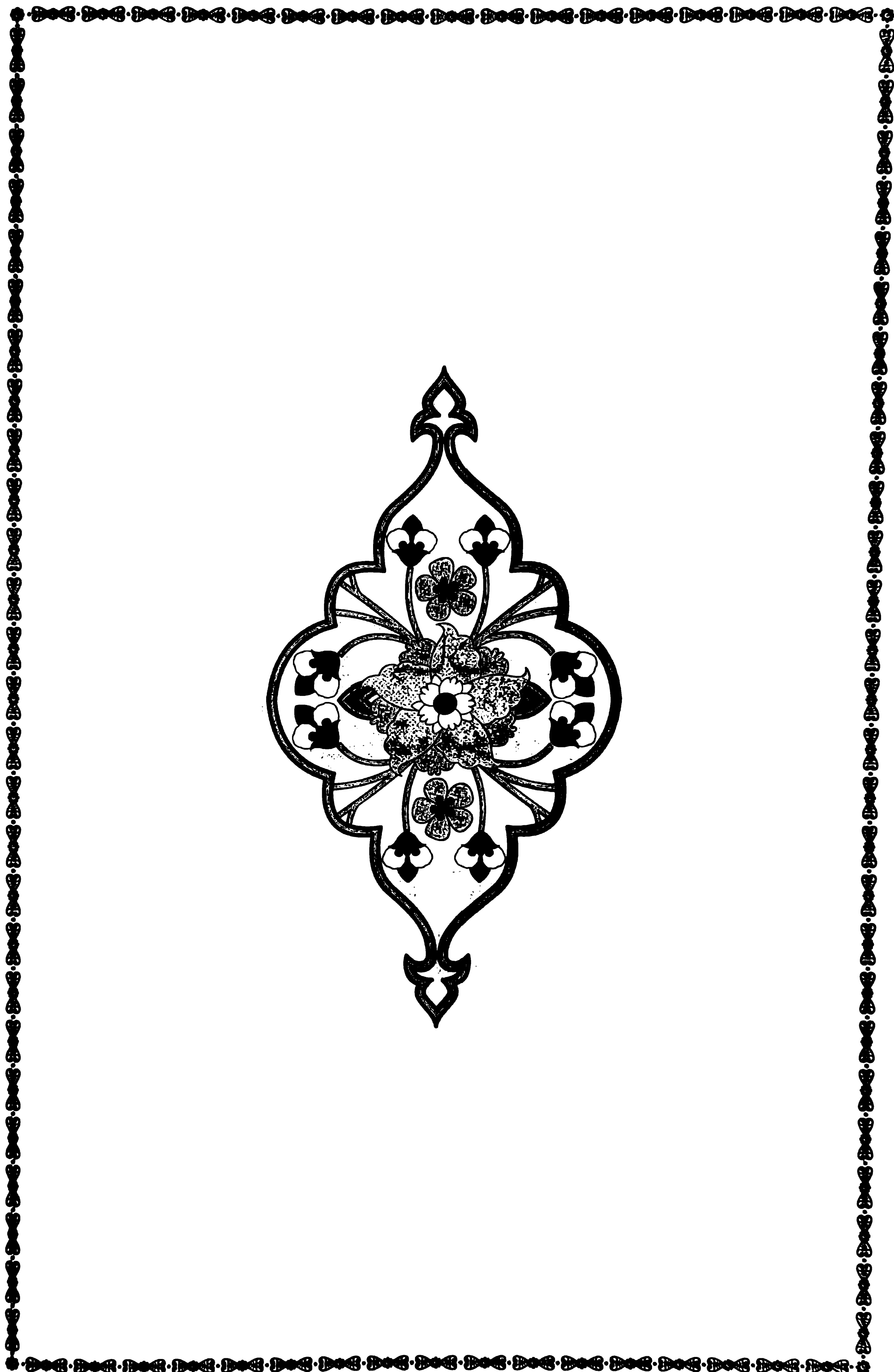
يا بنَ آدمَ ؛ بُشرىٰ لكَ بُشرىٰ ؛ فقد خُلِقَتْ لكَ العاجلةُ والأُخْرىٰ[1] ، غيرَ أنَّ الدنيا للزادِ ، والعُقْبىٰ للمُرادِ ، وإنَّ ربَّكَ لبالمرصادِ ، ومَنْ يهدي اللهُ فما لهُ مِنْ مضلٍّ ومَنْ يضللْ فما لهُ مِنْ هادٍ .



(١) تمهيدٌ للكتاب الآتي بعده .



[كِتَابُ المِحْنَةِ والحِيلَةِ]



كتاب
المحنة والحيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي خلقَ الدنيا للابتلاءِ ، والآخرةَ للجزاءِ ، فصَفَتِ الآخرةُ عِقاباً أو نعيماً ، ولم يكنْ أحدُ الوجهينِ في الدنيا عنِ الآخرِ سليماً[1] ، بل كانَ لصُوَرِ النِّعَمِ معاني العقوبةِ ، ولصُوَرِ العقوبةِ معانٍ محبوبةٌ ، وفي الحظِّ الدينيِّ حظٌّ للدنيا مبينٌ ، وفي الدنياويِّ ضربٌ مِنَ الدينِ ؛ تبييناً للامتحانِ علىٰ كلِّ إنسانٍ ، والصلاةُ علىٰ مَنْ تمَّ بشريعتِهِ هـٰذا البيانُ .

قالَ رضيَ اللهُ عنهُ ورحمةُ اللهِ عليهِ :

---

(١) فما صَفَتْ لذةٌ في الدنيا ، وحسبُك تنكيداً : أنك لا تجد لها خلوداً ، وكذلك بلاؤها ؛ إذ ما من بلاء إلا ووقيت ما هو أشدُّ منه ، وذكر المبرد في « التعازي والمراثي » (ص٨٥) : أن عروة بن الزبير رحمه الله تعالىٰ قدم على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد بن عروة ، فدخل محمد دار الدوابِّ ، فضربته دابة فخرَّ ميتاً ، ووقعت في رجل عروة الأَكِلةُ ، ولم يدع ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : اقطعها وإلا أفسدت عليك جسدك ، فقطعها بالمنشار وهو شيخ كبير ولم يمسكها أحد ، وقال : لقد لقينا من سفرنا هـٰذا نصباً .

وقدم على الوليد في تلك السنة قومٌ من بني عبس فيهم رجل ضرير ، فسأله الوليد عن عينيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ بتُّ ليلةً في بطن وادٍ ولا أعلم عبسياً يزيد ماله علىٰ مالي ، فطرقَنا سيلٌ فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غيرَ بعير وصبي مولود ، وكان البعير صعباً ، فندَّ ، فوضعت الصبيَّ واتبعت البعير ، فلم أجاوزه إلا قليلاً حتىٰ سمعت صيحةَ ابني ، فرجعت إليه ورأسُ الذئب في بطنه وهو يأكله ، ولحقت البعير لأحبسه ، فنفحني برجله علىٰ وجهي فحطَمَه وذهب بعينيَّ ، فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا ولد ولا بصر ، فقال الوليد : انطلقوا به إلىٰ عروة ؛ ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاء .

كُنَّا ذكَرنا لكَ أيُّها الأخُ في مبدأِ كتابِنا هـٰذا : أنَّ الآدميَّ ممتحنٌ في ذاتِهِ بينَ نفسٍ أمَّارةٍ بالسُّوءِ ، وروحٍ أمَّارةٍ بالخيرِ ، وأنَّ الابتلاءاتِ مبنيَّةٌ عليهما ، وتكلَّمْنا بقَدْرِ الكفايةِ فيهما ، وهـٰذا الكتابُ منَّا : لبيانِ المحنةِ ممَّا قُسِمَ للآدميِّ وعليهِ في العاجلِ مِنْ دنياويٍّ أو دينيٍّ ، وإنَّا لبادئونَ بالأقسامِ الدنياويَّةِ للنفوسِ[1] ، فهي ثابتةٌ مِنْ طريقٍ محسوسٍ ، فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

[المحبوبُ والمكروهُ فيما يتَّصلُ بالنفسِ]

إنَّ للنفسِ أقساماً متَّصلةً بها مِنَ المكروهِ والمحبوبِ :

وإنَّ المحبوبَ ضربانِ[2] : سلامةُ أجزاءِ البنْيةِ المحسوسةِ عنِ الآفاتِ التي تَنْقُصُ الكمالَ ؛ مِنْ كمِّيَّةٍ أو فواتِ طَرَفٍ أوِ اختلالٍ[3] ، وسلامةُ معاني البنيةِ عنِ الآفاتِ التي تَنْقُصُ الاعتدالَ ، مِنْ زَمانةٍ ومرضٍ واعتلالٍ .

وإنَّ المكروهَ ضربانِ ، وهما للمحبوبينِ ضِدَّانِ .

فكانَتِ الأقسامُ في حقِّ النفسِ أربعةً في الأصلِ ، وسائرُها بناءً عليها .

[محبوباتُ النفسِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدنيويةِ]

فالضربُ الأوَّلُ مِنَ المحبوبِ تعلَّقَ بهِ نوعا نعمةٍ دنياويةٍ :

أحدُهما : لا صُنعَ لنا فيهِ ؛ وهو سرورُ القلبِ برؤيةِ ذلكَ الكمالِ الذي هو

---

(١) الأقسام المتصلة الدنياوية أربعة ، وما يتفرَّع ويتشعَّب من هـٰذه الأربعة اثنان وثمانون . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) سلامة الظاهر ، وسلامة الباطن . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الكميَّةُ هنا : ما دون الطرف . انتهىٰ من هامش (و) .

محبوبٌ ومطلوبٌ بالقلوبِ ؛ فإنَّ حصولَهُ طَبْعيٌّ لا صُنعَ لنا فيهِ ، وإنَّما يكونُ دفعُهُ بتكلُّفٍ[١] .

والآخرُ : لنا فيهِ صُنْعٌ ؛ وهو استعمالُ ذلكَ الكمالِ لِمَا يصلحُ لهُ ويقومُ بهِ منافعُ بدنِهِ .

وفيهِ نوعا ضررٍ في مقابلةِ النفعِ :

صداعٌ يلحقُهُ بطلبِ الناسِ منهُ ما صلحَ لهُ ، فعلىٰ هـٰذا جِبِلَّةُ الخلائقِ ، لا صنعَ للكاملِ في قصدِهِ الناسُ طمعاً فيهِ[٢] ، إذْ لم يكنْ بدعوةٍ منهُ إليهِ .

وضربٌ آخرُ لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو ضررُ الإجابةِ لهم أوِ الردِّ .

وهـٰذانِ في ضربِ كمالِ المعنىٰ ، فما للنفسِ في غيرِ الدنيا دعوىٰ .

[محبوباتُ النفسِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدينيةِ]

وفيهِ أيضاً مِنَ الحظوظِ الدينيّةِ مثلُ ذلكَ[٣] ، أمَّا النوعانِ اللذانِ هما نفعٌ :

فأحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ محبَّةُ مَنْ قَسَمَ لهُ ذلكَ ؛ فإنَّ المحبَّةَ للمحسنِ مِنْ جِبِلَّةِ القلوبِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طلبُ القاسمِ[٤] ؛ لأنَّ المحبَّةَ تبعثُ علىٰ

---

(١) أي : الاشتغال بشيء آخر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) لا يخفىٰ إضافة (قصد) إلىٰ مفعوله ، وجاء بعده الفاعل ؛ يعني : قصد الناس إياه ، وهـٰذا التركيب كقوله عليه الصلاة والسلام : « وحجُّ البيتِ مَنِ استطاع إليه سبيلاً » ؛ يعني : وأن يحجَّ البيتَ المستطيعُ .

(٣) أي : في المحبوب بنوعيه ؛ أي : الصورة ، وكمال المعنى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : الله تعالى . انتهىٰ من هامش (و) .

طلبِ المحبوبِ ، وقلَّما يصبرُ على الفِراقِ الحبيبُ .

وأمَّا النوعانِ اللذانِ هما ضررٌ :

فأحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ الوقوعُ في فتنةِ الكِبْرِ برؤيةِ نفسِهِ قويَّةً سويَّةً .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طاعةُ النفسِ في موجَبِ الكِبْرِ ليصيرَ إلىٰ إنكارِ العبوديَّةِ .

[مكروهاتُ النفسِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدنيويةِ]

وأمَّا الضربُ المكروهُ الذي هو ضدُّ المحبوبِ ففيهِ نوعا ضررٍ في حقِّ الدنيا :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو مخامرةُ الغمِّ بحلولِ النقصانِ ؛ فإنَّهُ مِنْ دواعي جِبِلَّةِ الإنسانِ ، وإنَّما الإخراجُ بدفعٍ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ العملُ بذلكَ ؛ مِنَ التأسُّفِ علىٰ ما فاتَهُ .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

الراحةُ عن صُداعِ الناسِ ، لا صنعَ لنا فيهِ(١) .

والآخرُ لنا فيه صنعٌ ؛ وهو تتبُّعُ نِعَمِ الراحةِ بزوالِ سببِ الصُّداعِ ليستديمَهُ راضياً بهِ غيرَ مبدِّلٍ بحيلةٍ ، أو كاسراً خُمارَ غمِّ النقصِ بترجيحِ عوضِهِ مِنَ الراحةِ عاصياً حُكْمَ الجِبِلَّةِ(٢) .

---

(١) يعني : الراحة من صداع الرأس الذي يكون بسبب طلب الناس منه ما يصلح له .

(٢) أي : يرجح العوضَ ـ وهو الراحة ـ علىٰ صداع الناس ، ويعصي حُكْمَ الجبلة من الاهتمام والاغتمام عند حلول النقصان في بدنه ؛ فإذا رجَّح عرض النقصان في بدنه وهو للراحة . . فقد عصىٰ حُكْم الجبلة ، وأطاع أمر الروح . مفادٌ من هامش (و) .

[مكروهاتُ النفسِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدينيةِ]

فأمَّا نصيبُ الدينِ ففيهِ ضربا نفعٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ النجاةُ عن فتنةِ الكِبْرِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو تعرُّفُ نعمةِ النجاةِ بالاستدلالِ ، وترجيحُها علىٰ ما فاتَ مِنَ الكمالِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

بغْضُ مَنْ قَسَمَ لهُ ذلكَ بموجَبِ طبعِهِ .

والآخرُ لنا فيه صنعٌ ؛ وهوَ العملُ بما عَمِيَ عن نفعِهِ .

[المحبوبُ والمكروهُ فيما ينفصلُ عنِ النفسِ]

وأمَّا الحظوظُ المنفصلةُ عنِ الأنفسِ مِنَ الأشياءِ المخلوقةِ في العالمِ لنا فضربانِ : مكروهٌ ومحبوبٌ .

وإنَّما الأصلُ مِنَ المحبوبِ ما يتعلَّقُ بهِ البقاءُ ؛ فإنَّ البقاءَ رأسُ المالِ في البابِ ، وإنَّهُ لضربانِ :

ما يتعلَّقُ بهِ بقاءُ النفسِ مِنَ الأغذيةِ .

وما يتعلَّقُ بهِ بقاءُ الجنسِ مِنَ الإناثِ للذُّكرانِ ، والذُّكرانِ للإناثِ .

فالأغذيةُ ممَّا يتقوَّىٰ بها الحياةُ الموجودةُ ، وكذلكَ سائرُ الأموالِ ممَّا يُرغبُ فيها بالشهوةِ تبعاً لها .

والإناثُ ممَّنْ تستفادُ بهنَّ حياةٌ معدومةٌ[١] .

والمكروهُ ما يضادُّ الضربينِ :

الأدويةُ في مقابلةِ الأغذيةِ ؛ فإنَّها ممَّا يُضعِفُ القُوىٰ ، ويغيِّرُ الحِلَىٰ[٢] .

وأسبابُ المنيَّةِ في مقابلةِ النساءِ والنسلِ ؛ فإنَّها تُفيتُ الحياةَ مِنَ الأصلِ .

وهـٰذهِ الأقسامُ علىٰ هـٰذهِ المعاني إنَّما تخرجُ بعدَ التناولِ[٣] ، فأمَّا قبلَ التناولِ فالأموالُ كلُّها سواءٌ ومحبوبةٌ[٤] ، وكذلكَ النساءُ وضدُّها[٥] ، عدمُها بأعيانِها[٦] .

[المحبوبُ مِنَ الأموالِ]

وإنَّا بادئونَ بأقسامِ الوجودِ ، ثم أقسامِ التناولِ ، وباللهِ التوفيقُ ؛ فنقولُ :

---

(١) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠ـ ١٦٦] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٣/ ٦٧) : (قيل : إنهم عُرِض عليهم التزويج ، وكأنه عرضه عليهم إن أسلموا ، وقيل : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ نساءُ أمتي ، فكأنه قال لهم : التزويج أطهر لكم ، فلما حاولوا فتح الباب طمس الله أعينهم) .

(٢) خلقةَ الآدمي ؛ أي : كالحمرة في الوجه يغيرها إلى الصفرة . انتهىٰ من هامش (و) ، والحِلَىٰ : جمع حِلْية ؛ الصفةُ .

(٣) أي : الكل محبوبةٌ لأجل المآلية ، بل المآلية في الأدوية أكثر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) بعد انقضاء الشهوة تنفر عنهنَّ ، فأما قبل التناول فمحبوبة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) أي : ضدُّ الأموال والنساء قبل التناول والإتيان . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) أي : ضدُّ هـٰذا المجموع ؛ من الأموال قبل التناول ، والنساء قبل إتيانها . . عدمها بأعيانها .

إنَّ في الأموالِ كلِّها نوعَيْ نفعٍ في حقِّ الدنيا .

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ قوَّةُ النفسِ بالغُنيةِ ، وحاجةُ الناسِ إليهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ عملِ الجِبِلَّةِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الانتفاعُ بالغُنيةِ بالتناولِ تنعُّماً ، وبالبَذْلِ تكرُّماً .

وفيها ضربا ضررٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ الوقوعُ في حاجةِ الحفظِ ؛ فإنَّ مِنْ عملِ الطبعِ حفظَ المحبوبِ ، والتألُّمَ علىٰ زوالِهِ ، ووقوعَ الرغبةِ في طلبِ الزيادةِ منهُ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الإجابةُ إلىٰ ما دعا إليهِ الطبعُ مِنَ الحفظِ حتىٰ يحفظَهُ عن نفسِهِ ، فتلزمَهُ مَرارةُ العُدْمِ ، وإنَّها لأمرُّ معَ الوجودِ[1] ، ويزدادُ عليهِ غمُّ الزوالِ معَ بقاءِ غمِّ الطلبِ ؛ فإنَّ الطلبَ معَ المالِ لأشدُّ ، وأنواعُهُ أكثرُ منهُ بغيرِ مالٍ[2] ، معَ ما ربحَ فيهِ بغْضَ الناسِ ؛ بأنْ سألوهُ فردَّ السؤالَ .

وفيها ضربا ضررٍ دينيٍّ :

الوقوعُ في فتنةِ المالِ ؛ فإنَّهُ شاغلٌ للقلبِ مُطْغٍ للنفسِ، ما لنا فيهِ مِنْ صنعٍ ؛ فإنَّهُ محبوبُ الطبعِ ، وفي شغلِ القلبِ وطغيانِ النفسِ أعظمُ ضررٍ بالدينِ .

---

(١) قال المتنبي ـ كما في « ديوانه » (ص٣٩٤) ـ : (من الطويل)

وما يوجعُ الحِرْمانُ مِنْ كفِّ حارمٍ كما يوجعُ الحِرْمانُ مِنْ كفِّ رازقِ

مفادٌ من هامش (و) .

(٢) أي : أنواع الطلب مع المال أكثر من الطلب بغير المال . انتهىٰ من هامش (و) .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طاعةُ النفسِ علىٰ طغيانِها ، وتسليمُ القلبِ لأشغالِهِ[1] .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ حدوثُ الرغبةِ في خدمةِ مَنْ أوجبَ لهُ ذلكَ ؛ فإنَّهُ مِنْ طبعِ حالِهِ ، ونفوذُ حُكْمِ اللهِ تعالىٰ في حياةِ مَنْ تعلَّقَ في الأزلِ حياتُهُ بمالِهِ[2] .

والثاني : التأمُّلُ في معرفةِ مَنْ أوجبَ لهُ ، وإقامةُ حُكْمِ اللهِ تعالىٰ بالبَذْلِ .

[المحبوبُ مِنَ النساءِ]

وأمَّا النساءُ ففيهنَّ ضربا نفعٍ في حقِّ الدنيا :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو سَكَنُ النفسِ بالإِلْفِ ؛ فإنَّهُ مِنْ دواعي الجِبِلَّةِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ العملُ بمقتضى السَّكَنِ وما يدعو إليهِ مِنْ إتيانِها مَهْواها ؛ طمعاً في زيادةِ الخُلَّةِ .

وفيهنَّ ضربا ضررٍ :

الوقوعُ في ميدانِ الغَيرةِ وغمِّ الفِراقِ ، لا صنعَ لنا فيهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ مقتضَياتِ الفحولةِ والمحبَّةِ[3] .

---

(١) أي : تخلي القلب وأشغالَهُ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) حكم الله ببقاء الفقراء ، وإنما تعلقت حياتهم بمال الأغنياء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) روىٰ أحمد في « مسنده » (١/ ٢٣٨) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : =

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ العملُ بموجَبِ الغَيرةِ ؛ حتىٰ يغارَ عليها مِنْ نفسِها ، وبموجَبِ المحبَّةِ ؛ حتىٰ يصونَ نفسَهُ عنها ؛ فإنَّ نهايةَ الغَيرةِ في حَبْسِ المَغِيرِ عليهِ حتىٰ لا يُرىٰ ويفقدَ ؛ خوفاً مِنْ مكروهٍ ، ونهايةَ المحبَّةِ توجبُ مِنَ التعظيمِ للمحبوبِ حتىٰ لا يُنالَ بل يعبدَ[1] ؛ رغبةً في التعظيمِ .

فإذاً ؛ الغَيْرةُ تُعدِمُ السَّكَنَ[2] ، والمحبَّةُ تَحرِمُ الغَرَضَ[3] ، والمكروهُ الذي هو سببُ الغَيرةِ ممَّا يسلبُهُ نعمةَ المحبَّةِ[4] .

وأمَّا في حقِّ الدينِ ففيهنَّ ضربا ضررٍ :

= لما نزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ [النور : ٤] . . قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أُنزلت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار ؛ ألا تسمعون إلىٰ ما يقول سيدكم ؟! » ، قالوا : يا رسول الله ؛ لا تلمْهُ ؛ فإنه رجل غَيُور ، والله ؛ ما تزوَّج امرأةً قطُّ إلا بِكراً ، وما طلَّقَ امرأة له قطُّ فاجترأ رجلٌ منَّا علىٰ أن يتزوجها من شدَّة غيرته ، فقال سعد : والله يا رسول الله ؛ إني لأعلم أنها حقٌّ ، وأنها من الله ، ولـٰكني قد تعجَّبت أني لو وجدت لَكَاعاً قد تفخَّذها رجلٌ لم يكن لي أن أَهِيجَهُ ولا أُحرِّكه حتىٰ آتي بأربعة شهداء ! فوالله ؛ لا آتي بهم حتىٰ يقضي حاجته .

(١) أي : لا ينال من المعانقة والقبلة غاية التعظيم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) وذلك لأن الغيرة تحمل علىٰ ألا تُرىٰ ، بل تُفقد حتىٰ لا يُطَّلعَ عليها . مفادٌ من هامش (و) .

(٣) لأن المحبَّة توجب من التعظيم حتىٰ لا يبالي ، بل يعبد ، فعند ذلك لا يمكنه أن يمدَّ إليها يداً ، ولا أن يستمتع بها بدناً ، وحينئذ فات الغرض بكليته . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) يمكن أن يقال : المكروه الذي هو سبب الغيرة : هو اطلاع الغير عليها ، فعند ذلك يغار علىٰ أهله ، علىٰ ذلك طُبِعَ الفحلُ ، وعند ذلك تذهب عنه نعمة المحبة ؛ فإنه يصفو عنه اعتقاده أنها صافية وخالصة ، فإذا دخلها شرب ورَوِيَ ، فيتكدَّرُ صفوهُ من المحبة . انتهىٰ من هامش (و) .

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو زيادةُ العدوِّ بزيادةِ نفسٍ أخرىٰ ؛ فإنَّ أصلَ النفسِ عدوٌّ بخَلْقِ اللهِ تعالىٰ لا صنعَ لنا فيهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طاعتُهُ نفسَها علىٰ ما تدعو إليهِ كطاعتِهِ نفسَهُ .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ انغماضُ العينِ عن سكنِ الغيرِ بسكونِ القلبِ إلىٰ إلْفِهِ[1] ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ باعثةِ طبعِهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ العملُ بهِ مِنْ حيثُ الإمساكُ بالمعروفِ ؛ فإنَّ الأُلفةَ داعيةٌ إلىٰ ذلكَ .

[عُدْمُ المالِ]

وأمَّا المكروهُ ـ وهوَ العُدْمُ ـ ففي عدمِ المالِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدنيا :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو مسكنةُ النفسِ ولزومُ الخضوعِ بلزومِ الحاجةِ[2] ؛ فإنَّهُ مِنْ بواعثِ الجِبلَّةِ ، إلا أنْ يُرَدَّ بالتكلُّفِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو كشفُ الحالِ علىٰ نفسِهِ بالسؤالِ والتكفُّفِ[3] .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو راحةُ القلبِ عن حفظِ المالِ .

---

(١) الطباع مجبولة علىٰ أنها إذا ألفت شيئاً تفرُّ عن غيره . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الخضوع والمسكنة بالتعفف . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) وهٰذا شرعاً لا يكون إلا عند الضرورة أو الحاجة المنزَّلة منزلتها ، ولا يجوز للاستزادة من متاع الدنيا .

والثاني : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التأمُّلُ إلىٰ أنْ يرىٰ رجحانَ نعمةِ الراحةِ علىٰ نعمةِ الثروةِ[1] ، فيتسلَّىٰ فيهِ بالحظِّ الأوفرِ شاكراً ، ويستديمَ الحالَ مختاراً .

وفيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ النجاةُ عن فتنةِ المالِ[2] .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التأمُّلُ في نعمةِ النجاةِ عنِ الشكيَّةِ بالعدمِ[3] ، فيُهِلُّ بالشكرِ للهِ مكانَ الشكوىٰ ، ويتقوَّىٰ فيهِ مستغنياً مكانَ المالِ بالمولىٰ .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو حرمانُ ثوابِ انتفاعِ الناسِ بمالِهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الشكوىٰ فيهِ والجزعُ إلىٰ كسوفِ بالِهِ[4] .

[عُدْمُ النساءِ]

وفي عدمِ النساءِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدنيا :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو وَحْشةُ التفرُّدِ عنِ الإلْفِ ؛ فإنَّهُ مِنْ موجَبِ الطبعِ .

---

(١) فيعلمَ فضل الفقير الصابر على الغني وإن كان شاكراً .

(٢) أي : لا يسعىٰ في اكتساب المال . انتهىٰ من هامش (و) ، وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٦٤٠) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الموت غنيمة ، والمعصية مصيبة ، والفقر راحة ، والغنىٰ عقوبة ، والعقل هدية من الله ، والجهل ضلالة ، والظلم ندامة ، والطاعة قرة العين ، والبكاء من خشية الله النجاة من النار ، والضحك هلاك البدن ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(٣) أي : بسبب عدم المال تحصل له النجاة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : تغير قلبه . انتهىٰ من هامش (و) .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ القلقُ في الوَحْشةِ ، وطلبُ ردِّها ممَّا ليسَ لهُ[1] ، فتكونُ سبباً لهلاكِهِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ خفَّتُهُ عن أعباءِ المحبَّةِ والغَيرةِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التأمُّلُ في فسادِ غرضِهِ في طلبِ السَّكَنِ مِنَ النساءِ .

وفي هـٰذا العُدْمِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ :

النجاةُ عن شرِّ النفسِ الثانيةِ وعداوتِها ، لا صنعَ لنا فيهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التأمُّلُ في نعمةِ النجاةِ[2] ؛ ليؤدِّيَ بهِ ذلكَ إلىٰ تحصيلِ غرضِ السَّكَنِ بما لا يفتنُهُ ولا يخدعُهُ[3] ؛ وهوَ العلومُ ، والتأمُّلُ في ضروبِها ، وعبادةُ اللهِ تعالىٰ .

وفيهِ ضربا ضررٍ أيضاً :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو حرمانُ ثوابِ صِلَةِ النكاحِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو ترْكُ التصبُّرِ عليهِ[4] .

---

(١) إذْ لا إلْفَ بغير نكاح . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) إذ طلب السكن لا بدَّ له من بيت ونفقة وغيرهما ، وفي طلب ذلك زوال ماء وجهه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : ليؤدِّي بالمتأمِّلِ ذلك التأمُّلُ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : ترك الاستعفاف ، وهو مأمور به بقوله : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور : ٣٣] . انتهىٰ من هامش (و) .

[حظوظُ التناولِ]

وأمّا أقسامُ حظوظِ التناولِ فنبدأُ بالأموالِ ونخصُّ الأغذيةَ منها ؛ فإنَّ بها بقاءَ الحياةِ الموجودةِ ؛ فنقولُ :

[الكلامُ في الأغذيةِ]

إنَّ في تناولِها ضربَيْ نفعٍ في حقِّ الدنيا :

أحدُهما : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو قضاءُ شهوةِ البطنِ بالتناولِ .

والآخرُ : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو قوَّةُ النفسِ وانقلابُ المتناوَلِ لَحْماً ودماً بمنزلةِ أجزاءِ المتناوِلِ ؛ فإنَّهُ مِنْ عملِ الطبعِ(١) .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ انقلابُ خُبْثِ الغذاءِ نجاسةً تنفرُ عنها الحواسُّ وتستقذرُها النفوسُ ؛ حتىٰ يصيرَ بهِ بمعنى الكَنِيفِ(٢) .

---

(١) انظر ما تقدم تعليقاً (ص١٩١) من كون المراد بتأثير الطبائع العاداتِ المشاهدات ، لا حقيقةَ التأثير .

(٢) روىٰ أحمد في « مسنده » (٣/ ٤٥٢) من حديث سيدنا الضحاك بن سفيان الكلابي رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا ضحَّاك ؛ ما طعامك ؟ » ، قال : يا رسول الله ؛ اللحمُ واللبن ، قال : « ثم يصيرُ إلىٰ ماذا ؟ » ، قال : إلىٰ ما قد علمت ، قال : « فإن الله تبارك وتعالىٰ ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا » .

وروى ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس : ٢٤] قال : إلىٰ خُرْئِهِ .

وروىٰ أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٨٤) : أن المهلب بن أبي صفرة مرَّ علىٰ مالك بن دينار وهو يتبختر في مِشيته ، فقال له مالكٌ : أما علمت أن هـٰذه المِشية تُكرهُ إلا بين الصفَّين ؟! فقال له المهلَّبُ : أمَا تعرفني ؟ فقال له : أعرفك أحسن المعرفة ، قال : =

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الإخراجُ بضَرْبِ فعلٍ بقصدِهِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدِّينِ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو قيامُ حُكْمِ اللهِ تعالىٰ في بقاءِ النفسِ إلىٰ أجلِهِ متعلِّقاً بما يحصلُ مِنَ القوَّةِ بالغذاءِ ، ولذلكَ علَّقَ اللهُ تعالى التناولَ بشهوةِ البطنِ لتكونَ داعيةً إليهِ مِنْ كلِّ نفسٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ ، فيمضيَ حُكْمُ اللهِ تعالىٰ باختيارٍ مِنَ العبدِ علىٰ ما أمضاهُ ، أقرَّ بهِ العبدُ أو جحدَهُ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ استعمالُ تلكَ القوَّةِ في طاعةِ مَنْ قوَّاهُ بها وأيَّدَهُ .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

أحدُهما : الوقوعُ في فتنةِ قوَّةِ النفسِ ، لا صنعَ لنا فيهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ فعلِ الطبعِ[1] .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طاعةُ النفسِ علىٰ ذلكَ بسوءِ الاختيارِ .

= وما تعرف مني ؟ قال : أما أوَّلك فنطفة مذرة ، وأما آخرك فجيفة قذرة ، وأنت بينهما تحمل العذرة ، فقال المهلب : الآن عرفتَني حقَّ المعرفة .

والكَنِيف : المرحاض ، سُمِّيَ بذلك لأنه يستر قاضي الحاجة .

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١١٧/٥) : (الشبع يقوي الشهوات ، والشهوات أسلحة الشيطان) .

وقال أيضاً (٣٤١/٥) : (ومهما كان جائعاً ، وتاقت نفسه إلى الجماع . . فلا ينبغي أن يأكل ويجامع ، فيعطيَ نفسه شهوتين ، فتقوىٰ عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لتنبسط في الجماع ، ويستحب ألا ينام على الشبع فيجمعَ بين غفلتين ، فيعتاد الفتور ، ويقسوَ قلبه لذلك ، ولـٰكن ليصلِّ ، أو ليجلس فيذكرَ الله تعالىٰ ؛ فإنه أقرب إلى الشكر) .

[الكلامُ في الأدويةِ]

وأمَّا أقسامُ تناولِ المكروهِ ـ وهوَ الأدويةُ ـ ففيهِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدنيا ؛ وهو نصيبُ النفسِ :

أحدُهما : متعلِّقٌ بفعلِهِ ؛ وهو لحوقُ مَرارةِ الدواءِ بالشربِ .

والآخرُ : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو سقوطُ القُوى الغريزيَّةِ بغلبةِ ضدِّها ؛ وهو طبعُ الدواءِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو طهارةُ الطبائعِ بمزايلتِها فضولَ القُوى الفاسدةِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الانزجارُ عمَّا ألزمَهُ شربَ الدواءِ ؛ مِنَ الإسرافِ في التناولِ وتعدِّي حدودِ الطباعِ فيهِ بما ذاقَ مِنَ المرارةِ ؛ كراهةً للعودِ فيها ، وهـٰذا النفعُ إنَّما يحصلُ بصنعِنا ؛ وهوَ التأمُّلُ في السببِ الذي ألزمَهُ شربَ المرِّ ، ثم الكفُّ عمَّا أمسَّهُ الضرَّ[1] ، فإنَّ النفعَ الذي يكونُ بالانزجارِ عنِ السببِ المفسِدِ أكثرُ مِنَ النفعِ الذي أصلَحَ بعدَ الفسادِ ، معَ ما ربحَ النجاةَ عن مَرارةِ الدواءِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ ؛ وهو نصيبُ الروحِ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ النجاةُ عن دعوةِ النفسِ إلى اقتضاءِ

---

(١) ومن كلام طبيب العرب الحارث بن كَلَدَةَ : (المعدة بيت الداء ، والحِمْية رأس الدواء) . انظر « المقاصد الحسنة » (١٠٣٥) .

الشهواتِ بفترةِ الطبائعِ ، وسقوطُ الشهوةِ بالدواءِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الإقبالُ على قهرِ النفسِ وخلافِها حالَ ضَعفِ قُواها ، ووجوبُ طلبِ الصانعِ ؛ إذْ لو كانَ الأمرُ بيدِهِ أو إلى طباعِهِ ما التزمَ شربَ ما يضادُّ طباعَهُ تحرِّياً لنجاتِهِ عن فسادٍ لحقَها مِنْ تناولِ ما دعَتْهُ إليهِ الطباعُ ، ومتى علمَ أنَّهُ مقضيٌّ عليهِ ، وأنْ لا أمرَ بيدِهِ . . وجبَ عليهِ طلبُ الحاكمِ ؛ لتكونَ إقامةُ أمرِ الحاكمِ ووجوبُ الانقيادِ لحكمِهِ عن معرفةٍ بحِكْمتِهِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

نفرةُ الطبعِ عنِ الحاكمِ ؛ مثلُ نفرةٍ تقعُ عنِ الطبيبِ وإنْ عرفَهُ المريضُ شافيَهُ ، لا صنعَ لنا فيهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ عملِ الطبعِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طاعةُ الطبعِ عليها حتى يحملَهُ على الردِّ عليهِ تعنُّتاً ، ونعوذُ باللهِ مِنَ الخِذلانِ .

[الكلامُ في قضاءِ شهوةِ النساءِ]

وأمَّا أقسامُ التناولِ مِنَ الضربِ الآخرِ مِنَ المحبوبِ ـ وهوَ النساءُ ـ فيتعلَّقُ بهِ نوعا نفعٍ في حقِّ الدنيا :

أحدُهما : متعلِّقٌ بفعلِنا ؛ وهوَ اقتضاءُ شهوةِ الفرجِ .

والآخرُ : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ انخلاقُ الماءِ نَفْساً مثلَهُ(١) ؛ لتقومَ بهِ حياةُ العالَمِ وعِمارةُ الدنيا .

---

(١) انظر ما تقدم (ص ٤١٨) في كون كلمة (انخلاق) ملحونة .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ انكسارُ قُوى الفحلِ ، وانخلاقُ الولدِ في بطنِها ، وفيهِ إلىٰ أنْ تلدَ ضروبُ ضررٍ كثيرةٌ ، لا صنعَ للمرأةِ فيهِ .

وضربٌ آخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو ما يلزمُ الرجلَ مِنَ النفقةِ والقيامِ بالمرأةِ ، ويلزمُ المرأةَ مِنَ الاحتباسِ عندَ الزوجِ والرضاعِ والتذلُّلِ بالتمكينِ مِنْ ذلكَ الفعلِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ :

تأدِّي حُكْمِ اللهِ تعالىٰ في بقاءِ هٰذا العالَمِ مِنْ طريقِ التناسلِ إلىٰ أجلِهِ ؛ فإنَّهُ متعلِّقٌ بذلكَ الفعلِ حكمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بهِ ، ولذلكَ عُلِّقَ بالشهوةِ لتكونَ داعيةً إليهِ ، فيقعُ ـ لا محالةَ ـ علىٰ ما قلنا في فصْلِ تناولِ الغذاءِ[1] .

ولهٰذا لم يَحِلَّ اقتضاءُ هٰذهِ الشهوةِ مِنَ الأدبارِ التي لا تكونُ سبباً للنسلِ ، وإنْ كانَ مِنْ حيثُ قضاءُ الشهوةِ سواءً[2] ؛ كما لا يَحِلُّ تناولُ ما لا يُتغذَّىٰ بهِ وإنِ اشتهاهُ[3] ، بخلافِ موجَبِ العقلِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الوقوفُ علىٰ معرفةِ الصانعِ ؛ إذْ عجزُهُ عن

---

(١) انظر (ص٥٠٩) .

(٢) وقد أفاد العلامة الكاساني في « بدائع الصنائع » (٥/ ١١٩) من هٰذا النصِّ الذي بين أيدينا فقال : (ولأن حلَّ الاستمتاع في الدنيا لا يثبت لحقِّ قضاء الشهوات خاصة ؛ لأن لقضاء الشهوات خاصَّة داراً أخرىٰ ، وإنما يثبت لحقِّ قضاء الحاجات ؛ وهي حاجة بقاء النسل إلى انقضاء الدنيا ، إلا أنه رُكِّبت الشهوات في البشر للبعث علىٰ قضاء الحاجات ، وحاجة النسل لا تحتمل الوقوع في الأدبار ، فلو ثبت الحلُّ لثبت لحقِّ قضاء الشهوة خاصة ، والدنيا لم تخلق له) .

(٣) كأكل الطين ونحوه . انتهىٰ من هامش (هـ) .

إيجادِ الولدِ يُعرِّفُهُ حالَ عجزِ آبائِهِ فيهِ ، وأنَّهُ لا بدَّ مِنْ قادرٍ سواهم يجوزُ إحالةُ الإيجادِ إليهِ .

ولن يحصلَ نفعُ هـٰذا البصرِ[1] ، إلا بضربٍ مِنَ الاستدلالِ والنظرِ ، ولذلكَ يلزمُنا دعوةُ الأولادِ إلى اللهِ تعالىٰ وهدايتُهم .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو زيادةُ العدوِّ بزيادةِ نفسٍ ثالثةٍ[2] ؛ فإنَّها منهُ دعوىٰ[3] ، وشرُّ الأوَّلينِ في المعنىٰ[4] .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ بجهادٍ زائدٍ[5] .

[مغالبةُ أسبابِ المنايا]

وأمَّا أقسامُ الضربِ المكروهِ في مضادَّتِهِ ـ وهو أسبابُ المنايا مِنْ مغالباتِ الناسِ ، والأسبابُ التي لا تتمُّ إلا بالقتالِ والقتلِ ـ ففيهِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدنيا :

وهو فوتُ الحياةِ التي هي رأسُ المالِ ، بالقتلِ والقتالِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ انزجارُ النفسِ مِنَ الطلبِ خوفاً مِنَ المنيَّةِ ،

---

(١) أي : البصيرة . انتهىٰ من هامش (و) ، وهي كذلك في (ز) .

(٢) أراد : الولد .

(٣) قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥] ؛ أي : النفس الثالثة من الأب دعوىٰ ؛ حيث يدعىٰ إلىٰ أبيه شرعاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : الولد شرُّ الوالدينِ ؛ لأنهما قد كبرا وارتاضت نفسهما ، بخلاف الولد . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) وهو تربية الولد إلىٰ بلوغه . انتهىٰ من هامش (و) .

قبلَ اقتضاءِ الأُمنيّةِ ، والبقاءُ تحتَ الفقرِ ، والعيشِ المُرِّ .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

اتِّساعُ الدنيا عليهِ بالقتلِ ، وصيرورةُ الدنيا لهُ مِنَ الأصلِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الولايةُ والإمارةُ والمُلْكُ ، والأمرُ والنَّهْيُ .

وفيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو ظهورُ قهرِ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ إنسانٍ ، حتىٰ لم يتمنَّ متمنٍّ مِنَ العقلاءِ لنفسِهِ الخلودَ ، ولا ادَّعى التأبيدَ .

والثاني : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التأمُّلُ في القاهرِ ؛ ليصلَ إليهِ ويعرفَهُ ويقومَ في مقامِ المقهورينَ ، والعملُ في محلِّ المأمورينَ[١] ، وقطعُ الأملِ ، بتذكُّرِ حلولِ الأجلِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ فوقَ ضَرَرَيْ شربِ الدواءِ مِنْ جنسِهِ ؛ فإنَّ هٰذا المكروهَ عندَ العبدِ فوقَ ذلكَ في نفسِهِ[٢] .

[محبوباتُ الروحِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدنيويَّةِ]

وأمَّا الأقسامُ التي للأرواحِ ـ ممَّا يوجدُ في الدنيا ـ فهي علىٰ تلكَ المراتبِ والأنواعِ[٣] .

---

(١) أي : يقوم في العمل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) وهو نفرة الطبع عن الحاكم ، وطاعة الطبع عليها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : المتصلة والمنفصلة التي مرَّ ذكرها في أقسام النفوس . انتهىٰ من هامش (و) ، وانظر ما تقدم (ص٣٨٠ ، ٤٩٨) ، فقد ذكر في صدر الكتاب أن الآدميَّ ممتحَنٌ بين نفس أمارة بالسوء ، وروح أمارة بالخيرِ ، قال : (وإنَّا لبادئونَ بالأقسام الدنياوية للنفوس) ، فذكر =

[المحبوبُ والمكروهُ فيما يتَّصلُ بالروحِ]

أمَّا التي هي متَّصلةٌ بنا :

فسلامةُ ظواهرِ البنيةِ عنِ الألوانِ الكريهةِ والهيئاتِ السمجةِ ، إلىٰ جمالٍ وحُسْنٍ ومَلاحةٍ ونحوِها ، وسلامةُ معنى البنيةِ عنِ الآفاتِ المكروهةِ ؛ مِنَ الجنونِ والعَتَهِ والغباوةِ ، إلىٰ عقلٍ وذكاءٍ وفطنةٍ ونحوِها[1] .

فضربا السلامةِ محبوبانِ ، وضربا الفوتِ مكروهانِ[2] .

[محبوباتُ الروحِ مِنَ الجمالِ والكمالِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدينيَّةِ]

فالمحبوبُ الأوَّلُ فيهِ نوعا نفعٍ في حقِّ الدينِ :

صفوةُ المحبَّةِ لمَنْ صَوَّرَ فأتمَّ ثم ألطفَ ؛ فإنَّهُ مِنْ حُكْمِ الجِبِلَّةِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهو طلبُ هـٰذا الصانعِ ، والعملُ بما تدعو إليهِ المحبَّةُ ، علىٰ ما ذكرْنا في سلامةِ قسمِ النفسِ[3] ؛ فإنَّهُ ذلكَ بعينِهِ ، إلا أنَّهُ إلى اللطفِ أقربُ[4] .

وفيهِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدينِ :

= بحمد الله أقسامها واستوفاها ، ووصل إلى الأقسام التي هي للأرواح كما يوجد في الدنيا ، فشرع فيها بتوفيق الله ومنِّهِ . انتهىٰ من هامش (و) .

(١) كالاستنباط وتخريج المسائل . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) ضربا الفوت ؛ أي : عدم السلامة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) انظر (ص ٤٩٨) ؛ أي : المحبوب الذي هو قسم الروح غير المحبوب الذي هو قسم النفس . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : الجمال والحسن والملاحة والعقل والذكاء والفطنة إلى اللطف أقرب من سلامة البنية وغيرها علىٰ ما ذكر في أقسام النفوس . مفادٌ من هامش (و) .

حدوثُ الكِبْرِ نظراً إلىٰ جمالِهِ وكمالِهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ عملِ الطبعِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ الارتداءُ بالكبرياءِ ليؤدِّيَ بهِ إلىٰ دعوى الربوبيَّةِ .

[محبوباتُ الروحِ مِنَ الجمالِ والكمالِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدنيويَّةِ]

وفيهِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدنيا :

صيرورتُهُ غرضاً لأنواعِ ما يُشتهىٰ مِنْ مجالسةٍ ومصافحةٍ ونظرٍ وغيرِها ، وتأذِّيهِ بهم ، لا صنعَ لصاحبِ القسمِ فيهِ(١) .

والآخرُ : لهُ فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الإجابةُ لتحصيلِ الغرضِ أوِ الردِّ .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

سرورٌ يلحقُهُ طبعاً بكمالِهِ وكونِهِ مقصوداً ، لا صنعَ لنا فيهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التصدِّي لما طُلِبَ منهُ ؛ ليجمعَهم عليهِ ، ويصرفَهم تحتَ رأيِهِ ، ويجعلَهم أتباعاً لنفسِهِ .

[مكروهاتُ الروحِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدينيَّةِ]

وأمَّا المكروهُ منهُ ففيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ(٢) :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ النجاةُ عن دعوى الكبرياءِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التأمُّلُ فيها ؛ ليرىٰ نعمةَ النجاةِ خيراً ممَّا فاتَ .

وفيهِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدينِ :

---

(١) أي : صاحب الجمال . انتهىٰ من هامش (و) ، ومثله صاحب الكمال وغير ذلك من محبوبات الروح .

(٢) قوله : (منه) ؛ يعني : من هـٰذا القسم . مفادٌ من هامش (و) .

شوبٌ يقعُ في المحبَّةِ بما فاتَ مكانَ الصفوةِ المتعلِّقةِ بالوجودِ[1] ، لا صنعَ لنا فيهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ عملِ الطبعِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ التكاسلُ في طلبِ القاسمِ ؛ عملاً بالشَّوبِ الواقعِ في المحبَّةِ ، فيؤدِّي بهِ الجهلُ إلى الكفرِ[2] .

وفيهِ ضربا ضررٍ في حقِّ الدنيا :

انكسارُ القلبِ بعُدْمِ السرورِ المتعلِّقِ بالقسمِ الأوَّلِ ، لا صنعَ لنا فيهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ اعتقادُ الخسرانِ ، والتأسُّفُ عليهِ أوِ السخطُ[3] .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

الراحةُ عن فتنةِ الوجودِ ، لا صنعَ لنا فيهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ التأمُّلُ فيما رُزِقَ مِنَ الراحةِ بسببِ العُدْمِ ؛ ليكونَ سبباً للرضا بهِ ، ثم ترجيحُ هـٰذا العوضِ الذي خَلَصَ لهُ علىٰ ما فاتَ بما كانَ نفعُهُ للناسِ لا لهُ[4] ؛ ليكونَ سبيلاً إلى الشكرِ للقاسمِ جلَّ جلالُهُ .

---

(١) يعني : وجود محبوبات الروح ؛ من الجمال ونحوه .

(٢) يعني : من فاته الكمال أو الجمال وغيرهما من محبوبات الروح . . وقع في الكسل ، والتكاسل يؤدِّي إلىٰ ترك الطلب ، وترك الطلب ـ والطلب كسبيٌّ واجب على العبد ـ ينتهي به إلى الجهل بالقاسم ، وهو عينُ الكفر .

(٣) يعني : التأسُّف علىٰ فوات الجمال والكمال مثلاً ، والسخط على القضاء والقدر ، وحسد من استوفى الكمال أو الجمال ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر : ١٦] .

(٤) أي : أن منفعة الراحة لنفسه ، ومنفعة الجمال للناس . انتهىٰ من هامش (و) ، ففوات الجمال كان خيراً له ، ولم يكن خيراً للناس في الظاهر .

[محبوباتُ الروحِ مِنَ العقلِ والعلمِ والتمييزِ الراجعةُ إلى الحظوظِ الدينيَّةِ]

وأمَّا المحبوبُ الآخرُ ففيهِ ضربا نفعٍ في حقِّ الدينِ :

تميُّزُهُ عنِ البهائمِ بهِ ، وكمالُ حدِّ الإنسانيَّةِ فيهِ ، وصيرورتُهُ أهلاً للجزاءِ والبقاءِ ، لا صنعَ لنا فيهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ العملُ بما دلَّ عليهِ العقلُ ؛ حتىٰ يعرفَ نفسَهُ وخالقَهُ ، وسببَ النجاةِ مِنَ الغباوةِ ، والترقِّي إلىٰ درجةِ الولايةِ والملكِ ، في تركِ الدنيا بالأخرىٰ ، وطلاقِ النفسِ بالمولىٰ .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهو صيرورتُهُ حاملَ أمانةِ اللهِ تعالىٰ ، مبتلىً بأدائِها ، مجازىً علىٰ وِفاقِ عملِهِ .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الخيانةُ فيما اوتُمنَ ، والفِرارُ عن أدائِها .

وفيهِ ضربا نفعٍ للدنيا :

أحدُهما : لا صنعَ لنا فيهِ ؛ وهوَ الصلاحُ لما يُنالُ بالآراءِ مِنْ حظوظِ الدنيا .

والثاني : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ استعمالُ العقلِ في حظوظِها ؛ فإنَّها استُفيدَتْ بالحيلةِ العقليَّةِ ، لا بالقوَّةِ النفسيَّةِ .

[مكروهاتُ الروحِ وما فيها مِنْ نفعٍ أو ضررٍ]

وأمَّا المكروهُ ففيهِ ضربا ضررٍ للروحِ :

خروجُهُ عن حدِّ الإنسانيَّةِ وأهلِ أنْ يخاطبَهُ اللهُ تعالىٰ بأداءِ عباداتِهِ ، لا صنعَ لنا فيهِ .

وحرمانُ ثمرةِ ما يتعلَّقُ بأداءِ الأمانةِ ؛ لصيرورةِ فعلِهِ هَدْراً قبلَ آلةِ العلمِ[1] .

وفيهِ ضربا نفعٍ :

سقوطُ أثقالِ الأمانةِ عنهُ ، وراحتُهُ عنِ التحمُّلِ والحفظِ والأداءِ ، لا صنعَ لهُ فيهِ .

والآخرُ : لهُ فيهِ صنعٌ ؛ وهو أنْ يفعلَ ما يشاءُ في المدَّةِ ، بلا إثمٍ ولا عُهْدةٍ .

وفيهِ ضربا نفعٍ للدنيا :

الفراغُ عن غمِّ التكسُّبِ والتحفُّظِ ، وهٰذا لا صنعَ لهُ فيهِ .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ التمتُّعُ بالموجودِ بلا فكرةٍ .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

أنْ يُحجرَ عن مالِهِ ، وأنْ يتلفَهُ بفاسدِ أعمالِهِ .

---

(١) أي : العقل . انتهىٰ من هامش (و) ، وكذلك الكافر لو عمل خيراً فإنه لا ينتفع به ؛ لفقد شرط الإيمان . مفادٌ من هامش (و) .

[المحبوبُ والمكروهُ فيما ينفصلُ عنِ الروحِ]

وأمَّا التي هي منفصلةٌ : فنصيبُ الأرواحِ ممَّا في العالمِ الأعمالُ المشروعةُ ، دونَ الأعيانِ المخلوقةِ(١) .

والحياةُ في حقِّ الروحِ حياةُ القلبِ بنورِ العقلِ ، لا حياةُ الجسمِ بالقدرةِ على الفعلِ ، واللهُ تعالىٰ سمَّىٰ هـٰذهِ الأعمالَ أمانتَهُ ؛ فقد عُرِضَتْ على الإنسانِ فحملَها ، كما خُلقَتْ لهُ الدنيا بما فيها فقبلَها(٢) .

وهـٰذهِ المشروعاتُ نوعانِ : محبوبٌ ومكروهٌ ، وأصلُ المحبوبِ : ما يتعلَّقُ بهِ بقاءُ حياةِ القلبِ مِنْ نفسِهِ ؛ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وما يتعلَّقُ بهِ بقاءُ حياةِ قلوبِ جنسِهِ ؛ مِنَ التعليمِ والتبصيرِ ، والعِظَةِ والتذكيرِ .

فبمعرفةِ اللهِ تعالىٰ : تبقى القلوبُ الحيَّةُ بنورِ الفطرةِ أحياءً في نصيبِ

---

(١) وذلك لأن الروح مرسلة من عند المولىٰ رقيباً على الورىٰ كما سبق ذكره ومضىٰ ، فنصيبُها إذاً يكون الأعمالَ المشروعة التي هي أمانة الله تعالى التي حملها الإنسان ، دون الأعيان المخلوقة في الدنيا للورىٰ ؛ إذ الأعيانُ في الدنيا من الدنيا ، فلا تكون نصيبَ الروح التي جاءت من عند المولى الأعلى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، والأمانة هي التكليف ؛ وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة ، فما سوى المكلَّفين طاعتهم لله في خضوعهم تحت ما ينزل بهم من الأقضية والأقدار ، فإباء الحمل منها ليس كإباء إبليس ، بل استصغرت نفسَها ؛ بدليل ذكر الإشفاق منها ، بخلاف استكبار إبليس ، وانظر « مفاتيح الغيب » (٢٥/ ٢٣٦) .

وأما خلق الدنيا للإنسان : فتدلُّ عليه الآيات التي فيها ذكرُ تسخيرِ كلِّ ما في السماوات والأرض له ؛ قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

الأرواحِ ، وتزدادُ بفروعِ الإيمانِ ، نوراً وإيقاناً بعدَ إيقانٍ ، وبالتعليمِ : تحيا قلوبٌ موتىٰ ، في حقِّ الأرواحِ والمولىٰ .

والمكروهُ : ما يضادُّ الضربينِ مِنَ الأفعالِ التي نُهينا عنها[1] ؛ وهي ضربانِ : ما يُضعِفُ هـٰذهِ الحياةَ ؛ مِنَ المعاصي بالفروعِ ، أوِ الهوىٰ في العقودِ ، وما يضادُّها ؛ مِنَ الجهلِ والكفرِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ؛ أي : كافراً فأحييناهُ بالإيمانِ ، أو كانَ ميتاً بالجهلِ فأحييناهُ بنورِ المعرفةِ .

وهـٰذهِ الأقسامُ لا تصيرُ لكَ إلا بالتناولِ منها ؛ كالأقسامِ في حقِّ النفوسِ التي هي منفصلةٌ عنها .

[حظُّ القلبِ في قسمِ التناولِ]

وتناولُ القلبِ هـٰذهِ الأقسامَ بالنظرِ والاستدلالِ ؛ كالأقسامِ التي مضَتْ كانَ تناولُها بالاستعمالِ والابتذالِ ، فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

إنَّ القلبَ إذا استدلَّ بالحُجَجِ حتىٰ عرفَ اللهَ تعالىٰ وما شرعَهُ . . أصابَ نوعَيْ نفعٍ للحالِ :

التقوىٰ باللهِ القويِّ بصدرِهِ[2] ، والعزَّةُ في الناسِ بعلوِّ قدرِهِ ، هـٰذا ممَّا لا صنعَ لهُ فيهِ ، فالجِبِلَّةُ عليهِ .

والآخرُ : باستعمالِهِ قلبَهُ لاستنباطِ الحِكَمِ ممَّا عَلِمَ حتىٰ يفقهَ

---

(١) من حياة روحه ، ومن حياة روح جنسه ، فضدُّهما : موت قلبه ، وموت قلب جنسه ؛ بأن يدعو غيره إلى الفساد . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٢) وهو اطمئنان القلب . انتهىٰ من هامش (و) .

ويكمُلَ ، وينتشرَ شعاعُهُ فيمَنْ قرُبَ منهُ أو بعُدَ .

وفيهِ ضربا ضررٍ بدنيٍّ :

الوقوعُ في محافظةِ حدودِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها لازمةٌ بأمرِ اللهِ تعالىٰ ، والمخافةُ على التعدِّي طبعاً ، بعدَ التزامِ الأوَّلِ شرعاً .

والآخرُ : بصنعِنا ؛ وهو حملُ النفوسِ الطاغيةِ على الوقوفِ على الحدِّ[1] ، وبعثُ القلبِ على النظرِ بجدٍّ حتىٰ يميزَ الهوىٰ عنِ الهدىٰ ؛ فالدنيا دارُ حُجَّةٍ ودارُ شُبْهةٍ[2] ، والنفسُ كيَّادةٌ تشوبُ وتروبُ[3] ، وصيَّادةٌ تبدو وتغيبُ .

وإنَّ التعبَ بهـٰذا النظرِ فوقَ النظرِ لأصلِ العلمِ ، ودائمٌ إلىٰ أنْ يموتَ[4] ، وتتعلَّقَ بهِ منازعاتُ الورىٰ معَهُ ممَّنْ هم منسوبونَ إلى الهدىٰ ؛ لوقوعِهم في شيءٍ مِنَ الهوىٰ ؛ وإنَّها أضرُّ مِنْ منازعاتِ مَنْ جهلَ باللهِ أو كفرَ .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

الوقوعُ في فتنةِ العلمِ ، فقد ذكرْنا أنَّهُ يزدادُ بالعلمِ الباطنِ قُوىً تصلحُ لكسبِ الأولىٰ ، كما تصلحُ للأخرىٰ ، ويتجلَّى الظاهرُ بمعنىً يُقبِلُ الورىٰ

---

(١) أي : حدِّ الشرع ؛ كالصلاة ونحوها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) دار حجة : لأنَّ فيها النفسَ الأمارة بالخير ، ودار شبهة : لأنَّ فيها النفسَ الأمارة بالسوء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يقال في المثل : فلانٌ يشوب ويروب ؛ إذا خلَّطَ في القول أو العمل .

(٤) ونظر الأصل لا يكون دائماً ؛ لأن الاستدلال بأن المصنوع لا بدَّ له من صانع قضيةٌ ضرورية ؛ لأن عامَّة المؤمنين لا يرجعون عن الدين بكيد الكافرين ، بل يرجعون عن سنن الاستقامة بمصاحبة أهل الهوىٰ ، فكان أضرَّ . انتهىٰ من هامش (و) .

عليهِ ، راجعينَ في أمورِهم إليهِ ، وفتنةُ الناسِ والجاهِ ، فوقَ فتنةِ المالِ والباهِ[١] .

والآخرُ : بصنعِنا ؛ اختيارُنا الإمامةَ بينَهم ، والزعامةَ عليهم ، حتىٰ نكونَ أرباباً والعياذُ باللهِ مِنْ فتنةِ العلمِ ؛ فهي أقوىٰ مِنَ المالِ أسباباً[٢] .

وفيهِ ضربا نفعٍ دينيٍّ للحالِ :

أحدُهما : بلا صنعٍ ؛ وقوعُ الرغبةِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ على الاستقامةِ طبعاً ؛ فقد أعلى اللهُ تعالىٰ منزلتَهُ بينَ خلقِهِ بما أفادَ لهُ مِنَ العلومِ شرعاً .

والآخرُ : بصنعِنا ؛ نشرُ ما علمَ في الناسِ حتىٰ يصيرَ مولاهم ، واستحقَّ عليهم طاعتَهُ في أمورِ آخرتِهم وأُولاهم .

[حالُ الداعي معَ مَنْ يدعوهم]

وأمَّا الجنسُ الذينَ هم بمنزلةِ النساءِ في البابِ الأوَّلِ ففيهم ضربا نفعٍ بدنيٍّ :

إذا أقبلَ عليهم بالدعوةِ إلى اللهِ تعالىٰ بعدَ الاستقامةِ في نفسِهِ للهِ تعالىٰ[٣] . . سكنَ النفسُ في صحبةِ الجنسِ طبيعةً[٤] .

والآخرُ : معاملتُهُ إيَّاهم عملَ أبٍ برٍّ ، أو سيِّدٍ حُرٍّ ؛ فقد أحبَّهم بإحسانِ

---

(١) الباهُ : النكاح ، ومثله الباءة والباهة .

(٢) في هامش (و) : (مطلب : في أن فتنة العلم أقوىٰ من فتنة المال في كونه سبباً للطغيان) .

(٣) هم التلامذة وعامة الناس الذين يدعوهم إلى الله تعالىٰ بعلمه وعمله ونفسه ، حتىٰ صارت نفسه بتقواه حجة .

(٤) سبق مراراً للمصنف تذكيرُ لفظة (النفس) .

مولاهم إليهِ[1] ، حتىٰ أطاعوهُ كأنَّهم عبيدُهُ بأمرِ اللهِ تعالىٰ وبعثِهم عليهِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

الوقوعُ في ميادينِ الأسىٰ علىٰ زيغِ مَنْ زاغَ ، وميلِ مَنْ راغَ ؛ فقد أرادَ استقامتَهم بحقٍّ ، ودعا لإقامتِهم على الصدقِ ، فيأسىٰ طبعاً مَنِ ارتدَّتْ عليهِ إرادتُهُ ، وفاتَتْهُ مِنْ سعيِهِ بُغْيتُهُ .

والآخرُ : بَخْعُهُ نفسَهُ بعدَ الأسىٰ علىٰ ضلالِهم[2] ، وتحسُّرُهُ علىٰ سَيِّئِ أفعالِهم ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

أحدُهما : ازديادُ حملِ الأمانةِ ؛ فقد كانَ عليهِ حملُ نفسِهِ ، وصارَ عليهِ الآنَ بحُكْمِ اللهِ حملُ جنسِهِ .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ مِنْ أدنىٰ مداهنةٍ لإمكانِ العِشْرةِ ، كما يكونُ مِنْ نفسِهِ لإقامةِ العِيشةِ[3] ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] .

وفيهِ ضربا نفعٍ دينيٍّ :

---

(١) أي : أحبَّ هـٰذا العالِمُ الفاضل الناسَ وتلامذته بسبب أن الله تعالىٰ أحسن إلىٰ هـٰذا العالم بالعلم والفضل ، فيحبُّ عبيدَ محسنه ومكرمِهِ ، وهـٰذا ينشأ ضرورة عن الطبع ، وهو معروف بين الناس ؛ الإنسان عبد الإحسان . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) بخع نفسه : قتلها من وَجْدٍ أو غيظٍ .

(٣) أي : كما يداهن نفسه ولا يُغلِّظ عليها لإقامة المعيشة ، ويمضي عليه الزمان والمدَّة . . يداهن الناس ليمكنه معهم المعيشة والمعاشرة ، ولا يتغلَّظ عليهم للمساكنة . انتهىٰ من هامش (و) .

أحدُهما : اشتغالُ بصرِ القلبِ عنِ النظرِ فيما لا يعنيهِ ، بالنظرِ فيما يعنيهِ ، مِنْ أحوالِ جنسِهِ عن محبَّةٍ فيهِ[1] ، فالنفسُ عندَ الخلوةِ في الأغلبِ تورثُ الوساوسَ الرديَّةَ ، وتوقعُهُ في كلِّ بليَّةٍ ؛ ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الواحدُ شيطانٌ ، والاثنانِ شيطانانِ ، وثلاثةٌ رَكْبٌ »[2] ، واللهُ تعالىٰ حرَّمَ الرهبانيةَ في الإسلامِ ، هـٰذا نفعٌ طبيعيٌّ .

والآخرُ : بعملِنا ؛ وهوَ النصيحةُ عن حقيقةٍ ، حتىٰ يثبتوا على الطريقةِ ، فيصيروا لهُ أتباعاً ، وخادمينَ أشياعاً ، إلىٰ كفايةٍ لهُ بأعمالِهم[3] ، ثم إبقاءُ الذكرِ وإحرازُ الأجرِ بمَنِ اقتدىٰ بأفعالِهم[4] ؛ علىٰ ما قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سنَّ سُنَّةً حسنةً فلهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها إلىٰ يومِ القيامةِ »[5] .

---

(١) أي : تنشأ هـٰذه المحبة من ذاته وفي دخْلتِهِ ، لا من الظاهر وترغيب الغير ، بل من الباطن ورغبة وداعية فيه . انتهىٰ من هامش (و) ، والدخلة ـ بتثليث الدال ـ : النية ، والمذهب ، وجميع أمر المرء .

(٢) رواه أبو داود (٢٦٠٧) ، والترمذي (١٦٧٤) وحسنه ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧٩٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٣) أي : يكفونه مهماته ويكفلونه بأعمالهم ، ويقومون بمصالح هـٰذا العالم الفاضل الصديقي بأموالهم وأعمالهم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : يبقىٰ له الذكر ، ويُدَّخر له الأجر ؛ بسبب من اقتدىٰ به بالأفعال والأعمال ؛ أي : يقتدون به فعلاً ، لا يقولون : نقتدي بفلان العالم بالقول ، بل يقتدون بالفعل ، والضمير في (**أفعالهم**) : راجع إلىٰ من اقتدىٰ ، فلهـٰذا ذكره بالجمع . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) رواه مسلم (١٠١٧) من حديث سيدنا جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

[حالُ الجاهلِ باللهِ تعالىٰ]

وأمَّا المكروهُ ـ وهوَ الجهلُ باللهِ تعالىٰ ـ ففيهِ ضربا ضررٍ بدنيٍّ :

استكانتُهُ طبعاً ؛ إذْ وجدَ نفسَهُ محتاجةً إلىٰ ما في أيدي الورىٰ ، متمنِّيةً إصابةَ ما تهوىٰ ، عاجزةً عن تنفيذِ المرادِ ، إلا بالرجوعِ إلى العبادِ .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ شكواهُ إلىٰ مَنْ يبغضُهُ بطبعِهِ ، أو يَشمَتُ بهِ في دَقْعِهِ[1] .

وفيهِ ضربا نفعٍ بدنيٍّ للحالِ :

إصابةُ الحريَّةِ ، عن رقِّ العبوديَّةِ .

والآخرُ : عملُهُ بما يهوىٰ ، في نعمةِ الدنيا وصحبةِ الورىٰ .

وفيهِ ضربا نفعٍ شرعيٍّ للدنيا :

البراءةُ عن ضمانِ ما أتلفَ مِنَ المالِ ، أو قتلَ مِنَ الرجالِ ، ما دامَ حرباً .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ المعاهدةُ معَ أهلِ القوَّةِ بالإسلامِ ؛ ليصيرَ منهم في حقِّ أحكامِ أهلِ الدنيا بشرعِ المولىٰ ، علىٰ أنْ يُتركَ وما يهوىٰ ، ممَّا ليسَ للمسلمينَ فيهِ أذىً .

وفيهِ ضربا ضررٍ شرعيٍّ :

هدرُ نفسِهِ ، وصيرورتُهُ عُرضةً للتملُّكِ في جهلِهِ بحكمِ اللهِ تعالىٰ لجنسِهِ[2] .

---

(١) يقال : دَقِعَ يدقَعُ ؛ إذا لصقَ بالدقعاء ذُلّاً ؛ وهي التراب .

(٢) أي : لجنس الناس . انتهىٰ من هامش (هـ) .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ مِنْ إيذاءِ المسلمينَ ، وتكذيبِ الرُّسُلِ ، والخصومةِ عن دينِهِ ، والنصرةِ لقومِهِ .

[حالُ العالمِ التاركِ للدعوةِ]

وأمَّا النوعُ الآخرُ ـ وهو تركُ الدعوةِ إلى اللهِ تعالىٰ معَ الإمكانِ ، وتقريرُ الناسِ بالتركِ علىٰ معاصيهم بإيثارِ العزلةِ عنهم ـ ففيهِ ضربا ضررٍ بدنيٍّ :

الوَحْشةُ في الخلوةِ عنِ الجنسِ ؛ فإنَّها مِنْ نتائجِ طبعِ النفسِ .

والآخرُ : بصنعِهِ ، قلقُهُ في الوحشةِ ، حتىٰ يصيرَ إلى الدهشةِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ بدنيٍّ :

الراحةُ عنِ احتمالِ متباينِ الأخلاقِ .

والآخرُ : بصنعِنا ؛ وهو إسكانُ قلقِ الوحشةِ بعوضِ الراحةِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ دينيٍّ :

أحدُهما : الوقوعُ في وساوسِ النفسِ علىٰ ما مرَّ ذكرُهُ(١) ، وإنَّهُ أمرٌ طبعيٌّ .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ استحسانُهُ حالَهُ عُجْباً بخلوتِهِ ، وعَيْبُهُ الناسَ على العِشْرةِ حتىٰ يصيرَ ممقوتاً .

وفيهِ ضربا نفعٍ دينيٍّ :

خِفَّةُ أمرِ الجهادِ ؛ فقد بقيَ معَ نفسٍ واحدةٍ ، والنجاةُ عن فتنةِ الناسِ .

---

(١) تقدم (ص٥٢٦) .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ صحبةُ اللهِ تعالىٰ بالعبادةِ والذكرِ ، مكانَ صحبةِ الداعي الناسَ بالتعليمِ والنشرِ .

وأمَّا أقسامُ ثمراتِ المباشرةِ عملاً بما علمَ : فعلىٰ نحوِ أقسامِ المباشرةِ مِنَ البابِ الأوَّلِ تناولاً لما ملكَ .

[حالُ قلبِ العالمِ العاملِ]

أمَّا النوعُ الذي فيهِ حياةُ قلبِهِ فإذا عملَ بهِ حتىٰ إذا استقامَ لربِّهِ أصابَ الروحُ نوعَيْ نفعٍ :

تفكُّهُ الروحِ بمُنْيَتِهِ ، مكانَ تفكُّهِ النفسِ بتناولِ المالِ بشهوتِهِ ، وصيرورةُ العالَمِ مرآةً لقلبِهِ ، تريهِ أينَما التفتَ وجهَ ربِّهِ ، وهـٰذهِ مِنْ كرامةِ اللهِ تعالىٰ بغيرِ صنعِهِ ، فصارَ العالَمُ لهُ قلباً ، إنِ ازدادَ الجسمُ بتناولِ الغذاءِ طولاً وعرضاً .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

أحدُهما : بطبعٍ ؛ وهو تولُّدُ خُبْثِ العُجْبِ بقُرْبِ المنزلةِ ؛ كخبثِ النجاسةِ مِنَ الأغذيةِ .

والآخرُ : ضررٌ بصنعٍ ؛ وهوَ الجهادُ لإخراجِ العُجْبِ بالدخولِ تحتَ إيوانِ المِنَّةِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ للبدنِ :

قيامُ حُكْمِ اللهِ تعالىٰ بإتيانِهِ رزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ ، ولم يتعنَّ لهُ ولم يكتسبْ .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ وهو أكلُهُ كيفَ يشاءُ رغداً ، ما عاشَ أبداً .

وفيهِ ضربا ضررٍ لهُ :

عزوفُهُ عنِ الغذاءِ والعَشاءِ ، بسكونِهِ في اللقاءِ[1] .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ التصبُّرُ عليهِ محبَّةً لما هو فيهِ .

[مباشرةُ المكروهِ في أحوالِ الروحِ]

وأمَّا أقسامُ تَبِعاتِ مباشرةِ المكروهِ مِنْ هٰذا البابِ : فعلىٰ ضروبِ أقسامِ الأدويةِ مكانَ الطعامِ والشرابِ ، فتبعاتُ مباشرةِ المكروهِ عقوباتٌ عُجِّلَتْ في الدنيا للزجرِ ؛ كالأدويةِ المُرَّةِ فيما مرَّ ، فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

للبدنِ ضربا ضررٍ فيما يُستوفىٰ مِنَ التبعاتِ :

أحدُهما : الألمُ بلا صنعٍ منهُ بضربِ الإمامِ جَبْراً[2] .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ السخطُ علىٰ حُكْمِ اللهِ ليزدادَ بهِ ألمُهُ جهلاً[3] .

ولهُ ضربا نفعٍ :

السلامةُ عن مثلِهِ بالانزجارِ عن سببِهِ طبعاً لضعفِهِ .

والتنبُّهُ للتأمُّلِ ليقفَ علىٰ قبحِ فعلِهِ ، فلا يعودَ إلىٰ أصلِهِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ للروحِ :

أحدُهما : بلا صنعِهِ ؛ وهوَ النجاةُ عن هوى النفسِ بخمودِ نارِهِ ، بما لحقَهُ مِنَ الألمِ وضِرارِهِ .

---

(١) في (و) : (سكرته) بدل (بسكونه) .

(٢) يعني : كإقامة الإمام الحدَّ عليه ؛ كحدِّ الزنىٰ مثلاً .

(٣) لأنه إذا سخط ولم يرضَ كان ألمه أزيدَ ممَّا إذا رضي ؛ لأنه يعلم أنه طهرةٌ له ، فيهون الألم . انتهىٰ من هامش (هـ ، و ، ز) .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ الظفرُ عليهِ ؛ فقد خمدَتْ نارُهُ ، وسكنَتْ شَرَارُهُ .

وفيهِ ضربا ضررٍ للروحِ :

نفرةُ القلبِ طبعاً ، عمَّنْ أذاقَهُ الضربَ شرعاً ، كنفرتِهِ في البابِ الأوَّلِ عنِ الطبيبِ الذي سقاهُ الدواءَ ، وإنْ عرفَ فيهِ الشفاءَ[1] .

والآخرُ : بصنعٍ منَّا ؛ خروجُ النفسِ مكابراً ، إذا وجدَ القلبَ نافراً ، حتىٰ تردَّهُ عنِ اللهِ تعالىٰ مجاهراً .

[حالُ العالِمِ في المباشرةِ]

وأمَّا أقسامُ المباشرةِ مِنَ المحبوبِ الآخرِ بالعِشْرةِ والدعوةِ ففيهِ ضربا نفعٍ للروحِ :

إصابةُ الجاهِ في الورىٰ .

والآخرُ : بلا صنعٍ منهُ ؛ هدايةُ القلوبِ بعلمِهِ ، حتىٰ صاروا أحياءً كقلبِهِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ حاليٍّ :

ضَعفُ قُوى الخلوةِ بالمولىٰ ، وسُخْنةُ العينِ بعِشْرةِ الورىٰ طبعاً .

ثمَّ الجهادُ فيهِ بأمرِ اللهِ تعالىٰ طاعةً لهُ طوعاً[2] ، وحَمالةِ مؤنِهم كرهاً[3] .

وفيهِ ضربا نفعٍ للروحِ :

بقاءُ حياةِ القلوبِ بالتعلُّمِ خَلَفاً بعدَ سلفٍ إلىٰ يومِ القيامةِ ، ولذلكَ علَّقَ اللهُ

---

(١) انظر ما تقدم (ص٣٨٦) .

(٢) الجهاد فيه : في اختلاط الناس . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٣) الحَمالة : ما تتحمَّلُهُ عن القوم من الدية أو الغرامة ، وجاء نحو ذلك في هامش (هـ) .

تعالى التعليمَ بضربِ شهوةٍ في النفوسِ ؛ لتكونَ داعيةً إليهِ ، وباعثةً عليهِ ؛ كشهوةِ الجماعِ فيما مضىٰ مِنَ الفصلِ الذي هو لهـٰذا مثلٌ ؛ التعليمُ بصنعِنا ، وحياةُ القلوبِ بصنعِ اللهِ تعالىٰ ، ما لنا فيهِ مِنْ صنعٍ ؛ كحياةِ النطفةِ في الأرحامِ ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

والآخرُ : بصنعِنا ؛ وهو شكرُ اللهِ تعالىٰ علىٰ ما يرىٰ نفسَهُ سبباً لحياةِ القلوبِ بالدينِ والمعرفةِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ للروحِ :

ثبوتُ العداوةِ بينَهُ وبينَ مخالفيهِ ديناً ؛ فإنَّها تنبعثُ طبعاً .

والآخرُ : لنا فيهِ صنعٌ ؛ وهوَ الجهادُ(١) .

[بيانُ علماءِ السَّوءِ]

وأمَّا أقسامُ مباشرةِ ضدِّ ما قلناهُ : فدعاةُ الخلقِ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ العلماءِ الذينَ هم علماءُ اسماً ، لا فقهاً وعِلْماً ، أو علماءُ حقيقةً ، لا عقيدةً وطريقةً ؛ لأنَّ العالِمَ اسماً ، لا معرفةً وعلماً . . لا تكادُ تقعُ دعوتُهُ إلا علىٰ سبيلِ الإضلالِ ؛ لأنَّهُ ما عرفَ الحقَّ وما بعدَ الحقِّ إلا الضلالُ .

والذي يعلمُ ولا يعتقدُ العملَ بهِ ، بل هو على العملِ بهواهُ ، وإنْ علمَ أنَّهُ

---

(١) يعني : جهاد المخالفين له في الدين بعد دعوتهم ، وإيضاح البراهين ، وكشف الشبهات ، وإقامة الحجة ، كلُّ ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ثم جهادهم بما هو مقرر في كتب الفقه بشروطه وضوابطه ، وقد مرَّ طرفٌ من الحديث عن ذلك (ص٣٦٣) .

خلافُ هداهُ . فهو شرٌّ مِنَ الجاهلِ ؛ لأنَّهُ يُضِلُّ قصداً أو عمداً[1] ، والجاهلَ يُضِلُّ غفلةً وسهواً .

وكانَ إبليسُ حيثُ عرفَ أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ الحقُّ ولـٰكنِ اعتقدَ العملَ بهواهُ ، وكذلكَ فرعونُ علىٰ ما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ وحكاهُ[2] .

فهـٰؤلاءِ قومٌ جعلوا العلمَ وذكرَ اللهِ تعالىٰ آلةً لدعوةِ الناسِ إلىٰ أنفسِهم ليتَّخذوهم أرباباً ؛ كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١][3] ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

فهـٰؤلاءِ قومٌ ما فسدَتِ الأديانُ ولا تبدَّلَتِ السُّنَنُ إلا بهم ، وإنَّهم مِنَ الشياطينِ الظاهرينَ ، والعياذُ باللهِ ربِّ العالمينَ ، فتموتُ القلوبُ بالعلماءِ اسماً وتَنْتَنُ بالعلماءِ الآخرينَ .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

ضررُ الجهادِ بالحِيَلِ لصيدِ الناسِ .

---

(١) العمد أبلغ من القصد ؛ لأن العلم بالمقصود داخل في العمد ، دون القصد . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

(٢) قال تعالىٰ في حق فرعون وقومه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾ [النمل : ١٤] ؛ يعني : الآيات التسع التي جاء بها سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقال سبحانه حكاية عنه : ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] .

(٣) إذ لا حكمَ إلا لله ، ولا تشريع إلا عنه سبحانه ، ولهـٰذا قال العلماء في حقِّ المجتهدين : إن الأحكام التي يتكلمون بها هي من الدين قطعاً ، غاية الأمر : أن المجتهد يعاني إظهارها والاستدلال عليها بقواعد الشرع ، ولا مدخل له في وضعها . انظر « حاشية الأمير علىٰ إتحاف المريد » (١/ ٢٢٢) .

وضررُ موتِ القلبِ بذهابِ نورِ العلمِ بظُلَمِ الوسواسِ .

وفيهِ ضربا نفعٍ للنفسِ :

أنْ يكونَ ربّاً عالياً موقَّراً بينَ العامَّةِ الذينَ ظنُّوهُ عالماً ، بلا صنعٍ منهُ .

والآخرُ : بصنعِهِ ؛ يأمرُهم وينهاهم ، ويستعبدُهم كأنَّهُ ربُّهم .

وفيهِ ضربا نفعٍ للروحِ :

عرفانُ عجزِها عنِ الهدايةِ إلا بربِّهِ ، وأنَّهُ يقعُ نفعٌ لهُ بغلبةِ النفسِ عليهِ ، بلا صنعٍ منهُ .

والآخرُ : لهُ فيهِ صنعٌ ؛ الالتجاءُ إلى اللهِ تعالىٰ مستعيناً ، فذلكَ سببُ إصابةِ الظفرِ .

وفيهِ ضربا ضررٍ :

ضررُ اليأسِ والقنوطِ في حالِهِ ؛ فإنَّهُ طبيعيٌّ .

وضررُ العقيدةِ علىٰ ما أشارَ إليهِ طبعُهُ ونفسُهُ ، فيكونُ كفراً ، أو كانَ لو ردَّ ما أشارَ إليهِ الطبعُ وقعَ ما وقعَ بهمَّةِ النفسِ عَفْواً ، هـٰذا ليعلمَ العبدُ **أنَّ الأحوالَ التي تختلفُ عليهِ جَبْراً في الخيرِ والشرِّ سواءٌ**[1] ، فيرضىٰ بها كيفَما دارَتْ ، فلا يضيقُ قلباً بالسخطِ ، ولا يخسرُ عاقبتَهُ بالقلقِ ، **والأعمالَ في النفعِ والضرِّ سواءٌ للحالِ** ، فلا يخالفُ ربَّهُ بلا فائدةٍ ، ولا يحرمُ نفسَهُ خيرَ الطاعةِ بلا عائدةٍ ، وما التوفيقُ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ .



---

(١) لأن الخير مشوبٌ بالشرِّ ، والشرَّ مخلوط بالخير كما سبق ، فكانا سواءً ، فلا بدَّ من الرضا ؛ إذ ضيق القلب سخطاً وقلقاً لا يدفع عنه الشر ، ولا يجلب إليه الخير . انتهىٰ من هامش (هـ ، و ، ز) .

فصل الحيلة (١)

أما بعد :

فقد علمتَ أيُّها الأخُ أنَّكَ عبدٌ فقيرٌ مأمورٌ مسجونٌ ، وأنَّ حظوظَكَ مِنَ الدنيا كلَّها مشوبٌ خيرُها بشرِّها ، ومدفوعٌ نفعُها بضَرِّها ، **وإنَّكَ قد عَلَتْ بكَ همَّتُكَ فسعيتَ للأمدِ الأقصىٰ ؛ مِنَ الحريَّةِ والإمارةِ والمُلْكِ والغنىٰ** ؛ لتخرجَ عن نقصانِ الحالِ ، إلىٰ ذروةِ الكمالِ ، وتُصفَّىٰ حظوظُكَ مِنَ الشوبِ ، ولم تَنَلْ إلا بعدَ زوالِ الدنيا ، وعملٍ علىٰ طاعةِ المولىٰ .

فأقبلتَ على العملِ ، واستهنْتَ بالزائلِ إلىٰ أجلٍ ، **فأبشرْ بالأمدِ الأقصىٰ** ، فقد استمسكْتَ بالعروةِ الوثقىٰ ، واحتلْ لسَتْرِ ما هو للحالِ ، بتسميةِ الشرعِ إصرٌ وأحمالٌ(٢) ، **فما الحيلةُ بقبيحةٍ إذا لم تكنْ غدراً ، ولا السَّتْرُ بذميمٍ إذا لم يكنْ كُفْراً** .

---

(١) أي : الحيلةِ لطاعة الروح الأمَّارة بالخير ، ومعصية النفس الأمَّارة بالسوء . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، وعن الحِيَلِ الشرعية قال العلامة الإمام السَّرَخْسيُّ في « المبسوط » (٣٠/ ٢٠٩) : (إن الجهَّال ينسبون علماءنا رحمهم الله إلىٰ ذلك علىٰ سبيل التعيير ، فكيف يُظنُّ بمحمد رحمه الله أنه سمَّىٰ شيئاً من تصانيفه بهٰذا الاسم ليكون ذلك عوناً للجهَّال ؟!) ، ثم قال : (والدليل علىٰ جوازه من الكتاب : قوله تعالىٰ : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [صٓ : ٤٤] ، هٰذا تعليمُ المخرجِ لأيوب عليه السلام عن يمينه التي حلف ليضربن زوجته مئة) ، ثم ذكر حيلة سيدنا يوسف علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام في جعل السقاية في رحل أخيه ، وذكر حيلة من علَّقَ طلاق زوجه ثلاثاً إن كلَّمَ أخاه ؛ بأن يطلقها واحدة ، ثم يكلم أخاه ، ثم يتزوجها .

(٢) أي : لسترِ ما هو إصرٌ وأحمال بتسمية الشرع بالرضا بالقضاء ، والمسارعة إلى الأداء ، =

فاحتلْ لسَتْرِ العبوديّةِ بحُسْنِ الرضا بالقسمةِ ، فلا يظهرُ معَهُ أثرُ القهرِ وتنقلبُ إلىٰ رحمةٍ .

واحتلْ لسَتْرِ الفقرِ ، بضمانِ كفايتِكَ مولاكَ البرُّ ؛ فذلكَ أجدىٰ وأكفىٰ ممَّا يعدُّهُ الجاهلُ مِنَ الغنىٰ .

واحتلْ لما عليكَ مِنَ الأمرِ ، بالمسارعةِ إليهِ قبلَ حينِهِ ؛ فتكونَ ساعياً عن مَشِيّةٍ ، والنظرِ إلىٰ ما فيهِ مِنَ الكراماتِ ؛ فتكونَ واصلاً إلىٰ كلِّ أُمنيّةٍ .

واحتلْ لسَترِ الحبسِ ، بما في الفَكاكِ عنهُ مِنَ الأسرِ .

واحتلْ لسَتْرِ ما في الحظوظِ مِنَ الضَّرِّ ، بترجيحِ جانبِ النفعِ ، فالترجيحُ يعملُ عملَ التفرُّدِ في الدفعِ (١) .

= فالحاصلُ : أن ما يتخلَّصُ به الرجل من الحرام ، أو يتوصَّل به إلى الحلال من الحيل . . فهو حسنٌ ، وإنما يكره أن يحتال في حقٍّ لرجل حتىٰ يبطله ، أو باطل حتىٰ يُموِّهه ، أو في حقٍّ حتىٰ يُدخل فيه شبهة . « مبسوط » ، انتهىٰ من هامش (و) ، وانظر « المبسوط » (٣٠/ ٢١٠) .

وقال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

والأحمال : الأغلال ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٢/ ٣٨١) : (الأغلال تمثيل ، ألا ترىٰ أنك تقول : جعلت هٰذا طوقاً في عنقك ، وليس هناك طوق ، وإنما تأويله : أني قد ولَّيتُك هٰذا وألزمتك القيام به ، فجعلت لزومه لك كالطوق في عنقك) .

(١) يعني : إذا وقع الترجيح كان الراجح منفرداً ، وكأنه لا معارض له أصلاً ؛ لسقوط أمر المرجوح .

واعلمْ أيُّها الأخُ : أنَّ العالَمَ كلَّهُ خُلِقَ للمخاطبينَ ؛ وهمُ الإنسُ والجنُّ والملائكةُ والشياطينُ .

والإنسُ مِنْ بينِهم أضعفُهم جِبِلَّةً ، وأظلمُهم طِينةً ، وقد أُمروا بالسجودِ لآدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لفضلِهِ ، فازدادَتِ الملائكةُ قُرْباً مِنَ اللهِ تعالىٰ بحُسْنِ الانقيادِ للأمرِ ، ولُعِنَ الشياطينُ بما أظهروا مِنَ الكِبْرِ .

وأمَّا الجنُّ : فهم أمَّةٌ لرُسُلِ الإنسِ .

وما أظهرَ اللهُ تعالىٰ فضْلَ آدمَ عليهِ السلامُ إلا بعلمِهِ ، والعلمُ كسبيٌّ بنظرِ القلبِ في نورِ العقلِ ، والنفسُ بظلماتِها حجابٌ ، ما يقدرُ العبدُ علىٰ رفعِهِ إلا بحيلةٍ ، فالنفسُ بهواها غلَّابةٌ جِبِلَّةً ، فكانَتِ الحيلةُ رأسَ مالِ الآدميِّ للظفرِ ، علىٰ أطوارِ البشرِ ؛ بها يقهرُ المتعبِّدينَ مِنَ الأقوياءِ ، ويفضِّلُ المقرَّبينَ مِنَ الأولياءِ ، وبها يروضُ نفسَهُ ، ويسودُ جنسَهُ ، ويُيسِّرُ عليهِ أمرَهُ ، ويشرحُ بالنورِ صدرَهُ ، ويملكُ للحقِّ قلبَهُ ، ويُرضي بالصدقِ ربَّهُ .

ولن يملكَ الآدميُّ عِنانَ الحيلةِ للحقِّ إلا بجهادِ النفسِ ، علىٰ خلافِ عادةِ عامَّةِ الجنسِ ، وبذلكَ العَناءِ والغَناءِ ، فَضَلَ سائرَ العالمينَ في الجزاءِ ، فمنهم مَنْ لم يستعملْها وعملَتْ بهواها ، ومنهم مَنْ يستغني عنها بصفاءِ جواهرِها وقُواها(١) ، فالجزاءُ على العملِ في الحكمةِ بقَدْرِ العَناءِ لهُ والغَناءِ فيهِ ؛ ولهـٰذا كانَ الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ أعظمَ الناسِ بلاءً؛ لمَّا كانوا أعظمَهم جزاءً(٢) .

---

(١) يعني : من الناس من لم يستعمل الحيلة ، وعملت نفسه بهواها ، ومنهم من استغنت نفسه عن الحيلة لصفاء جواهرها وقواها .

(٢) روى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٤٤٠) عن سيدتنا فاطمة بنت اليمان رضي الله عنها =

فهٰذا بيانُ أنَّ الجِبِلَّةَ للآدميِّ رأسُ المالِ ، للترقِّي إلىٰ ذروةِ الكمالِ ، غيرَ أنَّ النفسَ الأمارةَ بالسوءِ تشاركُ الروحَ الأمَّارةَ بالخيرِ في الاستعمالِ ، وتخلِطُ الخيرَ بالشرِّ خلطَ الخمرِ بالماءِ الزُّلالِ ، فإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عن خَلْطِها ؛ فالتمييزُ بعدَ الخلطِ عسيرٌ ، والحفظُ عنِ الخلطِ أيسرُ منهُ بكثيرٍ ، وكما يفضلُ الآدميُّ الملائكةَ بغلبةِ روحِهِ نفسَهُ بحيلٍ عقليَّةٍ وشرعيَّةٍ ؛ تفضلُهُ البهائمُ بغلبةِ نفسِهِ روحَهُ بحيلٍ عقليَّةٍ وبدعيَّةٍ .

ولسْتَ بقادرٍ علىٰ ما دعوناكَ إليهِ إلا بربِّكَ الكريمِ ؛ فدواعي النفسِ ظاهرةٌ ، ودواعي الروحِ باطنةٌ ، فعليكَ بجهادِها أبداً[1] ، عارفاً بعجزِكَ ، متأيِّداً بربِّكَ ، مجاهداً بأمرِهِ ، موقناً بنصرِهِ ، فقد ضمنَهُ اللهُ تعالىٰ لمَنْ أخلصَ لهُ بسرِّهِ ، واطمأنَّ إليهِ بصدرِهِ ؛ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

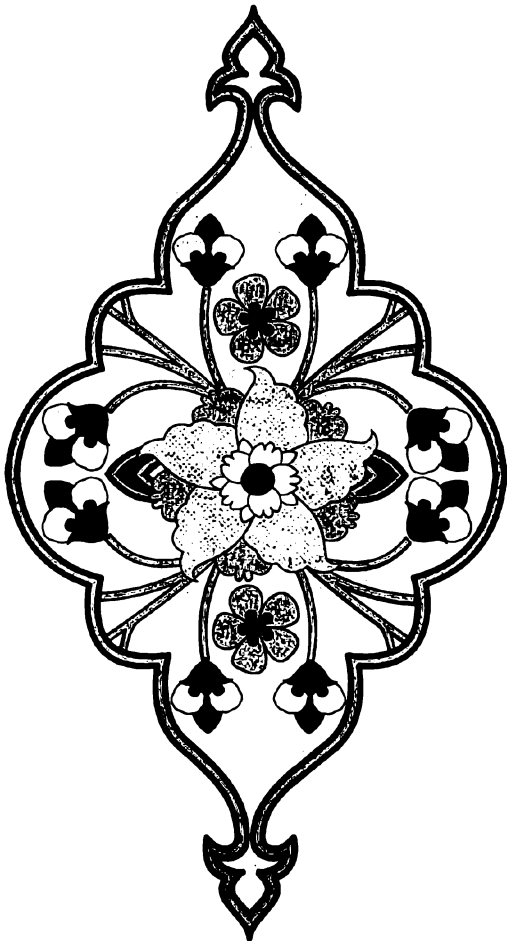
ويقولُ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ ﴾ [الطلاق : ٣] .



= مرفوعاً : « إن أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » .

(١) وفي « الرسالة القشيرية » (ص٢٢٦) : (قيل للنصراباذي : إن بعض الناس يجالس النسوان ويقول : أنا معصوم في رؤيتهنَّ ، فقال : ما دامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهي باقٍ ، والتحليلَ والتحريم مخاطب به ، ولن يجترئ على الشبهات إلا من تعرَّض المحرَّمات) .


[كِتَابُ
الدَّعْوَةِ والرُّؤْيَةِ
والبِشَارَةِ]



كتاب
الدعوة والرؤية والبشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي أكرمَ عبادَهُ بالطينةِ الطيِّبةِ الصافيةِ ، والصورةِ السويَّةِ الوافيةِ ، وخصَّهم بالدعوةِ إليهِ بحُجَجٍ داخلةٍ فيهم خفيَّةٍ ، وحُجَجٍ خارجةٍ دونَهم جليَّةٍ ، وهداهم إليهِ برؤيةِ المَلَكوتِ قلباً ، وأقرَّ قلوبَهم برؤيةِ المُلْكِ سِرّاً .

والصلاةُ على الرسولِ المكرَّمِ بمنزلةِ المشاهدةِ ، بعدَ منزلةِ المجاهدةِ[1] ، بنورٍ كانَ الماضونَ بهِ عُرُوقاً لهُ أشياعاً ، والباقونَ فروعاً لهُ أتباعاً[2] ، فأضحىٰ بهِ قلباً يطيعُهُ الرِّجْلُ ولا يخالفُهُ الرأسُ[3] ، وعلىٰ ورثتِهِ سَبَباً[4] ، وعترتِهِ نَسَباً .

قالَ العبدُ وما توفيقُهُ إلا باللهِ :

إنِّي ذكرتُ لكَ أيُّها الأخُ مِنْ حديثِ النفسِ والروحِ ، وكيفيةِ الجهادِ الذي

---

(١) فيه إشارة إلىٰ إثبات رؤية النبيِّ صلى الله عليه وسلم لربِّهِ سبحانه في الدنيا بخبر المعراج المشهور ، وانظر « إشارات المرام » (ص٣١٧) .

(٢) أراد بالماضين : من مضىٰ قبله من الأنبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، وبالباقين : أمتَهُ صلى الله عليه وسلم وورثته من الأولياء والزاهدين ، وفي هامش (و) : (أي : صار النبي قلباً ؛ أي : بذلك النور ، حتىٰ قال : « رأىٰ قلبي ربِّي ») .

(٣) أراد بالرأس : السابقين من الأنبياء ، وبالرِّجْلِ : اللاحقين من الأولياء .

(٤) سبق (ص٣٩٩) أن سبب الوراثة هو العلم .

امتُحِنَّا بهِ في الدنيا للوصولِ إلى الأمدِ الأقصىٰ . . **ما كانَ مدخلاً لهـٰذا البابِ الذي انتهىٰ إليهِ فصْلُ الخطابِ**(١) ؛ فالقلوبُ صادفناها وحشيَّةً عنِ الأرواحِ تألفُ النفوسَ ، ما يمكنُنا صيدُها للأرواحِ إلا بسحرٍ(٢) ، ولا تُسحَرُ عيونُها إلا بتقريبٍ ولُطْفٍ ، متبرِّكينَ بدعوةِ خالقِ الخليقةِ ، فقد نقلَهم عن منزلٍ إلىٰ منزلٍ إلى الحقيقةِ(٣) .

فقالَ : لقد علمتُ القصدَ مِنَ الطريقةِ ، وأقلقْتَني بما قلتَ ؛ فقد كنتُ علىٰ أنَّكَ ذكرتَ لي كلَّ دقيقةٍ(٤) .

قلتُ وللهِ المِنَّةُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الدارَ دارينِ ؛ **الدنيا دارَ شُبْهةٍ وحُجَّةٍ وفناءٍ** ، وعملٍ علىٰ سبيلِ الابتلاءِ ، عن تدبُّرٍ واختيارٍ بلا مشيَّةٍ لبشرٍ ، بل بأمرِ اللهِ الأكبرِ ، مقرونٍ بقَدَرٍ ، وحُكْمٍ ماضٍ عليهم في أصلِ القسمةِ ، واجبٍ في الحكمةِ ، **والآخرةَ دارَ يقينٍ وخلودٍ وجزاءٍ** ، علىٰ وِفاقِ عملِ العبدِ ؛ للمتقينَ علىٰ ما يشاؤونَ ويشتهونَ ، وللكافرينَ علىٰ ما شاءَ اللهُ ممَّا يكرهونَ(٥) .

فالدارانِ خُلِقَتا لأصنافٍ أربعةٍ : الملائكةِ ، والشياطينِ ، والجنِّ ، والإنسِ .

---

(١) وهو سبب الوصول إلى الأمد الأقصى . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) يعني : لا يمكن تقييد القلوب وتسخيرها للأرواح إلا بتكلُّفٍ وحيلة كالسحر .

(٣) سيأتي تفصيل التنقُّل في المنازل (ص٦٥٠) .

(٤) كأن الأخ كان مطمئناً لما قاله له مما سبق ، وليس وراء ما قال أمر ، إلىٰ أن جاء هـٰذا الكتاب .

(٥) قال تعالىٰ في حقِّ جزاء المؤمنين : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور : ٢٢] ، وقال تعالىٰ في حقِّ جزاء الكافرين : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ : ٥٤] .

والإنسُ ـ واللهُ أعلمُ ـ همُ المفضَّلونَ إذا أقاموا الحقوقَ واستقاموا على الطريقِ علىٰ ما قلناهُ مِنْ قبلُ[1] ، وجرى الكلامُ فيهِ فصلاً بعدَ فصلٍ ، فصارَ إذاً خَلْقُ العالمِ كلِّهِ للإنسانِ ، والإنسانُ خُلِقَ وعليهِ معرفةُ الرحمـٰنِ[2] ، بلا شكٍّ علىٰ تصديقٍ وإيمانٍ وإيقانٍ ، عن نظرٍ واستدلالٍ بالآياتِ لا عن جَبْرٍ ، حقٌّ عليهِ ذلكَ ـ شاءَ العبدُ أو أبىٰ ـ بحُكْمِ اللهِ الأعلىٰ[3] ، ثم إسلامٌ لأمرِهِ بلا تمنُّعٍ ، وإخلاصٌ لهُ بعملِهِ بلا تصنُّعٍ ، ثم دعوةُ خلقِهِ إليهِ للعبادةِ ، بلا كسلٍ ولا فشلٍ ولا هَوَادةٍ .

[تعاليهِ سبحانَهُ عنِ العبثِ والعجزِ والسفهِ دالٌّ علىٰ وجودِ حكمةِ العبادةِ مِنَ المكلَّفِ]

وذلكَ : لأنَّ الصنعَ بلا عاقبةٍ حميدةٍ عبثٌ[4] ، وعلىٰ فناءٍ بعدَ أنْ حُمِدَتْ عاقبتُهُ عجزٌ أو سفهٌ ، وتعالىٰ مبدعُ هـٰذا العالمِ عنِ العبثِ والعجزِ والسفهِ ، وما للصنعِ في الشاهدِ عاقبةٌ حميدةٌ عقلاً إلا قِوامُ مصلحةِ الصانعِ لهُ في

---

(١) انظر ما تقدم (ص١٢٥) .

(٢) يعني : تجب عليه معرفة الرحمـٰن سبحانه وتعالىٰ حينما يتأهَّل للنظر والتمييز ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ؛ يعني : ليعرفوني ؛ روىٰ ذلك الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وأما بشأن خلق العالم للإنسان : فآيات تسخيره للإنسان في القرآن عديدة ؛ منها قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

(٣) أي : معرفة الله تعالىٰ بالاختيار بلا كرهٍ وإجبار . . واجبةٌ عليه . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٤) انظر ما سبق (ص٣١٠) في نفي تصوُّر العبث أصلاً عن فعل الله سبحانه وتعالىٰ .

حالِهِ[1] ، أو ظهورُهُ بذلكَ الصنعِ ليُعرفَ بجلالِهِ[2] ، وتعالى اللهُ عنِ الأولىٰ ، فتعيَّنَتِ الأخرىٰ .

ولن تقعَ المعرفةُ إلا إذا تفكَّرَ بقلبِهِ ، واستدلَّ لخَطْبِهِ[3] ، ولن تتمَّ المعرفةُ إلا إذا أيقنَ ، ولن تثمرَ إلا إذا أسلمَ ، ولن تطيبَ إلا إذا أخلصَ ، ولن تعمَّ إلا إذا دعا .

وما لغيرِ الإنسانِ ممَّنْ نحسُّهُ آلةُ معرفةِ الغائبِ عنِ الحواسِّ[4] ، فعُلِمَ : أنَّ هٰذهِ المعرفةَ مطلوبةٌ مِنَ الناسِ ، وغيرَهم خُلقوا لهم كرامةً ؛ لئلا يكونَ الخَلْقُ بلا حكمةٍ عبثاً وسفاهةً[5] .

---

(١) يعني : الغايةُ من الصُّنعِ فيما نشاهده ـ لنقيس الغائب عليه ـ عقلاً . . راجعةٌ إلىٰ تحصيل فائدة ينتفع بها الصانع .

(٢) أي : بمعرفة الله تعالىٰ بصفات الكمال . انتهىٰ من هامش (و) ، والمحقِّقون أطلقوا وصفَ التعرُّف من الله تعالىٰ إلىٰ عباده ، فتعرَّف سبحانه بأفعاله لكلِّ خلقه ؛ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، وإلىٰ خواصِّهم بصفاته ؛ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١] ، وإلىٰ خاصَّة خاصَّته بذاته ؛ ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، وقال الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص١١٦) : (اعلم : أن الله سبحانه تعرَّف لآدم بالإيجاد ، فناداه : يا قدير ، ثم تعرَّف إليه بتخصيص الإرادة ، فناداه : يا مريد ، ثم تعرَّف إليه بحُكْمه لمَّا نهاه عن الأكل من الشجرة ، فناداه : يا حاكم ، ثم قضىٰ عليه بأكلها ، فناداه : يا قاهر ، ثم لم يعاجله بالعقوبة إذْ أكلها ، فناداه : يا حليم ، ثم لم يفضحه في ذلك ، فناداه : يا ستَّار . . .) ، وسيأتي (ص٥٤٨) قول الإمام المصنف : (تبارك الله من ربٍّ أزليٍّ دبَّرَ ليظهر بجبروته لعبيده بإراءة آثار صنعه) .

(٣) أي : بعظم أمره . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) جنس الإنسان : الاتصاف بالحياة ، وفصله : الناطقية التي هي التعقُّل ، وإدراك الإنسان بعقله أعمُّ من إدراكه بالحواسِّ الخمس التي يشاركه فيها الحيوان .

(٥) هٰذا هو المعتمد عند السادة الماتريدية ـ والإمام المصنف من أئمتهم ـ من كون خَلْقِ العالم =

ثم هـٰذهِ المعرفةُ وجدْناها حاصلةً لبعضِهم دونَ البعضِ ، ولن تثبتَ ـ واللهُ لا يُنالُ بالحواسِّ ـ إلا بنظرٍ عقليٍّ فيما هو حجَّةٌ ، ولن تفوتَ ـ وهم عقلاءُ ـ إلا بشبهةٍ ، ولن يتنوَّعَ الفعلانِ ـ والأمرُ واحدٌ ـ إلا بعدمِ الجَبْرِ(١) .

ومَنْ تأمَّلَ في نفسِهِ وجدَ لها دعوةً إلىٰ موافقةِ الهوىٰ ، ومخالفةِ الهدىٰ ، فيعلمُ أنَّهُ مُبتلىً ، ولمَّا أيقنَ الإنسانُ بفَنائِهِ والدارُ مخلوقةٌ لهُ(٢) . . علمَ أنَّها علىٰ

= للفناء دون وقوع تكليف . . سفهٌ وعبث وعجزٌ يتنزَّه عنه القديم سبحانه .

قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٤) وهو يستدلُّ علىٰ أن السمع والعقل هما أصل ما يعرف به الدين : (وأما العقل : فهو أن كون هـٰذا العالم للفناء خاصَّة ليس بحكمة ، وخروجَ كلِّ ذي عقل فعلِهِ عن طريق الحكمة قبيحٌ عنه ، فلا يحتمل أن يكون العالم الذي العقل منه جزء مؤسَّساً علىٰ غير الحكمة ، أو مجعولاً عبثاً ، وإذا ثبت ذلك دلَّ أن إنشاء العالم للبقاء ، لا للفناء) ، ثم ذكر ما حاصله هنا .

وقال (ص١٠٠) : (ولأن الله خلق خلقاً يدلُّ علىٰ وحدانيته وحكمته ، فلم يجز إخلاء الخلق عن معرفة ذلك فيصيرَ خلقه عبثاً) .

وأما عند السادة الأشعرية : فخلقُ العالم والتكليفُ وغيرهما ككلِّ فعل له سبحانه ؛ لا يلزم عنه فعلٌ آخر ؛ بمعنىٰ : أنه سبحانه لو فعلَ فعلاً ما . . لا يلزمه استتمامه الحاصل بنظرنا ، وإنما وجب التكليف شرعاً ، لا عقلاً ، ودليله الشرعي : قوله تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] ؛ يعني : من غير تكليف ؟! قال إمام المحقِّقين ابنُ دهاق في « نكت الإرشاد » (١/ق١٦) : (التكليف من الله تعالىٰ للعبد جائز وليس بواجب ، ولو أن الله تعالىٰ ترك الخلق كلَّهُ مهملاً كسائر الحيوان لجاز ذلك عند أهل السنة) ، وبهـٰذا يتحقَّق كمال الغنىٰ عن العالمين .

(١) في هـٰذه القطعة النصِّيَّة النفيسة : أن المعرفة المطلوبة شرعاً خاصَّة بالمكلَّفين ، وأنها لا تكون ثابتة إلا مع دليل عقلي قطعي ، وأن الشارع لم يكلِّف غير العقلاء ، فإن لم يعرفوا مولاهم فلشبهة غلبت علىٰ عقولهم إن لم يتركوا النظر ، ولمَّا ثبت وجود عارف وجاهل بالله تعالىٰ ثبت الاختيار بالنسبة للعبد ، وانتفى الجبر ، والمقصود بالفعلينِ : الطاعة والمعصية .

(٢) المراد بالدار : الدنيا ، وهي كذلك في (ب ، ز) .

سبيلِهِ[١] ، ولمَّا تغيَّرَتِ الأحوالُ وفاتَتِ الأغراضُ بغيرِ رضاهُ[٢] . . أيقنَ بقَدَرٍ ماضٍ بدليلِهِ ، ولمَّا علمَ أنَّهُ مخلوقٌ للمعرفةِ وقد فاتَتْ عنِ البعضِ بشبهةٍ ، وساوى العارفَ في النعمةِ[٣] ، وهو قبيحٌ في الحكمةِ . . أيقنَ بدارٍ أخرىٰ ذاتِ حُجَجٍ ظاهرةٍ تنفي الشبهةَ ، وآياتٍ قاهرةٍ تبطلُ التعنُّتَ والمنعةَ ؛ ليكونوا كلُّهم عارفينَ إيَّاهُ ، كما خلقَهم لها اللهُ ، هي جزاءُ أعمالِهم على الوفاقِ علىٰ ما توجبُهُ الحكمةُ ، وتدلُّ عليهِ الحُجَّةُ ، باقيةٍ علىٰ ما تقتضيهِ القدرةُ ، نعمةً للمتقينَ فتكونُ ممَّا يشتهونَ ، ونقمةً للكافرينَ فتكونُ ممَّا يكرهونَ ، لا صبرَ بالمتقينَ عن تعظيمِ اللهِ تعالىٰ تقديساً وتمجيداً وثناءً[٤] ، ولا بالكافرينَ عن تعظيمِ اللهِ تضرُّعاً واستكانةً ودعاءً[٥] ، فهما جِهَتا التعظيمِ ما لهما ثالثةٌ ، فتمَّتِ البغيةُ المطلوبةُ والعاقبةُ المحمودةُ بما حكمَ اللهُ تعالىٰ[٦] .

فما كانَ يوجدُ مِنَ التعظيمِ بالإكرامِ إلا بابٌ[٧] ، وما كانَ يحسنُ على

---

(١) فليست هي الغاية والمستقرَّ ، بل هي فانيةٌ كما يفنى الإنسان .

(٢) من الصحة والمرض ، والشباب والشيخوخة ، والغنىٰ والفقر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : وساوى الجاهلُ العارفَ في متعة الدنيا وزخرفها .

(٤) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

(٥) قال عز وجل يحكي من دعاء الكافرين : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ ـ ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] .

(٦) أي : ظهور الصانع بما حكم ؛ أي : بأن أدخل الله تعالى المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، حتى اشتغلوا بالتقديس والتضرع . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) .

(٧) يعني : ما كان يوجد من التعظيم بالإكرام من الله تعالىٰ إلا نوع واحدٌ . مفادٌ من هامش (هـ) ، فما جزاء الإيمان والتوحيد إلا الإكرام بالجنة واللقاء .

الابتداءِ الحملُ على التعظيمِ بالعقابِ[1] ، وما كانَ تتنوَّعُ الأعمالُ لولا الابتلاءُ بالهوىٰ والهدىٰ ، ولَمَا صحَّ الجزاءُ لولا إلزامُ الأمرِ بلا كُرْهٍ في الأداءِ ولا جَبْرٍ مِنَ المولىٰ[2] .

[الشُّبهاتُ بينَ سرِّ القلبِ والمعرفةِ أربعٌ]

فقالَ الأخُ : فكمِ الشُّبهاتُ بينَ سرِّ القلبِ والمعرفةِ ؟[3] .

قلتُ : أربعٌ ؛ قدرةٌ أُوتيَتِ النفسَ فعلاً ، وولايةٌ ثبتَتْ على الدنيا يداً ومُلْكاً ، وزينةٌ ونعمةٌ أصابَتْ بالمالِ عيناً وحِسّاً ، وعزَّةٌ وقدرةٌ بالرجالِ تناصراً وبأساً .

فادَّعى النفسُ بالقدرةِ لنفسِهِ الألوهيَّةَ ، وبالمُلكِ الإمرةَ ، فاتَّخذَ الدنيا بالمالِ الجَنَّةَ ، والرجالَ بالغلبةِ العبيدَ والجُنَّةَ ، فعملَ بما يهوىٰ ، كأنَّهُ الملكُ الأعلىٰ[4] .

فقالَ : وكيفَ المَخْلَصُ ؟

---

(١) يعني : لا يحسنُ أن يُحمل المكلَّف علىٰ تعظيم مولاه بالعقاب إن هو ترك ، دون الثواب إن هو فعل .

(٢) أي : لو كان الإلزام بالكره والجبر في الأداء بدون اختياره . . لم يقع الجزاء ؛ لأنه يتعلَّقُ بالاختيار . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) سيأتي (ص٥٤٩) أن السرَّ هو سويداء القلب .

(٤) وتتمثَّل هـٰذه الصفات الأربع في فرعون ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وقال سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥١] ، ثم قال : ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٤] .

قلتُ : أمَّا عنِ القدرةِ : فبالنظرِ إلىٰ عجزِهِ ، عن دفْعِ هُلْكِهِ[1] .

وأمَّا عنِ الولايةِ : فبتغيُّرِ الأحوالِ المرضيَّةِ عليهِ وإنْ جَدَّ في العنايةِ[2] .

وأمَّا عنِ التنعُّمِ والزينةِ : فبفضيحةِ ما يؤولُ إليهِ مِنَ البولِ والغائطِ وكَشْفِ العورةِ[3] .

وأمَّا عنِ العزَّةِ والقدرةِ بالرجالِ : فبما يلزمُ قلبَهُ مِنَ الهمومِ والأوجالِ[4] ؛ لحفظِ الولايةِ ومجيءِ حينِ الانعزالِ ؛ ليعلمَ أنَّهُ ازدادَ حاجةً برجالِهِ ، وفضيحةً بمالِهِ ، وأنَّهُ محكومٌ عليهِ في ولايتِهِ ، هالكٌ في قدرتِهِ[5] .

تباركَ اللهُ مِنْ ربٍّ أزليٍّ ، دبَّرَ ليظهرَ بجبروتِهِ لعبيدِهِ بإراءةِ آثارِ صنعِهِ[6] ، فحكمَ بالوجودِ على العدمِ لفَضْلِ الوجودِ عليهِ ، فكانَ الموجودُ شيئاً رَتْقاً ، ثم فتقَ بينَ السماءِ والأرضِ ، فرفعَ السماءَ وزيَّنَها ونوَّرَها وسخَّرَها لإقامةِ مصالحِ الأرضِ ومنافعِها لفَضْلِ الأرضِ عليها[7] ، ثم سَلَّ مِنَ الأرضِ قُبْضَةَ آدمَ

---

(١) قال سبحانه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] .

(٢) قال عزَّ من قائل : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : ٢٦ـ٢٧] .

(٣) انظر ما تقدم (ص٥٠٩) من تشبيه الإنسان بالكنيف .

(٤) وليس بإلـٰه من يخاف ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس : ١٥] ، وقال سبحانه في صفة من يدَّعي الربوبية : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] .

(٥) انظر (ص٦٠١) في بيان ما هنا .

(٦) انظر ما تقدم قريباً تعليقاً (ص٥٤٤) في مسألة تعرفه سبحانه إلىٰ خلقه .

(٧) لكونها مستقرَّ الرُّسُل والأنبياء ، وهم أفضل من رؤساء الملائكة عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، وانظر « شرح العقائد النسفية » (ص٣٦٣) ، ونقل القاضي عياض وغيره الإجماعَ علىٰ أن البقعة التي ضمَّت أعضاءه الشريفة صلى الله عليه وسلم أفضل من العرش والكرسي ، وهما أفضل بقاع السماء . انظر « حاشية ابن عابدين » (٢/٦٢٦) ، ومن =

صلواتُ اللهِ عليهِ[1] ، فصوَّرَها على أحسنِ تقويمٍ ، وجعلَ الأرضَ بما فيها لهُ إظهاراً لفضلِهِ العظيمِ ، وبيَّنَ أنَّ فضلَهُ لمُضْغةٍ فيهِ سلَّها مِنَ القُبْضةِ وهوَ القلبُ ؛ فقد أهَّلَهُ لمعرفةِ الربِّ ، وأنَّهُ هوَ الأميرُ ، على جسمِهِ وعلى كلِّ العالمِ تصويراً بعدَ تصويرٍ .

فانتهى تدبيرُ الصنعِ برابعِ الدرجاتِ إلى القلبِ[2] .

ثم تجلَّى جلَّ جلالُهُ بجبروتِهِ لسرِّ القلبِ بآياتِهِ ، وهوَ العاقبةُ الحميدةُ المطلوبةُ مِنْ مخلوقاتِهِ[3] ؛ السرُّ في وَسَطِ القلبِ ، والقلبُ في وَسَطِ الفؤادِ ، والفؤادُ في وَسَطِ الصدرِ ، والصدرُ في وَسَطِ الجسمِ ، والأرضُ مِهادُهُ ، والسماءُ بناؤُهُ ، والآخرةُ جزاؤُهُ ، واللهُ تعالى ربُّهُ منهُ خوفُهُ وفيهِ رجاؤُهُ ، فالسرُّ سويداءُ القلبِ كالناظرِ للعينِ خلقَهُ أسودَ بذاتِهِ[4] ، في حصونٍ أربعةٍ كلُّها مظلمةٌ بذواتِها ثم ظهرَ لهُ بآياتِهِ[5] .

= فضَّلَ السماء على الأرض نظرَ إلى كونه تعالى لم يُعصَ فيها ، ومعصية إبليس نادرة ، ولكن هذا مع استثناء البقعة المباركة التي فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مذهب الشافعية ، قال الإمام السبكي في « تنزُّل السكينة على قناديل المدينة » كما في « فتاواه » (١/ ٢٧٩) : (إن قبر النبي صلى الله عليه وسلم يتنزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة ، وله عند الله من المحبة له ولساكنه.. ما تقصر العقولُ عن إدراكه ، وليس لمكانٍ غيره ، فكيف لا يكون أفضل الأمكنة ؟!) .

(١) انظر ما تقدم (ص١١٠) .

(٢) أي : الوجود ، ثم الفتق ، ثم السَّلُّ ، ثم التصوير . انتهى من هامش (و) .

(٣) تشبيهاً له بالعلة الغائية ، تعالى مولانا عن الأغراض والعلل .

(٤) الناظر : السواد الأصغر من العين الذي يبصر به الإنسان شخصه .

(٥) يعني : ظهر المولى سبحانه وتعالى للخلق بآياته ، والحصون الأربعة : القلب ، والفؤاد ، والصدر ، والجسم . مفادٌ من هامش (و) .

ولا ظهورَ إلا بالنورِ ؛ ليدلَّنا بالظهورِ للأسرارِ[١] ، علىٰ أنَّها هي الغريزةُ المرادةُ مِنْ بينِ الأنوارِ ، قد فجرَ اللهُ نورَها وهي سوداءُ بينَ الظلماتِ ؛ ليكونَ الضدُّ مِنَ الضدِّ مِنَ الآياتِ ، وليكونَ الانتهاءُ علىٰ وَفْقِ الابتداءِ[٢] ؛ ففجرَ النورَ مِنَ الظُّلَمِ ؛ كما خَلَقَ الوجودَ عنِ العدمِ ، وكما فجرَ نورَ العينِ الظاهرةِ ، مِنْ سويدائِها الناظرةِ ؛ فسَلَّ اللهُ تعالى الوجودَ عنِ العدمِ ، والأرضَ عنِ السماءِ ، والقُبضةَ عنِ الأرضِ ، والقلبَ عنِ القُبضةِ .

فظهرَ لهُ بآياتِهِ ظهوراً ، وجعلَهُ بسببِ المعرفةِ أميراً ، فصارَتِ السماءُ للأرضِ ، والأرضُ للقُبضةِ ، والقُبضةُ للصدرِ ، والصدرُ للقلبِ ، ووضعَ أمانتَهُ عليهِ[٣] ، وسلَّمَ الولايةَ إليهِ[٤] ، وهو أخفىٰ عضوٍ وأضعفُ خَلْقٍ .

حتىٰ إذا نظرَ القلبُ إلىٰ نفسِهِ ، ووقفَ علىٰ ضَعفِهِ ، ثم وجدَ العالمَ تحتَ أمرِهِ . . عرفَ أنَّهُ لم يملكْهُ بذاتِهِ ، فطلبَ مَنْ ملكَهُ بآياتِهِ ، مُصْغياً إلىٰ أمرِهِ ، مُثْنياً عليهِ بشكرِهِ .

ثم نظرَ إلىٰ سائرِ المخلوقاتِ مِنَ الأرضِ والسماءِ ، فوجدَ نفسَهُ مخصوصاً بقدرةٍ أصابَها بالحياةِ حتىٰ فعلَ مختاراً ، وبقدرةٍ أصابَها بالعقلِ حتىٰ سخَّرَ سائرَ

---

(١) يعني : لأسرار قلوبنا .

(٢) أي : في الابتداء كان الإيجاد من العدم ، وفي الانتهاء كانت الرؤية من مظلم بين الظُّلَم ، فيكون الضدُّ من الضدِّ ، فيكون أدلَّ على القدرة . انتهىٰ من هامش (و) ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

(٣) أي : الإيمان . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقال عزَّ من قائل : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص : ٢٦] .

الحيواناتِ جِهاراً ، فجعلَ القدرةَ الحياتيَّةَ لإقامةِ الأمرِ ، والقدرةَ العقليَّةَ لإقامةِ الشكرِ(١) ، وعلمَ بما وَجَدَ في نفسِهِ مِنْ أصلِ القدرةِ ، والتدبيرِ والإمرةِ ، وفَقَدَ في غيرِهِ : أنَّ غيرَهُ خُلِقَ لهُ جَبْراً وقهراً ، وأنَّهُ خُلِقَ لعبادةِ اللهِ ابتلاءً وأمراً .

فعلمتَ أيُّها الأخُ : أنَّكَ خُلقْتَ لمعرفةِ اللهِ وعبادتِهِ بالأمرِ ، لا بالقهرِ والجبرِ ، ودُعيتَ إليها لوقتِها بخطابٍ فَصْلٍ(٢) ، وأنتَ عاجزٌ عمَّا خُلقْتَ لهُ قبلَ العقلِ ، ووُلِدْتَ علىٰ جهلٍ(٣) .

ثم قَدَرَ القلبُ على النظرِ في المستورِ ، إذا انفجرَ العقلُ بالنورِ ، وأنتَ علىٰ شبهةٍ حالَ نظرِهِ وحَرَجِ صدرٍ .

ثم تقفُ على الآياتِ وتعرفُ الربَّ بلا شكٍّ في الأمرِ ، لـٰكنَّكَ في باطنِكَ على اضطرابٍ بوسواسِ نفسِكَ وخوفٍ مِنَ الزوالِ ، حتىٰ يصيرَ الاستدلالُ عِياناً عندَ البأسِ بحياةِ الآخرةِ ، إلا أصحابَ الآياتِ الباهرةِ(٤) ؛ كما قالَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، فتمَّتْ حالُ معرفةِ العبدِ مِنِ ابتداءِ الدعوةِ برابعِ درجاتِهِ(٥) .

---

(١) حيث أعطاهما الله تعالىٰ له ، ومن حقِّ الشكر : أن يعرف المنعم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : حالة التكليف . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) قال الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (٢/ ٩٧٩) : (يولد الإنسان وهو نظير المجنون في عدم العقل) ، قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

(٤) وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ فإنهم معصومون مرزوقون الطمأنينة ، آمنون من خوف الزوال ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ، وهـٰذا الاطمئنان في الدنيا لا يحصل لغير الأنبياء عليهم السلام . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) يحتمل أن يكون أول ابتداء الدعوة من قوله : (وقد دعيت إليها) ، والثاني : قوله : (ثم =

وقد علمْتَ : أنَّكَ خُلقْتَ وعليكَ حقوقُ اللهِ وأمانتُهُ وابتُليتَ بأدائِها ؛ لأنَّكَ خُلقْتَ علىٰ حياةٍ وقدرةٍ ، وعقلٍ وإمرةٍ .

ثم إنَّكَ تجدُ نفسَكَ علىٰ فَقْدِ قدرةِ الفعلِ قبلَ الحياةِ ، وفَقْدِ قدرةِ الرأْيِ والإمرةِ قبلَ العقلِ ، وفَقْدِ قدرةِ الصوابِ قبلَ العلمِ ، ثم تحتَ الأمرِ والنهْيِ بعدَ العلمِ[1] ، وتحتَ الحُكْمِ بعدَ الائتمارِ والانتهاءِ ، بتغيُّرِ الأحوالِ وحلولِ الفناءِ ، ما يَتِمُّ لكَ ما أُوتيتَ مِنَ القدرةِ ، إلا بعدَ الموتِ والبعثِ للجنَّةِ ، كما لم تتمَّ المعرفةُ بلا اضطرابٍ وأمنٍ مِنَ الفواتِ ، إلا بالحياةِ بعدَ المماتِ .

فسبحانَهُ مِنْ محسنٍ بالتكوينِ ، ومحسنٍ بالتفضيلِ ، ومحسنٍ بقدرةِ الحياةِ والعقولِ ، ومحسنٍ بالإرسالِ والتنزيلِ ، ثم مُفْضِلٍ علىٰ مَنْ عرفَهُ بالتقريبِ إليهِ بإقامةِ أمرِهِ ونهيِهِ[2] ، ثم مُكْرِمٍ بإيتاءِ المُلْكِ الأبديِّ علىٰ سعيِهِ ، ومُفْضِلٍ علىٰ مَنْ جحدَهُ بالإمهالِ في نعمِهِ إلىٰ آخرِ عمرِهِ ، ثم عادلٍ بالانتقامِ منهُ بالنارِ لا يزالُ علىٰ كفرِهِ ![3] .

فقالَ الأخُ[4] : كيفَ استحقَّ العبدُ الجزاءَ على اللهِ تعالىٰ واللهُ تعالىٰ خالقُهُ

= قدر) ، والثالث : قوله : (ثم تقف) ، والرابع : (الاستدلال عياناً) . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، وقوله : (درجاته) ؛ أي : درجةِ الجنين ، والطفل ، والشباب ، والكهولة . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(١) أي : تجد نفسك تحت الأمر . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٢) أي : جعل سبب القرب إقامةَ الأمر والنهي . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : عادل بتخليده في النار أبدَ الآبدين ؛ جزاء لاعتقاده الأبديِّ ؛ وهو الكفر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) هـٰذا السؤال بناء علىٰ ما ذكر قبل هـٰذا ؛ أن الفعل يقتضي داراً أخرىٰ هي دار جزاء علىٰ وفاق العمل علىٰ ما مرَّ شرحه . انتهىٰ من هامش (و) .

حقّاً ، ومالكُهُ رِقّاً ، وإنَّا لا نُوجبُ للعبدِ المملوكِ علىٰ مالكِهِ إذا عملَ لهُ أجراً ؟

قلنا : إنَّ الجزاءَ للعبدِ على اللهِ تسميةً وشرعاً[(١)] ، وهو على الحقيقةِ صفتُهُ ، قد أوجبَتْها حكمتُهُ ؛ فالدَّيَّانُ صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ كالرحمٰنِ[(٢)] ؛ وذلكَ أنَّهُ غيرُ جائزٍ أنْ يُوصفَ اللهُ تعالىٰ بعبثٍ ؛ كما لا يجوزُ أنْ يُوصفَ بسفهٍ ، والبناءُ لعاقبةِ الفناءِ مِنْ عَمَلِ الصبيانِ عبثٌ ، والتسويةُ بينَ المحسنِ والمسيءِ جزاءً مِنْ عملِ المجانينِ سفهٌ[(٣)] .

واللهُ تعالىٰ عليمٌ بما أمضىٰ مِنْ تدبيرِهِ ، حكيمٌ فيما أمضىٰ مِنْ تقديرِهِ ؛

---

(١) لا حقيقة ؛ فإنه في الحقيقة عطاء من الله تعالى . انتهىٰ من هامش (هـ) ؛ يعني : وكذلك المملوك في الدنيا لو جزاهُ مولاه بعطاء حسنٍ لحُسْنِ ائتماره . . لم يكن إلا محضَ عطاء وفضل .

(٢) قال العلامة الصفَّار الحنفي في « تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد » (ص٤٧٠) : (أما الدَّيَّان في اسم الله تعالىٰ : فاعلم : بأن معناه : القاضي ، وقيل : معناه : القهَّار ، وقيل : معناه : المجازي للعباد يوم القيامة ، وفي غير صفات الله تعالىٰ يُسمَّى الحاكم ديَّاناً ؛ كما روي عن بعض الصحابة : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ديَّانُ هٰذه الأمة ؛ أي : الحاكم ، والله أعلم) ، وفي هامش (و) : (دان ؛ أي : جزىٰ ؛ كما جاء في الاستعمال : كما تدين تدان) .

(٣) قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريديُّ في « التوحيد » (ص١٠٠) : (وكلُّ بانٍ شيئاً للنقض لا غيرُ فهو عابث غيرُ حكيم) ، وفي هامش (هـ ، و) : (العبث : ما فيه غرض فاسد ، والسفه : ما لا غرض فيه أصلاً) ، والأظهر : أن العبث ما لا فائدة فيه مطلقاً ، أو ما ليس فيه فائدةٌ معتدٌّ بها .

وفي هامش (و) : (إذ لو لم يجزه سوَّىٰ بينه وبين العاصي ، وذلك سفهٌ ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١]) .

فسوَّىٰ بينَ الكافرِ والمؤمنِ في دارِ الابتلاءِ بالقدرةِ والنعمةِ ، وفرَّقَ في دارِ الجزاءِ علىٰ بقاءٍ حتىٰ صارَ الصنعُ حكمةً ، ثم أخبرَ بذلكَ في كتابِهِ فقالَ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ؛ أي : أحسبتُم أنَّا عَبِثْنا بخلقِكم ؛ تحيَوْنَ وتموتونَ ولا ترجعونَ إلينا للبقاءِ ؟! ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ـ ١١٦] ؛ أي : تعالىٰ عنِ العبثِ ، وخَلْقُ الخلقِ لعاقبةِ الفناءِ عبثٌ .

وقالَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨ـ ٤٠] .

ثم قالَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١ـ ٢٢] ؛ أخبرَ أنَّ التسويةَ في الجزاءِ حكمٌ سيِّئٌ ؛ وهوَ السَّفَهُ الذي قلناهُ ، واللهُ تعالىٰ خلقَ العالمَ بالحقِّ لا بالسَّفَهِ ، وذلكَ الحقُّ في المجازاةِ علىٰ وِفاقِ الأعمالِ بينَ عَدْلٍ وفَضْلٍ ، بلا ظلمٍ أو جَهْلٍ ؛ وهو كقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧ـ ١٩] ؛ لأنَّهُ لمَّا أمرَنا بالعملِ بهِ ، ولا نصلُ إليهِ إلا بعدَ الجمعِ والبيانِ ، وتكليفُ ما لا يُقدرُ عليهِ مِنْ غيرِ جبرِ المأمورِ سفهٌ(١) . صارَ فعلُ ما تثبتُ معَهُ القدرةُ للمأمورِ حَقّاً على الآمرِ ؛

---

(١) أما في موضع يراد به جبر المأمور ؛ كما في قوله : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وكما في التكليف بالعقد بين الشعيرتين في التحلُّم الكاذب . . فليس بسفهٍ ؛ علىٰ ما جاء في الحديث قوله عليه السلام : « مَنْ تحلَّمَ كاذباً يكلَّف أن يعقد بين شعيرتين من نارٍ وليس بعاقد » . انتهىٰ من هامش (و) ، والحديث رواه بنحوه البخاري (٧٠٤٢) من حديث =

ليصيرَ أمرُهُ حكمةً ، فيكونَ عليهِ تسميةً[1] ، وهو حقٌّ لهُ حقيقةً ؛ لأنَّ صفةَ الحكمةِ لهُ بهِ تثبتُ[2] .

وهـٰذا كما أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَكَ وأقدرَكَ حتىٰ صرتَ أنتَ ، وكذلكَ العالمُ لكَ ظاهراً[3] ، وإنَّما خلقَكَ لعبادتِهِ ، ولتعرفَهُ بجلالِهِ باطناً . . فكذلكَ جزاؤُكَ كانَ وَفْقَ ابتدائِكَ ؛ لتعرفَ بالابتداءِ أنَّهُ خالقٌ عليمٌ ، وبالجزاءِ أنَّهُ جوادٌ حكيمٌ ، واسمُ الجزاءِ لا ينفي معنى البِرِّ عنِ العطاءِ ، وإنَّما ينفي صفةَ الابتداءِ ؛ كجزاءِ الموهوبِ لهُ الواهبَ علىٰ هبتِهِ ، تكونُ صلةً دعتْهُ إليها كرمُ طبيعتِهِ .

[بيانُ أحوالِ الإنسانِ مِنْ بدءِ خلقِهِ إلىٰ منتهىٰ أمرِهِ]

قالَ الأخُ : فبيِّنْ لي أحوالَ الإنسانِ مِنْ بدءِ خلقِهِ إلىٰ منتهىٰ أمرِهِ ، علىٰ

= سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله : (من نار) .

قوله : (فعل ما تثبت) ؛ أي : القدرة التي أعطى اللهُ العبدَ كان على الله تسمية ، وهي حقُّ الله حقيقةً ؛ فكذلك في الآخرة الجنة جزاء عمل العبد تسمية ، وهي فضل من الله تعالىٰ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ : ٣٦] . انتهىٰ من هامش (و) ، فما يُجازَون ويثابون بمقابلة الطاعات يكون جزاء تسميةً وظاهراً ، وفضلاً وعطاءً حقيقة . انتهىٰ من هامش (و) .

(١) يعني : كما أن حكمة الله تعالىٰ في تكليف العبد بالأوامر والنواهي اقتضت بيان المكلَّف به . . فكذلك وصف الديَّان يقتضي المجازاة باعتبار صفته ، لا أن العبد مستحقٌّ ابتداءً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : هـٰذا الاعتبار في الشبه والصورة والباطن والحقيقة ؛ أن الله تعالىٰ خلق العباد ، وجعل المنافع المتصلة والمنفصلة إليهم ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وقال : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وفي الحقيقة : خلقهم ليعرفوه بالقلوب ، ويخدموه بالجوارح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يعني : وكذلك خلقَ لك العالمَ ظاهراً .

ترتيبٍ لا يعدوهُ القصدُ ، ولا ينبوهُ العقلُ[1] .

قلتُ وما توفيقي إلا باللهِ : إنَّ بدْءَ خلْقِ الإنسانِ قُبضةٌ مِنْ برٍّ ، وقُبضةٌ مِنْ بحرٍ[2] ؛ علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، وقالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ [الفرقان : ٥٤] .

ثم مُزِجَ الماءُ بالترابِ فصارَ سلالةً مِنْ طينٍ ، ثم تُرِكَ حتى اعتدلَ كحمأٍ مسنونٍ[3] ، ثم أجابَ للمصوِّرِ بعدَ رابعِ الدرجاتِ[4] ؛ كتمامِ العالمِ لصلاحِهِ مسكناً لآدمَ علىٰ هـٰذهِ الحالاتِ ، فكانَ عدماً ، ثم موجوداً رَتْقاً لا يصلحُ للسكنىٰ ، ثم سماءً رفيعةً بلا ضياءٍ ، وأرضاً بسيطةً بلا نباتٍ وماءٍ ، ثم السماءُ سبعةَ أطباقٍ ، مزيَّنةً بنجومٍ وأفلاكٍ ، والأرضُ برّاً وبحراً مزيَّنةً بأنهارٍ وأشجارٍ ، فصَلَحَتْ لآدمَ مثوىً ، وهي بآدمَ حُبْلىٰ ، لـٰكنَّها علىٰ إنكارٍ هنالكَ ، ودعوىٰ أمرٍ غيرِ ذلكَ ، والمرادُ بإنكارِ الجمادِ : ما لا يصلحُ لهُ عقلاً ، وبالدعوىٰ : ما تصدَّىٰ لهُ أصلاً[5] .

---

(١) أي : من غير إطناب مملٍّ ، وإيجازٍ مُخِلٍّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : من تراب وماء .

(٣) الحمأ المسنون : الطين الأسود المتغير المنتن .

(٤) أي : كان قابلاً للتصوير ؛ أي : قبل الترابُ الحالة . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) ، والدرجات هنا : العدم ، والقبضة ، والمزج ، والاعتدال ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ـ٧٢] ، وفي هامش (و) : (القبضتان ، والمزج ، والترك ، والاعتدال ، أو نقول : العدم ، والقبضتان ، والمزج ، والاعتدال ، والأخير أليق باعتبار انقسام العالم) ، وفي هامشها أيضاً : (عدم ، قبضة ، سلالة ، اعتدال) .

(٥) أي : للنباتات والأشجار . انتهىٰ من هامش (ب) .

والبحرُ والبرُّ ما يصلحانِ لولادةِ البشرِ ، متصدِّيانِ لمنافعَ أُخرَ[1] ؛ كالعدمِ ينكرُ الوجودَ وعقدَهُ ، ويدَّعي ضدَّهُ .

ولمَّا سُلَّتِ القُبْضةُ مِنَ البرِّ والبحرِ[2] .. تركَتِ القُبْضةُ دعوى الأصلِ ؛ لعدمِ ذلكَ الصلاحِ فيها[3] ، لـٰكنَّها علىٰ إنكارِ أنْ تُبنىٰ صورةٌ منها ؛ فالماءُ مائعٌ سيَّالٌ ، والترابُ متخلخلٌ مُنْهارٌ ؛ كالعالَمِ لمَّا خُلِقَ رَتْقاً تركَ دعوى العدمِ ، وبقيَ علىٰ إنكارِ أنْ يصلحَ مثوىً .

ولمَّا صارَتِ القُبْضةُ طيناً يَنْسِلُ تركَتِ الإنكارَ[4] ، فالترابُ يُمزجُ بالماءِ لعاقبةِ البناءِ ، لـٰكنَّها ما لم تعتدلْ لا تجيبُ للبناءِ ، فتُرِكَ حتىٰ صارَ حمأً فاعتدلَ ، فأجابَ للتصويرِ وقَبِلَ .

وهـٰذا لكَ مسموعٌ وليسَ بمعقولٍ[5] ، ولَيُناكرَنَّكَ الملحدُ فيهِ مِنْ أولي العقولِ[6] ، فاعدلْ عنهُ إلىٰ ولدِهِ ؛ فأصلُهُ الأبُ والأمُّ ، وهما بِبُنْيَتِهما مدَّعيانِ صلاحاً لأمورٍ مقصودةٍ تأتي منهما ، منكرانِ انخلاقَ ولدٍ منهما بولادةٍ[7] ، علىٰ معقولِ الشهادةِ .

---

(١) والمتأمِّل في هـٰذه الجملة الوجيزة يعلم أنها قاصمة لظهور الدهريين ؛ من الذين يظنون أن البشر تولَّدوا عن طبائع الأرض ، ومن سلَّمَ عقلُهُ بهـٰذا فعقله خَوَاء ، والجاحدُ علىٰ قبحه أعقل منه ؛ إذ علم أن الصدفة العمياء لا تأتي بذي بصيرة وبصر .

(٢) القبضة : المقبوض . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) وهو نبت النبات . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٤) يَنْسِلُ : يلدُ ويتكاثر ، والنَّسْلُ : الولدُ .

(٥) أي : عن آدم بوجوده من التراب بالمسموع ، وإلىٰ ولد آدم بوجوب العقل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٦) يعني : ممن يدَّعي التمسُّك بالمعقول دون المنقول .

(٧) أراد بالانخلاق : التخلُّق ، وتقدم (ص٤١٨) أنها لحنٌ .

ولمَّا سُلَّتِ النطفتانِ منهما إلى الرَّحِمِ تركَتِ النطفتانِ دعوى الأصلينِ وثبتتا على الإنكارِ ، ولمَّا امتزجتا في الرحمِ تركتا الإنكارَ ، وما أجابتا إلىٰ حينِ الاعتدالِ ؛ كالسلالةِ مِنَ الطينِ ، ثمَّ اعتدلتا ، فصارتا علقةً كالحمأِ المسنونِ ، فأجابَتْ للمصوِّرِ برابعِ الأحوالِ ، فصارَتِ العلقةُ مضغةً ، ثم عظماً ، ثم لَحْماً ، فتمَّتِ العلقةُ صورةً برابعِ الدرجاتِ ، وهـٰذهِ أحوالٌ معقولةٌ ، وليسَتْ بمحسوسةٍ .

وربَّما ناكرَكَ فيهِ المتعنِّتُ ، فاعدلْ عنهُ إلى الطيرِ ؛ فأصلُهُ طَيْرانِ ذكرٌ وأنثىٰ ينكرانِ أنْ يتصوَّرَ منهما طيرٌ ، ويدَّعيانِ أموراً غيرَهُ ، حتىٰ يُسَلَّ منهما البيضُ ، فيتركَ دعوى الأصلِ ، لـٰكنَّهُ علىٰ إنكارِهِ حتىٰ تَحضُنَها الدجاجةُ ، فتصيرَ علقةً تُحِسُّها إذا كسرْتَها ، ثم مضغةً وصورةً على الترتيبِ الذي قلناهُ .

والأصلُ الجمادُ في منازلِها تحوَّلَ عن إنكارِ ما يُرادُ منهُ ودعوىٰ ضدِّهِ إلىٰ إنكارٍ بلا دعوىٰ ، ثم إلىٰ إقرارٍ بلا إجابةٍ ، ثم إجابةٍ ؛ ليدلَّ اللهُ تعالىٰ بأصلِ الوضعِ علىٰ سبيلِ التسخيرِ والإجبارِ ، على الوضعِ حالَ القدرةِ والاختيارِ . . علىٰ ما يأتيكَ بيانُهُ ، وشرحُهُ وبرهانُهُ .

[صورةُ الإنسانِ مؤلَّفةٌ مِنْ ظاهرٍ للدنيا وباطنٍ للمولىٰ]

ثمَّ الصورةُ جسمانِ : ظاهرٌ وهوَ القالبُ المحسوسُ ، وباطنٌ وهوَ الفؤادُ المعلومُ ؛ ليكونَ الظاهرُ نصيبَ الأصلِ الظاهرِ وهوَ **الدنيا** ، والباطنُ نصيبَ المصوِّرِ الباطنِ وهوَ **المولىٰ** ، قسمةً عادلةً ، فالقُبْضةُ ما صارَتْ صورةً إلا بالفعلِ المفعولِ ، في ذلكَ الأصلِ المسلولِ ؛ الأصلُ مِنَ الدنيا ، والفعلُ مِنَ المولىٰ جلَّ جلالُهُ ، والأصلُ ظاهرٌ ، والتفعيلُ باطنٌ .

[إحياءُ الإنسانِ لحملِ الأمانةِ]

ثمَّ اللهُ تعالىٰ أحياها ، وتفسيرُ الإحياءِ : الإقدارُ على الأفعالِ الاختياريَّةِ برقيبينِ ؛ النفسِ مِنْ عندِ الدنيا ، والروحِ مِنْ عندِ المولىٰ ، جاءَتا بأمرِهِ وحكْمِهِ ، واللهُ تعالىٰ قدِ اختصَّ بعلمِهِ ؛ لتكونَ النفسُ رقيباً مِنَ الدنيا علىٰ نصيبِ الدنيا ، والروحُ رقيباً مِنَ المولىٰ علىٰ نصيبِ المولىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠][1] .

[هدايةُ الجسمِ بالحواسِّ ، وهدايةُ الروحِ بالعقلِ]

ثم كانَ اهتداءُ الجسمِ الظاهرِ بالحواسِّ إلىٰ مصالحِهِ ، واهتداءُ الفؤادِ بالعقلِ إلىٰ مراشدِهِ[2] ، فصارَ القُوَّامُ أربعاً : الروحَ ، والنفسَ ، والعقلَ ، والحواسَّ .

وكانَتِ الصورةُ لأوَّلِ أمرِها جماداً منكِراً لما طُلِبَ منهُ مِنَ المعرفةِ والعبادةِ[3] ، ومدَّعيَ غيرِها علىٰ وَفْقِ العادةِ .

ولمَّا أُحْيِيَتْ تركَتِ الدعوىٰ ؛ فقد قَدَرَتْ أدنىٰ قدرةٍ ، لـٰكنَّها علىٰ إنكارِ ما وقعَتْ لهُ الفطرةُ، فهي للحالِ في حُكْمِ الأعضاءِ ؛ كالكبدِ والطحالِ والأمعاءِ .

---

(١) وهـٰذا دليلٌ أنه من الدنيا ؛ إذ لو كان من عند الله لم يصر منهياً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قال الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (١/ ٤٢٢) : (العقل كالشهاب لبصر القلب ، فيرى القلبُ مع نور العقل ما غاب عن الحواسِّ ؛ أي : يعلم إذا نظر ، وذلك بتفكيره وتمييزه) .

(٣) والمراد بإنكار الجماد : ما لا يصلح له عقلاً . انتهىٰ من هامش (و) .

ولمَّا سُلَّتْ بالولادةِ تركَتِ الإنكارَ ؛ فقد صارَتْ شخصاً مثلَ أصلِها ، لـٰكنَّها قبلَ العقلِ غيرُ مجيبةٍ بفعلِها .

ولمَّا انفجرَ نورُ العقلِ وميَّزَ الوليدُ[1] . . دعاهُ الرقيبانِ فأجابَ ؛ إمَّا لرقيبِ

---

(١) ميَّز : بلغ . انتهىٰ من هامش (و) .

اعلمْ : أن ثبوت العقل عند الماتريدية سببٌ وشرطٌ لإيجاب الإيمان بالله تعالىٰ ، وأنَّ الموجِبَ هو الله سبحانه ، لا العقل ، واهتدينا لمعرفة إيجابه عز وجل للإيمان به قبل الخطاب الشرعي . . بالعلامات الدالَّة علىٰ حَدَثِ العالم وافتقاره إلىٰ محدِث قادر مريد حيٍّ عالم ؛ قال شمس الأئمة السرخسي في « أصوله » (١٠٢/١) : (وجوب الإيمان بالله تعالىٰ كما هو بأسمائه وصفاته . . بإيجاب الله ، وسببه في الظاهر : الآيات الدالَّة علىٰ حدث العالم لمن وجب عليه ، وهـٰذه الآيات غير موجبة لذاتها ، وعقلُ من وجب عليه غيرُ موجِب عليه أيضاً ، ولـٰكن الله تعالىٰ هو الموجِب ؛ بأن أعطاه آلة يستدلُّ بتلك الآلة علىٰ معرفة الواجب ؛ كمن يقول لغيره : هاكَ السراجَ ؛ فإن أضاء لك الطريق فاسلكه . . كان الموجِب للسلوك في الطريق هو الآمرَ بذلك ، لا الطريقَ بنفسه ولا السراجَ ؛ فالعقل بمنزلة السراج ، والآيات الدالة علىٰ حدث العالم بمنزلة الطريق ، والتصديق من العبد والإقرار بمنزلة السلوك في الطريق ؛ فهو واجبٌ بإيجاب الله تعالىٰ حقيقة) .

وقال الإمام البَيَاضيُّ في « إشارات المرام » (ص٧٥) : (العقل آلة لمعرفة الوجوب الثابت لله تعالىٰ ، ولمعرفة الحسن اللازم له ، لا موجِبٌ كما قالت المعتزلة) .

ثم اختلفوا في الصبيِّ العاقل المميِّز ؛ هل يجب عليه الإيمان بالله تعالىٰ كالعاقل البالغ ، أو إن القلم مرفوع عنه كما رُفعَ في الأداء بالخطاب الشرعي ؟ هـٰذا مع اتفاقهم علىٰ صحة إيمانه لو آمن ؛ لأن السبب متقرِّر في حقه ، والخطاب بالأداء موضوع عنه بسبب صباه .

قال الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (٩٣٦/٢) : (وقد قال علماؤنا في الصبي إذا عقل وأسلم : صحَّ إسلامه ، ولو لم يستدلَّ بعقله ، ولم يجرِ كلمة الشهادة علىٰ لسانه . . لم نحكم بكفره وإن امتنع بعد الاستيصاف ، بل كان في حكم المسلم ما لم يبلغ ، ولو امتنع بعد البلوغ كفر بالله ؛ لأن خطاب الشرع بالأداء ساقط قبل البلوغ ، فصار معذوراً ، وإن عقل فاحتمل مثله بعد البلوغ قبل أن يبلغه دعوة أحد فلا يحكم بكفره ؛ بجهله بالله ، وغفلته عن الاستدلال بالآيات) ، ثم قال : (والتحديد بالبلوغ ثبت شرعاً ، فلا يلزم إلا =

الدنيا فأخطأَ وإمَّا لرقيبِ المولىٰ فأصابَ[١] .

انتهىٰ بهـٰذهِ الحالِ وقتُ الحفظِ بحكمِ الفطرةِ[٢] ، وجاءَ أوانُ المحنةِ والحيرةِ[٣] ، فتمَّتْ منازلُ أنْ يتأهَّلَ لِمَا طُلِبَ منهُ في العاقبةِ أربعاً[٤] ، فأصبحَ بالعقلِ أهلاً للدعوةِ[٥] ، وبينَ الرقيبينِ اتفاقٌ على الدعوةِ إلىٰ ما تُحمدُ مغبَّتُهُ ، وتبقىٰ ثمرتُهُ ؛ فرقيبُ المولىٰ يدعوهُ إلىٰ معرفةِ المولىٰ ، وطاعتِهِ لعاقبةِ الجزاءِ في الدارِ الأخرىٰ ، ورقيبُ الدنيا يدعوهُ إلىٰ عِمارةِ الدنيا وجمعِها لسيادةِ الورىٰ .

= بعد السماع) ، وبه تعلم : أن الصبي وإن كان مميزاً ـ والتمييز علامة العقل ـ لا يجب عليه الإيمان إلا بالبلوغ ، وانظر « إشارات المرام » (ص٧٥) .

(١) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] .

(٢) الحال ؛ أي : حال التمييز . انتهىٰ من هامش (هـ) .

قوله : (الفطرة) ؛ أي : الخلقة ؛ لأن خلقته لأجل المعرفة والعبادة ؛ فيجب أن يُحفظ ليحصل ما هو عين المقصود من الخلقة .

(٣) أي : تمَّ بهـٰذه الحال زمانُ الحفظ من الله بأصل الخلقة ، فوُكلَ إلىٰ نفسه ، وجاء زمان الابتلاء . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) ، فأوان المحنة والحيرة : هو ما بعد سن البلوغ ، وإن لم يحصل التبليغ بشأن الإيمان ، وبحصوله بشأن الشرائع .

(٤) الصورة ، ثم الحياة ، ثم الولادة ، ثم البلوغ . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) يعني : الدعوة إلىٰ معرفة الله تعالىٰ ولو لم تبلغه الدعوة ، وإلى الأداء بتحمُّلِ الخطاب الشرعي بعد بلوغ الدعوة ، وانظر « تقويم الأدلة » (ص٤٤٢) .

ومن الأدلَّة النقلية الدالَّة علىٰ وجوب النظر بوجودِ العقل والإمهالِ في مدَّة التأمُّل والنظر . . قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ولم يذكر الوحي ، ثم قال : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، وقيل : إنه الشيب ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم : ٨] ، ولم يذكر الوحي أيضاً . انظر « تقويم الأدلة » (٢/٩٤٦) ، ومدَّةُ العذر ـ كما ذكر ـ إلى الله تعالىٰ ؛ لا تعرف بالعقل .

[منازلُ التكليفِ وإجابةِ الدعوةِ أربعةٌ]

وإنَّهُ في منازلِ الإجابةِ علىٰ أربعةِ أحوالٍ : صِباً ، وشبابٍ ، وكهولةٍ ، وخَرَفٍ ، علىٰ نحوِ ما مرَّ مِنَ المثالِ[1] .

وإنَّهُ في أوَّلِ أحوالِهِ منكرٌ لدعوةِ الرقيبينِ بطبعِهِ ، مدَّعٍ غيرَها مِنَ اللهْوِ واللعبِ بفعلِهِ[2] ، ما لا عاقبةَ لهُ تُرضىٰ ، ولا ثمرةَ تبقىٰ .

فإذا شَبَّ وبلغَ واعتدلَ عقلُهُ ، وتوجَّهَ التكليفُ مِنَ المولىٰ وأهلِ الدنيا[3] ،

---

(١) أي : الشخص الذي انفجر عقله . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

(٣) قوله : (التكليف من المولىٰ) فيه إشارة إلىٰ أن الموجِب للمعرفة هو الله تعالىٰ ، لا العقل ، وسبق تعليقاً (ص٥٦٠) عن الإمام السرخسي ، وبه تعلم : أن السادة الماتريدية جعلوا للوجوب من الله تعالىٰ على العبد صورتين :

الأولىٰ : بخطابه الشرعي بعد إرسال الرُّسُل المؤيَّدين بالمعجزات الدالَّة علىٰ صدقهم .

الثانية : بظهور نور العقل في البالغ ، مع الدلائل الظاهرة والمبثوثة في الكون الدالَّة علىٰ حَدَثِ العالم .

وهٰذا هو معنىٰ قول الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (٢/ ٩٣٩) : (**ولما ثبت أن بالعقل كفايةً كان بنفسه حُجَّةً بدون الشرع** ، ولزم العمل به كما يجب بالشرع وبسائر الحجج إذا قامت .

والجواب عن قولهم : « إن الله لم يَدَعْنا والعقولَ » ؛ فإن ذلك من الله رحمةٌ ، أو لبيان ما لا ينال بالعقول ؛ من أنواع العبادات والحدود التي بها تتمة الدين ، أو كان أمرُ البعث والجزاء مما يشكل مع العقل وحده إلا بجِدٍّ تأمُّلٍ فيه حرج يُعذر الإنسان بمثله ، ولا إيمان بدونه ، فكان حقّاً على الله تعالىٰ بعثُ الرُّسُل لبيان ما به تتمة الدين ، **لا لمعرفة الخالق**) ، وذكر فيه : أن التنبُّه ببديهة العقل شبيهٌ بالتنبيه بدعوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم التي هي كلام ، وقال (٢/ ٩٤٤) : (وقرُب من الإنصاف من قال : إن الله تعالىٰ يُعرف بدلالات =

وهو ممَّنْ أجابَ رقيبَ الدنيا . . تركَ الدعوىٰ[1] ؛ فقد حُجِرَ عنِ العملِ بطبعِهِ ، لـٰكنَّهُ علىٰ إنكارٍ بفعلِهِ ما لا يُحمدُ عاقبتُهُ ، في سكرةٍ مِنْ نشاطِهِ ، وغفلةٍ مِنْ شهواتِهِ ، وإصابةِ الكفايةِ مِنْ آبائِهِ وأمَّهاتِهِ .

حتىٰ إذا انتهىٰ شبابُهُ ، وفارقَهُ أبوهُ وأمُّهُ ، وأحوجَتْهُ امرأتُهُ وولدُهُ[2] ، ولزمَتْهُ مِنْ فروضِ الحالِ ما لا يمكنُهُ إقامتُها إلا بالنظرِ في العاقبةِ . . تركَ الإنكارَ لعملٍ ما له عاقبةٌ حميدةٌ[3] ، لـٰكنَّهُ غيرُ مجيبٍ فعلاً ؛ فنارُ الشهواتِ بعدُ شديدةٌ ، وقيودُ الهوىٰ عليهِ أكيدةٌ[4] .

= العقول وحدها ، ولـٰكن لا يجب فعل الاستدلال إلا بشرع ، وألحقه بالصبي) ، وهو قول محقِّقي السادة الأشاعرة ، إلا أن السادة الماتريدية جعلوا العاقل المعرِضَ عن النظر مستخِفّاً بالحجة كما استخفَّ من جاءته الرُّسُل بالحجج التي أتَوا بها .

إن قلت : فما يقولون بنحو قوله سبحانه : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] ؟

فالجواب : ما قاله الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (٢/ ٩٤٧) : (أي : حجة تقال ، لا حجة تقبل) .

إن قلت : فما الفرق بين قول محققي الماتريدية وقول المعتزلة ؟

فالجواب : أن العقل بذاته موجِبٌ للمعرفة بالله تعالىٰ عند المعتزلة ، سواء صرَّحوا بأن الموجب هو الله تعالىٰ أو لا ؛ إذ العقل بنفسه عندهم موجب لها ؛ للتلازم بين حكم العقل وحكم الشارع ، وأما عند الماتريدية فكما رأيت ؛ من أنه آلة لإدراك الإيجاب عن الله تعالىٰ مع نَصْبِ الدلائل الحسية المؤيدة له ، وانظر « إشارات المرام » (ص٧٥) .

(١) أي : دعوى اللعب . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) أحوجته : جعلته ذا حاجة .

(٣) أي : إنه حيث ترك فعل ما لا تحمد عاقبته فكأنه ترك الإنكار لعمل ما له عاقبة حميدة ، لـٰكنه لم يشرع بعدُ في العمل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) وعن هـٰذا الكهل قال الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (٢/ ٩٤٥) : (كهل بلغ أشده ، وأدرك غامضات أمور الدنيا برأيه ، وهي لا تنال إلا بجِدِّ تأمُّل ، ولم يعرف لنفسه خالقاً ، =

حتىٰ إذا أقعدَهُ خرفُهُ ، وأشرفَ عليهِ تلفُهُ ، وانتهَتْ قُواهُ . . أطاعَ رقيبَ دنياهُ وما هي بمقبولةٍ[1] ، فمصالحُ الدنيا لا تقومُ إلا بقدرةٍ ، والرجلُ قد أعجزَتْهُ الفترةُ ، فيعيشُ في بؤسٍ حتىٰ يعاينَ بأسَهُ بحلولِ أجلِهِ ، فيجيبَ رقيبَ المولىٰ عندَ انقطاعِ أملِهِ ، وهي مردودةٌ[2] ؛ فالمطلوبُ منهُ إجابةٌ حالَ اختيارِهِ ، دونَ خروجِ أمرِ نفسِهِ عن يدِهِ ووقوعِهِ في اضطرارِهِ ؛ يقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ـ ٨٥] .

[منازلُ السياقِ للجزاءِ أربعةٌ]

ثم ينتقلُ بعدَ منازلِ الدعوةِ للإجابةِ إلىٰ منازلِ السياقِ للجزاءِ ، وإنَّها لأربعٌ : منزلُ معاينةِ البأسِ لآخرِ العمرِ ، ومنزلُ بطنِ الأرضِ في القبرِ ، ومنزلُ عَرْصَةِ القيامةِ يومَ الحشرِ[3] ، ثم منزلُ النارِ ، وبئسَتِ الدارُ ، ما لهُ عليها اصطبارٌ ، ولا عنها فِرارٌ ؛ جزاءٌ وِفاقٌ ؛ خلودٌ بلا فراقٍ .

وإنَّهُ لأوَّلِ منازلِهِ منكرٌ للجزاءِ الذي عاينَهُ ؛ فقد تبرَّأَ بالإيمانِ عن سببِهِ ،

= وإنه ينال ببداهة العقول ؛ فإنه لا يرىٰ بناءً إلا وقد عرف له بانياً ، ولا نقشاً إلا وقد عرف له نقاشاً ، ولا صورة جماد إلا عرف له مصوِّراً ، فكيف يعذر بعذر رؤيته صوراً حسية في جهله بمصوِّرها ؟! وإذا لم يعذر ولا بدَّ أن تقع المعرفة بفاعل الصورة فقد تنبَّه بعقله للنظر ، فيلزمه من النظر ما تتم به المعرفة) .

(١) أي : وما الطاعة بمقبولة . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) أي : الإجابة إلىٰ رقيب المولىٰ عند انقطاع أجله ؛ وهي إيمان اليائسِ . انتهىٰ من (هـ ، و) .

(٣) عَرْصَةُ القيامة : ساحتها ؛ إذ لا بناء فيها .

مدَّعٍ ما أقبلَ بالإيمانِ علىٰ طلبِهِ[١] .

حتىٰ إذا ماتَ وفارقَ أهلَ النعيمِ . . تركَ الدعوىٰ لـٰكنَّهُ علىٰ إنكارٍ لبعدِهِ عنِ الجحيمِ ، حتىٰ إذا بُعِثَ وعاينَ الحقيقةَ تركَ الإنكارَ وما أجابَ ، لوَقْفِهِ بينَ الخلائقِ لأمرِ الحسابِ ، حتىٰ إذا قيلَ : وامتازوا اليومَ أيُّها المجرمونَ فما لكم مِنْ شافعينَ[٢] . . أجابَ في أمثالِهِ مهطعينَ[٣] ، إلى الجزاءِ الوِفاقِ العظيمِ نارِ الجحيمِ خالدينَ .

دُعِيَ إلى التصوُّرِ جسماً لحَمْلِ الأمانةِ فأجابَ للتصوُّرِ برابعِ أحوالِهِ[٤] ، ثم دُعِيَ إلى التحوُّلِ أهلاً لمعرفةِ ما عليهِ فأجابَ برابعِ أحوالِهِ[٥] ، ثم دُعِيَ إلى الإجابةِ لأداءِ ما عليهِ فأجابَ برابعِ أحوالِهِ[٦] ، ثم دُعِيَ إلى الجزاءِ الوِفاقِ لأعمالِهِ فأجابَ برابعِ أحوالِهِ[٧] ، فصارَتِ الدعواتُ

---

(١) أي : تبرَّأ بواسطة الإيمان بعد الغرغرة عن استحقاق الجزاء الذي هو النار ؛ إذ فيه ترك سببه وهو الكفر والطغيان ، وادعى الفوز الكبير والنعيم الدائم ؛ حيث أقبل بالإيمان علىٰ طلب الفوز ؛ وهو الفوز والنعيم والنجاة الذي أقبل بالإيمان علىٰ طلبها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : ٥٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٩٦ـ ١٠١] .

(٣) مهطعين : مسرعين مقبلين خائفين .

(٤) أي : العدم ، ثم أخذ القبضتين ، ثم المزج ، ثم الترك ، والإجابة للتصور في هـٰذه الحالة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) الجمادية ، ثم الإحياء ، ثم النسل والولادة ، ثم انفجار نور العقل ، والإجابة في هـٰذه الحالة .

(٦) الصِّبا ، ثم الشباب ، ثم الكهولة ، ثم الخرف ، والإجابة في هـٰذه الحالة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٧) معاينة البأس ، ثم بطن الأرض ، ثم المحشر ، ثم النار ، والإجابة في هـٰذه الحالة .

أربعاً[1] ، والأحوالُ في كلِّ دعوةٍ أربعاً .

فهٰذهِ بيانُ أقسامِ مَنْ أُسِرَ عقلُهُ بهواهُ ، ونَسِيَ آخرتَهُ بدنياهُ ، وكلُّ البشرِ مجبولونَ علىٰ هٰذهِ الطبيعةِ ، ما لهم سبيلٌ إلى الفَكاكِ عن هٰذا الأسرِ إلا بالوقوفِ علىٰ أنوارِ الشريعةِ .

[أسبابُ النجاةِ في الدعوةِ]

وإنِّي ـ أيُّها الأخُ ـ لمخبرُكَ عن أنوارٍ هي آياتٌ ؛ لتخرجَ بها ـ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ ـ عن حالاتٍ هي ظُلُماتٌ ، فما بصيرٌ بمنتفعٍ في الظلماتِ ببصرِهِ ، ولا بمتحيِّرٍ إذا أضاءَ لهُ النهارُ بأثرِهِ .

فقالَ : طابَ سمعي بما سمعَ مِنْ كلامِكَ ، هاتِ باركَ اللهُ في أيَّامِكَ .

[أسبابُ المعارفِ]

قلتُ وباللهِ التوفيقُ :

إنَّ لكلِّ جسمٍ ـ أعني : الباطنَ وهوَ الفؤادُ ، والظاهرَ وهوَ القالبُ ـ علَّةَ دَرَكٍ ، وآلةَ دَرَكٍ ، وحالةَ دَرَكٍ ، وداعياً إلى الدَّرَكِ .

[الحواسُّ الخمسُ]

أمَّا الظاهرُ : فعلَّةُ دَرَكِهِ : استعمالُ آلاتِ الدَّرَكِ للدَّرَكِ .

---

(١) الأولىٰ : الإيجاد والتصويرُ قبل نفخ الروح ، والثانية : انفجارُ نور العقل ليتأهَّل لمعرفة الله تعالىٰ ، والثالثة : إرسالُ الرُّسُل ووقوع التبليغ ليتأهَّل للأداء وتحمُّلِ خطاب الشارع سبحانه وتعالىٰ ، والرابعة : السياقُ للجزاء الوفاق ؛ عطاء لأهل الطاعة ، وعقاباً لأهل الجحود .

وآلاتُ الدَّرَكِ : العينُ ، والأنفُ ، والفمُ ، واليدُ[1] ، والأذنُ ، صارَتْ آلاتٍ بحواسِّها[2] .

والاستعمالُ : كالنظرِ ، والشمِّ ، والذوقِ ، والمَسِّ ، والاستماعِ[3] .

والأحوالُ : نحوُ نورِ الهواءِ ، والرائحةِ في المشمومِ ، والصوتِ والطعمِ ونحوِها .

والداعي إلى الاستعمالِ : النفسُ .

[القلبُ ونورُ العقلِ]

وأمَّا الجسمُ الباطنُ ـ وهوَ الفؤادُ ـ فلهُ علَّةُ الدَّرَكِ ؛ وهيَ الفكرةُ[4] .

---

(١) يعني : جميع البدن ، ففيه مجاز مرسل ؛ من إطلاق الجزء وإرادة الكل ؛ لكون اللمس في اليد أظهرَ من غيرها .

(٢) يعني : بالقوة الحاسَّة المخصوصة بها التي سيبينها بالاستعمال الذي هو العلة ؛ **فالعينُ** : آلةٌ لحاسَّة البصر التي تدرك النفسُ بها الأضواء والألوان والأشكال والمقادير والحركات والحسن والقبح ، **والأنف** : آلةٌ لحاسَّةِ الشمِّ التي تدرك النفسُ بها الروائح ، **والفمُ** : آلةٌ لحاسَّة الذوق التي تدرك النفسُ بها الطعوم ، **واليد وجميع البدن** : آلةٌ لحاسَّة اللمسِ التي تدرك النفسُ بها البرودة والحرارة ، والرطوبة واليبوسة ، والنعومة والخشونة ، والآلام الظاهرة من نحو جَرْحٍ أو صدم ، والباطنةَ من نحو صداع أو مغصٍ ، لا نحوِ الأسف والحسرة ، وكذا اللذائذ المتعلقة بها ، **والأذن** : آلةٌ لحاسة السمع التي تدرك بها النفسُ الأصوات ، وهي من أعظم نِعَمِ الله تعالىٰ ، وانظر « شرح العقائد النسفية » (ص١١٥) .

(٣) هـٰذا كلُّهُ عادة ، ولو شاء ربُّنا لجعل الأنف آلة للسمع ، والأذن آلة للبصر ، وهـٰكذا ؛ إذ الإدراكات مخلوقات في النفس بمحض إرادته سبحانه ، فلا تأثير للحواسِّ بحالٍ ، قال العلامة السعد في « شرح العقائد النسفية » (ص١١٧) : (فلا يمتنع أن يخلق عقيب صرف الباصرة إدراكَ الأصوات مثلاً) .

واعلم : أن إدراك النفس بالحواسِّ تخييلٌ ؛ أي : تصوير خيال الشيء في النفس ، وانظر « شرح المواقف » (١/ ٨٤) .

(٤) وهي حركة النفس في المعقولات ؛ كانتقالها من الكلي إلى الجزئي ؛ إذ ما ثبت للكليِّ =

وآلةُ دَرَكٍ ؛ وهوَ القلبُ بسويدائِهِ التي هي بمنزلةِ الناظرِ للعينِ ؛ وهوَ السرُّ[1] .

وحالُ دَرَكٍ ؛ وهو نورُ العقلِ الذي تستنيرُ للقلبِ المسافةُ بينَ مبدأِ الأمورِ وعواقبِها[2] ؛ كما تستنيرُ بنورِ الهواءِ المسافةُ لناظرِ العينِ مِنْ لدنْهُ إلى المنظورِ إليهِ .

وداعٍ إلى الدَّرَكِ ؛ وهوَ الروحُ .

وكلُّ جسمٍ ممتحَنٌ بهٰذهِ الأسبابِ[3] ، يطلبُ العاقبةَ الحميدةَ الباقيةَ مِنْ أفعالِهِ ، مخالفاً لنهجِ ما لا عقلَ لهُ في أعمالِهِ ، فتمَّتِ المحنةُ بداعٍ إلى الرؤيةِ وآلةٍ ، وعلَّةٍ وحالةٍ .

[الظاهرُ دليلٌ على الباطنِ]

وقد جعلَ اللهُ تعالى الظاهرَ دليلاً على الباطنِ[4] ؛ ليكونَ العلمُ بهِ حقيقيّاً ، ولا يخفىٰ على الناسِ تعنُّتُ مَنْ أنكرَ ظلماً وعلوّاً[5] .

= ثابتٌ لجزئياته .

(١) كون سويداء القلب آلةً للإدراك مبنيٌّ على الحَدْس ، أو الكشف ، أو أنه إشارة في كلام المعصوم صلى الله عليه وسلم ؛ إذ معرفة حقيقة القلب أمرٌ غامض .

(٢) واستبانة هٰذه المسافة بنور العقل تحجز العاقل عن فعل ما عاقبته وخيمة ، ولا يتبينُها السفيه فيقع فيها ، وانظر « تقويم الأدلة » (١/ ٤٦٥) .

(٣) الأسباب : الآلات . انتهىٰ من هامش (هـ) ؛ يعني : الحواسَّ ـ وأقلُّها : السمع أو البصر ـ ، والعقلَ ؛ فإذا وجدَتْ ثبتت المحنة التي هي التكليف بأداء الأمانة التي حملها الإنسان بفطرته .

(٤) قال الإمام المصنف في « تقويم الأدلة » (٢/ ٩٨١) : (الرؤية إنما تكون بتبدِّي المنظور إليه للعين ، فكذا العلم بتبدِّي المنظور فيه للقلب) .

(٥) في (ب ، ز) : (أنكرها) بدل (أنكر) ؛ يعني : الأسباب التي هي الآلات .

فخلقَ معانيَ الدَّرَكِ في آلاتِ الدَّرَكِ للجسمِ الظاهرِ على التفاوتِ ، وربَّما استوَتِ الآلاتُ في مبانيها وأحوالُ الدَّرَكِ على التفاوتِ ، وربَّما استوَتِ الآلاتُ بمعانيها ؛ فربَّ ناظرِ عينٍ أحدُّ مِنْ ناظرٍ[1] ، وربَّ شمعٍ أضوأُ مِنْ سراجٍ زاهرٍ .

وجعلَ حالَ الدَّرَكِ للظاهرِ بنورينِ مُسَلَّمينِ إليهِ في العالمِ السفليِّ ؛ وهما السُّرُجُ والشموعُ ، وللعبدِ قدرةُ تدبيرٍ في النقصانِ وزيادةُ تنويرٍ ، ونورينِ غيرِ مُسَلَّمينِ إليهِ مِنَ العالمِ العلويِّ ؛ كنورِ الشمسِ والقمرِ ، ما لهُ عليهما مِنْ تدبيرٍ ولا قُدَرٍ[2] .

وقد يستغني الجسمُ الظاهرُ بالشمعِ عنِ السراجِ ، وبنورِ الشمسِ عنِ الشمعِ الوهَّاجِ ؛ لأنَّهُ ما احتاجَ إلى الشُّعْلةِ إلا ليجلوَ بها ظلمةَ المسافةِ إلىٰ مصالحِهِ ، وبنورِ الشمسِ استنارَتِ المسافةُ فوقَ مشاعلِهِ ؛ ليدلَّ علىٰ مثلِهِ للجسمِ الباطنِ مِنْ تفاوتِ معاني الدَّرَكِ في الآلاتِ ـ وهي أسرارُ القلوبِ ـ وإنِ استوَتِ الآلاتُ في ذواتِها، والتفاوتِ في أحوالِ الدَّرَكِ ـ وهي العقولُ ـ وإنِ استوَتِ الآلاتُ بمعانيها .

[أنوارُ الحالِ للقلبِ أربعةٌ]

وإنَّ النورَ الذي هو حالٌ قسمانِ مُسلَّمانِ إليهِ ؛ وهوَ العقلُ والقرآنُ ، ولنورِهما زيادةٌ بنظرِ القلبِ ونقصانٌ ، وقسمانِ غيرُ مُسَلَّمينِ إلىٰ تدبيرِ العبدِ ؛

---

(١) إذ عين زرقاء اليمامة ليست كعين الأعشىٰ ، ولله دَرُّ المَقَّري إذ يقول في « نفح الطيب » (٧/١) : (من مجزوء الكامل)

سبحـانَ مَـنْ قسـمَ الحظـو ... ظَ فـلا عتـابَ ولا مـلامَـهْ
أعمـىٰ وأعشـىٰ ثـم ذو ... بصـرٍ وزرقـاءُ اليمـامَـهْ

(٢) قُدَر : جمع قدرة . انتهىٰ من هامش (ج) .

وهو نورُ التوفيقِ ونورُ العواقبِ ؛ كرامةً مِنَ الحميدِ المجيدِ .

وإنَّ كلَّ الأنوارِ على التفاوتِ كما في الشاهدِ ، وإنَّ نورَ التوفيقِ يتناهىٰ إلىٰ حالٍ يستغني العبدُ معَهُ عنِ الاستضاءةِ بالعقلِ النائرِ ؛ كاستغنائِهِ عنِ السراجِ بالشمسِ الزاهرِ ، ولأنَّهُ ما احتاجَ إلىٰ نورِ العقلِ إلا ليجلوَ ظلمةَ المسافةِ إلىٰ عواقبِ أمرِهِ ، وبنورِ التوفيقِ استنارَتِ المسافةُ فوقَ نورِهِ ، بل لاحَتْ لقلبِهِ العواقبُ ؛ كما تلوحُ ليلاً لعينِهِ الكواكبُ(١) .

فالعواقبُ المطلوبةُ بأمرِ اللهِ نيِّرةٌ أنورُ مِنْ نجومِ الليالي علىٰ ما يأتيكَ شرحُها(٢) ، لٰكنَّها مستترةٌ عنِ القلبِ بغمامِ الغفلةِ ، منكسفةٌ بصدأِ المعاصي ، فإذا صحا الصدرُ عنِ الغفلةِ ، وتجلَّتِ العواقبُ عن صدأِ المعصيةِ . . أضاءَتْ للقلبِ بلا آفةٍ ، وأغنَتِ القلبَ عن نورِ المسافةِ ، بل تجلَّتْ بها المسافةُ عن ظلماتِ النفسِ ، تجلِّيَ الهواءِ بطلوعِ الشمسِ ، وصارَ النورُ منها محسوساً ، بعدَما كانَ لها النورُ مقبوساً .

[عدْلُ اللهِ تعالىٰ في خلقِ نورٍ في الفطرةِ]

فثبتَ أنَّ لكلِّ جسمٍ أنواراً على التفاوتِ ، ولٰكنْ بعدَ التكليفِ بالدَّرْكِ لا يخلو أصلُ الفطرةِ ، عن قَدْرِ ما تقعُ بهِ القدرةُ(٣) ؛ فإعطاءُ القدرةِ قَدْرَ التكليفِ عَدْلٌ ، وقد ضمنَهُ اللهُ تعالىٰ بحكمتِهِ ، والزيادةُ فضْلٌ ،

(١) النجاة من النيران ، والوصول إلى الجنان ، بطاعة الرحمٰن . . أظهر من ظهور الكواكب . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) انظر (ص٥٨٠) .

(٣) أي : لا يخلو القلب في أصل الخلقة عن نور وإن قلَّ ؛ لصحة التكليف ؛ قال تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . انتهىٰ من هامش (و) .

وقد أذنَ اللهُ تعالىٰ بالسؤالِ مِنْ رحمتِهِ .

[الأمانُ في عدمِ تجاوزِ حدودِ اللهِ تعالىٰ]

ثمَّ اللهُ تعالى امتحنَ الجسمَ الظاهرَ معَ نورِهِ الحاليِّ المُسَلَّمِ إليهِ متىٰ خرجَ عن حصنِهِ ـ وهوَ البيتُ ـ بريحٍ عُلْويٍّ لا قدرةَ لهُ علىٰ رَدِّهِ إلا بالرجوعِ إلىٰ حصنِهِ ، وربَّما عدِمَ الانتفاعَ بهِ كأنَّهُ لا سراجَ معَهُ متىٰ أصرَّ علىٰ فعلِهِ ؛ ليدلَّ في جانبِ الجسمِ الباطنِ علىٰ مثلِهِ ، خذلانٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ متىٰ خرجَ مِنْ حصنِهِ ؛ وهو حدودُ اللهِ تعالىٰ في أوامرِهِ ونواهيهِ ، لا يدَ لهُ على الاحترازِ عنهُ ما لم يرجعْ إلىٰ حدِّهِ[1] ، وربَّما عدِمَ الانتفاعَ بهِ متىٰ أصرَّ علىٰ عقدِهِ ؛ كأنَّهُ أعمىٰ لا نورَ لهُ في صدرِهِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٧] .

[أحوالُ العمىٰ للجسمِ الظاهرِ]

فتمَّتْ أحوالُ البصرِ في تفاوتِها للمحنةِ أربعاً ؛ حالُ نورٍ عَدْليٍّ ونورٍ فَضْليٍّ ممَّا سُلِّمَ إليهِ ، وممَّا لم يُسلَّمْ إليهِ ، وتمَّتْ أحوالُ العمىٰ للعينِ أربعاً : حالانِ معَ قيامِ التكليفِ بالرؤيةِ ببقاءِ القدرةِ ؛ حالُ عمىً بعَشَى العينِ ، فالقدرةُ بعدُ باقيةٌ ؛ لقدرتِهِ على العلاجِ ، وحالُ عمىً لهبوبِ الريحِ علىٰ ذؤابةِ السراجِ ، وحالانِ معَ سقوطِ التكليفِ لذهابِ القدرةِ ؛ عمىً بزوالِ نورِ العينِ ، وعمىً

(١) روىٰ أبو داود (١٠٥٢) ، والترمذي (٥٠٠) ، والنسائي (٣/ ٨٨) من حديث سيدنا أبي جعدة الضَّمْري رضي الله عنه مرفوعاً : « من ترك ثلاث جُمَعٍ تهاوناً بها طبع الله علىٰ قلبه » . مفادٌ من هامش (و) .

بعدمِ نورِ الحالِ[1] ، ولن يَتحقَّقَ ذلكَ إلا إذا انتهَتِ الآجالُ[2] .

[أحوالُ العمىٰ للجسمِ الباطنِ]

وكذلكَ أحوالُ الجسمِ الباطنِ ؛ حالُ عَشَى القلبِ بغِشاوةٍ مِنْ خُبْثِ العصيانِ ، وحالُ انطفاءِ نورِ العقلِ بريحِ الخِذلانِ ، وحالُ انتفاءِ نورِ الحالِ أصلاً بالجنونِ ، وحالُ ذهابِ نورِ السرِّ بإذهابِ اللهِ تعالىٰ إذا حلَّ بهِ المنونُ .

فنورُ القلبِ الذي بهِ صارَ القلبُ آلةَ الدَّرَكِ للجسمِ الباطنِ أصليٌّ مِنْ ربِّهِ ، لا زوالَ لهُ علىٰ أصلِ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ إلا بزوالِ عمرِهِ ، ونورُ الحالِ عارضٌ ، ونورُ الحالِ للجسمِ الظاهرِ أصليٌّ ؛ فهو مِنْ أصلِ دنياهُ ، ونورُ الآلةِ عارضٌ[3] .

فلن يعدمَ الجسمُ الظاهرُ نورَ الحالِ إلا بموتِهِ ، وقد يعدمُ نورَ الآلةِ معَ بقاءِ عمرِهِ ، فبنورِ العينِ حياةُ العينِ كما بالروحِ حياةُ الجسمِ .

ولن يعدمَ الجسمُ الباطنُ نورَ الآلةِ إلا بعدَ انقضاءِ الأَجَلِ ، وقد يعدمُ نورَ الحالِ في مدَّةِ المَهَلِ ، ولهـٰذا لا يسقطُ التكليفُ إلا بالجنونِ ، فزوالُ النورِ الذي هوَ الآلةُ حالَ الحياةِ لن يكونَ واللهُ أعلمُ ، وإنَّما يعشى القلبُ معَ

---

(١) أي : نور السراج ، والشمع ، والشمس ، والقمر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : لن يتحقَّق العمىٰ بعدم نور الحال ـ وهو نور السراج والشمع والشمس والقمر ـ إلا إذا مات ؛ فإنه بالموت يعدم الانتفاع بهـٰذه الأنوار مع بقائها مشرقة في أنفسها ؛ إذ نور الحال للجسم الظاهر أصلي ، فلن يزول إلا بالموت ، بخلاف نور الحال للجسم الباطن ؛ فإنه عارض ، فيتصور زواله قبل انتهاء الأجل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) فنور القلب أصليٌّ لأنه كان قبلُ كنور الهواء للجسم الظاهر ، أودعه الله تعالىٰ في قلب عبده ، بخلاف نور البصر ؛ فإنه خلق منه . انتهىٰ من هامش (و) .

قيامِ النورِ كعَشَى العينِ الظاهرِ مِنَ البصيرِ .

فهٰذهِ قسمةٌ مِنَ الحكيمِ عزَّتْ قدرتُهُ عادلةٌ في الظاهرِ بينَ الجسمِ الظاهرِ وبينَ الجسمِ الباطنِ ؛ إعلاماً بالمحنةِ ، ودَلالةٌ في الباطنِ صادقةٌ على الرجوعِ إلى الباطنِ ؛ إلزاماً للحُجَّةِ .

فالدَّرَكُ بسببِ النورِ ، وعليهِ تدورُ الأمورُ ، وتمَّ الدَّرَكُ معَ نورِ الحالِ والآلةِ ، والآلةُ أصلٌ للعملِ ، والحالةُ شرطٌ .

ثم جَعَلَ النورَ لآلةِ الجسمِ الباطنِ ذاتيَّةً ، وللجسمِ الظاهرِ صفاتيَّةً ؛ ليدلَّنا على المصيرِ إلىٰ نورِ القلبِ بالاستدلالِ ، فالذاتُ اسمٌ للهُوِّيَّةِ ، والصفاتُ في الشاهدِ أسماءُ الأحوالِ[١] .

ثم ألزمَ هٰذا المعنى المستَدِلَّ وغيرَهُ باهتداءِ الجسمِ الظاهرِ إلىٰ مصالحِهِ علىٰ عمىٰ عينِهِ بنورِ عقلِهِ[٢] ، وعدمِ اهتداءِ قلبِ المجنونِ إلىٰ مراشدِهِ بنورِ عينِهِ ، وكذلكَ الجسمُ الظاهرُ إنَّما يصلُ إلى استيفاءِ حظِّهِ مِنَ الراحةِ والسكونِ بذهابِ النورِ حالاً ، فعاداتُ الجُسومِ في الاستراحةِ ليلاً ، والتعبِ نهاراً ، وكذلكَ جعلَ عواقبَ النفسِ مظلمةً لا تُرىٰ إلا بنورٍ ، وعواقبَ الروحِ نيِّرةً تتلألأُ متىٰ رُفِعَ عنها السُّتورُ .

فتمَّتْ أنوارُ الحالِ للقلبِ أربعاً ؛ نورُ العقلِ ، ونورُ القرآنِ ، ونورُ التوفيقِ ، ونورُ العواقبِ ، وتمَّتْ أنوارُ الحالِ للعينِ أربعاً ؛ نورُ السُّرُجِ

---

(١) إنما قيَّدَها بالشاهد ـ وهو العالم الحادث ـ لنفي الأحوال عن الله سبحانه وتعالىٰ ؛ إذ صفاته ليست غير الذات ولا عينها .

(٢) يعني : ثم ألزم الله تعالىٰ كونَ العقل آلةً للدرك المستدِلَّ والمقلِّدَ . . . إلىٰ آخره . مفادٌ من هامش (هـ) .

والشموعِ علىٰ زيادةٍ ونقصانٍ بتدبيرِ العبدِ ، ونورُ آيةِ الليلِ ونورُ آيةِ النهارِ بتقديرِ الربِّ ، **قسمةً عادلةً في الظاهرِ ، ودالَّةً علىٰ أنَّ الأصلَ للباطنِ** .

فنورُ الشمسِ والقمرِ في الأصلِ واحدٌ ؛ فآيةُ الليلِ ممحوَّةٌ ، وإنَّما تأخذُ نورَها ، بقَدْرِ مقابلةِ الشمسِ في مسيرِها ، وإنَّما اختلفَ الوقتُ ، وكذلكَ نورُ السراجِ والشمعِ واحدٌ مِنَ النارِ ، وإنَّما اختلفَ دسمُ الفتيلةِ بلا إشكالٍ .

ونورُ القرآنِ غيرُ نورِ العقلِ[1] ، بل فوقَهُ بكثيرٍ ، **ثم نورُ التوفيقِ ، ثم نورُ العواقبِ** ، وما لعواقبِ رقيبِ الدنيا نورٌ ، **وبنورِ عواقبِ رقيبِ المولى استنارَتِ الصدورُ**[2] .

كما سوَّىٰ بينَ آلَتَيِ الدَّرَكِ ظاهراً[3] ، وجعلَ آلةَ دَرَكِ العينِ حالاً لآلةِ دَرَكِ القلبِ باطناً ، حتىٰ بقيَ الدَّرَكُ للقلبِ معَ زوالِ معنىٰ دَرَكِ العينِ ، إلا ما كانَ القلبُ يدركُهُ حالَ رؤيتِها ، كما يزولُ دَرَكُ حسِّ العينِ بزوالِ نورِ حالتِها ، **وكما جعلَ معنىٰ دَرَكِ القلبِ ذاتيَّةً ، ومعنىٰ دَرَكِ العينِ صفاتيَّةً** .

ثم هـٰذا ليدلَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ تفاوتِ ما بينَ الدركينِ بتفاوتِ ما بينَ المعنيينِ[4] ، فالحالُ تبعٌ للأصلِ ، وكم بينَ التبعِ والمتبوعِ[5] !

---

(١) ولهـٰذا يضاف الحُكْمُ إلى النصِّ ، والقياس لا يعارض النصَّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) رقيب المولىٰ : الروح ، ورقيب الدنيا : النفس . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٣) العين والقلب . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٤) قوله : (ثم هـٰذا) ؛ يعني : التفاوت التبعي والأصلي . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٥) وذلك : أن درك الظاهر ـ وهو العين ـ آلةُ وحالُ الدرك الباطن ؛ إذ الباطن يبتدئ من حيث ينتهي إليه دركُ الحواسِّ ، والحال تبع ، والباطن أصل ، وبهـٰذا التفاوت استُدلَّ علىٰ تفاوت ما بين الدركينِ ؛ أعني : الظاهر والباطن ، بالتفكُّر تُرى البواطن والعواقب ، وهـٰذا أصل ، وقوله : (فالحال تبع للأصل) ؛ أي : دليل هـٰذا البيان . انتهىٰ من هامش (و) .

[معرفةُ الحواسِّ محدودةٌ ومشروطةٌ ، ومعرفةُ القلبِ ليست مثلَها]

ثم حقَّقَ التفاوتَ عِياناً علىٰ غيرِ المتأمِّلِ في المعنىٰ[1] ؛ فالعينُ في نورِها ترىٰ جسماً مكيَّفاً يغيبُ عنها لشدَّةِ القربِ والبعدِ ، والقلبُ يعلمُ بلا كيفٍ ولا حدٍّ ؛ فتمَّ وجوهُ الرؤيةِ أربعاً : واحدٌ للعينِ إذا اعتدلَتِ المسافةُ ، وثلاثٌ للقلبِ إذا اعتدلَتْ أو قَرُبَتْ أو بَعُدَتْ ، بل ما للقلبِ غيرُ متناهٍ يُرىٰ بلا جهةٍ ولا آفةٍ ، وما للعينِ متناهٍ بالجهةِ والمسافةِ .

ثمَّ اللهُ تعالىٰ جعلَ بينَ الجسمينِ اشتراكاً في الحقيقةِ[2] ؛ فالجسمُ الظاهرُ أصلٌ والفؤادُ تبعٌ مرأىً ، والفؤادُ أصلٌ والجسمُ الظاهرُ تبعٌ معنىً ، وبينَ الرقيبينِ اتفاقٌ علىٰ هـٰذهِ الدعوىٰ[3] ، عرفَهُ كلُّ مميِّزٍ مِنْ حالِهِ ، وحركتِهِ لأعمالِهِ .

ثم جعلَ المحسوساتِ كلَّها ؛ مِنْ مرئيٍّ ومسموعٍ ومشمومٍ ونحوِها في الظاهرِ . مدرَكاتٍ للجسمِ الظاهرِ لدَرَكِ الرغائبِ ، ومرآةً في الباطنِ للقلبِ لدَرَكِ العواقبِ .

فقد ثبتَ باتفاقٍ مِنَ الرقيبينِ أنَّ المقصودَ في بابِ الرؤيةِ هوَ القلبُ ؛ فالمطلوبُ بالرؤيةِ : نفعُ العاقبةِ ، وذلكَ بالعقلِ ؛ فإذاً صارَتِ المحسوساتُ مرآةً ، والمرآةُ ما صُقِلَتْ للرؤيةِ[4] ، بل للإراءةِ ؛ حتىٰ إذا قصدَ الجاهلُ بحالِ

---

(١) أي : لأصحاب الظواهر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أراد بالجسمين : ظاهر الإنسان وباطنه .

(٣) أراد بالرقيبين : النفس والروح ، والدعوىٰ : أن القلب هو الأصل ، والجسم تبعٌ له . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) يعني : لم تصقل المرآة لتُرىٰ ويُنظر إليها .

المرآةِ رؤيتَها خابَ نظراً ، ومتىٰ قصدَ العالمُ بها إراءةَ الوجهِ منها أصابَ بصراً .

فكذلكَ المحسوساتُ متىٰ قصدَها الجاهلُ بالرؤيةِ لدَرَكِ المواهبِ منها ضلَّ في مسالكِها علىٰ ما سبقَ شرحُها[١] ، ومتىٰ قصدَها العالمُ لإراءةِ قلبِهِ العواقبَ منها اهتدىٰ إلىٰ مراشدِهِ علىٰ ما يأتيكَ ذكرُها[٢] .

وكذلكَ المعلوماتُ كلُّها في الظاهرِ مرئيّاتٌ للجسمِ الباطنِ لدَرَكِ مراشدِهِ ، ومرآةٌ في الباطنِ للجسمِ الظاهرِ إلىٰ مصالحِهِ ، فالمقصودُ مِنَ العلمِ : العملُ الحاصلُ، وذلكَ بعدَ الاعتقادِ مِنَ الجسمِ الظاهرِ[٣]، والعبرةُ في البابِ للمقصودِ، وما المقدِّمةُ إلا طريقٌ مورودٌ ، فصارَتِ المعلوماتُ علىٰ هـٰذهِ الجملةِ مرآةً لا مرئيَّةً ، فمتىٰ قصدَها المخذولُ بالرؤيةِ لدَرَكِ مراشدِهِ انهمكَ في وادي مهالكِهِ، ومتىٰ قصدَها الموفَّقُ لإراءةِ الطريقِ جسمَهُ سلكَ إلىٰ مصالحِهِ ، فالمحسوسُ مرآةُ حُجَجِ اللهِ تعالىٰ للقلبِ لعاقبةِ العلمِ ، والمعلومُ مرآةٌ للجسمِ لعاقبةِ العملِ .

فالعملُ بلا علمٍ عبثٌ ، والعلمُ بلا عملٍ سفهٌ[٤] ، والسفهُ أبلغُ درجاتٍ في الإنكارِ مِنَ العبثِ ؛ فالعبثُ مردودٌ عقلاً لعدمِ الفائدةِ ، والسفهُ مردودٌ لقبحِ العائدةِ[٥] .

---

(١) تقدم (ص٥٧١) .

(٢) كما سيأتي في سياقه قريباً .

(٣) أي : ذلك العمل المقصود يحصل من الجسم الظاهر بعد الاعتقاد أنه عليه ؛ لأن الجسم رعيَّةٌ للعمل ، وقد سبق بيانه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) قال حجة الإسلام الغزالي في « أيها الولد » (ص٤٥) : (العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون ، واعلم : أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصي ، ولا يحملك على الطاعة . . لن يبعدك غداً عن نار جهنم) .

(٥) أما العبثُ : فحرام عقلاً ؛ لأنه اسم لفعل يخلو عن الفائدة ؛ فإن نفس الفعل وإن قلَّ ففيه=

[العلمُ بلا حُجَّةٍ جهلٌ ، وذمُّ التقليدِ]

ثمَّ العلمُ بلا حجَّةٍ جهلٌ ؛ كعلمِ الكفرةِ اتِّباعاً لآبائِهم ، والحُجَّةُ بلا مرآةٍ خيالٌ ، علىٰ مثالِ ما يَتخيَّلُ للإنسانِ شيءٌ بوهمِهِ ، أو في نومِهِ ، والاعتقادُ بالخيالِ ، فوقَ جهلِ الجُهَّالِ ؛ كاعتقادِ الطبائعيِّينَ ، مِنِ اعتقادِ جهلةِ الكافرينَ ، فذو الخيالِ لا يتركُ اعتقادَهُ إلا بفسادِ ما عندَهُ وظهورِ غيرِهِ ، وذو الجهلِ يتركُهُ بظهورِ الحُجَّةِ .

والمستغني بالعلومِ عنِ العملِ أهلَكُ مِنَ المستغني بالمحسوسِ عنِ العلمِ ، بعدَما استويا في معرفةِ الدنيا والمولىٰ[1] ، فضررُ الإعراضِ عنِ المقصودِ[2] ، بقدرِ ما في الإقبالِ عليهِ مِنَ المحمودِ ، وكذلكَ المستغني بالخيالِ عنِ الحُجَّةِ أكفرُ باللهِ مِنَ المستغني بالجهلِ عنِ العلمِ .

فانعقدَتِ الشِّرْكةُ بينَ الجسمينِ سواءً في الظاهرِ ، والكلُّ للفؤادِ في الباطنِ ؛ فالجسمُ الظاهرُ أحسَّ ابتداءً فعلمَ القلبُ بما أحسَّ فأكملَهُ ، ثم علمَ الفؤادُ فألزمَ الجسمَ بما علمَ انتهاءً فاستعملَهُ ، فكَمَلَ بما أراهُ العينُ ابتداءً[3] ،

= أدنىٰ مشقة ، فلا يتحمَّلُ عقلاً إلا لفائدة أولىٰ منها .

والسفهُ : اسم لا يوجب مضرَّة ، فكان أقبح من الأول ؛ لوجود معنى الأول فيه من فوت الفائدة ، وزيادة من غير ضرر ، فكان السفه من العبث كالظلم من الجهل ؛ ففي الجهل والعبث حرمان الفائدة ، وفي الظلم والسفه قبح الفائدة من التقديم . انتهىٰ من هامش (و) .

(١) المستغني بالعلم عارفٌ للمولىٰ ، والمستغني بالمحسوس عارف للدنيا . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) المقصود : هو العمل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الضمير في قوله : (كمل) راجع إلى القلب . مفادٌ من هامش (و) .

وأُطيعَ بما أرى الجسمَ انتهاءً .

وبينَ الرقيبينِ اتفاقٌ علىٰ هـٰذهِ الأحكامِ ؛ فالرضا بالمبدأِ دونَ العاقبةِ مِنْ عملِ الأنعامِ .

فصارَتْ آلاتُ الدَّرَكِ في المعنىٰ أربعاً : العينُ ، والقلبُ ، والمرآتانِ كالمرآةِ الحسيَّةِ[1] ؛ فإنَّها تعملُ عملَ عينٍ زائدةٍ ، بردِّ ذؤابةِ العينِ عليكَ عائدةً ؛ فالقلبُ الرائي بالمحسوسِ في نهْيِ الجسمِ عن فعلِ البهائمِ ، والجسمُ الرائي بالمعلومِ في طاعةِ القلبِ علىٰ طلبِ نفعِ العواقبِ .

[مؤازرةُ الظاهرِ للباطنِ]

فمتىٰ كانَ المحسوسُ مرآةَ الحُجَجِ للقلبِ استنارَ القلبُ استنارةَ العالَمِ نهاراً بحُجَجٍ أضوأَ مِنَ الشمسِ ، ومتىٰ كانَ المعلومُ مرآةَ العملِ للجسمِ استنارَ الجسمُ استنارةَ القلبِ بما أدركَ بالحسِّ ، فالمعلومُ أنورُ مِنَ المحسوسِ بكثيرٍ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقالَ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

[أنوارُ الباطنِ أربعةٌ]

فيصبحُ العبدُ حينئذٍ وهو في ظاهرِهِ وباطنِهِ نورٌ في نورٍ . بأنوارٍ أربعةٍ : نورِ الباطنِ ، ثم نورِ السرِّ ، ثم نورِ الجسمِ الباطنِ كلِّهِ بالعلمِ ، ثم نورِ الجسمِ الظاهرِ كلِّهِ بالعملِ ، وكلُّها مِنْ نورِ اللهِ تعالىٰ وكرامتِهِ[2] ؛ علىٰ ما قالَ تعالى :

(١) أي : المحسوس والمعقول . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) في العبارة تبرُّؤٌ من اعتقاد تأثير شيء من الحوادث .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور : ٣٥](١) .

نورٌ باطنٌ وهو نورُ النارِ قبلَ أنْ تُقْبَسَ ، ثم نورُ الشُّعْلَةِ بعدَما قُبِسَتْ واشتعلَتْ بها الفتيلةُ ، ثم نورُ الزجاجةِ وهوَ القنديلُ ، ثم نورُ المسجدِ كلِّهِ .

فهٰذا تفسيرُ العواقبِ التي كنَّا ذكرناها مجملةً ؛ النظرُ بالعينِ في العالَمِ

---

(١) والعلمُ نفسه إذا وقع للقلب نورٌ ، وقيل : الإيمان كالزيت الذي يكاد يضيء قبل الإيقاد ، فالعلم كالزيت ، واتصاله بالقلب كالزيت المتصل بالفتيلة ، وإيقاد نوره بالتصديق كإيقاد نور الفتيلة بالمصباح ، فهٰذا تشبيه أربعة بأربعة .

إن الله تعالىٰ ـ وهو أعلم ـ جعل مثل نوره في قلب المؤمن ـ أي : النور الواقع بهدايته وهو نور الإيمان في القلب ـ بنور المصباح المشتعل في الفتيلة ، والمصباح والسراج ليس باسم للنار نفسها ، ولٰكن الشهاب الظاهرُ من الفتيلة على الحقيقة ، فشبَّه القلب بالفتيلة ، ونور الإيمان المشتعل فيه باعتقاده بالمصباح المشتعل في الفتيلة .

قوله : ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ شبَّه صدر المؤمن بل بدنه كلَّهُ بالزجاجة الصافية الدرية ؛ ليعلم أن بدن المؤمن يستنير بنور الإيمان إذا صفا عن خبث المعاصي ؛ كالزجاجة الصافية الدرية تستنير بنور المصباح الذي فيه ، بل يزداد بصفاء البدن نورُ القلب كما يزداد بالزجاجة الدرية نورُ المصباح .

أبو رجاء عن الحسن : مثلُ هٰذا القرآن في قلب المؤمن كجبل ، الهاء كناية عن القرآن ، ومنهم من قال : مثل نور محمد ، ومنهم من قال : مثل نور المؤمن ، ولا يجوز أن تكون الهاء كناية عن الله .

فالعلم كالزيت ، واتصاله بالقلب كالزيت المتصل بالفتيلة ، واتقاد نوره بالتصديق كاتقاد نور الفتيلة بالمصباح .

فهٰذه سبب أربعة بأربعة ؛ العلمُ واتصاله بالقلب ، واتقاده بالاعتقاد ، والزيتُ واتصاله بالفتيلة ، والفتيلة واتقادها بالمصباح ؛ ضوء الزيت علىٰ ضوء النار علىٰ ضوء الزجاجة . انتهىٰ بطوله من هامش (و) .

المحسوسِ لعاقبةِ أنْ يكونَ مرآةَ القلبِ للحُجَجِ ، لا أنْ يكونَ مرئيّاً مقصوداً ، وعلمُ القلبِ الحُجَجَ ليكونَ مرآةَ الجسمِ الظاهرِ للعملِ ، لا أنْ تكونَ الحُجَجُ معلومةً مقصودةً .

[عواقبُ الرؤيةِ أربعٌ]

فصارَتْ عواقبُ الرؤيةِ أربعاً : رؤيةُ العينِ لعاقبةِ أنْ يكونَ المرئيُّ مرآةَ للقلبِ ، والرؤيةُ بالمرآةِ لعاقبةِ العلمِ ، والعلمُ لعاقبةِ أنْ يكونَ المعلومُ مرآةَ للجسمِ الظاهرِ ، والمرآةُ لعاقبةِ طاعةِ الجسمِ ، فصارَتْ هٰذهِ العواقبُ الحميدةُ مطلوبةً بالرؤيةِ اتِّفاقاً ، وهٰذهِ الأنوارُ كلُّها لرؤيةِ هٰذهِ العواقبِ إجماعاً ، وكلُّ ذلكَ إلىٰ مجامعِ الخيرِ وأقصىٰ غاياتِ النفعِ .

[اختلافُ النفسِ والروحِ في تحديدِ الدارِ التي يُسعىٰ إليها]

غيرَ أنَّ بينَ الرقيبينِ اختلافاً في تحديدِ دارِ الوصولِ إليها[1] ؛ فرقيبُ الدنيا يقولُ : هيَ الدنيا ، ورقيبُ المولىٰ يقولُ : هيَ الأخرىٰ .

[بدءُ دعوةِ القلبِ والقالبِ]

فجاءَ أوانُ الدعوةِ والخصومةِ[2] ، والحاجةِ إلى الحُجَّةِ ثمَّ الغلبةِ ، فالجسمانِ كانا في نومِ الغفلةِ علىٰ شعارِ الفطرةِ[3] ، وقدِ انفجرَ لهما صبحُ العقلِ ، وآنَ أوانُ القيامِ ، وأحاطَ بسمعيهما الأذانُ مِنْ خلفٍ وأمامٍ ، فوثبا

---

(١) الضمير في (إليها) راجعٌ إلى المنافع والعواقب المطلوبة .

(٢) زمن تحمُّلِ الأداء بالبلوغ والعقل ، بعد الإيمان بباعث العقل والنظر .

(٣) أراد بالجسمين : القلب والقالب . مفادٌ من هامش (هـ) .

مذعورينِ ووقفا خوفاً ، وأصغيا إلى الرقيبينِ سمعاً ، فإذا أحدُهما يدعوهما إلى الدنيا ، والآخرُ إلى المولىٰ جلَّ وتعالىٰ !

وما لهما بالدنيا ولا بالمولىٰ بعدُ مِنْ صحيحِ علمٍ ، فالآنَ قدِ انتبها عنِ النومِ ، وما أسفرَ بعدُ اليومُ ، فأَفْرَخَ رَوْعُهُما[1] ؛ فالنداءُ مِنَ الرقيبِ ، والدعاءُ دعاءُ الطبيبِ ، والمدعوُّ إليهِ مرغوبٌ فيهِ طبعاً ، مطلوبٌ شرعاً ؛ فالنفسُ تدعو إلىٰ مَعدِنِ النعمةِ ، والروحُ تدعو إلىٰ قاسمِ الرحمةِ .

غيرَ أنَّهما واقفانِ بحُكْمِ غفلةِ الصِّبا ، ما يُميِّزانِ بينَ الدنيا والمولىٰ ؛ فالغفلةُ ظلمةٌ وحجابٌ ما ترفعُهُ يدٌ ، ولا يطيقُ عليهِ أحدٌ .

فمكثا والقلبُ طائرٌ والجسمُ ناشطٌ[2] ، مُتَملمِلَينِ وراءَ الحجابِ حتىٰ أسفرَ النهارُ ، ورُفعَتِ الأستارُ ، وتسابقَتِ الأبصارُ إلى الدنيا والمولىٰ ، فإذا الدنيا ظاهرةٌ ذاتُ نِعَمٍ حاضرةٌ للعينِ ، لا ينكرُهُ القلبُ إلا بتأمُّلٍ ، واللهُ تعالىٰ باطنٌ صاحبُ رحمةٍ غائبٌ عنِ العينِ ، لا يعرفُهُ القلبُ إلا بتفكُّرٍ .

فيميلانِ إلى الظاهرِ الحاضرِ ميلاً ؛ فما بالمشتاقِ بعدَ الظفرِ اصطبارٌ ، ولا للمحجوبِ في مكانِ الحَجْبِ بعدَما رُفِعَ الحِجابُ قرارٌ .

[القلبُ والقالبُ يطلبانِ مِنَ الروحِ والنفسِ الحُجَّةَ علىٰ صدقِ دعواهما]

ثمَّ يقفُ القلبُ للتأمُّلِ في العاقبةِ ؛ فقد لزمَهُ باتِّفاقٍ مِنَ الرقيبينِ النظرُ في العواقبِ ، وتركُ العاجلِ الذاهبِ مِنَ المواهبِ ، فكانَتِ

---

(١) يعني : ذهب رُعبهما وفزعُهما .

(٢) شبه القلب بالطائر ، والقالب ـ وهو الجسم ـ بالناشط ؛ وهو الثور الوحشي الذي يخرج من أرض إلىٰ أرض . مفادٌ من هامش (و) .

المَيْلةُ للنفسِ ، والوَقْفةُ للروحِ[1] .

فتخاصمَ الرقيبانِ عندَ الوَقْفةِ[2] ؛ كما دعَواهُ وقتَ التنبُّهِ عنِ النومةِ ، فما ازدادَ الجسمانِ بالخصومةِ إلا توقُّفاً ؛ فما بخصومتِهما عاقبةٌ ظهرَتْ ، وما كانَتِ الوَقْفةُ إلا لعاقبةٍ استترَتْ ، فاحتاجَ الرقيبانِ إلى الحُجَّةِ ثمَّ الغلبةِ ، فما لواحدٍ منهما سلطانُ إجبارٍ ولا قدرةُ إكراهٍ ، والنفسُ عجولٌ مُعْجَبٌ ناريٌّ[3] ، والروحُ حليمٌ متواضعٌ نوريٌّ .

[حِجاجُ النفسِ معَ الروحِ]

فبدأَ النفسُ ـ عَجَلاً وعُجْباً ـ قبلَ الحُجَّةِ بالمغالبةِ[4] ؛ فما لها حُجَّةٌ مستقيمةٌ ، ولا شريعةٌ قويمةٌ ، ثم بالتحذيرِ ؛ فما لهُ غلبةٌ صادقةٌ ، كما ليسَتْ لهُ حُجَّةٌ ناطقةٌ ، ثم بالترغيبِ ؛ فما وعيدُهُ بمحذورٍ ، ولا عجزُهُ بمستورٍ ، ثم بالسرقةِ ؛ فما لمأمولِهِ حاصلٌ ، ولا لمرغوبِهِ طائلٌ .

[حِجاجُ النفسِ في المغالبةِ]

فيقبلُ على القلبِ ليسلبَهُ[5] ؛ فقد وقفَ بتأمُّلِهِ معَ الجسمِ مغالباً بقواهُ ؛ فهي طبائعُ معقولةٌ محيطةٌ بالجسمينِ ، وبجسمِهِ الظاهرِ ؛ فهو محسوسٌ محيطٌ بالقلبِ ، وبأعوانِهِ مِنْ جنسِهِ ؛ فأكثرُ الورىٰ ممَّنِ اتَّبعَ الهوىٰ ، وبأعوانِهِ

---

(١) أي : الميلُ للقلب بإشارة النفس ، والوقفةُ للقلب بإشارة الروح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : النفس والروح .

(٣) لأنه أمير الشيطان ؛ وهو ناريٌّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) يعني : عساه يغلب القلبَ فلا يحتاج إلى الحجة التي يعلم أنه لا يملكها .

(٥) أي : يقبل النفس لسلب القلب مغالباً بأربعة أشياء : بالطبائع الأربعة ، وبالجسم الظاهر ، وبالأعوان من الجنس ، ومن خلاف الجنس . انتهىٰ من هامش (و) .

الملاعينِ ؛ مِنْ خلافِ جنسِهِ مِنَ الشياطينِ .

[حِجاجُ الروحِ في ردِّ المغالبةِ]

والروحُ يشيرُ إلى القلبِ : أنَّ الحُكْمَ للربِّ الجليلِ(١) ، وما لأحدٍ ممَّنْ تراءىٰ لكَ عليكَ سبيلٌ ؛ فأمَّا الجسمُ المحيطُ بكَ فحصنُكَ لا عليكَ ، والنفسُ المخاطِبُ حافظُكَ لا قاتلُكَ ، فما لهم دونَكَ مِنْ حالٍ(٢) ، فاثبُتْ حتىٰ تظهرَ لكَ العاقبةُ الحميدةُ التي كانَتْ باتفاقٍ منَّا مطلوبةً ، فما للمناقضِ قولٌ مسموعٌ ، ولا سَمْتٌ مشروعٌ .

[حِجاجُ النفسِ في التحذيرِ]

فيثبتُ القلبُ ، وتخيبُ النفسُ ، وترجعُ إلى التحذيرِ ؛ فتقولُ : أمَا علمتَ أيُّها القلبُ أنَّكَ مضغةٌ في هٰذا الجسمِ(٣) ، وأنَّ الجسمَ وليدُ الدنيا وربيبُها ، وأبناؤُها آباؤُهُ وإخوتُهُ ، وما فيها مِنَ الرغائبِ نعمتُهُ ؟!(٤) .

---

(١) إذ لا حاكم سواه ؛ ففرقٌ بين معرفة حسن الأشياء وقبحها ولو من بابةِ الحكمة ، وبين لزومها لأحكامٍ خاصة ؛ إذ لا قبحَ عقلاً في ترك الثواب على الفعل الحسن ، وترك العقاب على الفعل السيِّئ ؛ قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٧] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر : ١٢] .

(٢) أي : للجسم وأعوانه والنفس ؛ لأن قتالهم بدون القلب والروح . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) روى البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعاً : « ألا وإنَّ في الجسد مضغةً ؛ إذا صلَحت صلَح الجسد كلُّهُ ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّهُ ؛ ألا وهي القلب » .

(٤) يعني : إنما يتنعَّم الجسم برغائب الدنيا .

أفتعرضُ عنها بدعوةِ الروحِ إلىٰ ما لا علمَ لكَ بهِ ؟![1] .

أمَا تخافُ عاقبةَ اختصاصِكَ بنهجٍ دونَهم ، ولا غنيةَ لكَ عنهم ؟!

[حِجاجُ الروحِ في ردِّ التحذيرِ]

والروحُ يقولُ : إنَّهُ لم يضرَّكَ بمغالبتِهِ ، أفيضرُّكَ بمخاطبتِهِ ؟! فاطلبْ منهُ عاقبةَ ما يدعوكَ إليهِ ؛ فما الذي ذكرَ مِنَ الوصلِ بعاقبةٍ باقيةٍ ؛ فإنَّكَ مفارقُهم ومفارقُها بالموتِ ، وقبلَ الموتِ بوجوهٍ مِنَ الفوتِ .

[حِجاجُ النفسِ في الترغيبِ]

فيثبتُ القلبُ ، وتخيبُ النفسُ ، وترجعُ إلى الترغيبِ ؛ فتزيِّنُ لهُ الدنيا وأولادَها وتعرضُها عليهِ في نقابِ جَمالٍ ، ورداءِ دَلالٍ ، وخاتمِ إقبالٍ ، وعهدِ وصالٍ ؛ لتُحبِّبَها إليهِ[2] ، فتُعميَهُ بالمحبَّةِ ، وتُصِمَّهُ بالهوىٰ عن إشاراتِ رقيبِ المولىٰ .

[حِجاجُ الروحِ في ردِّ الترغيبِ]

والروحُ يقولُ : وعليكَ ـ أيُّها القلبُ ـ بالنظرِ إلىٰ عاقبةِ ما يعرضُ لكَ ؛ فقدِ اتَّفقْنا علىٰ ردِّ ما لا عاقبةَ لهُ ، فتجدُ لها عواقبَ قبيحةً ، قد مرَّ شرحُها بفصولٍ فصيحةٍ[3] .

---

(١) إذ العاقبة الحميدة اليوم غيبٌ ، ويوم القيامة شهادةٌ ، والنفس تؤثر الحاضر من النعيم ، وإن كان المصير إلى الجحيم .

(٢) يعني : لتحبِّبَ النفسُ تلكَ المذكوراتِ للقلب .

(٣) انظر (ص٤٧٢) .

[حِجاجُ النفسِ في السرقةِ]

فيثبتُ علىٰ وَقْفتِهِ ، فيعزمُ النفسُ على السرقةِ ؛ فقد خابَ عنِ العلانيَةِ ؛ وإنَّها لشرُّ الوجوهِ ؛ فللفؤادِ غفلةٌ كما للعينِ نومةٌ ، وإنَّهُ ليغيبُ عن دَرَكِهِ بغفلتِهِ ؛ كما تغيبُ العينُ عن بصرِهِ بنومتِهِ ، والشجاعُ الحَذِرُ يُسرقُ ـ إذا نامَ ـ مالُهُ ، كما يُسرقُ الجبانُ الآمنُ مالُهُ .

فيقومُ النفسُ رَصَداً للقلبِ ، فإذا نَعَسَ بغفلةٍ ؛ وذلكَ بنظرةٍ إلى الدنيا أو فكرةٍ ، ومَنِ الذي يملكُ الخطرةَ ؟! . . وثبَ فسرقَ سرَّهُ ؛ برؤيةِ ما في الدنيا مِنَ النعيمِ ، فأتبعَ القلبُ النظرةَ النظرةَ ، وصارَتِ النَّعْسةُ نومةً ، فأحرزَ النفسُ السرَّ عندَها إلىٰ خزانتِهِ ، وأجلسَهُ علىٰ مائدتِهِ ، وآنسَهُ بأخدانِ إخوانٍ ، وأنشطَهُ بألحانٍ حِسانٍ ، وسقاهُ مِنْ شرابِ المحبَّةِ كأساً دِهاقاً ، وقالَ : هـٰذهِ الدنيا بأسرِها لكَ علىٰ طاعتِكَ فخُذْها جزاءً وِفاقاً .

[استدراجُ النفسِ للقلبِ والقالبِ بعدَ سرقةِ سرِّ القلبِ عندَ غفلتِهِ]

فصارتِ النومةُ بشربِ الكأسِ سكرةً ، وما تناولَ بعدُ مِنَ المائدةِ لقمةً ، وعقلُهُ أسيرٌ ، وهواهُ أميرٌ ، ونارُ الشهوةِ موقدةٌ ، والهوىٰ غمامٌ بينَ القلبِ وبينَ العاقبةِ المطلوبةِ ، وطاعةُ النفسِ غشاوةٌ على القلبِ ممدودةٌ ، والمعروضُ ممتنعٌ عليهِ قبلَ أداءِ المهرِ ، فيرجعُ القلبُ إلى النفسِ وقد عَمِيَ عنِ الروحِ ، فيسألُهُ الوفاءَ بالضمانِ .

فيقولُ[1] : إنَّا عرضْناها عليكَ للخِطبةِ ، وأريناكَها مسفرةً ليكونَ أحرىٰ أنْ

---

(١) أي : النفس ؛ لأجل إحكام أسرِ القلب والقالب في الدنيا والهوىٰ .

يؤدمَ بينكما[1] ، لٰكنَّها لا يُستمتعُ بها إلا بعَقْدٍ وشهودٍ ، وصداقٍ منقودٍ ؛ ففي التعاطي بلا سببِ ملكٍ فسادٌ في العاقبةِ ، وما دعوناكَ إلا بشرطِ الصبرِ عنِ الابتداءِ لصلاحِ الانتهاءِ[2] .

فيقولُ الجسمُ والقلبُ : ومِنْ أينَ لنا ذلكَ وإنَّا علىٰ فقرٍ ؟! وأنتَ علىٰ علوِّ الهمَّةِ تأنفُ مِنْ مقامِنا لخدمةِ الكبراءِ ، وتتعالىٰ عن سؤالِ الأغنياءِ ، والإجارةُ أو أخذُ المباحِ[3] ، ممَّا لا يُسْعِدانِنا بفلاحٍ ، وما وراءَ هٰذهِ الأسبابِ للمِلْكِ سببٌ ، لمَنْ لا عسكرَ لهُ ولا نَشَبَ[4] .

فقالَ : أبشرْ[5] ؛ فما معَ الحيلةِ عجزٌ ، وفي أبوابِها كلُّ نَجْزٍ ؛ لنسرقَنَّ مِنَ الناسِ أموالَهم ، ثم لنسرقَنَّ ببذلِها رجالَهم ، ثم لنغالبَنَّ بهم باقيَ الورىٰ ، ثم لنستوليَنَّ علىٰ جميعِ الدنيا ، وذلكَ الأمدُ الأقصىٰ[6] .

فيقولانِ[7] : نعمْ ؛ فالقلبُ قد صارَ أعشىٰ ، لا يبصرُ إلا الأدنىٰ ، فكيفَ لنا بالسرقةِ ؟

---

(١) أي : بين القلب والدنيا ؛ اقتباسٌ مما رواه الترمذي (١٠٨٧) وحسَّنه ، والنسائي (٦/ ٦٩) ، وابن ماجه (١٨٦٥) من حديث سيدنا المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه : أنه خطب امرأة ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « انظرْ إليها ؛ فإنه أحرىٰ أن يُؤدم بينكما » ، قال الترمذي : (ومعنىٰ قوله : « أحرىٰ أن يؤدم بينكما » : أحرىٰ أن تدوم المودَّة بينكما) .

(٢) أي : ابتداءَ الأمر كن صابراً حتىٰ تعرف الانتهاء والعاقبة ، ثم اشرع فيه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أخذ المباح : الصدقة ونحوها . مفادٌ من هامش (هـ) .

(٤) النشب : العقار ، وقيل : المال والعقار ، أو المال الصامت .

(٥) كذا في النسخ ؛ باعتبارهما يرجعان لشخص واحد .

(٦) يعني : عند النفس .

(٧) يعني : القلب والقالب .

[صورُ السرقةِ أربعٌ]

فيقولُ : إنَّها سرقةٌ مِنَ الحرزِ سرّاً ، وسرقةٌ مِنَ الطريقِ جهراً ، وسرقةٌ بالعلمِ قولاً ، وسرقةٌ بالزهدِ تَرْكاً .

فالأُوليانِ سببا الأموالِ بواسطةِ تحيُّنِ الفُرْصةِ ، والأُخريانِ سببانِ لأكبرَ منهما بواسطةِ الخُلْسةِ(١) ؛ فإنَّكَ متىٰ شُهرتَ بالعلمِ اختلسْتَ مِنَ الناسِ جاهَهم واحتاجوا إليكَ بأموالِهم متوسِّلينَ ، ومتىٰ شُهرتَ بالزهدِ اختلسْتَ مِنَ الناسِ قلوبَهم وتمنَّوا أنْ يكونوا عبيداً لكَ بأموالِهم راغبينَ ، فالأُوليانِ أقربُ ، والأُخريانِ آمنُ ، ولكما الخيارُ فاختارا .

فيختارانِ ، فاللهُ تعالى استدرجَهما بفتحِ أبوابِ الإصابةِ عليهما(٢) ، وتسابقِ الأغراضِ إليهما ، فأصبحَ العبدُ مَلِكاً مطاعاً مكفيّاً ، شاكراً نفسَهُ فقد وجدَهُ ضميناً وفيّاً .

فتمَّتْ دائرةُ جهادِ النفسِ لأخذِ القلبِ مِنْ غلبةٍ إلىٰ سرقةٍ ، ودائرةُ إيفاءِ الضمانِ مِنْ سرقةٍ إلىٰ غلبةٍ(٣) ؛ دائرتانِ حصينتانِ تمويهاً ، ومتناقضتانِ تحقيقاً ، فما صاغَ الدائرةَ إلا لطلبِ العاقبةِ ، وما لها مِنْ عاقبةٍ ؛ فالدنيا ـ وإنْ مُلكَتْ ـ زائلةٌ ، وقد علَّلَ لامتناعِ الدنيا عليهِ ابتداءً بعدمِ سببِ المِلْكِ ؛ لعاقبةِ

(١) الخُلْسة : النُّهْزة والفرصة ، وبفتح الخاء : اسم مرة ، ولا تكسر .

(٢) قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

(٣) فعادَ القلبُ ـ بعدما تجاوز غلبة النفس وتحذيرها وترغيبها ـ بعدما سرقت النفسُ سِرَّهُ . . إلىٰ رتبة الغلبة ، فهو قلب منكوس .

الصلاحِ والسَّدادِ[١] ، ثم طَرَّقَ إلى الأخذِ بالسرقةِ وإنَّها سببُ فسادٍ ، ثم جعلَ عاقبةَ الوفاءِ أنْ جعلَهُ على الدنيا أميراً ، وإنَّما جعلَهُ لمصالحِ الدنيا أسيراً ، فما زادَ في الدنيا قَصْراً ، ولا أحكمَ لها أمراً . . إلا نَقَصَ لنفسِهِ عمراً ، إلىٰ غمومٍ لا يُعرفُ حدُّها ، ومخاوفَ لا يمكنُ ردُّها ، علىٰ ما سبقَ منَّا لكَ ذكرُها[٢] ، معَ ما أمرَ بالأخذِ مِنَ الناسِ بعضاً بعضاً ، ثم الردِّ فيهم نقضاً نقضاً .

وقدِ استنارَتِ الدائرتانِ بقوَّةٍ ظاهراً ، وأظلمتا بعجزٍ باطناً ؛ فقد بدأَ الأمرَ بمغالبةِ نصيبِ المولىٰ فرجعَ بعجزٍ وخَسَرٍ ، وختمَ بمغالبةِ أبناءِ الدنيا فرجعَ بنَجْزٍ وظَفَرٍ ، فظهرَ بالأولىٰ عجزُ النفسِ ، وبالأخرىٰ عجزُ الجنسِ ، وظهرَ بالأولىٰ على الكلِّ[٣] ـ إذْ عجزوا عن مضغةٍ وهي القلبُ[٤] ـ قدرةُ المولىٰ ، وثبتَ بالأخرىٰ[٥] ـ وقدِ انتقمَ مِنَ الظالمِ بالظالمِ[٦] ـ قهرُهُ مِنْ حيثُ لم يشعرْهُ

(١) يعني : علَّلَتِ النفس للقلب سبب امتناع . . . إلىٰ آخره ، وكذا قوله فيما سيأتي ، وتقدم مراراً تذكير لفظة (النفس) للإمام المصنف .

(٢) من بداية الحِجاج .

(٣) الأولىٰ : قدرة الله تعالىٰ ، والكلُّ : النفس وأعوانها . مفادٌ من هامش (هـ) ، والظاهر : أنه أراد بالأولىٰ : الدائرة الأولىٰ ؛ وهي الابتداء بالغلبة ، والله غالبٌ علىٰ أمره ؛ حيث لم تقوَ النفس بمغالبتها مع كثرة أعوانها على القلب الذي هو مضغة ضعيفة ، فكيف تقدر علىٰ جمع الدنيا مع كثرة طلابها من كلابها ؟!

(٤) أي : بدأ النفسُ بمغالبة الروح ، فلم يقدر حتىٰ أخذ طريق الحيلة بالسرقة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٥) يعني : الدائرة الثانية والله أعلم ؛ حيث رجعت النفس بالسرقة إلىٰ ما فاتها ابتداءً من المغالبة .

(٦) أي : انتقم من الظالم ـ وهو القلب ـ بالظالم ؛ وهو النفس ، والقلب إنما صار ظالماً بانقياده للنفس . انتهىٰ من هامش (هـ) .

الورىٰ ؛ فهٰذهِ نفسٌ سُلبَتْ نصيبَ ربِّها ، وحفظَتْ نصيبَ الدنيا ، وبلَّغَهُ منها الأمدَ الأقصىٰ[1] .

[حِجاجُ الروحِ في ردِّ السرقةِ]

فيقومُ الروحُ قيامَ الساحرِ ، والساحرُ محتالٌ كالسارقِ ، إلا أنَّ السارقَ سالبٌ مكراً وسرّاً ، والساحرَ سالبٌ عِلْماً وجهراً ، ولٰكنَّهُ سرٌّ عنِ العيونِ لُطْفاً ؛ فيقولُ :

أيُّها القلبُ الذكيُّ ، والجسمُ الجريُّ ؛ سعيتُما للعظيمةِ ، وفُزْتُما بالكريمةِ ، وربحْتُما بالنظرِ في العواقبِ ، فحزْتُما عَلِيَّ المراتبِ ، وما رأيتُ مثلَكُما مِنْ ناظرٍ مصيبٍ طبعاً ، ثم طالبٍ عجيبٍ عقلاً ؛ فقدِ استحسنتُ فعلَكما ؛ مِنِ ابتداءِ أمرِكُما إلى انتهاءِ عمرِكُما .

كنتُما في المهدِ ابتداءً والظِّئرُ تربِّيكُما[2] ، فظننْتُماها صاحبةَ الأمرِ ، ومِلْتُما إليها في كلِّ خيرٍ وشرٍّ ، ثمَّ انتقلْتُما إلى الحَجْرِ ، فرأيتُما الأمَّ صاحبةَ الظِّئرِ ، فرجعْتُما إليها ، ثم خرجْتُما إلى القصرِ ، فرأيتُما الأبَ قَيِّمَ الأمرِ ، ففضَّلْتُماهُ عليها ، فحَسُنَ شرعُكُما ، بصفاءِ طبعِكُما ، ثم خرجْتُما إلى المصرِ فرأيتُما نعيمَ الدنيا ، وعرفْتُما صاحبَكما النفسَ بعقلٍ مَضِيٍّ ، انضمَّ إلىٰ طبعٍ صَفِيٍّ ، فرجعتُما إليهِ فبلَّغَكما الأمدَ الأقصىٰ[3] .

---

(١) كذا في جميع النسخ بتشديد (وبلَّغه) ؛ يعني : وبلَّغ النفسُ القلبَ من الدنيا الأمد الأقصىٰ .

(٢) انظر ما تقدم (ص٤٨٣) في حسبان الدنيا أمّاً .

(٣) أي : في الحظوظ الدنيا . انتهىٰ من هامش (هـ) .

[تنبيهُ القلبِ للنظرِ والتعرُّفِ علىٰ وجودِ اللهِ تعالىٰ]

غيرَ أنَّكُما قصَّرْتُما في طلبِ الأوَّلِ[١] ، فنفسُكما بعضُ نفوسِ الورىٰ ، وكلُّ الورىٰ أبناءُ الدنيا ، وإنَّما نفسُكُما رقيبٌ داعٍ إلى الأوَّلِ ؛ ليكونَ القرارُ لدىٰ مَنْ لم يزلْ .

والنفسُ في كلِّ ذلكَ تقولُ : نعمْ ، كلامٌ صِدْقٌ ، وقولٌ حقٌّ ؛ فاستمعا لهُ[٢] .

فتقولُ الروحُ : فانظرا ـ فقد وُفِّقْتُما للإصابةِ ـ إلىٰ ما يتولَّدُ منهُ هـٰذا النعيمُ[٣] ، فارجعا إليهِ كما رجعْتُما عنِ الأبوينِ إلى النفسِ العظيمِ .

فيقولانِ : نعمْ ؛ إنَّها النارُ والماءُ والترابُ والريحُ[٤] .

فيقولُ : فانظرا فيما أوجبَ الاعتدالَ بينَ هـٰذهِ الأصولِ ؛ فإنَّها أضدادٌ ، فارجعا إليهِ .

فيقولانِ : نعمْ ؛ إنَّها الكواكبُ السبعةُ الملوكُ[٥] .

فيقولُ : فانظرا إلىٰ مَنْ سخَّرَها[٦] ؛ فالمسخَّرُ لا يصلحُ للتدبيرِ ، فارجعا إليهِ[٧] .

---

(١) أي : قصَّرتما في طلب المبدع الأول ؛ وهو الله تعالىٰ . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٢) خطابُ النفس للقلب والقالب .

(٣) يعني : نعيم الدنيا الفانية .

(٤) مجاراة الروح لهما في اعتقادهما ـ علىٰ فساد ما سيأتي من اعتقادات ـ للوصول بهما إلى الأول سبحانه ؛ فاعتقاد تأثير الطبائع الأربع هو قول الطبائعيين .

(٥) هـٰذا قول الصابئة ومن يعتقد تأثير الكواكب والنجوم بنفوسها ، وسبق أن هـٰذه السبعة : هي عطاردٌ ، والزُّهَرة ، والقمر ، والشمس ، والمِرِّيخ ، والمشتري ، وزُحَلُ .

(٦) إذ هي بالمشاهدة منظومة ضمن نظام ، ورهينةُ أحكام ؛ وذلك من علامات التسخير ، فهي مدبَّرة وليست من أهل التدبير .

(٧) قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ=

فيقفانِ مسترشدينِ مِنَ الروحِ ؛ لوقوفِهما علىٰ فَرْطِ معرفتِهِ ، وحُسْنِ هدايتِهِ[١] .

[العالَمُ مدبَّرٌ صامتٌ ناطقٌ بوجودِ مدبِّرٍ لهُ]

فيقولُ : إنَّهُ يُقالُ : هوَ العلَّةُ الأولىٰ ، أوِ العُنْصُرُ ، أوِ الهَيُولىٰ[٢] ، ولا مشاقَّةَ في الأسماءِ[٣] ، فالعبرةُ للمعنىٰ ، فالاسمُ بلا معنىً فاسدٌ مِنَ الدعوىٰ ، والمعنيُّ منهُ : مُنْشِئُ الفَلَكِ والنجومِ ومدبِّرُهما علىٰ تسخيرٍ ، وقاهرُ الطبائعِ الأضدادِ حتى اعتدلَتْ بالتقديرِ ، ومعلِّقُ أمورِ العالمِ المدبَّرِ اختياراً بها حدوثاً ثم هلاكاً[٤] ، حتىٰ يتيقَّنَ المدبَّرُ الهالكُ بالمسخِّرِ أنَّهُ ليسَ بذي قدرةٍ[٥] ، وقد عرفَ المسخَّرُ أنَّهُ ليسَ علىٰ إمرةٍ .

= ﴿ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥ـ٧٩] .

(١) فبلغ الروح مراده بحلمه ورويَّتِهِ ، وإرشاده بالتدرُّج وحسن الجدل ، وهـٰذا هو وجه سحريَّتِهِ .

(٢) مجاراة لأقوال الفلاسفة .

(٣) يعني : لا يوجب اختلافُ الأسماء بعد الاتفاق علىٰ حقيقة المسمَّىٰ مشاقَّةً ؛ وهي الخصومة ، كذا وقع تفسيرها في هامش (هـ) ، والمشهور أنهم يقولون : لا مشاحَّة في الاصطلاح ؛ يعني : لا ضنَّةَ فيه ، وهنا يبدأ الحديث عن الإلـٰهيَّات ، والبدءُ بإثبات صفة الوجود .

(٤) كذا في (أ ، ج) ، وفي سائر النسخ : (اختياراتها) بدل (اختياراً بها) ، والمراد : أن هـٰذا العالم مشيءٌ وليس بشاءٍ ؛ فإلى المشيئة القديمة يستند كلُّ شيء ، وهي لا تستند إلىٰ شيء ؛ لاستحالة وجود النقص لمن يجب له الكمال .

(٥) يعني : إن رأى الحادث أنه مسخَّرٌ مدبَّرٌ علم أنه لا قدرة له ، وأنه محلٌّ لتدبير المسخِّرِ له =

[نفيُ المكانِ عنِ اللهِ تعالىٰ]

فيقولانِ[1] : نعمْ ، أينَ هو ؟

فيقولُ : لا أينَ ؛ فـ (أينَ) عبارةٌ عنِ المكانِ[2] ، والمكانُ هوَ الأجزاءُ الظاهرةُ مِنَ العالمِ بما عليها ، وقد ثبتَ حدوثُ كلِّ العالمِ بخَلْقِ الخالقِ ،

= والمدبِّر لشؤونه ، وهنا يجب على الناظر ألا يغترَّ بكونه مختاراً وقد رأى اضطراراً في وجوده وفنائه ، واضطراراً في تدبيراته الباطنية ؛ إذ ليس له فيها أدنى اختيار ، وما الأدوية إلا حِيَلٌ مشروعة ، وتأثيراتها في ذاتها ممنوعة .

(١) هٰذا شروع في الحديث عن صفات الجلال السلبية له سبحانه ، وابتدأ بالسؤال الأول للقلب بعد إثبات وجوده جلَّ وعزَّ : إن كان موجوداً فأين هو ؟

(٢) وكلمة (أين) : يُسأل بها عن المكان ، وعن المكانة ؛ قال العلامة ابن العربي المالكي في « عارضة الأحوذي » (١١/ ٢٧٣) : (المراد بالسؤال بها عنه تعالىٰ : المكانة ؛ فإن المكان يستحيل عليه) .

أما خبر الجارية المؤمنة رضي الله عنها الذي رواه مسلم (٥٣٧) من حديث سيدنا معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه ، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم سألها فقال : « أين اللهُ ؟ » ، فقالت : في السماء . . فلهٰذا الخبر روايات صحيحات كثيرات ليس فيها ذكر لفظ (أين) أصلاً ، بل منها ما ورد بلفظ : « أتشهدين أن لا إلٰه إلا الله ؟ » ، وبلفظ : « مَنْ ربُّكِ ؟ » ونحوهما ، ولهٰذا قال الإمام السرخسي في « المبسوط » (٧/ ٤) : (إن في صحة هٰذا الحديث كلاماً) ، ثم قال : (ولا نظنُّ برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يطلبُ من أحدٍ أن يثبت لله تعالىٰ جهة ولا مكاناً) ، ولهٰذا حقَّق العلماء أن رواية الإمام مسلم مرويةٌ بالمعنىٰ ، وأن رواية الإمام مالك مع أنها مرسلة أجودُ منها ، ولو سلَّمنا الرواية فهي مؤوَّلة ؛ لمخالفتها لقواطع العقل وصحيح النقل ، وانظر « إشارات المرام » (ص١٩٩) .

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/ ٢٢٠) : (إن إدراك العقول للأسرار الربوبية قاصرٌ ، فلا يتوجَّه علىٰ حُكْمه « لِمَ » ولا « كيف » ، كما لا يتوجَّهُ عليه في وجوده « أين » و« حيث ») .

وكانَ الخالقُ ولا مكانَ ، فخلقَ المكانَ ، فبقيَ علىٰ ما كانَ[1] .

[نفيُ الكيفِ عنِ اللهِ تعالىٰ]

فيقولانِ : كيفَ هو ؟

فيقولُ : لا كيفَ ؛ فـ (كيفَ) عبارةٌ عنِ استحضارِ الحالِ ، والحالُ عَرَضٌ حادثٌ ، ووصفُ المحدِثِ بالحَدَثِ محالٌ .

[نفيُ الزمانِ عنِ اللهِ تعالىٰ]

فيقولانِ : متىٰ كانَ ؟

فيقولُ : لا متىٰ ؛ فـ (متىٰ) عبارةٌ عنِ الزمانِ ، والزمانُ اسمٌ للساعاتِ ، والأيامِ والشهورِ والسنواتِ ، وعلَّتُها دورانُ الفلكِ[2] ، وإنَّهُ مخلوقٌ بطرائقِهِ ، ونحنُ في بيانِ خالقِهِ .

[مخالفتُهُ سبحانه للحادثاتِ]

فيقولانِ : ألا ندركُهُ بالحسِّ ؟

فيقولُ : لا ؛ فإنَّ الدَّرَكَ بالحسِّ لكيفيَّةِ المحسوسِ[3] ، ولا كيفَ ، ولأنَّهُ

---

(١) انظر ما تقدم (ص٢٥٧) .

(٢) فيه : أن الزمان ليس له وجود ذاتي ، بل هو مفهوم من دوران وحركة الكواكب والنجوم في أفلاكها ؛ فدوران القمر في فلكه حول الأرض دورةً كاملة يسمَّىٰ بالسنة ، وهـٰكذا ، فهو أمرٌ نسبيٌّ .

(٣) يعني : لو أدركناه سبحانه بحواسِّنا لوجب إثبات الكيف له تعالىٰ وجلَّ ، وقد ثبت قريباً انتفاءُ الكيف عنه سبحانه ، ولهـٰذا لما أثبتنا أنه جلَّ جلاله يُرىٰ في الجنة لأهلها ألزمنا أن تكون هـٰذه الرؤية بلا كيفية ؛ لانعدام الكيفيات التي تلابس الحادثات ، غاية الرؤية : أنها =

لا بدَّ للدَّرَكِ بالحسِّ مِنْ مكانينِ تتَّصلُ الحاسَّةُ مِنَ الحاسِّ بالمحسوسِ[1] .

[نفيُ الماهيَّةِ عنِ اللهِ تعالىٰ]

فيقولانِ : وما هو ؟

فيقولُ : لا مائيَّةَ ؛ فـ (ما) اسمٌ لما لا علمَ لهُ ولا مَشِيَّةَ[2] .

فيقولانِ : مَنْ هو ؟

فيقولُ : خالقُ العالمِ لكَ يا ولدَ آدمَ ، ومقدِّرُ السيادةِ مِنْ جنسِكَ للعالمِ[3] .

[إبطالُ القولِ بالتولُّدِ]

فيقولانِ : أَحَدَثَ هـٰذا العالمُ تولُّداً مِنْ نفسِهِ ، أو تكوُّناً بحُكْمِهِ ؟

= انكشاف تامٌ يخلقه تعالىٰ في عين المؤمن في الجنة ؛ فيُثبتُ له تعالى الذاتَ والصفاتِ الكاملات ، فكما عرفه في الدنيا بالاعتقاد الصحيح يزداد كشفه بتحقيق هـٰذا الاعتقاد .

(١) قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص١٧٥) : (الله سبحانه لم يعرف من طريق الحواسِّ ، ولا له مثال في المعروف) .

(٢) يعني : المائيةُ ـ وهي الماهيَّة أيضاً ـ ملازمةٌ لمن لا علمَ عنده إلا بالتعلُّم ، ولا مشيئةَ له إلا بمشيئة من هو فوقه ، قال الإمام أبو المَعين النسفي في « التمهيد » (ص١٥٥) : (إن الله تعالىٰ لا يوصف بالمائية ؛ لأنها عبارة عن المجانسة ، وهي توجب المماثلة بين المتجانسين من حيث استواؤهما في الجنس ، والله تعالىٰ ليس بذي جنس ، فلا يكون له مائية) ، ثم قال : (وما روىٰ أرباب المقالات عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ : أن لله تعالىٰ مائيةً لا يعرفها إلا هو . . افتراءٌ عليه ، والشيخ الإمام أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالىٰ كان من أشدِّ الناس اتباعاً لأبي حنيفة رضي الله عنه في الأصول والفروع جميعاً ، وهو نفى القول بالمائية) .

(٣) أي : جعل واحداً منهم سيِّدَهم يسودهم ويسوسهم للعالم ؛ أي : لانتظام العالم ، وبعبارة أخرىٰ : قدَّر السيادة لواحد من جنس الإنس ، فيسوس العالم ويسود الكلَّ كما ترىٰ في الشاهد . انتهىٰ من هامش (و) .

فيقولُ : إنَّ التولُّدَ لا ينفكُّ عن مكانينِ وجزأينِ(١) ، وقد ذكرنا أنَّهُ لا مكانَ لهُ ، وكذلكَ لا أجزاءَ ، فغيرُ مستقيمٍ القولُ بالأجزاءِ معَ الابتداءِ(٢) ؛ فلن يُتصوَّرَ الشيءُ أجزاءً إلا باجتماعٍ(٣) ، والاجتماعُ عرضٌ ، والعرضُ حَدَثٌ ، والموجودُ بحَدَثٍ لا يتَّصفُ بالقدمِ(٤) ، وباجتماعِ الأجزاءِ ممَّا يُستدلُّ على المحسوساتِ بالحَدَثِ(٥) .

ولأنَّ الموجودَ بالتولُّدِ لا يُتصوَّرُ إلا علىٰ مثالِ المولِّدِ بجسمِهِ أو بطبعِهِ ؛ كالمتولِّدِ مِنْ كلِّ أصلٍ في العالمِ ، وممَّا يتولَّدُ مِنَ النباتِ بصنعِ بني آدمَ .

ثم كانَ قِوامُ المتولِّداتِ بطبائعَ متضادَّةٍ اعتدلَتْ ، وبأجزاءٍ اجتمعَتْ ، ولن تعتدلَ الأضدادُ إلا بقاهرٍ ، ولا الأجزاءُ تجتمعُ إلا بجامعٍ ، **وأنا في طلبِهِ** ، ولم يجزْ أنْ يكونَ ذلكَ القاهرُ والداً علىٰ مثالِ الولدِ ، فيصيرَ مُحْدَثاً كما صارَ الولدُ .

فلم يبقَ إلا أنْ يكونَ محدِثاً بالحُكْمِ ، شاءَ فكانَ كما شاءَ(٦) .

---

(١) لا يراد هنا من التولُّد : نشوءُ فعلٍ عن فاعلٍ بواسطة ، بل حقيقةُ مفهوم التولُّد ؛ وهو أن يخرج جسم من جوف جسم مثلاً ، أو خروج مَحْوِيٍّ من حاوٍ أيّاً كان ، وهـٰذا من صفة الجواهر والأعراض ، وهو المشار إليه في قوله تعالىٰ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص : ٣] ، وفي هامش (ج ، هـ ، و) : (التولُّد : هو الانفصال ، فلا بدَّ من مكان قبل الانفصال وبعده) ، وأيضاً : (قوله : « تولداً » ؛ أي : طريقُ وحفظ العالم : بطريق التولُّد ؛ كما تولد الثمار من الأشجار ، والأولاد من الأمهات ، أو بطريق التخليق من الله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : ٢]) .

(٢) إذ يلزم منه تعدُّدُ القدماء المحالُ عقلاً .

(٣) ومثله الافتراق ، وكلاهما من الأكوان الأربعة التي لا ينفكُّ عنها حادث .

(٤) مع وصف القدم والأولية لصانع العالم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) يعني : اجتماعُ الأجزاء دليلٌ علىٰ حدوث المؤلَّف منها .

(٦) أي : لم يبقَ لوجود العالم من العدم إلا طريقُ الإيجاد ، بعد انتفاء ثبوت العالم بطريق =

[منعُ تسميتِهِ تعالىٰ بالعلَّةِ والعُنْصُرِ والهَيُولىٰ]

فيقولانِ : إنْ كانَتْ معرفةُ هٰذا المحدِثِ علىٰ سبيلِ الوجوبِ فمِنْ أينَ أُثبتَ لهُ اسمُ العُنْصُرِ والهَيُولىٰ ؟ وبأيِّ وجوبٍ سُمِّيَ العلَّةَ الأولىٰ ؟[1] .

فيقولُ : إنَّهُ لم يزلْ كانَ شبهةً في عقدي ـ ونعمَ العونُ الشورىٰ ، وبئسَ الرفيقُ الإعجابُ بما يُسمعُ أو يُرىٰ ـ : أنَّ العلَّةَ اسمٌ لما يُحدِثُ بلا اختيارٍ ؛ كالمرضِ سُمِّيَ علَّةً لإحداثِهِ تغيُّراً في المريضِ لم يكنْ ، ولا اختيارَ للمرضِ ، والقتلُ علَّةُ الموتِ ، والاختيارُ للقاتلِ لا للقتلِ ، والقاتلُ لا يُسمَّىٰ علَّةً ، وما لا اختيارَ لهُ فمسخَّرٌ ، لا محدِثٌ مدبِّرٌ .

وأمَّا العنصرُ والهَيُولىٰ : فلا يُعقلُ لهما في لغتِنا معنىً[2] ، فندعُ

= التولُّد ، وقوله : (بالحكم) ؛ أي : بالأمر الجزم ؛ يعني : الإرادة المطلقة ، من غير تشبيه وتعطيل . مفادٌ من هامش (و) .

(١) أي : لا بدَّ من معرفة أن هٰذا المحدث واجب الوجود ؛ أي : يجب وجوده لا علىٰ سبيل الإمكان ، بل بطريق الوجود . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ ، و) .

(٢) العنصر والهَيُولى الأولىٰ عند الفلاسفة بمعنىً ؛ وهو اسم للأصل الأول في الموضوعات عندهم ، ولا دليل علىٰ وجوده إلا الوهم والتخيُّل ، ولا مدخل للعقل في إثباته ، وانظر « معيار العلم » (ص٣٩٨) ، وقال فيه (ص٣٧٥) : (لم يمكن مناظرتهم ـ يعني : الفلاسفة ـ إلا بلغتهم وعلىٰ حكم اصطلاحهم ، وإذا لم يُفهم ما أرادوه باصطلاحهم لا يمكن مناظرتهم) .

وقال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص١٤٧) : (وزعم صنفٌ أن طينة العالم كانت قديمة ، سُمِّيت هَيُولىٰ ، معها قوة لم تزل بصفتها ، ولا طول لها ولا عرض ولا عمق ، ولا وزن ، ولا مِساحة ، ولا لون ، ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا لين ولا خشونة ، ولا حرَّ ولا برد ولا بِلَّة ، ولا حركة ولا سكون ، ولا شيء معها في أوَّليتها من الأعراض، وقبلت الهَيُولى القوة بطباع منها لا باختيار ، فحدثت هٰذه الأعراض فسمي=

ما لا نعرفُ بما عرفْنا لهُ معنىً .

فنقولُ : إنَّهُ واحدٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ أوَّلٌ ما قبلَهُ شيءٌ ذاتاً فيكونَ هو ثانياً بعدَهُ ، وفردٌ ما يماثلُهُ شيءٌ سواهُ صفاتٍ فيصيرَ لهُ زوجاً ، لا إنَّهُ واحدٌ مِنْ حيثُ العددُ فيكونَ جزءاً .

[اسمُهُ تعالىٰ (اللهُ) بهِ سمَّىٰ نفسَهُ]

فيقولانِ : إنَّهُ وصفٌ كافٍ[1] ، فما الاسمُ الذي هوَ اسمُ معرفةٍ شافٍ ؟

فيقولُ : اللهُ .

فيقولانِ : فما معنى (اللهِ) ؛ فقد تركْنا الاسمَ بلا معنىً ؟

فيقولُ : (اللهُ) كانَ في الأصلِ (الإلـٰهَ) ، ولـٰكنْ لُيِّنَتِ الهمزةُ لكثرةِ الاستعمالِ ، ثم أُدغمَتِ اللامُ في اللامِ ، فصارَ (اللهَ)[2] .

والإلـٰهُ : المستحقُّ للعبوديَّةِ والعبادةِ في لغةِ العربِ ، وكانَتِ العربُ تُسمِّي

= جوهراً ؛ وهو جوهر واحد ؛ وهو جوهر العالم ، والاتفاق والافتراق إنما جاء من قِبَلِ الأعراض) ، ثم نعت هـٰذا بأنه استئناس بالخيال ، فأيُّ عقلٍ يوجب مثل هـٰذه الأوهام ؟! ولـٰكنه البعد عن نور التوفيق ، وأنوار التنزيل ، ونور العقل الخالص ؛ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

(١) في هامش (ج ، هـ) : (أي : لفظ واحد) .

(٢) وعلىٰ هـٰذا أكثر النحاة وأئمة اللغة ، وهو قول أبي الهيثم الرازي ، وشبَّهَ الحذف والإدغام فيه بما وقع في قوله سبحانه : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ [الكهف : ٣٨] ؛ إذ حذفت الهمزة ، وتحوَّلت فتحتها إلى النون الساكنة قبلها ، فاجتمعت نونان ، فأدغمتا .

وذهب سيبويه والمبرد عن الخليل بن أحمد : إلىٰ أنه اسم غير مشتقٍّ أصلاً ، وانظر « الأسماء والصفات » لعصريِّ المصنف الإمام عبد القاهر البغدادي (١/ ٤٩٨) .

الأصنامَ آلهةً ؛ لاعتقادِهم أنَّها معبودةٌ استحقاقاً[1] .

فيقولانِ : ولِمَ كانَ هـٰذا الاسمُ لهُ اسمَ معرفةٍ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ ؟

فيقولُ : لأنَّ أدونَ درجاتِ المختارِ : أنْ يكونَ حقّاً عليهِ اختيارُ العبادةِ فعلاً ، والتزامُ العبوديّةِ عَقْداً ، فكانَ الأعلىٰ في مقابلتِهِ[2] : ما ينبئُ عنِ استحقاقِ هـٰذا الحقِّ عليهِ[3] ؛ وذلكَ اسمُ (اللهِ) تعالىٰ ؛ فدلَّ الاسمُ علىٰ خَلْقِ هـٰذا الخَلْقِ ؛ ليتحقَّقَ معناهُ فعلاً بهم ، وبهِ نطقَ القرآنُ[4] ؛ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، لـٰكنْ بحقِّ الأمرِ دونَ الجبرِ .

وبهـٰذا الاسمِ نطقَ القرآنُ ؛ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص : ١ـ٢] ، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الحشر : ٢٢] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتىٰ يقولوا : لا إلـٰهَ إلا اللهُ »[5] .

[الوجودُ الواجبيُّ لا يعلَّلُ]

فيقولانِ : كيفَ نعرفُهُ موجوداً بلا سببٍ ، وقدِ استحالَ في الشاهدِ ذلكَ ؟

---

(١) انظر « الأسماء والصفات » للبغدادي (١/ ٥٠٢) .

(٢) يعني : في مقابلة الأدنىٰ . مفادٌ من هامش (و) ، والمراد بالأدون : العبد المكلَّف المختار ؛ فكأنه قيل : لمَّا وُجِدَ العابد استحقَّ موجدُهُ اسم المعبود .

(٣) وهو العبادة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) يعني : باستحقاق العبادة .

(٥) رواه البخاري (٢٥ ، ١٣٩٩) ، ومسلم (٢٠ ، ٢٢) من حديث سيدنا عمر وابنه رضي الله عنهما .

فيقولُ : إنَّكَ ترىٰ في الشاهدِ الحادثَ عن سببٍ ، وكلامُنا في المحدِثِ[1] ، ولأنَّكَ متىٰ عرفْتَ الوجودَ في نفسِهِ عن سببٍ كانَ السببُ موجوداً قبلَهُ ، فلا يخلو ذلكَ الموجودُ عن آخرَ علىٰ مثالِ الشاهدِ ، فيؤدِّي إلىٰ ما لا يتناهىٰ .

[التسلسلُ مِنْ جهةِ الأزلِ محالٌ عقلاً]

فيقولانِ : وما الذي يمنعُنا عنِ القولِ بهِ وقد لزمَكَ في الشاهدِ الآدميُّ عن نطفةٍ ، والنطفةُ عنِ الآدميِّ ، والبيضةُ عنِ الطيرِ ، والطيرُ عن بيضةٍ[2] ؛ دائرةٌ ما لها ابتداءٌ ولا انتهاءٌ ؟

فيقولُ : القولُ بالحدوثِ لجملةٍ يَضطرُّكَ إلى القولِ بتناهيهِ إلىٰ حينِ حدوثِهِ ، ولا يتناهىٰ إلا بجعلِ ابتداءِ الحدوثِ عن إحداثِ محدِثٍ عليٍّ عن آياتِ الحَدَثِ[3] ،

---

(1) يعني : إن سلَّمنا بصحة وقطعيَّة الاستدلال بالشاهد على الغائب . . فدعواك ليست من ذلك ؛ لأنَّنا في الشاهد رأينا الحادث متوقِّفاً وجودُهُ علىٰ سبب ، لا المحدِثَ له ، وسيأتيك أنه لا خالق سواه سبحانه .

وروى القشيريُّ في « رسالته » (ص٦٢٢) عن محمد بن أحمد الأصبهاني قال : وقف رجل على الحسين بن منصور فقال : مَنِ الحقُّ الذي تشيرون إليه ؟ فقال : مُعِلُّ الأنام ولا يعتلُّ .

(2) إن النُّطَف والحبوبَ وما شاكلها جاهلةٌ عاجزةٌ بالمشاهدة ، مفتقرةٌ لتصير حيواناً أو نباتاً إلىٰ مدبِّر عالم مختار بالضرورة ، هـٰذا هو العِيان المشاهد على التحقيق ، وإلا فمن هو الذي يمكنه تصوُّرُ عدم نهايةٍ في هـٰذه السلاسل المفروضة ؟!

(3) هـٰذه الكلمات الوجيزة خلاصة نقض ما يعرف بالتسلسل ؛ إذ تسليم الخصم بحدوث الأفراد ملزمٌ له بحدوث الجملة ، ويبقىٰ قوله : (لا بداية لها) من غير برهان ، ودون البرهنة علىٰ ذلك خرطُ القتاد ، والقول في الدور كالقول في التسلسل ؛ إذ التسلسل : ترتُّب أمور غير متناهية ، ولذلك قد يقتصرُ علىٰ إبطال التسلسل ، وانظر « حاشية الأمير =

فيكونُ أزليّاً ما لهُ حدوثٌ فيتناهىٰ إلىٰ حينِ حدوثِهِ[١] .

[عدمُ التناهي في العاقبةِ ليسَ مِنْ صورِ التسلسلِ]

فيقولانِ : أليسَ لا انتهاءَ لنا في العاقبةِ ؟! فكيفَ جازَ الابتداءُ لما لا انتهاءَ لهُ ؟ إنَّما هو خيطٌ لهُ طرفُ ابتداءٍ وطرفُ انتهاءٍ لا يجوزُ غيرُهُ ، وحَلْقةٌ ما لها طرفُ ابتداءٍ ولا طرفُ انتهاءٍ[٢] ، فلمَّا لم يكنْ لوجودِنا انتهاءٌ ثبتَ ضرورةً أنَّهُ لا ابتداءَ لهُ .

فيقولُ : إنَّ التناهيَ في الشاهدِ لأجزاءِ المحدَثِ حتىٰ كانَ محدوداً . . ثابتٌ سواءٌ كانَ خيطاً أو حَلْقةً[٣] ، وهـٰكذا القولُ فيما أحدثَهُ اللهُ تعالىٰ ، فأمَّا مِنْ حيثُ البقاءُ موجوداً فذلكَ في الشاهدِ غيرُ متناهٍ ، فإنَّ مَنْ يتَّصفُ بالبقاءِ إذا وُجِدَ بقيَ كذلكَ بلا علَّةٍ تبقيهِ ، ولا يزولُ إلا بعلَّةٍ مزيلةٍ ، فكانَ الزوالُ وتناهي وجودِهِ بعلَّةٍ مزيلةٍ ، لا بكونِهِ حَدَثاً[٤] ؛ فكذلكَ فيما أحدثَ اللهُ تعالى ابتداءً لم

= علىٰ إتحاف المريد » (١/ ٥٨٦) .

(١) واطوِ عنك تلك السلسلةَ المتوهمة ، وتخيَّلِ المخلوقَ الأول وقد نظرَ في نفسه ولا شيء غيرُهُ ، ترىٰ ما عساه أن يقول ؟ سيقول : إنني أستشعرُ وجودي ، ولا أرىٰ حولي من أوجدني ، بلىٰ أراه ؛ إن مُوجِدي ليس مثلي ، ولو كان مثلي لكنتُ قادراً علىٰ إيجاد مثلي ، كيف وأنا عاجز عن هـٰذا الأمر الخطير ، جاهلٌ بأحوال التدبير ؟! .

(٢) أي : إنما تقدير هـٰذا الكلام وإيضاحه في الخيط ؛ حيث لمَّا لم يكن للحلقة انتهاء لم يكن لها ابتداء ، وللخيط لمَّا كان له انتهاء كان له ابتداء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أما في الخيط : فالابتداء والانتهاء ظاهران ، وأما في الحلقة : فبفَرْض ابتداءٍ لها في أيِّ جزءٍ منها ، وهـٰذا صائرٌ بنا إلى انتهاء حتماً ملاصقٍ لمحلِّ الابتداء المفروض .

(٤) يعني : علَّةُ فناء الحادث أيّاً كان ليست حدوثَهُ ؛ إذ بحدوثه وجودُهُ ، وإنما هي خارجةٌ عنه ؛ وهي القدرة أو صفة التكوين التي تعلَّقت به ابتداءً ، والله هو المبدئ والمعيد .

نعم ؛ الحادثُ منادٍ بالافتقار في بقاء وجوده لموجِدِهِ ، والعقل مجوِّزٌ لفنائه كلَّ حين ، =

يدلَّ ابتداءُ وجودِهِ علىٰ تناهيهِ[1] ، بل بقيَ إلىٰ أنْ يُوجدَ ما يزيلُهُ[2] ، ولـٰكنَّا حكمْنا بالبقاءِ لا لعلمِنا بعدمِ ما يزيلُهُ بدليلِهِ ، بل بدليلٍ أوجبَ بقاءَهُ كما أوجبَ ابتداءَهُ[3] .

= ولولا صدق الوعد والوعيد لما جزمنا بإبقائنا أبدَ الدهر .

(١) يعني : إن لم تتعلَّق القدرة بإفنائه فهو علىٰ بقائه الذي تعلَّقت القدرة به ابتداءً ، ويبقىٰ دون تأثيرٍ للقدرة ؛ لأن إيجاد الموجود تحصيلٍ حاصل ، وهـٰذا مشعر بكون البقاء صفة وجودية ، وهو ما نصَّ عليه متقدِّمو المحقِّقين في المدرسة الماتريدية ؛ قال المحقِّق أبو المعين النسفي في « التمهيد » (ص٢٦٤) : (لا بقاء للأعراض ؛ لأن البقاء في الباقي معنىً زائد على الذات ؛ بدليل وجود الذات في أول أحوال وجوده ولا بقاء له ، بل يوصف بالبقاء في الثاني من زمان وجوده) ، وانظر « تبصرة الأدلة » (٢/٥٤٨) ، و« إشارات المرام » (ص١٢٣) ، وهو قول الإمام الأشعري ؛ إذ العرض عنده لا يبقىٰ زمانين كما في « مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري » (ص١٢ـ ١٣) ، لـٰكن مختار محقِّقي الأشاعرة : أن البقاء صفة سلب عدمية ، وبقاؤه سبحانه ليس بمعنىٰ بقاء ذاته زمانين فصاعداً ، تعالى الله عن الزمان والمكان ، بل من معنى استمرار الوجود .

(٢) إذ الجوهر لا يتصوَّرُ انفكاكه عن الأعراض ، والأعراض لا تبقىٰ زمانين ، فتعيَّن القول بوجود عرضٍ زائد على الذات يقال له : البقاء ، هو الذي يمسك الجوهر عن الفناء عند تلاشي الأعراض ؛ إذ تتابع الأعراض يلزم عنه بالضرورة خلوُّ الجوهر عنها في لحظةٍ ما .
وذهب متأخِّرو الماتريدية ؛ كابن الهمام في « المسايرة » (ص٧٩) ، ومحقِّقو الأشاعرة ، وعموم السادة الصوفية : إلىٰ أن البقاء صفة سلبية ، وإلىٰ أن الحادث في فناءٍ وإبقاءٍ دائمينِ ، وهو معنىٰ هلاك الحادث في قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] ، ومعنى البطلان في قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : « أصدقُ كلمة قالها الشاعر كلمةُ لبيد : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ ، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلِم » .

(٣) وقد مثَّلَ إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريديُّ للتسلسل الباطل : بمن قال لآخر : لا تأكل شيئاً حتىٰ تأكل غيره ، فهـٰذا يبقىٰ بلا أكلٍ أصلاً ، ومثَّلَ للتسلسل من جهة الآخرة : بمن قال لآخر : كلَّما أكلت لقمة فكُلْ أخرىٰ ، فهـٰذا يبقىٰ أبداً في الأكل . انظر « التوحيد » له (ص١٤) . =

[اللهُ تعالىٰ يخلقُ الأشياءَ عن عدمٍ محضٍ]

فيقولانِ : فهلَّا امتنعْتَ عنِ القولِ بالإحداثِ مِنَ اللهِ تعالىٰ عن عدمٍ كما في الشاهدِ .

فيقولُ : للضرورةِ ؛ فإنِّي متى امتنعتُ عنهُ لم يثبتِ العالمُ إلا مِنْ طريقِ التوليدِ مِنْ ذاتِ القديمِ تعالىٰ ، أو مِنْ شيءٍ آخرَ معَهُ قديمٍ ، والأمرانِ باطلانِ ضرورةً علىٰ ما مرَّ ونذكرُ(١) ، ولأنَّهُ في الشاهدِ امتنعَ الإيجادُ لا عن أصلٍ ؛ لعجزِنا عنهُ(٢) ، لا لأنَّ ذلكَ الوجودَ مستحيلٌ في نفسِهِ(٣) ؛ كما استحالَ مِنَ الأعمى الرؤيةُ لعجزِهِ ، لا باستحالةِ الرؤيةِ في نفسِهِ ، وكما استحالَ وجودُنا بلا محدِثٍ ، ولم يستحلْ للهِ تعالىٰ هٰذا الوصفُ(٤) .

= ومن حقَّقَ النظر : يرىٰ أن الحادثاتِ كما لازمتها الأوَّليَّة لازمتها الآخريَّة ؛ إذ هي في كلِّ آنٍ محدودةٌ متناهية بالضرورة ، وإنما جاء الاشتباه بالخلط بين البقاء والإبقاء .

(١) تقدم إبطال التوليد (ص٥٩٤) ، وسيأتي إحالة موجود قديم معه سبحانه .

(٢) والتحقيق : أننا ـ معاشر الحادثات ـ لا نوجِدُ شيئاً أصلاً ، لا عن أصلٍ ولا عن غير أصل ، بل يظهر علىٰ أيدينا تغييرُ أعراض الموجودات ليس غيرُ ، وهٰذا هو المراد من إيجاد الأشياء عن أصلٍ بشأننا .

ولمَّا عجزت عقول الفلاسفة عن تصوُّر إيجادٍ من غير أصل ، وإعدامٍ إلىٰ غير فرعٍ . . قالوا بقدم العالم ، وهو باقٍ عندهم لإحالة الإعدام أيضاً ، والإلٰه عندهم عاجز عن الإيجاد والإعدام بالإرادة ، تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً .

(٣) إذ العقول تصدِّق بجواز الخلق من عدمٍ محضٍ ، ولٰكنَّ إلْفَ العادة هو الذي يبعدُ هٰذا التصديق .

(٤) يعني : محالٌ عقلاً وجودُ حادث من غير محدِثٍ ، ولٰكن العقل لا يحيل وجودَ محدِثٍ من غير محدَثٍ ؛ إذ ليس في المحدِثِ صفةُ الحَدَث التي هي علة لطلب المحدِثِ .

[صفةُ الوَحدانيّةِ]

فيقولانِ : عرفنا هـٰذهِ الجملةَ ، فاشرحْ لنا صفةَ الواحدِ شرحاً تعرفُهُ القلوبُ .

فيقولُ : إنَّ الواحدَ مِنَ الحسابِ : اسمٌ للجزءِ الذي هو أوَّلٌ مِنَ الموجودِ ، ووترٌ لا زوجٌ مِنَ المعدودِ ، والواحدَ مِنَ الصفاتِ في الشاهدِ : اسمٌ للسابقِ ؛ مِنْ قولِكَ : فلانٌ واحدُ دهرِهِ .

وما اللهُ تعالىٰ بجزءٍ ، فلن يكونَ جزءاً إلا بموجودٍ آخرَ معَهُ سواهُ ، أو بكينونتِهِ قابلاً لانضمامِ جزءٍ آخرَ إليهِ بمعناهُ ، والاجتماعُ أوِ احتمالُهُ آيةُ الحَدَثِ .

[استحالةُ تعدُّدِ القديمِ عقلاً]

ولأنَّهُ لو كانَ معَهُ شيءٌ في الأزلِ لم يكنْ حادثاً بهِ[1] ، فيصيرُ قديماً مثلَهُ ، فيصيرانِ اثنينِ ، وفي القولِ بالاثنينِ إثباتُ العجزِ عليهما في الإنشاءِ والتقديرِ ؛ لأنَّ الإنشاءَ مِنِ اثنينِ لا يخلو : عن تعاونٍ ، أو تصالحٍ ، أو تغالبٍ ، أو غفلةٍ .

ولا تعاونَ إلا عن عجزٍ عنِ التفرُّدِ بالفعلِ ، ولا اصطلاحَ إلا عن عجزٍ عنِ الغلبةِ والدفعِ ، وفي المغالبةِ عجزٌ وفسادٌ ، وفي الغفلةِ عجزٌ وجهلٌ .

والعاجزُ عن غلبةِ موجودٍ أعجزُ عن إيجادِ المعدومِ ، فغلبةُ الموجودِ متصوَّرٌ في الشاهدِ معَ العجزِ عن إيجادِ المعدومِ ، وكذلكَ العاجزُ عن معرفةِ الموجودِ

---

(١) يعني : أن القول بكون الثاني أزليَّ الوجود مانعٌ من القول بحدوثه ، وسيبين إحالة تعدُّد القديم .

أعجزُ عن إيجادِ المعدومِ ؛ إذِ الجاهلُ بحالِ الموجودِ أجهلُ بعواقبِ المعدومِ .

[بطلانُ وجودِ شيءٍ قديمٍ وإنْ لم يكنْ إلـٰهاً]

ولأنَّ الشيءَ الآخرَ معَ اللهِ لو كانَ تحتَ أمرِ اللهِ حتىٰ خلقَ اللهُ تعالىٰ منهُ العالمَ بأصلِهِ(١) . . لم يجزْ أنْ يكونَ قديماً ككُلِّهِ(٢) .

فثبتَ أنَّهُ واحدٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ أوَّلٌ ، ما قبلَهُ ولا معَهُ شيءٌ ذاتاً فيكونَ شريكاً لهُ أو نظيراً لهُ ، وواحدٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ فردٌ ، لا يماثلُهُ شيءٌ سواهُ صفاتٍ فيكونَ الشبيهُ زوجاً لهُ لا مخلوقاً بهِ ؛ لأنَّ الشبيهَ مِثْلٌ ، وما المخلوقُ للخالقِ بعِدْلٍ .

[إشراكُ اليهودِ والنصارىٰ]

ولهـٰذا سمَّى اللهُ تعالىٰ قولَ اليهودِ : (عزيرٌ ابنُ اللهِ) ، وقولَ النصارى : (المسيحُ ابنُ اللهِ) شِرْكاً وقولاً بالشَّفْعِ للذاتِ(٣) ؛ لأنَّ الولدَ شبيهُ الوالدِ في

---

(١) أي : جعل ذلك الشيء ، وخلق منه العالم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : لو فرضنا وجود شيء قديم اتخذه الله ـ تعالىٰ وجلَّ ـ أصلاً لمخلوقاته ، فخلق منه الحادثات . . كانت هـٰذه الحادثات بعضاً منه ؛ فاجتمع وصف القدم مع وصف الحدوث ! وهو أمر باطلٌ عقلاً ، كيف ـ وقد ثبت حدوث العالم بكلِّ أفراده وأجزائه ـ يصحُّ القول بقدم مادَّته ؟!

(٣) قال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠ ـ ٣١] ، ونعت قولهم هـٰذا أنه بأفواههم لبيان أنْ لا حجة لهم فيما ادعوه ولا برهان ، والمضاهأة : المشابهة . =

الصفاتِ ، وقد بطلَ القولُ بالتشبيهِ .

فثبتَ أنَّهُ واحدٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ فردٌ ما لهُ شبيهٌ في صفاتِهِ ، كما لا ثانيَ في ذاتِهِ لذاتِهِ ، حتىٰ فارقَ كلَّ واحدٍ سواهُ بصفةِ الواحديَّةِ ، فمَنْ دونَ اللهِ لا يُسمَّىٰ واحداً إلا لانفرادِهِ عن نظيرِهِ بحالِهِ ، واللهُ تعالىٰ واحدٌ مِنْ حيثُ ما لهُ نظيرٌ .

[تجلِّي صفةِ الوحدانيةِ في الصفاتِ والأسماءِ الأزليّةِ]

وكذلكَ اللهُ تعالىٰ عالمٌ مِنْ حيثُ لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ[1] ، لا مِنْ حيثُ أَدركَ بالضميرِ[2] ، قادرٌ لا مِنْ حيثُ لم يقاومْهُ غيرُهُ ، بل مِنْ حيثُ لا يفوتُهُ ما يشاءُ مِنْ صغيرٍ أو كبيرٍ[3] ، وكذلكَ كلُّ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ثابتٌ مِنْ طريقِ أنَّهُ

= وقال تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

وقال جلَّ وعزَّ : ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] .

(١) لا بتعلُّم وإدراك ، وكلُّ علمٍ لسواه حاصلٌ بهما ، أو بخلقه تعالىٰ دونهما ، وكلٌّ منهما مخلوقٌ له أيضاً ؛ قال سبحانه : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن : ١ـ ٤] ، فلا نظير لعلمه جلَّ وعزَّ .

لكن قوله : (من حيث لا يخفىٰ عليه شيء) يفيد كون العلم صفة سلبية ، لا وجودية زائدة على الذات كما هو مذهب أهل السنة بأجمعهم ، ولهٰذا وقع استشكالها في هامش (و) ، فلا بدَّ من تقدير ؛ فيقال مثلاً : عالمٌ بعلمٍ لا يتطرَّق إليه خفاء .

(٢) إذ لا يوصف المولىٰ بالضمير أو القلب أو نحوهما ، تعالىٰ مولانا عن أن يتعقَّلَ ليعلم ، أو يكون له جزءٌ به يعلم ، بل علمه صفةٌ من صفات ذاته ؛ فكما أن الذات ليس كمثلها شيء فكذلك صفاتُهُ ليس كمثلها شيء .

(٣) وهٰذه العبارة كسابقتها؛ توهم كون القدرة الأزلية صفةً عدمية ، وتؤول فيقال : قادر بقدرة=

لا يجوزُ ألَّا يكونَ[1] .

[صفاتُ الحادثاتِ عارضةٌ كحالِهم]

وغيرُ اللهِ تعالىٰ يتَّصفُ بأوصافِهِ بأحوالٍ تحدثُ بيقينٍ[2] ، حتىٰ كانَتِ الأوصافُ مِنَّا أسماءَ الأحوالِ ، واللهُ تعالىٰ متعالٍ عنِ الحالِ والزوالِ ؛ فزوالُ ما لهُ عجزٌ[3] ، وحدوثُ ما لم يكنْ ممَّا ينبغي أنْ يكونَ . . نقصٌ[4] ، والرضا بالخللِ عجزٌ أو خَبَلٌ ، ما يجوزُ ذلكَ باللهِ تعالىٰ ، وكيفَ يجوزُ وكلُّ كمالٍ في الشاهدِ يُعرفُ فمخلوقٌ بخلقِهِ ؟! فكيفَ تستقيمُ القدرةُ على الخَلْقِ لغيرِهِ علىٰ عجزٍ في حقِّ نفسِهِ ؟![5] .

= لا توصف بالعجز عن التعلُّق بكلِّ ممكن .

وفي هامش (و) : (هـٰذا التقرير بيان لازمه المسمىٰ ، أما العلم فوصف وجودي يلزم هـٰذا المعنىٰ ، وكذلك القدرة .

العلم أمر وجودي يلزم منه عدم الخفاء ؛ كالنور أمر وجودي يلزم منه عدم الظلمة ، وكذلك الموت أمر وجودي يلزم منه عدم الحياة ، لا أن الموت عدم الحياة) .

(١) إذ يجب له تعالىٰ كلُّ كمال ، والتعبير بالنفي من قبل الإمام المصنف ـ وهو لا يزال يبرهن ويردُّ شبهات الفلاسفة ـ يحمل علىٰ مجاراة الخصم للوصول به إلى الحقِّ .

(٢) يعني : لا نمنع من وصف الحادث بالعلم والحياة والقدرة وغيرها من صفات المعاني ، ولـٰكن هي أحوال عارضة له غير لازمة ، وبمعانٍ لائقة بالحدوث ، معللة مفتقرة لموجدها فيه ، عارضة زائلة عنه بالموت والفناء ، باقية له يوم الجزاء بالإبقاء المستند للإرادة والقدرة الأزليتين .

(٣) زوال ما يجب من الكمال عجزٌ .

(٤) تبيَّن أنه كان ناقصاً فيه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) أي : كلُّ الكمالات من الله تعالىٰ ، فلو قلنا بأن الكمالات ليست بثابتة له . . يكون عاجزاً في حقِّ نفسه مع القدرة علىٰ خلقها لغيره ، وهـٰذا غير مستقيم ولا جائز ، فثبتت الكمالات له استدلالاً بالكمالات الثابتة لغيره . انتهىٰ من هامش (و) . =

ولأنَّ الحادثَ لا بدَّ أنْ يكونَ غيرَهُ ، فيصيرُ قولاً بالتشبيهِ معنىً متىٰ وُصِفَ بالحادثِ إنْ لم يكنْ دعوىٰ[1] .

فهٰذا تفسيرُ الواحدِ .

[التعرُّفُ علىٰ أسماءِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ يكونُ بالحُجَّةِ والبرهانِ]

فيقولانِ : فما الحدُّ القصدُ في البابِ فنأتيَهُ ولا نتعدَّاهُ ؟

فيقولُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ما عُرِفَ إلا بحُجَّةٍ على الحقيقةِ ، فلا تُعرَفُ أسماؤُهُ إلا بتلكَ الطريقةِ ، ولا طريقَ في الشاهدِ للعلمِ المعتادِ إلَّا الحسُّ في المحسوساتِ[2] ، أوِ النظرُ والاستدلالُ بها على المغيَّباتِ ، واللهُ تعالىٰ غيرُ معلومٍ بالحواسِّ ، فلم يبقَ إلا النظرُ والقياسُ ، فما للقلبِ حسُّ نظرٍ ، كما للظاهرِ البصرُ ، وإنَّما نظرُهُ تفكُّرُهُ فيما ظهرَ ، مستدلّاً بهِ علىٰ ما استترَ .

[أسماءُ اللهِ الحسنىٰ]

فنقولُ وباللهِ التوفيقُ[3] :

= ومثال إثبات القدرة لغيره : ما قاله أهل الاعتزال من قدرة العبد علىٰ خلق أفعال نفسه الاختيارية ؛ فهٰذا مفضٍ إلى القول بالتشبيه والتشريك ، وإن سمَّوا أنفسهم بأهل التوحيد والعدل . مفادٌ من هامش (و) .

(١) إذا وصفه بوصف الحادث فقد قال بالتشبيه معنىً ، وإن اعتقد ذلك ولم يصرِّح به قولاً فهو مشبهٌ بالدعوىٰ . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) المعتاد ؛ أي : الحاصل بالكسب ، قيَّده حتىٰ يخرج العلم الضروريُّ والبديهي . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) سيظهر لك : أن طريقة استنباطه لأسمائِهِ تعالىٰ هي اللزوم ، وكثيرٌ منها نظريٌّ يحتاج إلىٰ تأمُّلٍ طويل ، والعمدة في إثبات أسمائه تعالىٰ : هو التوقيف ؛ قال العلامة الصفَّار البخاري=

إنَّ اسمَ (اللهِ) تعالىٰ يُلزِمُكَ القولَ بالأسماءِ الحسنىٰ التي إلىٰ أمثالِها في الشاهدِ ينتهي الكمالُ .

فاستحقاقُ العبوديَّةِ لهُ علىٰ ما سواهُ : معنى اسمِ الإلـٰهِ ، وإنَّهُ لَأعلى الرُّتَبِ بشهادةِ الحالِ[1] ؛ وهي نحوُ اسمِ : الحيِّ ، القيُّومِ ، الحقِّ ، القهَّارِ ، العالمِ ، القديرِ ، الحكيمِ ، الجبَّارِ ، المتكبِّرِ ، المتعالي ، العزيزِ ، الجليلِ ، المجيدِ .

واسمُ أنَّكَ عبدٌ يُلزِمُكَ القولَ بالأسماءِ الدالَّةِ علىٰ لزومِكَ هـٰذهِ الصفةَ[2] ؛ وذلكَ نحوُ : المطاعِ ، المعبودِ ، القدُّوسِ ، السبُّوحِ ، المعظَّمِ ، الموحَّدِ ، الحميدِ .

فكونُكَ عبداً آيةٌ علىٰ أنَّكَ لسْتَ لكَ ، ولـٰكنْ للهِ تعالىٰ ، فكذلكَ أفعالُكَ لا تكونُ لكَ ، ولـٰكنْ للهِ تعالىٰ ، ما لكَ مِنْ ملكِ استيفاءٍ ، إلا للهِ تعالىٰ بقَدْرِ

= الحنفي في « تلخيص الأدلة » (ص٣٧١) : (اعلم : أن أسماء الله توقيفية ، لا يجوز لأحد أن ينشئ لله اسماً من ذات نفسه ؛ لأن اسم الله اسم تعظيم في المرتبة العليا ، ولا يمكن لأحد إنهاءُ معنى التعظيم في الرتبة العليا على الوجه الذي ورد به التوقيف ، فيقع التقصير في ذلك الاسم الذي ينشئه من ذات نفسه ، ويدلُّ عليه قوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ؛ أمر بالدعاء لله بأسمائه الحسنىٰ ، فدلَّت هـٰذه الآية علىٰ وجوب مراعاة التوقيف فيها) .

والتوقيف يعرف : بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وهـٰذا الأخير هو سبيل إثبات اسمه تعالى (القديم) مثلاً ، وقد أورده إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٦٥) .

(١) لأن اسم (الله) ينبئ عن استحقاق العبودية والعبادة ، وسبق تقرير ذلك بتفصيل (ص٥٩٧) .

(٢) صفة العبودية . انتهىٰ من هامش (هـ) .

ما أذنَ لكَ في الاستيفاءِ ، كما في الشاهدِ في ملكِ غيرِكَ ، فكذلكَ دلَّ صفةُ عبوديَّتِكَ على أسامي اللهِ تعالى التي ذكرناها .

[انقسامُ أسمائِهِ تعالى باعتبارِ صفةِ الواحدِ]

وأمَّا صفةُ الواحدِ : فتَضطرُّكَ إلى القولِ بأقسامٍ أربعةٍ مِنَ الأسماءِ ، كما تتشعَّبُ معناهُ أربعاً :

[(هو) مِنْ أسمائِهِ تعالى]

قسمٌ دلَّ على الهوِّيَّةِ : نحوُ : (هو) ؛ فإنَّهُ كنايةٌ عن غائبٍ موجودٍ[١] ، والغائبُ عنِ الحواسِّ الموجودُ في الأزلِ هوَ اللهُ تعالى ، وفيهِ معنىً حسنٌ ؛ وهوَ التعالي عن دَرَكِ الحواسِّ حتى استحقَّ اسمَ الكنايةِ عنِ الغائبِ مِنْ غيرِ غَيْبةٍ[٢] .

فأمَّا الشيءُ والذاتُ والنفسُ : فليسَتْ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى ؛ فما فيها معنىً حسنٌ ، ولكنْ لا يُقالُ : اللهُ ليسَ بشيءٍ[٣] ؛ لما فيهِ مِنْ نفْيِ الوجودِ ،

---

(١) يعني : (هو) ضميرٌ دالٌّ بلفظه على غائب موجود متحقِّق الهوية ؛ التي هي أعلى مراتب الوجود ، ولما كان (هو) هنا اسماً علماً جاز نداؤهُ شرعاً ونحواً ، من ذلك مناجاة الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٤/ ١٩٢) معترفاً بالعجز : (يا هو ، ويا من لا هو إلا هو ؛ أحسنْ إلى عبدك الضعيف ؛ فإن عبدَكَ بفِنائك ، ومسكينَكَ ببابك) ، وذكر (١/ ١٥٢) أن الأسماء المضمرة لله تعالى هي : (أنا) ، و(أنت) ، و(هو) .

(٢) قال سبحانه : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ : ١٦] ، وهو تعالى الموجود الرقيب الشهيد ، ولعظمة هـٰذا الاسم ذكر الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (١/ ١٥٨) أنه من أعظم الأذكار ، وانظر أسرار هـٰذا الاسم عنده (١/ ١٥٤) .

(٣) إذ معنى (الشيء) : الموجود ، فهو تعالى شيء ولا يماثله شيء ؛ كقولك : موجودٌ لا كالموجودات سواه ، ومنع جهم بن صفوان إطلاقَ لفظ (الشيء) عليه سبحانه ؛ محتجّاً =

وكذلكَ الذاتُ والنفسُ ، ولا يجوزُ النداءُ بها ؛ فلا يُقالُ : يا ذاتُ ، يا شيءُ ، بل يُقالُ : يا خالقَ كلِّ شيءٍ ، وكلِّ ذاتٍ[1] .

وإنَّما ذكرَ اللهُ تعالىٰ نفسَهُ لإثباتِ الهُوِيَّةِ ، لا لبيانِ أنَّهُ اسمٌ مطلقٌ ؛ فإنَّهُ لم

= بقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] ، فقال : لو كان شيئاً لكان قادراً علىٰ نفسه ! ولم يختلف المفسرون بأن كلمة (شيء) في الآية مخصَّصة بالممكن ؛ يعني : والله علىٰ كلِّ شيء ممكنٍ قدير ؛ والله تعالىٰ واجب الوجود ، والمحال لا يقع ، أو يقال : المخاطِبُ لا يدخل تحت الخطاب .

وبقول جهم قال هشام بن الحكم ، قال الأستاذ أبو منصور البغدادي في « الأسماء والصفات » (١/ ٢٣٣) : (وتسمية الله عز وجل نفسَهُ شيئاً بقوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١٩] . . كافٍ في إبطال قولهم) .

وقال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٣٩) : (فإن قيل : إذ قلتم : « شيء لا كالأشياء » . . لِمَ لا قلتم : جسم لا كالأجسام ؟ قيل له : لأن السبب الذي ألزمنا القول بالشيء لم يوجد في الجسم ، لذلك لم نقل) ، ثم بيَّنَ أن الأعراض أشياءُ وهي ليست أجساماً ، بل هي موجودة مغايرة للجواهر .

ثم قال : (ودليل إثبات القول بالشيء وجهان :

أحدهما : السمع من قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، ولو لم يكن هو شيئاً لم يُنفَ عنه شيئية الأشياء باسم الشيئية . . . .

وأما العقل : فهو أن الشيئية اسمُ الإثبات لا غير في العُرف ؛ إذ القول : « بلا شيء » نفيٌ إذا لم يُرد به التصغير) .

والأشاعرة كالماتريدية في جواز إطلاق الشيئية عليه سبحانه ؛ قال الإمام الأشعري في « مقالات الإسلاميين » (ص١٨١) : (واختلف المتكلِّمون : هل يُسمَّى الباري شيئاً أم لا ؟ علىٰ مقالتين : فقال جهم وبعض الزيدية : إن الباري لا يقال : إنه شيء ؛ لأن الشيء هو المخلوق الذي له مثل ، وقال المسلمون كلُّهم : إن الباري شيء لا كالأشياء) .

(١) قال العلامة البياضي في « إشارات المرام » (ص١١١) : (ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه لئلا يتوهم دخوله في جملة الأشياء المخلوقة) .

يذكرُهُ إلا مضافاً إليهِ[1] ، والاسمُ ما يُعرِّفُ المسمَّىٰ ، لا ما يُعرَّفُ بالمسمَّىٰ .

وقسمٌ دلَّ على **الأَوَّليَّةِ** : نحوُ : الأوَّلِ ، القديمِ ، الأزليِّ .

وقسمٌ دلَّ على **الوَحْدانيَّةِ** : نحوُ : الوترِ ، الفردِ ، الأحدِ .

وقسمٌ دلَّ على **العلوِّ** : وذلكَ بإثباتِ جميعِ الأسماءِ الحميدةِ الدالَّةِ على الكمالِ في الشاهدِ ، لا مِنَ الطريقِ الذي يكونُ في الشاهدِ بأحوالٍ مِنْ أسبابٍ على احتمالٍ[2] ، ولـٰكنْ على الوجوبِ نفياً للنقصانِ وإثباتاً للجلالِ .

[أسماؤُهُ تعالىٰ باعتبارِ المكلَّفِ مُمْتَحَناً]

وأمَّا صفتُكَ أنَّكَ ممتحَنٌ تُلزِمُكَ القولَ بأقسامٍ أربعةٍ أُخرَ .

قسمٌ دلَّ عليهِ **وجودُكَ عنِ العدمِ** : نحوُ : القادرِ ، والقاهرِ ، والخالقِ ، والمالكِ ، فالعدمُ لا ينقلبُ وجوداً إلا بأعلىٰ وجوهِ القهرِ والقدرةِ .

وقسمٌ دلَّ عليهِ **وجودُكَ للبقاءِ بأسبابٍ** : نحوُ : الرازقِ ، المقيتِ ، المقدِّرِ ، فلا بقاءَ لنا بدونِ الرزقِ ، ولا اعتدالَ إلا بالإقاتةِ ؛ وهوَ الإعطاءُ بقَدْرٍ ، مأخوذٌ مِنَ القوتِ ؛ وهوَ المقدارُ الذي يُزَجَّىٰ بهِ العمرُ[3] ، ولا بقاءَ إلا بتقديرِ مدَّةِ الحياةِ .

ودلَّ **البقاءُ للمحنةِ والجزاءِ** : علىٰ أنَّهُ حكيمٌ ، عليمٌ ، شهيدٌ ، حسيبٌ ،

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

(٢) فإنه يكون في الشاهد كاسم (العالِم) وغيره ، فإنه يكون بأسباب وأحوال ، وعلىٰ هـٰذا يخرَّج قول أبي بكر : (الطبيب أمرضني) ؛ أن هـٰذا الإطلاق لإثبات أن له علماً بالأدوية والعلل والأدواء ، لا لإثبات اسم (الطبيب) ؛ حتىٰ يجوزَ أن يقال : يا طبيب . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) يقال : كيف تُزجِّي الأيامَ ؛ أي : كيف تُدافعها ؟

غنيٌّ ، محيطٌ ، كريمٌ ، رحيمٌ ، ونحوِها ؛ إذِ الصنعُ إنَّما خرجَ عن حدِّ العبثِ إلىٰ حدِّ الحكمةِ بالمحنةِ للجزاءِ ، فدلَّ البقاءُ لهـٰذهِ المحنةِ علىٰ أنَّ الصانعَ حكيمٌ ، ولا حكمةَ حيثُ لا علمَ ، ولا علمَ إذا غابَ عنهُ شيءٌ ولم يشهدْهُ ، أو فاتَهُ جزءٌ ، ولا يكونُ علمُهُ حسبَهُ إذا لم يكنْ محيطاً ، ولا صنعَ للمحنةِ معَ الصفحِ عن جزاءِ الخبيثِ للحالِ إلا عن كرمٍ ورحمةٍ[١] ، ولا جزاءَ للمحسنِ مِنْ غيرِ نفعٍ يعودُ إليهِ مِنْ إحسانِهِ إلا علىٰ طريقِ الغنىٰ والحكمةِ .

ودلَّ الجزاءُ علىٰ أنَّهُ : باقٍ ، آخرٌ ، دائمٌ ؛ لأنَّهُ لو لم يبقَ لم يُتصوَّرْ منهُ الجزاءُ الباقي ، ودلَّ علىٰ أنَّهُ : ديَّانٌ ، مالكُ يومِ الدينِ ؛ يوم جزاءِ الإحسانِ بالإحسانِ ، والسيِّئةِ بالسيِّئةِ ، فالديَّانُ اسمٌ شاملٌ للعبيدِ كلِّهم[٢] .

وأمَّا على التفصيلِ[٣] : فجزاءُ الإحسانِ يُلزِمُكَ القولَ : بالفضْلِ ، والرحمةِ ، والعفْوِ ، والمغفرةِ ، والتجاوزِ ، والتوبةِ[٤] ؛ لأنَّ الجزاءَ ممَّا كانَ للهِ تعالىٰ خالصاً ، فجَعْلُهُ للعبدِ بإزاءِ عملٍ لم يكنْ في الحقيقةِ إلا للهِ تعالىٰ علىٰ ما فسَّرْنا أنَّ العبدَ بذاتِهِ وحركاتِهِ للهِ تعالىٰ ، وإنَّهُ لفَضْلٌ .

---

(١) إذ ليس الخلقُ للامتحان والابتلاء مع ترك المؤاخذة في الحال . . إلا لكرمه وسعة رحمته . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) لأن الجزاء يكون للمسلم والكافر . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي (ز) : (وصف) بدل (اسم) .

(٣) لمَّا ذكر تفسير (الديان) مجملاً ذكره مفصَّلاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) السياقُ مشعرٌ بكون الأسماء مشتقة من الصفات ؛ قال العلامة الصفَّار الحنفي في « تلخيص الأدلة » (ص٣٤٠) : (اتفق أهل الحقِّ : علىٰ أن عامة أسماء الله مشتقة من صفاته ، واختلفوا في اشتقاق اسم « الله ») ، إلا أن أسماءه تعالىٰ عند الماتريدية : يتصف المولىٰ سبحانه بها في الأزل وفيما لا يزال ، وعند الأشاعرة كذلك إلا في أسماء الأفعال ؛ إذ الفعل لا يكون قديماً ، فهي في الأزل مجاز ، حقيقة فيما لا يزال ، وسيأتي بحث ذلك .

وكذلكَ الجزاءُ غيرُ معيبٍ ، والعملُ معيبٌ ؛ فقلَّما يخلو العملُ عن عيبٍ ظاهرٍ أو سِرٍّ ، أدناهُ بالفكرةِ في غيرِ الربِّ ، ومَنِ الذي يملكُ خطرةَ القلبِ ؟! والردُّ بالعيبِ مِنَ العَدْلِ ، وإذ قَبِلَ كانَ مِنَ الفَضْلِ ، وكذلكَ الجزاءُ أضعافٌ ، والعدلُ بالمثلِ .

وجزاءُ السيئةِ يُلزِمُكَ القولَ : بالعَدْلِ ، والحكمةِ ، والغضبِ ، والسخطِ ، والعزَّةِ ؛ لأنَّ العَدْلَ عبارةٌ عنِ الحُكمِ بالحقِّ بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ ، بلا ظلمٍ ولا غفرانٍ ، وفيهِ حكمةُ السياسةِ ، وذلكَ في مجازاةِ العاصي بمِثْلِ معصيتِهِ في الآخرةِ .

[أسماؤُهُ تعالىٰ قديمةٌ كصفاتِهِ]

فيقولانِ : قد ذكرتَ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ أزليٌّ بأسمائِهِ ، فكيفَ نعرفُهُ خالقاً ولا مخلوقَ ؟

فيقولُ : إنَّا لا نصفُ اللهَ تعالىٰ بأحوالٍ تحدثُ ، تعالى اللهُ عن ذلكَ ، ولـٰكنْ سمَّيناهُ خالقاً علىٰ معنى القدرةِ علىٰ إيجادِ المعدومِ[1] ؛ فالخَلْقُ : هوَ

---

(١) فليس الفعلُ بالمعنى الحاصل بالمصدر هو الأزليَّ ، إذ هـٰذا محالٌ عقلاً ، بل الأزليُّ هو المعنى المصدري ، أو القدرة عليه ، وما قاله الإمام المصنف هنا هو عين مذهب الأشاعرة .

وفي هامش (و) ما حاصله : أما مذهب الماتريدية : فهو تعالىٰ خالق لم يزل ، وله صفة التخليق لم تزل من غير حدوث ؛ كما نسميه عالماً لم يزل ، وله صفة العلم لم تزل من غير حدوث ، ونعني بالتخليق : صفةً قائمة بالذات لم يزل بها يتحقَّق اسم الخالق ، ولا نريد بإثبات صفة التخليق في الأزل إثباتَ ما يوجد به هـٰذا الخلق ، وإنما نريد إثباتَ صفة هـٰذا الاسم على الحقيقة .

وعبارة الإمام الطحاوي في « عقيدته » كما في « شرحها » للعلامة الغنيمي الحنفي =

الاسمُ الخاصُّ الدالُّ علىٰ هـٰذا المعنىٰ ، حتىٰ قيلَ للكذبِ : خَلْقٌ ؛ لأنَّهُ ليسَ لهُ مُخبَرٌ عنهُ سابقٌ ، وإنَّما هو إيجادٌ للحالِ ، أو عبارةٌ عنِ ابتداءِ التقديرِ لأمرٍ يريدُ أنْ يفعلَهُ الصانعُ على الصوابِ ، ولله تعالىٰ تلكَ القدرةُ ، فسُمِّيَ بهِ[1] .

فأمَّا إخبارٌ عنِ الفعلِ ـ وهو أنْ خلقَ الخلقَ ـ فلا نجعلُهُ أزليّاً ، وإنَّما نريدُ بهِ ما انخلقَ العالمُ بهِ حينَ الخَلْقِ[2] ؛ كما يقالُ في الشاهدِ : (فلانٌ مناظرٌ) ؛

= (ص٢٥) : (ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارئ ، له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالقية ولا مخلوق) .

وبه تعلم : أن الفعل إن نُسب إلى الله تعالىٰ فهو قديم غير مخلوق ، وإنما المخلوق أثره ومفعوله ، وإنما قلنا في الشاهد : (كلُّ فعل حادث) ؛ لأننا لم نتصوَّره منفكّاً عن مفعوله ، والله تعالىٰ ـ كما قال العلامة البياضي في « إشارات المرام » (ص٢١٣) ـ : تكوينه المخصوص بإيجاد الشيء بغير آلة ، ولا مادَّة ، ولا زمان ، ولا مكان ، فصفة الفعل حقيقة ، وليست عبارة عن تعلُّق القدرة والإرادة ، بل صفةٌ قديمة ، والأفعال ـ بمعنى الحاصل بالمصدر ـ هي الحادثة .

قال العلامة الخيالي في « حاشيته علىٰ شرح العقائد النسفية » (ص١١٥) وهو يتحدَّث عن القدرة الأزلية : (« تؤثِّر في المقدورات » بجعلها ممكنة الوجود من الفاعل ، وأما الوجود بالفعل فهو أثرُ التكوين عند القائلين به ، فحينئذ : تعلُّقات القدرة كلُّها قديمة ، وأما النافون للتكوين فتعلُّقاتها قديمة عند بعضهم ؛ بمعنىٰ أنها تعلَّقت في الأزل بوجود المقدور فيما لا يزال ، وحادثة عند الآخرين) .

وقال العلامة الغنيمي في « بهجة الناظرين في محاسن أم البراهين » (٢/ق٤٥) : (التعلُّق الحادث ـ يعني : للقدرة ـ ليس إلا التكوينَ عند القائلين به) .

(١) خطَّأ صاحبُ « الكشف » المصنفَ في هـٰذا الفصل والذي بعده ؛ وهو فصل الكلام ، وشنَّعَ عليه ، وأجرى الكلام مجرى الظاهر من مذهب السنة ؛ في أن الله تعالىٰ خالق في الأزل ، وكذا في الكلام ، وطوَّل في شرح ذلك . مفادٌ من هامش (ب ، و) .

(٢) ونعني بصفة التخليق : صفة قائمة بالذات لم يزل به يتحقق اسم الخالق . انتهىٰ من هامش (هـ) ، وهي في أصل (ز) .

إذا ظهرَتْ قدرتُهُ عليها ، ولا يقالُ : (ناظرَ فلاناً) إلا إذا وُجِدَ منهُ فعلُ المناظرةِ معَهُ حقيقةً ، إلا أنَّهُ في الشاهدِ ما تثبتُ الصفةُ إلا بظهورِ الفعلِ منهُ بحقٍّ ، وتثبتُ الصفةُ للصانعِ بالحُجَّةِ قبلَ الخَلْقِ .

[صفةُ الكلامِ الأزليِّ]

وكذلكَ نقولُ : إنَّهُ متكلِّمٌ لم يزلْ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، ولا نقولُ : كلَّمَ اللهُ موسىٰ لم يزلْ .

وكذلكَ الكلامُ في الشاهدِ إنَّما يكونُ بصوتٍ مقدَّرٍ بحروفٍ منظومةٍ خارجةٍ عن مخارجَ معلومةٍ ، وتعالى اللهُ عنِ الكلامِ بهـٰذا الحدِّ(١) ، وإنَّما نعني بالوصفِ : ما يدلُّ على القدرةِ الخاصَّةِ التي يكونُ عنها الكلامُ المعروفُ(٢) ، لا عنِ الصوتِ والحروفِ(٣) ، ولـٰكنْ نقولُ : متكلِّمٌ لم يزلْ ، ولهُ صفةُ الكلامِ

---

(١) قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٥٨) : (وبطل معنى الأعراض ، والتفرُّقِ والاجتماع ، والحدِّ والغاية ، والزيادة والنقصان ؛ إذ ذلك وصف كلام الخَلْقِ) .

(٢) هـٰذه العبارة صحيحة في حقِّ العباد ، أما في حقِّ الله فلا تجوز عند أهل السنة . انتهىٰ من هامش (و) ، وسيأتي تشبيه كلامه تعالىٰ بكلام البشر المستند لقدرتهم ، لا أنه صفة مستقلة ، وتقدم انتقاد هـٰذه العبارة على الإمام المصنف ؛ إذ ليس كلامه تعالىٰ راجعاً إلىٰ صفة القدرة ، بل هو صفة قائمة بذاته تعالىٰ بها تتأتَّى الدَّلالة علىٰ كلِّ ما تعلَّقت به صفة العلم كشفاً .

(٣) إذ لا خلاف في حدوثها ، وما رواه البخاري (٩/ ١٤١) معلَّقاً من حديث سيدنا عبد الله بن أنيس رضي الله عنه مرفوعاً : « يحشر الله العبادَ ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعُدَ كما يسمعه من قرُب : أنا الملك ، أنا الديَّان » . فقال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٠/ ٤٢٩) : (« بصوت » مخلوق غير قائم بذاته ، ويأمر تعالىٰ من ينادي ، ففيه مجاز الحذف) ، ثم قال : (وأما حديث ابن أنيس : فاختلف الحفاظ في الاحتجاج بروايات ابن=

لم يزلْ ، قائمٌ بذاتِهِ ، بهِ يتحقَّقُ اسمُ المتكلِّمِ .

[وجوبُ تأويلِ ما وردَ مِنْ غضبِ اللهِ تعالىٰ]

وكذلكَ نقولُ : غضبَ اللهُ على الكافرينَ ، وإنَّهُ في الشاهدِ عبارةٌ عن حدَّةٍ تعتري الإنسانَ مِنْ هيجانِ المِرَّةِ ، فتحملُهُ على الانتقامِ عندَ القدرةِ ، وتعالى اللهُ عن ذلكَ ، فما مِرَّةٌ هنالكَ ، لٰكنْ أردنا بهِ الانتقامَ بالعَدْلِ ، مِنَ العصاةِ بالمثلِ .

وعلىٰ هٰذا المعنىٰ أسماءُ اللهِ تعالىٰ بلا حالٍ ، وإنْ كانَتْ أسماءُ حقيقتِها في الشاهدِ مِنَ الأفعالِ .

[الكلامُ في العملِ بالعلمِ]

فيقولانِ : فما علينا وقد علمْنا الحُجَجَ ؟

فيقولُ : العملُ بعلمٍ ثبتَ لكَ بها ، فقد ذكرنا أنَّ اللهَ سبحانَهُ خلقَكَ للعملِ بالعلمِ[1] .

= عقيل لسوء حفظه ، ولم يثبت لفظ « الصوت » في حديث صحيح مرفوع غير حديثه ، فإن ثبت رجع إلىٰ حديث ابن مسعود ؛ يعني : أن الملائكة يسمعون عند حصول الوحي صوتاً) .

قال العلامة البيَاضيُّ في « إشارات المرام » (ص٥٥) : (ولا يُسمعُ الكلام النفسي ، بل الدالُّ عليه ، واختاره الأستاذ ومن تبعه كما في « التبصرة » للإمام أبي المعين النسفي ، والنفسي : ما ذكره الله تعالىٰ في الأزل بلا صوت ولا حرف كما في « الإرشاد » للإمام أبي الحسن الرُّسْتُغْفَنيِّ ، وهو مذهب السلف كما في « نهاية الإقدام » ، وهو إخبار في الأزل ، واختاره الأشعري كما في « المنائح » ، وكثير من الأشاعرة كما في « الصحائف ») .

(١) انظر ما تقدم (ص٥٥٥) .

[الإيمانُ باللهِ تعالىٰ]

فيقولانِ : مِنْ أينَ البدايةُ ؟

فيقولُ : مِنْ عملِ القلبِ ، وعملُهُ الاعتقادُ وتصديقُ الحُجَجِ ؛ وهوَ الإيمانُ ، وإنَّهُ عملٌ بالعلمِ ، فضدُّ الإيمانِ كفرٌ ، وضدُّ العلمِ جهلٌ .

وإبليسُ عالمٌ باللهِ ، كافرٌ بهِ ، ويقولُ اللهُ تعالىٰ حكايةً عن آلِ فرعونَ : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : ١٤] ، والجَحْدُ والكفرُ واحدٌ .

ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ علمَ برسولِ اللهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنصِّ الكتابِ ، وكفرَ بهِ .

[حصولُ الإيمانِ بالعلمِ والتصديقِ بالقلبِ]

وآيةُ العلمِ : في تبدِّي المطلوبِ للقلبِ وتجلِّيهِ حتىٰ لا يبقىٰ خفيّاً عليهِ ، والعملِ في تصديقِ القلبِ : ما تبدَّىٰ لهُ وعقدُهُ عليهِ ؛ فإذا صدَّقَ بقلبِهِ تمَّ إيمانُهُ بينَهُ وبينَ ربِّهِ سبحانَهُ .

[النطقُ بالشهادةِ ركنٌ في الإيمانِ شرعاً ، لا عقلاً]

غيرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الشهادةَ بهِ نُطْقاً مِنَ الإيمانِ رُكْناً بخطابِهِ ، علىٰ لسانِ رسولِهِ وكتابِهِ[1] ؛ ليتمَّ إيمانُهُ بينَهُ وبينَ خلقِهِ ، ويتمكَّنَ الرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) كالنظم والمعنىٰ في القرآن ، والقراءة والقيام في الصلاة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ . . . ﴾ الآية [البقرة : ١٣٦] ، وفي الحديث : « أمرت أن أقاتل الناس . . . » الحديث . انتهىٰ من هامش (و) .

فالإيمان معنىً مركَّب ؛ فالتصديق نصيب الروح ، والإقرار نصيب البدن ، وبقول الإمام =

وسلَّمَ مِنْ إقامةِ حُكْمِ اللهِ لهُ وعليهِ بحقِّهِ ، ولهٰذا لم تجبِ الشهادةُ إلا مرَّةً واحدةً ؛ فإنَّها لعلمِ الناسِ بهِ وقد حصلَتْ بالمرَّةِ هٰذهِ القاعدةُ ، وأمَّا الاعتقادُ : فحقُّ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّهُ ثابتٌ أبداً ، ما يحتملُ زوالاً ولا حالاً[1] .

[الإيمانُ بالرسولِ والقرآنِ]

فيقولانِ : أَلِلهِ كتابٌ ورسولٌ وخطابٌ غيرُ دَلالاتِ العقولِ ؟

فيقولُ : نعمْ ، للهِ تعالىٰ رُسُلٌ مِنَ الملائكةِ المقرَّبينَ ، ورُسُلٌ مِنَ البشرِ المكرَّمينَ ، وكتبٌ قيِّمةٌ ، وصُحُفٌ بيِّنةٌ ، فيها هدىً وشفاءٌ لما في الصدورِ ، وبيانٌ لكلِّ شيءٍ يحتاجُ العبدُ إليهِ لتمامِ دينِهِ بأتمِّ نورٍ ، فيستغني العبدُ بهداهُ عن رأيِهِ إلا في معناهُ[2] ؛ فما البيانُ مِنْ علَّامِ الغيوبِ الذي لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ مِنَ الأصولِ والفصولِ . . كبيانِ المجتهدِ المستدلِّ بدَلالاتِ العقولِ ؛ إذْ ذلكَ

= المصنف قال السرخسي في « أصوله » (١/ ٦٠) ، والبزدوي في « أصوله » كما في شرحه « كشف الأسرار » (١/ ١٨٥) ، لـٰكن عبارة القاضي هنا تقبل التأويل بالإيمان في الدنيا ، ولا سيما بملاحظة قوله : (وترك ما يلزم الجسم بلا تبديل عقد . . فسقٌ) ، ولم يجعله كفراً ، وقد قال العلامة المحقِّق السعد في « شرح العقائد النسفية » (ص٢٧٥) : (وذهب جمهور المحقِّقين : إلىٰ أنه التصديق بالقلب ، وإنما الإقرار شرط لإجراء الأحكام في الدنيا ؛ لما أن تصديق القلب أمرٌ باطن لا بدَّ له من علامة ، فمن صدَّق بقلبه ولم يقرَّ بلسانه . . فهو مؤمن عند الله وإن لم يكن مؤمناً في أحكام الدنيا ، ومن أقرَّ بلسانه ولم يصدِّق بقلبه كالمنافق . . فبالعكس ، وهـٰذا هو اختيار الشيخ أبي منصور رحمه الله ، والنصوص معاضدة لذلك ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة : ٢٢]) .

(١) أي : تغيُّراً . انتهىٰ من هامش (هـ) ، الحال : صفة سريعة الزوال ، مشتقة من التحوُّل والانتقال . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : يحتاج إلىٰ فهم المعنى اللغوي . مفادٌ من هامش (و) .

يقينٌ ، ويشوبُ هـٰذا كثيرٌ مِنَ الظنونِ[1] .

[المعجزةُ آيةٌ علىٰ تصديقِ الرسولِ وما يجيءُ بهِ]

فيقولانِ : وبأيِّ دليلٍ نعرفُ الكتابَ والرسولَ ؟

فيقولُ : بآياتٍ معجزاتٍ علىٰ ما ذكرناهُ فيما مضىٰ مِنَ الفصولِ .

[معجزةُ القرآنِ الكريمِ]

فيقولانِ : فما الآيةُ القائمةُ للحالِ علىٰ هـٰذهِ الدعوىٰ ؟

فيقولُ : كتابُ اللهِ الذي فينا ؛ فهو معجزٌ بفصاحةِ النظمِ وبلاغةِ المعنىٰ علىٰ ما سبقَ ذكرُهُ ويأتيكَ وصفُهُ[2] .

فيقولانِ : وما اسمُ هـٰذا الكتابِ ؟

فيقولُ : جاءَ وقتُ انتقادِ ما أملينا عليكَ مِنْ مواجبِ العقولِ[3] ، على الكتابِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ ، تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ ، ووقتُ جوابي لكَ بعدَ هـٰذا عمَّا نطقَ الكتابُ بهِ مِنْ غيرِ تقصيرٍ في معرفتِهِ ، ولا غلوٍّ بالرأْيِ علىٰ مخالفتِهِ ، فاللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ، والفائزُ : مَنْ قَبِلَ هـٰذا النصحَ ، ولم يستعملِ الرأْيَ إلا فيما لم يجدِ النصَّ .

---

(١) أي : إن كان مخفياً أو مشكلاً ، وما يتعلَّق بالإشارة والدلالة والاقتضاء . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) انظر (ص٤١٠) .

(٣) ضمَّن الانتقاد معنى العرض . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

[أسماءُ الكتبِ السماويَّةِ المنزَّلةِ]

فيقولانِ : نعمْ ، فما اسمُ الكتابِ ؟

فيقولُ : إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : ٢] .

وقالَ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وقالَ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧][١] .

واسمُ كتابِنا : القرآنُ ، واسمُ كتابِ عيسى : الإنجيلُ ، واسمُ كتابِ موسى : التوراةُ ، واسمُ كتابِ داودَ : الزبورُ .

فيقولانِ : كيفَ الانتقادُ بالقرآنِ ؟

فيقولُ : بأنْ يتأيَّدَ بالقرآنِ وآياتِهِ ، ما أثبتَهُ العقلُ مِنْ موجباتِهِ ؛ فالعقلُ نورٌ هادٍ ، والوحيُ ضياءٌ كافٍ ، وهما حُجَّتا اللهِ تعالىٰ ، وحُجَجُ اللهِ تعالىٰ لا تترادُّ ولا تتضادُّ ، لـٰكنَّ الشرعَ فوقَ العقلِ ؛ كالشمسِ فوقَ السراجِ علىٰ ما سبقَ القولُ فيهِ[٢] .

[المحكمُ والمتشابهُ]

والقرآنُ : منهُ آياتٌ محكماتٌ ، وآياتٌ متشابهاتٌ .

فالمحكمُ : ما جاءَ شاهداً بما شهدَ بهِ العقولُ مِنَ الواجباتِ التي لا تحتملُ

---

(١) السبع المثاني ؛ أي : الفاتحة ؛ لأنها سبع آيات ، وتثنَّىٰ في الصلاة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) ونسبة النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى السراج مع ازدياد نور الشمس ؛ لإمكان التقرُّب إليه وأخذ النور منه من غير ضرر ، بخلاف نور الشمس . انتهىٰ من هامش (و) .

النسخَ بحالٍ[1] ؛ سُمِّيَ محكماً للأمنِ عنِ انتساخِهِ ؛ كالبناءِ المحكمِ الذي أُمِنَ مِنِ انتقاضِهِ .

والمتشابهُ : ما جاءَ مؤيِّداً للواجباتِ بأصلِهِ ، رادّاً بوصفِهِ ، فتشابهَ على السامعِ علمُهُ ؛ حيثُ خالفَ حُجَّةَ العقلِ مِنْ وجهٍ دونَ وجهٍ ، ولا سبيلَ إلى المخالفةِ .

[حكمُ العملِ بالمحكمِ والمتشابهِ]

فوجبَ القولُ بالمحكمِ كُلِّهِ ، والوقفُ في حدِّ المتشابهِ بعدَ إثباتِ أصلِهِ ؛ طلباً للتوفيقِ بينَ حُجَجِ اللهِ تعالىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2] ، ثم قالَ : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] .

فأخبرَ أنَّ مَنِ اتَّبعَ المتشابهَ وأوَّلَهُ كانَ مِنَ الزائغينَ المبتغينَ للفتنةِ والأباطيلِ ، ومَنْ آمنَ بالمتشابهِ بأنَّهُ حقٌّ مِنَ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تأوُّلٍ كانَ مِنَ الراسخينَ في علمِ التنزيلِ[3] .

---

(١) كصفات الله عزَّ وجلَّ ، والقصص والأخبار .

(٢) وفي قراءة عبد الله ـ ؛ يعني : ابن مسعود رضي الله عنه ـ : (وإن تأويله عند الله) . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) المعتمد عند الحنفية : أن المتشابه ما انسدَّ علينا بابُ دَرَكه ، وابتلينا بالكفِّ عنه ، وانقطع رجاء معرفة المراد منه ، فتُعتقد حقيَّتُهُ ، ويُسلَّم علمه لله تعالىٰ ، فتكون فائدة إنزاله ـ مع كون الكلام إنما وضع للإفهام ـ هي الابتلاءَ ؛ فكما ابتلي الجاهل بالمبالغة في طلب العلم . . ابتلي الراسخ بكبح عِنان ذهنه عن التأمل والطلب ، وانظر « شرح التلويح على =

وإنَّا قد بيَّنَّا لكَ الواجباتِ مِنَ العلمِ الذي لا بدَّ منهُ لتتمَّةِ الإيمانِ :

[تحقيقُ المعرفةِ بالنظرِ والاستدلالِ]

معرفةُ اللهِ تعالىٰ بطريقِ الآياتِ : وبهِ شهدَ القرآنُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣][1] .

= التوضيح » (١/ ٢٤٦) .

وقال العلامة البياضي في « إشارات المرام » (ص٥٤) : (ولا يؤول المتشابهات ، ويفوَّض علمها إلى الله تعالىٰ ، مع التنزيه عن إرادة ظواهرها ، واختاره مالك والشافعي وابن حنبل والحارث المحاسبي والقطان والقلانسي كما في « التبصرة البغدادية ») .

والمتشابهات تنكشف يوم القيامة ، وإنما التسليم والابتلاء به في الدنيا ، وقالوا : كلُّ متشابه يمكن ردُّه إلى المحكم فهو من المتشابه الذي يمكن تأويله ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، رُدَّ إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] ، فيحمل على المشاكلة ، أما ما لا يمكن ردُّه ؛ كعلم الساعة ، والحروف المقطعة . . فهـٰذا الذي يقال فيه : لا يعلم تأويله إلا الله تعالىٰ .

إن قلت : نرىٰ عند المتأخِّرين بل عند المتقدِّمين أيضاً مَنْ أوَّل بعض المتشابهات ، وهـٰذا كالإجماع علىٰ عدم وجوب التوقُّف في المتشابه .

فالجواب : ما قاله العلامة السعد في « التلويح » (١/ ٢٤٥) : (بأن التوقُّف مذهب السلف ، إلا أنه لما ظهر أهل البدع ، وتمسَّكوا بالمتشابه في آرائهم الباطلة . . اضطرَّ الخلف إلى التكلُّم في المتشابه ؛ إبطالاً لأقاويلهم ، وبياناً لفساد تأويلهم ، وفيه نظرٌ ؛ لأن ذلك كان في القرن الأول والثاني ، حتىٰ نُقل تأويلُ المتشابهات عن الصحابة والتابعين ، وعن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما أنه كان يقول : الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه ، وأنا ممن يعلم تأويله .

وقد يقال : إن التوقُّف إنما هو عن طلب العلم حقيقة ، لا ظاهراً ، والأئمة إنما تكلَّموا في تأويله ظاهراً لا حقيقة ، وبهـٰذا يمكن أن يرفع نزاع الفريقين) .

(١) قال العلامة السعد في « التلويح على التوضيح » (٢/ ٢٨٣) : (الاستدلال بالآفاق والأنفس هو أشدُّ المراتب وضوحاً ، وأكثرها وقوعاً ، وأثبتها دواماً ؛ إذ كلُّ أحدٍ يشاهد=

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

وقالَ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ عرفَ نفسَهُ فقد عرفَ ربَّهُ »[١] .

[الكفرُ بالطاغوتِ مِنْ أُسُسِ الإيمانِ]

ولأنَّ أساسَ الإيمانِ باللهِ تعالى الكفرُ بالطاغوتِ[٢] ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقالَ حكايةً عن إبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام : ٧٨ـ ٧٩] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، بدأَ بالنفْيِ ، واستثنى الإثباتَ منهُ .

ولا يُتصوَّرُ الكفرُ بالطاغوتِ ونفْيُ الألوهيَّةِ عمَّا سوى اللهِ . . إلا بالوقوفِ علىٰ آياتِ الحَدَثِ في العالَمِ ، فيلزمُهُ التبرِّي عنهُ إلىٰ خالقِهِ العالِمِ .

= نفسه والسماوات والأرضين ، فكان ملازماً لكلِّ أحد من أهل الإيمان) ، وفي هامش (و) : (﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ : قال الضحاك : انشقاق القمر ، واختلاف الأحوال من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، واتخاذ المدخل للطعام والشراب ، واختلاف المخرج) .

(١) هو قولٌ للعارف بالله تعالىٰ يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ ، كذا بيَّن الإمام السيوطي في « القول الأشبه في حديث : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) » ضمن « الحاوي للفتاوي » (٢/ ٢٨٨) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١١٤٩) ، وفي هامش (و) : (من عرف نفسه مخصوصاً بالوجود بعد سابقة العدم يستدلُّ به علىٰ تخصيص المخصِّص) .

(٢) وهو ركن اعتقادي ، لا قولي ، وتعتوره أحوالٌ تطلب في كتب الفقه ، وكلُّ معبود من دون الله تعالىٰ فهو جبتٌ وطاغوتٌ . انظر « معاني القرآن » للزجاج (٢/ ٦١) .

[معرفةُ الأسماءِ الحسنىٰ]

وقد قالَ اللهُ تعالىٰ في ذكرِ أسمائِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص] .

وقالَ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ـ ٢٤] .

وفي القرآنِ[١] : الحميدُ ، المجيدُ ، المبدئُ ، المعيدُ ، الخالقُ ، الفاطرُ ، القادرُ ، المقتدرُ ، الوكيلُ ، الحسيبُ ، الشهيدُ ، العليمُ ، الربُّ ، القديرُ ، الخبيرُ ، الحيُّ ، القيُّومُ ، الأوَّلُ ، الآخرُ ، الظاهرُ ، الباطنُ ، إلىٰ سائرِ أسمائِهِ المذكورةِ .

فاذكرا اللهَ بها ، وصِفاهُ بجميعِها[٢] ؛ فإنَّها محكماتٌ[٣] ، دلَّتْ عليها العقولُ والآياتُ ، وإيَّاكما والزوائدَ المذكورةَ مِنْ عندِ الناسِ ، ممَّا ليسَ لهُ في القرآنِ أساسٌ[٤] ، فالجهلُ بها لا يضِلُّكما ، وعلمُها ربَّما يُزِلُّكما ، ومَنْ أحسنَ

---

(١) يعني : مما ذكر من أسمائه سبحانه في كتابه العزيز .

(٢) فيه اشتقاق الاسم من الصفة أو بالعكس .

(٣) يعني : فهي من الأسماء المحكمات ؛ إذ ثَمَّ أسماء له تعالىٰ متشابهات ؛ كاسمه تعالى (الصبور) مثلاً .

(٤) قال العلامة الصفَّار الحنفي في « تلخيص الأدلة » (ص٣٩١) : (ما جاء من أسماء الله في القرآن : فهو ثابت بالنصِّ ، وما ليس في القرآن وقد ورد به التوقيف في الخبر ، أو أجمع عليه المسلمون : فإنه ثابت أيضاً) . =

أداءَ الفرائضِ لم يأثمْ بتركِ النوافلِ[1] .

[المتشابهُ الذي لا يجوزُ تسميةُ اللهِ تعالىٰ بهِ]

والمتشابهُ : نحوُ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] ، ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ؛ فاليدُ والوجهُ اسمٌ حميدٌ لذاتٍ ذي أجزاءٍ كالجسمِ ، بل فوقَهُ[2] ، والعقلُ يثبتُ الاسمَ الحميدَ لذاتِ اللهِ ، وينفي الأجزاءَ ، ولهـٰذا لم نَصِفِ اللهَ بالجسمِ ، وبما يجانسُهُ مِنَ الاسمِ .

[تأويلُ بعضِ المتشابهاتِ بردِّها إلى المحكمِ]

فصارَتْ هـٰذهِ الأسماءُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ مِنَ المتشابهِ الذي لا يجبُ ردُّهُ بأصلِهِ ؛ فأصلُهُ اسمٌ حميدٌ لذاتٍ[3] ، وعلىٰ هـٰذا أسماءُ اللهِ والصفاتُ ، ولا يجوزُ إثباتُهُ بوصفِهِ ؛ فوصفُهُ حَدَثٌ[4] ، واللهُ تعالىٰ قديمٌ ، فيجبُ الإيمانُ بهِ وتفويضُ تأويلِهِ إلى اللهِ الخبيرِ ، وهوَ القولُ العَدْلُ بينَ الغلوِّ والتقصيرِ .

= وفي هامش (و) : (أي : الأسامي التي لم تجئ في القرآن ؛ مثل : النفَّاح ، والمرتاح ، في دعاء الاستفتاح) .

(١) وهـٰذا في حقِّ عاميٍّ قد يستضرُّ بسماع الأسماء المتشابهة ، ولأن تفوت رتبة الكمال خيرٌ له من فوات رتبة الإيمان .

(٢) الجسم اسم حميد لأنه قائم بذاته ، والوجه فوق الجسم في المحمدة . انتهىٰ من هامش (و) ، وعلةُ كونها حميدة هي الفرقُ بينها وبين ما سيأتي مما تعين المجاز فيه .

(٣) فإنه ـ يعني : لفظ الوجه واليد ـ ينبئ عن القيام بالذات ، ويقال : (جَسِيمات الأمور) لعظائمها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) لأن هـٰذه الألفاظ دالَّةٌ على الأبعاض والأجزاء ، ولازمةٌ للحدوث والتغير .

فمِنَ الناسِ مَنْ أثبتَ هـٰذهِ الأسماءَ علىٰ حقائقِها ، ووصفَهُ بالجسمِ قياساً علىٰ طرائقِها ، وإنَّهُ لتقصيرٌ[1] ؛ فقد خالفَ مواجبَ العقولِ بهـٰذا التفسيرِ .

ومنهم مَنْ حملَ الاسمَ على المجازِ ؛ فأوَّلَ اليدَ بالنعمةِ وحملَ الوجهَ على الذاتِ طلباً للجوازِ ، وإنَّهُ لغلوٌّ ونفيٌ لاسمٍ حميدٍ في الشاهدِ ؛ شهدَ بهِ الكتابُ بلا ضرورةٍ علىٰ كلِّ جاحدٍ[2] .

والإيمانُ بأصلِهِ بلا تفسيرٍ لوصفِهِ عَدْلٌ بينَهما ، يهتدي بهِ المقصِّرُ ، ويرجعُ إليهِ الغالي ، ويسدُّ بابَ القياسِ عليهِ ، فقدِ اشتبهَ معناهُ ولم يصلْ إليهِ .

[ما يُتأوَّلُ بمجازِهِ]

فيقولانِ : وما تقولُ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أو ﴿ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم : ٤٢] ؟

فيقولُ : إنَّها مؤوَّلةٌ بمجازِها علىٰ مجيءِ أمرِ اللهِ ؛ كقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف : ٨٢] ؛ أي : أهلَها ، وكشفُ الساقِ : عبارةٌ عن شدَّةِ الأمرِ[3] ؛ كقولِكَ : فلانٌ شمَّرَ ذيلَهُ في أمرِ كذا ؛ أي : جدَّ فيهِ[4] ؛ لأنَّ

---

(١) في (ج ، د ، هـ) وحاشية في هامش (ز) : (وإنَّ أولـٰئكَ القومَ لحميرٌ ؛ وهمُ الكراميَّةُ) .

(٢) انظر ما تقدم قريباً (ص٦٢٢) تعليقاً من كلام العلامة السعد التفتازاني ، وقد تأوَّلَ الإمام أبو بكر الجصاص ـ وإن عُرفَ ميله إلى الاعتزال ـ في « أحكام القرآن » (٣/ ٣٦٢) الوجهَ بالذاتِ ، وقال العلامة الصفَّار الحنفي في « تلخيص الأدلة » (ص٣١٠) : (أي : كلُّ شيء قابل للفناء إلا ذاتَ الله) .

(٣) فمعنى الآية : يوم يشتدُّ الأمر ويتعاظم ، ولا كشف ثَمَّ ولا ساق ؛ كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ولا غلَّ ، وإنما هو مثل في البخل . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) الكشفُ عن الساق ، والإبداء عن الخِدام ـ جمع خَدَمة ؛ الساق ، أو موضع الخَلْخال منه ـ=

المجيءَ والإتيانَ والساقَ ليسَتْ لها معانٍ حسنةٌ تدلُّ على العظمةِ والمحمدةِ[1] ، وأسماءُ اللهِ وصفاتُهُ حُسْنىٰ بنصِّ الكتابِ ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه : ٨] ، كما لم نجعلِ الشيءَ والذاتَ مِنْ أسمائِهِ وإنْ لم يُنْبِئا عن معنى الحدوثِ[2] ؛ لخلوِّهما عن معنى الإنباءِ عن معنىً حميدٍ .

[﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ، والقولُ في الرؤيةِ]

ومِنَ المتشابهِ : قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ـ ٢٣] ، و(إلىٰ) : كلمةُ غايةٍ ، وما بينَ العبدِ وربِّهِ مِنْ مسافةٍ ، ولا للهِ حدٌّ فيُتصوَّرَ غايةً ، وفي النظرِ والعِيانِ إيقانٌ بالذاتِ فوقَ دليلِ الآياتِ ، وزيادةُ دليلِ العلمِ بالذاتِ حميدةٌ[3] ، ومسافةُ النظرِ بالغايةِ مردودةٌ ؛ فوجبَ إثباتُ أصلِ النظرِ والرؤيةِ علىٰ نفْيِ حدِّها في الشاهدِ ، وتفويضُ تأويلِ الحدِّ إلى اللهِ تعالىٰ قولاً عَدْلاً بينَ قولينِ ؛ قولِ مَنْ نفىٰ النظرَ إلى اللهِ تعالىٰ أصلاً ،

= والخلاخلِ . . عبارة عن شدَّة الأمر وصعوبته ، وأصله : في الرَّوع والهزيمة ، وتشهيرُ المخدَّرات عن سُوقهنَّ في الهرب ، وإبداءُ خِدَامهنَّ . . عند ذلك . انتهىٰ من هامش (و) .

(١) بخلاف الوجه واليد كما تقدم (ص٦٢٥) .

(٢) تقدم (ص٦١٠) .

(٣) فمعرفتُهُ تعالىٰ علمٌ بذاته من حيث إثباتُ الوجود لها ولصفاتها وأسمائها ، ورؤيةُ المؤمنين يوم القيامة لها زيادةُ علمٍ بها ؛ لتفرقتك الضرورية بين نظرك إلى القمر ، وعلمك به من غير نظر إليه قبل وقوع النظر ، ولـٰكن لا يجوز تمحيضُ الرؤية وإرجاعها إلىٰ صفة العلم فقط ؛ إذ عِلْمنا بالمرئيَّات شيء ، ونظرنا إليها شيء آخر ، وكما علمناه سبحانه بأنه ذاتٌ جليلة ثابتة ليس كمثلها شيء ، منزهةٌ عن الزمان والمكان ، قامت بها صفاتُ الكمال . . نراه تعالىٰ يوم القيامة كذلك .

وقولِ مَنْ أثبتَ النظرَ إليهِ بمسافةٍ واختلافِ مكانينِ بينَ العبدِ والربِّ[1] ، تعالى اللهُ عنِ الأمكنةِ ، كما تعالىٰ عنِ الأزمنةِ .

وكذلكَ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، والتجلِّي نظيرُ الرؤيةِ[2] ؛ فإنَّهُ دليلٌ على العِيانِ ، ولن يكونَ على الحقيقةِ إلا بزوالِ حجابٍ عنِ المتجلَّىٰ لهُ ، والحجابُ لا يُتصوَّرُ إلا بمكانينِ ومسافةٍ بينَ شيئينِ[3] ، فيجبُ إثباتُ أصلِهِ بالنصِّ ، وتفويضُ تأويلِ حدِّهِ إلى اللهِ تعالىٰ .

[﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ، ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ ونفيُ الحدِّ عنِ اللهِ تعالىٰ]

ومِنَ المتشابهِ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، فالكرسيُّ : اسمٌ لِمَا يُجلسُ فيهِ ، والعرشُ : اسمٌ لما يُستقرُّ عليهِ ، والاستواءُ عليهِ : الاستقرارُ ، وفيهِ دَلالةٌ على العلوِّ والعظمةِ ؛ فقد وسعَ كرسيُّهُ السماواتِ والأرضَ ، وعلا عرشُهُ حتىٰ لا تعرجُ الملائكةُ إليهِ إلا في يومٍ قدرُهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ ، ودَلالةُ أنَّهُ معلومٌ ؛ لقَصْدِ العبادِ إليهِ لحوائجِهم ، لـٰكنْ بمكانٍ واستقرارٍ ، وهـٰذا الحدُّ دَلالةٌ على الحَدَثِ ، فوجبَ

---

(١) فالنفاة : المعتزلة وأشباههم ، ومثبتو النظر بمسافةٍ وحدٍّ : هم المشبهة وعموم الحشوية .

(٢) وكلٌّ من التجلِّي والرؤية مخلوقانِ في العبد ، ولذلك يُبحثانِ في الصفات الجائزة في حقه سبحانه ، وهي راجعة لأفعاله ؛ لاستحالة وصف ذاته بنعتٍ جائز ، وحَذارِ أن تظنَّ التجلِّيَ معنىً عارضاً للذات القديمة ؛ إذ غاية الرؤية : كشف غطاء العبد ليَرىٰ ، لا أن ذاته تعالىٰ يعتريها الأحوال وتطرأ عليها فتتهيَّأ لكي تُرىٰ .

(٣) مكان الحجاب ، ومكان المتجلَّىٰ له . انتهىٰ من هامش (و) ، ثم الحجاب صفة العبد ؛ إذ جلَّ ربُّنا أن يحجبه شيء هو خلقه ، ويتعالىٰ عن موجودٍ معه قديم حجبه .

إثباتُ أصلِهِ علىٰ نفْيِ حدِّهِ ، وتفويضُ تأويلِ حدِّهِ إلى اللهِ تعالىٰ .

[﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، والقولُ في الاختيارِ]

ومِنَ المتشابهِ : قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠][1] ، مَعَ تيقُّنِ كلِّ حيٍّ بفعلِهِ بقَدْرِ وُسْعِهِ علىٰ سبيلِ المِلْكِ والاختيارِ دونَ الإجبارِ[2] ، والاختيارُ عن مِلْكٍ هو المشيَّةُ .

---

(١) وجهُ كونِهِ من المتشابه : إيهامُ مناقضة الحكمة ، أو أنه راجعٌ إلى العبد ، لا إلى الله تعالىٰ ؛ إذ لا شكَّ ولا ريبَ في نفاذِ مشيئته سبحانه ، ومحالٌ أن يشاء فلا يقع المشيءُ ، ولـٰكن لما كان هـٰذا النصُّ يقضي بظاهره أن العبد المكلَّف مجبورٌ ؛ لاستناد وجود مشيئته واختياره إلىٰ مشيئة الحقِّ سبحانه ، مع قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨] . . وجب إثباتُ أصله ؛ مما يقضي بالقهر والعظمة له سبحانه ، وأن لا تحريك ولا تسكين إلا بمشيئته ، وتفويضُ كيف يكون للعبد اختيار مع كونه سبحانه غالباً علىٰ أمره ؛ تصحيحاً للتكليف ، مع نفي أنه تعالىٰ سلب اختيار العباد أو ظلمهم ، جلَّ الحكيم ذو الجلال والإكرام ، عن هـٰذه الأوهام .

(٢) وهـٰذا التيقُّن أمرٌ وجدانيٌّ هو من الضروريات التي لا يمكن جحدها ، وهو حجة الله علىٰ عبده وله تعالى الحجة البالغة ، وحكىٰ لنا مولانا شكاياتِ أهل النار يوم القيامة ؛ فقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ـ١٠٧] ، كما حكىٰ سبحانه عذر سيدنا آدم وزوجِهِ فقال : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، فتعلم أن أهل إيمان العيان لم ينسبوا إلى الله تعالى الإجبار وسلب الاختيار عن العبد .

إن قلت : صرَّح إبليس بمذهب الجبر حيث قال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] ، ولم ينكر عليه .

فالجواب : وصرَّح بمذهب القدر فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [صٓ : ٨٢] ، ولهـٰذا قال =

والنصُّ بحقيقتِهِ ينادي بخروجِ أعمالِنا تحتَ مشيَّةِ اللهِ تعالىٰ دونَ مشيَّةِ العبدِ[1] ، وفيهِ إثباتُ القدرةِ كلِّها وإثباتُ القهرِ لله تعالىٰ ، ونفْيُ العجزِ والإهمالِ والغفلةِ عنِ الأفعالِ ، فيجبُ إثباتُ أصلِها ، والقولُ بأنْ لا فعلَ لأحدٍ بغيرِ مشيَّةِ اللهِ تعالىٰ وتقديرِهِ وحكمِهِ ، مِنْ غيرِ إثباتِ حدِّهِ على التمامِ في جانبِ الفاعلينَ[2] ؛ مِنَ الأحياءِ الخارجةِ أفعالُهم عنِ اختيارٍ عن مِلْكٍ ، بل علىٰ تفويضِ تأويلِهِ في الحدِّ إلى اللهِ تعالىٰ .

وقد سُئِلَ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ القَدَرِ ؛ فقالَ : مسألةٌ مشكلةٌ مبهمةٌ ، لا يعرفُها إلا مَنْ يخبرُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وقدِ انقطعَ الوحْيُ ، ولـٰكنِّي أقولُ قولاً بينَ قولينِ أينَما مالَ ملتُ معَهُ ؛ كما قالَ جعفرٌ الصادقُ رضوانُ اللهِ

= الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (١٤ / ٤٠) : (وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنه كان متحيِّراً في هـٰذه المسألة ، أو يقال : إنه كان يعتقد أن الإغواء لا يحصل إلا بالمُغْوي ، فجعل نفسه مُغْوياً لغيره من الغاوين ، ثم زعم أن المُغْويَ له هو الله تعالىٰ ؛ قطعاً للتسلسل) .

نعم ؛ كلُّ شيء بمشيئته تعالىٰ ، ولاسمه سبحانه (المضلِّ) تجلياتٌ ، مع قيام الحجة على العباد بعد خلق الضلال وعنده ، وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ إشارة قول سيدنا نوح علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام فيما حكاه سبحانه عنه : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] ، ولهـٰذا قال القوم : من نظر للخلق بعين الحقيقة عذرهم ، ومن نظر لهم بعين الشريعة مقتهم .

(١) يعني : هـٰذا النصُّ دالٌّ علىٰ أنه سبحانه هو المهيمن على العباد بخلق جميع أفعالهم ؛ فقوله : (بخروج) ؛ أي : بحصول ، كما نُبِّهَ عليه في هامش (و) ، ثم أشار إلىٰ نسخة : (بدخول) بدل (بخروج) .

(٢) أي : العباد . انتهىٰ من هامش (و) ، أي : من غير إثبات فعل من الفاعلين بالتمام والكمال ، بل من الله تعالىٰ بطريق التخليق ، ومن الخَلْقِ بطريق الكسب . انتهىٰ من هامش (هـ) .

عليهِ : (لا جبرَ ولا تفويضَ[1] ، ولا كُرْهَ ولا تسليطَ)[2] .

فالناسُ في هٰذهِ المسألةِ مِنْ قديمٍ علىٰ قولينِ ؛ قولٍ بالجبرِ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ الفاعلُ والمقدِّرُ بلا اختيارٍ مِنَ العبيدِ ، وقولٍ بأنَّ المكلَّفينَ همُ الفاعلونَ عن تقديرِهم بلا قَدَرٍ للهِ تعالىٰ فيها .

فصارَ قولُ أبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ عَدْلاً وسطاً بينَهما ، جامعاً بينَ أهلِ الفُرْقةِ[3] ، وسبباً للهدايةِ والأُلْفةِ .

وفسَّرَ بعضُهم بأوضحَ مِنْ هٰذا فقالَ : لا فعلَ بغيرِ قَدَرٍ ، والفعلُ مضافٌ إلى البشرِ ؛ ردّاً علىٰ مَنْ سلَّطَ أو أجبرَ ، علىٰ مثالِ مريضٍ لا يقومُ بنفسِهِ ولا يمشي لضعفِهِ ، فيأخذُ صحيحٌ بيدِهِ ، فيقومُ ويمشي إلىٰ حيثُ يريدُ ، فيكونُ مشيُهُ مضافاً إليهِ ، ولا يُتصوَّرُ بدونِ يدِ الآخذِ .

---

(١) أي : لا تفويض في الأفعال الاختيارية من الله إلى العبد حتىٰ يصير العبد مستبِدّاً ، ولا يبقىٰ لله تعالىٰ فيها صنع وتدبير كما يقول أهل القدر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) رواه القاضي صاعد بن محمد النيسابوري في « الاعتقاد » (٣٢) ، وأورده العلامة البياضي في « إشارات المرام » (ص٢٥٧) ، وقال : (« لا جبر » على العباد فيما يصدر منهم من الأفعال ، ولا اضطرار لهم فيه كما قال الجبرية ، « ولا تفويض » إليهم فيه ولا إيجاد لهم عن اختيار كما قاله القدرية ، « ولا تسليط » لهم علىٰ ما يصدر منهم ولا إيجاب عن دواعيهم كما قال الفلاسفة) .

(٣) هم أهل الجبر والقدر ؛ فإن الجبرية يفرِّقون بين العبد وكسبه ، والقدرية يفرِّقون بين الله وخلقه في أفعال العباد .

أهل الفرقة فرَّقوا وقالوا : أفعال العباد الخارجة عن اختياراتهم : إما كلُّها لله تعالىٰ ؛ وهو الجبر ، أو كلُّها من العبد ؛ وهو القدر ، ولم يجمعوا بين القولين ، ولم يقولوا : التخليق من الله ، والكسب من العبد ، فبقوا فارقين . انتهىٰ بطوله من هامش (و) .

[ضلالُ مَنْ يحتجُّ بالقضاءِ والقدرِ]

ولهـٰذا رَدَّ اللهُ تعالى احتجاجَ الكفرةِ بالمشيَّةِ والقَدَرِ ، فكانَ الاحتجاجُ بهِ للتَّنصُّلِ عنِ المعاصي كُفْراً[١] ؛ فقالَ اللهُ تعالىٰ حكايةً عنهم : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، وأجابَ : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٤٨][٢] ، وبيَّنَ أنَّ المشيَّةَ ثابتةٌ لا علىٰ حدِّ الجبرِ[٣] ، ولو كانَتْ

---

(١) التنصُّل : التبرُّؤ والخروج ، ولا شكَّ أن من احتجَّ لكفره بالقضاء والقدر كافرٌ من قبلُ ومن بعد ، أما المؤمن المحتجُّ بهما علىٰ معاصيه ؛ فإن كان لبيان العذر فهو ضالٌّ ؛ إذ لا عذر له بذلك ، وإن كان علىٰ سبيل الاستهانة فكفرٌ والعياذ بالله ، وانظر « التوحيد » للماتريدي (ص٣١٢) .

(٢) والآية بتمامها : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

وروى البيهقي في « الأسماء والصفات » (٣٨٧) : أن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول : (بيننا وبين أهل القدر . . .) ويقرأ هـٰذه الآية .

(٣) لمَّا كان كلُّ ما سوى الله تعالىٰ موجوداً بقدرته سبحانه ، وكانت مختارات العبد المكلَّف موجودة بالمشاهدة . . اتفق أهل السنة أشاعرةً وماتريديةً علىٰ أن أثر القدرة ـ الفعلَ بالمعنى الحاصل بالمصدر ـ الموجودَ في العبد المكلَّف . . حاصلٌ به اضطراراً .

ولمَّا وجدنا في أنفسنا التفرقة الضرورية بين حركتي الرَّعشة والاختيار ، وبلغَتْنا النصوصُ الشرعية التي أسندت الأفعالَ إلى العباد ، وأثبتت لهم الكسبَ تصحيحاً للتكليف والجزاء . . لزمَنا القولُ بأن هـٰذا الاختيار لا ينبغي أن يكون موجوداً ، بل ثابتاً فقط ، وإلا تعلَّقت القدرة به ولزم الجبر ، ولـٰكنه إن كان معدوماً لم يصحَّ التعليل به ؛ إذ لا يعلَّلُ بالعدم ؛ فقال السادة الماتريدية بالواسطة ، وأثبتوا الحال ، وقال السادة الأشعرية بالكسب ورجعوه إلى الاعتبار ، وقالوا : (العبد مضطرٌّ في صورة مختار) ؛ إذ هو بعد وجود الداعية المرجِّحة يختار ما تضطرُّهُ إليه تلك الداعيةُ .

وذهب السادة الماتريدية إلىٰ إثبات أثرٍ للعبد اعتباريٍّ للاستطاعة المخلوقة فيه ، وقالوا : =

جبراً . . كانَتْ لهم حُجَّةً وعذراً .

وقالَ : ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل : ٩٣] .

وقالَ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] ، ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

وقالَ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] ، فبيَّنَ أنَّهُ لم يشأْ هُداهم وهم مشركونَ ، ولو شاءَ هداهم ما أشركوا ؛ ليبيِّنَ أنَّهُ لا فعلَ دونَ مشيئتِهِ .

وقالَ : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] ؛ ليُعلمَ أنَّ الفسقَ مضافٌ إليهم ، لا إلى المشيَّةِ[1] .

= إن هٰذه الاستطاعة تصلح لأن يعمل بها العبدُ المعصية والطاعة ، ولٰكن علىٰ سبيل البدل ، فالكسب عندهم : صرف الاستطاعة التي أحدثها الله تعالىٰ في العبد إلى الطاعة أو المعصية ، وجعلوا هٰذا الصرف اعتبارياً غيرَ مخلوق ، يتَّصف العبد به بجزءٍ اختياري خلقه الله فيه كما خلق له قوة السمع والبصر ، وهٰذا الصرف هو العزمُ والتصميم ، وهو نفس الذي تحصَّل بعد الداعية عند الأشاعرة ، إلا أنهم قالوا بأنه موجودٌ ؛ لرجوعه إلى الخواطر ، وقال الماتريدية : هو معدوم ؛ لرجوعه إلى الهيئة الاعتبارية ، ولٰكن لا يحصِّلُ العبدُ الطاعة إلا بتوفيق الله ، ولا المعصيةَ إلا بخِذلانه والعياذ بالله ، فتقارب المذهبان ، واختلفت العبارات والمشاهدات ، علىٰ أن مذهب الماتريدية قريب من مذهب القاضي الباقلاني من الأشعرية كما قال العلامة ابن أبي شريف في « المسامرة » (ص١٩٧) ، وانظر « إشارات المرام » (ص٢٥٩) ، ثم من وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه .

(١) اعلم : أنه تعالىٰ لو كلَّف العبد دون ما يُصحِّحُ تكليفه ؛ من وجود قدرة له تتحمل الخطاب . . لكان ذلك كقوله : امشِ يا مقعدُ ، وافعلْ يا من لا يفعل ، وهٰذا لا يجوز من الحكيم ، وهو تكليف بالمحال ، وكلاهما ممنوع علىٰ طريقة السادة الماتريدية ، وفيه تسوية المختار بالجماد ، وهو مكابرة بعد ثبوت الفرق بالمشاهدة ، ولو قلنا بتأثير قدرة =

[﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ، والكلامُ في الميزانِ]

ومِنَ المتشابهِ: قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، وقولُهُ : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف : ٨ ـ ٩] .

فالميزانُ : دليلٌ على الحسابِ بالعَدْلِ والمساواةِ والقصاصِ ، وإنَّهُ حسنٌ

= العبد من حيث الإيجاد لكان ذلك شركاً ، تعالىٰ مولانا عن الشريك في فعله .

وقد ثبت الاختيار بقوله تعالىٰ : ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩] ، كما ثبت أنه تعالىٰ شاءٍ وفعالٌ لما يريد ، ولهـٰذا المعنىٰ جُعلَتْ آية الباب من المتشابه .

قال إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي في « التوحيد » (ص٣٠٣) : (قال أبو حنيفة رحمه الله : بيننا وبين القدرية الكلام في حرفين : أن نسألهم : هل علمَ الله ما يكون أبداً علىٰ ما يكون ؟ فإن قالوا : لا . . كفروا ؛ لأنهم جهَّلوا ربَّهم ، وإن قالوا : نعم . . قيل : شاء أن ينفذ علمه كما علم أو لا ؟ فإن قالوا : لا . . قالوا بأن الله شاء أن يكون جاهلاً ، ومن شاء ذلك فليس بحكيم ، وإن قالوا : نعم . . أقرُّوا بأنه شاء أن يكون كلُّ شيء كما علم أن يكون) .

أما نفيُ الجبر : فحجَّةُ الله تعالىٰ قائمة بنفس كلِّ مكلَّف ؛ من وِجدانه في ذاته أنه مختار لما يفعل ممَّا كُلِّف به أمراً وتركاً ، ولا معنىٰ لجحود الوِجدانيات إلا المكابرة .

ونقل الأستاذ القشيري في « رسالته » (ص٩٠) عن الواسطي أنه قال : (لمَّا كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله وظهرتا به لا بذواتها . . فكذلك قامت الخطرات والحركات بالله لا بذواتها ؛ إذ الحركات والخطرات فروع الأجساد والأرواح) ، ثم قال الأستاذ القشيري : (صرَّح بهـٰذا الكلام أن أكساب العباد مخلوقة لله تعالىٰ ، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله تعالىٰ . . فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله) .

وقد صرَّح إمام الهدىٰ أبو منصور الماتريدي بخلق الخواطر ؛ حيث قال في « التوحيد » (ص١٣٧) : (وأمَّا اللهُ سبحانه : فقد جعل لعبده على الأمر بما أمره به دليلاً ، وحرَّك ذهنه بالخواطر ، ونبَّهَهُ بصنوف العبر ، فإنما أُتِيَ من قبل تركه النظر ، وذلك فعله ، فيصير بما هو معتذر محجوجاً ؛ إذ بفعله أعرض عن ذلك) .

واجبٌ في المجازاةِ على السيئاتِ ، لـٰكنْ على حدٍّ لا يمكنُ إثباتُهُ في حسابِ المعاصي والحسناتِ(١) ، **فيجبُ القولُ بأصلِهِ ، وتفويضُ تأويلِ حدِّهِ إلى اللهِ تعالىٰ .**

[الشهداءُ أحياءٌ عندَ اللهِ تعالىٰ]

ومنهُ(٢) : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، **معَ عِيانِنا بالموتِ وزوالِ أعلامِ الحياةِ(٣) ، فيجبُ الإيمانُ بالحياةِ وعلمِهم بالكراماتِ(٤) ، وبضدِّها في العصاةِ(٥) ، على تفويضِ تأويلِ الحدِّ في الشاهدِ إلىٰ ربِّ السماواتِ .**

---

(١) الحسنات والسيئات عرضٌ ، ووزنُ الأعراض غيرُ معقول . انتهىٰ من هامش (هـ) ، ولهـٰذا تأوَّلته المعتزلة بالعدل في الجزاء ، وأهل السنة علىٰ إثبات ميزان حقيقي ، وكيفية الوزن من المتشابه كما رأيت .

(٢) **يعني** : من المتشابه .

(٣) **أعلام** : جمع عَلَمَ ؛ بمعنى : العلامة ، ووجه كون هـٰذه الآية من المتشابه : أنه وجب علينا اعتقاد حياة الشهداء ـ ومثلهم الأنبياء ومن ورد فيهم النصُّ ـ مع أننا نقيم عليهم أحكام الموتىٰ ؛ من غسل وتكفين ـ علىٰ خلاف ـ ودفنٍ وإرث وغير ذلك .

(٤) إذ العلمُ من صفات الإدراك ، والحياة مصححةٌ له ، فلا بدَّ من وصفهم بها .

(٥) إذ حياتهم دون حياة الأولياء ، بل هي لتصحيح عذاب القبر وتحقيق الإهانة لهم ، وروى البخاري (١٣٧٠) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : اطَّلع النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ أهل القليب ، فقال : « وجدتُم ما وعد ربُّكم حقّاً ؟ » ، فقيل له : تدعو أمواتاً ؟! فقال : « ما أنتم بأسمعَ منهم ، ولـٰكن لا يجيبون » .

قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٢/ ٤٦٢) : (وهـٰذا يدلُّ علىٰ وجود حياة في القبر يصلح معها التعذيب ؛ لأنه لما ثبت سماعُ أهل القليب كلامَهُ عليه الصلاة والسلام وتوبيخَهُ لهم. . دلَّ علىٰ إدراكهم الكلام بحاسة السمع ، وعلىٰ جواز إدراكهم ألمَ العذاب ببقية الحواسِّ ، بل بالذات) .

[آياتُ القرآنِ الكريمِ أربعةُ أنواعٍ]

فصارَتِ الأقسامُ أنواعاً أربعةً :

ما حَسُنَ أصلُهُ بحدِّهِ مضافاً إلى اللهِ تعالىٰ[١] : فيكونُ مُحكَماً يجبُ بهِ الإقرارُ .

وما قبُحَ بأصلِهِ مضافاً إلى اللهِ تعالىٰ[٢] : فيجبُ نفيُهُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وطلبُ التأويلِ للإضافةِ بإضمارٍ .

وما حَسُنَ أصلُهُ مضافاً إلى اللهِ تعالىٰ وقبُحَ حدُّهُ[٣] : فلا يجبُ ردُّهُ ولا تأويلُهُ بمجازِهِ ، ولا الإيمانُ بأصلِهِ وَحَدِّهِ علىٰ جوازِهِ ، فكلاهما في الدينِ فتنةٌ ، بل يجبُ الإيمانُ بأنَّهُ حقٌّ على الإجمالِ ، وأنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ المتعالِ .

والقسمُ الرابعُ : ظواهرُ غيرُ مُحْكَمةٍ يجبُ العملُ بها على العبادِ ، بلا علمِ يقينٍ واعتقادٍ : ممَّا اختلفَتْ فيها الأئمَّةُ ، مِنْ علماءِ الأمَّةِ[٤] .

---

(١) كآيات التنزيه عموماً ، وآيات صفات الكمال الوجودية ؛ كالعلم والقدرة والإرادة .

(٢) كقوله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، فيجب نفيُ المجيء لذاته تعالىٰ بتقدير محذوف ؛ يعني : وجاء أمر ربك ؛ إذ المجيء حركةٌ وانتقالٌ ، وهما من صفات الحوادث ، ولا معنىٰ لقولنا مثلاً : له حركةٌ وانتقالٌ يليقانِ بقَدْرِهِ ! لأنهما ليسا من المعاني التي قد يقع فيها الاشتراكُ اللفظي ، بل من الحسِّيَّات الحادثة قطعاً .

(٣) كالآيات المتشابهات التي سبق ذكرها .

(٤) كقوله تعالىٰ : ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ؛ فقد اختلفوا في تحديد القُرْءِ : ألطهر هو أو الحيض ؟ وكقوله تعالىٰ : ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق : ٢] ، فقد اختلفوا : أن الأمر للوجوب أو الندب أو الاستحسان . مفادٌ من هامش (و) .

[تتمَّةُ الإيمانِ بخطابِ الشرعِ]

فيقولانِ : فهلْ يلزمُنا بالكتابِ زيادةُ أمرٍ مِنَ الاعتقادِ ، لتتمَّةِ الإيمانِ بربِّ العبادِ ؟[1] .

فيقولُ : نعمْ ؛ أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، لا تفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وقد ذكرْنا لكَ مِنْ قبلُ ما لزمَكَ مِنَ الإيمانِ ؛ بأنَّ الدنيا خُلقَتْ للفناءِ ، وأنَّكَ مبتلىً فيها بالطاعةِ لربِّكَ علىٰ أداءِ أمانتِهِ إلى الموتِ ، ثم مبعوثٌ يومَ القيامةِ للحسابِ والجزاءِ ، وأنَّ الجزاءَ هوَ الدارُ الآخرةُ الباقيةُ علىٰ وِفاقِ الأعمالِ ؛ إمَّا مُلْكٌ ونعيمٌ ، وإمَّا نارٌ وأنكالٌ ، وكلُّ ذلكَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ .

قالَ اللهُ تعالىٰ في فناءِ الدنيا : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ [التكوير : ١] ، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ [الانفطار : ١] ، ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأحقاف : ٣] ، فبيَّنَ أنَّهُ خلقَها إلىٰ أجلٍ ، والحقُّ فيهِ[2] ، إلىٰ آياتٍ كثيرةٍ ، وبيِّناتٍ منيرةٍ .

وأمَّا فَناءُ الأحياءِ فيها : ففي قولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

وأمَّا كونُ العقلاءِ مبتلَيْنَ بالطاعةِ بأداءِ الأمانةِ :

---

(١) يعني : بحكم الخطاب الشرعي وبلوغ الدعوة ، لا بحكم التأمُّل والنظر للبالغ العاقل الذي لم يجاور أهل الإسلام ، ولم تبلغه الدعوة .

(٢) أي : الحقُّ في أنه خلقها إلىٰ أجل . انتهىٰ من هامش (هـ) .

أمَّا حملُ الأمانةِ : ففي قولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وأمَّا الخلقُ لذلكَ : ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦][١] .

وأمَّا العبادةُ علىٰ سبيلِ الابتلاءِ : ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .

وقولُنا : (ثم مبعوثٌ يومَ القيامةِ) بقولِهِ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٦]، إلىٰ آياتٍ كثيرةٍ للحساب بقولِهِ: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ الآيةَ [الانشقاق : ٨] ، ثمَّ الجزاءِ بقولِهِ : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية : ٢٢] ، إلىٰ آياتٍ فوقَ الإحصاءِ .

ثم نصَّ على الجزاءِ علىٰ وِفاقِ الأعمالِ[٢] ؛ كقولِهِ : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢٦]، وكقولِهِ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] ؛ إمَّا نعيمٌ ، وإمَّا جحيمٌ ؛ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ [الزمر : ٧١] ، ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر : ٧٣] ، وقالَ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ * يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٧ـ ٦٨] ، ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الزخرف : ٧٠] ، وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤] ، إلىٰ عدَّةِ نصوصٍ ، وجَمَّةِ فصولٍ[٣] .

---

(١) لحمل الأمانة ولوائها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) إذ الحكمة تقتضي التفرقة بين الوليِّ والعدوِّ في الدنيا ، لا التسويةَ بينهما ، فلا بدَّ من نهاية وغاية ودار أخرىٰ فيها تقع التفرقة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) فيكون خلود أهل الجنة والنار ثابتاً بعبارة النصِّ ، ودخولهما بدلالته . انتهىٰ من هامش =

وقولُنا : (باقيةٌ) ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [آل عمران : ١٥] ، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان : ٥٦][١] .

[بيانُ سبيلِ أداءِ أمانةِ التكليفِ]

فيقولانِ : ولمَّا خُلقْنا مبتلَيْنَ بأداءِ الأمانةِ ؛ وهي أعمالٌ يعمُّها اسمُ الديانةِ ، وإنَّا علىٰ جهلٍ بعُظْمِها[٢] ، فكيفَ السبيلُ إلىٰ علمِها ؟

فيقولُ : بكتابِ اللهِ ، وبيانِ رسولِ اللهِ ؛ فالكتابُ أُنزلَ تبياناً لكلِّ شيءٍ[٣] ، والرسولُ أُرسلَ ليُبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم[٤] ، وقد نطقَ الكتابُ بكلا الفَصْلينِ[٥] ، وما ضلَّتْ أمَّةٌ ممَّنْ مضىٰ قبلَنا إلا باتِّباعِ آبائِهم وفُسَّاقِ علماءِ دهورِهم ، ونَبْذِ الكتابِ وراءَ ظهورِهم[٦] .

= (و) ، وجَمَّة : جملة .

(١) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٤/٤٢٨) : (المعنىٰ : لا يذوقون فيها الموت البتة ، سوى الموتة الأولى ، التي ذاقوها في الدنيا) ، فمعنىٰ (الأولىٰ) : الواحدة ، وليس بعدها أخرىٰ .

(٢) عُظْمُ الشيء ومعظمه : أكثره .

(٣) قال سبحانه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، والتبيان والبيان بمعنىً ؛ كالتِّلقاء واللقاء ، وقالوا : ليس في المصادر تِفْعالٌ بالكسر غيرهما .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

(٥) أي : بيان الكتاب المبين ، والرسول المبين . انتهىٰ من هامش (هـ) ، فالكتاب أنزل بياناً لكل شيء ، والرسول أرسل للناس ليبيِّن لهم ما نُزِّلَ إليهم . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي هامش (و) أيضاً : (المعاملات والعبادات) .

(٦) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

[التمسُّكُ بكتابِ اللهِ تعالىٰ]

وبالتمسُّكِ بالكتابِ أوصىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ موتِهِ فقالَ : « تركتُ فيكمُ الثقلينِ[1] ؛ كتابَ اللهِ ، وعترتي »[2] .

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا سئلْتُم عن شيءٍ فلا تَرْوُوا ، رُدُّوا الناسَ إلىٰ كتابِ اللهِ)[3] .

---

(١) قال العلامة ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث والأثر » (١/ ٢١٦) : (سماهما ثقلينِ لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل ، ويقال لكلِّ خطير نفيس : ثَقَلٌ ، فسماهما ثقلين إعظاماً لقدرهما ، وتفخيماً لشأنهما) ، وقال أيضاً (٣/ ١٧٧) : (عترة الرجل : أخصُّ أقاربه) .

(٢) رواه الترمذي (٣٧٨٨) وقال : (هٰذا حديث حسن غريب) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٠٩٢) من حديث سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه ، ولفظ الترمذي : « إني تارك فيكم ما إن تمسَّكتُم به لن تضلوا بعدي : أحدهما أعظم من الآخر : كتابُ الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهلُ بيتي ، ولن يتفرَّقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تَخْلُفوني فيهما » .

ورواه مسلم (٢٤٠٨) من حديثه أيضاً بلفظ مقارب ، قال الإمام القرطبي في « المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » (٦/ ٣٠٤) : (هٰذه الوصية وهٰذا التأكيد العظيم يقتضي وجوب احترام آل النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وإبرارهم ، وتوقيرهم ، ومحبَّتهم .. وجوبَ الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلُّف عنها ، هٰذا مع ما علم من خصوصيتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبأنهم جزء منه ؛ فإنهم أصوله التي نشأ منها ، وفروعه التي تنشأ عنه ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « فاطمةُ بَضْعةٌ مني ، يريبني ما يريبها » ، ومع ذلك فقابل بنو أميةَ عظيم هٰذه الحقوق بالمخالفة والعقوق ؛ فسفكوا من أهل البيت دماءهم ، وسَبَوْا نساءهم ، وأسروا صغارهم ، وخرَّبوا ديارهم ، وجحدوا شرفهم وفضلهم ، واستباحوا سبَّهم ولعنهم ، فخالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته ، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته ، فوا خجلَهم إذا وقفوا بين يديه ، ويا فضيحتَهم يوم يعرضون عليه) .

(٣) وأورده الإمام المصنف في « تقويم أصول الفقه » (١/ ٢٣١) ، والسرخسي في « أصوله » =

وقالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا رُوِيَ لكم منِّي حديثٌ فاعْرِضوهُ علىٰ كتابِ اللهِ ، فما وافقَ فاقبلوهُ ، وما خالفَ فردُّوهُ »[1] .

وكانَ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كُتُبٌ إلى العُمَّالِ فيها حِكَمٌ كثيرةٌ ، فلمَّا بلغَهُ اشتغالُ الناسِ بها جمعَها ومحاها ، وقالَ : خفتُ أنْ أشغلَكم بها عن كتابِ اللهِ .

[علمُ التفسيرِ والتأويلِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ يتقدَّمُهُ أربعةُ علومٍ]

فيقولانِ : كيفَ السبيلُ إلىٰ علمِهِ ، والوقوفُ علىٰ حُكْمِهِ ؟

فيقولُ : أمَّا علمُهُ حفظاً فيسيرٌ ، وقد حفظَهُ مِنَ الصبيانِ والعوامِّ كثيرٌ ، والشأنُ في علمِ التأويلِ والتفسيرِ ، فما نالَهُ إلا الموفَّقُ الكبيرُ ، وإنَّهُ لا يُنالُ إلا بعلومٍ أربعةٍ : علمِ لغةِ العربِ ، وعلمِ النحْوِ ، وعلمِ طُرُقِ الاستعمالِ ، وعلمِ طُرُقِ القياسِ الشرعيِّ والاستدلالِ ؛ ليُعرفَ ظاهرُ تفسيرِهِ باللغةِ ، واستقامةُ نظمِهِ بالنحْوِ ، ومعاني البلاغةِ والإعجازِ بالوقوفِ علىٰ طُرُقِ الاستعمالِ ، وغيرُ

= (١/ ٣٥٠) ، وفي هامش (و) : (وفي رواية : « لقد كثرت الروايات ، فإذا سئلتم. . . » إلىٰ آخره ، « ولـٰكن قولوا : معكم كتاب الله ، فأحِلُّوا حلاله ، وحرِّموا حرامه ») .

ويحمل قول الصديق رضي الله عنه علىٰ رواية لا جزم فيها ، وإلا فلا معدل عن النصِّ .

(١) للخبر روايات كثيرة رواها البيهقي في « المدخل إلىٰ علم السنن » (٢٣٢ـ ٢٤٨) وضعَّف طرقه ، قال العلامة محمد عوامة محقِّقه بعدما نقل تضعيف الحافظ ابن حجر وتلميذه السخاوي لهـٰذه الطرق أيضاً : (لـٰكن ما قولهما رحمهما الله في خلاصة هـٰذه الطرق : هل يصل القدرُ المشترك المقبول معناه إلى الحسن لغيره ؟ فالعلماء قديماً وحديثاً يلتمسون معانيَ شاهدة من القرآن الكريم لتقوية حديث ضعيف ولو اشتدَّ ضعفه ، ومنهم المصنف الإمام البيهقي) .

المنصوصِ علىٰ حُكْمِهِ مِنَ الحوادثِ بطُرُقِ القياسِ والاستدلالِ(١) .

[ذمُّ التفسيرِ بالرأْيِ]

فمَنْ فسَّرَ القرآنَ برأْيِ نفسِهِ عن هواهُ . . ضلَّ في مغزاهُ(٢) ، ومَنْ فسَّرَهُ برأْيٍ استفادَهُ مِنْ أصولِ الدينِ . . رَشَدَ بيقينٍ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأْيِهِ فليتبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ »(٣) ؛ أي : برأْيِهِ الثابتِ لهُ بالطبيعةِ ، قبلَ الوقوفِ علىٰ أصولِ الشريعةِ .

---

(١) كالفصد والحجامة ، عرف حكمهما بالقياس علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء : ٤٣] ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أسقط النجاسة عن سؤر الهرَّة لضرورة الطَوْف مستدلاً بقوله تعالىٰ : ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ [النور : ٥٨] في سقوط الإذن في الأوقات الثلاثة ، ثم استدلَّ أبو حنيفة بسواكن البيوت بهـٰذه العلة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) مغزاه : مقصده . انتهىٰ من هامش (ب ، ج ، د ، هـ) .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٥١) وقال : (هـٰذا حديث حسن) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٠٣١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

قال العلامة القاري في « مرقاة المفاتيح » (١/٢٠٩) : (فعُلِمَ : أن علم التفسير إنما يُتلقَّىٰ من النقل ، أو من أقوال الأئمة ، أو من المقاييس العربية ، أو القواعد الأصولية المبحوث عنها في علم أصول الفقه أو أصول الدين ، ثم اعلم : أن كلَّ ما تعلَّقَ بالنقل لتوقُّفه عليه يسمىٰ تفسيراً ، وكلَّ ما تعلَّق بالاستنباط يسمىٰ تأويلاً) .

ثم قال نقلاً عن العلامة المحقِّق ابن حجر الهيتمي : (وأحقُّ الناس بما فيه من الوعيد : قومٌ من أهل البدع سلبوا لفظَ القرآن ما دلَّ عليه وأُريد به ، أو حملوه علىٰ ما لم يدلَّ عليه ولم يرد به في كلا الأمرين مما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنىٰ ، فهم مخطئون في الدليل والمدلول ؛ مثل تفسير عبد الرحمـٰن بن كيسان الأصمِّ ، والجبائي ، وعبد الجبار ، والرمَّاني ، والزمخشري ، وأمثالهم ، ومن هـٰؤلاء من يدسُّ البدع والتفاسير الباطلة في كلامهم الجزل ، فيروج علىٰ أكثر أهل السنة ؛ كصاحب « الكشاف » ، ويقرب من هـٰؤلاء « تفسير ابن عطية » ، بل كان الإمام ابن عرفة المالكي يبالغ في الحطِّ عليه ويقول : إنه أقبح من صاحب « الكشاف » ؛ لأن كلَّ أحد يعلم اعتزال ذلك فيجتنبه ، بخلاف هـٰذا ؛ =

[الأعمالُ يُكتفىٰ في إثباتِها بعدَ النصِّ بالظاهرِ في غالبِ الرأْيِ]

والأعمالُ التي هي أمانةُ اللهِ تعالىٰ مِنْ أبوابِ الديانةِ بعدَ الإيمانِ(١) : هي مِنَ القسمِ الرابعِ الذي يجبُ إقامتُها بالنصِّ الذي يُوجبُ العلمَ يقيناً ، والظاهرِ الذي يُوجبُ غالبَ الرأيِ .

وعليكَ قبلَ الشروعِ في هٰذا البابِ أنْ تعلمَ : أنَّ الإيمانَ باللهِ لزِمَنا لعاقبةِ مسارعةِ الجسمِ إلى العملِ بأمرِ ربِّهِ ، والكفِّ عن نهيِهِ ؛ علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

[السمعُ والطاعةُ]

ولن يوجدَ ذلكَ مِنَ الجسمِ بعدَ الإيمانِ إلا بمقدِّمتينِ : اعتقادِ السمعِ ، والطاعةِ للهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ ، علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وعملُ السمعِ للقلبِ(٢) ؛ وهو نوعانِ :

= فإنه يوهم الناس أنه من أهل السنة) .

(١) الصلاة والزكاة وغيرهما من الفرائض . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) أي : وظيفة السمع للقلب . انتهىٰ من هامش (و) ، وعمل القلب يكون بالمعرفة أوَّلاً ، ثم بالتصديق ؛ فمعرفةٌ لا إذعان فيها لا تعتبر ؛ قال الإمام أبو المعين النسفي في « تبصرة الأدلة » (٢/ ٨٠٨) : (الإيمان هو التصديق ، وليست المعرفة الخالية عن التصديق إيماناً كما ظنَّ جهمٌ وجماعته أن الإيمان هو المعرفة ، لما أن الإيمان هو التصديق ، ثم ضدُّ الإيمان هو الكفر ، والكفر هو التكذيب ، والتكذيب ينافي التصديق ، لا المعرفةَ ؛ إذ ما يضادُّها النكرةُ والجهالة ، وليس كلُّ من جهل حقّاً يكذِّب به) .

وعبارة العلامة السعد في « شرح العقائد النسفية » (ص٢٧١) : (وليس حقيقةَ التصديق =

الرضا بأحكامِهِ ؛ فقد عرفَهُ عادلاً .

والشكرُ علىٰ أقسامِهِ[1] ؛ فقد عرفَهُ فيما أعطىٰ وإنْ قلَّ مُحْسناً .

وعملُ الطاعةِ للجسمِ[2] ؛ وهو نوعانِ :

الكفُّ صابراً بقَدْرِ المُكْنةِ عمَّا يهوىٰ ، إلا بإذنِ المولىٰ ؛ فقد عرفَ ذاتَهُ عبداً لا مِلْكَ لهُ .

والمسارعةُ شاكراً إلىٰ ما يُدعىٰ ؛ فقد عرفَ ربَّهُ مولىً وجبَتْ طاعتُهُ ، دعاهُ إلىٰ ما فيهِ مُنْيتُهُ[3] .

[حقيقةُ الإيمانِ ترجعُ إلى القلبِ
فتاركُ العملِ فاسقٌ وليسَ بكافرٍ]

فالإيمانُ : اعتقادُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مولاهُ وأنَّهُ عبدُهُ ، واعتقادُ السمعِ والطاعةِ .

وتركُ ما يلزمُ القلبَ كفرٌ ، فالعقدُ إيمانٌ ، وتركُ ما يلزمُ الجسمَ بلا تبديلِ عقدٍ فسقٌ ، والطاعةُ بدناً لم تكنْ مِنَ الإيمانِ ؛ فلا إيمانَ إلا بالقلبِ ؛ فإنَّهُ لا يكونُ إلا بمعرفةٍ ، وما لسائرِ الجوارحِ معرفةٌ بالربِّ .

= أن يقع في القلب نسبةُ الصدق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول ، بل هو إذعانٌ وقبول لذلك ، بحيث يقع عليه اسم التسليم) ، فعند اتحاد التصديق والمعرفة يكون الكفر بوجود أمارات على التكذيب والإنكار لما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم .

(١) أقسام : جمع قِسْم ؛ كحِمْل وأحمال ؛ الحصة والنصيب .

(٢) أي : وظيفة الطاعة للجسم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : الجنةُ ورضا المولىٰ ؛ أي : دعاه إلى الإيمان الذي فيه حصول مقاصده ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة : ٤٣] . انتهىٰ من هامش (و) .

[الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقصُ]

ولهٰذا قلنا : إنَّ المؤمنَ الفاسقَ تامُّ الإيمانِ ، لـٰكنْ جسمُهُ متدنِّسٌ بالعصيانِ[1] .

[الفاسقُ في مشيئةِ اللهِ ، ثم يصيرُ إلى الجنةِ لا محالةَ]

وإنَّهُ في مشيَّةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إنْ شاءَ عاقبَهُ بقَدْرِ عصيانِهِ حكمةً ، وإنْ شاءَ غفرَ لهُ وأدخلَهُ الجنَّةَ جزاءً علىٰ إيمانِهِ رحمةً ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨][2] ، وإنَّهُ القولُ العَدْلُ بينَ الغلوِّ والتقصيرِ[3] :

---

(١) قال الإمام أبو المعين النسفي في « تبصرة الأدلة » (٢/ ٨٠١) : (ولو كانت الأعمال كلُّها إيماناً لم يكن المنتهي عن الكفر منتهياً عنه ما لم يأتِ بجميع الطاعات) ، وقال أيضاً (٢/ ٨٠٩) : (أحقُّ الناس أن يمتنع عن القول بالزيادة على الإيمان : هم الذين يجعلون الأعمال من الإيمان ؛ وذلك لأنهم إذا جعلوا الأعمال كلَّها إيماناً فلا أحد إذاً استكمل الإيمان ، والزيادة علىٰ ما هو لم يكمل بعدُ وهو في حدِّ النقصان محالٌ) .

(٢) إذ الآية الكريمة ناصَّةٌ علىٰ أن وعيد الكفَّار لا يتخلَّف ، ووعيد العصاة من المؤمنين قد لا يقع أثره ؛ لأن ما ورد من وعيد مرتكبي المعاصي مقيَّدٌ بهـٰذه الآية بقوله سبحانه : ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، فكأن الوعيد صيغتُهُ : أعذِّبُ من يفعل كذا إن شئتُ ، فلا يجوز تخلُّف وعيد الفسَّاق أيضاً ، ويجوز عدم وقوع العذاب بنصِّ الوعيد .

نعم ؛ وقوعُ تعذيب لبعض العصاة لا بدَّ منه عند الأشعرية والماتريدية ، ولـٰكن لورودِ النصوص فيه ؛ كقوله تعالىٰ في الحديث القدسي الذي رواه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٣) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقالُ حبَّة من خردل من إيمان » ، لا للزوم تسميته تعالىٰ مخلفاً لوعيده ؛ إذ الشرط المذكور في الآية مقيِّدٌ لكلِّ الإيعادات الواردة في حقِّ المؤمن العاصي ، فلا يتصوَّر خُلْفٌ أصلاً بعد هـٰذا التعليق والتقييد .

(٣) قال الإمام أبو المعين النسفي في « تبصرة الأدلة » (٢/ ٧٧٢) : (وكذا الأمة بأسرهم =

فمِنَ الناسِ مَنْ قالَ : إنَّ المعاصيَ كلَّها مغفورةٌ معَ الإيمانِ ؛ فإنَّهُ لَتقصيرٌ ، فالآياتُ كثيرةٌ في وعيدِ المؤمنينَ(١) .

ومنهم مَنْ يقولُ : إنَّ صاحبَ الكبيرةِ لَيُخلَّدُ في النارِ(٢) ، وإنَّهُ لغلوٌّ ؛ فالآياتُ فرَّقَتْ بينَ دارِ الكافرينَ ودارِ المؤمنينَ .

والعَدْلُ : في التفويضِ إلىٰ مشيَّةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كما نصَّ اللهُ تعالىٰ(٣) ؛ كي لا يجترئَ العبدُ على المعصيةِ ، ولا يستويَ الذينَ اجترحوا السيئاتِ والذينَ

= توارثوا الصلاة علىٰ من مات من أهل القبلة والاستغفارَ لهم والترحُّمَ عليهم ، من غير التفحُّص عن حاله أنه ارتكب كبيرة أو لم يرتكب) .

(١) كقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا * وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : ٢٩ـ ٣٠] .

وأصحاب هٰذا القول هم المرجئة ؛ حيث قال الإمام أبو المعين النسفي في « تبصرة الأدلة » (٢/ ٧٦٦) : (وزعمت المرجئة الخبيثة : أن أحداً من المسلمين لا يعاقب علىٰ شيء من الكبائر ، وكما أن الحسنة لا تنفع مع الكفر ؛ فالسيئة لا تضرُّ مع الإيمان) ، وقبل هٰذه العبارة قال : (وكان أبو حنيفة رحمه الله يُسمَّىٰ مرجئاً ؛ لتأخيره أمر صاحب الكبيرة إلىٰ مشيئة الله ، والإرجاء : هو التأخير ، وروي عنه أنه قيل له : ممن أخذت الإرجاء ؟ فقال : من الملائكة عليهم السلام ؛ حيث قالوا : ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾ [البقرة : ٣٢]) .

(٢) وهم المعتزلة الذين أثبتوا المنزلة بين المنزلتين ، وادَّعوا أن العاصي من المؤمنين بارتكاب كبيرة تُحبِطُ حسناتِهِ . . مخلَّدٌ في النار ، ويسمَّىٰ فاسقاً ، وعذابه دون عذاب الكافرين ، وانظر « تبصرة الأدلة » (٢/ ٧٦٦) .

(٣) في قوله : ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، فما دون الكفر من المعاصي غفرانه في المشيئة ، مع اعتقاد تعذيب بعض الفسَّاق ؛ لورود ذلك في النصوص الصحيحة الصريحة .

آمنوا وعملوا الصالحاتِ محياً ومماتاً ، ولا ييئسَ العاصي عنِ الرحمةِ ، ولا يستويَ الكافرُ والمؤمنُ في دارِ الجزاءِ[1] .

[التقوىٰ والطاعاتُ]

فإذا اعتقدْتَ السمعَ والطاعةَ رَهَباً ، وأسلمْتَ جسمَكَ إلى اللهِ تعالىٰ رَغَباً . . تَلَوْنا عليكَ ما يجبُ الكفُّ عنهُ ؛ وهوَ الأساسُ ؛ وهوَ التقوىٰ عمَّا نُهيتَ ، وإنَّهُ بابٌ[2] ، وما يجبُ فعلُهُ ؛ وهوَ البناءُ ؛ وهوَ الطاعةُ ؛ وهي أبوابٌ .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] ، قال الإمام أبو المعين النسفي في « تبصرة الأدلة » (٢/ ٧٩٠) : (والفرقُ : أن ما من أحد يعصي الله بنوع من الكبائر دون الشرك إلا وهو وقتَ العصيان مكتسبُ الطاعات ؛ من خوف عقابه ، ورجاء رحمته ، والثقة بكرمه ، وذلك خيرات لو قوبل بها ما ارتكب من الخلاف بغلبة شهوة أو قهرِ غضب أو نحو ذلك . . لترجَّح ما كان منه من خير علىٰ ما كان منه من شرٍّ ، فلا يجوز أن يحرم نفع الخير ، ويُوجَبَ له عقوبةُ الشرِّ ، وليس مع من يكفر بالله تعالىٰ ويشرك به معنىً يستحقُّ اسم الخير ؛ لأنه يكذبه ، وينكر أمره ونهيه) .

وروى البخاري (٥٨٢٧) ، ومسلم (٩٤/ ١٥٤) من حديث سيدنا أبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر : « ما من عبدٍ قال : لا إلـٰه إلا الله ، ثم مات علىٰ ذلك . . إلا دخل الجنة » ، قال أبو ذرٍّ : وإن زنىٰ وإن سرقَ ؟ قال : « وإن زنىٰ وإن سرق » ، كُرِّر السؤال والجواب ثلاثاً ، وعقَّب البخاري عليه بقوله : (هـٰذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال : لا إلـٰه إلا الله . . غُفر له) ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٨/ ٤٣٧) : (قال السفاقسي : وهـٰذا الذي قاله ـ يعني : الإمام البخاري ـ مخالفٌ لظاهر الحديث ؛ إذ لو كانت التوبة شرطاً لم يقل : « وإن زنىٰ وإن سرق » ، والحديث علىٰ ظاهره ؛ أنه إذا مات مسلماً دخل الجنة ، قبل النار أو بعدها ، وهـٰذا في حقوق الله تعالىٰ باتفاق أهل السنة ، أما حقوق العباد فلا بدَّ من ردِّها عند الأكثر ، أو أن الله تعالىٰ يرضي صاحبَ الحقِّ بما شاء ، وأما من مات مصرّاً على الذنب من غير توبة فمذهب أهل السنة أنه في المشيئة ؛ إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه) .

(٢) أي : نوعٌ واحد . انتهىٰ من هامش (هـ) .

[أقسامُ الطاعاتِ]

وأقسامُها أربعةٌ : عباداتٌ ، وحدودٌ[1] ، وما بينَهما وهي كفَّاراتٌ ، ومعاملاتٌ وهي حقوقُ الناسِ .

[أقسامُ العباداتِ]

أمَّا العباداتُ فأربعةُ أقسامٍ في كتابِ اللهِ تعالىٰ : الصلواتُ ، والزكواتُ ؛ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] ، إلىٰ عدَّةِ آياتٍ ، والصومُ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، والحجُّ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

فإنَّ لكلِّ عبادةٍ أسباباً تجبُ بها ، وأركاناً تتأدَّىٰ بها ، وشروطاً لا يصحُّ الأداءُ إلا معَها ، وسُنَناً لا تكملُ دونَها ، وهي مِنْ أبوابِ الفقهاءِ ، وقد ذكرْناها في تصانيفِ الفقهِ ، وكتابُنا هٰذا لتهذيبِ أحوالِ العبدِ لأداءِ ما لزمَهُ بسمعِهِ وطاعتِهِ[2] ، وبابُ الفقهِ يسيرٌ ، وهٰذا بابٌ عزيزٌ ؛ ففي الفقهِ تبحُّرٌ في العلمِ[3] ، وللنفسِ فيهِ إمرةٌ ، وفي التهذيبِ ـ للبناءِ على السمعِ والطاعةِ ـ عَزْلُ النفسِ عنِ الإمرةِ إلى العبادةِ والعبوديَّةِ .

---

(١) كحدِّ الزنىٰ وغيره . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) أي : لتهذيب الباطن ، وذلك لتهذيب الظاهر . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : توسُّع ؛ نحو جواز بدل الإجارة . انتهىٰ من هامش (و) .

[التمهيدُ للحديثِ عن منازلِ سيرِ العبدِ إلى اللهِ تعالىٰ]

فيقولانِ : ففصِّلْ هـٰذهِ الأحوالَ ؛ فقد شغلْتَ الخواطرَ ، وآذيتَ الضمائرَ ، ومتىٰ قلنا : (عبرْنا البحرَ) أعدْتَنا إلى اللُّجَّةِ ، ورددتَ علينا الظنَّ بحُجَّةٍ ، وفَّقَكَ اللهُ لبيانِ غرائبِ العلمِ ، ووفَّقَنا لحملِ ضرائبِهِ عن فهمٍ[١] .

فيقولُ : قد ذكرْنا لكَ أنَّ الجسمَ الظاهرَ رعيَّةٌ للباطنِ ، وقد أسَّسْنا لصيدِ الباطنِ فيما مضىٰ للربِّ تعالىٰ ، فعلىٰ ذلكَ نؤسِّسُ لصيدِ الظاهرِ للقلبِ ؛ لتصيرَ الرعيَّةُ إذا أطاعَ أميرَهُ لمولى الأميرِ ، فيكونَ العبدُ صَفْواً للهِ بالظاهرِ والضميرِ ، وإنَّهُ مبدأُ الأمدِ الأقصىٰ ، فيهِ ينالُ العبدُ العتقَ والمُلْكَ والمنزلةَ العليا .

فيقولانِ : كيفَ إيضاحُ هـٰذا المشكلِ ، وتمييزُ المُدْبِرِ مِنَ المُقْبِلِ ؟

فيقولُ : إنَّ القلبَ ما رأىٰ ربَّهُ ولا عرفَ عاقبةَ إيمانِهِ إلا بأسبابٍ أربعةٍ موجبةٍ للعلمِ ؛ الحواسِّ ، وسرِّ القلبِ ، والمرآتينِ ، علىٰ ما مرَّ شرحُها أوَّلاً[٢] ، ثمَّ المسيرُ ستةَ عشرَ مَنْزلاً .

وبيانُهُ : أنَّهُ رأىٰ أوَّلَ ما رأى الظِّئْرَ ، ثمَّ الأمَّ ، ثمَّ الأبَ ، ثم نفسَهُ لملكِ نعيمِ الدنيا ، ثم عِلَلَ النعيمِ ، ثمَّ النجومَ ، ثمَّ الهَيُولىٰ[٣] ، ثمَّ المولىٰ جلَّ وتعالىٰ .

---

(١) أي : لحمل وظائف العلم عن فهم . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٢) انظر (ص٥٤٧) .

(٣) أي : الأصل المخلوق لله تعالىٰ ، ومنها خلق سائر الأشياء علىٰ زعمهم . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و ، ز) ، وفي هامش (و) : (أي : الطبائع الأربعة) .

فكانَ القلبُ سائراً في علمِهِ وراءَ الحقِّ ، حتىٰ وصلَ إليهِ بجدٍّ عن صدقٍ ، وحلَّ بمناهلِهِ ، بثامنِ منازلِهِ ، ثم سارَ مثلَها معَ الحقِّ حتىٰ تمَّتِ المعرفةُ على الحقيقةِ[1] ، واستوىٰ باليقينِ الطريقةُ بأربعةِ أقسامٍ مِنَ الأسماءِ مِنْ حيثُ إنَّ الحقَّ إلـٰهٌ واحدٌ ، وأربعةِ أقسامٍ مِنْ حيثُ إنَّهُ عبدٌ ممتحَنٌ[2] .

حتىٰ لمَّا تمَّتِ المعرفةُ أيقنَ بهِ ؛ كأنَّ اللهَ تجلَّىٰ لهُ فآمنَ بهِ ، فصفا القلبُ للهِ بالإيمانِ والتصديقِ، ثمَّ اعتقدَ السمعَ والطاعةَ ؛ وهو عاقبةُ الإيمانِ عن تحقيقٍ.

فدعا الجسمَ الظاهرَ إليها[3] ، والنَّفسُ أمَّارةٌ بخلافِها ، مانعةٌ عن طاعةِ القلبِ إلا كَرْهاً ، وإنَّها في منعِ الجسمِ عنِ السمعِ والطاعةِ علىٰ مثالِ ظلمةِ الجهلِ المانعةِ للقلبِ عنِ العلمِ بالربِّ ، وكما لم يصدِ الروحُ القلبَ عن بحارِ الجهلِ إلا بشبكِ النظرِ عن عقلٍ ، بعدَ عِدَّةِ منازلَ علىٰ ما مرَّ مِنَ التفسيرِ[4] . . كذلكَ لا يصيدُ القلبُ الجسمَ للطاعةِ عنِ النفسِ إلا بذلكَ الشبكِ في مثلِ تلكَ المنازلِ .

[المنازلُ الستةَ عشرَ]

والمسيرُ : ثمانيةُ منازلَ يسيرُ فيها بعملِهِ للهِ تعالىٰ علىٰ جهلٍ بنفسِهِ ، لا يقفُ علىٰ نفسِهِ إلا عندَ ثامنِ منازلِهِ ، وثمانيةٌ يسيرُ فيها بالعملِ للهِ تعالىٰ علىٰ

---

(١) أي : في طريق العلم حتىٰ يعلم مَنِ الأوَّل ، فوصل إليه . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) .

(٢) أي : أربعة أقسام هي مدلول اسم الواحد ، وأربعة أقسام هي مدلول اسم كونك عبداً ممتحناً كما ذكر . انتهىٰ من هامش (و) ، وانظر (ص ٦٠٩) .

(٣) يعني : فدعا القلبُ الجسمَ الظاهر إلى الانقياد لما عرف وعلم وأيقن .

(٤) انظر (ص٥٤١ ، ٥٥٩) .

علمٍ بنفسِهِ[1] ، لـٰكنْ يسيرُ معَ نفسِهِ ، لا يقعُ الظفرُ بها علماً وعملاً إلا بثامنِ منازِلِهِ[2] .

[لا بدَّ مِنْ أسبابٍ أربعةٍ قبلَ البدءِ بالعملِ]

ولن يقعَ بدءُ العملِ إلا بأربعةِ أسبابٍ موجِبةٍ كما كانَتْ للقلبِ ؛ وهي خوفٌ ورجاءٌ ، ومعرفةُ العبوديَّةِ والألوهيَّةِ .

فالخوفُ : سببُ الكفِّ إذا صدقَ لا محالةَ .

والرجاءُ : سببُ العملِ إذا تحقَّقَ لا محالةَ .

والعبوديَّةُ : سببُ التزامِ الطاعةِ ـ لا محالةَ ـ عجزاً .

والألوهيَّةُ : سببُ الإقامةِ شكراً ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ إلـٰهٌ مُنعِمٌ بفضْلِهِ ، كما هو عبدٌ مخلوقٌ بأصلِهِ .

فكانَتِ الأسبابُ الموجِبةُ لما على الجسمِ الظاهرِ غيرَ الأسبابِ الموجِبةِ لما على الجسمِ الباطنِ ، كما اختلفَ المطلوبانِ والمحلَّانِ[3] ، وكما اختلفَ العاقبتانِ ؛ **فعاقبةُ العلمِ** : مسارعةُ الجسمِ إلى العملِ للهِ بأمرِهِ ، والكفِّ عن

---

(1) قوله : (يسير) ؛ أي : الجسم . انتهىٰ من هامش (هـ) ، والعبارة في (ج ، هـ ، ز) : (وثمانية يسير فيها بالعمل لله علىٰ جهل بنفسه ، لا يقف علىٰ نفسه إلا عند ثامن منازله ، وثمانية يسير فيها بعملٍ لله علىٰ علم بنفسه) ، والظاهر أنها تكرار ، والله أعلم .

(2) أي : لا يقع العلوُّ والغلبة للقلب في مقام حقيقة العلم بالربِّ على النفس في منعها عن الكيد والخداع ، والإجلال في وظيفة القلب . . إلا بثامن منازله ، وكذلك الجسم في حقِّ العمل . انتهىٰ من هامش (و) .

(3) مطلوب القلب : العلمُ بما أراه الجسمُ ، ومطلوب الجسم : العملُ بما أراه القلبُ ، والمحلَّان ؛ أي : الباطن ؛ وهو الفؤاد ، والظاهر ؛ وهو الجسم . انتهىٰ من هامش (و) .

نهيِهِ ، وعاقبةُ العملِ : إصابةُ العبدِ عتقَهُ ، ثم مُلْكَهُ .

وبذلكَ مضىٰ قدَرُ اللهِ وحكمُهُ ، يفعلُ ما يشاءُ لا مردَّ لحُكْمِهِ ، ولا زوالَ لمُلْكِهِ ، فكانَتْ أسبابُ العلمِ ما أوجبَ زيادةَ بصرٍ ، وأسبابُ العملِ ما أوجبَ زيادةَ استسلامٍ .

فهٰذا تفسيرُ الأسبابِ .

أمَّا تفسيرُ منازلِ العملِ : فأوَّلُها : الدعوةُ ، ثمَّ المحافظةُ ، ثمَّ الجهادُ ، ثمَّ الخلافةُ ، ثمَّ الفرارُ ، ثمَّ الرياضةُ ، ثمَّ الإغارةُ ، ثمَّ الأَسْرُ .

فهٰذهِ تمامُ المنازلِ الثمانيةِ التي سارَ فيها حتىٰ وقفَ علىٰ نفسِهِ .

وأمَّا المنازلُ الثمانيةُ الأُخَرُ : فأوَّلُها : السُّكْرُ(١) ، ثمَّ الصَّحْوُ ، ثمَّ الخُمَارُ(٢) ، ثمَّ الشوقُ ، ثمَّ الصبرُ ، ثمَّ الرضا ، ثمَّ الشكرُ ، ثمَّ اللقاءُ .

فهٰذهِ المنازلُ الثمانيةُ التي سارَ فيها معَ العلمِ بنفسِهِ ؛ حتىٰ صفا عملاً لربِّهِ سبحانَهُ دونَ نفسِهِ .

ثم لن يصفوَ عن خبثِ النفسِ ولن يصيرَ عتيقاً حتىٰ يُسلِمَهُ القدرُ إلى اللهِ تعالىٰ بالموتِ ، فتلتقمَهُ الأرضُ ، ثم تعصرَهُ ، فتميزَ بينَ الخبيثِ منهُ والطيِّبِ ، فيسقطَ عنهُ حينئذٍ محنةُ العبادِ ، ويزولَ عنهُ ظلمةُ الخبثِ ، فيصيرَ حرّاً ضيفاً مِنْ ضيوفِ اللهِ تعالىٰ في قبرِهِ ، وسراجاً منيراً مِنْ سُرُجِهِ(٣) ، وكانَ

---

(١) من شراب محبَّة الله تعالىٰ ، حتىٰ لا يعرفُ من أحوال الدنيا وغيرها شيئاً . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ ، و) .

(٢) انظر (ص٣٤٢) .

(٣) أي : صار عبداً نورانياً . انتهىٰ من هامش (و) .

هـٰذا العملُ مِنَ الجسمِ لعاقبةِ العتقِ ، وصيرورتِهِ صفواً للهِ تعالىٰ ضيفاً مِنْ ضيوفِهِ ، كعملِ الجسمِ في الدنيا لطلبِ الرزقِ لعاقبةِ أنْ يصيرَ ذلكَ الرزقُ صفواً لهُ ، جزءاً مِنْ أجزائِهِ ، فقد خُلِقَ نعيمُ الدنيا لهـٰذهِ العاقبةِ ؛ وهو أنْ تأكلَهُ فيصيرَ جزءاً منكَ ، تعلَّقَ بقاؤُكَ بهِ ، وخُلقْتَ أنتَ لعاقبةِ أنْ تأكلَكَ الأرضُ فتصيرَ أنتَ لكَ ، صفواً عنِ الرقِّ ، نوراً مِنْ أنوارِ اللهِ ، ضيفاً مِنْ ضيوفِهِ ، وتعلَّقَ ظهورُ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في الصنعِ بهِ .

[منازلُ الفقهاءِ الموقنينَ]

ثم إنَّكَ لن تصلَ إلىٰ عاقبتِكَ مِنْ دنياكَ إلا بهـٰذهِ المنازلِ ؛ مبدؤُها الزراعةُ ، فلا بدَّ للقوتِ منها على العاداتِ ، ثمَّ المحافظةُ ، ثمَّ التربيةُ ، ثمَّ الإدراكُ ، ثمَّ الحصادُ ، ثمَّ الدِّياسةُ ، ثمَّ التذريةُ ، ثمَّ الإحرازُ .

فهـٰذهِ أعمالٌ تقعُ في هـٰذهِ المنازلِ علىٰ بُعْدِ الرزقِ منكَ ، لن يصلَ إلىٰ يدِكَ إلا بثامنِ منازلِهِ .

[منازلُ الفقهاءِ العارفينَ]

ثمَّ احتجْتَ بعدَما وصلَ إليكَ إلىٰ ثمانيةٍ أُخَرَ ؛ الطحنِ ، والنَّخْلِ ، والعَجْنِ ، والخَبْزِ ، ثمَّ اللحمِ للطبخِ ، ثم حوائجِ القِدْرِ ، ثم أبازيرِهِ ، ثمَّ التقديمِ على المائدةِ ؛ وهي حالةُ التجلِّي لكَ ، ثمَّ التسليمِ إليكَ بالأكلِ ، ثمَّ الهضمِ بطبائعِكَ ؛ ثم تحوَّلَ الطيِّبُ منهُ جزءاً منكَ صفواً لكَ ، وزايلَ الخُبْثُ وسقطَ عنكَ ؛ ليكونَ عملُكَ علىٰ هـٰذا الترتيبِ لحظٍّ مطلوبٍ لكَ مِنَ الدنيا ، معَ علمِكَ بنيلِهِ مِنْ غيرِكَ(١) . حُجَّةٌ عليكَ لعملِكَ علىٰ هـٰذا الترتيبِ لأقصىٰ

(١) بنيله ؛ أي : الرزق . مفادٌ من هامش (هـ) .

حظٍّ لكَ مطلوبٍ مِنَ المولىٰ جلَّ جلالُهُ ، لا تنالُهُ إلا بخيرِكَ .

والمنازلُ الثمانيةُ الأولىٰ : منازلُ الفقهاءِ الموقنينَ ، والمنازلُ الثمانيةُ الأُخَرُ : منازلُ الفقهاءِ العارفينَ .

[الفقيهُ الموقنُ والفقيهُ العارفُ]

فيقولانِ : فما العَلَمُ الفاصلُ بينَ العالِمَيْنِ ؟

فيقولُ : الفقيهُ الموقنُ : مَنْ كانَ تفكُّرُهُ في الملكوتِ الظاهرِ بالحواسِّ والمسموعِ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

والفقيهُ العارفُ : مَنْ كانَ قلبُهُ معَ الملكوتِ الباطنِ النارِ والجنَّةِ ، بل معَ المولىٰ ، فقد عَمِيَ عينُهُ عن هـٰذهِ التي خُلقَتْ للأجانبِ[1] ، ودارَ شبهةٍ للمعارفِ ، وأبصرَ سرُّهُ الباطنَ المعلومَ لهُ بالدليلِ ، يراهُ بسرِّهِ رؤيةَ الناسِ بعدَ البعثِ[2] .

فيقولانِ : فعليكَ بتفسيرِ ما أجملْتَ ، وإقامةِ الدَّلالةِ علىٰ ما فصَّلْتَ .

---

(١) يعني : الدنيا . مفادٌ من هامش (هـ ، و) .

(٢) فيرىٰ طاعتَهُ الجنَّةَ المعجَّلة ، ويرىٰ تهافتَ العصاة في اتباع شهواتهم إلى النارِ المعجَّلةِ لهم أيضاً ، فالعارف قد يرىٰ عينَ المعصية ناراً ، لا أنها فقط سببُ النار المؤجَّلة ، ويرىٰ عين الطاعة جنَّةً ، لا أنها سببُ الجنَّة المؤجَّلة ، ولهـٰذا المعنىٰ أشار الحجة إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٥٥) بقوله : (جملة عالم الملك والملكوت إذا أُخذت دَفْعةً واحدة تسمى الحضرة الربوبيَّة ؛ لأن الحضرة الربوبيَّة محيطة بكلِّ الموجودات ؛ إذ ليس في الوجود شيءٌ سوى الله تعالىٰ وأفعاله ، ومملكتُهُ وعبيده من أفعاله ، فما يتجلَّىٰ من ذلك للقلب هو الجنة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحقِّ ، ويكون سعةُ ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته ، وبمقدار ما تجلَّىٰ له من الله وصفاته وأفعاله) ، وعبَّرَ عن هـٰذا بعدُ بإيمان العارفين ؛ وهو المشاهدة بنور اليقين ، وليس الخبر كالمعاينة .

فيقولُ : إنَّ المؤمنَ الموقنَ باللهِ جلَّ جلالُهُ بمحاجَّةِ الروحِ ودعوتِهِ غافلٌ عنِ النفسِ ؛ لسكوتِهِ عن معارضةِ الروحِ لجهلِهِ أو حيرتِهِ[١] ، فلا معرفةَ إلا بحسٍّ ، وما النفسُ بمحسوسٍ ، أو خَطْرٍ بالقلبِ ، وما خَطَرَ منها بعدُ مِنْ خَطْرٍ .

فظنَّ إذا سَلِمَ لهُ جسمُهُ أنَّهُ فرغَ مِنْ نفسِهِ ، وبقيَتْ عليهِ دعوةُ غيرِهِ ، فأقبلَ علىٰ دعوةِ جنسِهِ بأمرِ ربِّهِ سبحانَهُ وتعالىٰ[٢] ، كما كانَ أقبلَ عليها في حقِّهِ ، فبذَرَ حُجَجَ اللهِ في عبادِهِ خوفاً علىٰ ذاتِهِ الهلاكَ بعذابِ اللهِ إنْ كتمَها ، علىٰ مثالِ الزارعِ ببَذْرِ الحَبِّ الصالحِ لقوتِهِ خوفاً علىٰ نفسِهِ الهلاكَ إنْ أعدمَها[٣] ، فما حملَ الرجلينِ على العملِ ـ والجسمُ يحبُّ الراحةَ ـ إلا الخوفُ[٤] .

---

(١) أي : لسكوت النفس عن معارضة الروح لجهلها أو حيرتها ، وتقدم تذكير لفظ (النفس) للإمام المصنف مراراً .

(٢) أي : دعوة الروح للنفس على الوجه الذي ذكرنا . انتهىٰ من هامش (ج ، د ، هـ ، و ، ز) ، وانظر (ص٥٨٢) ، وفي هامش (و) : (أي : يتلو علىٰ قلبه قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، ومن غير المتلوِّ : قوله عليه الصلاة والسلام : « من كتم علماً عنده أُلجمَ بلجام من النار » ، وغير ذلك) .

(٣) يعني : إذا أعدم الزارعُ نفسه البذرَ .

(٤) أي : الداعيَ والزارعَ على العمل ؛ أي : الدعوةِ والزراعةِ ، للداعي خوفُ العذاب ، وللزارع خوفُ الهلاك ، ولذا انتقل إبراهيم من حجة إلىٰ حجة أوضح منها ؛ فقال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، بعد استدلاله بقوله : ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] بالإحياء والإماتة ، والانتقال ما كان من حيث الانقطاع ، بل من حيث إن الدليل الأول لا يعارض بتعنُّتهم ، قال الراوي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بالموعظة أحياناً ؛ أي : يتعهَّدُنا . مفادٌ من هامش (و) ، وفي هامش (ج ، هـ ، ز) : (أي : الفقيه الموقنَ ، والفقيه العارفَ) .

[شؤونٌ أربعةٌ للزارعِ والداعي قبلَ البذرِ والدعوةِ]

ثمَّ الزارعُ الرفيقُ لا يُقْدِمُ على الزراعةِ ـ وقد أمسكَهُ عن نفسِهِ لطلبِ العاقبةِ ـ إلا بعدَ مقدِّماتٍ أربعٍ : اختيارِ أطيبِ بَذْرٍ ، وأخصبِ مَزْرَعٍ ؛ لا حَزْنٍ ولا رَمْلٍ ، وأوسطِ وقتٍ ؛ لا حرٍّ ولا بردٍ ، وأعدلِ حالٍ للأرضِ ؛ لا يابسٍ ولا رطبٍ .

فلا يبتدئُ الداعي أيضاً أمرَ الدعوةِ إلا مِنْ أوضحِ حُجَّةٍ ، ولدىٰ أخصبِ قلبٍ عقلاً ، وأوسطِ وقتٍ للاستماعِ إليهِ ؛ لا وقتِ نومٍ ولا وقتِ عملٍ ، وأعدلِ حالٍ للمستمعِ ؛ ما بقلبِهِ فرحٌ مُلْهٍ ولا غمٌّ مُنْسٍ ، ثم يبذرُ الحُجَجَ في القلبِ علىٰ أنَّهُ قاضٍ بهِ حقّاً للهِ تعالىٰ عليهِ ، بتمكينٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، ما يطلبُ مِنَ الناسِ أجراً ولا شكراً ، فقد عملَ لنفسِهِ بأنْ قضىٰ ما عليهِ ، وهدىٰ جنسَهُ وهو منهم ، بل يحمدُ ربَّهُ بتمكينِهِ مِنَ الخروجِ عن حقِّهِ الواجبِ عليهِ ، بعدَ المِنَّةِ السابقةِ في ابتدائِهِ بنعمةِ العلمِ إليهِ .

ثم ينتقلُ إلىٰ منزلِ الرجاءِ ؛ رجاءَ نباتِ الحُجَجِ في قلوبِهم ليهتدوا ، فالداعي غافلٌ بحُكْمِ الهيبةِ والحيرةِ عنِ الجزاءِ ، وما لسعيِهِ عاقبةٌ غيرُ الاهتداءِ .

علىٰ مثالِ الزارعِ يزرعُ الأرضَ خوفاً[1] ، ثم لا يطلبُ مِنَ الأرضِ أجراً ، فقد عملَ لنفسِهِ لعاقبةِ نجاتِهِ عنِ الهُلْكِ ، بلِ التزمَ لها شكراً ؛ بأنْ كانَتْ مرتجاةً للحالِ ، ومنجاةً للمآلِ ، ثم ينتقلُ إلى الرجاءِ ؛ رجاءَ أنْ ينبتَ البَذْرُ فلا

---

(١) يعني : مثال الداعي علىٰ مثال الزارع في هـٰذه المقدمات .

يضيعَ سعيُهُ ، فما لهُ عاقبةٌ غيرُ طلبِ القوتِ بالنباتِ ، فما لزارعٍ خيبةٌ عنهُ علىٰ ما جرتِ العاداتُ ولا أمنٌ ؛ فربَّما أَخلفَتْ بآفةٍ مِنَ الآفاتِ ، وما لهُ مِنْ يدٍ على الإنباتِ ، بل ذلكَ بقوى الطبائعِ[1] ؛ ما لهُ عليها سبيلٌ ، ولا لهُ قِبَلَها حقٌّ فيطالبَها بهِ ، فقد عملَ لنفسِهِ إنْ زرعَ ، وهـٰذا المحلُّ هو محلُّ الرجاءِ .

فكذلكَ الداعي ما لهُ خيبةٌ عنِ اهتداءِ القلوبِ بالحُجَجِ علىٰ ما جرَتِ العادةُ ولا أمنٌ ؛ فربَّما أَخلفَتْ بالغفلةِ ، وما لهُ على الهدايةِ يدٌ ، بلِ القلوبُ بيدِ اللهِ ، ما لعبدٍ على اللهِ مِنْ سبيلٍ ، ولا لهُ قِبَلَهُ حقٌّ فيطالبَهُ بهِ[2] ، فقد عملَ لنفسِهِ إنْ دعا ، بل أقامَ راجياً مفوِّضاً إلى اللهِ تعالىٰ ، حافظاً إيَّاهم عمَّنْ يلبِّسُ عليهم أمرَ دينِهم حفظَ الزارعِ الأرضَ المزروعةَ عمَّا يفسدُ الحالةَ المتهيِّئةَ للنباتِ في العادةِ .

فصارَ المنزلُ الأوَّلُ مِنْ حيثُ سببُ العملِ منزلَ الخوفِ ، ومِنْ حيثُ العملُ منزلَ الدعوةِ ، والمنزلُ الثاني مِنْ حيثُ سببُ العملِ منزلَ الرجاءِ ، ومِنْ حيثُ العملُ منزلَ المحافظةِ .

فإذا نبتَتِ الحُجَجُ ، ولاحَ الاهتداءُ . . انتقلَ إلى الوعظِ والتذكيرِ ، يربِّي

---

(١) تقدم (ص١٩١) أن هـٰذا من حيث ما جرت به العادة ؛ إذ لا فعَّال إلا الله تعالىٰ .

(٢) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وروى البخاري (٥٧٥٢) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « عُرضت عليَّ الأممُ ، فجعل يمرُّ النبيُّ معه الرجل ، والنبيُّ معه الرجلان ، والنبيُّ معه الرهط ، والنبيُّ ليس معه أحد . . . » الحديث ، فليست العبرة بكثرة الأتباع ، بل بصدق المُطاع والمطيع إن أطاع .

الهدى النابتَ في قلوبِهم بذلكَ إلىٰ جهادٍ في دفعِ المفسدينَ عنهم ، فقلَّما يصبرُ عنهمُ المخالفونَ وقد تركوا طريقَهم ، وظهرَ ذلكَ منهم ، وخافوهم علىٰ أنفسِهم لو تركوهم ، وهم عُرْضةٌ للتناولِ في الحالِ لضعفِهم(١) .

علىٰ مثالِ الزارعِ إذا نبتَ الزرعُ اشتغلَ بالتربيةِ والسَّقْيِ إلىٰ جهادٍ في حفظِ البهائمِ عنهُ(٢) ، فقلَّما تصبرُ البهائمُ عنِ النباتِ المرغوبِ في أكلِهِ ؛ خوفاً علىٰ أنفسِها أنْ تهلِكَ إنْ لم تتناولْ ، وهو عُرضةٌ للتناولِ .

حتىٰ إذا ثبتوا في هداهم ، ورسخوا في العلمِ . . تصلَّبوا على الأعداءِ ممتنعينَ بأنفسِهم ، وقلَّ قصدُ الأعداءِ فيهم ؛ خوفاً مِنْ ضررِهم ومقابلتِهم ؛ فقد ظهرَتْ صلابتُهم في دينِهم ، ودَعَوا داعيَهم إلىٰ ضبطِ أمورِهم والاستيلاءِ عليهم ، وانقادوا لهُ متابعينَ علىٰ كلِّ جميلٍ منهم ، فيصيرُ خليفةَ اللهِ علىٰ عبادِهِ في أرضِهِ ؛ كالزرعِ إذا أدركَ ويبسَ قلَّتْ رغبةُ البهائمِ فيهِ ؛ لصلابتِهِ ، ودعا الزارعَ إلىٰ إحرازِهِ متابعاً لهُ بإيفائِهِ العاقبةَ(٣) .

فصارَ المنزلُ الثالثُ مِنْ حيثُ سببُ العملِ منزلَ العداوةِ ، ومِنْ حيثُ العملُ

---

(١) قوله : (وقد تركوا) ؛ أي : ترك المفلحون طريق المفسدين ، وظهر الصلاح من المصلحين ، وخاف المفسدون المصلحين علىٰ أنفسهم لو تركوا المصلحين ، (وهم عُرضة) والحال أن أصحاب الهداية في أول أحوالهم لضعفهم وقلتهم عرضة لتناول المخالفين ، والمخالفون يمنعونهم كي لا يغلبوا عليهم .
يؤيّد هـٰذه الموازنة قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : ٤٤] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : مثال الداعي في ذلك علىٰ مثال الزارع في صيانة الزرع وقد أنتشَ .

(٣) يعني : ودعا الزرعُ الذي آن حصادُهُ بلسان حالِهِ الزارعَ ليقوم بحصاده ، ويحرز عاقبة جَدِّهِ .

منزلَ الجهادِ ، والمنزلُ الرابعُ مِنْ حيثُ سببُ العملِ منزلَ ظهورِ المنفعةِ ، ومِنْ حيثُ العملُ منزلَ الخلافةِ[1] .

[حِجاجُ النفسِ في منزلِ الدعوةِ]

والنفسُ في هذهِ المنازلِ معَهُ مطلقٌ جالسٌ في كمينٍ بحُجَجِها ، يقولُ للعبدِ في منزلِ الدعوةِ : إنَّكَ واحدٌ ، والناسُ علىٰ خلافِكَ ، وما الواحدُ بقادرٍ على الكلِّ إلا بحيلةٍ ، فدعِ القوَّةَ والصلابةَ وقاربْهم ؛ فقد رخَّصَ اللهُ تعالىٰ لكَ ذلكَ حتىٰ يأنسوا بكَ ويستمعوا إليكَ .

فلا يزالُ يقرأُ رُخَصَ اللهِ تعالىٰ علىٰ قلبِهِ في مقاربةِ الناسِ ، حتىٰ يميلَ القلبُ إلى الناسِ عنِ الربِّ علىٰ إيماءِ أنَّهُ يصيدُهم للهِ .

حتىٰ إذا خُذِلَ بالميلِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وفارقَهُ التوفيقُ . . صارَتِ الدعوةُ لعاقبةِ طلبِ الرئاسةِ لنفسِهِ ، لا للهدايةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، والحالتانِ مشتبهتانِ[2] ، ما يمكنُ التمييزُ إلا بإعلامٍ ، ولا يقفُ عليهما إلا القلوبُ الحيَّةُ بالعلومِ ، المبصَّرةُ بالعقولِ ، وعندَهما ضلالُ العلماءِ ، ولديهما سَقْطةُ الفقهاءِ[3] .

---

(١) وقد سبق التقرير في بيان أسباب العمل : أنه الخوف ، والرجاء ، والعبوديّة ، والألوهيّة ؛ فالعداوة أثر التزام العبوديّة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [فاطر : ٦] ، إلىٰ غير ذلك من الآي ، وظهور المنفعة أثر الألوهيّة ؛ إمَّا في الحسيِّ في البذر المزروع ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٤] ، وفي الديني قال : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وقال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ، فلمَّا لم يكن للعبد قدرةُ إثبات البذر في الأرض الرِّخو . . فكيف له قدرة إثبات بذر الوعظ في القلب الذي هو أشدُّ قسوةً من الحجارة ؟! انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : حالة الدعوة لله تعالىٰ ، وحالة الدعوة للرئاسة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) فأكثر العلماء والفقهاء حين التصدُّر تعرض لهم هاتان الحالتان ، ويقع الاشتباه =

وإنَّ طُرُقَ العملِ علىٰ مثالِ طُرُقِ العلمِ ؛ منها محكماتٌ ، ومنها متشابهاتٌ ، وفي المتشابهاتِ يهلكُ الغالي والجاهلُ ، وينجو الوسطُ .

فيقولانِ : فعليكَ بالبيانِ والبرهانِ ، فما الدعوةُ بمقبولةٍ إلا بسلطانٍ .

فيقولُ : الدعوةُ إلى اللهِ تعالىٰ للهدايةِ ـ لأنَّهُ عبدٌ أُمِرَ بها ـ أصلٌ محكمٌ لا يجوزُ تبديلُهُ[1] ، والدعوةُ إلى اللهِ تعالىٰ ليكونَ رأساً أصلٌ مرخَّصٌ فيهِ[2] ، فاللهُ تعالىٰ وعدَ الخلافةَ للمؤمنينَ أوِ الإمارةَ[3] ، والإمارةُ فوقَ الخلافةِ مِنْ حيثُ الاسمُ ، والخلافةُ فوقَ الرئاسةِ ، وقد آتى اللهُ تعالىٰ آلَ إبراهيمَ مُلْكاً عظيماً ، والمُلْكُ فوقَ الإمارةِ[4] ، غيرَ أنَّهُ رخصةٌ وحدٌّ للمحارمِ ، ففيهِ طلبُ

= والاختلاط ، ويظنُّ الواحد منهم أنه يعمل لله ويدعو إليه وهو على التحقيق يدعو إلىٰ نفسه ويؤسِّس لجاهه .

(١) قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٤/ ٧٨) : (أي : واجعلنا ممن يهتدي به المتقون ، ويهتدي بالمتقين) ، وقال حكاية عن سيدنا يوسف علىٰ نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

(٣) قال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

(٤) قال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

لأن الخلافة تنبئ عن النيابة ، والإمارة عن الأصالة ، أما من حيث الوقوع والوجود فالخلافة فوقها . مفادٌ من هامش (و) .

الحظِّ لنفسِهِ[1] ، والأصلُ : أنَّ العبدَ لا حظَّ لهُ إلا ما آتاهُ ربُّهُ عزَّتْ قدرتُهُ .

[علاماتُ الداعي إلى اللهِ تعالىٰ للهدايةِ]

وأعلامُ الداعي إلى اللهِ تعالىٰ للهدايةِ : أنْ يعاشرَهم باللينِ ما دامَ اللينُ في تركِ حقِّهِ ، فإذا أدَّىٰ إلىٰ تَرْكِ حقِّ اللهِ تعالىٰ بلا تأويلٍ غَلُظَ ، وهجرَهم هجراً جميلاً إذا عادَوْهُ وردُّوا عليهِ ما داموا متأوِّلينَ متأمِّلينَ ، فإذا أدَّىٰ إلى التعنُّتِ تصلَّبَ .

فهٰذهِ أعلامٌ أربعةٌ .

[اللِّينُ]

والعِشْرةُ باللِّينِ في أربعةٍ[2] : البِشْرُ عندَ اللقاءِ ، وتقريبُ القولِ بعدَ البِشْرِ[3] ، والإيثارُ بالمالِ بعدَ التقريبِ ، والعونُ بالنفسِ بعدَ المالِ .

ليأنسَ ببشرِهِ اللاقي فيجلسَ إليهِ[4] ، ويسكنَ بمقاربةِ القولِ قلبُهُ فيستمعَ لهُ ، ويألفَ النفسُ بالمالِ فيقيمَ لديهِ ، ويأمنَ بالعونِ فيبقىٰ معَهُ ، فيتمكَّنُ عندَ

---

(١) يعني : في ظاهر الآية وإشارتها ، وإلا فسيدنا إبراهيم علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام أجلُّ من أن يسأل المولىٰ حظّاً لنفسه ، وهو قد علم بوحي من الله تعالىٰ أن النبوة في نسله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد : ٢٦] ، فما سأل إلا ما علم وأُوحي إليه به ، وما كان من بعدُ بإذن الله وحكمته إلا أُلهمَ الدعاء ؛ حتىٰ كان خاتمُ الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم من ذريته .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] .

(٣) تلطيف العبارة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٤) يعني : اللاقيَ للواعظ والداعي .

ذلكَ مِنْ هدايتِهِ إلى اللهِ[1] .

[الغِلْظةُ]

والغِلْظةُ للهِ تعالىٰ في أربعةٍ[2] : العبوسةُ مكانَ البِشْرِ[3] ، والتبعيدُ مكانَ التقريبِ ، والعذْلُ مكانَ الإيثارِ ، والخِذلانُ مكانَ الإعانةِ[4] .

ليستوحشَ قلبُ اللاقي منهُ لعبوستِهِ فيقومَ عنهُ ، ويستوفزَ جسمُهُ بمباعدةِ القولِ فيفارقَهُ ، ويستوحشَ نفسُهُ مِنْ عذلِهِ فيهجرَهُ ، ويبغضَهُ في خِذلانِهِ فلا يحومَ حومَهُ ، فيتبرَّأَ مِنَ المداهنةِ في دينِ اللهِ تعالىٰ .

غيرَ أنَّهُ ما بجائزٍ لهُ الغلظةُ ما دامَ يجدُ تأويلاً لما يبدو منهم ومَحْمِلاً على الحقِّ ؛ لأنَّ الأصلَ كونُ العبادِ على الفطرةِ ، وكونُ العقلاءِ في أعمالِهم

---

(١) يعني : فيتمكَّن الداعي من هداية من يلقاه ويعظه ، وتقدم تذكير لفظ (النفس) للمصنف مراراً .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

واعلم : أن من لم ينفعه اللين فمن الغشِّ له الإقامةُ معه على اللين ، بل من حقِّهِ عليك أن تجفوَهُ بشيء من الغلظة لتحرِّك فيه داعية النظر التي لم يوقظها اللين ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٤] ، وقال : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٧] ، وقال جلَّ جلاله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] .

(٣) إذ العبوسة بعد اللين تقع في النفس موقعاً عظيماً ؛ إذ لو ابتدأ بالعبوسة لنفر اللاقي من الداعي ، ولو أدام اللين مع ما يرىٰ من إقامة الموعوظ علىٰ ضلاله . . كان متَّبعاً لهوى الموعوظ وغاشّاً له .

(٤) قال بعض المشايخ : (إذا رأيت العالم يداهن الناس فاعلم بأنه مراءٍ) .

بالحُجَّةِ ما يستقيمُ تركُ هـٰذا الأصلِ إلا بدليلٍ قاطعٍ ، وبذلكَ نطقَ الكتابُ ؛ ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر : ١٧ـ١٨] .

[الهجرُ الجميلُ]

والهجرُ الجميلُ إذا عادَوْهُ في أربعةٍ : أنْ يهجرَهم بظاهرِهِ علىٰ كَفٍّ ، ويرحمَهم بباطنِهِ إلىٰ لطفٍ ، وأنْ يقطعَ الطمعَ عمَّا في أيديهم متجمِّلاً ، وأنْ يلازمَهم بالحُجَجِ متكلِّماً .

فيستحييَ المعادي في إعراضِهِ عنهُ علىٰ كفٍّ معَ القدرةِ فيتركَ أذاهُ ، ثم يميلَ إليهِ قلباً بشهادةِ لطفِ نظرِهِ لما في قلبِهِ ، فالأبصارُ شهودُ الأسرارِ ، فلا يبعدَ عنهُ ، ثم يأمنَ جانبَهُ بانقطاعِ طمعِهِ فيهِ فيَقِرَّ عندَهُ ، ثم لا بدَّ مِنْ سماعِ الحُجَّةِ إذا قرَّ ولم يبعدْ ومالَ إليهِ قلباً ، والداعي متكلِّمٌ بالحُجَّةِ ، فإذا سمعَ عَدَّلَهُ استغناؤُهُ عمَّا في أيدي الناسِ[١] ، فما العاقلُ بعاملٍ عملاً لا عاقبةَ لهُ ، فإذا لم يجدْ لعملِهِ عاقبةً في الدنيا لم يبقَ إلا المولىٰ[٢] ، وقضىٰ بعدَ التعديلِ قلبَهُ المائلَ إليهِ بصدقِهِ[٣] ، وألزمَهُ الطاعةَ بعدَ القضاءِ حياؤُهُ الذي اعتراهُ في كَفِّهِ عن مجازاتِهِ على اقتدارٍ .

---

(١) أي : استغناءُ الداعي عما في أيدي السامعين يزكِّي حال الداعي . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) ولهـٰذا المعنىٰ عفَّت الرُّسُل عمَّا في أيدي الناس ؛ فكان الواحد منهم عند الدعوة يقول : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩] .

(٣) أي : عدَّل الداعيَ إلى الله تعالى استغناؤه عما في أيدي الناس ، والداعي عاقل ، فلا يعمل إلا لعاقبة ، ولا يجد المريد عاقبة للداعي من الدنيا ؛ حيث علم استغناءه عن الناس ، فلم يبق إلا أنه عاملٌ للمولىٰ ، وقضى الداعي بالصدق قلب المريد بعد هـٰذا التعديل . مفادٌ من هامش (و) .

[التصلُّبُ]

والتصلُّبُ في أربعةٍ : قصدُهم بلسانِهِ لينفيَ بهِ الهوادةَ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ[(١)] ، ثم بنفسِهِ ليُثبتَ الجلادةَ في أمرِ اللهِ تعالىٰ ، ثم بأعوانِهِ ليكسرَ شوكتَهم بجُندِ اللهِ تعالىٰ ، ثم بالسياسةِ ليُتِمَّ النصرةَ بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ .

وأصولُ ذلكَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ[(٢)] :

قالَ اللهُ تعالىٰ في العِشْرةِ باللِّينِ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وقالَ تعالىٰ في الغِلْظةِ : ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : ١٢٣][(٣)] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] .

وقالَ تعالىٰ في الهجرِ الجميلِ : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل : ١٠][(٤)] ، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢][(٥)] ، وقالَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، وقالَ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

---

(١) الهوادة : الصلح والميل ، والمهاودة : المصالحة والممايلة . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .
(٢) يعني : أصول اللين ، والغلظة ، والهجر ، والتصلُّب .
(٣) في الظاهر : الأمرُ للكفار ، وفي المعنى : الأمر بالغلظة على الكفار للمؤمنين . انتهىٰ من هامش (و) .
(٤) وهـٰذا قبل نزول آية السيف . انظر « الدر المنثور » (٨/ ٣١٨) .
(٥) أي : أكرموا أنفسهم أن يلوثوها به ؛ أي : جواباً يسلمون به ، انتهىٰ من هامش (و) .

وقالَ في التصلُّبِ : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ [التوبة : ١ـ ٢] ، وقالَ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١] ، وقالَ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقالَ : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة : ١٩١] ، وقالَ : ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، وأمثالَها مِنَ الآياتِ .

[قتالُ الكفارِ بعدَ تعنُّتِهم وقتالِهم لأهلِ الإسلامِ]

وهٰذهِ الآياتُ كلُّها نزلَتْ بعدَ ظهورِ التعنُّتِ مِنَ الكفرةِ ، ما انتقمَ اللهُ تعالىٰ مِنْ أعدائِهِ في الدنيا بعذابٍ علىٰ خلافِ العادةِ إلا بعدَ رسولٍ وإلزامِ حُجَّةٍ ؛ فقالَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥][(١)] ، وقالَ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [القصص : ٥٩] .

وكذلكَ ما أمرَ رسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالقتالِ إلا بعدَ ظهورِ التعنُّتِ منهم وقتالِهم معَهُ ؛ فقالَ : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٠] ،

---

(١) وهٰذا العذاب علىٰ طريقة السادة الماتريدية إنما هو فيما طريقه السمع ، لا العقل ؛ قال العلامة الجصاص في « أحكام القرآن » (٥/ ١٧) : (فيه وجهان : أحدهما : أنه لا يعذِّب فيما كان طريقه السمعَ دون العقل إلا بقيام حُجَّة السمع فيه من جهة الرسول ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أن من أسلم من أهل الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها من الشرائع السمعية أنه لا يلزمه قضاء شيء منها إذا علم ؛ لأنه لم يكن لازماً له إلا بعد قيام حُجَّة السمع عليه) .

ثم قال : (والوجه الثاني : أنه لا يعذِّب عذابَ الاستئصال إلا بعد قيام حُجَّة السمع بالرسول ، وأن مخالفة موجبات أحكام العقول قبل ورود السمع من جهة الرسول . . لا توجب في حكم الله عذابَ الاستئصال) .

وهو أوَّلُ آيةٍ نزلَتْ في القتالِ(١) .

وعلىٰ هـٰذا إجماعُ الأمَّةِ ، في كفَّارٍ لم تبلغْهمُ الدعوةُ ؛ أنَّهم لا يقاتَلونَ إلا بعدَ دعوةٍ وحُجَّةٍ ، وجوابٍ عن حُجَّتِهم إنِ اشتغلوا بالمحاجَّةِ ، وإنَّما اختلفوا في الضمانِ إذا قُتلوا قبلَ الدعوةِ(٢) ، كما في ضمانِ مسلمٍ قُتلَ قبلَ الهجرةِ .

وكذلكَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما قاتلَ المنافقينَ وإنْ ثبتَ كفرُهم بالآيةِ(٣) ؛ لأنَّهم كانوا متأوِّلينَ للعصمةِ بما أظهروا مِنَ المسالمةِ ، وإنْ ثبتَ تعنُّتهم في الباطنِ(٤) .

وعلىٰ هـٰذا جعلَ اللهُ تعالىٰ عقْدَ الذمَّةِ خَلَفاً عنِ الإسلامِ في العصمةِ ، فكيفَ في قومٍ متأوِّلينَ مسلمينَ ؟!

---

(١) قيل هـٰذا ، والصحيح أنها مدنية متأخرة . انظر « أحكام القرآن » لابن العربي (١/ ١٤٤) .

(٢) فعند الشافعية يضمنون ، وعند الحنفية لا يضمنون . مفادٌ من هامش (و) .

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٥] ، وقال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٨] .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] . انتهىٰ من هامش (و) .
وروى البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما : « أمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١/ ١٠٨) : (« وحسابهم » بعد ذلك « على الله » في أمر سرائرهم ، وأما نحن فإنما نحكم بالظاهر ، فنعاملهم بمقتضىٰ ظواهر أقوالهم وأفعالهم ، أو المعنىٰ : هـٰذا القتال وهـٰذه العصمة إنما هما باعتبار أحكام الدنيا المتعلقة بنا ، وأما أمور الآخرة من الجنة والنار والثواب والعقاب فمفوَّض إلى الله تعالىٰ) .

[قتالُ أهلِ الأهواءِ المتأوِّلينَ]

والمسالمةُ معاملةٌ قائمةٌ حسَبَ قيامِها مِنْ أهلِ الذمَّةِ ، ووراءَها اتفاقٌ علىٰ أصلِ الدينِ ، وتأويلٌ بالقرآنِ المبينِ ؛ ولهٰذا عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لم يستجزْ قتالَ البغاةِ والخوارجِ ابتداءً ، ولا قتلَهم عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ جزاءً ؛ لكونِهم متأوِّلينَ ، وإنَّما قاتلَهم دفعاً عن نفسِهِ حينَ قصدوهُ متمنِّعينَ .

[الخوارجُ أضلُّ الفرقِ الإسلاميَّةِ]

ولا ضلالَ في الإسلامِ أكثرُ مِنْ ضلالِ الخوارجِ ؛ فقد كفَّروا إمامَ الحقِّ ، وقاتلوهُ بالصدْقِ ، وفرَّقوا بينَ الأمَّةِ ، وقتلوا كثيراً مِنَ العدولِ .

[المتأوِّلُ يُرحمُ ، والمتعنِّتُ يزجرُ]

وقد شرعَ اللهُ تعالى القتلَ بدونِ ذلكَ ؛ مِنْ زنىً بعدَ إحصانٍ ، أو قتلِ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ ، أو قطعِ طريقٍ بالقتلِ ؛ لعدمِ التأويلِ ، وذلكَ لمعقولٍ ضروريٍّ ؛ وهو أنَّ المتأوِّلَ طالبٌ للحقِّ بالحُجَّةِ التي جُعلَتْ حُجَّةً في الكتابِ ، ولٰكنَّهُ ضلَّ بتقصيرِهِ أو غلوِّهِ ؛ والغلوُّ لشدَّةِ العنايةِ بالدينِ ، والتقصيرُ بعذْرِ شبهةٍ في اليقينِ ، فلم يجزْ أنْ يسوَّىٰ بينَهُ وبينَ المتعنِّتِ في ضلالِهِ عنِ الطريقِ ؛ فأحدُهما تاركٌ للحُجَّةِ ، والآخرُ مستعملٌ للحُجَّةِ ، بل واجبٌ أنْ يُرحمَ الضالُّ المتأوِّلُ ، ويُدعىٰ إلى الطريقِ ببيانِ الخطأِ عليهِ ليهتديَ ، ويُتصلَّبَ على المتعنِّتِ لينزجرَ خوفاً ؛ فقد أُيسَ عنِ اهتدائِهِ بالحُجَّةِ بعدَ ظهورِ تعنُّتِهِ .

وهٰذا علىٰ مثالِ الزائغِ عن طريقِ منزلِهِ علىٰ تأويلِ أنَّهُ الطريقُ ؛ فإنَّهُ يستحقُّ على العالمِ الثابتِ على الطريقِ الدعوةَ إليهِ ، ولا يستوجبُ الشُّنْعةَ والعقوبةَ

عليهِ ، وأمَّا الزائغُ عنِ الطريقِ تعنُّتاً ، عبثاً أو قصداً في فسادٍ . . فيستوجبُ ما يزجرُهُ عنهُ .

[قبولُ شهادةِ أهلِ الأهواءِ ، وطرفٌ مِنْ ذكرِ أحكامِهم]

وقد أجمعَ المسلمونَ : أنَّ شهادةَ أهلِ الأهواءِ المتأوِّلينَ المتمسِّكينَ بالإسلامِ مقبولةٌ[١] ، والمناكحةَ معَهم جائزةٌ ؛ فكيفَ يجوزُ معاداتُهم علىٰ سبيلِ المنابذةِ ، واللهُ تعالىٰ أثبتَ لهمُ الولايةَ علينا بالشهادةِ ، ولهمُ الوُصْلةَ بالمناكحةِ ؟!

بل تجبُ موالاتُهم بأصلِ الدينِ ، وتضليلُهم فيما زاغوا عنِ الحقِّ بيقينٍ .

ثم عملُ هـٰذا الداعي للعباداتِ الأربعِ في هـٰذهِ الحالِ ـ وهوَ الغرضُ المطلوبُ مِنْ هـٰذا المقالِ ـ يقعُ ليقتديَ بهِ الناسُ فيهتدوا بطريقِهِ[٢] ، وقد ذكرنا أنَّهُ غافلٌ عن نفسِهِ ليقصدَ خلافَهُ أو إقامةَ سَوْقِهِ فيهِ[٣] ، فيتصدَّقُ ترغيباً للناسِ في الإحسانِ وقلَّةِ المبالاةِ بالمالِ[٤] ، ويصومُ ترغيباً للناسِ في الإعراضِ عنِ الشهواتِ وقلَّةِ المبالاةِ بالجسمِ ، ويحجُّ ترغيباً للناسِ في الهجرةِ إلى اللهِ تعالىٰ

---

(١) انظر « أحكام القرآن » للجصاص (٢/ ٢٣٤) .

(٢) أي : الهدايةِ في هـٰذه الحالة ؛ أي : في الدعوة إلى الله تعالىٰ ؛ للصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحجِّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الضمير في (خلافه ، سوقه) راجع إلى النفس ، وسبق مراراً تذكير لفظ (النفس) للمصنف ، وفي هامش (و) : (إذ الدعوة أول منزل من المنازل الثمانية التي يسير فيها بعمله لله علىٰ جهل نفسه ، فكيف يقصد مخالفة من لا علم له به ؟!) .

(٤) إنما ابتدأ بالتصدُّق لأن للإحسان إلى الناس تأثيراً قويّاً في جذب قلوبهم واستعبادهم ، فلما كان هـٰذا النوعُ من العبادة للداعي الهدايةَ لهـٰذا الغرض الصحيح . . فالذي دونه في التأثير لَأن يقع منه لله بالطريق الأَوْلى . انتهىٰ من هامش (و) .

وقلَّةِ المبالاةِ بالمالِ والأهلِ والوطنِ ، ويصلِّي ترغيباً للناسِ في عبادةِ المولىٰ وتحريماً لكلِّ الدنيا .

فلا غرضَ لهـٰذا الداعي علىٰ ما ذكرْنا غيرُ دعوةِ الورىٰ إلى الهدىٰ ، وما يرىٰ لهم حاجباً غيرَ المالِ والوطنِ والشهواتِ والجاهِ والأهلِ والسَّكَنِ ، يكادُ يخفىٰ خشوعاً في حالِهِ بذاتِهِ ، واللهُ تعالىٰ يشهرُهُ للناسِ شهرةَ الشمسِ بصفائِهِ ، ذكرُهُ رفيعٌ ، وقولُهُ مسموعٌ ، وفعلُهُ متَّبَعٌ ، قد أعلنَ للناسِ إقبالَهُ على اللهِ تعالىٰ طاعةً مصداقاً لقولِهِ ، وأخفىٰ على الناسِ حالَهُ معَ اللهِ خشوعاً للهِ تعالىٰ وحياءً مِنَ التقصيرِ في فعلِهِ ، قد أخرسَتْهُ الفكرةُ في خلوتِهِ عنِ الثناءِ ، وشغلَهُ الثناءُ عنِ الدعاءِ ، وحجبَهُ عظمةُ اللهِ عنِ الانبساطِ برفعِ الصوتِ والبصرِ واليدِ ، بل علمُهُ بأنْ لا مكانَ لهُ حرَّمَ عليهِ ما يشيرُ إلى المكانِ ، إلا حيثُ أُمِرَ عملاً بالأمرِ تصديقاً ، أو حيثُ أُذِنَ أخذاً بالرخصةِ تيسيراً(١) .

---

(١) إذ الإشارة إلى السماء نوعُ تشبيه وتمثيل ، وقد قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] ، وروى اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (٧٣٩) عن أحمد بن يعقوب بن زاذان قال : بلغني أن أحمد بن حنبل قرأ عليه رجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، قال : ثم أومأ بيده ، فقال له أحمد : قطعها الله ، قطعها الله ، قطعها الله ، ثم حَرِدَ وقام .

ويقال بالمنع في كلِّ ما يوهم التشبيه ، فإن قلت : ففي كتاب الله وسنَّته ما يوهم ظاهرُهُ التشبيه .

فالجواب : ما رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٧٣١) عن أفلح بن محمد قال : قلت لعبد الله بن المبارك : يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ إني أكره الصفة ـ يعني : صفة الربِّ تبارك وتعالىٰ ـ ، فقال له عبد الله : أنا أشدُّ الناس كراهيةً لذلك ، ولـٰكن إذا نطق الكتاب بشيء جسرنا عليه ، وإذا جاءت الأحاديث المستفيضة الظاهرة تكلَّمنا به .

يعني : تجرَّأنا علىٰ إطلاق هـٰذه الظواهر ، وإطلاقُها قبل ورود الشرع بها كفرٌ وزندقة ، وابن المبارك أمير المؤمنين في كلِّ شيء ، وقد أجمع المسلمون علىٰ هدايته ، وأعلمَ أن =

قالَ اللهُ تعالىٰ[1] : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ـ ٢] ، ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾ [لقمان : ١٩] ، ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

[الإخباتُ والخفيةُ في الدعاءِ ، إلا ما وردَ الجهرُ بهِ في الشرعِ]

أفيرى الجهرَ للهِ تعالىٰ بالقولِ سبباً للقبولِ ، وكانَ سبباً لإحباطِ الأعمالِ معَ الرسولِ ؟! إلا حيثُ شُرِعَ الذكرُ عَلَماً[2] ؛ كالأذانِ ، وتكبيراتِ الإمامِ في الصلاةِ ، والتلبيةِ ، والتكبيرِ في الغزواتِ والأيامِ المعدوداتِ ، فسبيلُ العَلَمِ أنْ يكونَ ظاهراً ، وذلكَ في الجهرِ يخافُ في كلِّ أعمالِهِ أنْ يَبتدعَ[3] ، فيُلزِمُ نفسَهُ اتِّباعَ ما في الكتابِ والسُّنَنِ ، وإنْ تُصوِّرَ وراءَ ذلكَ حَسَنٌ[4] ، لا يتقرَّبُ إلى اللهِ

= الإطلاق لورود الإذن الشرعي ، والكراهة نشأت من المنع العقلي ؛ إذ ظواهرها محالة في حقِّه سبحانه ، فيكون تفسيرها بإمرارها كما جاءت من غير اعتقاد ظاهرها المحال .

وأما ما رواه أبو داود (٤٧٢٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه وقد قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء : ٥٨]، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع إبهامه علىٰ أذنه ، والتي تليها علىٰ عينه . . فقد قال المقرئ : يعني : إن الله سميع بصير ؛ يعني : أن لله سمعاً وبصراً ، فالمراد إثبات الصفة ، لا الجارحة ، ولذلك قال أبو داود : (وهـٰذا ردٌّ على الجهمية) ؛ لأنهم نفاة الصفات .

(١) يؤكد بأن الخشوع والخضوع والإخبات والذكر الخفيَّ ، وترك الجهر في الدعاء والثناء . . أحبُّ إلى الله تعالىٰ وأقرب .

(٢) يعني : علامة وشعيرة .

(٣) قوله : (وذلك) إشارة إلى الداعي إلى الله تعالىٰ بصدق .

(٤) أي : إن تُصوِّرَ حسنٌ وراء ذلك . مفادٌ من هامش (و) .

تعالىٰ بواسطةٍ مِنْ مخلوقٍ مخافةَ الشركِ إلا حيثُ أُمِرَ[1] ، إقامةً للطاعةِ وتعظيماً للأمرِ .

فهٰذهِ أماراتُ الداعي للهدايةِ في معاملتِهِ معَ الناسِ ، وطاعتِهِ لربِّ الناسِ .

[علاماتُ الداعِي إلى اللهِ تعالىٰ للرئاسةِ]

وأمَّا علاماتُ الداعي إلى اللهِ تعالىٰ للرئاسةِ[2] : فأنْ يعاشرَهم باللِّينِ ما دامَ يترخَّصُ بتركِ حقوقِ اللهِ تعالىٰ ، علىٰ تأويلِ أنَّ الترخُّصَ مباحٌ ليؤلِّفَ قلوبَهم[3] .

فإذا أدَّىٰ إلىٰ تركِ حقِّهِ غَلُظَ[4] ، وإنْ وجدَ للتركِ مَحْمِلاً على الحقِّ ؛ علىٰ

---

(١) كالتوسُّل إلى الله تعالىٰ بالتحبُّب إليه بمراعاة صالحي عباده ؛ من الأنبياء والأولياء ، أحياء وميتين ؛ فقد روى الطبري في « تفسيره » (١٠/ ٢٩١) عن ابن زيد في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] ، قال : المحبَّةَ ؛ تحبَّبُوا إلى الله ، وقرأ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (١٤٤٣) عن ثابت البناني قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس يتحدَّث يخلع نعليه ، فخلعهما يوماً ، وجلس يتحدَّث ، فلما قضىٰ حديثه قال لغلام من الأنصار : « يا بنيَّ ؛ ناولْني نعلي » ، فقال غلام من الأنصار : دعْني فلأُنْعِلْكَ ، قال : « شأنُك » ، فأنعله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ ؛ إن عبدك يتحبَّب إليك فأحبَّهُ » .

ورویٰ أيضاً (١٤٣٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه خبرَ تفريق شعره عليه الصلاة والسلام ، قال ابن سيرين : لَأن تكون عندي منه شعرةٌ . . أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها .

(٢) يريد تحقيق حظِّ نفسه ، وهو غافلٌ عن أمر ربِّه ، قد لبَّسَتْ عليه نفسه .

(٣) يعني : تُلبِّسُ عليه نفسه وتظهر له أن فوات بعض حقوق الله بنيَّةِ تأليف القلوب لا بأس به ، وكذا يقال في التأويل فيما سيأتي ، فهو تأويل باطل .

(٤) يعني : حقَّ نفسه ، وهٰذا دليلُ أن الدعوة للرئاسة ، لا للهداية .

تأويلِ أنَّ فيهِ إهانةَ العالِمِ ، وفي إعزازِ العالِمِ نصرةُ الدينِ[١] .

وأنْ يهجرَهم هجراً جميلاً ما داموا خاملينَ لا يُعرفونَ ، علىٰ تأويلِ أنَّهُ لا ضررَ منهم في الدينِ[٢] ، ولعلَّهم إذا لم يردَّ عليهم سمعوا الحقَّ وعرفوهُ .

فإذا ظهروا تصلَّبَ ، علىٰ تأويلِ أنَّهم سيفسدونَ الناسَ بحُجَجِهم ، وفي التصلُّبِ عليهم محافظةٌ على المِلَّةِ المستقيمةِ[٣] .

[العشرةُ باللينِ]

وعشرتُهُ باللينِ في أربعٍ : البِشْرُ عندَ اللقاءِ ليجلسوا إليهِ ، وتقريبُ القولِ بعدَ البِشْرِ ليأنسوا بهِ ، ثم أخذُ الهديَّةِ منهم والإجابةُ لدعوتِهم ؛ اتِّباعاً للرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثم الاستعانةُ بهِم لينتصرَ بهم لدينِ اللهِ تعالى امتثالاً لكتابِ اللهِ تعالىٰ[٤] .

[العشرةُ بالغِلْظةِ]

والغِلْظةُ في أربعٍ : العبوسةُ مكانَ البِشْرِ ليستوحشَ قلبُ اللاقي فيقومَ عنهُ ، والتبعيدُ مكانَ التقريبِ ليستوفزَ جسمُهُ فيفارقَهُ[٥] ، والظلمُ مكانَ الانتصافِ

---

(١) وهـٰذا حقٌّ ، غير أنه توسَّلَ به إلىٰ باطل ، فوقف عند إعزاز نفسه فقط .

(٢) يعني : يتركهم سادرين في شهواتهم ما داموا يعظمونه ويسكتون عن عيوبه ؛ إذ يخشىٰ لو هو فعل أن ينقلبوا عليه .

(٣) وإنما تصلَّب عليهم خشيةَ ذهاب مكانته ، ولـٰكن نفسه تلبِّسُ عليه بأنه إنما يفعل ذلك لحفظ الدين .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال : ٦٠] . انتهىٰ من هامش (و) ، وهو ملبَّس عليه في ذلك كلِّه .

(٥) استوفز في قِعْدته ؛ إذا قعد قعوداً منتصباً غير مطمئنٍّ . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

ليستوحشَ نفسُهُ بظلمِهِ فيتوارىٰ عنهُ ، والقهرُ مكانَ الخِذلانِ ليخافَهُ فيفرَّ منهُ ؛ ليكونَ قولُهُ للحقِّ بلا معارضٍ أنفذَ .

[العشرةُ بالهجرِ الجميلِ]

والهجرُ الجميلُ في أربعةٍ : أنْ يهجرَهم بظاهرِهِ علىٰ غِيبَةٍ ، ويعاديَهم بقلبِهِ إلىٰ لينٍ بجسمِهِ ؛ ليكونَ الهجرُ الظاهرُ بجسمِهِ معَ الوقيعةِ فيهم بلسانِهِ . . عذراً إلى اللهِ تعالىٰ في التبرُّؤِ عنهم ، واللينُ الظاهرُ بجسمِهِ سبباً مانعاً مِنْ نفرتِهم عنهُ ؛ فلعلَّهُ يصيدُهم إذا سكنوا إليهِ .

ثم يتواضعَ لهم ، ويخفيَ الحُجَجَ عنهم ؛ ليكونَ التواضعُ سبباً يؤلِّفُهم ليصيروا لهُ فيتمكَّنَ بعدَهُ مِنَ الهدايةِ ، وإخفاءُ الحُجَّةِ للحالِ إلىٰ أنْ يصيروا لهُ حيلةً مبلِّغةً إلى الغرضِ(١) .

[العشرةُ بالتصلُّبِ]

والتصلُّبُ في أربعةٍ : قصدُهم بلسانِهِ مجادلاً قطعاً للمناظرةِ ، وبنفسِهِ محارباً قطعاً للمعارضةِ ، علىٰ تأويلِ خِذلانِ أهلِ الفسادِ ، ثمَّ الطعنُ فيهم تنفيراً للناسِ عنهم ، ثمَّ الاستهزاءُ بهم إذهاباً للحشمةِ وإسقاطاً للقيمةِ ، حتىٰ يصيروا كالشيءِ التافهِ الساقطِ على الطريقِ لا يعبأُ بهِ أحدٌ ، لا يُسمعُ منهم خبرٌ ، ولا يُرفعُ إليهم بصرٌ .

وذلكَ لأنَّهُ عملَ بإلهامِ نفسِهِ ، وغرضَ النفسِ صيدُ جنسِهِ ؛ ليكونوا لهُ

---

(١) وهو التمكين من الهداية ، لـٰكن إخفاء الحُجَّة في الحال مداهنة . انتهىٰ من هامش (و) ، فهو في هـٰذه الحال مداهنٌ وهو يظنُّ أنه مدارٍ لهم .

لا لربِّهِ ، وإنَّما ألهمَهُ طريقَ الحقِّ ليَغُرَّهُ بهِ[1] ، ثم يجرَّهُ إلىٰ باطلٍ غفلةً ، فقد عجزَ عن غرورِ المحقِّ بالباطلِ جهرةً ، وإنَّهُ علىٰ مثالِ الصيَّادِ ؛ يغرُّ الطيرَ بالحَبِّ ، ثم يصيدُهُ بالفخِّ ، ومثالِ الغاشِّ مِنَ الصيارفةِ ؛ يبدي الفضَّةَ ويخفي الرصاصَ ، ثم يروِّجُهُ على الجاهلينَ مِنَ الناسِ .

وما طريقُ غشِّ النفسِ للعالِمِ إلا طريقُ الدينِ المقرونةُ بالرُّخَصِ ؛ فإنَّها حمى المحارمِ ، وحدُّ المآثمِ ، ومَنْ لم يقفْ قَبْلَ الحدِّ خِيفَ عليهِ التعدِّي عنهُ ، وبذلكَ جاءَ البيانُ مِنْ صاحبِ الشرعِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحلالُ بَيِّنٌ ، والحرامُ بَيِّنٌ ، وبينَهما أمورٌ مشتبهاتٌ »[2] ، « دعْ ما يَريبُكَ إلىٰ ما لا يَريبُكَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ ملكٍ حمىً ، وإنَّ حمى اللهِ محارمُهُ ، فمَنْ رَعَىٰ حولَ الحمىٰ يُوشكُ أنْ يقعَ فيهِ »[4] .

ومثالُ ذلكَ فيما قلناهُ .

فقد حملَتْهُ النفسُ علىٰ دعوةِ الناسِ إلى اللهِ تعالىٰ لغرضِ الرئاسةِ ، والرئاسةُ

---

(١) ألهمه ؛ أي : النفسُ ، علىٰ عادة المصنف من تذكير هٰذه اللفظة .

(٢) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي (٨/ ٣٢٧) من حديث سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما .
وقد جُمعَ بين الحديثين في كلام سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، كما روىٰ ذلك النسائي (٨/ ٢٣٠) .

(٤) رواه مسلم (١٥٩٩) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما المتقدِّم ، وفي هامش (و) : (قال أبو جعفر الكبير البخاري : إياكم وأمرَ العامة ، وإن كان الأذانَ والإقامةَ) .

مترخَّصٌ فيها ، فكانَتْ حدَّ المحارمِ ؛ ففيها طلبُ الحظِّ لنفسِهِ ؛ وهو أنْ يكونَ رأسَهم ، والأصلُ أنْ لا حظَّ للعبدِ ، بلِ الكلُّ للهِ تعالىٰ ، إلا ما جُعِلَ للعبدِ ، فكانَ حظُّ نفسِهِ رخصةً وحدّاً .

ثم دعَتْهُ في معاملاتِهِ إلى العِشْرةِ باللينِ ما دامَ مترخِّصاً بتركِ حقوقِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّهُ لحدٌّ ، والأصلُ أنَّ حقوقَ اللهِ تعالىٰ لازمةٌ لا يجوزُ تركُها إلا رخصةً لنا ، والغلظةِ إذا أدَّىٰ إلىٰ تركِ حقِّهِ[1] ، وإنَّهُ لرخصةٌ وحدٌّ ؛ فالأصلُ في حقوقِهِ أنَّها مستباحةٌ بإباحةٍ ، إلا حيثُ حجرَ الشرعُ[2] ، وكانَ الطريقُ الواضحُ في اللينِ ما دامَ التركُ لحقوقِهِ ، والغلظةِ إذا أدَّىٰ إلىٰ تركِ حقوقِ اللهِ تعالىٰ .

ثم دعتْهُ إلى الهجرِ الجميلِ حالَ الخمولِ ، والتصلُّبِ عندَ الظهورِ ، وهٰذا حدٌّ ورخصةٌ ؛ فالأصلُ في الهجرِ الجميلِ ما داموا متأوِّلينَ علىٰ ما قدَّمناهُ ، والتصلُّبِ إذا صاروا متعنِّتينَ ؛ ليكونَ السعْيُ للهِ تعالىٰ ؛ إذْ ضررُ ظهورِهم وعدمُ الضررِ بخمولِهم ممَّا يعودُ إلى الناسِ ، والأصلُ : أنْ لا حقَّ للناسِ ، ولا عداوةَ ولا مسالمةَ لأجلِهم إلا بقَدْرِ ما جعلَ اللهُ تعالىٰ لهم ذلكَ .

ثم أمرَتْهُ بالبِشْرِ في العشرةِ باللينِ والتقريبِ ؛ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ في البابِ الأوَّلِ[3] ، ثم جعلَهُما سبباً لما هو رخصةُ أخذِهِ الهديَّةَ منهم ، والاستعانةِ بهم ؛ ففيهما الاستئثارُ ، والأصلُ المحكمُ : هوَ الإيثارُ ، وإنَّما

---

(١) يعني : ودعته نفسه إلى الغلظة . . . إلىٰ آخره .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، الأصل في حقوق الله : المحافظة ، ولا تجوز المجاوزة إلا بعد الإذن ، وفي حقوق غيره : الاستباحة بالإباحة إلا حيث حُجرَ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) انظر (ص٦٥٩) عند الحديث عن الدعوة للهدايةِ ، لا للرئاسة .

الاستئثارُ رخصةٌ في بعضِ المواضعِ .

ثم أمرَتْهُ بالغِلْظةِ بالعبوسةِ والتبعيدِ ، كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ، ثم جعلَهُما سبباً لما هو رخصةُ الظلمِ والقهرِ ؛ فقد رخَّصَ اللهُ تعالىٰ فيهما في حقِّ الكافرينَ مجازاةً وزجراً ، والأصلُ : هوَ العدلُ والخِذلانُ ؛ فالعدلُ أصلٌ محكمٌ مرضيٌّ ؛ فإنَّهُ اسمٌ للسيرةِ المرضيَّةِ وضعاً ، والإحسانُ غيرُ واجبٍ في الأصلِ ؛ فيكونُ الخِذلانُ رخصةً ، فأمَّا جملةُ الظلمِ والقهرِ فحرامانِ ابتداءً ، ما يَحِلَّانِ إلا علىٰ سبيلِ المجازاةِ .

ثم أمرَتْهُ بالهجرِ الجميلِ ؛ إلىٰ هجرٍ بجسمِهِ ظاهراً ، وغِيبَةٍ بلسانِهِ مترخِّصاً ؛ ليزجرَ الناسَ عنهُ ، وهٰذا حدٌّ ؛ فالغِيبةُ حرامٌ في الأصلِ ؛ وهوَ الذكرُ بالقبيحِ صِدْقاً ، إلا بأمرٍ علىٰ حدٍّ مخصوصٍ ؛ وهو أنْ يكونَ صاحبُهُ أعلنَهُ علىٰ نفسِهِ غيرَ مبالٍ بهِ ، والأصلُ المحكمُ في الهجرِ الجميلِ بجسمِهِ ظاهراً : إلىٰ كَفٍّ[1] ؛ فذلكَ العدلُ .

ثم أمرَتْهُ بعداوةٍ بقلبِهِ ، إلىٰ لينٍ بجسمِهِ ، وهٰذا حدٌّ ؛ فالعداوةُ للجنسِ حرامٌ في الأصلِ ، ما يَحِلُّ إلا بموافقةِ الأمرِ علىٰ حدٍّ مخصوصٍ ؛ وهو ألا يكونَ للعبدِ في ذلكَ حظٌّ ، وكانَ الأصلَ المحكمَ أنْ يرحمَهم بقلبِهِ ، معَ عنايةٍ بظاهرِهِ ؛ فمرحمةُ الجنسِ أصلٌ ما يجوزُ تركُهُ إلا بأمرِ اللهِ تعالىٰ[2] ،

---

(١) أي : إن الأصل المحكم هو ترك الاختلاط حالة الفسق والفجور ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء : ١٤٠] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) روىٰ أبو داود (٤٩٤١) ، والترمذي (١٩٢٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « الراحمون يرحمُهم الرحمٰن ، ارحموا أهلَ الأرض يرحمْكم مَنْ في السماء » ، وفي رواية أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٠) : « ارحموا أهل الأرض =

وما داموا متأوِّلينَ فلا أمرَ .

ثم أمرَتْهُ بالتواضعِ طمعاً فيهم ، والطمعُ في الناسِ حرامٌ في الأصلِ ؛ لأنَّهم للهِ تعالىٰ ، ما لأحدٍ قِبَلَهم حقٌّ ، ولا في غيرِ اللهِ تعالىٰ لعبدٍ مطمعٌ إلا بأمرِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ الأصلُ المحكمُ : في قطعِ الطمعِ عنهم مستغنياً باللهِ(١) .

ثم أمرَتْهُ نفسُهُ بإخفاءِ الحُجَجِ ؛ خوفاً عن نفرتِهم ، وإنَّهُ رخصةٌ وحدٌّ ، وإخفاءُ حُجَجِ اللهِ تعالىٰ حرامٌ إلا بأمرِ اللهِ تعالىٰ ، والأصلُ المحكمُ : في الإبداءِ(٢) .

ثم أمرَتْهُ بالصلابةِ بأربعٍ : القصدِ لساناً كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ، لـٰكنْ ليسُدَّ بابَ المحاجَّةِ ، وإنَّهُ حرامٌ(٣) ، فاللهُ تعالىٰ ما بعثَ الكُتُبَ والرُّسُلَ إلا مُحاجّاً بهم وبها ، فلا يَحِلُّ سدُّهُ إلا بأمرٍ ؛ كسائرِ فروضِ اللهِ تعالىٰ ؛ وذلكَ عندَ ظهورِ التعنُّتِ ، فكانَ الأصلُ المحكمُ : في القصدِ لساناً لنفْيِ الهوادةِ عن نفسِهِ ؛ حتىٰ لا يُطمعَ في مداهنتِهِ(٤) ؛ فالمداهنةُ في الدينِ حرامٌ أصلاً ، ما تحلُّ إلا لضرورةٍ دفعاً(٥) .

= يرحمْكم أهلُ السماء » .

(١) يعني : أن الأصل المحكم في التواضع هو أن يقطع طمعه عن الناس ، ويستغني عنهم بالله تعالىٰ ، فيكون تواضعه لأجله سبحانه .

(٢) يعني : أن الأصل المحكم في الحِجاج هو إظهار الحجة ، لا إخفاؤها ، وفي هامش (و) : (مثل إظهار الحُجج ، والقتال مع الكفار إلا إذا كان صلحٌ) .

(٣) بأن يؤذيه بلسانه لينزجر ، لـٰكن قصد هـٰذا الداعي المبطل قطعُ محاجَّة الناس ، وإنه حرام ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) قال سبحانه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ٢٠٥) : (ودُّوا لو تصانعهم في الدين فيصانعونك) .

(٥) قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ =

ثم أمرَتْهُ بالقصدِ بنفسِهِ ـ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ـ لسدِّ بابِ المعارضةِ ؛ فلا يظهرُ عجزُهُ ، وإنَّهُ حرامٌ في الأصلِ ؛ فاللهُ تعالىٰ ما فتحَ أبوابَ المحنةِ ومعارضاتِ الناسِ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ مثلَما فتحَ على الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم ، وقد نطقَ بهِ الكتابُ ، فكانَ سدُّ أبوابِ المعارضةِ حراماً ، إلا لضرورةٍ عندَ خوفِ التَّلَفِ ، وكانَ الأصلُ المحكمُ في القصدِ بنفسِهِ : إظهارَ الجلادةِ للمعارضينَ ، فالتجلُّدُ للهِ بإزاءِ المعارضينَ أصلٌ ما يجوزُ تركُهُ إلا بإذنٍ رخصةً .

ثم أمرَتْهُ بالطعنِ فيهم ليزجرَ الناسَ عنهم ، وإنَّهُ لحدٌّ ؛ فالاقتصارُ علىٰ زجرِ الناسِ عن أعداءِ اللهِ المتعنِّتينَ حدٌّ ، والأصلُ المحكمُ : في الإهلاكِ علىٰ ما بيَّنَّا في أصلِ الشريعةِ(١) ، وإنَّما يجوزُ الكفُّ عنهُ رخصةً .

[وبالُ الدعوةِ لطلبِ الرئاسةِ]

فإذا ثبتَ العبدُ علىٰ هـٰذا الطريقِ ، وزُيِّنَ لهُ طلبُ الرخصةِ . . أُعمِيَ عن سواءِ الصراطِ ، واعتقدَ أنْ لا طريقَ غيرُهُ ، فسلكَ والقدمُ تتعدَّىٰ إلى المحارمِ ، والعينُ تقعُ على المآثمِ ، وهو يجتهدُ تحفُّظاً ، حتىٰ إذا طالَ السفرُ ، وضاقَ الأمرُ . . قرأَ(٢) : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨]، فوسَّعَ الطريقَ علىٰ نفسِهِ مترخِّصاً بالآيةِ ، فسلكَ بعدَ ذلكَ متعدِّياً إلى الحمىٰ وهو

= إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، ونقل العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (١/٣٩٦) قراءة : (تَقِيَّةً) أيضاً مع (تُقاة) ، ثم قال : (والتقية : خوف القتل ، إلا أن هـٰذه الإباحةَ لا تكون إلا مع سلامة النية وخوف القتل) .

(١) انظر (ص٦٦٥) .

(٢) وقد غرَّته نفسه ، ووقع في شبك الاستدراج .

ينكرُهُ ناسياً أو متناسياً ، ويقولُ : سيُغفرُ لي بتأويلي واجتهادي .

فيضيِّعُ الحدودَ فعلاً ، ويحسنُ الثناءَ والاستغفارَ قولاً ، فيلحقُهُ الخِذلانُ ومقتُ اللهِ الموعودُ للذينَ يقولونَ ما لا يفعلونَ عندَ ذلكَ[1] ، فيتعدَّىٰ قصداً بغيرِ تأويلٍ ، ثم يندمُ ، ثم يعودُ ويقولُ : إنَّ اللهَ توَّابٌ رحيمٌ ، حتىٰ يَرِينَ علىٰ قلبِهِ ما ارتضاهُ لنفسِهِ عليهِ[2] ، فيُزَيَّنُ لهُ سوءُ عملِهِ فيراهُ حسناً[3] .

ثم يَرُدُّ بعدَهُ علىٰ أمرِ الحقِّ ويعدُّهُ هيِّناً[4] ، إلىٰ أنْ يحملَهُ على الإنكارِ تعنُّتاً ؛ مخافةَ ذهابِ الرئاسةِ ، فيفسقَ أو يكفرَ برابعِ منازلِهِ[5] ، علىٰ مثالِ أحبارِ اليهودِ والنصارىٰ في زمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

[علامةُ الداعي لطلبِ الرئاسةِ مِنْ حيثُ الفعلُ]

وعلامةُ هـٰذا الداعي مِنْ حيثُ الفعلُ : أنْ يكونَ مسجدُ مَحَلَّتِهِ علىٰ مثالِ قصرِ خاصَّتِهِ ، ومنبرُ التذكيرِ علىٰ مثالِ عرشِ مملكتِهِ ، وأصحابُهُ المتعلِّمونَ منهُ علىٰ مثالِ جندِهِ وحاشيتِهِ ، وأهلُ بلدِهِ علىٰ مثالِ رعيَّتِهِ .

[صفةُ علمِ الداعي للرئاسةِ]

والعِلْمُ قصصٌ يستعذبُها السامعونَ ، وأحلامٌ يستغربُها المتأمِّلونَ ،

---

(١) يعني : عند ذلك التضييع . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) أي : حمل نفسه عليه ، بطريق التضمين . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) قال سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر : ٨] .

(٤) يعني : يردُّ بعد وقوع التزيين له علىٰ أمر الحقِّ سبحانه ، فيستخفُّ به ولا يباليه .

(٥) التعدِّي في ثلاث منازلَ ، والإنكار تعنُّتاً في الرابع . انتهىٰ من هامش (و) .

وتأويلاتُ الكتابِ تتفزَّعُ لديها القلوبُ ، وتقشعرُّ منها النفوسُ ، وربَّما أدَّىٰ إلىٰ صيحاتٍ منكرةٍ وحركاتٍ سمجةٍ ، وعندَهُ أنَّ الحركةَ مِنَ اليقظةِ ، والصيحةَ مِنَ الهيبةِ[1] ، وربَّما أدَّىٰ إلى البكاءِ ودَمْعِ العيونِ ؛ لحُزْنٍ يخامرُهم سماعاً[2] ؛ كبكاءِ المتسلِّينَ على الميتِ بحُسْنِ نياحةِ النائحةِ .

[صفاتٌ أُخَرُ للداعي لنفسِهِ وللرئاسةِ]

وأمَّا الفتوىٰ : فحِيَلٌ ، والحُكْمُ مرادٌ[3] ، والحُجَّةُ : شتمٌ وصفعٌ ووقيعةٌ[4] ، والتضرُّعُ في الدعاءِ : بجهرِ الصوتِ[5] ، والتخشُّعُ : برفعِ اليدِ[6] ، والتنسُّكُ : بشخوصِ العينِ[7] ، والتقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ : بالجموعِ ، مكانَ الخلوةِ والخشوعِ ، والهجرةُ : بالسياحةِ إلى الأمكنةِ[8] ، مكانَ القلبِ إلىٰ ربِّ الأمكنةِ ، والسياحةِ لجهادِ الكفرةِ ؛ يقولُ : ما لنا

---

(١) يعني : إنما يتحرَّك من تيقُّظ قلبه ، ويصيح ويَزعَق من هاب المولىٰ ، وإنما الخشوع في السكينة ، والهيبة في الانكسار والتواضع ، نعم ؛ قد يقع هـٰذا للموعوظين من قبل الداعي للهداية ، ولـٰكن علىٰ ندرة ؛ وسببه : قوة الوارد عليهم ، أو ضعفُ قلوبهم ، وأما الحركة والصياح في مجلس الداعي للرئاسة . . فمحض غرور ، وعلامته : سوء أحوالهم مع ربِّهم ، والاشتغال بالنفل عن الفرض ، والاغترار بالإشارات عن العبارات .

(٢) لا لصدق حالٍ ينزل جذر قلوبهم .

(٣) أي : يحكم ما يريد . انتهىٰ من هامش (هـ) ، فهو يفتي بما يوافق هواه .

(٤) إذ لا حُجَّة له أصلاً ، أو إنه يتكبَّر عن إظهارها وكأن حقَّهُ على الناس ألا يطلبوها منه .

(٥) انظر ما تقدم (ص٦٧٠) في كون الأدب في الدعاء الخفيةَ ودون الجهر من القول .

(٦) فهو حركة ظاهرٍ ، وإنما الخشوع عمل القلب .

(٧) فهو مراءٍ ، وإنما التنسُّك بعد الفريضة بالتحبُّب إلى الله بكثرة النافلة .

(٨) فهو بهـٰذا يروِّح عن قلبه ، فلا يفكِّر بالانتقال إلىٰ بقعة لا يُعصى الله فيها ، تملؤها شعائر الإسلام .

والسلاحَ ؟! إنَّما نحنُ أهلُ الصلاحِ[1] .

ثم يكونُ بعدَ ذلكَ ربّاً لا ربّانياً ، وآمراً لا مبلِّغاً ، فتعوَّذْ باللهِ ـ أيُّها الأخُ ـ دائماً مِنْ شرِّ النفسِ ، ومخالطةِ الجنسِ .

[صفةُ عباداتِ الداعي للرئاسةِ]

والعباداتُ الأربعُ لهٰذا الداعي : تقعُ علىٰ نيّةِ الإحسانِ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ لغرضِ أنْ يحبَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فاللهُ تعالىٰ يحبُّ المحسنينَ ، وإنَّهُ لرخصةٌ ، فالإحسانُ فعلُ المالكِ ، والأصلُ : أنْ لا مِلْكَ للعبدِ إلا ما مُلِّكَ .

ثم يقعُ بعدَما وَسَّعَ الأمرَ علىٰ نفسِهِ وتعدَّى الحدَّ . . في المراءاةِ[2] ، فبقَدْرِ ما تعدَّى الحدَّ تعدَّىٰ قصدُهُ عنِ اللهِ تعالىٰ إلى الناسِ في إقامةِ العباداتِ ، فينالُ الويلَ مكانَ الفلاحِ ، ويُظْلِمُ عليهِ بظُلَمِ المعاصي الصباحُ ، فيصيرُ إلى الكفرِ الصريحِ ، أوِ الفسقِ القبيحِ .

[منزلُ المحافظةِ بسببِ الرجاءِ]

فمتىٰ وُقِيَ العبدُ هٰذهِ الفتنةَ في منزلِ الدعوةِ[3] ، وثبتَ داعياً إلى اللهِ تعالىٰ هادياً . . انتقلَ إلىٰ منزلِ المحافظةِ بسببِ الرجاءِ ، والنفسُ تدعوهُ إلى المنزلِ بسببِ الطمعِ ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة : ١٦] ، والطمعُ مرخَّصٌ فيهِ ، والأصلُ المحكمُ : هوَ الرجاءُ[4] ؛ فإنَّ الرجاءَ ينبعثُ

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ : ١٦ـ١٧] .

(٢) يدرج ذلك الإحسان بالمراءاة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) بأن تكون دعوته لله تعالىٰ ، لا لنفسه وللرئاسة .

(٤) فيحمل الطمع على الرجاء ؛ إذ أكثر ما يستعمل فيما يقرب حصوله ، والمراد من الآية : =

مِنْ كرمِ المرجوِّ عُرْفُهُ[1] ، الظاهرِ فضلُهُ ، الباعثِ كرمُهُ المحتاجَ إلى الرجاءِ ، فيرجوهُ مفوِّضاً إليهِ ، فما عرفَ لهُ سبباً مِنْ عندِ نفسِهِ[2] .

والطمعَ يبعثُ الطامعَ بحقِّ عُرفِهِ لنفسِهِ ، فيبعثُهُ على الطمعِ كأنَّهُ طالبٌ لحقٍّ لهُ ، وإنَّهُ لرخصةٌ ، فالأصلُ : أنْ لا حقَّ لأحدٍ علىٰ أحدٍ ولا على اللهِ المتعالِ[3] ، وإنْ أُثبتَ للعبدِ جزاءُ الأعمالِ[4] ؛ فذلكَ مِنَ الفضْلِ والإفضالِ .

وإنَّ الطامعَ متىٰ لم يحصلْ لهُ مرادُهُ وقدِ اعتقدَهُ مستحَقّاً . . سخطَ ، ثم جزعَ ، ثم أنكرَ ، فكانَ رَدّاً للعبوديَّةِ بعدَ تركِ العبادةِ ، والراجيَ متىٰ لم يحصلْ لهُ مرادُهُ وقدِ اعتقدَ أنْ لا حقَّ لهُ . . صبرَ ؛ فحرمانُ ما ليسَ بحقٍّ لهُ عَدْلٌ ، والعدلُ حقٌّ وإنْ كانَ مُرّاً ، ثم رضيَ ؛ فالحقُّ مرضيٌّ ، ثم تنبَّهَ إذا رضيَ لسائرِ الحسنىٰ إليهِ فشكرَ ، وفيهِ تمامُ العبادةِ بعدَ تمامِ العبوديَّةِ بما صبرَ[5] .

= الخوف من عذاب الله ، والطمع في رحمته سبحانه ؛ قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٤/ ٢٠٧) : (يخافون عذابه ، ويرجون رحمته) .

(١) العُرْفُ : المعروف ، وفي هامش (هـ) : (العرفُ : الإحسان) .

(٢) قال الجليل سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢١] .

(٣) انظر « حاشية ابن عابدين » (٦/ ٣٩٧) .

وحقوق الإسلام ثبوتها بين الناس بجعل الله ، كما في حقِّ الله تعالى . انتهىٰ من هامش (و) ، فهي جعلية ، وحقُّ العباد على الله تعالى الواردُ في الحديث هو من باب المشاكلة ، أو إنه حقٌّ شرعي يرجع إلىٰ صدق الوعد .

(٤) بنحو قوله سبحانه : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

(٥) لمَّا صيَّرَ العبدُ فواتَ مقصودِهِ واحداً . . فتح الله قلبه ونبَّهَهُ حتىٰ يرىٰ سائر الحسنىٰ إليه ؛ أي : نعمِهِ وصنائعِهِ عنده ، فيشكرَ ، وفي الشكر تمام العبادة ، كما أن في الصبر تمامَ العبودية ، ويقرأ هـٰذا البيت : [من الطويل]

فإنْ يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحداً فـأفعـالُـهُ الـلاتـي سَـرَرْنَ ألـوفُ =

[منزلُ الجهادِ بسببِ العداوةِ لأعداءِ اللهِ تعالىٰ]

ومتىٰ وُقِيَ العبدُ هـٰذهِ الخَصْلةَ في منزلِ المحافظةِ . انتقلَ إلىٰ منزلِ الجهادِ بسببِ العداوةِ أعداءَ اللهِ ؛ نصرةً لحزبِ اللهِ ، والنفسُ تدعوهُ إلى المصالحةِ ؛ ترخُّصاً بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦][1] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ١٠٥][2] ، ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ [الشورىٰ : ١٥] ، ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ [القصص : ٥٥] ، ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ

= انتهىٰ من هامش (و) ، والبيت للمتنبي كما في « ديوانه » (ص٢٥٥) .

(١) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ٣٧١) : (قيل : هـٰذا قبل أن يؤمر صلى الله عليه وسلم بالقتال) .

(٢) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٢/ ٢١٤) : (أي : لا يؤاخذكم الله بذنوب غيركم ، وليس يوجب لفظُ هـٰذه الآية تركَ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر ، واعلم : أنه لا يضرُّ المؤمنَ كفرُ الكافر ، فإذا ترك المؤمن الأمر بالمعروف وهو مستطيع ذلك فهو ضالٌّ ، وليس بمهتدٍ) .

نعم ؛ قد سأل سيدنا أبو ثعلبة الخشنيُّ رضي الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن معنىٰ هـٰذه الآية الكريمة ، روىٰ ذلك أبو داود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) ، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام : « بل ايتمروا بالمعروف ، وتناهَوا عن المنكر ، حتىٰ إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبَعاً ، ودنيا مؤثَرة ، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه . . فعليك بنفسك ، ودعْ عنك العوامَّ ؛ فإن من ورائكم أيامَ الصبرِ ، الصبرُ فيه ـ يعني : وقت الصبر ـ مثلُ قبضٍ على الجمر ، للعامل فيهم مثلُ أجر خمسين رجلاً يعملون مثلَ عمله » ، وفي زيادة : قال : يا رسول الله ؛ أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » ، وبه تعلم : أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابطَ تبسط في كتب الفقه ، وعمل الخوارجُ والمعتزلة بظاهر هـٰذا الحديث ، حتىٰ جعلت المعتزلة الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر من أصولها الخمسة المشهورة .

رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ . . . ﴾ الآيةَ [الممتحنة : ٨] .

والأصلُ المحكمُ : العداوةُ والمنابذةُ ؛ ففي المسالمةِ ترحُّمٌ ، والكافرُ ملعونٌ عنِ الرحمةِ مطرودٌ إلا رخصةً ؛ علىٰ طريقِ الإمهالِ ؛ لحكمةِ أنْ يتوبَ أو ينزجرَ ، أو علىٰ طريقِ الاستدراجِ ؛ ليستحقَّ العذابَ الأكبرَ[1] ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ . . . ﴾ الآيةَ [التوبة : ١١٤][2] .

لٰكنْ قصدُهُ في الدعوةِ للرئاسةِ حملَهُ على المسالمةِ ؛ ليتحقَّقَ طمعُهُ فيهم رئاسةً ، ثم على المواصلةِ ، ثم المداهنةِ ، ثم النفاقِ برابعِ منازلِهِ ، وإنَّهُ لشرُّ كفرٍ[3] .

وقصدُهُ في الدعوةِ للهدايةِ يحملُهُ على المعاداةِ ، فما لهُ فيهم مِنْ حظٍّ لنفسِهِ فيصالحَهم بسببِهِ ، ثم على القطيعةِ ، ثم على المنابذةِ ، ثم على المقاتلةِ ، وإنَّهُ لأتمُّ إسلامٍ لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا عوضَ للروحِ .

[منزلُ الخلافةِ بالتوليةِ]

ومتىٰ وُقِيَ العبدُ هٰذهِ الشبكةَ في منزلِ الجهادِ[4] . . انتقلَ إلىٰ منزلِ الخلافةِ

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] .

(٢) كان أبوه المذكور قد وعده أن يسلم إن استغفر له ، فلما تبيَّن له إقامتُهُ على الكفر تبرَّأ منه . انظر « معاني القرآن » للزجاج (٢/ ٤٧٣) ، وفي هامش (و) : (وهٰذه مسالمة ، فالأصل : المقابلةُ ، ولٰكن هٰذا بناءً علىٰ ما وعد له) .

(٣) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٥] .

(٤) الشبكة هنا : المصالحة . انتهىٰ من هامش (و) .

بالتوليةِ[1] ، والنفسُ تدعوهُ إلى الإمارةِ بالتولّي[2] ؛ تقولُ : إنَّكَ أولى الناسِ بهٰذا الأمرِ ، وقد تعيَّنْتَ لذلكَ ؛ فإنْ تركتَهُ فسدَ أمرُ الدينِ ، فاطلبْهُ وتولَّهُ ؛ فقد أمرَ اللهُ تعالىٰ بذلكَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : ٩٤][3] ، ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

ومَنْ طلبَ وتولّىٰ برغبةِ نفسِهِ وُكِلَ إليهِ[4] ، ومَنْ وُكِلَ إليهِ عَجَزَ ، فما بواحدٍ قوَّةٌ أنْ يسوسَ الكلَّ إلا بعونِ مالكِ الكلِّ ، ومَنْ عَجَزَ ضيَّعَ ، وفيهِ انعزالٌ في حقِّ الدنيا قبلَ أنْ يصيرَ إلى المولىٰ ، ومَنْ وُلِّيَ أُعينَ ، ومَنْ أُعينَ نُصِرَ ، ومَنْ نُصِرَ استولىٰ ، وفيهِ الاستقامةُ لقناةِ الإمامةِ[5] .

[حالُ العبدِ الموفَّقِ في خُلْطتِهِ معَ الناسِ]

فإذا استولى العبدُ الموفَّقُ علىٰ هٰذهِ المنزلةِ[6] ، وجسَّ نَبْضَها برويَّةٍ مِنْ

---

(١) أي : بأن يعطيه الله الولاية من غير سؤال ، وهٰذا محمود ، وفي الحديث : « لا تسأل الإمارة ؛ فإنك إن أُعطيتَها أُعنت عليها ، وإن سألتها وُكلت إليها » . انتهىٰ من هامش (و) ، وسيأتي تخريج الحديث قريباً تعليقاً .

(٢) يعني : بطلب الولاية من قبل نفسه ؛ لما يرىٰ أنه المتعيِّنُ لها .

(٣) قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٣/ ١٨٦) : (أي : أبنْ ما تؤمر به وأظهره ، وأُخِذَ ذلك من الصديع ؛ وهو الصبح ، قال الشاعر : [من الوافر]

. . . . كـأنَّ بيـاضَ غُـرَّتِـهِ الصـديـعُ

وتأويل الصدع في الزجاج أو في الحائط : أن يبين بعض الشيء عن بعض) .

(٤) تقدم مراراً تذكير لفظ (النفس) للمصنف .

(٥) روى البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) من حديث سيدنا عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه مرفوعاً : « يا عبد الرحمٰن بن سمرة ؛ لا تسأل الإمارة ؛ فإنك إن أُوتيتَها عن مسألة وُكلْتَ إليها ، وإن أُوتيتَها من غير مسألة أُعنتَ عليها » .
وفي هامش (و) : (وهو الخليفة بتولية الله) .

(٦) وهي منزلة الخلافة التي الحديث فيها .

قلبِهِ . . وجدَ حظَّهُ في القُرْبِ مِنْ ربِّهِ سبحانَهُ عنهُ غائباً[1] ؛ فقد صارَ سرُّهُ لمصالحِ غيرِ اللهِ تعالىٰ مفروغاً ، وإنْ كانَ بأمرٍ مِنْ ربِّهِ سبحانَهُ ، وكانَتْ لهُ صفوةٌ قبلَهم عَدِمَها معَهم . . ضاقَ بالناسِ صدراً[2] ، واشتاقَ ذلكَ القُرْبَ سِرّاً ، وما عاشرَهم إلا بالأمرِ صبراً .

علىٰ مثالِ الزارعِ إذا أدركَ زرعُهُ[3] ، وانتهىٰ ريعُهُ . . وجدَ ما يحتاجُ إليهِ مِنَ الحَبِّ غائباً عنهُ بالتِّبْنِ[4] ، بعدَما كانَ لهُ خالصاً وإنْ قلَّ قبلَ الزرعِ ، فنظرَ فيهِ فوجدَ ذلكَ البُعْدَ مِنْ عملِ الأرضِ ، فأقبلَ على التبعيدِ بينَ الزرعِ والأرضِ بالحصادِ ، ثم على التفريقِ بينَ الحَبِّ والتِّبْنِ بالدياسةِ ، ثم على التمييزِ بينَهما بالتذريةِ ، حتىٰ خَلَصَ الحَبُّ لهُ فصَلَحَ للإحرازِ .

فكذلكَ العبدُ الداعي ؛ ينظرُ في حالِهِ فيجدُ غَيْبَةَ حظِّهِ في قُرْبِهِ مِنْ ربِّهِ بسببِ ميلٍ إلىٰ أولـٰئكَ المهتدينَ حلَّ بقلبِهِ ، فبقَدْرِ الميلِ إلىٰ مَنْ دونَ اللهِ يُحجبُ السرُّ عنِ اللهِ ، فيقبلُ علىٰ حصادِ ميلِ القلبِ إليهم بالفرارِ إلى اللهِ تعالىٰ عنِ الناسِ وعنِ الدنيا قلباً ، علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وعلىٰ ما قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لو كنتُ متَّخذاً

---

(١) إذ لقاءُ الناس والاشتغالُ بهم مشغلةٌ عن الله تعالىٰ ، ولـٰكنه هنا لما كان بأمره سبحانه كان صبره عليهم ـ وهو يعلمُ أن مالكه ومالكهم أمره بهـٰذه المشغلة ـ سلواناً عن حظٍّ قربه منه تعالىٰ ، إلىٰ أن يرقىٰ إلىٰ رتبة الجمع .

(٢) في (ب ، د ، ز) : (وضاق) بدل (ضاق) ، وعليه تكون (وإن) وصلية ، لا شرطية .

(٣) أدركَ الزرعُ ؛ إذا بلغ وقتُ حصاده ، أو جني ثماره .

(٤) أراد : الحبَّ قبل بذره كان بين يدي الزارع دون تبنٍ ، فلما بذره وأدرك وجده غائباً عنه محاطاً بالتبن .

خليلاً لَاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً »[١] .

[منزلُ الفرارِ]

والنفسُ تأمرُهُ بالفرارِ عنهم جسماً ؛ مترخِّصاً بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم : ٤٨] ، وإنَّهُ لرخصةٌ ، فالفرارُ عنِ الناسِ بالجسمِ تركٌ لهم على الضلالةِ ، وتقريرٌ علىٰ صراطِ الجهالةِ ، وإنَّهُ لحرامٌ ، إلا رخصةً عندَ اليأسِ ، أو ضرورةً لدىٰ شدَّةِ البأسِ .

والأصلُ المحكمُ : هوَ الفرارُ إلى اللهِ تعالىٰ بقلبِهِ ، ومعاشرةُ الناسِ بجسمِهِ[٢] ؛ ليهتديَ الناسُ بهِ ظاهراً ، ويخلصَ لربِّهِ بنصيبِ ربِّهِ باطناً[٣] .

ومَنْ فرَّ جسماً بغيرِ أمرٍ مِنَ اللهِ ضُيِّقَ عليهِ ، ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ وقد فرَّ يطلبُ سَعَةً ندمَ ، ومَنْ ندمَ وهو محبوسٌ لم تنفعْهُ الندامةُ[٤] ، وما بعدَ ذلكَ إلا

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وروىٰ مسلم (٥٣٢) من حديث سيدنا جندب بن جنادة رضي الله عنه مرفوعاً : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ؛ فإن الله تعالىٰ قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . . . » الحديث .
وفي هامش (و) : (وهـٰذا لأن مقام الأنبياء على الارتقاء والاعتلاء ، فإن انتقص حظُّ غيرهم في القرب من الربِّ حالةَ الاختلاط . . فلا ينقص حظُّهم) .

(٢) وفي « لطائف المنن والأخلاق » المعروف بـ « المنن الكبرىٰ » (١/ ٤٧١) : (وكان سيدي معروف الكرخي رضي الله تعالىٰ عنه يقول : لي ثلاثون سنة في حضرة الله تعالىٰ ما خرجت ، فأنا أكلِّمُ الله دائماً ، والناس يظنون أني أكلمهم) .

(٣) الباطن : هو القلب ، ونصيب الباطن : هو الله . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَـٰهُ =

القنوطُ ، إلا مَنْ تداركَهُ اللهُ تعالىٰ برحمتِهِ ، والعياذُ باللهِ تعالىٰ[1] .

ومَنْ فرَّ إلى اللهِ تعالىٰ بقلبِهِ ، وصبرَ لهم بجسمِهِ . . شُرِحَ صدرُهُ ، ومَنِ انشرحَ صدرُهُ أَنِسَ قلبُهُ ، ومَنْ أَنِسَ قلبُهُ شكرَ وفازَ ، واللهُ المسؤولُ .

ومتىٰ وُقِيَ العبدُ هٰذهِ الحيلةَ في منزلِ الفِرارِ . . اشتغلَ بعدَ السكونِ بالرياضةِ ؛ يروضُ قلبَهُ عنِ الفكرةِ في غيرِ اللهِ ، والحبِّ لغيرِ اللهِ ، والرضا بغيرِ اللهِ ، والخوفِ مِنْ غيرِ اللهِ ، ونحوِها .

[منزلُ الرياضةِ]

والنفسُ تأمرُهُ برياضةِ الجسمِ سياحةً وتخويفاً ، وتبتُّلاً وإفْقاراً ، ونحوَها[2] ، وإنَّها رخصةٌ ، فما بجائزٍ في الأصلِ النفرةُ عن قومِهِ إلا لجهادٍ أو تفقُّهٍ[3] ، ولا بجائزٍ تعذيبُ جسمِهِ بمنعِ ما أباحَ اللهُ تعالىٰ لهُ ، أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ تعالىٰ ؛ فقد صامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأفطرَ ، وقامَ

= بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٩ـ١٤٧] .

(١) يعني : من القنوط .

(٢) ما أشار إليه النفس ؛ وهو الفرار عن الناس بالجسم لا بالقلب . . امتثالٌ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ [مريم : ٤٨] ، وقوله : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١] ، وقال : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

بالليلِ ونامَ ، وتزوَّجَ[1] ، وأكلَ الطيِّبَ[2] ، ولبسَ الجديدَ[3] ، وركبَ الفارهَ[4] ، وكانَ أتقى العالمينَ ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ آلِهِ أجمعينَ ، فكانَ الأصلَ المحكمَ طريقُهُ ، ثم طريقُ الخلفاءِ الراشدينَ ، وطريقُ ورثتِهِ مِنَ الفقهاءِ المتَّقينَ مِنَ السلفِ الصالحينَ ، وما للعبدِ أنْ يتعدَّاهُ إلا مترخِّصاً بعُذْرٍ .

فإذا تعدَّىٰ بغيرِ عذرٍ أُعجبَ بحالِهِ ، وإذا أُعجبَ وُلِّيَ ما تولَّىٰ ، وصُلِيَ النارَ وساءَتْ مصيراً ، وإذا راضَ قلبَهُ ، وتنعَّمَ بما أحلَّ اللهُ تعالىٰ لهُ مقتدياً

---

(1) روى البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلىٰ بيوت أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟! قد غُفرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخرُ : أنا أصوم ولا أفطر ، وقال آخرُ : أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبداً ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟! أَمَا واللهِ ؛ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لـٰكني أصوم وأفطر ، وأصلِّي وأرقد ، وأتزوَّج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » ، والثلاثة : هم سيدنا علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم .

(2) روى البخاري (٥٤٠٤) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : (تعرَّق رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتِفاً ، ثم قام فصلَّىٰ ولم يتوضأ) .

(3) روىٰ أبو داود (٤٠٢٠) ، والترمذي (١٧٦٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجدَّ ثوباً سمَّاه باسمه ؛ إما قميصاً ، أو عمامة ، ثم يقول : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

(4) الفاره : الواسع الحادُّ النشيط ، وروى البخاري (٢٦٢٧) ، ومسلم (٢٣٠٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان فزعٌ بالمدينة ، فاستعار النبيُّ صلى الله عليه وسلم فرساً من أبي طلحة يقال له : المندوبُ ، فركب ، فلما رجع قال : « ما رأينا من شيءٍ ، وإن وجدناه لبحراً » ؛ أي : واسعَ الخطا والجري .

برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أعجبَتْهُ عنايةُ ربِّهِ سبحانَهُ ورحمتُهُ ، ففوَّضَ إليهِ ، فتولَّى اللهُ تعالىٰ أمورَهُ ، فدخلَ الجنَّةَ وطابَتْ مصيراً .

[منزلُ الإغارةِ]

ومتىٰ وُقِيَ العبدُ هـٰذا الشرَّ في منزلِ الرياضةِ بعدَ العصمةِ ، ومعاينةِ أسبابِ الرحمةِ . . صارَ إلىٰ منزلِ الإغارةِ[1] ، علىٰ ما أوجبَ شَوْباً في الصفوةِ بمَيْلَةٍ وإنْ قلَّتْ إلىٰ مَنْ دونَ اللهِ ، أو خطرةٍ في مالٍ أو وطنٍ أو أهلٍ أو ولدٍ ، إغارةَ القديرِ علىٰ عدوٍّ أسيرٍ ، لـٰكنْ بالقلبِ رغبةٌ ؛ ليصفوَ القلبُ للهِ ، فهو نصيبُ اللهِ ، ويقضيَ حقَّ الأهلِ والولدِ والناسِ بالجسمِ ، فما هو بنصيبِ اللهِ ، فيكونَ معَهم بجسمِهِ ، ومعَ اللهِ بقلبِهِ ، والمالُ معَهُ يداً ، ولغيرِهِ عقداً .

والنفسُ تأمرُهُ بالإغارةِ الظاهرةِ ؛ تفريقاً وتبذيراً ، وإنَّهُ لرخصةٌ ، فلأهلِكَ عليكَ حقٌّ ، وكذلكَ لولدِكَ وللناسِ ؛ فإنَّهم عبيدُ اللهِ ، وقد نُهيتَ عن تضييعِ المالِ ، فلا يجوزُ الإعراضُ عنِ المالِ وعنِ الناسِ أصلاً ، يداً ولا جسماً ، إلا عن عذرٍ ، أو بحقِّ أمرٍ ، وإنَّما طلبَ اللهُ تعالىٰ منكَ قلبَكَ[2] .

وكذلكَ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ ؛ عاشروا واستولَدوا وتملَّكوا ، وأكلوا وأمسكوا ، فذلكَ الطريقُ هوَ الأصلُ المحكمُ .

---

(١) أي : صار العبد إلىٰ منزل إغارة قلبه بإغارة النفس ، حتىٰ صبَّرَ قلبَهُ عن الالتفاتة إلى الغير نظرة أو فكرة أو خطرة ، والقلب أيضاً يصبِّر ذاته في منزل الإغارة عن الالتفاتة إلى الغير لتعظيم أمر الله ؛ إذ فيه نصيبُ الله ، ويبقى التفاته بالجسم للشفقة علىٰ خلق الله ؛ لأن في الظاهر نصيبَ الغير . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] . انتهىٰ من هامش (و) ، وقال سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء : ٨٩] .

فإذا فعلَ ذلكَ برأيِ نفسِهِ تفرَّدَ[1] ، وإذا تفرَّدَ وسوسَ إليهِ ، وإذا وسوسَ إليهِ غَفَلَ عن ربِّهِ سبحانَهُ ، وإذا غَفَلَ أحاطَ بهِ الخِذلانُ ، واستحوذَ عليهِ الشيطانُ ، وعندَهُ أنَّهُ تفرَّدَ للرحمـٰنِ .

وإذا فعلَ بأمرِ اللهِ تعالىٰ أحبَّهُ الناسُ ، فمَنْ أحبَّ اللهَ بقلبِهِ ألقى اللهُ تعالىٰ محبَّةً عليهِ منهُ[2] ، فيحبُّهُ الناسُ بذلكَ ، وإذا أحبُّوهُ اتَّبعوهُ ، وإذا اتَّبعوهُ في اللهِ تعالىٰ أعانَهُ اللهُ تعالىٰ بالإلهامِ عليهم ، وإذا أُلهمَ غَفَلَ عنِ الكلِّ قلباً ؛ كالأنبياءِ عليهمُ السلامُ وقتَ نزولِ الوحْيِ عليهم[3] ، فصفا للرحمـٰنِ ، وأيسَ منهُ الشيطانُ ، وعندَ الناسِ أنَّهُ لأهلِ الزمانِ[4] .

[منزلُ الأسرِ]

ومتىٰ وُقِيَ العبدُ هـٰذهِ الوسوسةَ انتقلَ إلىٰ منزلِ الأسرِ ؛ أسرِ القلبِ للهِ تعالىٰ

---

(١) يعني : فعل ذلك لا عن أمر الله سبحانه وتعالىٰ .

(٢) قال سبحانه في حقِّ سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه : ٣٩] ، وروى البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال : إني أحبُّ فلاناً فأحبَّهُ ، قال : فيحبُّهُ جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحبُّ فلاناً فأحبوه ، فيحبُّهُ أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض » .

(٣) إلا أن إلهام هـٰذا الداعي هو إلهام عناية وتسديد ، وإلهامَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلهام وحي وتشريع مع العناية والتأييد ، وإلىٰ هـٰذه الرتبة الإشارةُ فيما رواه البخاري (٣٤٦٩ ، ٣٦٨٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون ، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر » ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٦/ ١٠٣) : (وليس قوله : « فإن يكن » للترديد ، بل للتأكيد ؛ كقولك : إن يكن لي صديق ففلانٌ ؛ إذ المراد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفيُ الأصدقاء) .

(٤) وهو الإيمان الظاهر تعريفاً وتقديراً . انتهىٰ من هامش (و) .

بقيودِ صياغتُها الإحسانُ ، وحَلَقاتُها المحبَّةُ ، يخافُ الإطلاقَ عنها ، ويتمنَّى الوِثاقَ بها .

والنفسُ تأمرُهُ بأسرِ الجسمِ عنِ النظرِ إلى الدنيا ، والتمتُّعِ بها ، وإنَّهُ لرخصةٌ ، فما خلقَ اللهُ الدارينِ إلا لنا ، وإنَّما تعبَّدَنا بتركِ الحرامِ إلى الحلالِ ، فما بجائزٍ تحريمُ الحلالِ تمتُّعاً ، إلا ترخُّصاً ؛ بجَعْلِ التحريمِ سبباً للفراغِ للهِ تعالىٰ .

فإذا أسرَ الجسمَ بأمرِ النفسِ حبساً عمَّا خُلِقَ لهُ . . اشتاقَهُ ، ثم قلقَ فيهِ ، فحلَّ القيدَ وانسلخَ منهُ ، فأتبعَهُ الشيطانُ فكانَ مِنَ الغاوينَ[1] .

وإذا أسرَ القلبَ للهِ تعالىٰ ، وأطلقَ الجسمَ لما أُبيحَ لهُ . . شبعَ ، ثم ملَّ ، ثم أعرضَ ، ثم عادَ إلى القلبِ بحكمِ التبعيَّةِ الأصليَّةِ[2] ، فوالاهما اللهُ تعالىٰ ، فكانا مِنَ المقرَّبينَ .

وأمَّا العباداتُ الأربعُ في هٰذهِ المنازلِ : فتقعُ علىٰ حسَبِ الغرضِ في كلِّ منزلٍ .

[العباداتُ في منزلِ المحافظةِ]

أمَّا منزلُ المحافظةِ بسببِ الرجاءِ ، والرجاءُ اتَّصلَ بقلبِهِ عن كرمِ ربِّهِ : فيتصدَّقُ ترجيةً للقلبِ زوالَ محبَّةِ المالِ بحُكْمِ أنَّهُ حِمْلٌ زائدٌ ، ثم يصومُ ترجيةً

---

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

(٢) أي : أعرض عن الأكل والملالة ؛ لأن القلب وزير ، والجسم رعيَّةٌ . انتهىٰ من هامش (و) .

للقلبِ زوالَ محبَّةِ النفسِ بمخالفتِهِ إيَّاها بمنعِها شهواتِها بحُكْمِ أنَّها عدوُّهُ ، ثم يحجُّ ترجيةً للقلبِ زوالَ محبَّةِ الأهلِ والوطنِ بالهجرةِ والفرارِ عنها بحُكْمِ أنَّها فتنةٌ ، ثم يصلِّي ترجيةً للقلبِ وصولاً إلى اللهِ تعالىٰ بالإقبالِ عليهِ بحُكْمِ أنَّهُ الأمدُ الأقصىٰ ، بما ينالُهُ العبدُ في الدنيا مِنَ المراتبِ العليا .

[العباداتُ في منزلِ الجهادِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الجهادِ تجرُّداً للأعداءِ عن محافظةِ المالِ ، ثم يصومُ تجرُّداً للأعداءِ عنِ اقتضاءِ الشهواتِ ، ثم يحجُّ تجرُّداً للأعداءِ عنِ الأهلِ والوطنِ ، ثم يصلِّي تجرُّداً بكلِّهِ للمولىٰ .

[العباداتُ في منزلِ الخلافةِ]

ويتصدَّقُ في منزلِ الخلافةِ إقامةً لكفايةِ الولايةِ عن عبيدِ اللهِ وخلقِهِ[1] ، ثم يصومُ اكتفاءً بالبُلْغةِ في حقِّهِ ، ثم يحجُّ اكتفاءً ببيتِ اللهِ عن وطنِهِ[2] ، ثم يصلِّي اكتفاءً بالمولىٰ عنِ الورىٰ والدنيا .

[العباداتُ في منزلِ الفرارِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الفرارِ فراراً عنِ الحبائلِ ، ثم يصومُ فراراً عنِ الدواعي ، ثم يحجُّ فراراً عنِ الموانعِ[3] ، ثم يصلِّي اعتصاماً بالمولىٰ .

---

(١) أي : يتصدق بماله لينفرد بنفسه لكفاية حقوق المؤمنين وهو غير مشغول بماله . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) وقد سبق أنه لا بدَّ للحج من الشجاعة ورباطة الجأش والصبر ؛ لأنه لا بدَّ من السفر في المهالك ، فلا بدَّ فيها من الشجاعة وثبات العزيمة ، وكثيراً ما تقع المقاتلة . مفادٌ من هامش (و) .

(٣) هي : الوطن ، والأهل ، والولد ، وسائر الأقارب . انتهىٰ من هامش (د ، هـ ، و) .

[العباداتُ في منزلِ الرياضةِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الرياضةِ استحلاءً بحالِ النجاةِ ، ثم يصومُ تحصيناً للنجاةِ ، ثم يحجُّ شوقاً إلىٰ موضعِ النجاةِ ، ثم يصلِّي طرباً في ثمرةِ النجاةِ مثنياً علىٰ ربِّهِ .

[العباداتُ في منزلِ الإغارةِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الإغارةِ متشفِّياً ، ثم يصومُ متنعِّماً ، ثم يحجُّ متبرِّزاً ، ثم يصلِّي مرحِّباً بلقاءِ الملكِ وقربِهِ سبحانَهُ ، فيقرُّ لديهِ .

[العباداتُ في منزلِ الأسرِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الأسرِ قاضياً بهِ شهوتَهُ مِنْ مكارمِ الأخلاقِ ، ثم يصومُ قاضياً شهوتَهُ مِنْ حسنِ الأدبِ ، ثم يحجُّ قاضياً شهوتَهُ مِنْ ثَبْتِ العزيمةِ ، ثم يصلِّي قاضياً شهوتَهُ مِنْ قربِ المنزلةِ بالنجوىٰ بعدَ اللُّقيا .

فهـٰذا في أوَّلِ منازلِهِ رغبَ في طاعةِ المولىٰ بسببِ الخوفِ ، فأمالَ بالرجاءِ جسمَهُ إليهِ ، ثم تجرَّدَ لهُ ، فاكتفىٰ بهِ في رابعِ مراتبِهِ .

ثم شعرَ بفسادِ شأنِهِ مِنْ جهةِ الناسِ والدنيا ، فاعتصمَ باللهِ تعالىٰ بعدَ الفرارِ عنِ الكلِّ بصلاتِهِ(١) ، فأثنىٰ عليهِ(٢) ، ثم قرَّ لديهِ(٣) ، فقضى الروحُ عندَها

---

(١) هـٰذا غرض عبادة الصلاة في منزل الفرار . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) هـٰذا غرض عبادة الصلاة في منزل الرياضة . مفادٌ من هامش (و) .

(٣) هـٰذا غرض عبادة الصلاة في منزل الإغارة . مفادٌ من هامش (و) .

شهوتَهُ[1] ، وبلغَ همَّتَهُ[2] ، وهي رابعُ مراتبِهِ .

ثم تأمَّلَ في حالِهِ وقد صفَتْ حالُهُ عنِ الناسِ والدنيا للهِ تعالىٰ ، فشعرَ بنفسِهِ الأمَّارةِ بالسوءِ المعاديةِ على الحقيقةِ ، وهي ظاهرةٌ لبصرِ القلبِ ، محيطةٌ بالجسمِ ، وشعرَ بنصيبِ اللهِ منهُ ، وهو باطنٌ لا يرضىٰ بهِ الربُّ إلا بعدَ التمييزِ بينَهما[3] ، وكانَ علمُهُ بالنفسِ مِنْ قبلِ أنْ علمَ . . سماعاً ، وإنِ اعتقدَهُ تقليداً ، فكانَ علىٰ غفلةٍ منهُ على الحقيقةِ ، مشتغلاً باستخلاصِ نصيبِ اللهِ عنِ الناسِ والدنيا في تلكَ الطريقةِ[4] .

والنفسُ متمكِّنةٌ مِنْ حِيَلِها ، وإنْ سُلِبَتْ كلَّ قدرِها ، وقد ألهمَتْهُ الإمارةَ في منزلِ الخلافةِ ، فالاسمانِ متقاربانِ ، وقد جاءَتْ بهما الشريعةُ[5] ، فإذا قد بدرَ منهُ عملُ الأمراءِ مِنْ حيثُ لم يشعرْ ؛ ممَّا استصوبَهُ برأيِهِ واستصلحَهُ لحالِهِ ، فالأميرُ يفعلُ ما يريدُ والخليفةُ يفعلُ ما يُؤمرُ ، وقد ألهمَتْهُ العُجْبَ في منزلِ الأسرِ بحُسْنِ الظفرِ .

وإذا قد خطرَ ببالِهِ حُسْنُ أعمالِهِ ، فالأميرُ فاعلٌ بقدرتِهِ ، وجناهُ العُجْبُ ، والخليفةُ فاعلٌ بقدرةِ موليِّهِ ونصرتِهِ ، وجناهُ الشكرُ .

وإنَّهُ علىٰ مثالِ الزارعِ إذا أحرزَ بذرَهُ بعدَ التذريةِ والتمييزِ عنِ التِّبْنِ ، ووقفَ

---

(١) هـٰذا غرض عبادة الصلاة في منزل الأسر . مفادٌ من هامش (و) .

(٢) في هامش (ج ، د ، هـ) : (نسخة : نهمته) .

(٣) أي : بين نصيب الله وهو القلب ، وبين الجسم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : في المنازل الثمانية . انتهىٰ من هامش (و) .

(٥) أي : الخلافة والإمارة متقاربان ، وقد جاءت بهما الشريعة ؛ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [صٓ : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] . انتهىٰ من هامش (و) .

على الحَبِّ ؛ فإذا بقشرِ الحَبِّ ـ وهوَ القشرُ الذي لا يصلحُ لهُ ـ محيطٌ بهِ ، وكانَ مِنْ قَبْلُ غافلاً عنهُ ؛ لاختلاطِهِ بالتِّبْنِ ، وشُغْلِ قلبِهِ للتمييزِ بينَهما بجَهْدٍ ولينٍ .

فيخافُ العبدُ في منزلِ القربِ مِنَ اللهِ جلَّ جلالُهُ ، والنفسُ محيطٌ بهِ ، ونصيبُ النفسِ محيطٌ بهِ ، وقد علمَ أنَّهُ غيرُ صالحٍ للمولىٰ ، إلا بعدَ الإخلاصِ عن نصيبِ النفسِ والهوىٰ ، كما أخلصَ عن نصيبِ الدنيا والورىٰ .

فيخافُ حالَهُ ، ويقصدُ الفرارَ[1] ، فلا يجدُ عنِ اللهِ مفرّاً ، فيسكنُ ولا يجدُ معَ النفسِ لدى اللهِ مقرّاً ، فتعميهِ الحيرةُ عنِ الملكوتِ الظاهرِ لعينِهِ .

فيُجلِّي اللهُ برحمتِهِ الملكوتَ الباطنَ لسرِّهِ ؛ حتىٰ يرىٰ عِياناً بعدَما كانَ علمَ إيقاناً ، فيجدُ ذاتَهُ في المحشرِ ، معروضاً على اللهِ الأكبرِ ، وهو علىٰ حالِهِ ، والنفسُ محيطٌ بقلبِهِ ، ونصيبُ النفسِ محيطٌ بعملِهِ ، فيذوبُ حياءً مِنْ ربِّهِ بسببِ نفسِهِ ، ويسكرُ خشيةً ، حتىٰ يصيرَ بضغطةِ السَّكْرةِ علىٰ مثالِ الطحينِ ، فيتداركُهُ اللهُ تعالىٰ بالسَّتْرِ عليهِ ؛ بإعمائِهِ عمَّا أبصرَ مِنْ عيبِهِ ، ونسيانِهِ لما تذكَّرَ مِنْ خطئِهِ ، فيصحو وقد قَرُبَ سرُّهُ مِنَ النارِ ، حتىٰ كأنَّ اللهبَ يمسُّهُ ، وكأنَّ القلبَ يحسُّهُ[2] .

(١) أي : الفرار لا لنفس الفرار عن الله تعالىٰ ، بل لئلا يكون اتباع نصيب النفس والهوىٰ في مقام القرب . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) في السياق إشارة لما روى البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الله يدني المؤمن ، فيضعُ عليه كنفَهُ ، ويسترُهُ ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي ربِّ ، حتىٰ إذا قرَّرَهُ بذنوبه ، ورأىٰ نفسه أنه هلك . . قال : سترتُها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيُعطىٰ كتابَ حسناته . . . » الحديث .

وإذا نفسُهُ التي لا ينجو معَها مِنَ النارِ ممتزجةٌ بهِ مجاورةٌ ، وإنْ طُحنَتْ بضغطةِ السُّكْرِ ، بعدَما كانَتْ محيطةً بهِ في أوَّلِ الأمرِ ، فيهابُ اللهَ تعالىٰ دونَ النارِ هيبةَ مَنْ علمَ أنَّ النارَ لا تعملُ إلا بأمرِهِ ، فيتداركُهُ اللهُ تعالىٰ بالتوفيقِ للتقوىٰ عنِ النفسِ ونصيبِها ، حتىٰ يصفوَ بتقواهُ في حرِّ الشهابِ[1] ، كما يصفو المؤمنُ العاصي بعدَ الحسابِ بحقيقةِ العذابِ .

فإذا النارُ بردٌ وسلامٌ ، ومعبرٌ وأمانٌ ، فجازَها السرُّ ، وبدَتْ لهُ الجنَّةُ بنورِها ، وزخارفِها وحورِها ، فإذا الرغبةُ متمكِّنةٌ مِنْ قلبِهِ ، مكانَ الهيبةِ مِنْ ربِّهِ ، عالماً أنَّهُ لا ينالُها أحدٌ إلا بإذنِهِ ، فيرجو اللهَ تعالىٰ عندَ ذلكَ مِنْ فضلِهِ ، لا بعملِهِ .

وإذا بهِ بعدَ خُمارِ ذلكَ السُّكْرِ الذي كانَ بهِ مِنْ جهةِ النفسِ وإنْ فارقَتْهُ بالتقوىٰ[2] . . ما يصلحُ معَ الخُمارِ لجوارِ المولىٰ ودارِ النُّعْمىٰ ، فيقبِلُ على العلاجِ بماءِ الإخلاصِ حتىٰ تَبَرَّأَ عنهُ وتَقَوَّىٰ ، ويدخلُ السرُّ دارَ السلامِ ، بتحيَّةٍ وإكرامٍ ، فيشتاقُ لقاءَ اللهِ عندَ ذلكَ ، ويملُّ دونَهُ هنالكَ ، وبعدُ غيرُ صالحٍ للقاءِ ، فالغسلُ وإنْ تمَّ بماءِ الإخلاصِ فما نَشِفَتْ بعدُ رطوباتُ الغسلِ ، وما معَها كما في الشاهدِ للقاءِ بأهلٍ ، فيقيمُ محبوساً عنِ اللقاءِ ونارُ الشوقِ قد تنشِّفُ الرطوباتِ ، وتصلحُهُ إصلاحَ نارِ التنُّورِ خميرَ الخبَّازِ .

وإنَّهُ علىٰ مثالِ الزارعِ ؛ متىٰ أحرزَ الحَبَّ ووقفَ على القشرِ الذي لا يصلحُ

---

(١) أي : في أوقات يشتدُّ العمل فيها ؛ من الصوم في أيام القيظ ، والقيام ناشئةَ الليل . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) انظر ما تقدم (ص٣٤٢) في بيان الخُمار .

نصيباً لهُ محيطاً بما صلحَ لهُ . . أقبلَ عليهِ بالطحنِ ، ثم بالنَّخْلِ ، ثم بالعجنِ ، ثم بالخَبْزِ ، ثم لا يستعذبُهُ بغيرِ إدامٍ ، فأقبلَ علىٰ طبخِ اللحمِ بالماءِ والملحِ ، ثمَّ التجليةِ للعيونِ بالآلاتِ ، ثمَّ التطييبِ للمذاقِ بالأبازيرِ ، ثمَّ التقديمِ على المائدةِ .

فكذلكَ العبدُ بعدَما طابَ لم يصلحْ وهو عُرْيانٌ للقاءِ الجبَّارِ ، كما لا يصلحُ الخُبْزُ لصاحبِهِ وهو قَفارٌ[1] ، فيقعدُهُ الخجلُ ، ويردعُهُ عن طلبِ اللقاءِ الوَجَلُ ، ويعودُ إلىٰ منزلِ الصبرِ عنِ اللقاءِ لطلبِ الكُسْوةِ ، فيكسو نفسَهُ بالصبرِ لأحكامِهِ بتأييدٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وعونٍ مِنْ قِبَلِهِ .

ثم لا يصلحُ للقاءِ بغيرِ حِلْيَةٍ ، فيحلِّي نفسَهُ بالرضا بأقسامِهِ بتوفيقٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وإراءةٍ مِنْ قِبَلِهِ .

ثم لا يصلحُ للقاءِ بغيرِ طِيبٍ ، فيُطيِّبُ نفسَهُ بروائحِ الشكرِ للهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ بإكرامٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ ورحمةٍ مِنْ لدنْهُ .

[منزلُ اللقاءِ]

ثم جاءَ وقتُ لقاءِ السرِّ ربَّهُ ، ومنزلةِ إكرامِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ بالتجلِّي لسرِّهِ ؛ حتىٰ يراهُ سرُّهُ أينَما التفتَ كما كانَ يعرفُهُ مِنْ قبلُ إلـٰهَهُ أينَما كانَ ، وكما كانَ يقعُ التجلِّي بينَ صاحبِ الطعامِ والمائدةِ المقدَّمةِ إليهِ .

فهـٰذهِ نهايةُ منازلِ العارفينَ .

وعباداتُهُ الأربعُ في هـٰذهِ المنازلِ تقعُ علىٰ حسَبِ أحوالِهِ .

---

(١) خبزٌ قَفار ـ بوزان سَحاب ـ : غير مأدوم .

[العباداتُ في منزلِ السُّكْرِ]

فيتصدَّقُ في منزلِ السُّكْرِ استهانةً بالدنيا استهانةَ السكرانِ بمالِهِ ، ثم يصومُ عربدةً علىٰ نفسِهِ عربدةَ السكرانِ علىٰ خلافِ جنسِهِ ، أو مَنْ يُخِلُّ بأُنْسِهِ[1] ، ثم يحجُّ طرباً في الوفادةِ طربَ المطلَقِ عنِ الحبسِ للولايةِ ، ثم يصلِّي متعزِّزاً بمجلسٍ لدى المَلِكِ الكبيرِ ، تعزُّزَ المَلِكِ فينا بالسريرِ .

[العباداتُ في منزلِ الصحْوِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الصحوِ معتذراً ، ويصومُ مستغفراً ، ويحجُّ هارباً ، ويصلِّي دائباً .

[العباداتُ في منزلِ الخُمارِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الخُمارِ راجياً ، ثم يصومُ راغباً ، ثم يحجُّ طالباً ، ثم يصلِّي واصلاً .

[العباداتُ في منزلِ الشوقِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الشوقِ مسروراً ببيانِ آثارِ الخلوصِ ، ثم يصومُ قريراً ببيانِ آثارِ الظَّفَرِ ، ثمَّ يحجُّ مجيباً : (لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ) بحقِّ الدعاءِ إلىٰ دارِ المَلِكِ ، ثم يصلِّي مُعْلناً وشاكراً بالتحميدِ والتكبيرِ ، بل جعلَ الدارَ والتقريبَ للقاءِ .

ثم يعودُ إلىٰ منزلِ الصبرِ وقد ظهرَ لهُ الفَرْقُ بينَ الرياضاتِ ، والمحضِ مِنَ

---

(١) العربدة : سوء الخلق ، ورجل معربِد : يؤذي نديمه في سكره .

العباداتِ ؛ فقد جازَ السرُّ النارَ ورأى الجنَّةَ ، واشتاقَ لقاءَ الربِّ عزَّتْ قدرتُهُ ، وهانَ عليهِ ما دونَهُ ، وعرفَ عِياناً أنَّ ما دونَ اللهِ تعالىٰ واسطةٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

فالصدقةُ لا تكونُ إلا بفقيرٍ آخذٍ ، ومالٍ مسلَّمٍ ، فكانا واسطتينِ ، والصومُ لا يكونُ إلا بنفسٍ يُقصَدُ قهرُها بالصبرِ عنِ الشهواتِ ، ووقتٍ يُنتظرُ مجيئُهُ تعظيماً للوقتِ ، فكانَ عبادةً بواسطتينِ ، والحجُّ لا يكونُ إلا ببقعةٍ تُقصَدُ تعظيماً بزيارتِها ، ووقتٍ يُنتظرُ مجيئُهُ تعظيماً لهُ ، فكانَتْ عبادةً بواسطتينِ ، والصلاةُ عبادةٌ للهِ تعالىٰ بلا واسطةٍ ، فكانَتْ عبادةً محضةً ، لا تكونُ الصلاةُ صلاةً إلا بالإخلاصِ للهِ تعالىٰ تعظيماً ، وطلاقِ الكلِّ تحريماً .

[استقبالُ الكعبةِ شرطٌ وليس بواسطةٍ]

فقالا[1] : أليسَ استقبالُ الكعبةِ في الصلاةِ شرطاً ، والكعبةُ واسطةً ؟

فقالَ[2] : الشرطُ استقبالُ اللهِ تعالىٰ ؛ تحقيقاً لمعنى العبادةِ علىٰ مثالِ ما يوجدُ في الشاهدِ مِنْ عبادةِ الأصنامِ وملوكِ الأنامِ ، غيرَ أنَّ فعلَ العبادةِ لا يكونُ في الدنيا إلا علىٰ سبيلِ المحنةِ ، ولن يلحقَ العبدَ محنةٌ بالإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ؛ فما للهِ تعالىٰ جهةٌ فيُمتحنَ بطلبِها ، فأُبدلَ بجهةِ الكعبةِ تحقيقاً لمعنى المحنةِ ؛ لأنَّ الكعبةَ عينُها شرطٌ ، وقد حقَّقَ اللهُ تعالىٰ هـٰذا المعنىٰ بقولِهِ للذينَ اشتبهَتْ عليهِمُ القبلةُ فأخطؤوها : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، ولم يقلْ : فثَمَّ بيتُ اللهِ .

---

(١) القلب والقالب كما لا يخفىٰ .

(٢) الروح المحاجُّ لهما .

[وقتُ الصلاةِ في أصلِهِ ممدودٌ]

فقالا : وللصلواتِ أوقاتٌ مخصوصةٌ كما للصومِ والحجِّ ، والأوقاتُ واسطةٌ .

قالَ : وقتُ الصلاةِ في أصلِهِ ممدودٌ ، وإنَّما فُصِّلَ للوجوبِ ترفيهاً على الإنسانِ[١] ، ومُنِعَ في بعضِها عنِ الأداءِ ترغيماً للشيطانِ ؛ فقد تكرَّرَتِ الصلواتُ بتكرُّرِ تفاصيلِ اليومِ والليلةِ ليُعلمَ أنَّها غيرُ مخصوصةٍ بزمانٍ ، كما لم تُخَصَّ بمكانٍ ، فأقلُّ الحسابِ الذي يدورُ عليهِ العالمُ ظاهراً الأيامُ والليالي ، ثم فصولُها مِنْ غدوِّهِ وعشيِّهِ ، ووقتُ التعشِّي مِنَ الليلِ إلىٰ وقتِ النومِ ، فأمَّا بعدَ النومِ ففي حُكْمِ العدمِ في حقِّ النائمِ ، كما بعدَ الموتِ .

فعلمْنا أنَّ الصلاةَ هيَ العبادةُ المحضةُ ؛ فأداؤُها بلا واسطةٍ ، وسائرَ العباداتِ رياضاتٌ ، فما تأدَّتْ إلا بواسطةٍ ، وإنَّهُ علىٰ مثالِ سيرِ الدابَّةِ بأمرِ صاحبِها تحتَ الصاحبِ وتحتَ الرائضِ ، وكلا السَّيْرينِ بالأمرِ ، وأحدُهما للرياضةِ فكانَ بواسطةٍ ، والآخرُ للخدمةِ فكانَ بغيرِ واسطةٍ .

فيتصدَّقُ في هـٰذا المنزلِ صابراً علىٰ رؤيةِ الفقيرِ والمالِ في عبادتِهِ إسلاماً لأمرِهِ بحُكْمِ أنَّهُ عبدٌ ، وما للعبدِ شيءٌ ، ويصومُ ويحجُّ كذلكَ ، فإذا صلَّىٰ وارتفعَتِ الوسائطُ قرَّتْ عيناهُ .

---

(١) قوله : (فُصِّلَ) هو بالصاد والضاد معاً في (ب ، هـ) ، وفي عامة النسخ بالضاد المنقوطة .

[العباداتُ في منزلِ الرِّضا]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الرضا ، ويصومُ ويحجُّ راضياً بحُكْمِ الربِّ بحقِّ الألوهيَّةِ ، فما حُكْمُهُ إلا حقٌّ ، والحقُّ مرضيٌّ ، ثم يصلِّي وقد كَحَلَ للقاءِ ـ بعدَ القُرَّةِ بزوالِ الوسائطِ بكرامةٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ ـ عينَهُ .

[العباداتُ في منزلِ الشكْرِ]

ثم يتصدَّقُ في منزلِ الشكرِ ، ويصومُ ويحجُّ شاكراً للهِ تعالىٰ بحقِّ الخالقيَّةِ ؛ فما خلقَهُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلا أنْ جازاهُ وما للعبدِ شيءٌ إلا إحساناً إلى العبدِ[1] ، والمحسنُ مشكورٌ ، ثم يصلِّي واللهُ تعالىٰ تجلَّىٰ لسرِّهِ عِياناً ، كما كانَ علمَهُ إيقاناً ، حتىٰ رآهُ السرُّ أينَما التفتَ إلـٰهاً ، كما كانَ علمَهُ مِنْ قبلُ أينَما انتقلَ الجسمُ إلـٰهاً .

ثم يتصدَّقُ بعدَ ذلكَ واللهُ تعالىٰ متجلٍّ لسرِّهِ إلـٰهاً في المالِ والفقيرِ[2] ، ويصومُ ويحجُّ كذلكَ ، ويصلِّي واللهُ تعالىٰ متجلٍّ لسرِّهِ بلا واسطةٍ علىٰ مثالِ مَنْ يرى الوجهَ بعينِهِ بلا مرآةٍ ، ويرىٰ بمرآةٍ .

فيزولُ عنِ العبدِ مرارةُ الصبرِ باستحلاءِ الرضا ، ثم يملُّ في تلكَ الحلاوةِ فيزولُ باستطابةِ الشكرِ ، ثم يَلْهَىٰ عن طِيبةِ الشكرِ بقُرَّةِ العينِ حالَ التجلِّي .

---

(١) الحاجة راجعةٌ إلى العبد ، والمراد : فما خلقه من غير تكليف وامتحان ، تعالىٰ مولانا عن الحاجات والأغراض ، وفي غير (د ، هـ ، ز) : (إلىٰ أن) بدل (إلا أن) .

(٢) في (أ ، ج ، د ، هـ ، ز) : (متجلٍّ لسرِّهِ بلا واسطة إلـٰهاً في المالِ والفقير) .

[اعتقادُ الأمنِ في دارِ المحنةِ هلاكٌ]

والنفسُ التي لا تصلحُ نصيباً للمولىٰ بعدُ معَهُ وإنْ غابَ عن علمِهِ[1] ، فيلقِّنُهُ في آخرِ منازلِ الشكرِ ـ وهو منزلُ الشوقِ ـ الأمْنَ بالمحبَّةِ ، فما ذنبُ الحبيبِ بمحسوبٍ ، وفي آخرِ منازلِ الصبرِ ـ وهو منزلُ اللقاءِ ـ يلقِّنُهُ الفوزَ ، فما بعدَ اللقاءِ مطلبٌ .

وفيهما الهلاكُ ، والدارُ دارُ محنةٍ ، واعتقادُ الأمنِ في دارِ المحنةِ اغترارٌ ، والدنيا سجنٌ ، واعتقادُ الفوزِ في السجنِ حماقةٌ ، فلا يلتفتُ القلبُ إلىٰ تلقينِهِ بعصمةِ ربِّهِ ؛ جزاءً علىٰ صدقِ دينِهِ .

[لا راحةَ للمؤمنِ دونَ لقاءِ ربِّهِ]

ثم تُحُقِّقَ ذلكَ الفوزُ والأمنُ عندَ موتِهِ ، ولقَّنَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ : أنْ لا تخفْ ولا تحزنْ ، وأبشرْ بالجنَّةِ التي كنتَ تُوعدُ ، فيُنشَطُ روحُهُ نَشْطاً إلىٰ دارِ الجزاءِ[2] ، ويَلْقَمُ اللحدُ جسمَهُ لَقَماً للإصفاءِ ، ثم تعصرُهُ الأرضُ عَصْراً للتمييزِ مِنْ خُبْثِهِ ـ لا يعلمُ العبدُ الصالحُ بعصرِهِ ـ عصرَ الجسمِ الطعامَ بعدَ الالتقامِ ، فيصفو بعَصْرِ الأرضِ عن خُبْثِهِ ، ثم يُعادُ حيّاً بالروحِ ، مرضيّاً

---

(١) يعني : عن علمه بوجود النفس ، وسبق مراراً تذكير لفظة (النفس) للمصنف .

(٢) يعني : يَنْشِطُ الملائكةُ روحَهُ نشطاً ؛ أي : يطلقونها بسرعة ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات : ٢] ، قال العلامة ابن قتيبة في « غريب القرآن » (ص٥١٢) : (هي الملائكة تقبض نفس المؤمن وتَنْشِطها كما ينشط العِقال ؛ أي : يربط) ؛ أراد : السرعة في حلِّها حَلّاً رقيقاً ، أو هي النفوس المؤمنة تَنْشَطُ عند الموت نشاطاً تخفُّ له . انظر « تاج العروس » (ن ش ط) (٢٠/١٤١) .

للمولىٰ ، نوراً مِنْ أنوارِهِ ، كما يصفو الطعامُ بعَصْرِ الجسمِ عن خُبْثِهِ ، فيعودُ نصيباً للجسمِ ، جزءاً مِنْ أجزائِهِ .

[كيفَ يغلبُ الهوىٰ مَنْ علمَ سبيلَ الهدىٰ ؟]

فقالَ الأخُ المسترشدُ الرفيقُ : كيفَ غلبةُ الهوىٰ ، بعدَ علمِ المرءِ بهٰذهِ الطُّرُقِ مِنَ الهدىٰ ؟

قلتُ : إنَّ الهوىٰ للنفسِ طبيعيٌّ بمنزلةِ ما تَنْبُتُ الأرضُ بنفسِها ، والهدىٰ كسبيٌّ بمنزلةِ ما يُنْبِتُهُ الإنسُ بفعلِها ، ومَوَاتُ الأرضِ تزكو بنباتِها بلا علاجٍ ، وإذا أنبتناها نحنُ لم تصفُ عنِ ازدواجِ سائرِ الأزواجِ[1] ، إلا بجهادٍ مِنَ الزارعِ في حَصْدِ الكلأِ وقلعِهِ ، وتربيةِ ما أنبتَ مِنْ زرعِهِ .

[الرسولُ واسطةٌ بينَ العبدِ وربِّهِ]

فقالَ : لقد ألقيتَ علينا أسرارَ أمورِكَ ، وأفضيتَ إلينا بشُقُورِكَ[2] ، ولم نزلْ كنَّا نسمعُ حديثَ الواسطةِ ، وكنَّا نتفزَّعُ عن تسميةِ الرسولِ بها ، فكيفَ حقيقةُ الأمرِ فيها ؟

قلتُ : ما سوى اللهِ تعالىٰ ممَّا يُتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ بأمرِ اللهِ . . واسطةٌ لا شكَّ فيهِ ، وإنَّما المنكَرُ هوَ القولُ بسقوطِ حقِّ الواسطةِ بعدَ وصولِ العبدِ إلىٰ ربِّهِ سبحانَهُ ؛ فالأصلُ : أنَّ رؤيةَ الحقِّ لغيرِ اللهِ تعالىٰ شركٌ ، إلا أنْ يكونَ

---

(١) أراد بأزواج النبات : أصنافه ، وفي الجواب بيانُ أن المرء لا ينفكُّ عن مجاهدة نفسه وإن علم ، فما العلم وحده بمُغْنٍ ، ولا أمنَ إلا بالموت على الإيمان .

(٢) يقال : أفضيت إليه بشُقُوري ؛ أي : أخبرته بأمري ، وأطلعته علىٰ سرِّي ، وشكوت إليه حالي ، والشُّقُور : الحاجة ، والأمور المهمة اللاصقة بالقلب .

بأمرِ اللهِ[١] ، فيراهُ العبدُ طاعةً للهِ[٢] ، وتلكَ الطاعةُ لا تسقطُ بمعرفةِ الربِّ ، بل تتحقَّقُ ، وإنَّما تسقطُ بسقوطِ الأمرِ .

[منزلةُ الرسولِ ﷺ عندَ اللهِ تعالىٰ]

وإنَّما مَثَلُ الرسولِ مَثَلُ وزيرِ الأميرِ في الشاهدِ ؛ قد أمرَ الناسَ بالرجوعِ إليهِ وطاعتِهِ[٣] ، ومَثَلُ العارفِ مَثَلُ النديمِ قَرُبَ مِنَ الأميرِ لمكانتِهِ ، وإنَّ النديمَ لَواجبٌ عليهِ طاعةُ الوزيرِ وتعظيمُهُ طاعةً للأميرِ ، بل عليهِ أوجبُ مِنْ غيرِهِ ؛ فلزومُ الطاعةِ بقَدْرِ العلمِ ، وعلمُهُ عِيانٌ ، فكانَ أحقَّ مِنْ علمِ غيرِهِ بالخبرِ[٤] .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

(٢) قال العلامة الواصل ابن اللبان الشافعي في « إزالة الشبهات » (ص٣٣٦) : (ومن هـٰذا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، ونحوه من الآيات التي تتضمن الإخبار للعباد : أن سرَّ التوحيد الجامع مظهرُهُ محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أحبَّهُ فقد أحبَّ الله ، فمن الأتباع من كُشف له عن تجرُّد ذلك السرِّ عياناً ؛ كحال أبي بكر رضي الله عنه في قوله بعد موته : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت » ، ولشهود ذلك السرِّ كان يسجد له الحجر والبعير ، ويسعىٰ إليه الشجر) .

(٣) في « الرسالة القشيرية » (ص٦٦٢) : (حُكيَ عن أبي سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ اعْذِرني ؛ فإن محبَّة الله عز وجل شغلَتْني عن محبَّتك ، فقال : يا مباركُ ؛ من أحبَّ الله تعالىٰ فقد أحبَّني) .

(٤) وتلك المكانة للنديم باعتبار اتباعه مراضيَ الأمير ، وفي العارف لمعرفته مجاريَ اقتضت الحقَّ ، كما أن النديم علم الحقَّ من طبيعة الأمير أنه لا يعفو عن السارق مثلاً . . لا يشفع فيه ، فكذا العارف لا يشفع في الحدود المنهيِّ عنها بقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٢] . انتهىٰ من هامش (و) .

[حقُّ الواسطةِ لا يسقطُ]

ولهٰذا كانَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أطوعَ الناسِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقد صدَّقَ بهِ ـ كما جاءَهُ بالصِّدْقِ ـ مِنْ غيرِ مكثٍ[١] ، ولم يفارقْهُ وقد أُوذيَ ، ولم يتخلَّفْ عنهُ وقد هاجرَ ، ولم يخلِّفْ لأهلِهِ قوتاً حينَ استقرضَ مالَهُ للهِ تعالىٰ[٢] .

[أنوارُ القُبْضةِ التي منها خَلْقُ سيدِنا آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ]

فقالَ الأخُ : لقد تكلَّمْتَ بفصولٍ في الأنوارِ ، فما عليكَ لو جمعتَها في فَصْلٍ فعليها المدارُ ؟

---

(١) إشارة إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] .

(٢) قال سبحانه : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٩]، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ٢١) : (نصرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم هي نصرةُ الله عز وجل) ، وقد قال جلَّ وعزَّ عقب هٰذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] .

وروىٰ أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » ، قلت : مثلَهُ ، وأتىٰ أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » ، قال : أبقيت لهم اللهَ ورسولَهُ ، قلتُ : لا أسابقك إلىٰ شيء أبداً .

وروى الترمذي (٣٦٦١) ، وابن ماجه (٩٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر ؛ فإن له عندنا يداً يكافئه اللهُ بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد ما نفعني مال أبي بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن صاحبكم خليلُ الله » .

قلتُ : قد ثبتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ هـٰذهِ الدنيا لهـٰؤلاءِ الورىٰ ، كما خلقَ لهمُ الأُخرىٰ ، ولا شكَّ أنَّ مَنْ خُلِقَ لهُ الدنيا والعقبىٰ أفضلُ مِنَ الدنيا والأُخرىٰ[1] ، والفضْلُ للضياءِ في مقابلةِ الظَّلْماءِ ، والأنوارُ ظاهرةٌ مِنَ السماءِ ، وهـٰؤلاءِ الورىٰ مخلوقونَ مِنَ الأرضِ ، فلا شكَّ أنَّ فيها أنواراً باطنةً يقفُ عليها البصرُ الباطنُ مِنَ القلوبِ ، أضوأَ مِنَ الأنوارِ الظاهرةِ التي يقفُ عليها البصرُ الظاهرُ مِنَ العيونِ[2] .

ثم لا شكَّ أنَّ الأنوارَ جُمعَتْ في القُبْضةِ التي خُلِقَ منها آدمُ عليهِ السلامُ ، فمنهُ خُلِقَ جميعُ هـٰذا العالمِ[3] .

[أنوارُ السماءِ أربعةُ أنواعٍ]

ثم أنوارُ السماءِ أربعةُ أنواعٍ : نورُ الشمسِ ينسخُ كلَّ نورٍ ، ونورُ القمرِ دونَهُ ، ولـٰكنْ يُكتفىٰ بهِ للمسيرِ ، ثم نورُ النجومِ المعروفةِ دونَهُ ، ولـٰكنْ يهتدي بهِ البصيرُ ، ثم نورُ النجومِ التي ليسَتْ بمعروفةٍ ، ما بها هدايةٌ ولا تنويرٌ .

فكذلكَ أنوارُ القُبْضةِ علىٰ هـٰذهِ الأنوارِ الأربعةِ : نورُ النبوَّةِ ، ثم نورُ الخلافةِ ، ثم نورُ العلمِ ، ثم نورُ العقلِ .

---

(١) إذ غايتهما أنهما جزاء حسيٌّ للإنسان المؤمن المكلَّف ، والجزاء عطاءٌ وهبةٌ ، فهو دون الموهوب له .

(٢) لأن أنوار الأرض معارضة من الظلمة ، فلا بدَّ أن يكون النور فيها أضوأ حتىٰ يظهر مع المعارض . انتهىٰ من هامش (و) ، وسبق أن الفضل للضياء في مقابلة الظلماء .

(٣) بنو آدم . انتهىٰ من هامش (و) .

[أنوارُ النبوَّةِ]

طلعَ نورُ النبوَّةِ بآدمَ عليهِ السلامُ ، ثم لم يزلْ يرتفعُ ظاهراً ومحجوباً بغمامٍ ، ومتجلِّياً ومكسوفاً . . حتىٰ بُعِثَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً والشمسُ مكسوفةٌ في كبدِ السماءِ(١) ، فتجلَّىٰ بهِ حاجِبُها(٢) .

ثم لم يزلْ يزدادُ تجلِّياً حتىٰ كَمَلَ ، فكَمَلَ بهِ الدينُ ، وتمَّتِ النعمةُ على المؤمنينَ ، ثم غربَتْ بموتِهِ غروباً ما لها طلوعٌ إلىٰ يومِ القيامةِ(٣) .

[أنوارُ الخلافةِ الراشدةِ]

وظهرَ بعدَهُ نورُ الخلافةِ ظهورَ نورِ الهلالِ تِلْوَ غروبِ الشمسِ ، لولا قربُهُ مِنَ الشمسِ وتأيُّدُهُ بنورِهِ . . ضلَّ الساري في مسيرِهِ ، لـٰكنَّهُ إلى ازديادٍ وتمامٍ ، كنورِ الشمسِ وقد تجلَّىٰ عنِ الكسوفِ حاجبُهُ إلى ازديادٍ وكمالٍ .

فتكونُ العزائمُ بذلكَ السببِ قويَّةً ، والأمورُ بتأيُّدِهِ بنورِ الشمسِ سويَّةً ، والهلالُ وإنْ دقَّ فعزيزٌ مطلوبٌ ، ونورُهُ وإنْ رقَّ فمُنتفَعٌ بهِ حسيبٌ مرغوبٌ(٤) ، فقد وافقَ وقتُ نورِهِ وقتَ نورِ أثرِ الشمسِ ، ومدَّةُ بقائِهِ حينَ حاجةِ الجنسِ(٥) ، وما بينَ هلالٍ يزدادُ إلىٰ كمالٍ ، وتجلِّي حاجبِ الشمسِ يزدادُ إلىٰ تمامٍ . .

---

(١) لأنه ولد وقت السَّحَر عليه الصلاةُ والسلام ، وبعد ولادته طلعت الشمس .

(٢) حاجبُ الشمس : حَرْفُها وقَرْنُها ، وحواجبُ الشمس : نواحيها .

(٣) وذلك لانقطاع الوحي ، وهو أبرز خصيصة من خصائص النبوة .

(٤) أي : بقاء نور القمر حين حاجة الناس إليه ، باعتبار أن الإسلام لم يظهر ظهوراً تاماً ، فإذا كان كذلك كان منتفعاً به . مفادٌ من هامش (و) .

(٥) أي : نور القمر موافق لوقت أثر نور الشمس ، ومدَّةُ بقائه لوقت حاجة الناس موافقة أيضاً . انتهىٰ من هامش (و) .

فرقٌ ، إلا أنَّ ذلكَ النورَ أغلبُ ، وإنْ كانَ هـٰذا مِنْ غيرِهِ أثقبَ[1] ، وذلكَ التجلِّيَ أسرعُ ؛ فمدارُهُ على الساعاتِ ، وهـٰذا أبطأُ ؛ فمدارُهُ على الليالي .

وهـٰذا مثلُ خلافةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقد أضاءَ حاجبُ نورِ النبوَّةِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وازدادَ إلىٰ كمالٍ ، فنسخَ كلَّ شريعةٍ ، واستقامَ قناةُ الدينِ بكثرةِ المسلمينَ وقوَّةِ المؤمنينَ .

فلمَّا تُوفِّيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وغربَ نورُ النبوَّةِ . . ارتدَّتِ العربُ عنِ الزكاةِ ، فاعوجَّتِ القناةُ وأقبلَ ظلامُ الكفرِ ، وخُولفَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في تقويمِها بقتالِهم ، حتىٰ كادَ لا يُهتدىٰ بنورِهِ لولا التَّقَوِّي بأثرِ النبوَّةِ ، فاشتدَّ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وحدَهُ عليهم متأيِّداً بأثرِ نورِ النبوَّةِ تأيُّدَ الهلالِ بأثرِ نورِ الشمسِ ، فاستقامَتِ القناةُ ، وهُدِيَ بالنورِ ، ثم لم يزلْ كانَ إلى ازديادٍ حتىٰ صارَ كافياً شافياً .

ثم سلَّمَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ القناةَ وهي مستقيمةٌ ، فجدَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ حتىٰ طوَّلَ القناةَ وقوَّاها ، وتمَّ القمرُ بدراً ، ما زاغَ وما طغىٰ ، ولا ضعُفَ ولا توانىٰ ، حتىٰ قُتِلَ رضيَ اللهُ عنهُ .

وسُلِّمَتِ القناةُ إلىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ وهي مستقيمةٌ قويمةٌ ، وقمرُ الخلافةِ بدرٌ ، فظهرَ النقصانُ في أيَّامِهِ ظهوراً أخلَّ بالاستقامةِ وإنْ قلَّ ، علىٰ مثالِ نقصانِ البدرِ ؛ فإنَّهُ يوافقُ وقتَ الحاجةِ إليهِ مِنْ أوَّلِ الليلِ ، ولانَ عثمانُ

---

(١) أي : وإن كان نور القمر من نور غيره من الكواكب المعروفة وغير المعروفة . . أضوأَ . انتهىٰ من هامش (و) .

رضيَ اللهُ عنهُ عن تقويمِها مخافةَ أنْ تنكسرَ ، فالاعوجاجُ كانَ ببغْيِ طائفةٍ مِنَ المسلمينَ عليهِ ، فخافَ فُرْقةً بينَ المسلمينَ في قتالِهم أو نَبْوةً ، واللهُ أعلمُ ، فصبرَ لهم حتىٰ حلَّ بهِ القتلُ ؛ صَبْرَ هارونَ عليهِ السلامُ في قومِهِ وقد عبدوا العِجْلَ[1] .

فتسلَّمَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ القناةَ وبها عوجٌ وشَقٌّ[2] ، وكانَتْ سُلِّمَتْ إلىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وبها انكسارٌ بِرِدَّةٍ ، فقوَّمَها وجبرَها ، فاشتدَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لتقويمِها ببأسِهِ وسيفِهِ وجندِهِ[3] ، فعجزَ[4] ، وغربَ نورُ الخلافةِ بقتلِهِ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ فقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الخلافةُ في

---

(١) فقد نهاهم عن عبادة العجل ، وداراهم ريثما يعود سيدنا موسىٰ ـ عليهما وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ـ فيحكم فيهم .

(٢) كذا في نسخة هامش (و) ، وفي سائر النسخ : (عوجٌ فِسْقٍ) .

(٣) وكان قد اجتهد رضي الله عنه وهو خيرُ نفسٍ يومها علىٰ ظهر البسيطة ، ولو كان زمنَ الصديق رضي الله عنه لفعل فعله ، ولو كان الصديق زمنَهُ لفعل فعله ، والله أعلم ، سبحانه غالبٌ علىٰ أمره .

(٤) ليمضي قدرُ الله سبحانه ، وروىٰ مسلم (٢٨٩٠) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعاً : « سألت ربِّي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ، ومنعني واحدة ؛ سألت ربِّي ألا يُهلِكَ أمتي بالسَّنَة ، فأعطانيها ، وسألته ألا يُهلِكَ أمتي بالغرق ، فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » .

وروى البخاري (٤٦٢٨) من حديث سيدنا جابرٍ رضي الله عنه قال : لمَّا نزلت هـٰذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بوجهك » ، قال : ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا أهون » أو « هـٰذا أيسرُ » .

أمَّتي بعدي ثلاثونَ سنةً »[1] ، وتمَّتِ الثلاثونَ بأيَّامِهِ[2] .

[أنوارُ العلمِ النافعِ]

ثم صارَ الاهتداءُ بنورِ العلمِ ، وإنَّهُ بمنزلةِ نورِ النجومِ المعروفينَ ، فالعلماءُ لا يكونونَ إلا خواصّاً مِنَ الناسِ معلومينَ[3] ؛ وهمُ الذينَ قد أبصروا بنورِ عقولِهم حُجَجَ اللهِ تعالىٰ وآياتِهِ ، فصاروا هداةً مرضيِّينَ ، لٰكنْ بلا سلطنةٍ وأمرٍ ؛ كالنجومِ المعروفينَ بعدَ الشمسِ والبدرِ ، والساري بنورِ النجومِ خائفٌ الضلالَ والهلاكَ في كلِّ فصلٍ ؛ فما يبلغُ نورُ النجمِ مواقعَ النعلِ .

[نورُ العقلِ]

وليؤولَنَّ الأمرُ بعدَ نورِ العلمِ إلى العقلِ بلا شرعٍ أو قد آلَ ، وثَمَّ الضلالُ عنِ الدينِ والإضلالُ ، فما العقلُ بلا تأييدِ شرعٍ في الأغلبِ إلا وهو أسيرٌ لهوىً أميرٍ لا يسيرُ على الهدىٰ ، بل يشيرُ إلىٰ طريقِ الهوىٰ ، وإنَّهُ بمنزلةِ النجومِ التي ليسَتْ بمعروفةٍ ، فالعقلُ مرزوقٌ للجنسِ[4] ، والجنسُ غيرُ محصورٍ ، وأكثرُهم في ضلالٍ وغرورٍ[5] .

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٤٦) ، والترمذي (٢٢٢٦) وحسَّنه ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٠٩٩) من حديث سيدنا سفينة رضي الله عنه ، قال العلامة ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (٢/ ١٢٢) : (وقد صححه الإمام أحمد ، واحتجَّ به علىٰ خلافة الأئمة الأربعة) .

(٢) قال العلامة الصبان في « إسعاف الراغبين » (ص٦٧) : (إن تمام الثلاثين كان بخلافة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما) .

(٣) قوله : (خواصّاً) كذا في جميع النسخ ، وفي هامش (و) : (هـٰذا من قبيل قوله تعالىٰ : ﴿ قَوَارِيرَا ۞ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : ١٥ـ١٦] ، وقيل : هـٰذا لغة من اعتاد رواية الشعر) .

(٤) أي : جنس بني آدم . انتهىٰ من هامش (هـ ، و) .

(٥) يعني : لو كان نور العقل كافياً لكان كلُّ عاقل علىٰ أتمِّ نورٍ ، لـٰكننا رأينا مَنِ استنار بنور =

فدلَّ هـٰذا التمثيلُ علىٰ تفاوتِهم علىٰ هـٰذا الترتيبِ ، وشهدَ بذلكَ سيرتُهُمُ الظاهرةُ وآثارُهُمُ الصادقةُ .

[الإمارةُ والملكُ بعدَ الخلافةِ الراشدةِ]

فقالَ الأخُ : إذْ غربَ نورُ الخلافةِ بموتِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ . . فما بعدَها ؟ أتغالبٌ أم ماذا ؟

قلتُ : إنَّما هي إمارةٌ أو مُلْكٌ[1] ، فالأسامي التي تدورُ عليها مصالحُ الدينِ والدنيا أربعةٌ :

النبوَّةُ ، وإنَّها مؤيَّدةٌ بآياتٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ قاهرةٍ ، ما يُخافُ فيها زيغٌ .

ثمَّ **الخلافةُ** ، وإنَّها مؤيَّدةٌ بآثارِ أنوارٍ مِنَ النبوَّةِ زاهرةٍ ، ما يُخشىٰ معَها ضلالٌ ؛ فالخليفةُ لا يكونُ خليفةً إلا باستخلافٍ ، والمستخلَفُ مؤتمِرٌ

= الشريعة مهتدياً سالكاً طريقاً سويّاً ؛ فدلَّنا هـٰذا علىٰ ضعف نور العقل إذا ما قيس بنور الشريعة .

وقد قال حجة الإسلام الغزالي في « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص٩٦) : (وأنَّىٰ يستتبُّ الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج البحث والنظر ؟!) ، ثم قال : (وكيف يهتدي للصواب من اقتفىٰ محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ؟!) ، ثم قال : (**فمثال العقل** : البصرُ السليم عن الآفات والأدواء ، ومثالُ القرآن : الشمسُ المنتشرة الضياء ، فأخلقْ بأن يكون طالبُ الاهتداء المستغني بأحدهما عن الآخر في غُمار الأغبياء) .

(١) روى الطيالسي في « مسنده » (٢٢٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٥٩) من حديث سيدنا أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الله بدأ هـٰذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائناً خلافة ورحمة ، وكائناً ملكاً عضوضاً ، وكائناً عنوة وجبرية وفساداً في الأمة ؛ يستحلُّون الفروج والخمور والحرير ، ويُنصرون علىٰ ذلك ، ويُرزقون أبداً حتىٰ يلقوا الله عز وجل » ، والعضوض : المتمسَّكُ به ؛ أي : المعضوض عليه .

لا محالةَ ، وما معَ الائتمارِ ضلالٌ[1] ، ولِمَا قلنا : إنَّ الخلافةَ مِنَ النبوَّةِ كالقمرِ مِنَ الشمسِ ، ونورُ القمرِ لا يكونُ إلا مِنَ الشمسِ علىٰ قَدْرِ مقابلتِهِ إيَّاها ، علىٰ ما سبقَ القولُ فيهِ .

ثمَّ الإمارةُ ؛ فقد أمَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثيراً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم ، وكما سُمِّيَ الخلفاءُ : الخلفاءَ الراشدينَ . . سُمُّوا أمراءَ المؤمنينَ ، غيرَ أنَّ الإمارةَ مِنَ الأمرِ ، والأمرُ بالولايةِ ، والولايةُ تكونُ بتوليةٍ كالخلافةِ ، وبتغلُّبٍ ، والمولَّىٰ مؤتمِرٌ كالخليفةِ[2] ، والغالبُ آمرٌ ، وفيهِ فسادُ الدينِ ، فما للعبدِ أمرٌ مِنْ عندِهِ[3] .

ثمَّ المُلْكُ ؛ فقد أخبرَ اللهُ تعالىٰ أنَّهُ آتىٰ آلَ إبراهيمَ مُلْكاً عظيماً ، وقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا ﴾ [ص : ٣٥] ، إلا أنَّ المُلْكَ مِنَ المِلْكِ ، والمِلْكُ يكونُ بإعطاءٍ ، ويكونُ بأخذٍ ، والممنونُ عليهِ بالإعطاءِ شاكرٌ ، والمستولي بالأخذِ قاهرٌ ، وفيهِ ذهابُ الدينِ ؛ فالقاهرُ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فأمَّا مصلحةُ الدنيا فباقيةٌ ما لم يجئِ التغالبُ ؛ ففيهِ التَّفاني .

ذهبَتِ النبوَّةُ بوفاةِ رسولِ اللهِ النبيِّ الأُمِّيِّ عليهِ السلامُ ، والخلافةُ بوفاةِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، والإمارةُ بذهابِ بني أميَّةَ[4] ، والمُلْكُ منقضٍ بانقضاءِ بني

---

(١) في (ب ، ز) دون سائر النسخ : (والمستخلَفُ مؤتمنٌ لا محالة ، وما مع الائتمانِ ضلال) ، وهي مع صواب ظاهرها غير مرادة ؛ لما يظهر من السياق .

(٢) في (ب ، ز) : (مؤتمن) بدل (مؤتمِرٌ) ، ومن تأمل في قوله الآتي : (آمرٌ) . . علم أن المراد المثبت .

(٣) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

(٤) حتىٰ سميناهم أمراءَ ، ومعاويةُ أول أمير من بني أمية ، وعمر بن عبد العزيز آخرهم ، =

العباسِ ، وقد جاءَ التغالبُ أو قَرُبَ .

غيرَ أنَّا سمَّينا ما لبني أميَّةَ إمارةً ؛ لأنَّهم قاموا وقعدوا[1] ، وفعلوا وتركوا[2] ، ما ثبتوا مؤتمِرِينَ[3] ، كالخلفاءِ الراشدينَ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ .

وسمَّينا ما لبني العباسِ مُلْكاً ، فما كانَ فيهم مَنْ لهُ سابقةُ معاويةَ ولا زهدُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهما ، فكانوا دونَهم بدرجةٍ ، كما كانَتْ بنو أميَّةَ دونَ الخلفاءِ الراشدينَ بدرجةٍ ، رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ .

[قوامُ الدينِ رهطٌ أربعةٌ]

وأمَّا الدينُ فقد عُلِّقَ قَوامُهُ برهطٍ أربعةٍ :

رهطُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم ، فالقلوبُ ما تسلمُ عن منامِ الغفلةِ ، ومعَ

= وليس لمعاويةَ وعمر بن عبد العزيز ما للخلفاء الراشدين حتىٰ سميناهم خلفاءَ ، بل سميناهم أمراءَ . انتهىٰ من هامش (و) .

والحقُّ : أن سيدنا معاوية رضي الله عنه أوَّل الأمراء علىٰ تقسيم الإمام المصنف ، وهو أفضلهم ؛ لكونه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٧١٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٩/ ٣٦١) عنه رضي الله عنه أنه قال : ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاوية ؛ إن ملكت فأحسنْ » .

(١) أي : عن القيام بالحق .

(٢) عبارة عن أن كانوا في وقت علىٰ موجب الشرع ، وفي وقت علىٰ غيره . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) بل غيَّروا وبدَّلوا ، ولو ثبتوا على الأمر لاهتدوا ، وفي « البداية والنهاية » (٩/ ١٣٥) : (قال الأصمعي : قيل للحسن : إنك تقول : الآخر شرٌّ من الأول ، وهـٰذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج ! فقال الحسن : لا بدَّ للناس من تنفيسات) .

النومِ لا تسلمُ مِنَ الهفوةِ ، وإنَّما قامَتْ قناةُ الدينِ بالأنبياءِ عليهمُ السلامُ بوحْيٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وتحريكٍ مِنْ قِبَلِهِ بآياتِهِ ، حتىٰ طارَ النومُ كلُّهُ عن قلوبِهم[1] ، وعُصِموا عنِ الزيغِ والضلالِ ، وكانَ قد خَفِيَ أثرُ النبوَّةِ بفترةٍ كانَتْ بينَ عيسىٰ عليهِ السلامُ والرسولِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واندرسَتْ أعلامُ الدينِ ، وغربَتْ شمسُ الحقِّ ، فقامَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحقُّ حتىٰ تمَّ القَوامُ واعتدلَ ، ولاحَ وظهرَ بعلمٍ يقينٍ ، وعملٍ مبينٍ ، وقولٍ صادقٍ ، وإلزامٍ قاهرٍ .

فانتقلَ مِنْ بعدِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرُ الدينِ إلى الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم ، وذهبَ سببُ علمِ اليقينِ وهوَ الوحْيُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وبقيَ العملُ والقولُ ، والإلزامُ والإمارةُ كانَتْ للعلماءِ .

ثمَّ انتقلَ الأمرُ إلى التابعينَ ، فذهبَ الإلزامُ القاهرُ مِنَ العلماءِ لمَّا انتقلَتِ الإمارةُ إلىٰ غيرِهم ، وبقيَ القولُ والعملُ ، فكانوا يعبدونَ اللهَ تعالىٰ مخلصينَ لهُ الدينَ ، ويفتونَ بالحقِّ صادقينَ ، ما في العملِ هوادةٌ ، ولا في الفتوىٰ مداهنةٌ .

ثمَّ انتقلَ الأمرُ إلى الصالحينَ ، فاختفَتْ سيرةُ السلفِ المتقدِّمينَ[2] ، وفترَ الشأنُ إلا نادراً ، بعدَما كانَ ظاهراً ، وبقيَ القولُ ، ما تغيَّرَتْ فيهمُ المذاهبُ ، ولا تبدَّلَتِ الطرائقُ ؛ يعتقدونَ بالحُجَّةِ ، ويفتونَ عن علمٍ .

---

(١) روى البخاري (٣٥٦٩) ، ومسلم (٧٣٨) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « تنام عيني ، ولا ينام قلبي » .

(٢) أي : ذهب العمل . انتهىٰ من هامش (و) .

[نشوءُ التقليدِ]

ثمَّ انتقلَ الأمرُ إلى القرنِ الرابعِ ، فذهبَ القولُ أيضاً إلا علىٰ سبيلِ الندرةِ ، وما لها مِنْ عبرةٍ ، وصارَ الإسلامُ غريباً معنىً كما بدأَ غريباً دعوىٰ ، وآلَ الأمرُ إلى اتِّباعِ الرجالِ دونَ الحُجَّةِ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بدأَ الإسلامُ غريباً ، وسيعودُ غريباً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الناسِ رهطي ، ثمَّ الذينَ يلونَهم ، ثمَّ الذينَ يلونَهم ، ثم يفشو الكذبُ ، حتىٰ إنَّ الرجلَ يشهدُ قبلَ أنْ يُستشهدَ ، ويحلفُ قبلَ أنْ يُستحلفَ »(٢) .

وحتى اتَّبَعَ كلُّ رهطٍ واحداً مِنْ علماءِ التابعينَ والصالحينَ ، ما يستجيزُ مخالفةَ صاحبِ مذهبِهِ ، وهو رجلٌ مثلُهُ مِنَ الأمَّةِ ، ويستجيزُ مخالفةَ حُجَّةِ اللهِ القائمةِ عليهِ بخلافِ عقيدتِهِ مِنْ كتابِ اللهِ أو سنَّةِ رسولِ اللهِ !(٣) .

---

(١) رواه مسلم (١٤٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٧٥) ، وابن ماجه (٢٣٦٣) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو عند البخاري (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وليس فيه قوله : (ثم يفشو الكذب) .

(٣) مثل مَنْ لم يستجز مخالفة الشافعي في مسألة متروك التسمية عامداً ، ويستجيز مخالفة كتاب الله ؛ لقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، أو من يستجيز مخالفة السنة ؛ مثل قوله : « البينة على المدَّعي واليمين علىٰ من أنكر » ، ومع هـٰذا حكم بشاهد ويمين . انتهىٰ من هامش (و) .

ولا يخفىٰ أن هـٰذا الخلاف ظنيٌّ ، وتهويلُ مخالفة القرآن وصحيح السنة من قبل الإمام الشافعي . . لا تقبل من أمثالنا ، ومن طالع كتب الشافعية يجد توجيهاتٍ للآية والحديث هنا ، ولمخالفيهم مثلُ ما هنا من نسبة المخالفة لظواهر الكتاب والسنة أيضاً .

وفي ذلكَ مخالفةُ صاحبِ مذهبِهِ ؛ فإنَّ صاحبَ مذهبِهِ ما استجازَ اتِّباعَ واحدٍ بعينِهِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بلِ اختارَ قولَ البعضِ مِنْ سلفِهِ في حادثةٍ ، وقولَ البعضِ في أخرىٰ ، علىٰ حسَبِ ما شهدَتْ لهُ حُجَّتُهُ بصحَّةِ قولِهِ ؛ متمسِّكاً بكتابِ اللهِ في العملِ بالحُجَّةِ ، دونَ اتِّباعِ النظراءِ والآباءِ.

[لو بقيَ العملُ بالحُجَّةِ لم يكن أبو حنيفةَ صاحبَ المذهبِ[1]]

ولولا غروبُ آيةِ الدينِ عنِ القرنِ الرابعِ وإلا لبقيَ العملُ بالحُجَّةِ ، ولو بقيَ بها لم يكنْ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ صاحبَ المذهبِ في اعتقاداتِهِ كلِّها ، كما لم يكنْ حمَّادٌ أستاذُهُ رضيَ اللهُ عنهُ صاحبَ مذهبِهِ ، ولا عليٌّ ولا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضوانُ اللهِ عليهما ، وأهلُ الكوفةِ تلقَّنوا العلمَ منهما ، وكما لم يكنْ لأبي يوسفَ ومحمدٍ رحمَهُما اللهُ ـ وهما تلميذاهُ ، وأعلمُ الناسِ بحُجَّتِهِ ، وأشدُّهم ورعاً ـ عن مخالفةِ الأستاذِ [تعنُّتٌ][2] .

[غلبةُ الهوىٰ في أتباعِ المذاهبِ]

وكيفَ يجوزُ ذلكَ والفتوىٰ بالقياسِ فتوىٰ بغالبِ الرأْيِ ؟! ولن يجوزَ إصابةُ واحدٍ بعينِهِ مِنْ جملةِ الناسِ كلَّ الحقوقِ بغالبِ رأْيِهِ[3] ؛ لأنَّهُ حينئذٍ يصيرُ طريقُ

---

(١) العنوان مثبت من هامش (و) ، والمعنىٰ : قد يتَّبع صاحبَ مذهبه ـ وإن اعتقد صحة ما في الكتاب والسنة حُجَّةً ـ لمجرَّدِ اتباع صاحب المذهب ، أما لو اعتقد قصور نفسه عن فهم الكتاب والسنة ، وقصُرَ باعُهُ في الاطلاع على النصوص الشرعية ، وضعُفَ نظره وقلَّ فقهه . . فلا ضيرَ عليه وإن نزلت رتبته .

(٢) ما بين المعقوفين : (تعنُّتاً) في جميع النسخ.

(٣) يعني : بعيدٌ عادةً أن يجتمع الحقُّ كلُّهُ لمجتهد دون آخر ؛ إذ هـٰذا الفَرْضُ يُصيِّرُ الظنَّ يقيناً ، وهو محالٌ .

الإصابةِ طريقَ اليقينِ ، وذلكَ باطلٌ .

حتىٰ لا نجدُ الرجلَ اليومَ مِنَ العلماءِ يتعصَّبُ لنصرةِ قولِ الخلفاءِ الراشدينَ أو يتشمَّرُ لهُ مثلَما يتشمَّرُ لنصرةِ مذهبِ أبي حنيفةَ أوِ الشافعيِّ رحمَهما اللهُ ، **لولا اتِّباعُ هوى النفسِ لأخذَتْهُ حميَّةُ الدينِ في نصرةِ أقوالِ الصحابةِ ، فلمَّا لم تأخذْهُ** ، واستجازَ التركَ والقولَ علىٰ ما شهدَ لهُ بصحَّتِهِ الحُجَّةُ . . فكيفَ لم يستجزْ بمثلِهِ في التابعينَ أوِ الصالحينَ ، علىٰ هـٰذا أدركْنا الأمَّةَ إلا مَنْ غَرُبَ فيهم[1] ، فقليلٌ مِنْ عبادِهِ المهتدونَ .



(١) يعني : صار غريباً كما سبق له عند ذكر الحديث الناصِّ على الغربةِ قريباً .

[بيان مراتب الزمان والمكان]

فقالَ الأخُ : لقد بلَّغْتَنا الأمدَ الأقصىٰ في علمِ مراتبِ الورىٰ ، وقد بَقِيَ علمُ مراتبِ الزمانِ والمكانِ مِنَ الدنيا ؛ فقدِ امتُحِنَّا بأحكامٍ متعلِّقةٍ بهما(١) ، كما امتُحِنَّا بتعلُّقِها بالورىٰ(٢) .

قلتُ : نعم ؛ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِنْ قبضةٍ مسلولةٍ مِنَ الأرضِ ، وكانَ الفضْلُ معلوماً مِنْ حيثُ الصورةُ للرأسِ والوجهِ والصدرِ ، ونهايةُ الفضلِ للقلبِ ، فكانَ القلبُ للهِ تعالىٰ على الخلوصِ .

[أفضلُ الخلقِ سيِّدُنا محمدٌ ﷺ]

ثم تفرَّقَتِ القُبْضةُ عالَماً كثيراً(٣) ، وكانَ الفضْلُ مِنْ حيثُ المعنىٰ لنورِ النبوَّةِ ، ونورِ الخلافةِ ، ونورِ العلمِ ، ونورِ العقلِ ، علىٰ ما قلنا(٤) ، والنهايةُ لنورِ النبوَّةِ .

وكانَ الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ عبيداً للهِ تعالىٰ على الخلوصِ ، فكانَتِ النبوَّةُ مِنَ الأنوارِ الأربعةِ كالقلبِ مِنَ الأعضاءِ الأربعةِ .

---

(١) كتعلُّق الصوم بشهر رمضان وجوباً دون غيره من الشهور ، وتعلُّق الحجِّ بعرفةَ وبالبيت الحرام دون سائر البقاع .

(٢) يعني : كما امتُحنَّا بأحكام متعلقة بالورىٰ .

(٣) أي : خُلِقَ من القبضة آدمُ وأولاده ؛ لأن العالَم اسم لما سوى الله ، وآدم وأولاده هم المقصودون من خلق العالم . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) تقدم (ص٧٠٦) .

ثم محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ مِنْ قبضةِ النبوَّةِ بمنزلةِ القلبِ مِنَ الجسمِ ، علىٰ ما سبقَ القولُ فيهِ(١) ، وقد ظهرَ ذلكَ بكتابِهِ ؛ فكُتُبُ اللهِ المسمَّاةُ أربعةٌ(٢) ، وقد وجبَ الرجوعُ إلى القرآنِ كما وجبَ رجوعُ كلِّ الجسمِ إلى القلبِ .

[أفضلُ الأمكنةِ أربعةٌ]

وكذلكَ المكانُ قد رجعَ فضلُهُ إلىٰ مواضعَ أربعةٍ : بيتِ المَقْدِسِ ، والمدينةِ ، والحَرَمِ ، والكعبةِ .

فبيتُ المقدسِ كالرأسِ ، والمدينةُ كالوَجْهِ ، والحَرَمُ كالصدرِ ، والكعبةُ كالقلبِ ، فكانَتْ للهِ تعالىٰ على الخلوصِ .

وأمَّا سائرُ المساجدِ : فلم تكنْ بِقاعُها في الأصلِ على الخلوصِ للهِ تعالىٰ(٣) ، وإنَّما خَلَصَتْ بإعدادِ العبادِ إيَّاها للصلاةِ التي هي للهِ تعالىٰ على

---

(١) تقدم (ص٤٢٣ـ٤٢٦) .

(٢) وهي القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٣] ؛ ذلك أن حكم الله برجم الزاني لم ينسخ ، فكان حجة عليهم ؛ إذ النسخ في القرآن لا يعني نسخ جميع الأحكام المتقدِّمة قبله ، أو إنه نسخ الجميع ، والموافقة في الأحكام وقعت بعد ذلك .

(٣) إذ هي متساوية من حيث البقعة والمكان ؛ فالتفضيل أمرٌ توقيفي ، لا مدخل للعبد فيه ، ولهـٰذا المعنىٰ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا تشدُّ الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد : المسجدِ الحرام ، ومسجدِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومسجدِ الأقصىٰ » ، رواه البخاري (١١٨٩) ، ومسلم (١٣٩٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولهـٰذا المعنىٰ قال حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٤٠) : (وأما البقاع : فلا معنىٰ لزيارتها سوى المساجد الثلاثة ، وسوى الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهرٌ في أنه =

الخلوصِ ، والكعبةُ خَلَصَتْ للهِ بحُكْمِ اللهِ ، لا صُنْعَ للعبيدِ فيهِ .

[أفضلُ الأزمنةِ أربعةٌ]

وكذلكَ الأزمانُ المفضَّلةُ أجزاءٌ أربعةٌ : أشهرُ الحجِّ بمنزلةِ الرأسِ ، ورجبٌ كالوجهِ ، وشعبانُ كالصدرِ ، ورمضانُ كالقلبِ ، فكانَ شهرَ اللهِ تعالىٰ على الخلوصِ بحُكْمِ اللهِ لا بإعدادِ الناسِ[1] .

[القلوبُ أربعةٌ]

فصارَتِ القلوبُ في المعنىٰ أربعةً : قلبَ كلِّ جسمٍ ، وقلبَ جملةِ العالمِ ، وقلبَ المكانِ ، وقلبَ الزمانِ ، والعَلَمُ عليها : خلوصُها للهِ تعالىٰ .

[اجتمعَتِ القلوبُ في رسولِ اللهِ ﷺ]

وقد جُمعَتِ القلوبُ للرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قلبُ جسمِهِ ، وقلبُ جملةِ العالمِ ؛ علىٰ ما بيَّنَّا أنَّ قلبَ العالمِ شجرةُ النبوَّةِ ، والنبوَّةَ قلبُ معاني القبضةِ ، وقلبُ الأرضِ ؛ فمكَّةُ مولدُهُ ، وقلبُ الزمانِ ؛ فشهرُ رمضانَ شهرُ صومِهِ .

= لا تشدُّ الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة) .

أما شدُّ الرحال لغير قصد البقاع : فلا يشمله الحديث الشريف ، ولهـٰذا قال الإمام الغزالي قبل هـٰذا وهو يذكر السفر المبرور : (ويدخل في جملته : زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام ، وزيارة قبور الصحابة والتابعين ، وسائرِ العلماء والأولياء ، وكلُّ من يُتبرَّكُ بمشاهدته في حياته يُتبرَّك بزيارته بعد وفاته ، ويجوز شدُّ الرحال لهـٰذا الغرض) .

(١) تقدم (ص٢٦٦) أنه سبحانه أضاف الصيام إليه ، وهو واقع في شهر رمضان المبارك ، وسبق هناك أن المسمَّىٰ بشهر الله هو المحرَّم .

[تنوُّعُ الاجتهادِ في تربيعاتِ المصنِّفِ]

فقالَ الأخُ : قد كنتَ قلتَ مِنْ قبلُ : إنَّ مكةَ رأسٌ ، والمدينةَ قلبٌ ، فكيفَ قد ناقضْتَ ؟!(١) .

قلتُ : كلَّا ، فذلكَ التفصيلُ منِّي علىٰ قَدْرِ المستنبَطِ مِنَ الحِكَمِ ، وهـٰذا التفصيلُ على الظاهرِ مِنَ القِسَمِ ، وقد ذكرْنا أنَّ الظواهرَ غيرُ البواطنِ ، علىٰ أنَّ القولَ الأوَّلَ كانَ قولاً باجتهادٍ ، فلا يوجبُ العلمَ والاعتقادَ ، ولـٰكنَّهُ مجوِّزٌ ، فلا يمنعُ غيرَهُ(٢) .

[علَّةُ كراهيَةِ المجاورةِ للكعبةِ عندَ الإمامِ أبي حنيفةَ]

وجملةُ القولِ فيهِ : أنَّهُ يجوزُ أنْ تكونَ هجرةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المدينةِ لحكمةِ أنَّ الكعبةَ ـ وإنْ كانَتْ بيتَ اللهِ تعالىٰ ، وقلبَ الأرضِ ، وأفضلَ بقعةٍ ، وواسطةً بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ـ ما يُصارُ إليها إلا بأمرٍ ؛ وذلكَ في الحجِّ والعمرةِ ، دونَ المجاورةِ ، وعلىٰ هـٰذا التأويلِ قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لعنَ اللهُ اليهودَ ؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَهم »(٣) وإنْ كانَتِ

(١) انظر (ص٤١٨ ، ٤٢٠) ، وعبارته : (ثم الله تعالىٰ دلَّ علىٰ هـٰذه المعاني : ببعثه من مكة فهي أم القرىٰ ، وبمنزلة الرأس لسائر الدنيا) ، ثم ذكر بعد سياق : أن المدينة بمنزلة الصدر ، وأن موضع دفنه عليه أزكى الصلوات والتسليمات بمنزلة القلب .

(٢) يعني : من القول المتقدم (ص٤١٨) .

(٣) رواه البخاري (٤٣٧) ، ومسلم (٥٣٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ، وروى البخاري (٤٣٥ ، ٤٣٦) ، ومسلم (٥٣١) من حديث سيدتنا عائشة وسيدنا ابن عباس رضي الله عنهم قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يطرح خميصة له علىٰ وجهه ، فإذا اغتمَّ بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنةُ الله على=

القبورُ معظَّمةً مزورةً[1] ؛ لأنَّهم عظَّموها حالَ الصلاةِ بغيرِ أمرٍ[2] .

ولهـٰذا كرهَ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ مجاورةَ الكعبةِ[3] ، ولم يتوطَّنْ بها أحدٌ مِنَ الصحابةِ ولا مِنَ المشهورينَ مِنْ علماءِ الأمَّةِ ، ولهـٰذا كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يفرِّقُ جمعَ الحجيجِ بعدَ قضاءِ النُّسُكِ إلىٰ أوطانِهم[4] .

= اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ » ، يحذِّرُ ما صنعوا .

(١) يعني : قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٢) إذ التعظيم لغيره سبحانه لا يكون إلا بأمره ، وروىٰ مسلم (٢٦٢٠) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً : « العزُّ إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذَّبته » ، ومن إذنه سبحانه وتعالىٰ قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٣/ ٤٢٦) : (شعائر الله : المعالمُ التي نَدَبَ إليها ، وأمر بالقيام بها ، واحدتها : شعيرة ، فالصفا والمروة من شعائر الله ، والذي يُعنىٰ به هنا : البُدْن) ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج : ٣٦] .

ومن مظاهر تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصحابة ـ وما أكثرها ـ : ما رواه البخاري (٢٧٣١) في صفتهم : (فوالله ؛ ما تنخَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم ، فدلكَ بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضوئه ، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظرَ تعظيماً له) ، وهو صلى الله عليه وسلم يرىٰ ذلك منهم ويرتضيه ، ولو كان فيه أدنىٰ شائبةِ مخالفةٍ لأقام النكير عليه .

(٣) خلافاً لصاحبيه رحمهم الله جميعاً ، وانظر تفصيل ذلك في « فتح القدير » (٣/ ١٧٨) وقد علَّلَ بما ذكر الإمام القاضي المصنف هنا ، وفي « حاشية ابن عابدين » (٢/ ٥٢٤) : (والمجاورة بمكة مكروهة ؛ أي : عنده ، خلافاً لهما ، وبقوله قال الخائفون المحتاطون من العلماء كما في « الإحياء » ، قال : ولا يُظَنَّ أن كراهة القيام تناقض فضل البقعة ؛ لأن هـٰذه الكراهة علَّتُها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحقِّ الموضع) .

(٤) أورده الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/ ١٢٢) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٣٤٧٠) عنه رضي الله عنه أنه قال : (لا تقيموا بعد النفر إلا ثلاثاً) ، =

ويجوزُ أنْ تكونَ الهجرةُ لحكمةٍ ألا يكونَ مكانٌ أُضيفَ إلى اللهِ تعالىٰ تشريفاً . مضافاً إلىٰ مَنْ دونَهُ تعريفاً ، ولو أقامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمكَّةَ لأُضيفَ إليهِ كما أضيفَتْ إليهِ المدينةُ ومسجدُها .

ويجوزُ أنْ تكونَ الهجرةُ لحكمةِ بيانِ فَضْلِ الإيمانِ على المكانِ ؛ فمكَّةُ كانَتْ أفضلَ بقعةٍ ، ولزمَ أهلَها الهجرةُ إلى المدينةِ لمكانِ الملَّةِ .

ويجوزُ أنْ تكونَ الهجرةُ لحكمةِ بيانِ فَضْلِ المدينةِ باطناً ، وإنْ كانَتْ مكَّةُ أفضلَ ظاهراً ، علىٰ ما سبقَ القولُ فيهِ آنفاً .



= وانظر « إحياء علوم الدين » (٢/ ١٤٤) .

[البشارة]

فقالَ الأخُ : لقد وعدْتَ البشارةَ وأنجزْتَ ، فما عليكَ لو جرَّدْتَ لها فصلاً وأوجزتَ .

[منازلُ الآدميِّ]

قلتُ : إنَّ الآدميَّ لهُ مِنْ حينِ ينفصلُ عنِ الأمِّ إلىٰ أنْ يستقرَّ بدارِ الجزاءِ منازلُ أربعةٌ : ظهْرُ الأرضِ إلىٰ أنْ يموتَ ، وبطنُها إلىٰ أنْ يُبعثَ ، والمحشرُ إلىٰ أنْ يُحاسبَ ، ودارُ الجزاءِ بعدَ الحسابِ .

[المؤمنُ خليفةٌ علىٰ ظهرِ الأرضِ]

فاللهُ تعالىٰ وعدَ لهُ مرتبةَ الخلافةِ(١) ـ وهي شبيهةُ الوزارةِ ـ علىٰ ظهرِ الأرضِ متىٰ ثبتَ علىٰ طهارةِ الفطرةِ ؛ إمَّا بنبوَّةٍ على الحقيقةِ ، أو بعلمٍ على الوراثةِ ، حتىٰ كانَ رأْيُ الفقيهِ في الأحكامِ حُجَّةً بمنزلةِ الوَحْيِ ، وأعلىٰ مراتبِ الوزيرِ أنْ يُفوَّضَ إلىٰ رأْيِهِ الأمورُ ، إلا مرتبةَ القُرْبِ مِنَ الأميرِ .

[المؤمنُ في ضيافةِ اللهِ في بطنِ الأرضِ]

ووعدَ لهُ مرتبةَ الضيافةِ في بطنِ الأرضِ ـ متى انتقلَ عن ظهرِها ـ علىٰ مرتبةِ

---

(١) قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] ، وفي هامش (و) : (أي : علىٰ عهد هو الميثاق ؛ أي : متىٰ ثبت وذهب علىٰ موجب الخلافة وختم . . أمن بالإيمان) .

الخلافةِ[1] ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ـ ١٧٠][2] .

[المؤمنُ حاكمٌ وشاهدٌ يومَ الحشرِ]

ووعدَ لهُ مرتبةَ **الحكومةِ** يومَ الحشرِ ؛ متىٰ كانَ على الضيافةِ في القبرِ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، والشاهدُ علىٰ مرتبةِ الحكومةِ يومَ الخصومةِ . . في الصدرِ معَ الحاكمِ والخصومُ جُثِيٌّ ، وقولُهُ كقولِ القاضي حُجَّةٌ ومرضيٌّ .

[المؤمنُ لهُ المُلْكُ الأبديُّ في دارِ الجزاءِ]

ووعدَ لهُ **المُلْكَ الأبديَّ** في دارِ الجزاءِ ؛ متىٰ كانَ في المحشرِ مِنَ الشهداءِ .

فهٰذا لكَ مِنَ اللهِ تعالى : **الخلافةُ** وأنتَ حيٌّ في الدنيا ، **والضيافةُ** وأنتَ مِنَ الموتىٰ ، **والشهادةُ** والناسُ علىٰ دعوىٰ ، **والمُلْكُ** وملوكُ الأرضِ وأتباعُهم في اللَّظىٰ .

---

(١) إذ الفوزُ رهين الموت على الإيمان ، وروى البخاري (٢٨٠١ ، ٤٠٩٢) ، ومسلم (٦٧٧/ ١٤٧) بعد الحديث (١٩٠٢) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه ذكر خاله حَرام بن ملحان ، وأنه لما طُعن يوم بئر معونة قال : فزتُ وربِّ الكعبة .

(٢) فلما كان للشهداء هٰذه الدرجة ثبتت للعلماء بالدلالة ؛ إذ لمِداد العلماء مزيَّةٌ علىٰ دم الشهداء ، فثبت أن بطن الأرض موضع الضيافة . انتهىٰ من هامش (و) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١٠٠٥) .

[أربعةُ أمورٍ لنيلِ تلكَ الرُّتبِ الحسنىٰ]

وذلكَ كلُّهُ بأربعةٍ : إيمانٍ بالقلبِ باللهِ تعالىٰ ، وإسلامِ الجسمِ لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، وكفرِ القلبِ بالنفسِ[1] ، وعصيانِ الجسمِ للنفسِ بحُكْمِ نَهْيِ اللهِ تعالىٰ[2] ، وفي الإيمانِ نورٌ ، وفي الإسلامِ سرورٌ ، وفي الكفرِ بالنفسِ راحةٌ ، وفي العصيانِ بالنفسِ عزَّةٌ ، علىٰ ما سبقَ القولُ فيهِ .

[الرضا بحُكْمِ المولىٰ ، والعملُ بشرعِهِ]

بل بشيئينِ : أنْ ترضىٰ بالحُكْمِ الذي ما لغيرِ اللهِ تعالىٰ فيهِ مِنْ خِيَرةٍ وأمرٍ ، وألا تعملَ طوعاً إلا بشرعٍ ، عملَ بدنٍ كانَ أو صدرٍ ، فتصيبَ بالرضا سلوةَ قلبِكَ ، وبالائتمارِ نعمةَ ربِّكَ ، وإنْ سبقَ عملٌ بغيرِ أمرٍ كَرْهاً بطبعِكَ أو غيرِكَ[3] . . كان عَفْواً .

ولـٰكنْ لا اهتداءَ إلا باللهِ تعالىٰ ، ولا ايتمارَ إلا بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، إليهِ نرجعُ وإيَّاهُ نستعينُ ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ .

[مراتبُ عامَّةِ المؤمنينَ]

قالَ : هـٰذهِ مراتبُ العلماءِ ، فما لعامَّةِ المؤمنينَ ؟

قلتُ : إنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ المؤمنينَ أمينُ اللهِ في حياتِهِ ؛ فقد شرحْنا بَدْءاً

---

(١) أي : جحود القلب لدعوة إمرة النفس . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : عصيان الجسم للنفس . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) أي : أكرهك الطبعُ من حيث الجبلة ، أو السلطانُ الظالم . انتهىٰ من هامش (و) .

أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ العالمَ كلَّهُ خَلْقاً بعدَ خلقٍ لحملِ الإنسانِ منهُ أمانتَهُ ؛ وهي أوامرُهُ ونواهيهِ ، وأصلُها : معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ النورُ الذي كانَ لأجلِهِ الصُّنْعُ بمائيَّتِهِ[1] ، وكانَ ذلكَ بمنزلةِ الكنزِ لملوكِ الأرضِ ، وكانَ العبدُ بمنزلةِ الخازنِ للمَلِكِ ، وقلبُهُ بمنزلةِ خزانتِهِ .

[حفظُ أمانةِ القلبِ للهِ تعالىٰ]

وقد أمرَ اللهُ تعالىٰ ـ وهو مالكُ الأمانةِ ـ صاحبَ كلِّ قلبٍ عارفٍ بحفظِهِ إلىٰ أنْ يصيرَ إلى الآخرةِ مجاهداً بصدقِهِ ؛ فقد خلقَهُ في دارِ الأعداءِ وضمنَ لهُ النُّصرةَ علىٰ خلقِهِ[2] ، بعدَما وضعَهُ موضعاً لا تصلُ إليهِ يدُ أحدٍ مِنَ الأعداءِ بحيلةٍ ولا غلبةٍ ، ولا يقدرُ علىٰ قهرِهِ بإمرةٍ ولا طَلِبَةٍ[3] .

[صورُ ردِّ أمانةِ القلبِ]

إلا أنْ يجبنَ العبدُ فيطيعَهم جُبْناً ، أو ينخدعَ بغرورِهم فيساعدَهم جهلاً ، أو يغفُلَ عن قَدْرِ الكنزِ فيَضِلَّ عنهُ تهاوناً ، أو يجهلَ قَدْرَ نفسِهِ فيردَّهُ تكبُّراً .

[الجبنُ]

وإنَّ الجُبْنَ في رجوعِ العبدِ إلىٰ ضعفِهِ بالبُعْدِ عن ربِّهِ رؤيةً بعينِهِ وكَلّاً[4] ؛

---

(١) أي : بحقيقته . انتهىٰ من هامش (د ، هـ) .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] ، وقال سبحانه : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) ولهـٰذا يثبت الإيمان عند الإكراه ؛ إذ محلُّهُ لا يصل إليه أحدٌ من الخلق ، ولذا قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

(٤) كَلَّت الأبصار عن إدراكه سبحانه ؛ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ=

فإنَّ اللهَ تعالىٰ أقربُ إليهِ مِنْ حبلِ الوريدِ[1] ، وأقوىٰ بلا شكٍّ مِنْ كلِّ بعيدٍ .

[الانخداعُ]

والانخداعَ في رؤيةِ زخارفِ الدنيا وطبقاتِ الورىٰ ، وكَلَّا[2] ؛ فما عندَهُ مِنَ الكنزِ هوَ الخيرُ والنورُ ، وما سواهُ ممَّا عندَ الأعداءِ غرورٌ ، فالقسَّامُ حكيمٌ ؛ ما يؤثِرُ الأعداءَ علىٰ أوليائِهِ بالنعيمِ ، وأمَّا الطبقاتُ مِنَ الناسِ الذينَ لا معرفةَ لهم فأعداؤُهُ وحسَّادُهُ ، وما لهم عليهِ مِنْ سلطانِ سَلْبِ الدينِ والإيمانِ ، فلا تغترِرْ بهمُ اغترارَ التاجرِ في سفرِهِ بأسلحةِ اللصوصِ وطراداتِهم ، ودسيسِهم وكلماتِهم[3] ، يحفظُ ما عندَهُ مِنَ الجواهرِ وإنْ كانوا عساكرَ ، فالحفظُ في المجانبةِ ، إذا أمنَ المغالبةَ[4] .

[الغفلةُ]

وأمَّا الغفلةُ عن قَدْرِ الكنزِ : ففي التديُّنِ اقتداءً بالآباءِ ، واتِّباعاً للنُّظَراءِ ؛ فما الدِّينُ ممَّا يقبلُ النقلَ إرثاً ، أو يُصابُ عادةً وحِسّاً ، وإنَّما الوصولُ إليهِ مِنْ طريقِ الاستدلالِ بآياتِ اللهِ والنظرِ في كُتُبِهِ ، فمَنْ تديَّنَ إرثاً هانَ عليهِ الدِّينُ ،

= ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، ويحتمل أن قوله : (وكلا) للردع والزجر ، والله أعلم .

(١) فهو تعالىٰ من باب أولىٰ أقرب إليه من عينيه ، فكيف يبصره بهما ؟! وفي هامش (و) : (أي : أعلم وأقدر عليه ، الحبل والوريد واحدٌ ، أضيف إلىٰ نفسه لقطع الاشتراك عن الحبل ؛ أي : علمُ الربِّ أقرب من علم القلب) .

(٢) (كلا) هنا : حرف ردع وزجر كما لا يخفىٰ .

(٣) الدسيس : من تدسُّهُ ليأتيك بالأخبار ، وهو شبيهُ المتحسِّسِ ، والعامة يسمونه : الداسوس . انظر « تاج العروس » (د س س) (١٦/ ٧٣) .

(٤) أي : حفظ التاجر المالَ بالمجانبة عن اللصوص إذا أمن مغالبتهم ؛ أي : وإن أمن المغالبة . انتهىٰ من هامش (و) .

فما الذي أصابَهُ بدِينٍ يأنسُ بهِ ، ولـٰكنَّهُ دِينٌ يستوحشُ منهُ .

[الجهلُ]

وأمَّا الجهلُ بقَدْرِ النفسِ : فبالغفلةِ عنِ المُنعِمِ بالنعيمِ ، وبقدرةِ النفسِ عن خالقِ القدرةِ ؛ فإنَّهُ متىٰ غفَلَ عن خالقِ القدرةِ ولو بخطرةٍ . . ادَّعَتِ النفسُ الإمرةَ ، واستعبدَ الجسمَ ، وبدَّلَ الاسمَ[1] ؛ وقالَ : إنِّي الإلـٰهُ المطاعُ ، والناسُ عبيدٌ لي أتباعٌ .

[نجاةُ مَنْ تنبَّهَ لهـٰذهِ المهالكِ]

فإذا تنبَّهَ العبدُ لخالقِ قدرةِ النفسِ . . عرفَ قدْرَها ، ونهاها عنِ الهوىٰ ، وخافَ مقامَ المولىٰ ، وإذا عرفَ اللهَ تعالىٰ بالنظرِ في الآياتِ ، ولم يغترَّ بالزخارفِ والطبقاتِ ، ولم يجبُنْ في الجهادِ ومعَهُ مولى العبادِ . . عاشَ علىٰ ظهرِ الأرضِ خازناً أميناً ، معصوماً مَهيباً ، وفي بطنِ الأرضِ مبشَّراً بالخِلْعةِ ، منتظراً للكرامةِ ، ويومَ البعثِ محيّاً بالسلامِ ، مهنّىً بالإكرامِ ، وفي الجنَّةِ معظَّماً بالولايةِ ، وحُسْنِ العنايةِ ، وهـٰذهِ الدرجاتُ كبيرةٌ ، وإنْ كانَتِ الأولىٰ أكبرَ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١][2] .

[سببُ هلاكِ الإنسانِ معَ الإحسانِ والبيانِ]

وسببُ هلاكِ الإنسانِ بعدَ كلِّ هـٰذا الإحسانِ والبيانِ[3] : بجهلينِ وعلمينِ

---

(١) سبق مراراً تذكير لفظة (النفس) للإمام المصنف .

(٢) لأن الأولىٰ درجة الخلافة ، وهي درجة العلماء ؛ لأن درجة العلماء أكبر من درجة العامة . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) الإحسان : إعطاء الأنوار ، وبيان المنازل الأربعة من حين ينفصلُ إلىٰ أن يموت ، وبعد =

في حقِّ نفسِهِ وربِّهِ ، وجهلينِ وعلمينِ في حقِّ العالَمِ والخالقِ[1] .

[جهلُ المرءِ بمولاهُ وبنفسِهِ]

أمَّا الجهلانِ الأوَّلانِ :

فجهلُ المرءِ بمولاهُ : حتى اتَّخذَ إلـٰهَهُ هواهُ ، ولم يسعَ ـ وإنْ علَتْ همَّتُهُ وصفَتْ حكمتُهُ ـ إلا لاقتضاءِ شهوةٍ ؛ مِنْ مُلْكٍ أو مالٍ أو رِفعةٍ ، علىٰ علمٍ ضروريٍّ بارتدادِ كثيرٍ ممَّا يريدُهُ ويبتغيهِ ، ومساسِ ما يردُّهُ مِنَ المكارهِ ويتَّقيهِ .

ثم جهلُ المرءِ بنفسِهِ بعدَ العلمِ بمولاهُ : فيسلكُهُ النفسُ بهواهُ ، في طريقِ هداهُ ، فيطلبُ بالدِّينِ والتقوىٰ ، ما طلبَ الجاهلُ بالمولىٰ[2] ، فيكونُ الهدىٰ مزيَّفاً بالهوىٰ[3] ، والهوىٰ منغَّصاً بالهدىٰ ، علىٰ يقينٍ منهُ بهجسِ هوى الطبعِ ، بخلافِ الشرعِ ، فدلَّ الإرادةُ على المريدِ[4] ، كما دلَّ الارتدادُ في الفصلِ الأوَّلِ على العجزِ والخمودِ .

ولعمري ؛ إنَّ طلبَ الدنيا بالدنيا خيرٌ مِنَ الطلبِ بالدينِ ، واقتضاءَ الشهوةِ بلا تقوىٰ ألذُّ مِنَ المشوبِ بالتقوىٰ بيقينٍ .

= الرسل والإلحاد. . للبيان . انتهىٰ من هامش (و) ، والمرادُ بعجز الكلام : وبعدَ بعث الرسل والإلحاد في القبر .

(١) تعدد التشبيه فيهما باعتبار المضاف إليه ، حتىٰ كان مجموع الجهلين والعِلْمينِ أربعاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) وإنما طلب الجاهل بالمولىٰ قضاء شهوته كما رأيت .

(٣) يعني : مختلطاً به .

(٤) لأن الإرادة صفة لا تكون بلا موصوف ، فتكون الإرادة دليلاً على المريد ، وهو النفس . مفادٌ من هامش (و) .

والجهلُ بنفسِهِ : وهو فوقَ الجهلِ بمولاهُ[١] ، وهو غيرُهُ ، وإنْ كانَ الجهلُ الأوَّلُ كفراً كانَ الثاني شِرْكاً ، والشركُ أفحشُ الكفرينِ ، وأقبحُ الأمرينِ[٢] .

[العلمانِ المهلكانِ ما يوجبانِ القَدَرَ أوِ الجَبْرَ]

وأمَّا العلمانِ المهلكانِ مِنْ هـٰذا القسمِ : فعلْمُ المرءِ بقدرةِ نفسِهِ على الخلوصِ[٣] ، أو قدرةِ اللهِ تعالىٰ على الخصوصِ[٤] .

فمَنْ ظنَّ القدرةَ لنفسِهِ خالصةً سمَّىٰ نفسَهُ إلـٰهاً مِنَ الآلهةِ ، وغالَبَ واستعبدَ ، وما أطاعَ ولا عبدَ ، وذلكَ بنظرِهِ إلىٰ حُسْنِ تدبيرِهِ وتقديرِهِ ، وسعيِهِ مختاراً إلىٰ أمورِهِ ، فكانَ في خَطْبِهِ واتِّباعِ هواهُ فوقَ الجاهلِ بربِّهِ وهداهُ ، فالجاهلُ بربِّهِ جاهلٌ شغلاً بهواهُ ، والهوىٰ معلومٌ طبعاً ؛ فإنَّهُ حركةُ مرادٍ فيهِ يتبيَّنُ هَجْساً ، وهـٰذا شغلٌ عن قدرةِ اللهِ تعالىٰ بقدرةِ نفسِهِ ، والنفسُ صاحبةُ الهوىٰ ، وهي غائبةٌ دونَ الهوىٰ عن طبعِهِ وحسِّهِ ، ما تُعلمُ إلا باستدلالٍ عقليٍّ ، أو سماعٍ شرعيٍّ[٥] ، ومتىٰ علمَها المرءُ دونَ ربِّهِ كانَ أطوعَ لها ممَّنْ جهلَها بقلبِهِ ، وإنَّهُ ليردُّ عليهِ هـٰذا العلمُ ما يردُّ علىٰ صاحبِ الهوىٰ ذلكَ الحكمُ ، فارتدادُ ما تهواهُ النفسُ الأمَّارةُ أكثرُ مِنَ الإصابةِ ، ولن تصيبَ شيئاً بحالٍ ما لم يكنِ الجسمُ علىٰ إجابةٍ .

---

(١) في (ب ، و) : (وهو هو) بدل (وهو) ، وفي هامش (و) : (أي : النفس ذاته) .

(٢) لأن فيه جهلينِ ؛ الجهل بالله ، والجهل بنفسه حتىٰ سمَّاه خالقاً . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) إشارة إلىٰ مذهب القدرية .

(٤) إشارة إلىٰ مذهب الجبرية .

(٥) إذ طريق معرفة ما غاب عنَّا بهـٰذين الطريقين . انتهىٰ من هامش (و) .

ثمَّ العلمُ باللهِ تعالىٰ على الخصوصِ[١] ؛ لكونِهِ خالقاً ، ولا خلْقَ بلا قدرةٍ ، وكونِ العالمِ مخلوقاً ، ولا قدرةَ معَ الانخلاقِ ، فمَنِ ادَّعى القدرةَ للهِ تعالىٰ على الخصوصِ لم يرَ لنفسِهِ فعلاً ، كما لم يرَ للجمادِ أصلاً ، وأضافَ حدوثَ الأفعالِ إلى اللهِ تعالىٰ إضافةَ الأجسامِ ، فرأىٰ كلَّها حسنةً ؛ فما فعلُ اللهِ بقبيحٍ فيتبرَّأَ عنِ الآثامِ[٢] ، وأتىٰ بكلِّ الملاهي ، وركبَ المناهيَ ، وهو عالمٌ باللهِ غيرُ ساهي ، والعصيانُ بعدَ العلمِ فوقَ العصيانِ علىٰ جهلٍ بعدَ حُجَّةٍ قائمةٍ علىٰ قدرتِهِ بحركاتٍ اختياريَّةٍ ظاهرةٍ ، وتدبيراتٍ عقليَّةٍ باطنةٍ ، فكانَتْ هٰذهِ الغفلةُ فوقَ الأولىٰ ؛ فقد غفَلَ عن ظاهرٍ منهُ وفيهِ ، والأوَّلُ عن باطنِ مبانيهِ[٣] .

[الجهلانِ المهلكانِ بعدَ العلمِ باللهِ تعالىٰ والعالَمِ]

وأمَّا الجهلانِ الآخرانِ بعدَ العلمِ بأنَّ اللهَ تعالىٰ خالقٌ والعالمَ مخلوقٌ :

فالجهلُ بكونِ المضارِّ والمنافعِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقَدَرٍ ، حتىٰ يراها مِنَ العالمِ الأصغرِ والأكبرِ[٤] ، فيشتغلَ بالعالَمِ دونَ خالقِهِ ؛ رَغَباً أو رَهَباً في طرائقِهِ ،

---

(١) يعني : العلم بقدرة الله تعالىٰ دون إثبات كسبٍ للعبد .

(٢) إذ إنما قبُحَ القبيح بكسب العباد ، وأما فعله تعالىٰ فلا يوصف بالقبح مطلقاً .

نعم ؛ قد ترىٰ لبعض السادة الصوفية عبارات فيها البراءة عن الفعل مطلقاً ، ولٰكنهم لما أثبتوا الكسب ، وطوَّلوا المقال في مقام الخوف والرجاء.. عُلِمَ أنهم لا يقولون بالجبر المذموم الذي الحديث فيه .

(٣) أي : الجهل الذي للجبري فوق الجهل الذي للقدري ؛ لأن الجبري يجهل ما هو ضروري ، والقدري يجهل ما هو ثابت بالاستدلال والنظر . مفادٌ من هامش (و) .

(٤) دون خالقهما سبحانه ، وفي العبارة الإشارة إلىٰ قول الشاعر : (من المتقارب)

دواؤك منــــك ومـــــا تبصــــر   وداؤك فيــــك ومـــــا تشعــــرُ =

فيصيرَ كافراً جَناناً ، وهو مؤمنٌ لساناً ، يشهدُ علىٰ كفرِهِ فعلُهُ ، ويكذِّبُ شهادةَ لسانِهِ عقدُهُ ، وإنَّهُ لشرُّ الثلاثةِ[1] ؛ فقلبا الأوَّلَيْنِ كانا معَ لسانيهما ، فكانا بالقلبِ واللسانِ مقبلينِ علىٰ شأنيهِما ، وكذلكَ شأنُ كلِّ مَنْ أحبَّ شيئاً ؛ فإنَّهُ يَعْمىٰ وهو بصيرٌ ويَصَمُّ وهو سميعٌ[2] ، كما كفرَ هـٰذا وهو عارفٌ بقلبِهِ وبظاهرِهِ مطيعٌ .

وعلىٰ هـٰذا الأساسِ ، عامَّةُ الناسِ ، علىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، بلا عقدِ سمعٍ وطاعةٍ ، ولا إيمانٍ بالجزاءِ والساعةِ ، معَ قيامِ الحُجَّةِ علىٰ أنَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وكم مِنْ طبيبٍ ماتَ قبلَ الجاهلِ ، وكم مِنْ بعيدٍ عنِ الطبيبِ عاشَ دونَ الواصلِ ، وكم مِنْ حكيمٍ وضعَتْهُ دولتُهُ ، وسفيهٍ رفعَتْهُ دولتُهُ .

= وتــزعــم أنــك جــرمٌ صغيــرٌ   وفيــك انطـوى العــالَـم الأكبـرُ

وفي هامش (و) : (فإنه يرى المضارَّ والمنافع من العالم الأصغر والأكبر ، دون خالقهما) ، والمراد بهـٰذا الجهل : ذمُّ القول بالطبائع ، وأنها مؤثرة لذاتها ، فمن قال بذلك نفى القدر بالضرورة .

(١) اقتباسٌ ممَّا رواه أبو داود (٣٩٦٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٤٩٠٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ولد الزنىٰ شرُّ الثلاثة » ، قال الإمام المحقِّق الخطابي في « معالم السنن » (٤/ ٨٠) : (ذهب بعضهم : إلىٰ أن ذلك إنما جاء في رجل بعينه كان موسوماً بالشرِّ ، وقال بعضهم : إنما صار ولد الزنىٰ شرّاً من والديه ؛ لأن الحدَّ قد يُقام عليهما فتكون العقوبة تمحيصاً لهما ، وهـٰذا في علم الله لا يدري ما يصنع به ، وما يفعل بذنوبه) ، وقال الإمام السرخسي في « المبسوط » (١/ ٤١) : (المراد : شرُّ الثلاثة نسباً ، أو قاله في ولد زنىً بعينه نشأ مرتدّاً) .

(٢) روىٰ أبو داود (٥١٣٠) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « حبُّكَ الشيء يُعْمي ويُصِمُّ » .

وربَّما غلا في هـٰذا العلمِ وتركَ الظواهرَ بالطبائعِ[١] ، وخالطَ الأطبَّاءَ ، وعدَّ نفسَهُ مِنَ الحكماءِ ، وإنَّهُ بابٌ باطنٌ آخرُهُ سرٌّ عن علمِ البشرِ ، فيشتغلُ بهِ عن معرفةِ الأكبرِ ، وربَّما أخطأَ فقتلَ نفسَهُ فيما دبَّرَ .

وربَّما جاوزَ علمُهُ بطباعِ نباتِ الأرضِ وأوقاتِ الزمانِ إلى الفَلَكِ والشُّهُبِ ، ودقائِقُها خفيَّةٌ لا تدركُ ، فيزدادُ ضلالاً .

وربَّما ضلَّ في طريقِهِ الأوَّلِ غافلاً عن ضلالِهِ ، فطلبَ شيطاناً وهو فيلسوفٌ عندَهُ بحالِهِ[٢] ، وكانَ كطائرٍ في الهواءِ بلا جناحٍ ، أو راكبِ فُلْكٍ بلا مَلَّاحٍ .

والجهلُ الثاني : الجهلُ بتعلُّقِ المضارِّ والمنافعِ بالعالَمِ أصلاً ، فيرميهِ رمْيَ العَذِرةِ ، شغلاً باللهِ ذي القدرةِ ، فيصيرُ خلقُهُ لديهِ عبثاً ، والإقبالُ عليهِ سفهاً ، فيكفرُ باللهِ تعالىٰ وهو منقطعٌ إليهِ ، ويسفِّهُ ربَّهُ وهو واقفٌ لديهِ[٣] ، فكانَ شرّاً

---

(١) وهو إضافة المنافع والمضارِّ إلىٰ جنسه ، أو إلى السماء والأرض ، (وترك الظواهر) ؛ أي : لا يكتفي بالظاهر من الطبيعة ، بل يشتغل باستخراج المعنى المؤثِّر ؛ فإن الظاهر من خاصَّة السكنجبين قطع الرطوبات ؛ وهو يتركُ هـٰذا الظاهرَ ، ويشتغل بمعرفة حكمة السكنجبين أنه يأتي سبب قالع ، فإذا عرف ذلك المعنىٰ أضاف المنفعة إلىٰ ذلك المعنى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) أي : عند الطالب . انتهىٰ من هامش (هـ) .

(٣) حذارِ أن تظنَّ بهـٰذا الكلام أنه غمزٌ بطريق الأشعرية ؛ إذ القوم لا يكابرون بالمحسوس وينكرون وجود المضارِّ والمنافع ، ولا ينكرون حكمةَ الله تعالىٰ في خلقهما ، وابتلاءَ المكلَّفين بهما ، ولـٰكن ينفون إثبات العبث والسفه في حقِّه تعالىٰ وإن خلقهما أو لم يخلقهما ؛ لأنه تعالىٰ لا ترجع إليه فائدة أو عائدة بذلك ، وله تعالىٰ أن يفعل ما يشاء .

ولهـٰذا المعنىٰ قال حجة الإسلام الغزالي في « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص٣٤٧) : (إن العقل لا يرشد إلى النافع والضارِّ من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولا يفرِّق بين المشقِي والمسعِدِ ، كما لا يستقلُّ بدَرَك خواصِّ الأدوية والعقاقير ، ولـٰكنَّهُ إذا عُرِّفَ فهم =

مِنْ صاحبِهِ ؛ فإنَّهُ زلَّ وهو معَ الدنيا ، وهـٰذا ضلَّ وهو معَ المولىٰ ، وذلكَ عَمِيَ رجوعاً إلى الخلائقِ ، وهـٰذا عَمِيَ ركوناً إلى الخالقِ ، وهـٰذا سفَّهَ ربَّهُ ، وإنَّهُ فوقَ مَنْ حكَّمَ قلبَهُ[1] .

وعلىٰ هـٰذا عامَّةُ أولياءِ العُزْلةِ[2] ، قبلَ العلمِ بحقيقةِ المِلَّةِ ، بعدَ آياتٍ ظاهرةٍ للهِ تعالىٰ علىٰ تعلُّقِ المضارِّ والمنافعِ بالدنيا والورىٰ ؛ فبعضُهم يقتلُ بعضاً ويحييهِ ، ويَحْرِمُهُ ويولِّيهِ ، وينفعُهُ ويؤذيهِ ، وكذلكَ مِنَ النباتِ ما يمرضُهُ ويشفيهِ ، ومِنَ النجومِ ما يضعُ قدرَهُ ويُعْليهِ[3] ، وكم مِنْ أرضٍ تُنْبِتُ قوتَهُ وتزكِّيهِ[4] ، وكم مِنْ رسولٍ مِنَ الناسِ جاءَهُ يهديهِ ، وكم مِنْ بُقعةٍ تعلَّقَتْ بها النجاةُ ، ووقتٍ تعلَّقَ بهِ ابتغاءُ المرضاةِ .

[العلمانِ المهلكانِ]

وأمَّا العلمانِ المهلكانِ :

= وصدَّق ، وانتفع بالسماع) ، والنافع والضارُّ في الدنيا إنما عرف بالتجربة ، وهي إحدىٰ وسائل المعرفة ، ولا معنىٰ لإنكارها بعد مشاهدتها ، ولا معنىٰ لإنكار حكمة الله في خلقهما بعدما عرفناه سبحانه وتعالىٰ حكيماً عليماً .

(١) وهم علماءُ الفلسفة . انتهىٰ من هامش (ب) .

(٢) تقدم ذكرهم (ص٧٢٧ ، ٧٣٨) .

(٣) إذ المنجِّمةُ يقسمونها إلىٰ نجوم سعد ونجوم نحس ، وهـٰذا من الإمام المصنف جريٌ علىٰ ما اعتاده عامة الناس .

(٤) كالبيت العتيق ، والمسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، وبيت المقدس . انتهىٰ من هامش (و) ، ويحمل هـٰذا على العوائد الشرعية بتضاعف الأجور ، وكلُّهُ بفضل الله تعالىٰ وعطائه ، لا بذاتها ، وروىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٦٩) : أن سيدنا أبا الدرداء كتب لسيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنهما : أن هلمَّ إلى الأرض المقدسة ، فكتب إليه سلمان : إن الأرض لا تقدِّسُ أحداً ، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُهُ .

علمَ الناسَ أحراراً مُلَّاكاً بظاهرِ أيديهم وأمورِهم ، وأمراءَ مُلُوكاً بظاهرِ عُلُوِّهم وتدبيرِهم ، فيميلُ إليهم لإرادةِ طَلِبَةٍ أو غلبةٍ علىٰ غفلةٍ ؛ بمعاداةِ بعضِهم بعضاً ، ومنازعتِهم على الأرضِ طولاً وعرضاً ، طمعاً أو حسداً ، والمائلُ إلىٰ عدوِّهِ راكناً إليهِ مرحومٌ ، وسائلاً محرومٌ .

ثم علمَ الأرضَ جنَّتَهُ بما يرىٰ عليها ، والسماءَ زينتَهُ بما ينزلُ منها ، فيطلبُ موافقةَ النجومِ بحسابِهِ ، ومعانقةَ الأرضِ بطِلابِهِ ، علىٰ غفلةٍ عنِ التقامِ الأرضِ إيَّاهُ وهو بينَ الناسِ مَلِكٌ ، وانتقامِ النجومِ بنحوسِها منهُ وهو في حسابِ الفَلَكِ[1] .

[لا عذرَ للغافلِ معَ مشاهداتِ اليقينِ]

ولا عذرَ لهُ على الغفلةِ ؛ فالالتقامُ بعدَ الموتِ ظاهرٌ[2] ، وشهابُ العداوةِ بينَ الناسِ نائرٌ .

ثم هـٰذا فوقَ مَنْ قبلَهُ سفهاً ؛ فالأوَّلُ جعلَ خِلْقةَ العالَمِ عبثاً ، وهـٰذا جعلَ العالمَ بعضَهُ مُلْكاً وبعضَهُ خَوَلاً ، وبعضَهُ خدماً وبعضَهُ مِلْكاً[3] .

والعلمُ الآخرُ : علمُهُ الناسَ عبيداً أرقَّاءَ للهِ تعالىٰ ، وما سواهم حقّاً للهِ تعالىٰ[4] :

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] .

(٢) قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [المرسلات : ٢٥] ، والكَفْت : الضمُّ ؛ أي : تضمُّكم فيها ، قال العلامة الزجاج في « معاني القرآن » (٥/ ٢٦٧) : (تضمُّهم أحياء علىٰ ظهورها ، وأمواتاً في بطنها) .

(٣) في (ز) : (ربّاً) بدل (خدماً) .

(٤) وهو الذي لا يرىٰ تأثير الأسباب في المنافع والمضارِّ ؛ لأن فيه إثبات الشِّرْكة ، وفي الأول نسبةُ العبث ، فالعلم الأول : أن يرى الشفاء من الطبيب ، والعلم الثاني : هو ألا يرىٰ من=

فيَكُفُّ عنِ العملِ بهِ كأنَّهُ جمادٌ[١] ؛ فعملُ العبدِ ملكٌ لمولاهُ ، ويَكُفُّ بهـٰذهِ الحُجَّةِ عمَّنْ سواهُ ، علىٰ غفلةٍ عن ضروبِ أعمالٍ وحركاتٍ اختياريَّةٍ مِنَ العبادِ لا يمكنُهمُ الكفُّ عنها لابتغاءِ مرادٍ[٢] ، وغفلةٍ عن تربِّي الأطفالِ برَضَاعِ النساءِ وقيامِ الرجالِ ، وقيامِ النفسِ بما لا يصلُ إليهِ شيءٌ مِنْ خَيْرِهِ ، إلا بمقدِّماتٍ مِنْ غيرِهِ ، وبقاءِ الجنسِ ، مِنْ طريقِ ازدواجِ النفسِ بالنفسِ[٣] .

ولا عذرَ لهُ ، فالأمورُ عِيانٌ ، غيرُ مفتقرةٍ إلىٰ بيانٍ .

وهـٰذا شرُّ الجميعِ ؛ فصاحبُهُ اغترَّ بالنعيمِ فلم يشكرْ ، وهـٰذا كفرٌ بالنعمةِ ، وأنكرَ وإنكارُ النعمةِ فوقَ الإقرارِ بها بلا شكرٍ بدرجةٍ ، معَ ما أنَّ الأوَّلَ عاشَ بالناسِ مستأنِساً بهم ، وبالأرضِ منتفِعاً بها ، وبالنجومِ مهتدياً ، وهـٰذا بالكفِّ أهلكَ نفسَهُ بنارِ الجَوعةِ ، في وَحْشةِ الوَحْدةِ[٤] .

= الطبيب فعلاً . انتهىٰ من هامش (و) ، وهو كما ترىٰ هروب من الجبر والقدر .

(١) وهـٰذا هو الفرقُ بين من يرى العالم قوالبَ وأشباحاً تجري عليهم أحكام القدرة الأزلية ، فلا يزداد بهـٰذا العلم إلا جدّاً في العمل ، وقرباً من الله تعالىٰ بالإكثار من النوافل ، وبين جبريٍّ أبله ، أسقط بسوء نظره التكليف ، فلم يكن محلاًّ للتعريف .

(٢) كتنفُّسه في كلِّ حين ، وفتح فمه عند الطعام والشراب وإن كان يعلم أن الرزق من ربِّ العالمين ، فالمولىٰ سبحانه له أعظم الحِكَمِ بخلق المكلَّف المختار ، فما عُلمت إرادة الله الأزلية علماً يقيناً إلا بخلق إرادة العبد الحادثة فيه ، فباختياره عرف المختارَ ، وبوهم حوله وقوته تعرَّف على القدرة الأزلية كذلك ، والله عليم حكيم .

(٣) فهـٰذه كلُّها دالَّة علىٰ أن العبد مختار ، سواء كان ذلك صورةً كما قال كثير من الأشعرية ، أو حقيقةً اعتبارية كما ذهب إليه الماتريدية .

(٤) إن من دقَّق النظر لم يقف علىٰ قدريٍّ خالص ولا علىٰ جبريٍّ خالص ، والسفسطة مذهب ساقط غير معتبر ، وكما قال العلامة السعد ؛ فالنار للمعاند مستنطقةٌ ما كمن في صدره ، وكابر في كتمه ، فتعذيب هـٰؤلاء عين الرحمة بهم .

[النجاةُ في العلمِ ؛ فالعلمُ نورٌ]

واعلمْ : بأنَّ النجاةَ في تبديلِ الجهلِ كلِّهِ بالعلمِ ، فالجهلُ ظلمةٌ ، والعلمُ نورٌ .

والعلمُ كلُّهُ في التجاوزِ عن علمِ المقصِّرِ ، والوقوفِ على علمِ الغالي ، ففيهِ الحكمةُ ؛ فالغالي : مَنْ جاوزَ حدَّ العلمِ ، والمقصِّرُ : مَنْ لم يبلغْهُ ، ووراءَ حدِّ العلمِ جهلٌ كما دونَهُ ، وجهلُ الغالي شرُّهما ؛ فإنَّهُ لا يَعلمُ إلا برجوعٍ ، والمقصِّرُ يَعلمُ بإقبالٍ ، والرجوعُ بعدَ السيرِ أشقُّ على النفسِ مِنْ زيادةِ أميالٍ .

فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

إنَّ الواسطةَ مِنَ البابِ الأوَّلِ : أنْ يعلمَ المرءُ نفسَهُ عاجزةً بذاتِها ، لولا طاعةُ الجسمِ إيَّاها لَمَا ارتفعَ لهُ شيءٌ مِنْ إراداتِها ، فيعتقدَها طاغوتاً[1] ، ولا يظنَّها إلـٰهاً ، فهوَ القادرُ ، فيكفرَ بها ولا يطيعَها ، بل يقهرُها .

ثم يعلمَ حياةَ الجسمِ بها ، ولا قوَّةَ لهُ على أداءِ ما حُمِّلَ مِنَ الأمانةِ وإقامةِ ما فُوِّضَ إليهِ مِنْ أمورِ الخلافةِ دونَها ، فيحسنَ إليها ويبرَّها[2] ، فيُهينَها لعجزِها في ذاتِها ، ويبغضَها لهواها ، ويَقْبَلَها ويُحْسِنَ إليها لعونِها بحالِها على عملِ الآخرةِ ، فيكونَ الهوانُ أصليّاً ، والقبولُ حاليّاً .

ثمَّ العلمُ باللهِ إلـٰهاً[3] ، فما بعدَ النفسِ وقفةٌ للتأمُّلِ إلا إليهِ ، فيصيرَ مؤمناً حقّاً ، وماضياً على السمعِ والطاعةِ صِدْقاً ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ

---

(١) طاغوتُ كلِّ امرئٍ نفسه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) نفسك مطيَّتُكَ ، فارفقْ بها . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) معطوفٌ علىٰ قوله قبلُ : (أن يعلمَ المرءُ نفسَهُ عاجزة. . .) .

﴿بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ [البقرة : ٢٥٦] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتىٰ يقولوا : لا إلـٰهَ إلا اللهُ »(١) ؛ بدأَ بالنفْيِ ، ثم بالإثباتِ ، فصارَ النفْيُ أساساً للتوحيدِ ، والإثباتُ بناءً ، ولا بناءَ قبلَ الأساسِ ، وعليهِ أكثرُ الناسِ ، ولذلكَ لا يثبتونَ علىٰ يقينِهم ، وينهارُ عليهم معالمُ دينِهم(٢) .

ثم يطلبَ الواسطةَ بينَ عِلْمَيِ القدرةِ(٣) ، فلا يعدَّ نفسَهُ قادراً مطلقاً كأنَّهُ إلـٰهٌ ، ولا عاجزاً أصلاً كأنَّهُ جمادٌ ، بل يرى القدرةَ لهُ بإقدارِ اللهِ إيَّاهُ عليهِ حالَ فعلِهِ ؛ حتىٰ لا يعملَ إلا وقدِ اقتدرَ ، ولا قدرةَ لهُ حالَ الفعلِ إلا بقَدَرٍ ؛ فقد عرفَ نفسَهُ مخلوقاً ، والمخلوقُ عاجزٌ ، وهو مخلوقٌ بذاتِهِ ، ثم عرفَهُ حيّاً ، والحيُّ قادرٌ(٤) ، وإنَّهُ مِنْ صفاتِهِ ، فيكونَ عاجزاً بأصلِهِ ، قادراً حالَ فعلِهِ ، علىٰ ما مرَّ بيانُهُ في فصلِهِ(٥) .

وإيَّاهُ والغفلةَ ؛ فالعملُ عنِ اختيارٍ دَلالةٌ على القدرةِ ، وإنَّهُ ظاهرٌ ، وكونُ الذاتِ مخلوقاً دَلالةٌ على العجزِ ، وإنَّهُ باطنٌ ، فيرىٰ ربَّ القدرةِ بحُكْمِ العجزِ ، وإنَّهُ ذاتيٌّ ، ونفسَهُ بحُكْمِ القدرةِ ، وإنَّهُ حاليٌّ ، فتصيرُ رؤيةُ اللهِ تعالىٰ

---

(١) تقدم (ص٥٩٨) .

(٢) لأن الإثبات من غير نفي لا معنىٰ له ؛ كمن أثبت حقّاً مع باطلٍ يضادُّهُ ؛ كمن يجعل ما اختلف الناس فيه من الاعتقاد حقّاً كلَّهُ ! قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، فما هو إلا مداهنة يرجوها أهل الباطل .

(٣) أي : بين قدرة الله ، وقدرة نفسه . انتهىٰ من هامش (ج ، هـ) .

(٤) يعني : ثم عرف نفسه حيّاً بعدما عرفها مخلوقة ، وإنما أراد مفارقة الحيوانية للجمادية ؛ إذ الحياة لازم القدرة ، لا ملزومها .

(٥) انظر (ص٦٢٩) .

أصلاً ، وهـٰذا فرعاً ، كما بيَّنَّا في الفصلِ الأوَّلِ[1] ، وللأصلِ دوامٌ ، وللحالِ انقضاءٌ ؛ فيكونُ بقَدْرِ الوقوعِ .

ثم يبدِّلُ الجهلينِ الآخرينِ بعلمينِ ؛ فيعلمُ أنَّ أصلَ المنافعِ والمضارِّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ منها ما عُلِّقَ بأسبابٍ مسخَّرةٍ أو أفعالِ مختارينَ ، ومنها ما أُوجبَ بلا واسطةٍ مِنَ المخلوقينَ ، فلا يشتغلُ بالسببِ عنِ المسبِّبِ ، ولا يغفُلُ عنِ القادرِ بلا سببٍ ؛ لتصيرَ الأسبابُ قائدةً إلى اللهِ تعالىٰ ، بعدَما كانَتْ شاغلةً عنِ اللهِ تعالىٰ .

وقد بدَّلَ بما قلناهُ الجهلَ الثانيَ إلى علمٍ ؛ فقد أثبتْنا النفعَ والضرَّ للعالَمِ مِنْ حيثُ كانَ سبباً ، وما جعلناهُ أمراً لا فائدةَ فيهِ عبثاً ، وهـٰذا كالتجارةِ المُرْبِحةِ لا تكونُ عبثاً وإنْ كانَ الأصلُ فيها السلعةَ المرغِّبةَ ، وبها صارَتِ الصفقةُ مُثمِرةً .

فيصيرُ الرَّغَبُ في اللهِ تعالىٰ والرَّهَبُ منهُ أصلاً[2] ، ومِنَ العالَمِ حالاً[3] ؛ فلا يحبُّ العالَمَ ولا يخافُهُ لذاتِهِ ، بل للهِ فإنَّهُ مِنْ آياتِهِ ، فيكونُ الحبُّ في الأصلِ للهِ الخالقِ ، لا للعالَمِ المخلوقِ ؛ كما يجبُ حبُّ الكعبةِ لأنَّها بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحبُّ رمضانَ لأنَّهُ شهرُ اللهِ لا لأنَّهُ زمانٌ ، ويجبُ حبُّ الرسولِ وطاعتُهُ لأنَّهُ رسولُ اللهِ لا لأنَّهُ إنسانٌ .

فيصيرُ العالمُ علىٰ هـٰذا الوجهِ محبوباً للهِ ، ومذكِّراً حبَّ اللهِ[4] ، بعدَما كانَ

---

(١) انظر الحديث عن رؤيته تعالىٰ (ص٦٢٧) .

(٢) إذ المنافع والمضارُّ مخلوقان لله تعالى . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) لأن الله تعالىٰ جعل العالم سبباً لحصول المنافع والمضارِّ . انتهىٰ من هامش (و) .

(٤) أي : بالإقبال على الأسباب إعراضٌ عن الأسباب ؛ وذلك لأنه يرىٰ أصل المنافع والمضارِّ =

شاغلاً عن حبِّ اللهِ ، وسبباً حالَ الجهلِ للكفرِ باللهِ ، ويصيرُ العبدُ بقصدِهِ مُعْرِضاً عنِ العالَمِ بأصلِهِ ؛ فالسببُ لا يُقصدُ لنفسِهِ ، بل لإصابةِ البُغْيةِ ، ولا يُباشَرُ إلا عندَ الحاجةِ ، وكانَ علىٰ مثالِ الغوَّاصِ والبحرِ ، وصدفِ الدُّرِّ ؛ يركبُ البحرَ ويغوصُ فيهِ لا لهُ ، بل للآلئِهِ .

ثم يطلبُ واسطةً أخرىٰ بينَ العِلْمينِ المهلكينِ ؛ فلا يجعلُ الناسَ أحراراً مُلَّاكاً على الإطلاقِ ، ولا مملوكينَ ما لهم شيءٌ مِنْ حكمِ العَتاقِ ، ولا الأرضَ جنَّةَ نعيمٍ ، ولا سجناً للعذابِ الأليمِ ، ولا السماءَ ربّاً إليهِ القَدَرُ ، ولا لَغْواً لم يتعلَّقْ بها خيرٌ ولا شرٌّ ، بل يعلمُ الناسَ في أقسامِ أبدانِهم مملوكينَ متردِّدينَ تحتَ الجبرِ كالجمادِ(١) ، وفي أقسامِ أفعالِهم مختارينَ كأنَّهم مُلَّاكٌ .

فلا يرىٰ لنفسِهِ المشيئةَ ؛ فهو عبدٌ في أصلِهِ ، ولا ينكرُ الخيرةَ ؛ فهو مالكُ فعلِهِ ، فيقفُ بينَ حُرمةٍ وإطلاقٍ للتَّبَيُّنِ ، ولا تَبَيُّنَ إلا بنظرٍ واستدلالٍ عقليٍّ ، أو سماعٍ شرعيٍّ ، فما إليهِ اهتداءٌ بطبعِهِ حتىٰ يعقلَ ، ولا بعقلِهِ حتىٰ يعتدلَ ، ولا باعتدالِهِ حتىٰ يستدلَّ ، ولا يتيسَّرُ لهُ حتىٰ يسمعَ ما يدلُّ ، فصارَ الوقفُ متبيِّناً أصلاً ، والعملُ بعدَ الاستدلالِ حالاً ، فلا يبدِّلُ الأصلُ بفعلٍ علىٰ سبيلِ الخِيرةِ إلا إذا قامَتِ الحُجَّةُ ، وفيهِ النجاةُ عن مهالكِ اللُّجَّةِ(٢) .

= من الله تعالىٰ ، ويشتغل بالأسباب بأمر الله . انتهىٰ من هامش (و) ، وقوله : (محبوباً لله) ؛ يعني : يحبُّهُ العبد لأجل الله تعالىٰ .

(١) من الصحة والمرض ، والجمال والقبح ، والطول والقصر . انتهىٰ من هامش (و) ، والمراد بأقسام الأبدان : حظوظ الأجسام وما ينسب إليها مما لا إرادة للعبد فيه ؛ كنبضه وهضمه .

(٢) في (ج ، د ، هـ) : (اللحجة) بدل (اللجة) ، وفي هامش (هـ) : (مكانٌ لَحِجٌ ؛ أي : ضَيِّق ، والتحجَهُ ؛ أي : ألجأه والتحصَهُ إليه) ، والالتحاص مثل الالتحاج . انظر =

[حالُ العالِمِ مِنَ الناسِ والدنيا والقبرِ]

فيصيرُ لهُ الانقطاعُ عنِ الناسِ أصلاً ؛ فلا ولايةَ معَ العبوديَّةِ ، وهي ثابتةٌ لأصلِهِ ، والاتصالُ فرعاً ؛ فالولايةُ معَ الحريَّةِ ، وهي ثابتةٌ في حقِّ فعلِهِ ، فيكونُ معَ اللهِ تعالىٰ بذاتِهِ ؛ فهو عبدُهُ ومُلْكُهُ ، ومعَ الناسِ بفعلِهِ ، ففيهِ ظهرَ فَكُّهُ ، فيصفو للهِ تعالىٰ بذاتِهِ ، ويهدي خَلْقَ اللهِ بفعلِهِ ، فيصيرُ الناسُ إلىٰ زيادةِ الهدىٰ باباً ، بعدَما كانوا حِجاباً[1] .

ثم يعلمُ ظهرَ الأرضِ سُوقاً للإسلامِ إلىٰ ربِّهِ الكريمِ[2] ، بأدنىٰ رأسِ مالٍ في الملكِ العظيمِ ، فلا يرضىٰ بالسوقِ لعينِها مسكناً ، ولا بالعقلِ لذاتِهِ سَكَناً ، بل يأتيها للمُسلَمِ فيهِ[3] ، ويستبطئُ حلولَ الأجلِ شوقاً إليهِ ، فتصيرُ الدنيا سوقَ التاجرِ ، بعدَما كانَتْ سجنَ العابدِ .

ثم يعلمُ ما علىٰ ظهرِها مِنَ النعيمِ ، أُنْمُوذجاً مِنَ الخُلْدِ الكريمِ ؛ فيذوقُهُ رغبةً في السلعةِ ، فلا يقنعُ بهِ فما بهِ شُبْعةٌ ، فيُهينُهُ لذاتِهِ فما بهِ كفايةٌ ، ويأخذُهُ لحالِهِ ففيهِ هدايةٌ[4] .

ثم يعلمُ بطْنَ الأرضِ ـ وهي قبرٌ وظلمةٌ ـ دهليزَ الجنَّةِ ؛ فمِنَ القبرِ يقومُ إلى الحشرِ ، فلا يعدُّهُ سِجْناً ؛ فالسجنُ بيتُ العقوبةِ ، وهـٰذا دهليزُ دارِ المَثُوبةِ ،

= « الصحاح » (ل ح ج ، ل ح ص) .

(١) إذا كان العبد باطنه لله ، ويخالط الناس وعظاً ونصيحة ؛ حتىٰ يجمعهم. . فيصير الناس سبباً إلى ازدياد الهدىٰ ، بعدما كانوا شاغلين عنه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) الإسلام : من السَّلَمِ ؛ وهو السلف وزناً ومعنىً .

(٣) المسلمُ فيه هنا : الجنة التي هي المملكة .

(٤) في إهانته وأخذه بطريق الأنموذج ، لا بطريق الغنية . انتهىٰ من هامش (و) .

فيتسارعُ إليهِ للخروجِ عنهُ لا للمُقامِ ؛ فهو في ذاتِهِ مظلمٌ مَضِيقٌ ، وإنَّما حَسُنَ لأنَّهُ إلى الجنَّةِ طريقٌ ، فيدخلُهُ مسروراً بسلامٍ وبِشارةٍ ، بعدَما كانَ يكرهُهُ بكلامٍ وعبارةٍ .

[نظرُ العالِمِ إلى النجومِ مثلُ نظرِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ]

ثم ينظرُ إلى الفَلَكِ بنجومِها ، نظرَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ في أمورِها ، فيجدُها دليلاً على اللهِ تعالىٰ[1] ، فيعرضُ عنها لذواتِها ؛ فجريانُها علىٰ تسخيرٍ ، ويقبلُ عليها بدَلالتِها ؛ ففي دَلالتِها هدىً ونورٌ ، ولا يشتغلُ بعلمِ ما تعلَّقَ بهِ مِنَ القَدَرِ[2] ؛ فإنَّ خَفِيَّهُ سرٌّ عنِ البشرِ ، وجليَّهُ مقرونٌ بخطرٍ ، وإنْ علمَ لم يكنْ بيدِهِ ردٌّ ، ولا فِرارٌ بجدٍّ ، إلا بمَنْ سخَّرَها ، وأدارَها وقدَّرَها ، فيتبرَّأُ عنها إلى اللهِ تعالىٰ مكانَ مَنْ ضلَّ بها عنِ اللهِ تعالىٰ ، وأحبَّها حبَّ مَنْ هداهُ مكانَ بُغْضِ مَنْ أغواهُ ، لٰكنْ حُبّاً بالحالِ ، علىٰ نحْوِ ما مضىٰ مِنَ المقالِ ؛ في الغذاءِ والدواءِ ، والمسكنِ الشريفِ وبيتِ الكنيفِ .

[تمامُ القولِ في القَدَرِ]

وتمامُ القولِ في القَدَرِ : أنَّ الناسَ فيهِ علىٰ أربعةِ أقسامٍ :

متبرِّئٌ عن قَدَرِ اللهِ تعالىٰ بقدرتِهِ ؛ وإنَّهُ لمتزندقٌ .

ومتبرِّئٌ عن قدرتِهِ بقَدَرِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّهُ لمتفسِّقٌ .

---

(١) انظر ما تقدم (ص٤٠٧ ، ٥٩٠) من ذكر قصة سيدنا إبراهيم علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام .

(٢) أسباب السعادة والنحوسة . انتهىٰ من هامش (هـ) .

ومؤمنٌ بقدرتِهِ عن قَدَرِ اللهِ تعالىٰ بلا تفصيلٍ[1] ، وربَّما أمالَكَ هـٰذا عن سواءِ السبيلِ ؛ فإنَّا نخافُ أنْ يُزيِّنَ لهُ أمرُ عبادتِهِ إذا رآها بقدرتِهِ ؛ فيُعْجَبَ بهِ ، ويهونَ عليهِ حالُ معصيتِهِ ؛ إذْ لم يجدْها بغيرِ قدرةٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيثبتَ عليهِ[2] ، فكانَ اعتقاداً صحيحاً ، ولـٰكنَّهُ غيرُ محترزٍ عنِ المهالكِ[3] .

والقسمُ الرابعُ : هوَ المؤمنُ بقَدَرِ اللهِ تعالىٰ غيرُ منكرٍ لقدرتِهِ عقيدةً ؛ فارقٌ بينَ الخيرِ والشرِّ إضافةً ، قائلٌ بأنَّ أعمالَ الخيرِ مِنَ اللهِ ليتبرَّأَ بالإفلاسِ عنِ العُجْبِ ، وأعمالَ الشرِّ منِّي ليَعْظُمَ عليهِ حالُهُ فيما عصىٰ فيتداركَ بالتوبةِ ، فيكونَ الاعتقادُ صحيحاً وسطاً عَدْلاً مِنَ المسالكِ ، محترزاً بتفرقةِ الإضافةِ عنِ المهالكِ ، كما نطقَ الكتابُ بمثلِهِ في أقسامِ الخيرِ والشرِّ ؛ فقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء : ٧٩][4] ، فاللهُ تعالىٰ هوَ المقدِّرُ للأمرينِ ، والقاسمُ الحاكمُ على الحقيقةِ .

وكذلكَ قالَ حكايةً عنِ الخليلِ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ

---

(١) أي : مؤمن بأن قدرته صادرة عن قَدَر الله ، ولم يفصِّلْ أن الكلَّ من الله ، أو من نفسه . انتهىٰ من هامش (و) .

(٢) يعني : علىٰ حال المعصية ؛ إذ يفضي إلى العجب في الطاعة ، وإلى استخفاف المعصية ؛ بإضافة الأولىٰ إلىٰ قدرة نفسه ، والثانية إلىٰ قدرة الله . انتهىٰ من هامش (و) .

(٣) لاحتمال الميل إلىٰ أحد النظرين ؛ لعدم وجود تصميم وتحقيق .

(٤) نظيره : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل : ٥٣] ، ونظير الثاني : قوله : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ : ٣٠] ، والله هو المقدِّر ؛ قال تعالىٰ : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٧٨] ؛ أي : من عند الله يجري تقديره ، وبعلمه يتقدَّرُ ، ينبئك عن هـٰذه الدقيقة : قوله : ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ، وقوله : ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ؛ لأن (عند) للتقريب ، و(من) لابتداء الغاية . انتهىٰ من هامش (و) .

﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء : ٨٠] ؛ لتكونَ إضافةُ المحبوبِ إلى اللهِ تعالىٰ سبباً لزيادةِ الرغبةِ في طاعتِهِ والمحبَّةِ إيَّاهُ ، وإضافةُ المكروهِ إلى العبدِ سبباً لتذكُّرِ العبدِ ما كانَ منهُ مِنَ المعاصي ، فيتوبَ عنها ليخرجَ عنِ المكروهِ .

[توجيهُ ما فيهِ إضافةُ الخيرِ والشرِّ إلى اللهِ تعالىٰ]

فقالَ : أليسَ اللهُ تعالىٰ قالَ حكايةً عن إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء : ٨١] ، أضافَ الأمرينِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وقالَ موسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿إِنۡ هِىَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ؟[١] .

قلتُ ـ واللهُ أعلمُ بتأويلِ كلامِهِ ـ : إنَّ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إنَّما أضافَ الإماتةَ والإحياءَ إلى اللهِ تعالىٰ لأنَّ قضاءَ الموتِ حتمٌ ، والآجالَ محدودةٌ ، وما خُلِقْنا إلا للموتِ غيرَ مُعَلَّقٍ وجودُهُ بسببٍ مِنَ العبادِ كالإحياءِ ، فلمَّا لم يكنِ الموتُ بسببٍ مِنَ العبادِ لم تستقمِ الإضافةُ إلى العبادِ بلا سببٍ منهم[٢] .

فأمَّا الأمراضُ وسائرُ المكارهِ التي تجوزُ سلامةُ الخلقِ عنها ، والابتلاءُ بها في الجملةِ : فليسَتْ مِنَ الكائناتِ ـ لا محالةَ ـ في أصلِ الحُكْمِ ، بلِ اللهُ تعالىٰ

---

(١) لم يُجِب الإمام المصنف عن شبهة هـٰذه الآية ، وانظر « مفاتيح الغيب » (١٥/ ٢١) .

(٢) فالحاصلُ : أن الإماتة تضاف إلى الله أصلاً وحالاً ، بخلاف الخير والشرِّ ، والحسنة والسيئة ، والطاعة والمعصية ؛ فإنهما يضافان إلى الله أصلاً ، ويفرَّق في الإضافة باعتبار الحال ؛ وهو الفرار عن العُجْب في الطاعة ، والجرأة على المعصية باستخفافها .

ويحتمل : أن العبارة بالجمع ؛ وهو إضافة الأمرين إلى الله جائزٌ نظراً إلى الأصل ، والعبارةَ بالتفرقة أيضاً يحسن نظراً إلى الحال . انتهىٰ من هامش (و) .

علَّقَها بعوارضَ تكونُ مِنَ العبدِ ، فصحَّتِ الإضافةُ إلى العبيدِ بكينونةِ العوارضِ منهم ، وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ هوَ المقدِّرَ والقاسمَ ، ولأنَّا أضفنا إليهمُ المكروهَ ليكونَ سبباً عنِ الانزجارِ عمَّا أوقعَهم فيهِ ليسلموا عنهُ ، ولا سلامةَ عنِ الموتِ ، بل تجبُ إضافتُهُ إلى اللهِ تعالىٰ هَدْماً للذَّاتِهِ ، وتذكيراً لعجزِهِ ، حتىٰ إذا آلَ الأمرُ إلى القتلِ أضفنا إلى القاتلِ ؛ لكينونتِهِ بسببٍ منهُ ، ولينزجرَ عن مثلِهِ بالتزامِ حُكْمِهِ بصحَّةِ الإضافةِ إليهِ[١] .

علىٰ أنِّي أوجبْتُ عليكَ إضافةَ الأمرينِ إلى اللهِ تعالى ابتداءً لإثباتِ القَدَرِ للهِ تعالىٰ ؛ وهوَ الأصلُ ، ثمَّ استحسنْتُ التفرقةَ في الإضافةِ بعدَ ذلكَ فراراً عنِ العُجْبِ ؛ وهوَ الحالُ ، فلم تكنِ العبارةُ علىٰ ما عليهِ الأصلُ خطأً ، وعلىٰ ما عليهِ الحالُ كانَتْ حسناً .



(١) يعني : الحكمة من إضافة الموت إلى الله ؛ ليكون هادماً للذَّاته ، وإن وُجِدَ قتلٌ من العبد يضاف إلى العبد حكمة ؛ ليكون زاجراً له عن مثله . انتهىٰ من هامش (و) ، وفي هامش (هـ ، و) : (نسخة : قتله) بدل (مثله) .

[خاتمة]

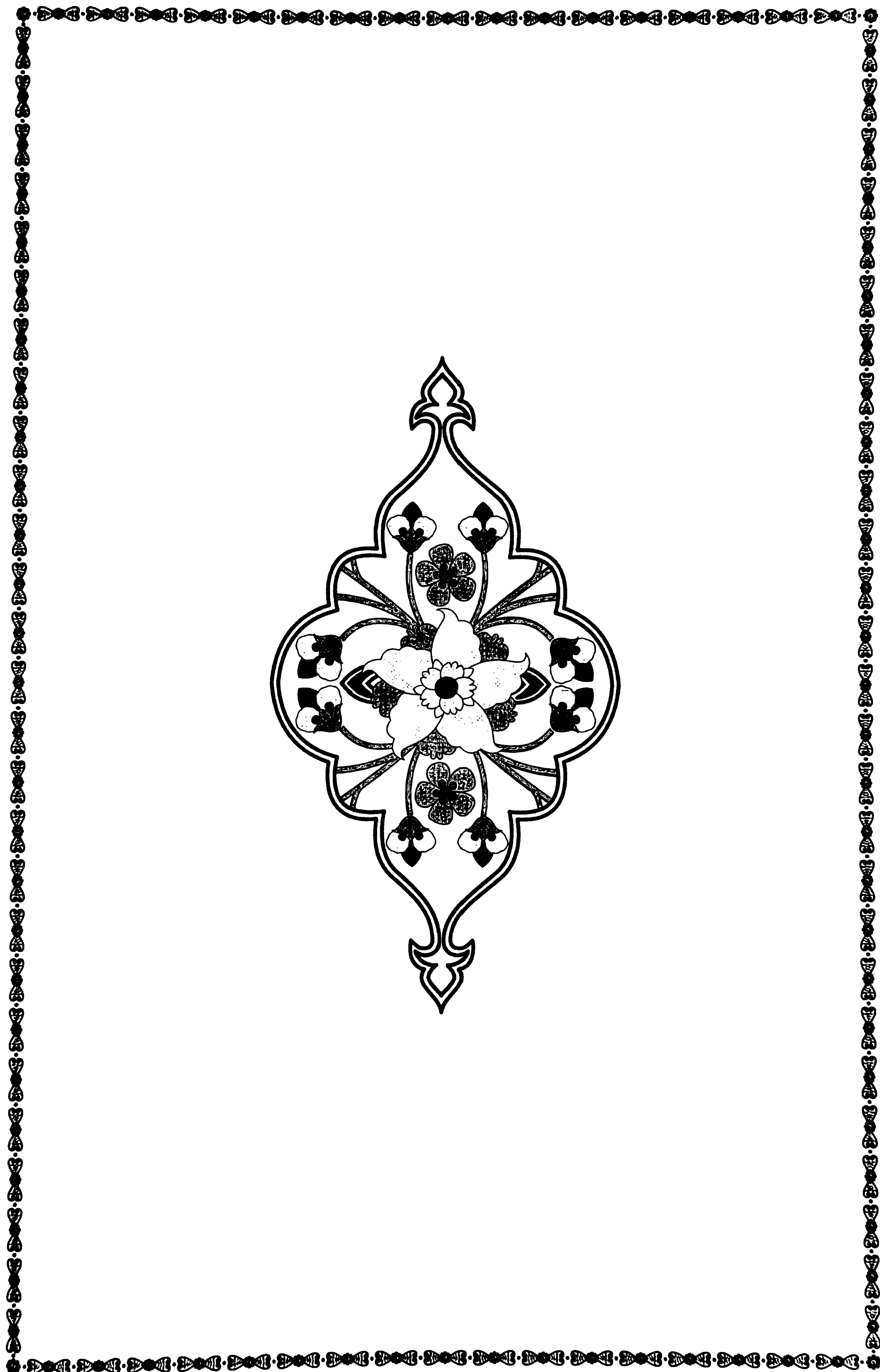
فسبحانَهُ مِنْ مَلِكٍ حَقٍّ باطنٍ ! ابتلىٰ بمعرفتِهِ كلَّ قلبٍ بصيرٍ ، وطريقُ الحقِّ خفيٌّ بينَ طرفَيِ الغلوِّ والتقصيرِ ، حتىٰ عَمِيَ عنهُ الجاهلونَ وضلَّ العالمانِ عنِ السبيلِ[1] ، ولم يعرفْهُ مِنَ العلماءِ إلا الوسطُ القليلُ إبانةً لعزَّتِهِ ، ولم يرَهُ الوسطُ إلا بتوفيقٍ منهُ وعنايةٍ مِنْ لَدُنْهُ إبانةً لرحمتِهِ .

فلهُ الحمدُ علىٰ ما أراناهُ وهوَ العزيزُ ، وعلىٰ ما هدانا إليهِ وهوَ الرحيمُ ، حمداً يستحقُّ بهِ الثباتَ لديهِ على السمعِ والطاعةِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِهِ محمدٍ سيِّدِ أهلِ الساعةِ وصاحبِ الشفاعةِ ، وعلىٰ آلِهِ الطاهرينَ ، وأصحابِهِ أجمعينَ ، والتابعينَ والصالحينَ ، وعامَّةِ المؤمنينَ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ ، نعمَ المولىٰ ونعمَ النصيرُ .



(١) يعني بالعالمينِ : الغاليَ والمقصِّرَ . انتهىٰ من هامش (ب ، ج) .


خواتيم النسخ الخطية



خواتيم النسخ الخطية

خاتمة النسخة (أ)

وصلَّى الله علىٰ محمد وآله وسلَّم تسليماً .

فرغ من نسخه يحيى بن إبراهيم بن حمد بن علي الأصفهانيُّ ، في يوم الأربعاء ، سادس شهر شعبان ، من سنة إحدىٰ وعشرين وخمس مئة ، حامداً لله ، ومصلِّياً علىٰ رسوله محمد النبيِّ وآله وصحبه ، فرحم الله امرأً قرأه ودعا لكاتبه بالمغفرة .

خاتمة النسخة (ب)

والله أعلم بالصواب .

وقع الفراغ من انتساخ هـٰذا الكتاب وقت الضحوة في يوم السبت ، الثالث من جُمادى الأولىٰ ، لسنة خمسين وخمس مئة ، علىٰ يدي العبد الضعيف المذنب الخاطئ الجاني ، الراجي رحمة ربه ورضوانه وغفرانه ؛ محمد بن عمر بن أحمد ، يلقب بسيف الخطيب (. . .) بورك له فيه ومتع به طويلاً ، بحمد ربه ، والصلاة علىٰ نبيه وآله(١) .

---

(١) ثم أورد أبياتاً في مدح كتاب « الأمد الأقصىٰ » للإمام شمس الدين الكردري رحمه الله تعالى ، انظرها (ص٧٠) .

خاتمة النسخة (ج)

وافق الفراغ منه عشية[1] الخميس عاشر من ربيع الأول ، سنة اثنتين وخمسين وست مئة ، غفر الله لكاتبه ولقارئه ولجميع المسلمين ؛ بحقِّ محمد وآله أجمعين .

خاتمة النسخة (د)

تمَّت بعون الله وحسن التوفيق في آخر شوالٍ ، من شهور سنة خمس وسبعين وتسع مئة الهجرية النبوية .

خاتمة النسخة (و)

تمَّ الكتاب بعون الله تعالىٰ[2] .

علَّقَهُ بيده الفانية درويش محمد معلِّمُ الفقراء بالأزهر ، سنة (١١٥٨هـ) .

خاتمة النسخة (ز)

وكان الفراغ من النسخة المباركة نهار الجمعة سلخ شهر شعبان المكرم سنة ثلاث وستين وسبع مئة ، الحمد لله ربِّ العالمين (. . .) .



---

(١) رسمت مهملة في النسخة .

(٢) ثم أورد أبياتاً في مدح كتاب « الأمد الأقصى » ، وهي التي وردت في خاتمة النسخة (ب) أيضاً .

فهرس أهمّ مصادر ومراجع التحقيق

ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضى الزبيدي الحسيني (ت١٢٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، مصورة لدىٰ دار مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، عن المطبعة الميمنية (١٣١١هـ) القاهرة ، مصر .

ـ أحكام القرآن ، للإمام الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق محمد صادق القمحاوي ـ طبع (١٤٠٥هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ أحكام القرآن ، للإمام القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المالكي (ت٥٤٣هـ) ، تحقيق محمد عطا ، ط٣ ، (١٤٢٤هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ إحياء علوم الدين ، للإمام المجدد حجة الإسلام الفقيه الأصولي المتكلم أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط١ ، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ الاختيار لتعليل المختار ، للإمام الفقيه المحدث المحرر مجد الدين أبي الفضل عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (ت٦٨٣هـ) ، بتعليق محمود أبو دقيقة ، طبع سنة (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م) ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، مصر .

ـ أدب الدين والدنيا ، للإمام الفقيه القاضي المفسر الأديب أبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت٤٥٠هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط١ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ **الأدب المفرد** ، لإمام الحفاظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري** (ت٢٥٦هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٣ ، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان . المطبعة السلفية ، القاهرة ، مصر .

ـ **الأذكار** ، المسمىٰ : « **حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار** » ، لشيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيىٰ بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ) ، ط١ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ **الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد** ، للإمام الفقيه الأصولي المتكلم إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت٤٧٨هـ) ، تحقيق محمد موسىٰ وعلي عبد الحميد ، ط١ ، (١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري** ، للإمام المقرئ الحافظ المتفنن شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد **القسطلاني** (ت٩٢٣هـ) ، ط٧ ، (١٩٠٥هـ ـ ١٣٢٣هـ) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، القاهرة ، مصر .

ـ **إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات** ، لشيخ الإسلام الإمام الأصولي المتكلم النحوي الفقيه المفتي المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن المعروف **بابن اللبان الإسعردي** (ت٧٤٩هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **أساس البلاغة** ، للإمام اللغوي النحوي المفسر أبي القاسم جار الله محمود بن عمر **الزمخشري** (ت٥٣٨هـ) ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ط١ ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **الأسرار في الأصول والفروع في تقويم أدلة الشرع** ، للإمام الأصولي المتكلم أبي زيد عبيد الله بن عمر **الدبوسي** (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق محمود توفيق عبد الله العواطلي الرفاعي ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، وزارة الأوقاف الإسلامية الأردنية ، عمان ، الأردن .

ـ **الاستشفا من كتاب الشفا** ، للإمام القاضي الحافظ المتفنن أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي (ت٥٤٣هـ) ، تحقيق عبد الله التوراتي ، دار أسفار ، الكويت .

ـ **إسعاف الراغبين في سيرة المصطفىٰ وفضائل أهل بيته الطاهرين** ، للإمام النحوي أبي العرفان

محمد بن علي الصبان (ت١٢٠٦هـ) ، طبع سنة (١٢٩٠هـ) ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، مصر .

ـ **الأسماء والصفات** ، للإمام الأصولي المتكلم الأستاذ أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢٠م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **الأسماء والصفات** ، للإمام الفقيه الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الخسروجردي (ت٤٥٨هـ) ، مع تعليقات العلامة محمد زاهد الكوثري (ت١٣٧١هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٤م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **إشارات المرام من عبارات الإمام** ، للعلامة المتكلم القاضي كمال الدين أحمد البياضي الحنفي (ت١٠٤٤هـ) ، تحقيق يوسف الشافعي ، ط١ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) ، زمزم للطباعة ، باكستان .

ـ **أصول الدين** ، للإمام القاضي أبي اليسر محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي (ت٤٩٣هـ) ، تحقيق هانز بيتر لنس ، طبع سنة (١٣٨٣هـ) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

ـ **أصول السرخسي** ، لشمس الأئمة أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت٤٩٠هـ) ، تحقيق أبو الوفا الأفغاني ، طبع سنة (١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م) ، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند .

ـ **الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد** ، للإمام الفقيه الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الخسروجردي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط٢ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ، للإمام المجدد المتكلم المفسر الأصولي فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق علي سامي النشار ، طبع سنة (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **اعتلال القلوب** ، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق حمدي الدمرداش ، ط٢ ، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، السعودية .

- الاقتصاد في الاعتقاد ، للإمام المجدد حجة الإسلام الفقيه الأصولي المتكلم أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط٢ ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .
- الأمالي ، للإمام الأديب أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي (ت٣٥٦هـ) ، تحقيق محمد الأصمعي ، ط٢ ، (١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .
- الأنساب ، للإمام الحافظ النسابة المؤرخ أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت٥٦٢هـ) ، تحقيق عبد الرحمن المعلمي وآخرين ، ط١ ، من سنة (١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م) إلىٰ (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند .
- أيها الولد ، للإمام المتكلم حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط٢ ، (١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .
- البداية والنهاية ، للإمام الحافظ المؤرخ المفسر عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق يوسف البقاعي ، طبع سنة (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م) لدىٰ دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، للإمام الفقيه المحرر المتبحر علاء الدين أبي بكر بن مسعود بن أحمد الملقب بملك العلماء الكاساني (ت٥٨٧هـ) طبع سنة (١٣٢٨هـ) ، لدى المطبعة الجمالية العامرة ، القاهرة ، مصر .
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، للإمام الفقيه الحافظ المتبحر المتفنن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي ابن الملقن المصري (ت٨٠٤هـ) ، تحقيق ثلة من المحققين ، ط١ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) ، دار الهجرة ، الرياض ، السعودية .
- بهجة الناظرين في محاسن أم البراهين ، للإمام المحقق النظَّار شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الغنيمي الأنصاري الخزرجي الحنفي (ت١٠٤٤هـ) ، نسخة المكتبة الأزهرية ، مصر ، ذات الرقم العام (٩٤١٠٢) ، والخاص (٦١١٩) .

- البيان والتبين ، لإمام اللغة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٧ ، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .
- تاج التراجم ، للإمام الفقيه المحدث أبي الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السوداني (ت٨٧٩هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) ، دار القلم ، دمشق ، سورية .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضى الزبيدي الحسيني (ت١٢٠٥هـ) ، تحقيق عبد الستار فراج وآخرين ، ط١ ، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .
- تاريخ بغداد (مدينة السلام) ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عطا ، ط١ ، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- تاريخ بيهق ، للإمام أبي الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد ابن فندق البيهقي (ت٥٦٥هـ) ، ترجمه عن الفارسية وحققه يوسف الهادي ، ط١ ، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م) ، دار إقرأ ، دمشق ، سورية .
- تاريخ التراث العربي ، لفؤاد سزكين ، ترجمة محمود فهمي حجازي ، مراجعة عرفة مصطفىٰ وسعيد عبد الرحيم ، طبع سنة (١٤١١هـ - ١٩٩١م) ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، السعودية .
- تاريخ الخلفاء ، للإمام المفسر الحافظ الفقيه النحوي البلاغي جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط٢ ، (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر .
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، لإمام الدنيا الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ) ، تحقيق عمرو العمروي ، ط١ ، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ تأسيس النظر ، للإمام الأصولي المتكلم أبي زيد عبيد الله بن عمر الدبوسي (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق مصطفىٰ محمد القباني الدمشقي ، دار ابن زيدون ، بيروت ، لبنان ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر .

ـ تبصرة الأدلة في أصول الدين ، للإمام النظار المتكلم أبي المعين ميمون بن محمد النسفي (ت٥٠٨هـ) ، تحقيق كلود سلامة ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، نشر المعهد العالي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، سورية .

ـ تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، للإمام الحافظ المحقق البحر شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، طبع سنة (١٩٦٧م) لدى المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري ، لإمام الدنيا الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ) ، ومعه مقدمة العلامة المحقق محمد زاهد الكوثري ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٨م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ تحقيق ودراسة كتاب الحدود من كتاب الأسرار ، للإمام الأصولي المتكلم أبي زيد عبيد الله بن عمر الدبوسي (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق عبد الله بن جمعان الغامدي ، رسالة نوقشت سنة (١٤٠٧هـ) ، الجامعة الإسلامية ، السعودية .

ـ التدوين في أخبار قزوين ، للإمام الفقيه المحقق المحدث المتفنن أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني (ت٦٢٣هـ) ، تحقيق عزيز الله العطاردي ، طبع سنة (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ، للإمام الفقيه المفسر المتفنن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ) ، تحقيق الصادق بن إبراهيم ، ط١ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) ، مكتبة دار المنهاج ، الرياض ، السعودية .

ـ ترتيب الأمالي الخميسية للشجري ، للقاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي (ت٦١٠هـ) ، تحقيق محمد حسن إسماعيل ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الترغيب والترهيب ، للإمام الحافظ زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري

(ت٦٥٦هـ) ، تحقيق مصطفىٰ محمد عمارة ، ط٣ ، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا** ، لإمام العربية أبي العباس **محمد بن يزيد المبرد** البصري (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق إبراهيم الجمل ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر .

ـ **التعريفات** ، للإمام الأصولي المتكلم المحقق المتفنن السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد **الجرجاني** الحسيني (ت٨١٦هـ) ، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر .

ـ **تفسير الرازي** ، المسمى : « **التفسير الكبير** » أو « **مفاتيح الغيب** » ، للإمام المجدد المتكلم المفسر الأصولي **فخر الدين** أبي عبد الله محمد بن عمر **الرازي** (ت٦٠٦هـ) ، ط١ ، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ **تفسير السلمي** ، المسمىٰ : « **حقائق التفسير** » ، للإمام الزاهد مؤرخ الصوفية أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين الأزدي **السلمي** (ت٤١٢هـ) ، تحقيق سيد عمران ، ط١ ، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **تفسير الطبري** ، المسمىٰ : « **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** » ، للإمام المجتهد المفسر المؤرخ أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد **الطبري** (ت٣١٠هـ) ، تحقيق عبد المحسن التركي ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م) ، دار هجر ، القاهرة ، مصر .

ـ **تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع (تقويم الأدلة)** ، للإمام الأصولي المتكلم أبي زيد عبيد الله بن عمر **الدبوسي** (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق عبد الجليل العطا ، ط١ ، (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م) ، دار النعمان للعلوم ، دمشق ، سورية .

ـ **تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد** ، للإمام الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل **الصفار** البخاري (ت٥٣٤هـ) ، تحقيق أنجيليكا برودرسن ، طبع سنة (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، من منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت ، لبنان .

ـ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير** ، للإمام الحافظ المتبحر شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي **ابن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق حسن بن قطب ، ط١ ، (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م) ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، مصر .

- التمهيد في أصول الدين ، للإمام أبي المعين ميمون بن محمد النسفي (ت٥٠٨هـ) ، تحقيق عبد الحي قابيل ، طبع سنة (١٤٢٦هـ) ، دار الثقافة ، القاهرة ، مصر .
- التنبيه شرح الحكم العطائية ، للإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن عباد النفزي (ت٧٩٢هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ، للإمام المحدث نور الدين علي بن محمد بن علي ابن عراق الكناني (ت٩٦٣هـ) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله الغماري ، ط١ ، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- التنوير في إسقاط التدبير ، للإمام الفقيه الحكيم تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي وفراس محمد نذير مدلل ، ط١ ، (١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م) ، دار التقوىٰ ودار الدقاق ، دمشق ، سورية .
- تهذيب اللغة ، للإمام اللغوي أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق محمد عوض مرعب ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- تهذيب مستمر الأوهام علىٰ ذوي المعرفة وأولي الأفهام ، للأمير الحافظ أبي نصر علي بن هبة الله ابن ماكولا (ت٤٧٥هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط١ ، (١٤١٠هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- التواضع والخمول ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي ، تحقيق محمد عطا ، ط١ ، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- التوحيد ، لإمام الهدى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت٣٣٣هـ) ، تحقيق فتح الله خليف ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية ، القاهرة .
- تيسير التحرير ، للعلامة الفقيه محمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي (ت٩٧٢هـ) ، طبع سنة (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للإمام المؤرخ اللغوي الأديب أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع سنة (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

ـ جامع العلوم والحكم ، للإمام الحافظ الفقيه زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس ، ط٧ ، (١٤٢٢هـ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق عبد العلي حامد ، ط١ ، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية . الدار السلفية ، بومباي ، الهند .

ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، للإمام محيي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي الحنفي (ت٧٧٥هـ) ، ط١ ، (١٣٣٢هـ) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدرآباد الدكن ، الهند .

ـ حاشية ابن عابدين ، المسماة : « رد المحتار على الدر المختار » ، للإمام الفقيه الأصولي المحقق المتفنن السيد محمد أمين بن عمر ابن عابدين أفندي الدمشقي (ت١٢٥٢هـ) ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ، طبعة خاصة ، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م) ، مصورة عن دار الكتب العلمية ، لدىٰ دار عالم الكتب ، الرياض ، السعودية .

ـ حاشية الأمير على إتحاف المريد ، للإمام العلامة المتفنن المتكلم أبي محمد محمد بن محمد السنباوي المالكي المعروف بالأمير الكبير (ت١٢٣٢هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤٤هـ ، ٢٠٢٣م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ حاشية الخيالي علىٰ شرح العقائد ، للعلامة أحمد بن موسىٰ الخيالي (ت٨٦٠هـ) ، طبع سنة (١٣٢٩هـ) ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ، مصر .

ـ الحاوي للفتاوي ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، طبع سنة (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٠م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دار السعادة (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م) ، لدىٰ مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ودار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للإمام النحوي اللغوي المقرئ أبي العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ) ، تحقيق أحمد الخراط ، طبع سنة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، دار القلم ، دمشق ، سورية .

ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام الحافظ الفقيه النحوي البلاغي المتفنن جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، ط١ ، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١١م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ ديوان ابن رشيق القيرواني ، للشاعر الأديب البلاغي النقاد أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق عبد الرحمـٰن ياغي ، طبع سنة (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

ـ ديوان أبي تمام ، للشاعر العباس الكبير أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) ، ومعه « شرح الخطيب التبريزي » ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط٥ ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

ـ ديوان العباس بن الأحنف ، لشاعر الغزل أبي الفضل العباس بن الأحنف اليمامي (ت١٩٢هـ) ، تحقيق عاتكة الخزرجي ، ط١ ، (١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

ـ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، للإمام قاضي القضاة المؤرخ الكبير ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الإشبيلي (ت٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، ط٢ ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، دار الفكر ، بيروت، لبنان .

ـ ديوان المتنبي ، للشاعر الحكيم أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي الكوفي الكندي (ت٣٥٤هـ) ، ط١ ، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، دار بيروت ، بيروت ، لبنان .

ـ ديوان حاتم الطائي رواية هشام بن محمد الكلبي ، للشاعر الجاهلي حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي (ت ٤٦ ق ،هـ) ، تحقيق عادل جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة ، مصر .

ـ الرسالة القشيرية ، للإمام الصوفي الأصولي المتكلم الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن

هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ روضة التعريف بالحب الشريف ، للإمام الوزير الأديب المؤرخ لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب السلماني (ت٧٧٦هـ) ، تحقيق محمد الكتاني ، ط١ ، (١٩٧٠م) ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب .

ـ زاد المسير في علم التفسير ، للإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ الزهد الكبير ، للإمام الفقيه الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الخسروجردي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق عامر أحمد حيدر ، ط١ ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م) ، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ الزهد ، للإمام المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) ، تحقيق محمد عبد السلام شاهين ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الزهد والرقائق ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك الحنظلي المروزي (ت١٨١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، طبع سنة (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، طبعة مصورة عن طبعة المجلس العلمي في الهند لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الزهد ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ) ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

ـ الزهد ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس ، ط١ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م) ، دار المشكاة ، القاهرة ، مصر .

ـ سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد ، للإمام المحدث المؤرخ شمس الدين محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٤٢هـ) ، تحقيق ثلة من المحققين ، ط١ ، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م) ، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- سراج المريدين في سبيل الدين ، للإمام القاضي الحافظ المتفنن أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي (ت٥٤٣هـ) ، تحقيق عبد الله التوراتي ، ط١ ، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م) ، دار الحديث الكتانية ، المغرب .
- السراج المنير في شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير ، للعلامة الفقيه المحدث علي بن أحمد بن نور الدين بن محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزي ، وبهامشه « حاشية الحفني » ، للعلامة محمد بن سالم الخلوتي ، ط١ ، (١٣٠٤هـ) في المطبعة الخيرية ، القاهرة ، مصر .
- سنن الترمذي ، للإمام الحافظ أبي عيسىٰ محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض ، ط٢ ، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .
- سنن أبي داود ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .
- سنن الدارمي ، المسمىٰ : « مسند الدارمي » ، للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمـٰن الدارمي (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد ، ط١ ، (١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م) ، دار المغني ، الرياض ، السعودية .
- سنن ابن ماجه ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت٢٧٣هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .
- السنن الكبرىٰ ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمـٰن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط١ ، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- سنن النسائي الصغرى ، المسمى : « المجتبىٰ من السنن » ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمـٰن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ) ، ط١ ، (١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م) ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، مصر .
- سير أعلام النبلاء ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي

(ت٧٤٨هـ) ، تحقيق ثلة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط١١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ السيرة النبوية ، للإمام المؤرخ الحافظ المفسر عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد ، طبع سنة (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، للإمام الحافظ أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي (ت٤١٨هـ) ، تحقيق أحمد الغامدي ، ط٨ ، (١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م) ، دار طيبة ، الرياض ، السعودية .

ـ شرح التلويح على التوضيح ، للإمام المتكلم الأصولي المتفنن سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت٧٩٢هـ) ، طبع سنة (١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م) بمطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، مصر .

ـ شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح ، المسمى : « الكاشف عن حقائق السنن » ، للإمام المحدث اللغوي المفسر المتفنن شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي (ت٧٤٣هـ) ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض ، السعودية .

ـ شرح العقائد النسفية ، للإمام المتكلم الأصولي المتفنن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٢هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ شرح العقيدة الطحاوية ، المسماة : « بيان السنة والجماعة » ، للعلامة الفقيه المحقق عبد الغني الغنيمي الميداني الحنفي الدمشقي (ت١٢٩٨هـ) ، تحقيق محمد الحافظ ومحمد المالح ، ط٢ ، (١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م) ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان .

ـ شرح العقيدة الوسطىٰ ، للإمام الشريف المتكلم المحدث أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي الحسني (ت٨٩٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **شرح المقاصد** ، للإمام المتكلم الأصولي المتفنن **سعد الدين** مسعود بن عمر بن عبد الله **التفتازاني** (ت٧٩٢هـ) ، مطبعة الحاج محرم أفندي (١٣٠٥هـ) ، دار الخلافة الزاهرة ، تركيا .

ـ **شرح المواقف** ، للإمام الأصولي المتكلم المحقق المتفنن **السيد الشريف** أبي الحسن علي بن محمد **الجرجاني** الحسيني (ت٨١٦هـ) ، ومعه « **حاشية السيالكوتي** » و« **حاشية حسن جلبي** » ، دار الطباعة العامرة ، إستنبول ، تركيا .

ـ **شرح صحيح البخاري** ، للإمام المحدث القاضي أبي الحسن علي بن خلف **ابن بطال** القرطبي (ت٤٤٩هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم ، ط٢ ، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية .

ـ **شرح صحيح مسلم** (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج) ، لشيخ الإسلام **محيي الدين** أبي زكريا يحيى بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ) ، ط١ ، (١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م) ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، مصر .

ـ **شرح صغرى الصغرىٰ** ، للإمام الشريف المتكلم المحدث أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر **السنوسي** الحسني (ت٨٩٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **شرح مشكل الآثار** ، للإمام الحافظ محدث الديار المصرية وفقيهها **أبي جعفر** أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي **الطحاوي** المصري (ت٣٢١هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط١ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ** ، للإمام الحافظ **القاضي** أبي الفضل **عياض** بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ) ، تحقيق عبده كوشك ، ط١ ، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م) ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، دبي ، الإمارات .

ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** ، للإمام اللغوي أبي نصر إسماعيل بن حماد **الجوهري** الفارابي (ت٣٩٣هـ) ، تحقيق أحمد عطار ، ط٤ ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

ـ **صحيح البخاري** ، المسمى : « **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ**

وسننه وأيامه » ، لإمام الحفاظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) ، عني به محمد زهير الناصر ، ط٣ ، (١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م) ، مصورة عن الطبعة السلطانية اليونينية ، لدىٰ دار طوق النجاة ، بيروت ، لبنان . دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ صحيح مسلم ، المسمى : « المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ » ، للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، ط١ ، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٣م) ، مصورة عن الطبعة العامرة ، لدىٰ دار طوق النجاة ، بيروت ، لبنان . دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، للمؤرخ تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي (ت١٠١٠هـ) ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، دار الرفاعي ، الرياض ، السعودية .

ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ، للإمام الأصولي قاضي القضاة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ) ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط٢ ، (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

ـ طبقات الفقهاء الشافعية ، للإمام المحدث المفتي الفقيه تقي الدين أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمـٰن ابن الصلاح الشهرزوري (ت٦٤٣هـ) ، هذبه ورتبه واستدرك عليه الإمام النووي ، وبيض أصوله ونقحه الحافظ المزي ، تحقيق محيي الدين نجيب ، ط١ ، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

ـ عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، للإمام القاضي الفقيه الأصولي الحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي (ت٥٤٣هـ) ، تحقيق جمال مرعشلي ، ط٢ ، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ العزيز في شرح الوجيز ، المعروف بـ « الشرح الكبير » ، للإمام الفقيه المحرر الحجة أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني (ت٦٢٣هـ) ، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، للإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمـٰن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق إرشاد الحق ، ط٢ ، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، إدارة العلوم الأثرية ، فيصل آباد ، باكستان .

ـ الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس ، المسمىٰ : « زهر الفردوس » ، للإمام الحافظ الفقيه أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط١ ، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م) ، جمعية دار البر ، الإمارات .

ـ غريب القرآن ، للإمام اللغوي الأديب المؤرخ أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، طبع سنة (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ فتاوى السبكي ، للإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٥٦هـ) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ المحقق البحر شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، بعناية محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، مصر .

ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، للإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو الديلمي (ت٥٠٩هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الفروق ، المسمى ، « أنوار البروق في أنواء الفروق » ، للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن القرافي (ت٦٨٤هـ) ، تحقيق محمد سراج وعلي جمعة ، ط١ ، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

ـ فضائل الصحابة ، للإمام الحافظ المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) ، تحقيق وصي الله محمد عباس ، ط١ ، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرىٰ ، مكة المكرمة ، السعودية .

ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، للعلامة الفقيه أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي (ت١٣٠٤هـ) ، تصحيح وتعليق محمد بدر الدين النعساني ، ط١ ، (١٣٢٤هـ) ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة ، مصر .

ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للإمام الفقيه الحافظ زين الدين محمد عبد الرؤوف بن

تاج العارفين القاهري المناوي (ت١٠٣١هـ) ، ط٢ ، (١٣٩١هـ -١٩٧٢م) مصورة عن المكتبة التجارية الكبرىٰ (١٣٥٧هـ) ، لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ قصر الأمل ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير يوسف ، ط٢ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

ـ قواطع الأدلة في الأصول ، للإمام أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت٤٨٩هـ) ، تحقيق محمد حسن الشافعي ، ط١ ، (١٤١٨هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد ، للإمام الزاهد العارف شيخ الصوفية أبي طالب محمد بن علي بن عطية المكي (ت٣٨٦هـ) ، طبعة مصورة عن المطبعة الميمنية (١٣١٠هـ) ، القاهرة ، مصر ، لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ الكامل في التاريخ ، للإمام المؤرخ أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ) ، تحقيق عمر تدمري ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للإمام اللغوي النحوي المفسر جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، ط٣ ، (١٤٠٧هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ كشف الأسرار شرح أصول البزدوي ، للإمام الفقيه الأصولي علاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخاري (ت٧٣٠هـ) ، طبع سنة (١٣١٠هـ) في الشركة الصحافية العثمانية .

ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لمحدث الشام الإمام أبي الفداء إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني الدمشقي (ت١١٦٢هـ) ، ط١ ، (١٣٥١هـ ١٩٣٢م) ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، مصر .

ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، للإمام المؤرخ مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي حاجي خليفة التركي (ت١٠٦٧هـ) ، بعناية محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، المشهور بـ « المنن الكبرىٰ » للإمام الفقيه الصوفي المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت٩٧٣هـ) ، تحقيق معاذ عبد الرحمـٰن الهواش ، ط١ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

- المبسوط ، لشمس الأئمة الفقيه الأصولي المحرر محمد بن أحمد السرخسي (ت٤٨٣هـ) ، طبع سنة (١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- مجاز القرآن ، للعلامة النحوي اللغوي الأديب أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت٢١٠هـ) ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، ط١ ، (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- المجالسة وجواهر العلم ، للإمام الفقيه المحدث أبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت٣٣٣هـ) ، تحقيق مشهور آل سلمان ، ط١ ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري ، للإمام الأصولي المتكلم أبي بكر محمد ابن الحسن بن فورك الأصبهاني (ت٤٠٦هـ) ، تحقيق دانيال جيماريه ، ط١ ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان .

- مجمع الأمثال ، للإمام الأديب اللغوي أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت٥١٨هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع سنة (١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م) ، لدىٰ مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، مصر .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام الحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت٨٠٧هـ) ، تحقيق سليم أسد الداراني ، ط١ ، (١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- مجموع رسائل الأمير ، للإمام العلامة المتفنن المتكلم أبي محمد محمد بن محمد السنباوي المالكي المعروف بالأمير الكبير (ت١٢٣٢هـ) ، تحقيق أنس شرفاوي ، ط١ ، (١٤٤٤هـ ، ٢٠٢٣م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

- المحتضرين ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي

(ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير يوسف ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

ـ المحيط البرهاني في الفقه النعماني ، للإمام الفقيه برهان الدين أبي المعالي محمود بن أحمد ابن مازة البخاري (ت٦١٦هـ) ، تحقيق عبد الكريم الجندي ، ط١ ، (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ المدخل إلىٰ علم السنن ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط١ ، (١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٧م) ، دار اليسر ، القاهرة ، مصر .

ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، للإمام الفقيه المحدث المتفنن نور الدين أبي الحسن علي بن سلطان محمد ، المعروف بملا علي القاري (ت١٠١٤هـ) ، ومعه « أجوبة الحافظ ابن حجر العسقلاني علىٰ رسالة القزويني » ، تحقيق صدقي العطار ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ المسامرة بشرح المسايرة ، للإمام الأصولي ناصر الدين أبي المعالي محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف (ت٩٠٦هـ) ، تحقيق صلاح الدين الحمصي ، ط١ ، (١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م) ، طبعة خاصة .

ـ المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ) ، ط١ ، (١٣٤٠هـ ـ ١٩٢١م) ، دائرة المعارف العثمانية النظامية ، حيدر آباد الدكن ، الهند .

ـ مسند أبي داود الطيالسي ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن داود الطيالسي (ت٢٠٤هـ) ، تحقيق محمد التركي ، ط١ ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار هجر ، القاهرة ، مصر .

ـ مسند الإمام أبي يعلىٰ ، للإمام الحافظ أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (ت٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين أسد ، ط٢ ، (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

ـ مسند الإمام أحمد ، للإمام الحافظ المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) ، وبهامشه « منتخب كنز العمال » ، لعلاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي ، طبع سنة (١٣١٣هـ) ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ، مصر .

- مسند البزار (البحر الزخار) ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت٢٩٢هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط١ ، بدأت سنة (١٩٨٨م) وانتهت سنة (٢٠٠٩م) ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، السعودية .

- مسند الشاميين ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي السلفي ، ط١ ، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للإمام اللغوي أبي العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي الفيومي (ت نحو ٧٧٠هـ) ، ط٥ ، (١٩٢٢م) ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، مصر .

- المصنف ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت٢٣٥هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط١ ، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) ، دار القبلة ، جدة ، السعودية . مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، سورية .

- مطالع البدور ومنازل السرور ، لعلي بن عبد الله الغزولي البهائي الدمشقي (ت٨١٥هـ) ، ط١ ، (١٣٠٠هـ) ، مطبعة إدارة الوطن ، سوريا ، دمشق .

- معالم السنن ، للإمام الحافظ أبي سليمان حمد بن محمد ابن الخطاب المعروف بالخطابي (ت٣٨٨هـ) ، تحقيق محمد راغب الطباخ ، ط١ ، (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) ، المطبعة العلمية ، حلب ، سورية .

- معاني القرآن وإعرابه ، لإمام العربية أبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ) ، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ، ط١ ، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للإمام البلاغي الأديب الشريف أبي الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي (ت٩٦٣هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط١ ، (١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م) ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الأوسط ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق طارق بن محمد وعبد المحسن الحسيني ، ط١ ، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) ، دار الحرمين ، القاهرة ، مصر .

ـ معجم البلدان ، للإمام الأديب المؤرخ الرحالة الجغرافي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ) ، طبع سنة (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م) لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ المعجم الكبير ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي السلفي ، ط٢ ، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م) ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر .

ـ معرفة الصحابة ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق عادل العزازي ، ط١ ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، دار الوطن ، الرياض ، السعودية .

ـ معيار العلم في فن المنطق ، للإمام المجدد حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط١ ، الإصدار الثاني ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار ، للإمام الفقيه المتفنن أبي محمد بن موسى بن أحمد العيني (ت٨٥٥هـ) ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، ط١ ، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ المغرب في ترتيب المعرب ، للإمام الفقيه اللغوي الأديب برهان الدين أبي الفتح ناصر بن عبد السيد الخوارزمي المُطَرِّزي (ت٦١٠هـ) ، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، ط١ ، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) ، دار أسامة بن زيد ، حلب ، سورية .

ـ المغني في ضبط أسماء الرجال ومعرفة كنى الرواة وألقابهم وأنسابهم ، للعلامة المحدث الشيخ محمد طاهر بن علي الفتني (ت٩٨٦هـ) ، طبع سنة (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، للإمام النحوي جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، تحقيق صلاح السيد ، ط٢ ، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، للعلامة المؤرخ أحمد بن مصطفىٰ

طاش كبرىٰ زاده (ت٩٦٨هـ) ، ط١ ، (١٤٠٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** ، للإمام الفقيه المحدث أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم **القرطبي** الأنصاري (ت٦٥٦هـ) ، تحقيق محيي الدين مستو وآخرين ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ، دار ابن كثير ، دمشق سورية ، بيروت ، لبنان ، ودار الكلم الطيب ، دمشق ، سورية . بيروت ، لبنان .

- **مفيد العلوم ومبيد الغموم** ، للقاضي المتفنن زكريا بن محمد **القزويني** (ت٦٨٢هـ) ، تحقيق محمد عطا ، ط١ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة** ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمـٰن **السخاوي** (ت٩٠٢هـ) ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، ط١ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** ، لإمام أهل السنة والجماعة أبي الحسن علي بن إسماعيل ابن أبي بردة بن أبي موسى **الأشعري** البصري (ت٣٢٤هـ) ، تحقيق هلموت ريتر ، ط٣ ، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) ، دار فرانتس شتاينر ، ڤيسبادن ، ألمانيا .

- **مقالات الكوثري** ، للعلامة المحقق محمد زاهد بن الحسن بن علي **الكوثري** (ت١٣٧١هـ) ، ط٢ ، (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

- **المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ** ، للإمام المجدد حجة الإسلام الفقيه الأصولي المتكلم أبي حامد محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، بإشراف اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط١ ، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- **مناقب الشافعي** ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط١ ، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، للإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمـٰن بن علي **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق محمد عطا ومصطفىٰ عطا ، ط١ ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الموطأ ، لإمام دار الهجرة المجتهد أبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت١٧٩هـ) ، (رواية يحيى بن يحيى الليثي) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، طبع سنة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م) لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ النبراس شرح شرح العقائد النسفية ، لإمام المعقول محمد عبد العزيز بن أحمد الفرهاري ، طبع سنة (١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م) ، لدىٰ مكتبة الأستانة ، إستنبول ، تركيا .

ـ النجم الوهاج في شرح المنهاج ، للإمام الفقيه الأديب المتفنن كمال الدين أبي البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدميري (ت٨٠٨هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط١ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، للإمام المؤرخ جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله المصري (ت٨٧٤هـ) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، لدى المؤسسة المصرية العامة ، سنة (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م) ، القاهرة ، مصر .

ـ النشر في القراءات العشر ، لإمام القراء وحجة المقرئين شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن يوسف المعروف بـ : ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) ، تحقيق أيمن رشدي سويد ، ط٢ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار الغوثاني للدراسات القرآنية ، دمشق ، سورية .

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للإمام الأديب المؤرخ المتفنن أبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ النفس والروح وشرح قواهما ، للإمام المجدد المتكلم المفسر الأصولي فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق محمد صغير المعصومي ، مطبوعات معهد الأبحاث الإسلامية ، إسلام آباد ، باكستان .

ـ نكت الإرشاد ، لإمام المحققين أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المالكي (ت٦١٦هـ) ، نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مصر ، ذات الرقم (٦) كلام .

ـ النكت والعيون ، للإمام القاضي الفقيه المفسر أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البغدادي

(ت٤٥٠هـ) ، تحقيق السيد بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ نهاية المطلب في دراية المذهب ، للإمام الفقيه الأصولي المتكلم إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت٤٧٨هـ) ، تحقيق عبد العظيم الديب ، ط١ ، (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام اللغوي مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الشيباني الجزري (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود الطناحي والطاهر أحمد الزاوي ، (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ) ، تحقيق توفيق التكلة ، ط١ ، (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م) ، دار النوادر ، دمشق ، سورية .

ـ الوسيط في المذهب ، للإمام الفقيه الأصولي المتكلم حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، ومعه شرحه « التنقيح » للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، تحقيق أحمد محمود إبراهيم ومحمد محمد تامر ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، للإمام القاضي المؤرخ الأديب أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان الإربلي (ت٦٨١هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .



محتوى الكتاب



كتاب
الأمد الأقصى

كتاب
جهاد النفس

كتاب
حكم أصل الخلق

كتاب

أقسام الناس في الدين ٣٨٩





